الجمهـــورية الجزائـــريـــة الديمقـــراطيـــة الشعبيـــة
وزارة التعليـــم العـــالي والبحث العلمـــي
جـــامعة منتـــوري - قسنطينـــة
كليـــة الآداب واللغـــات

رقـــم الترتيب :
السلسلـــة :

قســـم اللغـــة العربيـــة وآدابهـــا
أطروحـــة دكتـــوراه دولـــة في الأدب العـــربي الحـــديث

الحبسيات في الشعر العربي

- تحت إشراف الأستاذ الدكتور لخضر عيكوس.
- بحث مقدم من الطالبة : سكينـــة قـــدور.

لجنـــة المنـــاقشة :

1 - .....
2 - .....
3 - .....
4 - .....
5 - .....

السنـــة الجامعية 2006 - 2007 نوقشت يـــوم.....

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

X Z

Ω

بسم الله الرحمن

E Θ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإهـــداء

- إلى أبـي أوّلا وأخيرا ودائـمـا.
- جنـــــاح شـــــكر وعرفـان أخفضـــه بـــين يـديـه

ومـا أظنـني وفـيـتـه حقـه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

X Z

المقدمة

E Θ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن العلاقة بين الشعر والسياسة علاقة معقدة ومتشابكة وحتمية أيضا، إذ تمتد السياسة لتشمل كل قضايا الإنسان وتتحكم في احتياجاته وتوجه اهتماماته، ويتوغل الشعر ويرتبط بحياة الإنسان في أدق تفاصيلها يصورها ويكشف خفاياها وينتقد مساوئها ويقدم لها ما يراه من حلول قد تعصف بصناعها من رجال السياسة إن نجح الشاعر في تعبئة المجتمع وتبصرته بما حوله من سقطات، أو تعصف بالشاعر نفسه إن أخفق في إيصال فكرته فتنتهي به في أخف الأحوال إلى السجن ولكن هل يمكن للسجن أن يسكت صوت الشاعر وهو الذي أراده اختيارا، ولو شاء لسكت وكفى نفسه شرور السجن وتبعاته.

إنه الإيمان برسالية الكلمة، برسالة الأديب، بالوطن، بالحرية، بكرامة الإنسان الذي يجعل الشاعر يستقبل ذلك المصير الشائك ويهبه القدرة على تحدي سجانه وجلاده ليس بالصبر فحسب وإنّما بمواصلة درب الحرف والكتابة من عمق الزنازين من قعر المسالخ الدولية، من فوق طاولات التشريح، من غرف التجميد ومن الأيام والليالي المتواصلة الظلام، بنحت أشعاره وأفكاره في الذاكرة أيامًا حتى يجود السجان بخيط من ضوء مخنوق، وبحفر بعضها الآخر بالأظافر على جدران الزنزانة، بخطها فوق كل ما يمكنه أن يحمل حرفا وبكل ما يمكنه أن يخط حرفًا إذا منعت عنه الأقلام والأوراق، ثم بتهريبها بطرق عجيبة وصلت ببعضهم إلى تكوين عصابات لتهريب كل ما تخطه يد سجين مثقف لتؤدي رسالتها في المجتمع والشاعر راسف في الأغلال.

تلك القصائد التي نبتت في ظل ظروف خاصة وارتبطت بتجربة شديدة الخصوصية هي تجربة الحبس بكل ما تحمله من دلالات المنع والقمع والحصار والتقييد والتعذيب، تلك القصائد المهربة من وراء القبضان، وتلك النصوص الناجية من مقص الرقيب ومن المصادرات المختلفة هي موضوع هذه الدراسة.

وقد أردت أن يكون للبيئتين العباسية والأندلسية حظ من هذه الدراسة، إلا أنني وبعد قراءات جادة واتصالات ببعض الأساتذة والباحثين عثرت على أكثر من رسالة جامعية تغطيهما.

ولتمسكي دائما بأثر الحبس في العملية الإبداعية وجدتني أنصرف إلى الشعر العربي الحديث وتستمر رحلة جمعي حبسياته عقدا من الزمن، ولا أظنها قد اكتملت، فإلى آخر لحظة من لحظات طبع هذا البحث كنت أضطر إلى إضافة قطعة شعرية جديدة أو نص جديد يصلني من شاعر جديد أو باحث أضيفه إلى قائمة الشعراء. وانتهيت إلى إرجاء مجموعة من القصائد لشعراء عراقيين عاشوا تجربة السجن الصدامية إلى دراسات لاحقة. وربما أرجعت سبب طول هذه المدة التي قضيتها في ملاحقة تلك النصوص الموزعة عبر دواوين الشعراء التي لم يُعد طبع أغلبها وبعض الدراسات والمجلات إلى طبيعة هذا الموضوع الحساس المحاط بهالة من الحذر والحيطة والغموض والخوف، شاركت كل الأطراف في صناعتها، بدءا بالشاعر الذي كثيرا ما يحاول تجاوز تلك المرحلة من عمره فلا يفكر في العودة إليها أو إعادة طبع نتاجها أو حتى الحديث عنها، ثم المحيط الذي يتجنبها ويخشى الإشارة إليها بل وقد امتد ذلك الحذر إلى الباحثين والأساتذة الجامعيين والمؤسسات الثقافية لكثير من البلاد العربية، حتى أن أحد الأساتذة الجامعيين عاتبني على اختيار هذا الموضوع وتجشم مخاطره كوني

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

-بنتًا كما قال لي- والبنت والسياسة لا يلتقيان، فما بالك بموضوع ينبش في عمق علاقة طائفة مشاكسة من الشعراء ترفض الصمت عن قول الحقيقة وتأبى الاستسلام وتعاف التدجين في صفوف القطيع المهادن، وتدفع مقابل ذلك التشبث بالموقف وذلك الإصرار العجيب على طلب الحرية والعيش الكريم ضريبة غالية قد تتجاوزها إلى كل أفراد أسرتها وقد تبلغ بذل المهج.

والحقيقة أن مشكلتي لم تكن ندرة النص الشعري أو قلته وإنما كانت سبل الوصول إليه هي المشكلة أمام ذلك الحذر والخيفة والتوجس الذي جعل كثيرا من الباحثين عبر جامعات الوطن العربي التي قصدتها يتحاشون الحديث إلي بمجرد معرفتهم عنوان البحث وطبيعته، والذي دفع ببعض المكتبات العربية إلى وضع بعض الدواوين والسير الذاتية والمؤلفات على توفرها تحت خانة "الممنوع" وما يتطلبه الحصول عليه[1] من إجراءات إدارية صارمة، لولا إيماني بحاجة البحث العلمي إلى مثل هذه المغامرات ما عرضت نفسي لها، كل ذلك التضييق الذي لا يقل عن معاناة الشعراء أنفسهم زادني تمسكا بالموضوع وحرصا على الطلب وإصرار على طرق كل الأبواب التي يمكن أن توصل إلى بصيص نور، أو ترشد إلى نافذة لقراءة واستنطاق تلك النصوص.

فالبحث العلمي لا يعرف شيئا ممنوعًا، والدراسة الأدبية والنقد لا يعرفان نصا حذرا أو نصا ملغما أو غير صالح للقراءة والتحليل.

ولعل صبر أستاذي المشرف كان من أكبر المشجعات على استمراري فيه إذ لم يطلب مني الكف عن السعي وراء النصوص الشعرية ولا اقتضاب البحث أو بتره بل أعطاني -مشكورا- فضاء واسعا من الحرية هو الذي أتاح لي إدراك هذا الكم الهائل من الأشعار ومتابعته بالدراسة المتأنية. ومما زادني تمسكا بالموضوع أن هذا الضرب من الأدب الغاضب المنتقد لم يلق من الاهتمام والدراسة ما يرقى إلى انشغالات أصحابه وإلى ما حظيت به الكتابات المحايدة والمسالمة من اهتمام النقاد والدارسين.

وقد أسميت هذه الأشعار المنبثقة من رحم الموت ومن قعر الزنازين "بالحبسيات" لأسباب عدة، منها أن لفظ الحبس أخف وقعا على النفس من السجن الذي ارتبط في المخيال العام بالجريمة الجنائية التي يعاقب عليها القانون الحديث بالسجن، فبعد متابعة متأنية لحياة أولئك الشعراء وقراءات مختلفة لنصوصهم الشعرية لما وقع بين يدي من دراسات حولهم، لاحظت أن جل الشعراء تنطبق عليهم عقوبة الحبس لا السجن، إذ دخلوه لمواقفهم السياسية التي أبدوها سواء بنص شعري أو انتماء حزبي معين أو مقال أو رأي أبدوه علنا، فهم في الأغلب من صفوف المعارضة السياسية الرافضة في البدء للمستعمر الأجنبي وسياسته، والرافضة بعد ذلك لبعض أذنابه ولبعض السياسات المتسلطة الخانقة للحريات.

و لم أجد من الشعراء من استحق عقوبة السجن إلاّ اثنين هما الشاعر المصري عبد الحميد الديب الذي

---

[1] - هذه الكتب للقراءة فقط فتصويرها ممنوع منعا باتا، وذلك كلفني حل فترات التربص القصيرة التي لا يتجاوز أطولها العشرين يوما.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دخله بسبب الإدمان على المخدرات والشاعر حسين مردان الذي دخله بسبب شعره الفاضح المتـــهتك وإن سجلت بعض التحفظات حول هذا السبب الظاهر الذي تختفي وراءه أسباب سياسية هي التمرد على السلطة العراقية آنذاك.

أما باقي الشعراء الذين تجاوز عددهم في هذه الدراسة المائة والعشرين شاعرا فحبسوا لمواقفهم السياسية المعارضة التي كانوا يبدونها في أشكال شتى.

كما كان لطبيعة المكان صلته بالتسمية، فقد تخلقت جل النصوص في المعتقلات والمحتشدات التي كانت تتيح لمقيميها جوا من الحياة الجماعية يعينهم على تجاوز كآبه الحبس وجدرانه العالية، وقوانينه وجلاديه، وهي أجواء قريبة من عقوبة الحبس المعروفة عند رجال القانون بالاعتقال السياسي برغم ما كانت تعرفه من تجاوز السجان والجلاد في معاملة هذه الشريحة المثقفة من المجتمع العربي وقليلون هم الشعراء الذين وضعوا في زنازين فردية[1] بعيدا عن تلك الأجواء.

توزعت هذه الحبسيات موضوع الدراسة على مؤسستين قمعيتين، إحداهما سجون المستعمر الغاشـــم الذي لم يسلم من قبضته كل الوطن العربي، ولعل أعتاها -من خلال استقرائنا للنصوص الشعرية- ســـجون الكيان الصهيوني والاستعمار الإيطالي الفاشي في ليبيا والفرنسي في الجزائر. حتى رأى أحد المثقفين الفرنسيين أن النازيين الألمان بأساليبهم كانوا مجرد أطفال صغار أمام آلة البطش الفرنسية[2]. والثانية سجون بعض الأنظمة العربية التي يمثل أغلبها ميراث المرحلة الاستعمارية.

وليكون البحث أكثر تحديدا وأطوع للدراسة العلمية فقد قيدته بالقصائد التي نتجت عن تجربة حبس مر بها الشاعر وسجلها بين جدرانه، مسقطة بذلك ما كتبه الشعراء الذين مروا بالتجربة في مراحل لاحقة خارج السجن، كما أرجأت شعر المنافي والإقامات الجبرية[3] إلى دراسات أخرى مستقبلية لما كان يتيحـــه المنفـــى والإقامة الجبرية من فضاءات للحرية المحدودة ما لم يتوفر لشعرائنا، معتمدة في إثبات انتمائها إلى فضاء الحبس على الدواوين الشعرية التي حرص أصحابها على تدوين تواريخ النظم الأول، فإذا غاب التأريخ لجأت إلى سنة النشر القريبة من مرحلة السجن أو بعيدها إلى جانب قراءة مضامين القصائد ومحاولة استكناه أسرارها، كمـــا اعتمدت على المراجع التي تتحدث عن تجربة السجن ونتاجها عند بعض الشعراء.

وحددت البحث بالفترة الزمنية الممتدة بين 1900-1990، وهي مرحلة طويلة نسبيا تبدأ مع بدايات القرن وتنتهي عند العقد الأخير منه وهي الفترة السابقة لتسجيل هذه الأطروحة.

وقد توزعت نصوص هذه الدراسة على أقطار الوطن العربي، دون تحديد لعدد الشعراء أو القصائد فلكل

---

[1] - لم تصادفني في هذه الدراسة إلا حالة مفدي زكرياء الذي كان يعاقب من حين لآخر بعزله في زنزانة فردية.

[2] - جان بول سارتر - عارنا في الجزائر - ترجمة عايدة وسهيل إدريس - دار الآداب بيروت - طـــ2 - 1958 - 70.

[3] - من ذلك مثلا أشعار أحمد شوقي وولي الدين يكن وعلال الفاسي ومحمد العيد آل خليفة وآخرون..

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بلد ظروفه الثقافية والسياسية التي تصنع هذا الضرب من النظم بتفاوت ملحوظ سواء فيما تعلق بالشعراء أم بنتاجهم الشعري، وربما حجبت طبيعة الموضوع عني الكثير منها، والذي تبنيت رسالة تعقبه وجمعه -كلما أتيحت لي فرصة للسفر-.

فقد لا نجد لشاعر عانى من ظلمة السجن وظلمه أعواما إلاّ قصيدة أو قطعة، بل قد يخرس السجن لسانه فلا يذكر شيئا عن معاناته هناك حتى إذا غادره انطلق إلى عوالم الفرح وإبداعاتها، ناسيا أو متناسيا آلام الماضي، وإن ذكرها فلا تعني إحياء ما فات من آلام وإنما هي مجرد ذكرى عابرة، كما حدث للشاعر بدوي الجبل الذي صدمه مشهد السجن ولما يكمل العشرين من عمره فأسكته و لم يكتب عن تلك التجربة الفاجعة إلاّ بعد مضي زمن طويل.

ولتشعب الموضوع بين الفكري والسياسي والنفسي والفني فقد وجدتني أحتاج إلى مناهج مختلفة في محاولة الإحاطة بجوانبه، منها التاريخي والوصفي في قراءة حياة الشعراء ونضالاتهم والحديث عن تجربة الحبس عبر العصور. ومنها النفسي في محاولة لمتابعة أثر الحبس في العملية الإبداعية، كما اعتمدت المنهج الاستقرائي التحليلي في محاولة قراءة النصوص الشعرية موضوع الدراسة وتحليلها أمام شح الدراسات حولها. وأفدت من المناهج النقدية المختلفة في دراسة جوانبها الفنية لغة وإيقاعا وصورة.

وكان لذلك التشعب أثره في تنوع مراجع الدراسة بين التاريخي والقانوني والفكري والشرعي والنفسي والأدبي، مع ملاحظة قلة الدراسات حول أدب السجون واختصاصها بمراحل زمنية محددة، ولكنني أفدت منها على قلتها في ولوج عالم "حبسيات الشعر العربي الحديث"، وكان لها الفضل في إنارة دروب البحث، منها المطبوع ومنها المخطوط، أهمها :

- السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي[1]. لـ "واضح الصمد.
- الأسر والسجن في شعر العرب. لأحمد مختار البرزة تاريخ ودراسة، سجلت في شعر الأسر في إحدى جامعات لبنان، ونظرا لأحداث البلد نقل إلى جامعة البنجاب بلاهور ونوقش هناك، ثم طبعته مؤسسة علوم القرآن.
- شعر الأسر في العصر العباسي - محمد بلاجي، أطروحة دكتوراه في جزأين، نوقشت بجامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بالدار البيضاء عام 1990-1991.
- الشعر من وراء القبضان - اتجاهاته وخصائصه في ظل الدولة العباسية- أطروحة دكتوراه شفيق عبد الرازق محمد السعيد أبو سعده، نوقشت بكلية اللغة العربية بجامعة القاهرة عام 1977-1978.

[1] - قد تكون أطروحته للدكتوراه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- شعر الأسر والسجن في الأندلس، جمع وتوثيق ودراسة، أطروحة دكتوراه لـــ : بسيم عبد العظيم عبد القادر إبراهيم، نوقشت عام 1995 بقسم اللغة العربية، جامعة عين شمس وطبعت للمرة الثانية بمكتبة الخانجي عام 1995 بالقاهرة.

وقد اختصت هذه الرسائل الجامعية بشعر الأسر والسجن من العصر الجاهلي إلى القرن الثامن الهجري ألقت كلها الضوء على هذه التجربة الشعرية في تلك المرحلة .

وهناك دراستان حاولتا الجمع بين القديم والحديث هما :

- أدباء السجون لعبد العزيز الحلفي قدم فيه مادة تاريخية عن شعراء وكتاب مرّوا بتجربة السجن لا تكاد تتجاوز العرض المختصر لحياتهم ولبعض المقاطع من نتاجهم الأدبي، خصّ ما يزيد من ثلثي الكتاب للأدب القديم، و لم يتجاوز الحديث منه نتاج مطلع القرن العشرين.
- شعراء وراء القبضان لمؤلفه حسن نعيسه، وقد نحا فيه منحى سابقه و لم يكن حـــظ الحبســـيات الحديثة إلاّ أقل من ثلث الكتاب بما في ذلك الشعر العامي[1].

وهو بدوره مجرد عرض مختصر لحياة الشعراء ولمقاطع من شعرهم دون قراءة أو تحليل، بـــل إن هـــذا العرض الموجز لا يخلو من خلط[2].

أما الدراسات التي خصصت للنص الأدبي الحديث فمنها ما اختص بدراسة النتاج النثري مثل :

- أدب السجون لتريه أبو نضال، تناول في شطر منه الأعمال الروائية العربية نتاج القمـــع وأعقبـــها بنماذج روائية عالمية مماثلة، وفي شطره الآخر الشهادات والسير والاعترافات العربية والعالمية.
- حدود حرية التعبير، مارينا ستاغ، أطروحة حصلت بها الباحثة على درجة الدكتوراه عـــام 1993 من جامعة استوكهولم نشرت دار شرقيات ترجمتها إلى العربية عام 1995، وتتنـــاول بالدراســـة تجربة كتاب القصة والرواية في مصر في عهدي عبد الناصر والسادات وأغلبهم عانى من تضـــييق النظام ومرّ بتجربة السجن.
- سماح إدريس المثقف والسلطة - بحث في روايات التجربة الناصرية .

وعلى الرغم من تمحور هذه الدراسات حول النص النثري إلاّ أنني أفدت منها لا سيما ما تعلق بالبيئـــة السياسية العربية إذ لم تكن ظروف سجن الكتاب تختلف عن الظروف التي مرّ بهـــا شـــعراء الدراســـة وإن اختلفت لغة تعبيرهما.

---

[1] - أورد نماذج للشاعر المصري فؤاد نجم.

[2] - حسن نعيسه - شعراء وراء القبضان - 222. من ذلك مثلا أنّه نسب قصيدة "سمر في السجن" للشاعر سالم جبران مع أنها لصـــاحبها توفيق زياد.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومنها ما اختص بدراسة الشعر المصري مثل :

- أثر السجن والنفي في الشعر المصري الحديث في فتـــرة الاحـــتلال البريطـــاني (1882-1952) أطروحة ماجستير للباحث محمد محمد إبراهيم بظاظو- نوقشت بجامعة الأزهر، كلية اللغة العربيـــة بالقاهرة عام 1993.
- الشعر في سجون مصر من سنة 1882 إلى 1980، أطروحة دكتوراه للباحث محمد محمد محمـــود الغرباوي، نوقشت بجامعة الأزهر، كلية اللغة العربية بالزقازيق عام 1992.

وعلى الرغم من قوانين المكتبات المصرية التي لا تسمح بتصوير أكثر من 40 صفحة من الرسائل الجامعية عدا المقدمة والخاتمة والملاحق. فقد أفدت منها لا سيما ما جاء في ملحق هذه الأخيرة من نصوص شعرية تعذر علي إدراكها في مصادرها المتفرقة و بخاصة المجلات منها.

ومنها ما اختص بالشعر الجزائري مثل :

- شعر السجون والمعتقلات في الجزائر - (1954-1962)، أطروحة ماجستير للباحث محمد زغينة، نوقشت بمعهد الآداب، باتنة، 1989.
- أدب السجون والمنافي في الجزائر في فترة الاحتلال الفرنسي (1830-1962)، أطروحة دكتـــوراه للباحث يحي الشيخ صالح، نوقشت بمعهد اللغة والأدب العربي بجامعة الجزائر - عام 1993.

وقد وفرتا علي جهدا، ووقتا، حيث اقتبست منهما بعض النصوص الشعرية لشعراء جزائريين لم تنشـــر من قبل، كما رجعت إلى ما عرضتاه من نبذ تاريخية لعدد من الشعراء كانت ثمرة جهد ولقاءات مع الشعراء.

ومنها ما تعلق بدراسة الشعر العربي الحديث مثل :

- شعر السجون السياسي في النصف الأوّل من القرن العشرين، أطروحة دكتوراه للباحث عبد المعطي صالح عبد المعطي، نوقشت عام 1993 بجامعة عين شمس، قسم اللغة العربية.

و لم يتح لي -كسابقتيها من رسائل المكتبة المصرية- مجال للإطلاع عليها كاملة ولكنني سجلت علـــى امتداد زيارتين للقاهرة ما أمكن تسجيله من مادة شعرية.

والملاحظ أن جل هذه الدراسات تقتصر على شعراء بلد محدد وفترة زمنية محدودة. ولعل الدراسة الوافية الوحيدة التي ألمت بمادة شعرية غزيرة هي أطروحة دكتوراه سالم المعوش :

- شعر السجون في الأدب العربي الحديث والمعاصر، التي حصلت عليهـــا وأنـــا في آخـــر مراحـــل هذا البحث، ولكن ذلك لم يمنعني من العودة إليها ومحاولة الإفادة منها برغم الفروقات القائمة بين المنهجين، إذ لم يقيد الباحث لفظ "شعر السجون" فحوت الدراسة نصوصا لشعراء لم يمروا بتجربة الحبس و لم يجربوا مرارته وأخرى لمن كتبوا عن تجاربهم بعد خروجهم من السجن وثالثة لشعراء عاشوا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تجارب أخرى كالمنفى والإقامة الجبرية وهي على ما فيها من تضييق تختلف عن تجربة السجن، وقد أغفل الباحث عددا لا يستهان به من الشعراء [1] أصحاب الدواوين والقصائد المؤرخة غالبًا والمنسوبة إلى حصاد السجن. وهذه جميعا أمور تؤكد اختلاف الدراستين في تناولهم للجوانب المضمونية الفكرية.

هذا إلى جانب الاختلاف الجذري في الدراسة الفنية، فلكل باحث وجهة نظره وقراءته الخاصة للنص الأدبي وتقنيات دراسته، بل ويمكن للنص الواحد أن يقرأ قراءات شتى وبمناهج مختلفة.

وقد قسمت البحث إلى أربعة أبواب واثني عشرة فصلا، على النحو الآتي :

- الباب الأول : " جدلية الحبس والسلطان والإبداع".

خصصت الفصل الأوّل منه لدراسة تاريخية مهدت لها بتحديد مصطلح "الحبس" ومعانيه ومرادفاته المتداولة في المعاجم العربية والتي لا تخرج في جملتها عن معنى القهر والمنع والجبر، وفي الاستعمال القرآني.

ثم تتبعت سير هذه المؤسسة العقابية "مكانا وطقوسا وأنظمة" التي عرفها الإنسان القديم بأشكال مختلفة من المصريين القدامى إلى المجتمع البابلي والآشوري إلى الصينيين والفرس والروم إلى المجتمع العربي الإسلامي من صدر الإسلام الذي خفتت فيه لغة الحبس إلى الوجود العثماني في البلاد العربية، وقد ركزت في حديثي عن السجون العربية على نزلائها من الشعراء بصورة خاصة وحرصت على مقتطفات من شعرهم نتاج السجن.

وأشرت إلى السجن في العصور الوسطى المظلمة في أوروبا وما عرفه من عنف وقسوة بالغين جعلا المجتمع الدولي يثور ويتحرك للمطالبة بمراعاة الجانب الإنساني في السجون العقابية، ولم لا تحويلها إلى مؤسسات تربوية تعيد إدماج الآثمين والمجرمين في المجتمع.

ولكن أسيل حبر كثير وسنت قوانين كثيرة وظل السجن الحديث كابوسًا مخيفا بعذابه الجسدي وبعذاباته النفسية الحديثة وليدة تطوره العلمي واختراعاته الجديدة، وقد وقفت عند أشهر السجون العربية الحديثة وأشدها بطشا بزوارها من جزائرية وفلسطينية ولبنانية ومصرية وعراقية صنع أولاها المستعمر الفرنسي والمحتل الإسرائيلي وتبعتهما بعض الأنظمة العربية ونافستهما عبقرية القمع والاستبداد.

وخصصت الفصل الثاني منه "الإبداع بين الحبس والسلطان" لدراسة علاقة المثقف العربي بالسلطة عالما وفقيها وفيلسوفا وكاتبا وشاعرا التي كانت علاقة مواجهة وتصادم وريبة وتوجس غالبا، وقفت عند أشهر نقاط رفض المثقف وما جوبهت به من ردّ فعل سلطوي عنيف على امتدا التاريخ العربي الإسلامي، وإن تأرجح الشعراء القدامى بين المواجهة والمهادنة، وتقلبوا في أبواب التملق والتزلف والمديح الذي حوّل الشعر إلى سلعة

[1] - أمثال : محمد جميل شلش - علي الحلي - محمد بهجت الأثري - حسين مردان - مصطفى المهاجر - جواد جميل - عزيز فهمي - كمال عبد الحليم - جمال فوزي - معين بسيسو - فايز أبو شمالة - أحمد سحنون - محمد الشوكي - أحمد عروة - عبد الرحمن العقون - حسين الجزيري - محمد الشاذلي خزنه دار - محمد الحلوي - وغيرهم...

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تباع بالسعر، فإن الشاعر العربي الحديث والمعاصر وقف في الجهة المعاكسة الرافضة وساند القضـــايا العادلـــة وانخرط في صفوف النضال وكلفه ذلك غاليا دون أن يثنيه عن مواقفه ويكفه عن نضالاته الفعلية والقولية.

أما الفصل الثاني فتناولت فيه دواعي الإبداع الأدبي وأفضل أوقاته عند النقاد القدامي والمحدثين ومنزلـــة الحبس بينهما، فقد اتفقوا على أهمية الخلوة التي ربما حققها الحبس لبعض نزلائه، وعليه يمكن اعتباره داعيا من دواعي الإبداع الشعري فهو على الرغم مما يتردد فيه من جلبة وضجيج نوبات العذاب والعودة من المحاكم وما يتبعها من تكبيرات وتهليلات بالأحكام الجائرة وزغاريد وأناشيد ترافق المحكوم عليهم بالإعدام إلى المقاصـــل، يبقى فضاء للصمت الرهيب المطبق الذي تفرضه قوانينه ونظمه الداخلية، وما الصخب والأنين والصراخ إلاّ حالات عارضة وفترات قصيرة في عمر صمته وموته الذين تحداهما الشعراء بولادات القصائد.

وخصصت الفصل الثالث لعرض حصاد الشعراء موضوع الدراسة من تجربـــة الحـــبس، في قســـمين، تتقدمها لمحة عن معاناة السجين المثقف من قوانين حظر الأقلام والأوراق وصراعه معها وتحدية لها. ثم عرضت لحصاد الشعراء الذين حرصوا على التأريخ لقصائدهم، وحاولت استقراء ما أغفل آخرون التأريخ له باعتمـــاد سنوات الدواوين وملاحظات الدارسين واجتهاد في قراءة النصوص الشعرية.

- وجعلت البابين الثاني والثالث لقراءة وتحليل مضامين شعر الحبسيات وتنظيمها في مباحث متقاربة. كان الباب الأوّل منها للموضوعات السياسية لما للسياسة من أثر في ميلاد هذه النصوص.

تناول الفصل الأوّل القضايا الوطنية والسياسية التي احتلت بؤرة اهتمام الشعراء في مقدمتها قضية الحرية وحب الوطن التي تغنى بها الشعراء وضحوا في سبيلها بكل غالٍ وقد قرب النضال في سبيل الأوطان الشـــعراء من أبنا شعبهم وقضاياهم فعبروا عن قضاياهم وانشغالاتهم وشاركوهم أفراحهم وأعيادهم ومآســـيهم دون أن ينفصلوا عن قضايا الأمة العربية والإسلامية وقضايا الإنسان العادلة عبر العالم.

فكانوا يرسلون من قعر الزنازين حبال تواصلهم مع المظلومين أنى كـــانوا ، ولعـــل معانـــاة الشـــعب الفلسطيني والثورات التحريرية عبر العالم كانت أهم شغل الشعراء آنذاك مثل الثورة المصرية والثورات العراقية المتتالية وثورة التحرير الجزائرية وكفاح عمال العالم وحركات الزنوج التحررية عبر العالم. فلا الجـــدران ولا السجان ولا زبانية العذاب استطاعت الوقوف في وجه ذلك التواصل الجميل، ولا أجهزة العـــذاب وفنونـــه استطاعت هدم تلك الجسور المتينة التي ما فتئ شعراء الحبسيات يمدونها إلى أبناء شعبهم وإلى كل أحرار العالم.

وتناول الفصل الثاني صورة السلطان في الحبسيات، لأنّ القمع والطغيان صارا السمة البـــارزة لكـــل الحكومات المتعاقبة على العالم العربي، عثمانية وأجنبية وعربية، ولأنّ السلطان كان وراء كل مآسي المشعوب العربية، فهو صانعها ومهندس محنها وانكساراتها الداخلية وانهزاماتها الخارجية فقد كان له حضوره في قصيدة الحبس قويا، وجاءت صوره كالحة مظلمة ألبسها الشعراء أقنعة أعتى عتاة التاريخ البشرى من فراعنة وشاهات وقياصرة وتتر وغزاة وأشرس الحيوانات المفترسة، انتقدوا مظالمهم الظاهرة وكشفوا الخفي منها وفضحوا مـــا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ترتب عنها من قهر وفقر وتشرد وجوع وتخلف وخيانة، وعرجوا على صور أذنابها التي لا تقل عنها استبدادا وطغيانا.

أما الفصل الثالث فتناول محاولة الشعراء محاورة هذه الشريحة من المجتمع بما يناسبها من لغة كان أولها بالحجة الدامغة والبرهان القاطع، ولأنها تصم آذانها دائما كانت لغة التهديد والوعيد ثم التصعيد إلى لغة أقوى، هي دعوة المجتمع إلى الثورة عليهم، وإذا عجز الشعراء أمام تشبث أولئك بالبقاء وأمام عبقريتهم في الاستبداد لجأوا إلى الدعاء والرجاء حلاً أخيرًا.

- وكان الباب الثالث للموضوعات الذاتية اللصيقة بحياة الشاعر السجين من الداخل، فإذا استجاب الشعراء لنداء الوطن والواجب والتزموا بالنضال في سبيله فإن ذلك لا يعني إهمالهم لمعاناتهم الشخصية وتجاربهم الذاتية لأن الشعر فن ذاتي أولا.

خصصت الفصل الأوّل منه لما جاء في الحبسيات عن السجن من الداخل، فقد كانت مرآة كاشفة لهذه التجربة المريرة، رصد الشعراء لحظة المباغتة ومفاجآت الزوار الذين يخافون النور فلا يطرقونهم إلا ليلا أو فجرا، وتتبعوا الطريق الطويل والشاق والمجهول إليه، وصفوا أقبية السجن، جحوره، قبوره، جدرانه، نوافذه المخنوقة بأسلاك الحديد أنواره المختنقة، ظلامه، حشراته، طعامه وشرابه، ليله ونهاره.. قوانينه وطقوسه، نظامه وممنوعاته، وعبروا عن صراعهم مع كل ذلك وتطلعهم إلى العالم الخارجي.

وانتقلت في الفصل الثاني إلى الطرف الآخر الحساس في معادلة السجن وعلاقته بالشاعر ألا وهو السجان الذي يعتبر العذاب أولى هباته، فعرضت صورا من فنون العذاب وأساليب مصادرة الأجساد - أعقبتها كما نقلها الشعراء- بصورة السجان والجلاد والمخبر والرقيب ومن شاكلهم ثم بردّ فعل الشاعر عليهم والذي لن يكون إلاّ صبرا ورفضا وتحديًا، أو فخرا واعتزازا بهذا السجن الذي كان ضريبة لإيمان بقضية وثبات على موقف، وختمت بضرب آخر من التحدي ورد الفعل القولي، هو زاد الشاعر وملاذه وسلاحه، إنّه التحدي بالقصيدة، أين يصبح القلم نابا يكشر به والقصيدة سيفا يشهره في وجوههم ويقلق به راحتهم ويغيظهم "والقول ينفذ مالا تنفذ الإبر" وجواز سفر به ينفلت من قضبانهم إلى فضاءات الحياة الحرة.

وقد حاول الشعراء نسيان أو تجاهل رتابة الحبس وضيقه وتضييقه بصناعة عوالم أخرى تجاوزوا بها الجدر والحواجز والحراس والقيود والقوانين. منها تواصلهم بالأهل والأحباب ومنها صناعتهم مع الرفاق حياة جديدة داخل السجن وتحولهم به إلى نادٍ أدبي، وفكري وفني وإلى مدارس علمية بل جامعات في بعض الأحيان.

فإذا عجزت كل هذه الأجواء عن تخفيف ثقل السجن لجأ الشاعر إلى ملاذات أخرى، نحو ملاذ الإيمان وأبعاده الروحية السامية وملاذ الطبيعة وملاذ الحلم المجنح أو الأمل في الغد المشرق.

- أما الباب الرابع "شعرية الحبسيات" فكان للدراسة الفنية لشعر الحبسيات، مهدت له بمدخل "الحبسية بين والموضوعية الفنية " بينت فيه ضرورة التزام الأديب بقضايا مجتمعة وأمته والمشاركة في معالجتها بما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أوتيه من أدوات كشفا وانتقادا وتوجيها، وإن انزلق هذا الحرص ببعض الشعراء إلى المجازفة بالفني في سبيل الفكري والثوري فكثيرون هم الذين وفقوا في الجمع بين البعدين الفكري والفني، أو بين المنفعة والمسرة -كما قال أفلاطون، فكانت نصوصهم محور هذه الدراسة الفنية.

تناولت في الفصل الأول منها المعجم الشعري الذي تجاوب مع تجربة الحبس بشقيها المؤلم المتمثل في كآبة الحبس وظلمه وظلمته والمشرق المتمثل في ردّ الشاعر عليه بحقول دلالية متقاربة أولها حقل الثورة والتحدي الذي استعار له الشعراء من مظاهر الطبيعة الكثير، وحقل الخراب والفراغ والسكون القاتل الذي لا تمثل تجربة الحبس في الداخل إلاّ صورة مصغرة لخراب كبير صنعه الاستبداد.

وكان انتصار الشعراء دائما للحقول الإيجابية ممثلة في قاموس الأمل المشرق، فمقابل ذلك الزخم من ألفاظ الدمار والخراب وتفريعاتها تمتد مساحة واسعة للأمل وتنظر الغد الجميل، جاءت في حقول دلالية موحية بالفرح والتفاؤل منها ذلك المعجم الضوئي العجيب الذي استعاره الشعراء، وحقل الميلاد والانبعاث وما يحملانه من دلالات الفرح والجمال ويمضي الشعراء في ردّ فعلهم إلى مرتبة أعلى وأعتى وإلى حقل دلالي أقل ما يمكن وصفه به أنّه انتهاك للغة، فكأن الشعراء يردّون على انتهاكات الأنظمة بانتهاكات لغوية تعادلها وربما تفوقها.

وختمت الفصل بالتفاتة خفيفة إلى ظاهرة التناص عند بعض الشعراء التي نظرت إليها من زاوية لغوية.

وجعلت الفصل الثاني لدراسة الصورة الإيقاعية للحبسيات، تناولت فيها الحضور الإيقاعي للأوزان الشعرية وتابعت بعض الظواهر الإيقاعية مثل ظاهرة التداخل العروضي وحاولت ربط بعضها بتجربة الحبس مثل ظاهرة التقييد التي جاءت في صور مختلفة نحو إسكات حرف الروي أو الترفيل أو التذييل أو كبح التاء المربوطة والانتقال بها إلى هاء سكت مختنقة تعبيرا عن حال من أحوال الإسكات التي يعيشونها، ووجدهم أحيانا يرفضون حتى هذا الصوت المسكت المقيد، مفضلين البياض لغة تكمل صور الرفض الكثيرة التي عودنا عليها الشعراء، وقريب منها ظاهرة البتر الإيقاعي التي تمثل نوعا آخر من أنواع الصمت الأقوى والأبلغ من البوح. وكما ردّ الشعراء على الانتهاك المادي بانتهاك لغوي، فقد ردّوا على الإرهاق والتعب الذي يعانونه بإرهاق الآخر ولو صوتيا بظاهرة التدوير عروضيا أو سياقيا، وكذلك كان لظاهرة التكرار دورها في صناعة خصوصية الحبسيات لما تحمله من دلالات الاضطراب أو الانفعال الشديد أو الرغبة في التوكيد أو الرفض والاحتجاج.

ليكون الفصل الثالث للصورة الشعرية التي ارتكز الشعراء في بنائها على الموروث الإنساني والعربي الذي اختفوا خلفه واحتموا به لأسباب سياسية كشفوا عنها في تصريحاتهم، وأدى إلى جانب ذلك وظيفته الفنية بإخراج الحبسيات من التقريرية والمباشرة التي طغت على جل نتاج النصف الأول من القرن العشرين إلى الرمز والإشارة والإيحاء.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في مقدمتها الموروث التاريخي بكل روافده قديما وحديثا، عربيا وإسلاميا وأعجميا والموروث الديني بمصادره القرآنية والإنجيلية والتوراتية والموروث الشعبي بحكاياته وسيره وبطولاته والموروث الأسطوري بخوارقه وأبطاله الأسطوريين.

وقد تكاملت مصادر الموروث في رسم صورة واضحة لظروف العصر واضطراباته ومعاناة الشعراء والشعوب تحت وطأتها، وأضفت على الحبسيات جوانب جمالية مميزة.

وختمت البحث بعرض موجز لأهم نتائج الدراسة وملحق للتعريف بأبرز شعرائها الذين اكتملت عندي مادتهم العلمية .

وفي ختام هذا البحث أحمد الله تعالى وأشكره على جزيل نعمه.

ولا سيعني إلاّ أن أتقدم بالشكر الجزيل لأستاذي المشرف الدكتور لخضر عيكوس على رعايته هذا البحث وتعهده وصبره على ظروفي الأسرية التي كانت تأخذ من وقت البحث وتطيل عمره.

وإني لأشكر كل أفراد أسرتي على صبرهم أيضا على هذا المنافس العجيب الذي كان يأخذني من بين أيديهم وهم في مسيس الحاجة إلي وعلى مساعداتهم الظاهرة والخفية.

شكرا لكل من ساعدني على إنجاز هذا البحث أقاربا وأصدقاء وأساتذة وطلاّبا وأمناء مكتبات وموظفين، وكل من أمدني ولو بكلمة طيبة.

وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

X Z

* الباب الأول *

جدلية الحبس والسلطان والإبداع

- الفصل الأول : الحبس دراسة تاريخية
- الفصل الثاني : جدلية الإبداع بين الحبس والسلطان.
- الفصل الثالث : حصاد الشعراء من تجربة الحبس.

E Θ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

X Z

* الفصــل الأول *

الحبس دراسة تاريخية

- تحديــد مصطلح الحبس ومرادفاته.
- الحبس في العصــور القديمــة.
- الحبس في العصــر الحديث.

E Θ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- تحديد مصطلح الحبس .

إذا كان الأمر قد انتهى بنا إلى اختيار كلمة الحبس للأسباب المذكورة آنفا، ومنه إلى تسمية النتاج الأدبي الذي انبثق عن تلك التجربة بالحبسيات، فإننا لا نستطيع غض الطرف عن سائر المصطلحات الأخرى المرادفة لكلمة "حبس" والمتقاطعة معها، ذلك أن الشعراء الذين مروا بتجربة الحبس قد تفننوا في استعمال كل المشتقات الممكنة وربما اخترعت مواهبهم تسميات أخرى جديدة لم تكن تعرف وجودا، في سبيل إيصال تجاربهم إلى القارئ، ومن أجل التنفيس بعض الشيء من وطأة معاناتهم. وهو الأمر الذي يتطلب منا عودة إلى المعاجم والقواميس لتحديد كل تلك المشتركات اللفظية لمعنى واحد هو الحبس؛ من أسر وسجن وعقل وقصر وأزل وصفق وحبس...وإن تفاوتت دلالاتها أو تقاربت، ولعلّ أقوى هذه المصطلحات وأكثرها ترددا في المعاجم العربية وعلى ألسن الشعراء والعلماء والدارسين بل والعامة أيضا مصطلح "الحبس والسجن والأسر". وهي التي سنخصّها بوقفة نحدد فيها معانيها ودلالاتها المختلفة، مع الإشارة إلى سائر المرادفات والمقاربات الأخرى.

- في المعاجم والقواميس[1] :

- الحبـــس :

وردت مادة "ح.ب.س" بمشتقاتها المختلفة واستعمالاتها ذات الدلالات المتعددة والمتقاربة في آن "يقال حبسته حبسا، والحُبس ما وُقِفَ، يقال أحبست فرسًا في سبيل الله[2]، "الحبس: المنع والإمساك، وهو ضدّ التخلية.. قال سيبويه : المحبِس.. الموضع الذي يُحبس فيه،.. وقال الليث: المحبسُ يكون سجنًا[3].. وهو "ضدّ

---

[1] - تم الرجوع إلى جلّ المعاجم العربية المعروفة في تحديد دلالات الألفاظ وهي :
- ابن فارس - مجمل اللغة - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط2 - 1976.
- " " - مقايس اللغة - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط3 - 1981.
- الزبيدي - تاج العروس - دار الفكر - بيروت - 1994.
- الفيروزآبادي – المحيط - دار الكتاب العربي - بيروت - 1983.
- الجوهري - تاج اللغة وصحاح العربية – دار الكتب العلمية - بيروت - 1999.
- ابن سيده - المحكم والمحيط الأعظم - القاهرة - د.ن - 1957.
- " " - المخصص - دار الفكر - بيروت - 1978.
- الرازي - مختار الصحاح - دار الفكر - بيروت - 1981.
- ابن منظور- لسان العرب - دار صادر بيروت - ط1 - 1997.
- الفراهيدي –كتاب العين - تحقيق مهدي المخزومي - مؤسسة دار الهجرة - إيران - ط2 - 1409.
- الزمخشري – أساس البلاغة - تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا - دار المعرفة - بيروت - 1982.

[2] - ابن فارس – مقايس اللغة - "حبس".

[3] - الزبيدي – تاج العروس - "حبس".

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التخلية"[1] والمحبس يكون سجنا ويكون فعلا كالحبس[2]، وقولهم "اللّص في الحبس والمحبِسِ، واللصوص في المحابِسِ"[3]، فقد اتفقت كل المعاجم على أن الحبس هو المنع والإمساك وأنه ضدّ التخلية والإطلاق. وأن المَحبِسَ والمحبسة اسم المكان الذي يُحبس فيه وهو السجن، وأن المَحْبس هو المصدر، والحبيس السجين. أما الحُبُسُ فهو كل ما حُبِّسَ ووُقف في سبيل الله، والحِبْس كل ما سدّ به مجرى الوادي كي يشرب القوم ويسقوا مالهم.

ويبدو من خلال الدلالة اللغوية للحبس أنها لا تحمل أي معنى للتعذيب أو التنكيل وإنما تكتفي فقط بالمنع ولذلك يقول فيه ابن قيم الجوزية : "الحبس ليس هو الحبس في مكان ضيق وإنما هو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه حيث شاء، سواء كان في بيته أو في المسجد"[4]. فيكون من بعض معانيه ما يعرف اليوم بالإقامة الجبرية إلى جانب الإمساك في مكان معين يوضع فيه المحبوس لغايات عديدة كالتأديب والتعزير وكف الأذى عن الناس، وهو المعنى المعروف المرادف للحبس المتداول حاليا.

وليس ببعيد عن هذا المعنى ما ذهب إليه المشرع الحديث إذ جعله عقوبة أصلية مقررة "للجنح والمخالفات"[5] التي لا يزيد أدناها عن أربع وعشرين ساعة ولا يتجاوز أقصاها الثلاث سنوات[6]. ولا تترتب على الحكم بالحبس عقوبات تبعية كالتي تترتب عن السجن كالعمل مثلا، فيكلف به المسجون ويعفى منه المحبوس[7]، وإن خالفت الأنظمة قديما وحديثا هذه الدلالات اللغوية المحددة وتفنن القائمون على المحابس في صنوف المضايقات والتعذيب والتنكيل. وهو ما سنقف عليه لاحقا في دراستنا لبعض النصوص الشعرية.

- السجـــن :

جاءت مادة "س.ج.ن" في المعاجم العربية بمشتقاتها المختلفة واستعمالاتها ذات الدلالات المتعددة منها السِّجن الذي اقترن في جلها بكلمة "الحبس" وسائر مشتقاتها نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر "ســـجن وهو الحبس"[8] سجنه يسجنه سجنًا: حبســـه...يثبـــت المضـــروب محلّـــه ويحبســـه"[9] والسّـــجن بالكســـر المحبـــس"[10].

---

[1] - الجوهري – تاج اللغة وصحاح العربية 915/3 . والرازي – مختار الصحاح - "حبس".

[2] - ابن منظور – لسان العرب – "حبس".

[3] - الزمخشري –أساس البلاغة – "حبس".

[4] - مجلة العربي، السجون بين الأمس واليوم – جمال الدين محمد محمود -عدد 200 – 118.

[5] - الجنح والمخالفات هي التي يعاقب عليها بالحبس وأحيانا بغرامة مالية يقدرها الشارع وتختلف من بلد لآخر.

[6] - مأمون محمد سلامة – قانون العقوبات - القسم العام دار الفكر العربي- ط2 – 1990 – القاهرة – 647.

[7] - محمود نجيب حسني – شرح قانون العقوبات – القسم العام – النظرية العامة للجريمة والنظرية العامة للعقوبة والتدبير الاحترازي – دار النهضة العربية – القاهرة – ط5 – 705.

[8] - ابن فارس - مقاييس اللغة - "سجن".

[9] - الزبيدي - تاج العروس - "سجن".

[10] - الفيروز آبادي - القاموس المحيط - "سجن".

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السجن الحبس...وقد سجنه يسجنه أي حبسه"سجنه يسجنه سجنا" حبسه[1]...والسجن المحبس"[2] و" السجن الحبس"[3] والسجن البيت الذي يحبس فيه السجين"[4] وقليلة هي الإشارات إلى مواطن الاختلاف بينها والتي نستشف من خلالها تفريق الشارع بين عقوبتي الحبس والسجن لاختلاف طبيعة كل منهما حيث نجد كلمة "سجين" تدلّ على الضّرب الشديد وقيل هو الصلب الشديد من كل شيء ومنها زيادة الزمخشري في تعريفه مادة "ضرب سجين" : "يثبت المضروب محلّه ويحبسه"[5] وقد أضاف الزمخشري معنى مجازيا لهذه المعاني المتقاربة هو سَجْنُ الهمّ بمعنى إضماره وسجن اللّسان الذي أخذه من الحديث النبوي الشريف: "ليس شيء أحقّ بطول سجن من لسان".[6]

كما ذهب ابن سيده في محكمه إلى أن "سجّين" واد في جهنم وعدّه الخليل بن أحمد الفراهيدي من أسماء جهنم وهو في الوسيط موضع فيه كتاب الفجّار وقد ورد عند المقريزي أن السجن هو الاعتقال في مكان حرج ضيق[7] ولعلنا نستطيع من هذه الدلالات المتقاربة استخلاص معنًى محدد لكلمة سجن كالحبس والمنع والشدة والصلابة والضرب وهي دلالات تنتهي بنا جميعا إلى تصوّر واضح لمواصفات ذلك الحيز المكاني المعروف عندنا اليوم بالسجن من عزلة وشدّة وحساب عسير وضرب وتنكيل ومنع وتقييد. فالسجن هو المكان الضيّق الحرج المظلم بخلاف الحبس الذي تقترب بعض معانيه –كما رأينا- من الإقامة الجبرية والمعتقل وما يحملانه من دلالات انفراج وتيسير، وفي الشعر العربي القديم لفتات شعرية تنعت السجن دون غيره ببعض علامات الأذى التي يتعرض لها المسجون كالظلمة في قول الحاجري الإربلي :

كانت تضيق بي الدنيا بغيبتكم فكيف سجن ومن عاداته الضيق؟[8]

وقوله أيضا في القيد وضيق المكان :

قيد أكابده وسجن ضيـــــق يا ربّ شابَ من الهموم المفرق[9].

ومن ذلك أيضا وصف الحسن المهذّب له بافتقاره إلى منافذ يتسرّب منها الهواء النقي، وربما كان ذلك بسبب غوره في باطن الأرض أو التفنن في إعلاء جدرانه وانسدادها :

---

[1] - الجوهري - تاج اللغة وصحاح العربية – ولسان العرب - "سجن".

[2] - ابن سيـــده - المحكم والمحيط الأعظم في اللغة - "سجن".

[3] - الـــرازي - مختار الصحاح - "سجن".

[4] - الخليل بن أحمد الفراهيدي - كتاب العين. "سجن".

[5] - الزبيـــدي - تاج العروس -سجن.

[6] - والزمخشري - أساس البلاغة -"سجن".

[7] - عالم الفكر – مجلد 11/ عدد 125/1 - سعيد عبد الفتاح عاشور – الحياة الإجتماعية في المدينة الإسلامية .

[8] - ابن خلكان - وفيات الأعيان – 503/3.

[9] - المرجع نفسه والصفحة نفسها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أيا صَاحِبَيْ سِجْنِ الخِزَانَة خَلِّيَا نسيم الصبا يرسلْ إلى كبدي نفحا[1].

وقول الرياشي مختصرا حال داخله وثاويه في لفظة "مظلوم" وما توحي به من معاني خفية كثيرة :

ما يدخل السجن إنسان فتسأله ما بال سجنك ؟ إلاّ قال : مظلوم[2].

وهي المعاني نفسها التي نستشعرها في عصرنا الحالي لدى سماع كلمة سجن: فهي مقرونة في الأذهان بفقد الحرية وتعطيل الحركة وبالخضوع والإذعان بل والاحتقار أحيانا والإذلال والامتهان الذي قد يترل في بعض الحالات إلى دركات اللاّ إنسانية.

وقد فرّق القانون بين لفظتي الحبس والسجن انطلاقا من هذه الحقول اللغوية الدلالية للألفاظ. فالسجن كما عرّفه المشرع في قانون العقوبات هو وضع المحكوم عليه في أحد السجون العمومية وتشغيله داخل السجن أو خارجه في الأعمال التي تعينها الحكومة المدة المحكوم بها عليه. وعقوبة السجن عقوبة جنايات[3] وليس مخالفات أو جنح، فلا يجوز أن تقلّ عن الثلاث سنوات ولا تزيد عن خمس عشرة سنة إلاّ في الحالات الخاصة المنصوص عليها قانونا... ويترتب على عقوبة السجن تبعات أهمها حالة الحرمان من بعض الحقوق المدنية[4].

- **الأَسْـــرُ** : من خلال تتبعنا لمادة "أ. س. ر" في المعاجم العربية نلحظ أن مفهوم كلمة الأسر لا يخرج عن استعمالين: الأول من الإسارِ وهو القيد الذي يشدّ به الأسير، وأما الاستعمال الثاني فيتمثل في نقل المعنى من التخصيص الذي هو القيد الذي من معانيه منع الحركة والحدّ من الحرية... إلى تعميمه على كل ما يشاركه في تلك المعاني، ليصبح الأسير "كل أخيذ وإن لم يشدَّ بالقيد"[5]

ويبدو من خلال المعاجم التي تناولت المادة ابتعادها شيئا فشيئا عن المعنى اللغوي الأول أو الإسار أو غيرهما، وتحولها إلى إحدى مرادفات الحبس والسجن، يقول ابن فارس: "وهو الحبس وهو الإمساك... فسمّي كل أخيذ وإن لم يؤسر أسيرا"[6]، وعند الزبيدي : "وكل محبوس في قدّ أو سجن: أسير.... وقال مجاهد : الأسير المسجون"[7] ويقول الفيروز آبادي في القاموس المحيط: "الأسير: الأخيذ، والمقيد، والمسجون"[8] وجاء في لسان العرب: "الأسير الأخيذ، كل محبوس في قدّ أو سجن أسير"[9].

---

[1] - ياقوت الحموي - معجم الأدباء - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 1411 - 1991 - 69/9.

[2] - ابن قتيبة - عيون الأخبار – المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة والطباعة والنشر – د ت 1 /78.

[3] - هي الجرائم المعاقب عليها بـــ : الإعدام أوالأعمال الشاقة والسّجن بين ثلاث سنوات إلى المؤبد.

[4] - مأمون محمد سلامة –قانون العقوبات - 646.

[5] - ابن فارس - مقاييس اللغة و الزبيدي - تاج العروس وابن منظور - لسان العرب - "أسر" .

[6] - ابن فارس - مقاييس اللغة - "أسر".

[7] - الزبيدي- تاج العروس - "أسر".

[8] - الفيروز آبادي - القاموس المحيط - "أسر".

[9] - ابن منظور - لسان العرب - "أسر".

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويستتبع فعل الأسر "الخضوع المطلق لسلطان الآمر، والعجز المطلق عن المقاومة والإعطاء باليد"[1].

ويبدو أن المعنى الأول من نتاج الحياة العربية البدوية التي لم تكن تتوفر - في الغالب- على مراكز عقابية، فعوضت ذلك بالقيود لتعويق حركة الأسير ومنعه من الهرب، وذلك بتقييده، بينما يعتبر المعنى الثاني من نتاج التطور الحضاري وما يتبعه من تطور دلالي، فبظهور الدولة واستقرار القبائل في المدن والحواضر بنيت السجون فعوضت بجدارانها العالية وحراسها ما كان من قيود وأغلال.

وفي الشعر العربي القديم استعمال للفظ الأسر بالمعنيين، فعن المعنى الأول نجد قول الأخطل الضبعي :

ومن عجب الأيام أنك حاكـــمٌ عَلَيَّ وأني في الوثاق أسير[2]

وقول طهمان بن عمرو:

كأن لم ترى قبلي أسير مكبـــلا ولا رجلا يرمى به الرجوان[3].

وقول عياش الضبى :

كفى حزنا في الصدر أن عوائدي حجبن وأنّى في الحديد أسير[4].

وقول الحاجري الإربلي :

وارحمتـــــا لعزيـــــــزٍ في السجن أضحى ذليلا

حليـــف وجـــد يعـــاني أَسْرًا وقيدًا ثقيـــــــلا[5].

وقول إبراهيم الصولي :

أنا في أسر وأسباب ردى وحديدِ فادح يَكْلِمُـــنى[6].

وهي شواهد تدلّ جميعا على أن الشعراء كانوا أسرى يرسفون في الأغلال والسلاسل والحديد.

أما المعنى الثاني حيث يتخذ الأسر معنى الحبس والسجن ومرادفاهما فنذكر قول أبي سعيد الألوسي الذي استعمل الثنائيتين الضدّيتين (الأسر والإطلاق) :

وأبيت مأسورا وفرحة ذكركم عندي تعادل فرحة الإطلاق[7].

---

[1] - أحمد مختار البرزة - الأسر والسجن في شعر العرب - مؤسسة علوم القرآن- دمشق - بيروت - ط1 - 1406 هـ-1985م - 285.

[2] - محمد البلاجي - شعر الأسر في العصر العباسي – جامعة الحسن الثاني – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الدار البيضاء - دكتوراه – شعبة اللغة العربية وآدابها - 90 - 1991 – 20/1.

[3] - المرجع نفسه - 21 .

[4] - عزيز فوال بابي - معجم الشعراء المخضرمين والأمويين – دار صادر - ط1 - 1988– لبنان - 347.

[5] - محمد البلاجي - شعر الأسر في العصر العباسي - 21/1.

[6]- ياقوت الحموي - معجم الأدباء -126/1.

[7] - ابن خلكان - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - تحقيق محمد محي الدّين عبد الحميد - مكتبة النّهضة المصرية - القاهرة - ط1 - 1948-1367 - 431/4.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكذلك جمع أبو نواس بين الأسر والإطلاق في قوله :

فأقسم لو تكونون الأســـارى وكنت أنا المخليَّ والطليقـــا

إذن لجهدت فوق الجهد حتى أطيق خلاصكم أو لا أطيقا[1].

فالإطلاق عند الشاعرين هو العيش خارج السجن وإن أورد له ابن منظور معنى آخر فقال: "وحبسوه في السجن طلقا أي بغير قيد ولا كبل"[2].

وفي الاصطلاح الفقهي : "الأسير هو العدوّ المحارب للإسلام الذي سقط في يد المسلمين ،[3] أما في الاصطلاح الحديث فإن كلمة الأسر لا تجد لها مكانا وربما عوّضتها مصطلحات أخرى كالحبيس والمعتقل والسجين... شأنها شأن مصطلحات أخرى كثيرة لم يعد لها استعمال في المعجم اللغوي العربي الحديث.

- الاعتقـــال :

جاء في لسان العرب" عقل البعير يعقله عقلا وعقله واعتقله ثنى وظيفه مع ذراعه وشدهما جميعا في وسط الذراع وكذلك الناقة وذلك الحبل هو العِقال"...واعتُقَلَ لسانه : امتسك. قال الأصمعي : مرض فلان فاعتقل لسانه إذا لم يقدر على الكلام... واعتُقل : حبس وعَقله عن حاجته يعقله. وعقَّله وتعقَّله واعتقله : حبسه. وعقل البعير...والعقال : الرباط الذي يعقل به وجمعه عُقُل. قال أبو سعد ويقال عقل فلان فلانا وعكله إذا أقامه على إحدى رجليه...وكل عقل رَفْعٌ ... [4].

فالمعنى اللغوي للاعتقال هو التقييد بطريقة معينة بواسطة العقال أما الدلالة الاصطلاحية له فهي كما رآها ابن منظور مرادفة للحبس. ورآها البعض مرادفة لنوع محدد من الحبس والإيقاف هو ما يمكن تسميته بالحبس الاحتياطي، ورد في كتاب المكافأة وحسن العقبى "وحد ثني موسى بن مصلح قال : أنفذ إلي حُسْنِ بن مهاجر -كاتب أحمد بن طولون- عشرة رجال من التجار وقال : "اعتَقِلْهم بمعزل عن المسجونين حتى أعرضهم في غد على الأمير فتسلمت منه قوما تشهد لهم القلوب بالفضل فآنست وحشتهم وفسحت رجاء هم... وظلوا ليلتهم يتحدثون ويتناشدون والسلامة غالبة على خواطرهم حتى أصبحوا فلما عرضوا على ابن طولون أمر بتخليتهم"[5] فمن خلال هذا النص نلحظ عزل المعتقل عمن سواه من السجناء ونفهم أيضا أنه بمعنى الحبس المؤقت الذي يسبق البينة واليقين فلا يرافقه إسار أو شد أو إذلال طالما لم يثبت عليه جرم أو مخالفة...

---

[1] - ديوان أبي نواس- تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي – دار الكتاب العربي – لبنان – ط 1 – 1423-2003- 449 .

[2] - ابن منظور - لسان العرب - "طلق".

[3] - محمد البلاجي – شعر الأسر في العصر العباسي – 22/1.

[4] - ابن منظور - لسان العرب - "عقل".

[5] - محمد محمود الغرباوي – الشعر في سجون مصر من سنة 1882-1980. دكتوراه – جامعة الأزهر – كلية اللغة العربية – الزقازيق – قسم الأدب والنقد – 1413-1992 - 4 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما الاستعمال الحديث لكلمة معتقل في القانون الحديث فأَشَدُّ وطأة من السجين والمحبوس ذالك أنهما يعلمان جرمهما وحكم المحكمة عليهما ومدة بقائهما بينما يجد المعتقل نفسه مسلوب الحرية دون حكم محكمة، إذ يرجع أمره إلى وزير الداخلية وحالة الأمن العام في الدولة وهو ما يعرف بحالة الطوارىء الخاضعة لاجتهادات القائمين على الأمن وتقديراتهم[1] ومخاوفهم اللامنتهية.

- **مرادفـــات أخـــرى :**

الأزل : "جاء في لسان العرب : الأزل : الحبس. وأزله يأزله أزلا : حبسه"[2]، وقال الشيباني: أزلت الماشية والقوم أزلاً ضيّقت عليهم. وأزلت الإبل : حبست في المرعى".[3] وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي : "الأزل شدة الزمان، يقال هم في أزلٍ من العيش والسنة، وأزلٍ من شدائد البلوى، أزلت الفرس أزلا، قصرت حبله ثم أرسلته في المرعى"[4]. والأزل الشّدة، وضيق العيش والسّنة والشدائد والبلوى[5].

مما تقدم يبدو أن من معاني الأزل الضيق والشدة عموما، والحبس الذي فيه شيء من اللين وبعض الحرية من خلال المعنى اللغوي نفسه ففي أزل الفرس تقصير للحبل ثم إرسال في المرعى، فهي مقيدة ولكنها تستطيع الحركة في مرعاها والأكل والقيام بكل الوظائف الأخرى، ولكن الشواهد الشعرية التي بين أيدينا تؤكد الحبس من جهة وما يلقاه السجين من صور التضييق والإيلام المادي والمعنوي، من ذلك قول جحدر اللّص :

سجن يلاقى أهله من خوفه أزلا ويمنع منهم الزوّار
يغشون مقطرة كأن عمودها عنق يعرّق لحمها الجزّار[6].

والمقطرة "هي الفلق وهي خشبة فيها حزوق، كل حزق على قدر سعة الساق يدخل فيها أرجل المحبوس، مشتق من قطار الإبل، لأن المحبوسين فيها على قطار واحد مضموم بعضهم إلى بعض، أرجلهم في حزوق خشبية مفلوقة على قدر سعة سوقهم"[7].

وربما دلت المقطرة على اختصاصها باللصوص أمثال جحدر، يقول الزمخشري: "قطّر اللّصوص في المقطرة"[8].

---

[1] - محمد البلاجي - شعر الأسر في العصر العباسي - 29/1.
[2] - ابن منظور - لسان العرب - "أزل".
[3] - ابن فارس - مقاييس اللغة - "أزل".
[4] - الفراهيدي - العين - "أزل".
[5] - ابن منظور - لسان العرب و ابن فارس - مقاييس اللغة و الفراهيدي - كتاب العين - "أزل".
[6] - محمد البلاجي – شعر الأسر في العصر العباسي - 26/1.
[7] - ابن منظور - لسان العرب - ابن فارس - ومقاييس اللغة - "قطر".
[8] - الزمخشري - أساس البلاغة - "قطر".

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- **الإصفـــاق** : ومعناه الحبس أو النفي والتغريب، يقول ابن منظور : وأصفقوا على كذا أي أطبقوا عليه... ويقال صفقهم من بلد إلى بلد أي أخرجهم منه قهرا وذلا"[1].

وربما دلت على مرافقة القهر للاصفاق الذي من معانيه اللغوية الضرب "فالصفق هو الضرب الذي يسمع له صوت"[2].

- **القصـــر** : القصر هو الحبس كما جاء في لسان العرب وكذلك قصارك وقصاراك، وهو من معنى القصر الحبس لأنك إذا بلغت الغاية حبستك. ومنه قوله عزّ وجلّ "حور مقصورات في الخيام" أي محبوسات في خيام من الدّر،[3] ومن دلالة لفظ القصر على الحبس قول أحمد بن علي بن المأمون : "... حتى ولي المستنجد بالله... وقصر القضاة وغيرهم، وأنا في الجملة، وبقيت إحدى عشرة سنة مقصورا"[4].

- **الديمـــاس** : قال ابن منظور : "دمس الظلام: إذا اشتد ... كان لبعض الملوك حبس سمّاه ديماسًا لظلمته... والديماس سجن الحجّاج... والمدمّس : السجن ... وقد قال أبو زيد: دمسته في الأرض دمسا إذا دفنته حيًّا كان أو ميتا"[5]. فالديماس يتميز عن غيره من المحابس والسجون بكونه حفيرا تحت الأرض إلى حدّ تشبيهه بالقبر وأنه مظلم لا يدخله النور مطلقا، وقد كان للحجّاج بن يوسف ديماس ربّما جمع فيه بين الخاصيتين وإن اشتهر عند جلّ المؤرخين بسجن مفتوح لا يقي مقيميه واقٍ من حرّ الشمس أو المطر، ولا يحفظه شيء من البرد[6].

- **المخيّـــس** : جاء في اللّسان: خاس : ذلّ... والتخييس : التذليل... ومنه المخيّس وهو سجن كان بالعراق. قال ابن سيده : والمخيّس السجن لأنه يخيّس المحبوسين وهو موضع التذليل، وبه سمّي سجن الحجاج مخيّسا، وقيل هو سجن بالكوفة بناه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضوان الله عليه[7].. وإبل مخيّسه: محبّسة للنحر أو للقسم لا تسرح[8] وخاس الشيء يخيس خيسًا إذا أبقي في موضع ففسد وتغير كالجوز والتمر الخائس واللحم ونحوه[9].

---

[1] - ابن منظور- لسان العرب – "صفق".

[2] - المصدر نفسه - "قصر".

[3] - " " – "قصر".

[4] - ياقوت الحموي -معجم الأدباء - 591/1.

[5] - ابن منظور - لسان العرب – "دمس".

[6] - واضح الصمد – السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع- ط1 - 1415-1995 - 59.

[7] - ابن منظور - لسان العرب – "خيس".

[8] - الزمخشري – أساس البلاغة – "خيس".

[9] - الفراهيدي – العين - "خيس".

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي التخييس أيضا يجتمع معنى الأذى والهوان الذي يلقاه نزيل المخيس والشدّ بالقيد أو غيره كما دلّ على ذلك فعل تخييس الإبل وحبسها للنحر، ويفهم من المعنى اللّغوي الذي أورده الخليل عن بقاء الشيء في موضع حتى يفسده طول المكث في الخيس وربما انتهى الأمر بصاحبه إلى الوفاة لما في الحبوس من قذارة وظلام وروائح كريهة خبيثة وحشرات وهوام.

- **الجعجـــاع** : جاء في اللسان "الجعجاع: المحبس، والجعجعة: الحبس"[1] وفي العين "جعجعت بالرجل: حبسته في مجلس سوء"[2]، وورد في القاموس أن الجعجاع هو الموضع الضيّق الخشن، والجعجاع الحبس والقعود على غير طمأنينة"[3].

وقد حملت هذه الكلمة في اللسان معانٍ أخرى قريبة مما يعانيه السجين، فالجعجعة هي التضييق على الغريم في المطالبة وهي التشريد بالقوم وهي الإزعاج وكل هذه المعاني من ملازمات نزيل الجعجاع في كثير من الأحوال.

- **العنـــاء** : العاني : الأسير، يقال للأسير عنا يعنو وعني يعني إذا نشب في الإسار، والعاني الخاضع المتذلّل. قـــال الله -Y- : { **وَعَنَتْ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ** } وهي تعنوا عنوًّا. وجئت إليك عانيا : أي خاضعا كالأسير المرتهن بذنوبه. والعنوة : القهر[4].

والعناء هو الحبس في شدة وذلّ، ومنه الحديث الشريف " فكوا العاني و أطعموا الجائع و عودوا المرضى "[5] أي الأسير، يقال : عني فيهم فلان أسيرا أي أقام فيهم على إساره واحتبس[6].

يقول على بن الجهم :

ومن همم الفتيان تفريج كربة وإطلاق عانٍ بات والبؤس فادحه.

ويقول أبو إسحاق الصابي:

وربّ طليقٍ أطلق الذلُّ رقَّـهُ ومعتقلٍ عانٍ وقد عزَّ جانبـــــه[7].

كانت هذه أغلب الاستعمالات اللغوية للحبس والسجن ومرادفاتهما ودلالاتها المختلفة والتي إن دلت على شيء فإنما تدلّ على معرفة العرب لدور عقابية عديدة يختلف كل منها عن الآخر، وممارستهم

---

[1] - ابن منظور - لسان العرب - "جعع".

[2] - الفراهيدي - كتاب العين "جعّ".

[3] - الفيروز آبادي - القاموس المحيط (باب العين، فصل الجيم).

[4] - الفراهيـــدي - كتاب العين- "عنو".

[5] - البخاري – صحيح البخاري –دار الكتاب العربي بيروت/ دار الأصالة الجزائر – 1426-2005 -618/2 .

[6] - ابن منظور - لسان العرب - "عنا".

[7] - محمد البلاجي – شعر الأسر في العصر العباسي 34/1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لأساليب عقابية شتى، وتدل من جهة أخرى على مدى الاضطراب السياسي الذي عرفه المجتمع العربي. وإن سقطت من القاموس العربي الحديث أغلب الاستعمالات اللفظية دقيقة الدلالة على أنواع محددة من السجون بحيث يمكن التفريق بينها من خلال تسمياتها و لم يبق منها غير الحبس والسجن والمعتقل فإن معانيها مازالت قائمة وربما ساهم التطور الحضاري والاقتصادي في إضافة دلالات جديدة وابتكار أساليب جديدة في تعذيب السجين لم يكن لها وجود في المجتمعات السابقة.

- في القـــرآن الكـــريم :

لم يتخذ القرآن الكريم السجن عقوبة لأية جريمة من جرائم الحدود والقصاص، و لم ينصّ عليها أساسا في التشريع العقابي، وما ورد في القرآن من لفظ السجن ومرادفاته إنما جاء في إطار قصصي لبعض الأنبياء، وهو إما واقع فعلي كما حصل ليوسف عليه السلام، وإما تهديد صادر من طاغية إلى رسول كما حصل من تهديد فرعون لموسى عليه السلام بالسجن[1].

فأما مادة "سجن" فقد عرض لها القرآن الكريم في ستة مواضع باشتقاقات مختلفة :

- يسجن : { **ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** }[2].

- ليسجننَّ : { **قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ** }[3].

- ليسجننّه : { **ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ** }[4].

- السجن : وردت في خمسة مواضع من سورة يوسف، منها قوله -Y- : { **قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** }[5]. وقولـــه : { **وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنْ الْبَدْوِ...**}[6].

ونجد يوسف -U- يقدم مثال الشخصية العفيفة الأمينة، فيؤثر دخول السجن على معصية ربه

---

[1] - مجموعة مؤلفين - السجون مزاياها وعيوبها من وجهة النظر الإصلاحية – المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب -الرياض - 1401هـ -1984م – الطبعة الثانية .(أبحاث الندوة العلمية الأولى) - 93.

[2] - سورة يوسف – الآية 24-25.

[3] - سورة يوسف – الآية 32.

[4] - سورة يوسف – الآية 35.

[5] - سورة يوسف – الآية 33.

[6] - سورة يوسف 100، و الآيات 36 - 39 - 42 حيث ورد لفظ السجن.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بارتكاب الفاحشة، ويناجيه في تضرّع وخشوع، { **رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** }، كما يقدم لنا أيضا مثال الشخصية الناضجة المطمئنة الواثقة بنصر الله ، الصابرة على قضائه، فهو لم يتلهف لمغادرة السجن لما جاءه رسول الملك يبلغه رغبة سيده في أن يراه، و لم تأخذه الفرحة بالفرج دون توكيد البراءة، فيقف مطالبا أولا برفع التهمة التي سجن بسببها ظلما و لم يقترفها قبل مطالبته برفع ما ترتب عنها وهو السجن، ويرفض الخروج منه من باب الإعفاء الملكي حتى تبرأ ساحته من التهمة الظالمة[1]. وهي صور قد نحتاج إليها في معالجتنا لأثر السجن في نفوس بعض الشعراء وكيف تعاملوا معه، ومما يروى عنه أنه عليه السلام كتب على باب السجن : " هذه منازل البلوى، وقبور الأحياء، وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء"[2].

أما في قصة موسى -ʊ- فقد جاء السجن تهديدا من فرعون لموسى -ʊ- : { **قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ** }[3]. وقال -Y- عن كتاب الفجار { **كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ، كِتَابٌ مَرْقُومٌ** }[4].

ويبدو أن ذكر السجن في القصص القرآني جاء من باب سرد الوقائع التاريخية التي يستفاد منها أن السجن كان موجودا في تلك العصور، وأنه عقوبة أساسية ولكنه أقل من "التعذيب" بدليل قول امرأة العزيز { **إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** }. وجاء في تبصرة الحكام "والسجن وإن كان أسلم العقوبات فقد تأول بعضهم قوله تعالى: { **إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } أن السجن من العقوبات البليغة لأنه -I- قرنه مع العذاب الأليم، وقد عدّ يوسف عليه - الصلاة و السلام - الانطلاق من السجن إحسانا إليه في قوله :{ **وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ** }[5].

هذا عن كلمة السجن ودلالتها القرآنية، ولا شك أن السجن الطويل عذاب، وقد حكى الله تعالى عن فرعون إذ وعد موسى به بقوله : { **لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ** }[6].

أما مادة "أسر" فجاءت في خمسة مواطن تحمل جميعها الدلالة السابقة المشار إليها في تناولنا مصطلح الأسر، والمراد بها من يقع من غير المسلمين أسيرا بين أيديهم، أو العكس ، ثلاث مرات بصيغة الجمع :

---

[1] - عبد المعطي صالح عبد المعطي – شعر السجون السياسي في النصف الأول من ق 20 – جامعة عين شمس – دكتوراه - 1992 - 9-10.

[2] - بسيم عبد العظيم عبد القادر إبراهيم – شعر الأسر والسجن في الأندلس – مكتبة الخانجي – القاهرة – ط1 -1995 - 10.

[3] - سورة الشعراء – الآية 29.

[4] - سورة المطففين – الآية 7 - 8 - 9.

[5] - سورة يوسف – الآية 100.

[6] - مجموعة مؤلفين - السجون – مزاياها وعيوبها- 98.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"أسرى" في قــوله : { **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ** }[1]. وقــوله : { **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى** }[2].

وأسارى (جمع الجمع) : { **وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ** } [3].

ومرة في حالة الإفراد : { **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** }[4].

وجاءت في صيغة فعلية مرة واحدة { **وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا** }[5].

أما مادة "حبس" فوردت مرتين الأولى في قوله -Y- : { **تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ** }[6]. وهي في الشاهدين اللذين حضرا وصية الميت قبل وفاته، يحبسان بعد الصلاة أو صلاة العصر، فيؤديان شهادتهما أمام جمهور المصلين، فإن بدت منهما ريبة حلفا بالله أنهما صادقان[7].

ومعنى "تحسبونهما" توقفونهما للإدلاء بشهادتهما والحلف بعد الصلاة لكونه أعظم وأكثر لتجمع الناس[8]

والثانية في قوله تعالى : { **وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ** }[9]

والحبس في الآيات ليس معناه الحبس الإصلاحي الذي يدور في فلك العقوبة، وإنما هو بمعنى الإيقاف فالقرآن لم ينص عليه في مجال العقوبات الجزائية.

وقد وردت في القرآن ألفاظ قريبة من الحبس منها "الإمساك" في قوله تعالى : { **وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا** }[10]، فقد كانت عقوبة الإمساك في البيوت في بداية الإسلام حكما على المرأة التي ثبت زناها بالبينة العادلة، فلا تمكن من الخروج منه لأن فيه قطعا لسبيل الاتصال المطلق الذي هو أحد عوامل الوقوع في الفاحشة، ثم تغير الحكم وحل محله الجلد لغير المحصنين، فالإمساك في

---

[1] - سورة الأنفال - الآية 67.

[2] - سورة الأنفال - الآية 70.

[3] - سورة البقرة - الآية 85.

[4] - سورة الإنسان - الآية 8.

[5] - سورة الأحزاب - الآية 26.

[6] - سورة المائدة - الآية 106.

[7] - السجون وأثرها في الآداب العربية – واضح الصمد- 25

[8] - السجون مزاياها وعيوبها 101.

[9] - سورة هود - الآية 8.

[10] - سورة النساء - الآية 15.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

البيوت لم يكن سجنا بمعناه العام، ثم إن عقوبة الجلد حلّت محلّه فلم يعد حكما معمولا به، فقد كان الأمر بالإمساك مؤقتا حتى { **يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا** }[1]. ومنها قوله -Y- { **وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا** }[2]. أي لا ترجعوا إلى المطلقات

اللواتي قاربن انقضاء عدتهن ضراراً لتطويل حبسهنّ ومنعهن من الزواج من آخرين[3].

وأشار القرآن الكريم إلى صورة عقابية قريبة من السجن والأسر هي النفي في قوله تعالى: { **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنْ الْأَرْضِ** }[4]. فالمراد بالنفي هاهنا إخراج المعني من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه، فقد رأى بعض العلماء أن السجين في حكم المنفي في الأرض، والذي عليه جمهور العلماء أن النفي في الآية الكريمة على ظاهره، فالمراد بنفي المحارب المفسد أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه إلى أن تظهر توبته، لأن التغريب عن الأوطان نوع من العقوبة وبه جاءت الشريعة في عقوبات الزنى[5].

كما جاءت في القرآن الكريم لفظة حصير في قوله تعالى : { **وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا** }[6] أي مستقرا وسجنا لا محيد لهم عنه[7].

من كل ما تقدم يتضح لنا أن القرآن الكريم لم ينص على عقوبة السجن في إطار الجزاءات العقابية المعروفة، وما ورد فيه إنما جاء في إطار قصصي لبعض الأنبياء، إخبارا عن معرفة الأمم السابقة له واعتماده أداة من أدوات الردع وحفظ النظام، ولكنه نصّ على عقوبة النفي لشريحة معينة إلى أن تظهر توبتها.

- **مؤسسة السجن عبر العصور :**

السجن عقوبة معروفة ضاربة في القدم، عرفه الإنسان منذ أن استوطن الأرض وبدأ في عمرانها، ولكن طرق تنظيم هذه العقوبة وأساليب تنفيذها ووسائلها هي التي عرفت اتساعاً وتطورا مع اتساع الحضارة وتكون المجتمعات، تبعا لتغير الظروف والأفكار، "انتزعت فكرة إنشاء السجون من صميم الحياة الاجتماعية وملابساتها ونشأت مع الأجيال ظاهرة خاضعة لطبيعة الاجتماع وفلسفة الحياة"[8]. فقد اتخذت الأمم السالفة

---

[1] - محمد علي الصابوني – مختصر ابن كثير – شركة الشهاب – الجزائر - 366/1.

[2] - سورة البقرة - الآية 231.

[3] - واضح الصمد - السجون وأثرها في الآداب العربية، 26، وا محمد علي الصابوني – مختصر ابن كثير - 210/1.

[4] - سورة المائدة - الآية 33.

[5] - واضح الصمد - السجون وأثرها في الآداب العربية - 25-26.

[6] - سورة الإسراء - الآية 8.

[7] - واضح الصمد - السجون وأثرها في الآداب العربية – 26.

[8] - محمد البلاجي - شعر الأسر في العصر العباسي - 91/1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سجونا لتهذيب من شذّ عن قوانينها المرسومة أو حاول المساس بأمنها وأمن مواطنيها، وكان لكل أمّة نظامها الخاص في سجونها من حيث المكان وخباياه وإدارته الداخلية وأدوات التعذيب، ومن حيث نوع العقوبات المفروضة على كل مذنب بحسب جنايته.

وظلت الأداة والأساليب في تطور مستمر إلى يومنا هذا، حيث تطلعنا المنظمات والهيآت الدولية يوميا بإضافات وتعديلات جديدة تهدف أساسا إلى الارتقاء بهذه المؤسسة الردعية العقابية إلى أقصى ما يمكن من درجات بناء الفرد وإصلاحه وتربيته والتفكير فيما يمكن أن يقدمه للمجتمع بعد خروجه، وهي جميعاً أمورٌ تخرج عن طبقة المثقفين الذين هم غالبا ما يكونون من سجناء الرأي، لا ذنب لهم إلاّ أن قالوا كلمتهم أو اتخذوا موقفهم مما حولهم.

- عند المصريين القدامى :

عرفت مصر القديمة نظام السجون، وحكى القرآن الكريم أن عقوبة السجن كانت لمن يخرج عن إرادة فرعون ولو تعلق الأمر بالعقيدة أو الرأي، فقد ناقش فرعون موسى -ʊ- في قضية الألوهية، وبعد أن ساق له النبي ما عنده من الشواهد والآثار الدالة على وحدانية الله و أعجزه وأفحمه، هدده في الأخير بالسجن مثوى إن اتخذ إلها غيره فقال : { **لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ** }[1]. وفي أحد سجون مصر نزل سيدنا يوسف -ʊ- بغير ذنب جناه.

وإن اتخذ الفراعنة السجن وسيلة عقابية ردعية فإن ما ينبغي الإشارة إليه أن هذه المؤسسة في عهدهم لم تكن بالغة القسوة فقد روت الآيات في سورة يوسف ما دلّ على أن السجن لم يكن انفراديا، وكان يباح فيه اجتماع المسجونين وجلوسهم للحديث بعضهم مع بعض، فقد روى كل واحد من صاحبي[2] السجن رؤياه ليوسف -ʊ-، فوعظهما ولفت نظرهما إلى وجود الله ووحدانيته، ثم عبّر لهما رؤياهما، وأوصى أحدهما وكان على موعد قريب من الإفراج أن يذكره عند الحاكم ولكنّه نسي وصية يوسف له[3].

وتروي كتب التاريخ أن السجن الذي سجن به يوسف -ʊ- يوجد بالجيزة، وكان من الأعياد الكبرى عند النصارى بمصر عيد الخروج إلى سجن يوسف بالجيزة، سرعان ما اتخذه المسلمون أيضا عيدا[4].

---

[1] - سورة الشعراء – الآية 29.

[2] - ويروي صاحب الكامل في التاريخ أنهما من أصحاب فرعون أحدهما صاحب طعامه والآخر صاحب شرابه لأنهما أرادا أن يسما الملك،... فنال أحدهما عقابه وهو الصلب، ونجا الآخر فذكر فرعون بقصة يوسف، وكان ذلك سببا في خلاصه عليه السلام.

[3] - مجلة العربي – عدد 200 - جمال الدين محمد محمود –السجون بين الأمس واليوم - 114.

[4] - محمد البلاجي – شعر الأسر في العصر العباسي - 92/1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد حدّد ياقوت الحموي موقع هذا السجن بدقة : "وهو ببوصير من أرض مصر وأعمال الجيزة في أول الصعيد من ناحية مصر.... سجن فيها المدة التي ذكر أنها سبع سنين، وكان الوحي يترل عليه فيه، وسطح السجن معروف بإجابة الدعاء، وأهل تلك النواحي يعرفونه ويقصدونه بالزيارة"[1].

وكان السجناء في مصر يتمتعون بوجبات غذائية في أوقات معلومة كما يستفاد ذلك من الحوار الذي دار بين يوسف -ט- ورفيقي السجن لّما سألاه أن يعبّر لهما الرؤيا : { **قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا** }[2].

وهذا لا يعني أن السجون المصرية لم تعرف التعذيب، فقد كان المصريون يلجأون إلى التعذيب في بعض الأحيان لحمل المجرم على الاعتراف، وكان الضرب بالعصا من أنواع العقاب الشائعة، وكانوا يلجأون في بعض الأحيان إلى جذع أنف المذنب أو صلم أذنه أو قطع يده أو لسانه، وأحيانا يلجأون إلى نفيه إلى أقاليم المناجم أو إعدامه أو إحراقه مصلوبا، ومن أشدّ ضروب العقاب عندهم تحنيط المذنب حيًّا، أما المجرمون من علية القوم فكانوا يتجنبون الإعدام علنا بأن يسمح لهم بقتل أنفسهم بأيديهم كما تفعل طبقة الساموراي في اليابان[3].

- عند اليونان والرومان :

عرف اليونان والرومان أساليب عقابية شتى، فكانت العقوبات المعتادة عندهما هي استصفاء الأموال والنفي والتهجير والقتل والسجن الذي يستخدم للحبس الاحتياطي، وكان العديد من المتهمين يعتقلون في بيوتهم الخاصة أو يودعون تحت حراسة الخواص[4].

ومن الأماكن العقابية عندهم المطامير (memertimes) التي ارتبط تأسيسها بالملك الرابع لروما المعروف بـــ Mamers، وأضاف إليها سرقيوس توليوس جزءاً تحت الأرض يسمّى (trilianum) وهو قاعة بلا باب ولا نافذة، لا يدخل إليها إلاّ من نقب دائري في السقف، وفي هذه الأماكن كان يعدم بعض السجناء الرسميين[5].

وهي تعادل ما أشرنا إليه سابقا من سجون عرفها المجتمع العربي مثل "المطبق" والمطامير.

كما اتخذ اليونان والرومان مقالع الحجارة والرخام سجونا، ففيها حبس الأثينيون بعد هزيمتهم في صقلية، ثم حبس فيها بعد ذلك الرومانيون أنفسهم. وقد عرف المجتمع اليوناني نظاما محكما وقوانين دقيقة، فكانوا يحاكمون المتهم محاكمة تخضع لقوانين مسطرة، من ذلك ما حدث لسقراط الذي حكم عليه بالموت لإفساده الشباب بسفسطته، وكان أصحابه وتلاميذه يزورونه في السجن قبل تنفيذ الحكم فيتحدثون معه في

---

[1] - المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[2] - سورة يوسف – الآية 38.

[3] - قصة الحضارة - ول ديوارنت - ترجمة زكي نجيب محمود - جامعة الدول العربية – الإدارة الثقافية - ج2/ المجلد1/92.

[4] - محمد البلاجي – شعر الأسر في العصر العباسي - 1/93.

[5] - المرجع نفسه والصفحة نفسها. و dictionnaire encyclopédique de l'histoire - 5/3693 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أمور عقلية وفلسفية[1]، وقد أبدع سقراط في سجنه محاورتين خالدتين نقلهما أفلاطون في محاوراته هما أقريطون (في الواجب) وفيدون (في النفس)[2].

- عند الصينيـــن :

إذا كانت خير الحكومات هي أقلها ظلما فقد كانت حكومة الصين خير حكومات العالم على الإطلاق –كما يرى ذلك ول ديورانت- إذ لم يشهد التاريخ حكومة قط كانت في حكمها أطول عهدًا وأقل سيطرة من تلك الحكومة[3].وإن رأى البعض أنها لم تعرف ما يمكن تسميته بالمؤسسة العقابية التي يوضع فيها المذنب إلى حين ، فهم يحفرون حفرة واسعة تملأ بالجمر، وتمد عليها قنطرة من نحاس تلامس الجمر حتى تسخن، ويؤتى بالمذنب فيؤمر بالعبور عليها حافيا، فربما تحملت قدماه النحاس المحترق فاجتاز القنطرة، وربما عجز فألقى بنفسه في الحفرة ليموت مشويا[4]. وتوحي القصة المشهورة عن الامبراطور الصيني الحكيم نای دزونج في تقليل الجرائم بمعرفتهم لهذه المؤسسة العقابية شأن كثير من الأمم المجاورة لهم، يروى أنه زار يومًا سجون منطقة شانجان فرأى فيها مائتين وتسعين سجينا حكم عليهم بالإعدام فأرسلهم لحرث الأرض مكتفيا منهم بوعد شرفهم أن يعودوا إلى سجنهم، فلما عادوا جميعا بلغ من سروره أن أمر بالإفراج عنهم جميعا[5]، كما عرف المجتمع الصيني طائفة من الأعراف والعادات القديمة التي تهدد الفرد بالطرد من البلاد إذا خرج عن أخلاق الجماعة وخالف الرأي العام الذي كان قويا[6].

- عند العراقيـــن :

لم يشر الدارسون إلى وجود السجن كمؤسسة عقابية في العراق ولكنّهم أجمعوا على وجود نظام تشريعي خاص يقيم العقاب على مبدأ قانون القصاص أو المثلة وهي "قطع أو إتلاف أحد أجزاء الجسم، وهو الجزاء العادي للاعتداءات البدنية المخلفة لعاهات ، والقصاص العادل في كثير من الشرائع القديمة[7].

وقد كان البابليون يحبسون أسراهم حبسا غير طويل المدى لأنهم يلقون بهم في الجبّ مع الأسود التي تتغذّى عليهم.

---

[1] - المرجع نفسه - 94 .

[2] - المرجع نفسه و الصفحة نفسها .

[3] - ول ديورانت - قصة الحضارة – ج3 / مجلد 1 / 277.

[4] - محمد البلاجي –شعر الأسر في العصر العباسي - 94/1.

[5] - ول ديورانت - قصة الحضارة – ج3 / مجلد 1 / 277..

[6] - المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[7] - المرجع نفسه- ج2/ مجلد 1 - 208، و محمد البلاجي - المرجع نفسه - 94.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وامتاز الآشوريون بالقسوة العسكرية، فكانت العقوبات عندهم تتراوح بين العرض على الجماهير والأشغال الشاقة والجلد بالسياط وجَذْع الأنف وصلم الأذنين والإخصاء وقطع اللسان وسمل العينين وقطع الرأس والخزق بإجلاس الأسير على خازوق وقطع يديه ورجليه[1].

- عند الفُـــرس :

عرفت بلاد فارس سجونا كثيرة، و لم يرد في المصادر العربية ذكر لحضارة أمة كما جاء من أخبار فارس لقربها جغرافيا ولمساهمة الفرس أنفسهم في كل مجالات العلوم والمعارف، فكثيرة هي السجون الفارسية الواردة الذكر وهي في الغالب (لآخر ملوكهم) كسرى أبرويز، نذكر منها على سبيل المثال :

- سجن خانقين وخانقون، وفيه حبس كسرى النعمان بن المنذر لما غضب عليه فبقي فيه حتى مات[2].

- حبس ساباط، وهو موضع بالمدائن معروف، وذكره الأعشي في معرض ذكره النعمان بن المنذر: لأنه كان يظن أن كسرى سجن فيه النعمان وقتله فيه :

فذاك وما أنجى من الموت ربه بساباط حتى مات وهو محزرق[3].

- حبس كسرى : وفيه حبس عداس بن أبي عداس النميرى وسجل أبوه الحارث أبياتا يذكره فيها[4].

- وكان لكسرى أنوشيروان بيت كالقبر ظلمة وضيقا حبس فيه وزيره بزركمهر الحكيم وقيده بالحديد وألبسه الخشن من الصوف، وأمر أن لا يزال على قرصين خبزا وشعيرا وكف ملح جريش ودورق ماء، وأن تحصى ألفاظه فتنقل إليه[5]. ويذهب أحمد مختار البرزة إلى أن أغلب حبوس الفرس أقيمت تحت الأرض[6].

وقد عرف الفرس أصنافا من أساليب التعذيب لا تختلف عما عرفته الأمم المعاصرة لهم، أهونها الجلد يليه الوسم بالنار أو تشويه الأعضاء أو بتر بعضها أو سمل الأعين أو السجن أو الإعدام الذي يأتي عقابا لخيانة الوطن أو هتك العرض أو اللواط أو القتل أو حرق الموتى أو دفنهم سرًا أو الاعتداء على حرمة القصر الملكي أو الاتصال بأحد سراريه... وكان المذنب في أغلب هذه الحالات يعدم إما بإرغامه على تجرّع السّم أو حزقه أو صلبه أو شنقه... أو رجمه بالحجارة أو دفن الجسم إلى ما دون الرأس[7].

---

[1] - محمد البلاجي - شعر الأسر في العصر العباسي - 275.

[2] - المرجع السابق - 95/1.

[3] - ابن منظور – لسان العرب –حزر – وفي الديوان - "محرزق" .

[4] - محمد البلاجي - شعر الأسر في العصر العباسي - 1/ 96.

[5] - المرجع نفسه والصفحة نفسها .

[6] - أحمد مختار البرزة - الأسر والسجن في شعر العرب - 107.

[7] - ول ديويانت – المرجع السابق – 419 -420، 438 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ورد في نقش بيهستون على لسان دارا ما يصور وحشية العذاب وقسوته: لا سيما للخونة"وقبضت على فراقارتش وجيء به إلي، فجدعت أنفه، وصلمت أذنيه، وقطعت لسانه، وفقأت عينيه وأبقيته في بلاطي مقيدا بالأغلال يراه الناس كلّهم، ثم صلبته بعدئذ في إكباتانا"[1]. إن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على عراقة الأنظمة العقابية الفارسية وامتلاكها زمام الأمور في سبيل الحفاظ على استمرار المملكة.

- عند العرب :

- في الجاهلية : لم تكن للجاهليين سجون مخصوصة لهذا الغرض وإنما كانوا يحبسون السجين حيثما تيسّر في دار أو خيمة أو عند شخص معروف عنده مكان للحبس، من ذلك أسر الأهثم لـــ عبد يغوث في منزل زوجة الأهثم، فأنشد عبد يغوث في ذلك شعرا منه قوله :

وتضحك مني شيخة عبشمية كأن لم تر قبلي أسيرا يمانيا[2].

ونظرا لظروف الحياة الاجتماعية التي كانت تحياها القبائل العربية من حلّ وترحال، فإنهم كانوا إذا أذنب أحد أفراد القبيلة غرّم بدفع شيء من المال أو الأنعام، أو يبعد مدّة زمنية معينة، أو تتبرأ منه القبيلة على الإطلاق.

أما الأسر فكان معروفا لدى عرب الجاهلية، جاء في الأغاني أن رَجُلَيْنِ من طيء أسرا الشاعر "أبو الطمحان القيني" في "حرب الفساد" فاشتراه منهما بجير بن أوس بن حارثة وجزّ ناصيته وأعتقه لما بلغه شعره الذي مطلعه :

أرقت وآبتني الهموم الطـــوارق و لم يلق ما لاقيت قبلي عاشق[3].

كما أشار كارل بروكلمان إلى أن "بني شبابة" أسروا الشنفرى و لم يزل عندهم حتى أسر "الأزد" رجلا من بني شبابة ففدوه به[4].

وأسرت "قبيلة ربيعة" الشاعر "جويرة بن بدر الدارمي" ومكث عندهم زمنا فلما رآهم مرّة يشربون أنشد :

لعلّهم أن يمطروني بنعمـــــــة كما صاب ماء المزن في البلد المحل

فقد ينعش الله الفتى بعد زلّـــة وقد تبتني الحسنى سراة بني عجل.

فلما سمعوا هذه الأبيات أطلقوا سراحه[1].

---

[1] - المرجع نفسه - 438.

[2] - الجاحظ - البيان والتبيين – تحقيق عبد السلام هارون – ط4 – د.ت – بيروت – 4/ 45. وابن عبد ربه – العقد الفريد – دار الكتاب العربي –بيروت – 1403-1983- 288/4 .

[3] - أبو الفرج الأصفهاني – الأغاني - 11/13.

[4] - كارل بروكلمان – تاريخ الأدب العربي – ترجمة عبد الحليم نجار – دار المعارف – مصر – ط4 - 105/18.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وربما أجهدوا أنفسهم بالعمل على أسر السادة أو الوجهاء فيساومون عليهم بالثمن الذي يكون غاليا أو بالمقايضة.

هذا عن البادية أما الحواضر فعرفت ضربًا من السجون مهيأة خصيصا لغرض العقاب كما هي الحال عند المناذرة والغساسنة الذين عرفوا بعض القوانين المنظمة للحياة، وفي بعض الحواضر مثل مكة واليمن[2].

وفي الأخبار ذكر لسجون عديدة اتخذها النعمان بن المنذر وردت بأسماء متعددة قد تكون مسميات لسجن واحد وقد تكون جميعا عرفت وجودًا حقيقيا وآوت بين جنبيها من آوت، من أشهرها حبس اتخذه بالقرب من الحيرة عرف بـــ"الثوية" والذي كان مخصصا للسجن المؤبد أو لمن يراد قتله، فالثوي هو المحبوس والأسير وثوى الرجل قُبر وفي ذلك دلالة على طول الإقامة ومنه قولهم ثوى بمعنى هلك[3].

وقد عرف سجن الثوية قبل النعمان بن المنذر إذ بناه تُبَّع، وكان إذا حبس فيه إنسانٌ ثوى فيه أبدا، يقول عدّي بن زيد العبادي :

وبتن لدى الثوية ملجمـــات وصبّحن العباد وهنّ شيب[4].

وأورد صاحب الأغاني أن عديا بن زيد العبادي قد سجنه ابن عمه الملك النعمان في سجن "الصِّنين والصنّين بلد كان بظاهر الكوفة من منازل المنذر، وفيه قال عديّ روائع أشعاره، من ذلك على سبيل المثال :

أبلغا عامرا وأبلغ أخـــــــاه أنني موثق شديد وثـــاقـــي
في حديد القسطاس يرقبني الحـــــــارس والمرء كلّ شيء يلاقـــى
في حديد مضاعف وغلـــول وثياب منضحات خـــــلاق
ولقد ساءني زيارة ذي قـــــــــــــربى حبيب لودنا مشتـــــاق
ساءه ما بنا تبيّن في الأيـــــــــــــدى وإشناقها إلى الأعنـــاق
فاذهبي يا أميم غير بعيـــد لا يؤاتي العناق من في الوثاق[5].

وقـــال :

أحظّى كان سلسلة وقيـــدا وغلا والبيان لدى الطبيب[6]

وأشار صاحب الأغاني إلى سجن لم يسمّه وإنما نسبه إلى صاحبه "سجن النعمان بن المنذر" قد يكون هو "الثوية" أو غيره، حبس فيه المنخل اليشكري، قيل أنه اتهمه بإمرأته المتجردة فدفعه إلى صاحب سجنه "عكب"

---

[1] - واضح الصمد – السجون وأثرها في الآداب العربية - 22.

[2] - عبد العزيز الحلفي – أدباء السجون – 14، واضح الصمد – السجون وأثرها في الآداب العربية -15 .

[3] - ابن منظور – لسان العرب - "ثـــوا".

[4] - واضح الصمد – السجون وأثرها في الآداب العربية - 16.

[5] - محمد البلاجي- شعر الأسر في العصر العباسي الأول - 99/1.

[6] - واضح الصمد – السجون وأثرها في الآداب العربية - 17.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الذي ظل يعذبه حتى قتله، وقبل وفاته قال أبياتا يذكر فيها ما لاقاه من عكب ويدعو قومه إلى الأخذ بثأره منه:

وإن لم تثأروا لي من عُكُبٍّ فلا أَرْوَيْتُمَا أبدا صديّـــا
يطوق بي عكبّ في معـــدّ ويطعن بالصّميلة في قفيّا[1].

وقيل أنه دفنه حيا، وقيل أنه أغرقه، وكان ذلك سنة 597م[2].

كما كان لابن المنذر سجن "القطقاطة" والقطقاطة موضع بالكوفة[3]، ويبدو أن عنترة بن شداد كان نزيلا بأحد سجون النعمان بن المنذر ونجا منها بأعجوبة خلدها في شعره :

ترى علمت عبيلة ما ألاقي من الأهوال في أرض العراق
طغاني بالريا والمكر عمـــي وجار عليّ في طلب الصّداق
قطعت وريده بالسيف حزرا وعدت إليه أحجل في وثاقي[4].

وقيل أن عنترة حبس في سجن المنذر بن ماء السماء[5]، وأنشد شعرا يذكر فيه ديار قومه، منه قوله:

ويا خيل فابكي فارسا كان يلتقي صدور المنايا في غبار المعامع
فأمسى بعيدا في غرام وذلّـــــــة وقيد ثقيل من قيود التوابع[6].

وقد اتخذ الغساسنة أيضا أماكن للحبس نذكر منها سجن دمشق الذي حبس فيه عمر بن جفنة الغساني "سعيد بن العاص" و"هشام بن سعيد العامري" وقد افتدى بنو عبد شمس سعيدا بن العاص وظل هشام في محبسه إلى أن مات[7].

وغير بعيد عن الحيرة كان في البحرين سجن لعمرو بن هند، أمر عامله على البحرين أن يحبس فيه الفتى الشاعر طرفة بن العبد، ومما قاله فيه :

ألا اعتزليني اليوم يا خولة أو غضّي فقد نزلت حدباء محكمة العـــــضّ
أبا منذر كانت غرورا صحيفتـــي و لم أعطكم بالطوع مالي ولا عرضي[8].

ولما أبى عامل البحرين قتل طرفة لصلة قرابة بينهما أرسل عمرو بن هند رجلا من تغلب فقتله.

---

[1] - المرجع نفسه - الصفحة نفسها .
[2] - المرجع السابق - 18.
[3] - الفيروز آبادي - والقاموس المحيط - "قط".
[4] - عنترة بن شداد - ديوان عنترة ومعلقته - تحقيق وشرح خليل شرف الدين - دار ومكتبة الهلال - بيروت - لبنان - 116-117.
[5] - محمد البلاجي – شعر الأسر في العصر العباسي - 99/1.
[6] - عنترة بن شداد - ديوان عنترة ومعلقته – 97.
[7] - واضح الصمد - السجون وأثرها في الآداب العربية - 18.
[8] - ديوان طرفة - دار صادر- بيروت - 1380-1961- 66.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكان السادة في مكة يعاقبون المخالفين والخارجين على الطاعة بحبسهم في بيوتهم. وذلك بربط المحبوس بالسلاسل أحيانا، ولكن سجونهم في الأغلب لم تكن محصنة[1].

أما اليمن فعرفت السجون مند أمد موغل في التاريخ، روى المسعودي أن الملك الفارسي كيكاوس سار بجيشه إلى اليمن فخرج إليه ملك اليمن حينها "شمّر بن فريقس" فأسره وحبسه في أضيق محبس، ومكث فيه أربع سنين حتى أنقذه رستم بعد معركة قتل فيها شمّر وأعاد كيكاوس إلى ملكه، ومعه سُعدَي ابنة ملك اليمن التي عشقته وأحسنت إليه ومن معه خفية من أبيها "وقد كانت سجون العربية الجنوبية في قلاع الملوك والأقيال والأذواء وفي المباني العامة المحصّنة، حيث يودع السجين في أماكن منيعة... وبين المساجين عدد من المعارضين للحكام والثوار والمشاغبين على السلطة القائمة، يبقون في سجونهم مادام الحكام غير راضين عنهم، وقد يموت بعض منهم وهم في سجونهم"[2]. وكان باليمن سجن هو حصن العقاب الذي سجن فيه ولدا عنتره العبسي.

وكان من عادة العرب أن يستعيضوا بالنفي عن السجن لما فيه من خفة المؤونة عليهم" وكثيرا ما طال الخلعاء الذين كثيرا ما تكون وجهتهم بلدة خضوضى"، وهي جزيرة في البحر كانت العرب في الجاهلية تنفي إليها خلعاءها[3].

- في صدر الإسلام والخلافة :

تستند العقوبات في المجتمع الإسلامي إلى القرآن الكريم والسنة النبوية واجتهاد الفقهاء، فتقوم على مبدأ القصاص تبعا لنوع الجرم، وتنفذ السلطة القصاص ويكون بأمر منها عند ثبوت الإدانة وغالبا ما يكون فوريا، ولذلك كانت الحاجة إلى السجن قليلة، وربّما ألجأت إليه ضرورة حتى يستبان أمر المتهم، وربما كان الحبس عقوبة تعزير[4] لمرتكب مخالفة لم تضع الشريعة لها حداً.

ذهب فريق إلى أن الرسول -ρ- لم يكن له سجن ولا سجن أحداً، وذكر آخرون أنه سَجَنَ في المدينة، جاء في الخطط المقريزية "روى أبو داود وابن ماجه عن الهرماسي بن حبيب عن أبيه، قـــال : أتيت النبّي -ρ- بغريم لي، فقال لي ألزمه... ثم مرّ الرسول -ρ- بي آخر النهار، فقال : ما فعل أسيرك يا أخا بني تميم؟. وهذا كان هو الحبس على عهد النبي -ρ- ولم يكن له محبس معدّ لحبس الخصوم[5].

---

[1] - واضح الصمد - السجون وأثرها في الآداب العربية - 19- 20.

[2] - واضح الصمد- السجون وأثرها في الآداب العربية - 20.

[3] - محمد البلاجي - عر الأسر في اعصر العباسي - 101/1.

[4] - التعزير ضرب دون الحدّ لمنع الجاني عن المعاودة وردعه عن المعصية والعزر المنع، والتعزير التوقيف عن الفرائض.

[5] - المقريزي – الخطط دار صادر – بيروت – الطبعة الجديدة بالأوفست – د ت - 187/2.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعن الحسن بن سفيان... عن الحسن قال : كان بين أناس من أهل الحجاز قتال في بعض ما يكون بين الناس فتقاضوا إلى النبي -ρ- فأمر بحبسهم... وذكر بعضهم أن رجلا قتل عبده متعمدا فجلده النبي -ρ- مائة جلدة ونفاه سنة[1].

من هذه الأخبار ومن غيرها ننتهي إلى أنه لم يكن للرسول -ρ- سجن يحبس فيه المخالفين، وإنما كانت على أيامه عقوبة تعويق المذنب ، وربما يحبس في البيت أو في سارية المسجد حتى أن المدّعي كان يلازم المحبوس لئلا يفرّ[2].

و لم تشر الأخبار إلى أي سجن اتخذه خليفته أبو بكر الصديق، يقول الماوردي : "الحبس الشرعي ليس هو في مكان ضيق وإنما هو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه سواء كان في بيت أو مسجد وكان يتولى نفس الخصم أو وكيله عليه ملازمته ، ولهذا سماه النبي -ρ- أسيرا... وهذا كان هو الحبس على عهد رسول الله -ρ- وأبي بكر و لم يكن الحبس مُعَدًّا لحبس الخصوم"[3] أو المذنبين.

ولما اتسعت الدولة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب ومصّرت الأمصار وكثر الناس ازدادت الحاجة إلى مكان لحبس بعض المجرمين، فابتاع عمر دار الصنوان بن أمية بمكة لذلك الغرض[4]... ومما يروى عنه أنه قـــال : "لا يزاد السارق في القطع على قطع يده ورجله، وإن سرق بعد ذلك استودع السجن، وقال : "إني لأستحي من الله ألاّ أدع له يدا يستنجي بها ويتوضأ بها للصلاة"[5].

وكان عمر بن الخطاب يستعين بالآبار المهجورة لحبس الأشخاص، مثل الحطيئة الذي حبس في بئر مظلمة فقال في ذلك :

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فأغفر عليك سلام الله يا عمر[6].

وذكر ابن حجر العسقلاني مجموعة من الأشخاص الذين نفاهم عمر بن الخطاب، منهم أبو ذؤيب ونصر بن حجام وجعدة السُّلمى وأميّة بن يزيد الأسدي بسبب التخنّث واحتكار الطعام[7].

ومن الشعراء المخضرمين أبو محجن الثقفي الذي عاقبه عمر على الخمر مرارا فلم ينته، فنفاه إلى جزيرة هرب في طريقه إليها و التحق بجند سعد بن أبي وقاص، فكتب إليه عمر بأمرُه بحبسه فكان ينشد وهو يسمع بأخبار القتال:

---

[1] - ابن الطلاع – أقضية الرسول – تحقيق محمد الأعظمي – دار الكتاب اللبناني 1982 - 92 وما بعدها.

[2] - واضح الصمد – السجون وأثرها في الآداب العربية -28.

[3] - المرجع السابق - 29.

[4] - مجلة عالم الفكر- مجلد 11 -العدد1- 1980 - الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية - سعيد عبد الفتاح عاشور - 124.

[5] - واضح الصمد – السجون وأثرها في الآداب العربية - 29.

[6] - الحطيئـــة - الديـــوان - .

[7] - محمد البلاجي - شعر الأسر في العصر العباسي - 103/1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كفى حزنا أن تَرْدِيَ الخيل بالقنا وأترك مشدودا عليّ وثاقيـــا
إذا قمت عناني الحديدُ وغُلّقت مصاريع من دوني تصُّم المناديا
... ولله عهدٌ لا أخيس بعهـــده لئن فرجت ألاّ أزورَ الحوانيـــا.

وقد سأل امرأة سعد أن تفك وثاقه وتهبه فرس زوجها يقاتل به المشركين ويعود إلى سجنه ففعلت، فقاتل فأبلى بلاء حسنا ثم عاد إلى حبسه، وكتب سعد إلى عمر بقصته فعفا عنه[1].

وكان عثمان بن عفان يقضي بين الناس، وكان يشاور في القضاء عليا وطلحة وعبد الرحمن . يروى أنه حبس رجلا وطئت فرسه صبيا فقتلته، ثم أطلقه[2]. وهو الشاعر ضابئ بن الحارث البرجمي الذي كان بذيئًا كثير الشر، وقد حبسه عثمان أكثر من مرّة لهجائه وإفحاشه وظلمه الناس، ومات في سجن عثمان ، ولكن مدّة العقوبة لم تحدد كما أن الروايات أغفلت الإشارة إلى اسم السجن أو موضعه، وأشارت إلى سجون اتخذها عمال عثمان في الأمصار. من ذلك سجن الوليد بن عقبة خارج الكوفة، وسجن مصر وغيرهما[3].

ويروى أن الشاعر عبد الرحمن بن حنبل "هجا عثمان بن عفان لأنه أعطى مروان بن الحكم أكثر مما يستحق من فيء "إفريقية" وكان هجاء فأمر عثمان بحبسه في حصن "القموص" جبل بخيبر فقال يناشد عليا ويصف حاله هناك :

إلى الله أشكو لا إلى الناس ما عدا أبا حسن غلاً شديدا أكابـــــده
أإن قلت حقا أو نشدت أمانـــة قُتلت، فمن للحق إن مات ناشده.
فكلم فيه علي عثمان فأطلق سراحه[4].

أما علي بن أبي طالب فقد تولّى الخلافة في جوّ مكهرب بالاضطرابات والشكوك والفوضى بعد مقتل عثمان بن عفان وما تبعه من موقعة الجمل، وموقعة صفين (37هـ) وحادثة التحكيم مما يوحي أن فترة حكمه لا بدّ أن يكون فيها مكان مخصص للعقاب، وقد تولى عليّ القضاء شابا في عهد الرسول -ρ- إذ بعثه إلى اليمن قاضيا، وكثيراً ما رجع إليه الخلفاء الراشدون الذين سبقوه إلى الخلافة في أمور أشكلت عليهم.

ذكر عبد الله بن سلمة أن عليا كان يقول في السارق: تقطع يده، فإن عاد قطعت رجله، فإن عاد استودع السجن[5]. وقد عرفت الكوفة على عهد الإمام علي سجنا عرف "بنافع" من قصب وكان متهالك

---

[1] - واضح الصمد – السجون وأثرها في الآداب العربية -31.
[2] - المرجع السابق -33.
[3] - المرجع نفسه – 34-35.
[4] - الزركلي – الأعلام – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان - 305/3.
[5] - واضح الصمد – السجون وأثرها في الآداب العربية - 37.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

البناء فكان المسجونون يهربون منه، فهدمه علي وبنى "المخيس" وقد مرّ بنا أن المخيس هو السجن الذي يذل المسجونين، وكان المخيس عالي الجدران منيعا ذا باب كبير كما جاء على لسان الإمام نفسه في وصفه :

أما ترانى كيَّسا مكيَسا

بنيت بعد نافع مخيســـا

بابا كبيرا وأمينا كيّسا[1].

وكانت للإمام علي عناية خاصة بالمسجونين، فإذا حبس رجلا وكان له مال أنفق عليه من ماله، فإن لم يكن له مال أنفق عليه من بيت مال المسلمين وقال: "يحس عنهم شرّه ويُنفق عليه من بيت مالهم"[2].

ونظرا لكثرة مشاغل الإمام عليّ كلّف شريحا بأعمال القضاء، فأدان رجلا تربطه به صلة قربى بسبب دين عليه فحبسه، ومرّ به شريح يوما فقال: أتحبسني؟ فأجابه: أنا لم أحبسك ولكن الحق حبسك[3]. وحكم شريح على ابنه بالحبس لأنه كفل رجلا ولم يدفع عنه، فلّما قام من مجلسه أرسل إلى المحبوس فرشا وغطاء ووسادة، مما يدلّ على أنه كان يسمح للمحبوس بما يتدثر به وينام عليه ويتوسده.وقد ورد أن أمير المؤمنين عليا هو أول من أجرى على أهل السجون ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم وكسوتهم شتاء وصيفا، وذلك بالعراق، ثم فعله معاوية بالشام ومن جاء بعده[4].

- في العصر الأمـــوي:

كانت الخصومة السياسية تزداد يوما بعد يوم لاسيما عندما تبينت للناس ملامح الحكم الوراثي، وقد نكل بنو أمية بالهاشميين والعلويين وبكل معارض لسياستهم، "حتى أصبح القتل والسجن والعذاب أمرا مألوفا... وقد ابتلي الناس بأمراء قساة كانوا يتلذذون بتعذيب الأسرى والمعتقلين"[5]. وهذا يعني أن السجون المشرعة لاستقبال هؤلاء المعارضين كثيرة كثرتهم، حتى أسماه بعض الدارسين "بالعصر الذهبي للسجون" عددا وانتشارا وإحكاما وتنوّعا، ويقال أن معاوية بن أبي سفيان هو أول من وضع السجن والحرس[6]. فقد كانت الصراعات السياسية والقبلية والمذهبية من أهم أسباب هذه الكثرة الكاثرة من السجون والسجناء. ونظرا لكثرة خلفاء بني أمية"، وكثرة نزلاء سجونهم وسجون عامليهم في كل أنحاء الدولة الأموية المترامية الأطراف، فإننا نكتفي بالإشارات الموجزة لمؤسساتهم العقابية الممتدة عبر أطراف الخلافة.

---

[1] - ابن منظور – لسان العرب – "خيس".

[2] - محمد البلاجي – شعر الأسر في العصر العباسي - 104/1.

[3] - واضح الصمد – السجون و أثرها في الآداب العربية - 38.

[4] - المرجع نفسه – والصفحة نفسها.

[5] - المرجع نفسه - 39.

[6] - المقريزي - الخطط - 2/ 187 ومجلة علم الفكر - عدد 1 - مجلد 11 - مقال سابق - 124.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فعلى الرغم من كون معاوية من دهاة العرب إلاّ أن الشدّة غلبت عليه في تعامله مع الخصمين اللدودين له، فكان نصيب معظم الخوارج القتل وقلّة هم الذين سجنوا، وكان نصيب جل العلويين الحبس الذي نادرا ما ينتهي بالقتل، وفي عهده تعرض المساجين إلى أنواع من العذاب مختلفة من ضرب وتعذيب بالحديد والأغلال، وربما دفن أحدهم حيّا[1].

وكذلك كانت حال السجن أيام ابنه "يزيد" وقفا على المعارضين للسلطة حتى من الأسرة الأموية نفسها[2].

أما في عهد هشام بن عبد الملك فكانت السجون تغصُّ بالنزلاء منهم من دخلوه بسبب الضرائب التي كانوا يعجزون عن أدائها، ومنهم من حبس من الأسرة المروانية نفسها بسبب خلاف حول ولاية العهد، ومنهم أيضا المعارضون من الخوارج والشيعة خاصة[3].

أما الوليد بن يزيد بن عبد الملك فلجأ إلى جانب حبس معارضيه إلى طريقة غريبة في عقاب من تخلف عن الدفع وذلك ببيعه بالثمن الباهظ إلى ألد أعدائه كما فعل "بخالد القسرى"[4].

فإذا جئنا إلى ولاة بني أمية وعمالهم فإن أحدا لم يتفنن في السجون وبنائها كما فعل الحجاج بن يوسف الثقفي[5] الذي نسبت إليه سجون كثيرة، وكان سفاكا سفاحا باتفاق معظم المؤرخين، وكان له في القتل والتعذيب غرائب لم يعرف التاريخ لها مثيلا. أحصى بعضهم من قتلهم صبرا فوجدهم مائة وعشرين ألفا، ومات الحجاج وفي حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة، وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من حرّ أو برد أو مطر، وربما استتر أحدهم بيده من الشمس، فيرميه الحرس بالحجارة، وفي رواية أنه وجد في حبسه عندما توفي مائة ألف وأربعة عشر ألف رجل وعشرون ألف امرأة[6].

وكان المسجونون يقرنون بالسلاسل، يقومون معا أو يقعدون معا، ويسقون الزعاف (الماء الوسخ القاتل) ويطعمون الشعير المخلوط بالرماد، ليس للمسجون المقيد منهم إلاّ مجلسه، فيه يأكل ويصلي وينام ويتغوط[7].... ولم يكن لهذا العدد الضخم جرائم عوقب عليها وسجن بسببها، روى الأصمعي أنهم وجدوا ثلاثة وثلاثين ألفا من الأبرياء لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب[8].

---

[1] - واضح الصمد – السجون و أثرها في الآداب العربية – 43 .

[2] - المرجع نفسه – 45.

[3] - المرجع السابق- 50.

[4] - المرجع نفسه - 51-52.

[5] - : سيرته في : الطبري - تاريخ الطبري دار الكتب العلمية- بيروت - ط2 - 1408-1988 - 547/3 ، 554 .

[6] - واضح الصمد- السجون و أثرها في الآداب العربية - 53

[7] - المرجع نفسه -53-62 .

[8] - ابن عبد ربه – العقد الفريد – 46/5.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن نزلاء سجنه على سبيل المثال لا الحصر "جحدر العكلى" اللّص الذي أخاف السبيل بأرض اليمن حينا إلى أن أظفر به الحجاج، وروى الجاحظ أن رجلا قال للحجاج وقد أطال في خطبة الجمعة "إن الوقت لا ينتظرك، والرب لا يعذرك، فحبسه"[1].

والملاحظ أن الرواة بالغوا كثيرا في تصوير قسوة الحجاج وبطشه وبأسه الشديد، وبالغوا في تعداد قتلاه وسجنائه، إذ لا يعقل أن توجد في سجنه بعد موته ثلاثين ألف امرأة، فأي الجرائم اقترفنها حتى أودعن السجن؟ كما لا يعقل ألا تكون له إمكانية إقامة سجن للرجال وآخر للنساء ولا يمكن أن يرضى خليفة أموي بحبس الرجال والنساء في موضع واحد، ولا يعقل أيضا أن يترك الحجاج مائة وعشرين ألف سجين ينتظرون الموت المحتوم ويموتون صبرا –كما أشرنا سابقا- ونحن نعلم سرعة غضبه وميله إلى الحسم والقطع حتى قبل التثبت.

ومن السجون الكثيرة التي نُسبت إلى الحجاج نذكر :

- "المخيّس" وهو سجن له بمدينة الكوفة من تركة الإمام علي.
- سجن واسط : سُجن فيه جحدر اللّص، ومحمد بن القاسم الذي أنشد فيه :

فلئن ثويت بواسطٍ وبأرضها رَهْنَ الحديد مكبَّلا مغلـــولا
فلرُب فتية فارس قد رعتهـــا ولرُبّ قرن قد تركت قتيلا[2].

- الديماس : سجن للحجاج سمي كذلك لظلمته "فهو سرب تحت الأرض بمثابة القبر... يقال دمسته في الأرض إذا دفنته حيّا كان أو ميتا"[3].ويكفي أن نذكر شاهدا من شهادات العصر الأموي على بطش الحجاج أبياتا للفرزدق يصور فيها ما يثيره الحجاج من رعب في القلوب وخرس في الألسن...يقول :

إذا ما بدا الحجاج للناس أطرقـــوا وأسكت منهم كل من كان ينطق
فما هو إلا بائل من مخافـــــــــة وآخر منهم ظلّ بالريق يشـــــرق
وطارت عقول الناس شرقا ومغربا فما الناس إلاّ مُهْجِسٌ أو ملقلـــق[4].

هذا وقد توسع بنو أمية في بناء السجون، فلم تكن حاضرة تخلو من سجن أو أكثر، ففي اليمامة نجد سجونا عديدة لا سجنا واحدا، منها :

- حَجْرُ اليمامة، وكان عطار اللّص من الذين حبسوا فيه[5].
- سجن دوّار وهو سجن باليمامة ذكره السمهري عندما سجن فيه، فقال :

---

[1] - الجاحظ –البيان والتبيين - 360/2.
[2] - محمد البلاجي – شعر الأسر في العصر العباسي – 104/1.
[3] - لسان العرب "دمس".
[4] - ديوان الفرزدق – دار صادر – بيروت - 53/2.
[5] - محمد البلاجي – شعر الأسر في العصر العباسي - 106/1، - ابن منظور - لسان العرب - "حجر".

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كانت منازلنا التي كنّا بهـــــــــا شتى فألّف بيننا دوّار[1].

- سجن الخضراء، والخضراء موضع باليمامة.

ومن سجون البصرة سجن المخيس الذي سبقت الإشارة إليه، فقد ذاق جحدر طعامه المخلوط بالرماد والملح وأشار إلى انعكاس ذلك عليه، فقال:

أقول للصحب في البيضاء : دونكم محلة سوّدت بيضاء أقطـــاري
كأن ساكنها من قعرها أبـــــــدا لدى الخروج كمنتَاشٍ من النار[2].

وسجن مالك بن المنذر بن الجارود وكان الفرزدق من الذين سجنوا فيه.

وفي المدينة نجد سجن "ابن سباع" وكان دارا لعبد الله بن سباع حوّلت إلى سجن، وسجن آخر حُبس فيه معاوية بن عادية الفزاري وهُدبة بن الخشرم[3].

وهناك سجون كثيرة لم تذكر بأسمائها وإنما نسبت إلى أصحابها مثل سجن خالد بن عبد الله القسري، الذي وصفه الفرزدق أنه ظلمتا ليل معا :

... وظلماء تحت الأرض قد خضْتُ هولها وليل لكون الطيلساني أدعجا[4].

وسجن عمر بن عبد العزيز وربما هما سجناه أحدهما بالمدينة لما كان واليا وثانيهما بالشام عندما صار خليفة ، ومن سجون دمشق سجن مروان، وسجن مرج عذراء، وهو على أميال من دمشق.

ونجد في مكة سجن "عارم"، كان لعبد الله بن الزبير ثم أصبح للحجاج، وحبس فيه عبد الله ابن الزبير "محمد بن الحنفية"، فقال كثير عزة في ذلك :

تُحدّثُ من لاقيتَ أنك عائذٌ بل العائذُ المظلوم في سجن عارم[5].

كما حبّس فيه ابنُ الزبير ابنَهُ حمزة فقال الشاعر في ذلك :

إنّ الندى والمجد إذا جئتـــه والحامّل الثقل عن الغـــــــارم
والفاعل المعروف في قومـــه مكبَّلٌ في السجن من عـــــارم[6].

---

[1] - المرجع نفسه - 107.

[2] - المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[3] - المرجع السابق - والصفحة نفسها .

[4] - ديوان الفرزدق – 1/117-118 (سجل الأبيات في إعجابه بعمرو بن هبيرة الذي ظل غلمانه يحفرون إلى أن أخرجوه ليلا واتجهوا به نحو الشام...)

[5] - محمد البلاجي -شعر الأسر في العصر العباسي – 108.

[6] - المرجع نفسه والصفحة نفسها .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن سجون بني أمية سجن العقيق في بلاد أرض بني عقيل حبس فيه أميرها عقبة بن شريك يزيد بن الطثرية لديون لزمته[1].

وعرفت أرض تهامة سجن "تبالة" وهي بلدة في اليمن، بينها وبين مكة اثنان وخمسون فرسخا مسيرة ثمانية أيام، حُبس فيه مصعب بن عمرو لقتله ابن الدّمينة[2].

وكان في الطائف سجن حُبس فيه بعض الأعراب، فقال شعرا في ذلك منه :

فأنّى اهتدت تسري وأنّى تخلّصت إليّ وباب السجن بالعتل موثق[3].

كما اتخذ الأمويون إلى جانب السجن وسيلة عقابية أخرى هي النفي الذي اتخذته شعوب كثيرة، فقد كانوا يغرّبون بعض المغضوب عليهم إلى أماكن معينة مخصصة لهذا الغرض، تقع إمّا في البّر أو في البحر، أشهرها جزيرة "دهلك" في بحر اليمن، نفى إليه بنو أمية من سخطوا عليه، وهي "بلدة ضيّقة حرجة حارة"[4]، وممن نفي إليها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الذي قال فيها: "يُذهب بي إلى دهلك؟ إنما يذهب إلى دهلك بالفاسق المريب"[5].

ومن المنافي التي عرفت أيام الأمويين جزيرة "بيش" من بلاد اليمن أيضا، قرب دهلك نفى إليها الخليفة عمر بن عبد العزيز الشاعر المستهتر الماجن "الأحوص"[6].

ونفى حكام بني أمية إلى أماكن بعيدة عن شبه الجزيرة العربية مثل السّند التي غرّب إليها الحجاج بن يوسف معاوية بن قرة[7]، وخراسان التي نفى إليها يحيَ بن يعمر وقتادة بن دعامة ومحمّد بن إسحاق وعبد الرحمن بن عبد الله الجمحي وعراك بن مالك[8].

أما عبد الله بن الزبير فقد اتخذ من الطائف منفى، فغرّب إليه أبا العباس الأعمى، ونفى عن المدينة من بقي من بني أمية إلى الشام، منهم أبو قطيفة الذي سجّل قصيدة في الحنين إلى الأوطان، منها :

أقطع الليل كلّه باكتئـــــاب وزفيـــر فما أكـــــاد أنـــــام

نحو قومي إذ فرقت بيننا الدا ر وحادت عن قصدها الأحلام

---

[1] - المرجع نفسه– 109.

[2] - ياقوت الحموي -معجم البلدان – مطبعة السعادة مصر – ط1 - 1323 -1906 – 357/2.

[3] - محمد البلاجي - شعر الأسر في العصر العباسي – 109.

[4] - ياقوت الحموي - معجم البلدان – 4 /114.

[5] - ابن خلكان - وفيات الأعيان – 5/ 442.

[6] -ياقوت الحموي - معجم البلدان - 333/2.

[7] - محمد البلاجي - شعر الأسر في العصر العباسي – 110/1.

[8] - المرجع نفسه - والصفحة نفسها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خشيةً أن يصيبهم عنت الدّهـــــــــــــــر وحرب يشيب فيها الغلام[1].

ومن الواضح من خلال تتبعنا لتزلاء سجون بني أمية أن عقوبة الحبس لا تحدد بفترة زمنية معينة لكل جرم وإنما يزج بالسجين هناك ويترك الأمر لمزاج أصحاب السجن والولاة والخلفاء والأمراء، ولظروف المساجين أنفسهم، فقد يتحدر سجين من أسرة عريقة تبذل في سبيل خروجه أموالاً ووساطات شتى، وربّما أعجب صاحب سجن بفصاحة أحدهم عند مدحه أو اشتكى إليه حاله وحال أسرته فأطلق سراحه على عظم جرمه، وأبقى من لا جرم لهم ينتظرون الأجل ويموتون في الحبس صبرا.

- العصر العبـــاسي :

إذا عدّ العصر الأموي عصرا ذهبيا للسجون كما أشرنا سابقا وهو الذي لم يتعد القرن من الزمان فإننا في العصر العباسي أمام مرحلة تاريخية تمتد على مساحة خمسة قرون و نيفا و أمام مجتمع واع و متطلع بحكم التطور الذي شمل دولتهم والمدنية التي عمّت أرجاءها، ولكن أمام سلطان شديد أبسط ما يمكن أن يقال عنه أنه استعار- أول الأمر- النظم الساسانية بحذافيرها بما في ذلك الحكم وعلاقة الحاكم بالرعية، فأخذ العباسيون يلقون في وعي الناس -على شاكلة الساسانيين- أنهم أصحاب حق إلهي في الحكم، فهم "سلطان الله في أرضه"[2] وأحاطوا أنفسهم بالحجاب والحراس، مختفين عن أعين الناس، و لم يعد العرب يدخلون على الخليفة إذا أرادوا كما كانوا يفعلون أيام بني أمية وقبلها، إذ لا بدّ لهم من المرور على الحجاب واستئذانهم، فإذا دخل أحدهم على الخليفة لم ينفرد به وإنما يدخل وكبير حجابه في جانب وكبير حرسه المعروف باسم الجلاّد في الجانب الآخر، والسيف دائما أمامه، فمن غضب عليه أطاح برأسه.

إننا بإزاء حكم استبدادي أشدّ ما يكون الاستبداد، حكم لا حساب فيه للرعية، فهم مجرد: أدوات مسخرة للحاكم صاحب كل أمر وسلطان يولي الولاة والقضاة والوزراء والقواد وأصحاب الشرطة والمحتسبين ويعزلهم جميعا بحسب مشيئته وهواه[3]، وبإزاء حكم فرديّ مستبد "على النحو الذي كان يحكم به آل ساسان من قبل"[4] وصفه نيكلسون بأنه "نظام استبدادي كان مألوفا عند الفرس منذ أيام داريوس" (أي دارا)[5]، وبهذا نسجوا حول أنفسهم وعرشهم هالة من القدسية والرهبة بالحجاب والجلاّد وغيرهما من الحوائل الأخرى بينهم وبين الرعية التي لم تعد تلقى الخليفة إلاّ بشق الأنفس.

---

[1] - المرجع نفسه - والصفحة نفسها.

[2] - شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الأول – دار المعارف – ط 8 – د.ت - 21/3.

[3] - المرجع نفسه 9-43.

[4] - حسن إبراهيم – تاريخ الإسلام السياسي – ط6 - 1962- 249/2.

[5] - عبد الرزاق محمد السعيد أبو سعدة – الشعر وراء القضبان – اتجاهاته وخصائصه في ظل الدّولة العباسية - دكتوراه - 1977-1978 - جامعة القاهرة - 24، ومصطفى هداره – اتجاهات الشعر العربي في ق 2 هـــ دار المعارف – مصر 1963 نفسه نفسه - 49.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما أدخلوا نظام الوزارة لأول مرة في التاريخ الإسلامي تأسّيا بالنظام الفارسي وقد كان يسمي أيام الأمويين الوزير كاتبا أو مشيرا، ويعدّ أبو سلمة الخلال أول وزير لأول خليفة عباسي[1].

وربما كانت هذه مظاهر المرحلة الأولى من الخلافة العباسية التي أسماها أحد الدارسين بدور "القوة المركزية"[2] ويريد بذلك قوة الخليفة وسلطانه وتحكمه في زمام الأمور، وتنتهي بمقتل المتوكل، ليأتي بعده خلفاء ضعاف جعلوا أمرهم في يد قادة جندهم.

ومما لا شك فيه أن دولة مترامية الأطراف كالدولة العباسية، متخذة أسباب التقدم والنهوض في شتى مجالات الحياة، محاكية لنظم دولة قديمة عريقة ستتخذ فلسفة خاصة في بناء السجون وفيمن يقوم عليها، فهي وإن ورثت التركة الأموية فقد أقامت سجونا أخرى جديدة بهندسة عمرانية لا تختلف عن سجون الفرس والروم وما فيها من خبايا وأبواب سرية وحرس وهي أمور لا نستطيع الوقوف عندها جميعا على امتداد خمسة قرون، وإنما سنكتفي بإشارات متفرقة على مختلف المراحل، نتعرف من خلالها على طبيعة سجون بني العباس و ما اتخذته من أساليب عقابية جديدة إلى جانب الموروث القديم.

كانت السجون قبل العباسيين تجمع الناس على اختلاف منازلهم الاجتماعية، فلما عظم التوافد على المدن الكبرى واشتد خطر العامة ورافق ذلك بعض مظاهر الانحلال الخلقي وكثرت الجرائم، خصت الدولة المجرمين بمحبس لهم عرف "بسجن الجرائم"، كانوا يفردونه للذين امتهنوا جريمة قتل أو سلب. فإذا أرادوا ترويع أحد من غير طبقة المجرمين أو إهانته ساقوه إليه، يقول أبو العتاهية "لما امتنعت عن قول الشعر وتركته أمر المهدي بحبسي في سجن الجرائم وهو في مدينة الرصافة... فلما أدخلته دهشت وذهل عقلي ورأيت منظراً هالني"[3].

وكان للذين جاهروا بالمعاصي والمحرمات والمارقين من الدين سجن خاص في مدينة المنصور عرف "بسجن الزنادقة" وفصل بينهم وبين المحبوسين من غيرهم خوفا من أثرهم أو تشهيرا بهم. وقد يلقي فيه السياسيون، لإثارة الشكوك في عقيدتهم، وهو الذي سيق إليه جعفر البرمكي وابنه الفضل.

وليس في الأخبار ما يشير إلى حبس خاص بالولاة والأمراء، وقد اتخذ المعتصم سجنا في باطن الأرض ورفع فوقه منارة وخصّ به الثوار على الحكم، "وكان كالبئر العظيم قد حفرت إلى الماء القريب منه، ثم فيها بناء على هيئة المنارة مجوّف من باطنه، وله من داخله مدرج، قد جعل في مواضع من التدريج مستراحات وفي

---

[1] - ابن طباطبا – الفخري في الآداب السلطانية - 136 .

[2] - – أنيس المقدسي – أمراء الشعر العربي في العصر العباسي- دار العلم للملايين – بيروت ط 8 – 1969 - 7.

[3] - أحمد مختار البرزة – الأسر والسجن في شعر العرب – 120.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كل مستراح شبيه بالبيت يجلس فيه رجل واحد كأنه إلى مقداره يكون مكبوبا على وجهه ليس يمكنه أن يجلس ولا يمد رجله[1].

وكان مثل هذا التخصيص في غير بغداد أيضا وعلى تعاقب القرون، ذكر ذلك المقريزي في سجون مصر، كما اتخذت القلاع سجوناً في العصر الإسلامي مر عليها الشاعر حسام الدين عيسى بن سنجر الإربلي الذي سجن في قلعة "حفيدكان" ثم في قلعة "إربل" وقابوس بن وشمكير الديلمي في قلعة بجرجان وبها مات ومن هذه القلاع قلعة تكريت[2].

كما خصت بعض القصور العباسية بسجون داخلية، لا سيما لما ضعف سلطان الدولة المركزية وقوي نفوذ أطراف أخرى كأمير الأمراء والحجاب وقوّاد الجند وأصبح لكل سلطانه وثقله ووسائل ردعه ليحترز من خصومه في جوّ كثرت فيه المؤامرات والانقلابات، فكان أن اتخذت كل فئة حبسا داخل قصرها، لأن الحبوس العامة تتلقى أوامرها ومواردها من الخليفة أو وزيره، وكانت أغلبها سراديبا وسجونا محصنة، كثيرة الأبواب، وربما عدّ الحبس فيها إكراما أو تخفيفا، وربما عدّ هو الموت المحقق. كما حوّلت بعض الأدبرة القديمة في الصحاري والأماكن النائية عن المدن إلى مراكز عسكرية ومحابس تؤوي العصاة، مثل "دير بن عامر" و "دير حز قيال" و"دير القائم" الذي نزله يحي بن خالد البرمكي وابنه الفضل[3].

ولعّل صاحب النصيب الأوفر من هذه السجون هم أبناء المعارضة السياسية وإن أعمل العباسيون السيوف في كثير منهم فقد زجّوا بالكثير أيضا في غياهب سجونهم ، ويأتي في مقدمتهم العلويون الذين ذاقوا الكثير من العذاب وأول من توفي منهم في الحبس إبراهيم بن الحسن في حبس أبي مسلم الخراساني"[4]، وعبد الله بن الحسن في حبس المنصور بالهاشمية"[5].

وكانت ثورة محمد النفس الزكية وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن سببا في نكبة الكثيرين منهم، فقد "أخذ المنصور عبد الله وأهل بيته وألقاهم في سجن الكوفة، وامتنع عبد الله أن يسلم إليه ابنيه مدّعيا جهله مكانيهما وكانت نتيجة هذا الحبس الشديد أن مات أكثرهم في الحبس"[6]. وغالى العباسيون في التنكيل بكل من تسوّل له نفسه السير في ركاب العلويين، ولو كان في أعلى مناصب الدولة، مثلما حدث ليعقوب بن داود الذي بدر منه ميل إلى أولاد عبد الله بن الحسن، وأخذ أهل بيته ينشرون الدعوة لمحمد النفس الزكية،

---

[1]- المرجع السابق – 118 .

[2]- ابن خلكان – وفيات الأعيان – 1/ 169، وياقوت الحموي – معجم الأدباء – 6/ 144 .

[3]- عبد العزيز الحلفي – أدب السجون – 160-165، وأحمد مختار البرزة – الأسر و السجن في شعر العرب - 123 .

[4] - عبد الرزاق أبو سعدة – الشعر من وراء القضبان - 24.

[5] - المرجع نفسه - والصفحة نفسها.

[6] - المرجع نفسه - والصفحة نفسها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وانصهروا تحت لواء أخيه إبراهيم في العراق. ثم اختفوا بمقتل هذا الأخير، حتى ظفر بهم المنصور حبسهم، ولما تولى المهدي الخلافة أطلقهم واستوزر يعقوب بن داود ثم سجنه[1].

وقد أحصيت في كتاب "أدباء السجون لعبد العزيز الحلفي"[2] ما يقارب الأربعين شخصية زجت بها المقادير في سجون بني العباس من الأدباء والشعراء الذين خلدوا ذلك في نتاجهم الأدبي، مما يوحي أن عددهم من غير الأدباء والشعراء كثير جدًّا لا يحصى وقد عمَّى التاريخ أغلبه خشية بطش الحكام أنفسهم، ويكفي أن نجد واحدا من أكبر الباحثين والمؤلفين المسلمين القدامى في المسائل المتعلقة بنظام الحكم "أبو الحسن الماوردي (ت 540هـ) يوصي بعد أن وضع كتابه الشهير "الأحكام السلطانية" بعدم نشره إلاّ بعد وفاته، "خوفا من بطش الخلفاء العباسيين وطغيانهم"[3] وسنكتفي هنا بالإشارة إلى أشهر سجون العصر العباسي وأشهر زوّارها أو قاطنيها الدائمين .

- سجن خراسان : وهو أول سجون بني العباس لبدء دعوتهم هناك، وفيه سجن أبو مسلم الخراساني عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب"، ثم قتله.[4]

- سجن بغداد : ويبدو أنه سجن جديد أقامه العباسيون في هذه المدينة الحديثة الإنشاء، وفيه سجن خلق كثير نذكر منهم إبراهيم الموصلي بسبب إدمانه الخمر وأبو العتاهية لغزله بجارية الرشيد وأبو نواس لهجو العدنانية وابن الماشطة والصابي من الأدباء والشعراء ،كما نزله من رجال السياسة والمعارضة عبد الملك بن صالح العباسي وإبراهيم بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور (أخ هارون الرشيد) ،وعلي الجمّاني من الشعراء الطالبين، وابن المعتز، وقد سجل هؤلاء جميعا أشعارا ونصوصا نثرية رائعة يصفون فيها معاناتهم خلف الأسوار، وسنكتفي هنا بإشارات موجزة إلى كل ما عرفته الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف مشرقا ومغربا من سجون[5]،ولا تختلف الإمارات المستقلة والدويلات الصغيرة المنفصلة عن الجو العقابي العام الذي عرفه العصر العباسي سواء في ذلك من أعلن منها الولاء لبني العباس ومن أعلن تمرّده عليها كالأدارسة مثلا والدولة الأموية في الأندلس والفاطميون في القاهرة والحلبيون في حلب، فقد ورث هؤلاء جميعا ما ورثوه من سجون عن سابقيهم، وشيدوا أخرى جديدة تفي بالحاجة وتنسجم والتطور العمراني الذي عرفته بعض المناطق من أرجاء الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف.

---

[1] - حسن إبراهيم – تاريخ الإسلام السياسي- 165/2.

[2] - عبد العزيز الحلفي – أدباء السجون - العصر العباسي - 137- 309. (هذا عدا سجون المغرب والأندلس ومصر والشام أيام الفاطميين والأيوبيين).

[6] - إمام عبد الفتاح إمام - الطاغية - دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي - الكويت - سلسلة المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والآداب - 224، وعبد الحميد متولي - أزمة الفكر السياسي الإسلامي– الهيئة المصرية العامة للكتاب 1985 - 50.

[7] - عبد العزيز الحلفي – أدباء السجون -141.

[5]- انظر المرجع نفسه : 97 - 99، 144 – 207، 271 - 305 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ونعني بذلك ما عرفته الأندلس والمغرب الإسلامي عموما وجميع الإمارات والدويلات المستقلة من مؤسسات عقابية ردعية .

- سجن المطبق : وهو سجن في باطن الأرض اتخذه المنصور لتعذيب المغضوب عليهم، كما اتخذ المهدي مطبقا للغرض نفسه نزله يعقوب بن داود ومكث فيه طويلا (سنتين وشهورا من أيام المهدي وجميع عهد الهادي وخمس سنوات وشهرين من أيام الرشيد) ثم أطلق سراحه.

- "دير القائم" ويسمى دير القائم الأقصى على شاطئ الفرات الغربي، سمي كذلك لأنّ له مرقبا عاليا، وفيه سجن يحي بن خالد البرمكي الذي مات حتف أنفه فيه وابنه الفضل الذي مكث ثلاث سنوات ومات في سجنه.

- سجن الهاشمية وهي المدينة التي بناها أبو العباس السفاح ويبدو أن السجن في أحد قصورها، حبس فيه المنصور عبد الله بن المحصّن مع من حبس من بني الحسن، وفيه مات صبرا، وفيه حبس علي بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب المعروف بعلي الحبر.

- سجن سامرّاء : وهو سجن اتخذه المعتصم في المدينة الجديدة التي ابتناها لجنده الأتراك واتخذ منها عاصمة للخلافة، من الذين حبسوا فيه الأفشين (من أشراف الأتراك...). و تميم بن جميل السدوسي أحد الأمراء والشجعان، أمر المعتصم بحبسه، فمكث قليلا ثم أفرج عنه لفصاحته وحسن بيانه، كما زجّ المتوكل في غياهبه بالشاعر الكاتب ابن الزيات، وفيه عذّب بالعذاب نفسه الذي كان يسوم به الناس عندما كان وزيرا للمعتصم والواثق. ومن نزلائه إبراهيم بن المدبّر الشاعر الكاتب أيام المتوكلّ ثم عفا عنه، ومحمد بن صالح العلوي الذي أعلن الثورة على المتوكل فحبسه فيه ثلاث سنوات وأطلق سراحه بشفاعة الفتح بن خاقان على ألاّ يبرح سامرَّاء، وهذا ما يشبه الإقامة الجبرية، وعلي بن الجهم الذي مكث فيه حينا من الدَّهر ثم نفي إلى خراسان. وفيه سجن الحسن بن وهب الكاتب الشاعر ، نكبه المتوكل وسجن معه أخاه سليمان بن وهب وطال اعتقالهما ثم استعطف المتوكل فعفا عنهما معا.

- سجن دار الخلافة : من الذين سجنوا فيه ابن مقلة صاحب الجاحظ الشهير، سجنه ابن الفرات ثم خرج منه وزيرا للمقتدر ثم عزل وسجن ثم خرج من سجنه ليتولى الوزارة للراضي ثم حبس وضيّق عليه وقطعت يده اليمنى ومات هناك.

- سجن مكـــة : وربما كان من ميراث التركة الأموية، وفيه سجن جعفر بن علبة الحارثي (بجريمة القتل) فظل هناك إلى أن مات، كما سجن فيه المنصور الحسن الطالبي وضربه بالسياط إلى خلافة المهدي الذي أطلق سراحه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- سجن الأهواز: (بين البصرة وفارس) من نزلائه السيد الحميري حبسه عسس الأهواز خطأ، وأخرجه واليها أبو بجير واعتذر له، ونزله إبراهيم الصولي الذي كان عاملا على الأهواز، فتحامل عليه ابن الزيات فعزله وسجنه... إلى أن أطلقه الواثق. وسجن فيه تاج الدولة البويهي.

- سجن الـــري : حبس فيه ابن العميد الكاتب الشهير، الوزير أيام آل بويه، وظل به حتى تلف.

- سجن واسط : نزله الأصبهاني الكاتب الشهير صاحب الخريدة.

ومن سجون الإمارات المستقلةو المغرب والأندلس[1] :

- سجن إربـــل: من سجنائه "شرف الدين الإربلي" سخط عليه الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل فاعتقله مدة ثم أخرجه ونفاه إلى دمشق.

- سجن حلـــب : من الذين نزلوا به أبو العباس الصفدي.

- سجن حمـــاه : حبس فيه المظفر صاحب حماه، وزيره عبد الرحمن القوصي ومات فيه

- سجن مراكش : من الذين حبسوا فيه أحمد بن عقبة القصاعي.

- سجن فـــاس : وفيه سجن الشاعر والكاتب لسان الدين بن الخطيب

- سجن أغمات : وفيه سجن الأمير والشاعر "المعتمد بن عباد".

ويبدو أن السجن في المغرب لا يختلف عنه في المشرق نظرا للامتزاج العرقي والاجتماعي الكبير بين البيئتين والأسفار المستمرة بينهما.

ولعلّ العامل السياسي هناك يأتي أيضا في صدارة العوامل المؤدية إلى الحبس، فلم يكن أمراء وسلاطين المغرب الإسلامي يتسامحون مع المعارضة، ليس بالحبس والتعذيب فحسب وإنما كثيرا ما لجأوا إلى الخلاص النهائي من الأعداء في أغلب الأحيان على منهج بني العباس في بدايات تأسيس دولتهم، ويكفي أن نذكر من الأندلس أبا خالد هاشم بن عبد العزيز بن هاشم الوزير لدى محمد بن عبد الرحمن الذي سجنه الأمير المنذر بن محمد وصادر أمواله وهدّم داره وحبس أبناءه ثم أمر بصلبهم[2].

وابن زيدون المخزومي القرطبي الذي اتهم بالتدبير لقلب نظام الحكم والميل إلى عودة الخلافة الأموية، ومثله ابن عمار الذي استوزره المعتمد بن عبّاد ولقي على يده أيضا مهلكه في سجن إشبيلية إذ قتله بيده سنة 477هـــ بعد أن مكث فيه حينا[3].

---

[1]- انظر المرجع السابق : 207 - 271 .

[2] - بسيم عبد العظيم - شعر الأسر والسجن في الأندلس - جمع وتوثيق ودراسة - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط2 - 1417- 1996 - 16.

[2] - المرجع نفسه - 23 .

[3] - المرجع نفسه - 24-25.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن الشعراء الذين سجنوا بسبب تعرضهم للحاكم في شعرهم أبو مروان عبد الملك بن إدريس الحزيري الخولاني وأبو عمر يوسف بن هارون الرمادي الكندي، فكلاهما سجنه الحكم المستنصر بسبب الانتقاد السياسي[1]. ومن نزلاء السجون الأندلسية لدوافع سياسية الفقيه الجليل أبو محمد بن حزم بن غالب الأندلسي حبسه يحي بن علي بن حمود حاكم قرطبة بتهمة الميل إلى الأمويين.

ولعل آخر سجناء السياسة في الأندلس (من الشعراء) ملك غرناطة وشاعرها السلطان يوسف الثالث الذي سجن في عهد أخيه السلطان محمد السابع[2].

وتأتي بعد الدوافع السياسية الأسباب الدينية ومنها تهمة الزندقة التي ألصقت بالشبانسي وربما كان ذلك غطاء لسبب خفي هو المروانية[3]، وسجن فيها الشاعر أبو عبد الله محمد بن مسعود الغساني الذي كان ماجنا متهتكا معبرا عن ذلك في شعره في سجن "المطبق" أيام المنصور الذي كان من أشدّ الناس في التغير على من علم عنده شيئا من الفلسفة والجدل في الاعتقاد والتكلم في شيء من قضايا النجوم وأدلتها، والاستخفاف بشيء من أمور الشريعة[4].

وكانت تهمة ابن باجة فيلسوف الأندلس ووزيرها –كما يرى الفتح بن خاقان- التعطيل في الدين، أو ما يعرف بالدهرية المنكرة للمعاد، المعتقدة بفناء النفس مع الجسد[5].

هذا إلى جانب دوافع أخرى كثيرة تأتي في مقدمتها الجرائم المتعلقة بالقتل والسرقة والزنا وغير ذلك من الانحرافات التي عرفها المجتمع الأندلسي، وشابهه في ذلك المجتمع المغربي وإن لم نجد إشارات وافية عن سجون المغرب العربي وظروفها وأصحابها، فإن المغرب الأقصى كاد يتفرد بها ربما لقربه من الأندلس من جهة ولاستقرار الحكم فيه من جهة أخرى، ولعلّ المعتمد بن عبّاد الملك الشاعر من أشهر الذين نزلوا السجن بعد استغاثته بسلطان المغرب الأقصى يوسف بن تاشفين الذي لبّى النداء وهزم النصارى في موقعة الزلافة الشهيرة ورأى أن صلاح الأندلس في زوال ملوكها المتناحرين. وقد اقتيد بعد سقوط إمارته إلى سجن أغمات الشهير ومنه تنفست روائع المعتمد بن عباد الخالدة على مرّ الأيام ،كما نزل بسجن فاس ذو الوزارتين الفقيه الكاتب والوزير الشاعر لسان الدين بن الخطيب أيام المرينيين ومكث فيه إلى أن وافته المنية[6].

أما سجون مصر في عهد الفاطميين والأيوبيين فقد تحدث عنها المقريزي في خططه حديثا مفصلا[7] نذكر منها :

---

[4] - المرجع نفسه - 20-21.

[5] - المرجع نفسه - 39-40.

[4] - المرجع نفسه- 41 .

[5]- أحمد مختار البرزة – الأسر والسجن في شعر العرب - 346-347.

[6] - بسيم عبد العظيم – شعر الأسر والسجن في الأندلس - 28 - 32.

[7] - المقريزي – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار- مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع - د.ت - 2/187-189.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- حبس الصيّار : كان يحبس فيه الولاة بعدما حوّل حبس المعونة إلى مدرسة.

- خزانة البنود : كانت في الدولة الفاطمية خزانة من جملة خزائن الدولة يعمل فيها السلاح فلما احترقت (سنة 461هـ) عملت "سجنا يسجن فيه الأفراد والأعيان إلى أن انقرضت الدولة فأقرّها ملوك بني أيوب سجنا، ثم عملت منزلا للأمراء من الفرنج يسكنون فيها"[1] ثم هدمها الأمير الحاج آل ملك الجوكندار نائب السلطنة بديار مصر سنة 744هـ .

- حبس المعونة : وكان دارا للشرطة ثم صارت حبسا ، وفيه يسجن أرباب الجرائم من السرّاق وقطاع الطريق ونحوهم في الدولة الفاطمية وكان حبسا حرجا ضيقا شنيعا يشم من قربه رائحة كريهة، فلما ولي الملك الناصر محمد بن قلاون مملكة مصر هدمه".[2]

- خزانة شمائل : من أشنع السجون وأقبحها منظرا ، يحبس فيها من وجب عليه القتل أو القطع من السّراق وقطّاع الطريق ومن يريد السلطان إهلاكه من المماليك وأصحاب الجرائم العظيمة، هدمه الملك المؤيد شيخ المحمودي في (العاشر من ربيع الأول 818هـ).

- المقشرة : كان يقشر فيه القمح، فلما هدمت خزانة شمائل عيّن هذا البرج والمقشرة لسجن أرباب الجرائم، "وهو من أشنع السجون وأضيقها يقاسي فيه المسجونون من الغمّ والكرب ما لا يوصف"[3].

- الجبّ بقلعة الجبل : يسجن فيه الأمراء، و لم يزل كذلك إلى أن هدمه الملك الناصر محمد بن قلاون في (السابع عشر من جمادى الأولى سنة 729هـ) وسبعمائة، لما علم بما فيه من ظلام وكثرة الوطاويط والروائح الكريهة وما يعانيه الأمراء بالجب من الشدائد.

- حبس الديلم والرحبة : أشار إليهما شارح الخطط في الحاشية دون أن يذكر طبيعتهما أو الطبقة التي خصصا لاحتوائها.[4]

ننتهي من هذه الإطلالة أن سجون المماليك يكاد كلّ منها أن يخصص لطبقة معينة دون غيرها وهو الأمر الذي شهدناه في بعض سجون بني أمية وبني العباس، فمنها الخاص بالأمراء ومنها المخصّص لذوي الجرائم المعينة كالسرقة وقطع الطريق... ومنها المخصّص للمحكوم عليهم بالقتل أو القطع.

- **في العصـــور الوسطـــى:**

---

[1] - المرجع نفسه - 188.

[2] - المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[3] - المرجع السابق والصفحة نفسها.

[4] - المرجع نفسه - 189.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يشكل الحبس في العصور الوسطى في كل البلاد وبخاصة في الغرب المسيحي أداة قوية من أدوات الانتقام والتعذيب، ففي أوروبا وقت الإقطاع ووقت ازدياد نفوذ الكنيسة عانى المجتمع من مآسي كثيرة ارتكبت باسم الدين[1].

فقد حاول ملوك العصور الوسطى ارتداء عباءة الدين والادعاء بأنهم يستمدون سلطانهم من الله ليبرروا سلطتهم المطلقة، وربما كان ذلك منهم تقليدا للدولة اليهودية أو الطغيان الشرقي القديم[2]. مستندين إلى نصوص دينية كثيرة مدعمين بها ملكهم ونذكر منها عبارات القديس بولس Paul Le Saint : "أيها العبيد أطيعوا في كل شيء سادتكم... والظالم سينال ما ظلم به، وليس ثمة محاباة"، و"لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة، لأنه ليس سلطان إلاّ من الله... من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله..."[3] وهي نصوص نفهم منها أن الحاكم يستمد سلطته السياسية من الله، وعليه فإن مقاومته تعني عصيان الإرادة الإلهية ومعارضة المشيئة الإلهية، ومن هنا ظهر المبدأ الذي حكم به الطغاة واستغلّه الملوك المستبدّون طويلا في أوروبا : "كل سلطة فهي مستمدة من الله OMNIS POTESTES A DEO وهو المبدأ الذي يبرّر الطاعة المطلقة والاستسلام الكامل للطاغية أينما وجد[4]. "ومن هنا كان على الشعوب أن ترضخ لطغيان الحكام وسلطانهم غير المحدودة وكان لا بدّ أن تستمر الحال على هذا النحو ما يقرب من خمسة قرون."[5] ومع مرور الوقت دخلت الكنيسة طرفا في إضفاء الشرعية الدينية على الحاكم، وكثر المنظرون منها للحاكم الطاغية والمبررون لحكمه المطلق أمثال مارتن لوثر Marthen Luther (1483-1546م) وجون كالفن John Calven (1509م-1564م)، ولنذكر من ذلك قول مارتن لوثر المصلح ورجل الدين: "أمراء هذا العالم آلهة، والناس العاديون هم الشيطان، وعن طريقهم يفعل الرب أحيانا ما يفعله في أحيان أخرى مباشرة عن طريق الشيطان، أو أنه يجعل الثورة عقوبة لخطايا الناس... إنّي لأفضل أن أحتمل أميرا يرتكب الخطأ على شعب يفعل الصواب"[6].

ويقول مرّة أخرى أنه ليس من حق المواطن أي مواطن التمرد أو الثورة على رئيسه أو حكومته مهما كانت أساليبه وغاياته : "ليس من الصواب بأي حال أن يقف أي مسيحي ضد حكومته سواء أكانت أفعالها عادلة أم جائرة... ليس ثمة أفعال أفضل من طاعة من هم رؤساؤنا وخدمتهم. ولهذا السبب أيضا فالعصيان خطيئة أكبر من القتل، والدّس، والسرقة، وخيانة الأمانة، وكل ما تشتمل عليه هذه الرذائل"[7]. وإن وجد بعض

---

[1] - مجلة العربي – عدد 200 – يوليو 1975 – جمال الدين محمد محمود – السجون بين الأمس واليوم - 114-115.

[2] - إمام عبد الفتاح إمام – الطاغية - 160.

[3] - المرجع نفسه - 163.

[4] - المرجع نفسه - 164.

[5] - المرجع نفسه - 165.

[6] - المرجع نفسه - 173.

[7] - المرجع نفسه - 174.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الرافضين الذين ذهبوا إلى أن "النظام الملكي غير المحدود هو أسوأ أشكال الحكم"[1] وذهب "يوحنا السالسوري، والقديس توما الأكويني إلى أبعد من ذلك إذ أجازا قتل الحاكم الطاغية[2]، فقد اشتهرت بعض البلاد بنظم قاسية تحكم سجونها كنظام سجون بنسلفانيا (بأمريكا الشمالية) الذي كان قاسيا، يحبس فيه المسجون منفردا عن غيره ليلا نهارا، ولا يسمح له بالكلام مع غيره، ولا يخفى ما تسببه تلك العزلة القاسية من أضرار بالسجين وصلت بالبعض إلى البله والجنون[3] وقد ظل قائما إلى عهد قريب.

ولنا أن نتصوّر ما الذي يمكن أن يلقاه كل من حاول الخروج عن تلك القوانين التي اكتست طابع القداسة، ولنذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر تلك الطائفة من العلماء والمخترعين التي لاقت الأمرّين على يد رجال الكنيسة والحكام، وانتهى الأمر بكثير منها إلى الإعدام في أبشع صوره.

وتشكل السجون في العصور الوسطى وفي كل البلاد تقريبا أداة ناجحة للانتقام والتعذيب، لا تختلف في ذلك سجون الغرب عن سجون الشرق الإسلامي، فحدث ما شئت عن سجون أوروبا وقت الإقطاع ووقت ازدياد نفوذ الكنيسة، فيما يتعلق بجرائم الأشخاص ضد الدين أو الكنيسة، وحدث كذلك عن سجون الشرق في عصر الخلفاء المتأخرين وسجون المماليك "و إن كانت سجون العثمانيين أخف وطأة من غيرها من السجون السابقة، ففيها يجد السجين الكثير من الحرية التي افتقدها غيره، يقول أحمد حلمي: "إن سجون الولايات العثمانية ليست إلاّ معقلا يعمل المسجون داخله ما أراد من لعب أو صناعة أو حديث أو قراءة كما كانت السجون المصرية القديمة وأنهم كافة يبيتون في فضاء السجن ولا تغلق أبواب الغرف إلاّ عند المساء"[4].

ولنتوقف عند مثال واحدٍ على ما يلحق بالمحكوم عليهم بالإعدام من عذاب وهو حادثة إعدام "داميان" Damiens أو كما أحب ميشال فوكو أن يعنونها بـــ "جسد المحكوم عليهم"، ففي آذار 1775م حكم عليه بأن يدفع غرامة معنوية هي الإقرار بالذنب علنا أمام باب كنيسة باريس الرئيسي، ثم يسحب ويقاد في عربة... ثم يقرص بقارصة في حلمتيه وذراعيه وركبتيه وفخذيه، ثم تحرق يده بنار الكبريت ويصبّ في مواضع القرص رصاص مذوّب وزيت محمي وقار صمغي وحارق وشمع وكبريت ممزوجين، وبعدها يمزق جسده ويقطع بواسطة أربعة أحصنة يجري كل منها في اتجاه، ثم تتلف أوصاله وجسده، بأن تحرق بالنار إلى أن تتحوّل إلى رماد... وقد طالت مدّة العملية لأن الأحصنة المستخدمة لم تكن متعوّدة على الجرّ... مما اضطر القائمين عليها إلى اقتطاع أعصابه ومفاصله بالفأس... وتوجب قطع اللحم حتى العظم تقريبا[5]...

---

[1] - المرجع نفسه - 69.

[2] - المرجع نفسه- 169.

[3] - مجلة العربي – عدد 200 - المقال السابق- 155 .

[4] - محمد محمود الغرباوي – الشعر في سجون مصر - 18.

[5] - ميشال فوكو – المراقبة والمعاقبة – ولادة السجن – ترجمة علي مقلّد – مركز الإنماء القومي – مشروع مطاع الصفدي VI - 47.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكان يصاحب مثل عمليات القصاص هذه احتفال مهيب يجتمع فيه الناس ليشهدوا كل مراحله، ويسمى عندهم "بعيد القصاص"[1].

وقد لاقت هذه الحادثة وأمثالها الكثير من ردود الأفعال والرفض والكتابات الأدبية[2]، التي كان لها ولنضالات كثيرة الفضل في ميلاد مؤسسات عقابية أقل ما يقال عنها أنها حديثة، ولكن هل خلت هذه الأخيرة من بعض مخالفات ذلك الماضي السحيق.

- السجـــون الحـــديثة :

انتهت العصور المظلمة بظلامها، وتطلّع إنسان العصر الحديث إلى بزوغ فجر جديد تشعُّ منه الحرية ويعمّه العدل والرّفاه ، وإن ظهرت بعض الحركات الإصلاحية الداعية إلى الرفق بالمسجونين ووضع قوانين جديدة وتشريعات قضائية ترفض أساليب التعذيب والانتقام وتتجه خطوات نحو الهدف الإصلاحي. ومن طلائع الداعين إلى ذلك جون هوارد John Hauard الإنجليزي عام 1577م، والشاعر الفرنسي الشهير فولتير Voltaire وبنتـــام Bentham الإنجليزي وبكاريا Baccaria (1738م-1794م)[3] فقد أعلن هذا الأخير ثورته على قسوة العقوبات وبشاعتها وإدانته لتعسّف القضاة وتحكمهم في مصائر المتهمين[4].

وبدأت بعض الهيئات الدولية تتبنّى الأفكار التي تهدف إلى جعل السجن أداة إصلاح وتهذيب أولاً، وشكلت الجمعية الدولية للعقوبات والسجون سنة 1880، ووضعت نموذجا للقوانين التي يتعين اتباعها في معاملة المسجونين سنة 1933م وعرضتها للمناقشة في عصبة الأمم عام 1935م، وللغاية نفسها أنشئت لجنة خاصة في المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة[5].

وهكذا تحولت النظرة الحديثة للسجون وأصبحت مؤسسات للإصلاح والعلاج أولا وليست للعقاب والانتقام، وعلى أساس هذه النظرية الحديثة تغير تصميم السجون والمؤسسات الإصلاحية الأخرى من حيث طراز بنائها وموقعها وتقسيم الأماكن فيها، إذ أصبح السجن مصمما على أساس أداء وظيفة الإصلاح والعلاج وهو ما يعرف بـــ "السجن الوظيفي أو العملي"[6]. وأصبح يضم إلى جانب السجان طاقما إصلاحيا تربويا من مدير للتعليم ومعلم للحرف ومرشد ديني وأخصائي في الإجرام وآخر في الخدمات الاجتماعية وآخر في علم

---

[1] - المرجع نفسه - 51.

[2] -انظر على سبيل المثال رائعة فكتور هيجو Victor Hugo – مذكرات محكوم عليه بالإعدام – كتاب الهلال – العدد 405 - 1984 – والتي قدم لها بمرافعة طويلة ينتقد فيها المجتمع على امتداد ما يقارب الأربعين صفحة (7-44).

[3] - مجلة العربي – عدد 200- المقال السابق - 115.

[4] - مجموعة مؤلفين – السجون مزاياها وعيوبها من وجهة النظر الإصلاحية –المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب – الرياض - 1984/1404 - 19.

[5] - مجلة العربي – عدد 200 المقـــال نفسه – 115-116.

[6] - عريم عبد الجبار – السجون الحديثة – طبيعتها خصائصها ووظائفها – مطبعة المعارف – بغداد - 1967 – 9.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النفس وطبيب إلى جانب الطاقم الإداري والموظفين.[1] وهي أمور توحي أن الغاية من حياة السجين داخل هذه المؤسسة الإصلاحية العقابية هي إصلاحه وعلاجه وتعليمه وإعداده لما بعد السجن، لحياة الحرية والاندماج من جديد في المجتمع[2]. وإن أبدى ميشال فوكو تشاؤمه من هذه التعديلات والتحسينات التي حلت محل منصات المشانق وأعياد القصاص، وعلق عليها بسخرية لاذعة قائلا : "وربما كنا نخجل اليوم من سجوننا، أما القرن التاسع عشر فقد كان فخورا بقلاعه التي كان يبنيها عند حدود المدن وأحيانا في قلبها، كان يتغنى فخورا بهذا اللطف الجديد الذي حلّ محلّ منصات المشانق، وكان يتباهى بعدم معاقبة الأجسام، وبمعرفته كيف يصلح النفوس. إن هذه الجدران وهذه الأفعال، وهذه الزنزانات كانت تشكل مشروعا للتقويم الاجتماعي"[3].

ولكنها لم تحقق ذلك المشروع الحلم، فقد ألغي الوسم بالحديد المحمى في فرنسا عام 1832، وفي إنجلترا عام 1834... ولكن السوط ظل قائما حتى ذلك الحين، وموروست عقابات جسدية بصور محتشمة خفية استجابة لنداءات منع المساس بالجسد إلى حدّ ما، لتتحول العقوبة إلى فن آخر جديد يمارس على الأحاسيس التي لا تطاق، ويحلّ محل الجلاّد مراقبون وأطباء وكهنة وعلماء نفس ومربون يكفلون عدم المساس بالجسم والمساس بما عداه، "إن التكفير الذي يتكالب على الجسد قد استبدل بقصاص يعمل بالعمق على القلب، والفكر، والإرادة، والاستعدادات... فليتناول القصاص...هكذا، الروح قبل الجسم"[4].

ويدلّ اتجاه التشريعات في البلاد العربية على الرغبة في اتخاذ السجن مؤسسة تهذيبية تربوية، من ذلك مثلا إلغاء النص على تكبيل قدمي المحكوم عليه بالأشغال الشاقة بالحديد في مصر بعد أن كان منصوصًا عليه في لائحة السجون الصادرة بالمرسوم (180 لسنة 1949م) واختفاء الفارق بين عقوبة السجن وعقوبة الحبس في كثير من القوانين العربية.[5]

ولكن السؤال الذي يلح علينا بالطرح ويفرض نفسه هو مدى مصداقية هذه العهود والمواثيق والاتفاقيات والقوانين الجديدة، ومدى النعيم الذي يرسف فيه سجناء العصر الحديث.

إننا ونحن نتأمل سجون هذا العصر؟، عصر الحرية والنهضة والعلم وسلطان العقل نجد أن كل ما قيل عن إمكانية التحول بهذه المؤسسة من العقاب والانتقام إلى البناء والإصلاح لا يعدو أن يكون حبرا على ورق. سواء في البلاد التي تزعم التطور أو في مستعمراتها من بلدان العالم الثالث أو في البلاد النامية بعد تخلّصها من نير الاستعمار.

---

[1] - المرجع نفسه - 10.

[2] - المرجع نفسه – 13.

[3] - ميشال فوكو – المراقبة والمعاقبة – 53 .

[4] - المرجع السابق – 57.

[5] - مجلة العربي – عدد 200 – المقال السابق - 116.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولعلّ الملاحظة التي يجب تسجيلها عن السجون في هذا العصر هي أن أغلب حالات السجن التي بلغتنا أخبارها ونالت قسطا من وسائل الإعلام (المكتوبة خاصة) هي ما تعلقت بالجرائم السياسية التي لا يخجل أصحابها من الاعتراف بها أو الكتابة عنها. بل كثيرا ما كانوا يفاخرون بها، بينما يفضل أصحاب الجرائم الجنائية التكتم خوفا من عين الرقيب الاجتماعي الذي لا يغفر لهم مثل تلك السقطات.

ويكفي أن كل الحالات التي سنتناول ما ترتب عنها من نصوص شعرية هي ما أسميناها بشعر الحبسيات من نتاج السجن السياسي باستثناء حالتين، وهو الأمر الذي يفرض علينا وقفة قانونية علمية عند الجريمة السياسية وأبعادها وعقابها وموقف الرأي العام والدولي منها، وهل للحاكم- أنى كان - الحق في حبس كل من يخالفه علانية في الرأي أو الانتماء أو ينتقد بعض مزالقه ومفاسده.

رأينا كيف كان القدامى يعجلون إلى التخلص من كل معارض لسلطانهم بالقتل غالبًا. والسجن أحيانا دون أن يكون لديهم تصوّر ما عن طبيعة هذه المعارضة. أما في العصر الحديث فقد اتخذت لها تسمية محددة هي "الجريمة السياسية" وفصلت لها ثوبا فضفاضا يمكنه احتواء كل ما من شأنه المساس ولو بشعرة واحدة من السلطان ، فهي وإن اختلفت التشريعات في أمر تعريفها من بلد إلى آخر، فإنها تقف عند نقاط التقاء جامعة كبرى، فهي جرم يعتدي به فاعله على مصلحة سياسية للدولة أو مصلحة سياسية للمواطن، ما لم يكن من الجنايات الخطيرة من حيث الأخلاق والحق العام كالقتل، والجرح الجسيم والاعتداء على الأملاك إحراقا أو نسفا أو إغراقا[1]...وقد ذكر وارتون Warthon في معجمه أن الجريمة ذات الطابع السياسي هي الجريمة التي تلازم
الاضطراب السياسي وتشكل جزءا منه[2].

وعرف جارسون Garrison الجريمة السياسية الصرفة بأنها الجريمة التي تكون نتيجتها الوحيدة والمطلقة أيضا تدمير النظام السياسي أو تعديله أو إزعاجه في واحد أو عدّة من أركانه وهذا النظام يتضمن في الخارج استقلال الدولة وسلامة بلادها وعلاقاتها مع سائر الدول وفي الداخل يتضمّن شكل الحكومة وتنظيم السلطات العامة، وأخيرا حقوق المواطنين[3].

فهي تشمل أعتى صور الرفض كالانقلاب مثلا وأدناه كالانتقاد بمقال أو قصيدة أو رواية أو قصة أو مسرحية. وهو الجانب الذي يعنينا والمعروف غالبا بجريمة النشر وهي "التي تقع بطريق القول أو الكتابة، أو

---

[1] - محمد عطيه راغب – التمهيد لدراسة الجريمة السياسية في التشريع الجنائي العربي المقارن - مكتبة النهضة المصرية - مطبعة المعرفة - ط1 – د ت - 3-5.

[2] - عبد الحميد الشواربي - الجرائم السياسية - منشأة المعارف - الاسكندرية - 1989 – 37.

[3] - المرجع نفسه - 39.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإشـــارة في علانيـــة"[1].

وقد قرر بعض القضاة أن جرائم النشر لا تستتبع بذاتها أن تكون جرائم سياسية إلاّ إذا كانت موجهة مباشرة إلى النظام السياسي للدولة أو رئيس الدولة أو حكومتها أو علاقتها بالدول الأخرى واتفقوا على إخراج ما استهدف قلب النظام الاقتصادي أو الاجتماعي أو إحداث تغيير فيها من دائرة الجرائم السياسية وإلحاقها بجرائم القانون العام وما يتبعه من عقوبات[2].

ولكن المفارقة عجيبة بين ذلك الكم الهائل من القوانين والمواثيق والمنظمات الدولية وبين أرض الواقع، وإن المتأمل لسجون هذا العصر الحديث، عصر الحرية والديمقراطية، وسيادة القانون يجد أن كل ما قيل عن إمكانية الارتفاع بالسجن من مؤسسة للعقاب والانتقام إلى مدرسة للبناء والإصلاح والعلاج لا يعدو أن يكون حبرا على ورق سواء في البلاد التي رفعت شعارات العدل والحرية والديمقراطية عاليا أو في مستعمراتها في بلدان العالم الثالث أو في البلاد النامية بعد خلاصها من نير الاستعمار.

ولعلّ الحالة العلاجية والإصلاحية الوحيدة هي تلك التي مارستها كل تلك الأنظمة مع سجناء الجرائم الجنائية التي تواضعوا لها على قوانين محددة، دقيقة خاصة بكل جرم، أما سجناء الرأي السياسي وما أكثرهم فإن دواعي حبسهم وإيقافهم ومدد إقامتهم وطرق معاملتهم لم تتضح معالمها بعد، و لم تتخذ لها قانونها العام المؤطر لها مما يفتح الثغرات أمام كثير من الأنظمة المستبدة رغم مصادقتها على المعاهدات الدولية وحضورها المؤتمرات المتعلقة بالأمر، ويكفي الاطلاع على النشرات الدورية لمنظمة العفو الدولية لمعرفة فداحة ما يلاقيه المخالفون في الرأي في شتى أنحاء العالم[3].

ونظرا لتشابه القوانين الدولية فإن أنواع السجون المتواجدة في العصر الحديث متشابهة إن لم تكن متطابقة بحكم المعاهدات والمواثيق الدولية الإلزامية، وإن وجدت بعض الفروق فهي طفيفة وربما تعلقت بالأسباب المؤدية إلى السجن والوسائل المستعملة داخله.

تتنوّع السجون الحديثة بتنوّع الجرائم المرتكبة وبمدة السجن التي يقضيها كلّ سجين، فقد عرف العصر لكل عقوبة سجنًا ومدّة زمانية معينة تتنوّع بتنوّع السجناء أيضا من حيث درجة الخطورة. حيث توجد ثلاث مؤسسات جزائية يندرج تحتها كل أنواع السجون الحديثة لكل منها عمرانه الخاص وقوانينه وظروفه .

- المؤسســـات المغلقـــة:

وقد أخذت تسميتها من كونها مبان عالية الأسوار كثيرة الحرس، ذات نظام داخلي يتميز بالجدّ والصرامة لمناسبة نزلائها من المساجين وهم غالبا ما يكونون من المجرمين الخطرين أو معتادي الإجرام، ومن عيوب هذه المؤسسات ارتفاع تكاليفها ووقوف عمرانها ونظامها عائقا في سبيل تأهيل المحكوم عليه لعزله عن

---

[1] - محمد عطية راغب - التمهيد لدراسة الجريمة السياسية - 26.

[2] - المرجع نفسه - 26-29.

[3] - انظر وهبة الزحيلي - حق الحرية في العالم - دار الفكر - دمشق 2000 - 39-67.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المجتمع[1]. وهي الأكثر رواجا في البلاد العربية ولعلّ أغلبها من ميراث السلطات الاستعمارية بعمرانها وطقوسها ونظمها.

- المؤسسات شبه المفتوحة :

وهي أخف وطأة من سابقتها في معاملة السجناء وفي توسط ارتفاعها وعدد حراسها وتختص بالسجناء الأقل خطرًا من سابقيهم. تقام غالبا خارج المدن وفي المناطق الزراعية حيث يوجه نزلاؤها للعمل في المزارع والمصانع الملحقة بها، وتأخذ بها دول أوروبا وأمريكا. كما أخذت تعمل بها بعض البلاد العربية لتكاليفها المعقولة ومساهمتها في تأهيل السجناء[2].

- المؤسسات المفتوحـــة :

وهي مؤسسات تجردت من الأساليب المادية كالأسوار العالية والقضبان والحرس، وتستعيض عن ذلك بالأساليب المعنوية كغرس القيم الإصلاحية في نفس النزيل، وفيها يودع المحكوم عليهم بمدد قصيرة ولا يشكلون خطرا على المجتمع، وتتخذ شكل مستعمرة تحوطها الأسلاك الشائكة، يمارس النزلاء فيها أعمال الزراعة أو الصناعة، وقد أخذت بها بعض دول أوروبا وأمريكا[3].

وبالنظر إلى شريحة الشعراء الذين وصلتنا حبسياتهم نجدهم يتوزعون على مؤسستين عقابيتين، إحداهما تلك التي أنشأها المستعمر لردع كل الأصوات الداعية إلى التحرر، وأخرى أقامتها الأنظمة العربية الحديثة النشأة على أنقاض سابقتها، وربما وجدنا من الشعراء من ذاق ويلات المؤسستين معًا. وسنكتفي هنا بالإشارة إلى أهم هذه المؤسسات العقابية على امتداد الوطن العربي انطلاقا من نازليها من شعراء العصر.

ولعلّ وطنا عربيا لم يعرف من قساوة الجلاد وبطش السلطان ما عرفته الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي الذي جثم على صدرها ما يزيد عن القرن وربع القرن ، لاسيما في المرحلة التاريخية الحاسمة، مرحلـــة الثـــورة التحريرية الكبرى 54-1962م فقد كادت الجزائر أن تتحول خلالها إلى سجن كبير تفصله عن جيرانه وسائر البلدان أسلاك شائكة ومناطق ملغمة عبر كامل الحدود البرية أشهرها خط موريس، وتملأ فضـــاءه الرحـــب السجون والمعتقلات والمحتشدات ومراكز التعذيب التي نمت بشكل متسارع كالطفيليات، و لم يعد يخرج منها نازلوها إلا إلى المقابر أو بعاهات مستديمة وآثار مازالت تحملها أجساد الباقين منهم على قيد الحياة شاهدا على بشاعة آلة العذاب الفرنسية[4]، بل ويفصل المنطقة منها والولاية عن الولاية الأخرى منـــاطق محرمـــة تقنبلـــها

---

[1] - محمد محمود الغرباوي – الشعر في سجون مصر - 6.

[2] - المرجع نفسه – الصفحة نفسها.

[3] - المرجع نفسه – 7.

[4] - انظر على سبيل المثال لا الحصر - محمد الطاهر عزوي – ذكريات المعتقلين – المتحف الوطني للمجاهد – 1996.

- مجلة المجاهد – عدد 90 – المحتشدات أيضا قوة للثورة - 5/2 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الطائرات الفرنسية صباح مساء، وهو ما يعرف بالأرض المحروقة، هذا إلى جانب المحتشدات التي كان المستعمر يرحل إليها مجموعات سكانية هائلة في المدن والقرى ويحشرها فيها، وأحيانا يجعلها معتقلات لشرائح خاصة من الناس يخشى احتكاكها بالشعب وتأثيرها، ومن الولايات التي عانت من هذه السياسة الاستعمارية الظالمة الولاية الأولى "باتنة"[1].

كل هذه الأساليب وفنون أخرى كثيرة ابتدعها الفكر الاستعماري لعزل الثورة عن الشعب، والتضييق عليها وقتلها في المهد، كانت جميعا مددا للثورة وقوة لها، وحطبا لأوارها، فتحت عيون المستعمر وفي معتقلاته ومحتشداته تتسرب الأفكار والمعلومات وتتسلل المؤونات ويتواصل الشعب مع قادة ثورته ويتلقى منهم التعليمات ويقدم لهم كل ما يملك من غال ونفيس.

ونظرا لهذا التفرد والتميز من حيث طول ثواء المستعمر وطريقة تسييره للبلاد، فلم يكن حماية أو انتدابا بما يوحيان به من ليونة ومرونة وفضاء من الحرية في إدارة شؤون البلاد، وإنما كان استعمارا شرسا قويا منذ البدء، واستشرى خطره مع بدايات الوعي الوطني فراح يرتكب جرائمه البشعة مبتدئا بمجازر الثامن ماي 1945 ومنتهيا بفظائع بطشه المزامن لثورة التحرير المظفرة. ونظرا لهذه الخصوصية الجزائرية كان لابد من وقفة عند أشهر مراكز التعذيب الفرنسية، من سجون ومعتقلات أنشأها المستعمر لمواجهة هذا الظرف الخطير الذي وضعته فيه الثورة، ذلك أن المعتقلات لا تظهر إلا في الحروب والصراعات، يحشد فيها أصحاب الفكر الحر والمثقفون عموما والمنتمون إلى اتجاهات سياسية مخافة أن يؤثروا في الشعوب ويدفعوها إلى المطالبة بحقوقها، وتنتهي هذه المعتقلات بانتهاء الحروب والاضطرابات، بينما تستمر السجون[2] في أداء وظيفتها العقابية المعتادة.

سجن بربروس: وهو من أشهر السجون وأعتاها، اتخذ مأوى للذين ترى فيهم فرنسا خطرا على وجودها بالجزائر، من نزلائه الشاعر مفدى زكريا الذي خلده في شعره وحفظ لنا الكثير من فظائعه، والشهيد أحمد زبانا الذي دشن مقصلته والمؤرخ محمد قنانش وغيرهم.

- مجلة المصادر – المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر – وزارة المجاهدين عدد 5 - صيف 2001 محمد الأمين بلغيث – موقف المثقفين الفرنسيين من التعذيب في السجن والمحتشدات أثناء الثورة الجزائرية - 188- 192.

- مجلة الرؤية – المركز الوطني للدراسات والبحث - الحركة الوطنية والثورة – وزارة المجاهدين سنة 2- عدد 3 - السداسي الأول 1997 - محمد الدرعي - فظائع الجيش الفرنسي في الجزائر أثناء الثورة - 184-188.

[1] - مجلة أول نوفمبر - عدد 157 - 158، سنة 1997 - الغالي الغربي - أشكال من سياسة التطويق الاستعماري خلال الثورة التحريرية - 26.

[2] - محمد الطاهر عزوي – ذكريات المعتقلين - 12.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سجن الحراش : يوجد بمدينة الحراش ويضم أصنافا شتى من السجناء، لكل منها قسم خاص واحد منها قسم للنساء ، وزنازين للمساجين الخطرين وأخرى للمساجين العابرين[1].

سجن الكدية : بقسنطينة من أقدم السجون الاستعمارية بالجزائر وأقلها بطشا، وأجملها بحديقته اللتين تتوسطانه، ومن نزلائه الشاعر عبد الرحمن العقون الذي سجل بين جدرانه مذكراته الشهيرة "من وراء القضبان"[2].

سجن لامبيز: نسبة إلى مدينة لامبيز القريبة من باتنة والتي صارت تعرف بعد الاستقلال ب"تازولت"، يعاني فيه نزلاؤه من البرد الشديد شتاء والحر اللامتناهي صيفا[3]، وقد تخيرت له هذه المنطقة لهذه الغاية وهي تعذيب السجناء بالطبيعة إلى جانب وسائل العذاب الأخرى.

أما المعتقلات والمحتشدات فقد تكاثرت وتنامت عبر كامل التراب الوطني وغدت كالفطر تنبثق في كل مرة بمركز جديد مع اندلاع الثورة التحريرية الكبرى وكثرة الثائرين والمغضوب عليهم والمتعاطفين، لأن السجون الموزعة عبر تراب الوطن امتلأت من أبناء الشعب وصارت عاجزة عن استقبال آلاف الذين يرى المستعمر ضرورة بقائهم تحت أعينه، وبعيدا عن الأوساط الشعبية، نذكر منها.

محتشد آفلو: هو عبارة عن الثكنة العسكرية العتيقة للمدينة، كان قبل الثورة محتشدا للسياسيين من شتى الأحزاب والجمعيات، من نزلائه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أثناء الحرب العالمية الثانية، وفيه ألف"رسالة الصب" "ورواية الثلاثة"[4].

محتشد شلال : يبعد عن المسيلة بحوالي 35 كلم [5].

محتشد قلتة السطل : يقع في الصحراء الممتدة بين قصر البخاري والجلفة يتربع على حوالي نصف هكتار، تحيط به الأسلاك الشائكة والحراسة المشددة وتمنع فيه الصحف والكتب[6].

---

[1] - مجلة أول نوفمبر – عدد 37 سنة1987 – الطيب العلوي – نظام الجبهة داخل سجن الحراش - 31.

[2] - انظر مذكرات عبد الرحمن العقون : "من وراء القضبان"- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - ط2 - 1969- الجزائر - 221-226.

[3] - يحي الشيخ صالح – أدب السجون والمنافي في الجزائر في فترة الاحتلال الفرنسي - 1830-1962 - 35.

[4] - انظر : محمدالبشيرالإبراهيمي–آثارمحمدالبشيرالإبراهيمي-المؤسسةالوطنيةللكتاب–الجزائر-1398-1978-1/266-281.

[2] - احسن بومالي مراكز الموت البطيء – وصمة عار في جبين فرنسا الاستعمارية - مجلة الرؤية-وزارة المجاهدين – عدد 3 – سنة 2 - 1997 - 181.

[3] - المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[4] - عمار ملاح – وقائع وحقائق عن الثورة التحريرية بالأوراس، دار الهدى- عين مليلة 2003 - 271 . لمزيد من المعلومات انظر مجلة التراث – جمادى الأولى 1410 – ديسمبر 1989 العدد 4 - تاريخ معتقل قصر الطير – إعداد عزوي محمد الطاهر – 154-246.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

معتقل قصر الطير: يوجد بولاية سطيف ، قرب عين ولمان ، كان مزرعة لأحد المعمرين، وفي عام 1957 حول إلى محتشد للمجاهدين ، ألزموا بالعمل فيه ليل نهار في صناعة الطوب وتكسير الحجارة وكان أشبه بالورشة حتى اكتمل بناؤه[1].

معتقل عين الصفا: في الشمال الشرقي لمدينة تيسمسلت، كان مزرعة لأحد المعمرين، ثم تحول إلى مركز سري للجيش الفرنسي، وفيه يعذب المجاهدون والمواطنون الذين يلقى عليهم القبض إثر عمليات التمشيط والبحث والتفتيش[2]، وفيه يجبر بعض النزلاء على حفر قبورهم بأيديهم ثم يعدمون رميا بالرصاص أو ذبحا أو خنقا بالأسلاك وفيه عذب أطفال لم يبلغوا الثالثة عشر من أعمارهم[3].

معتقل بوسوي (الضاية) : يقع جنوب سيدي بلعباس في دائرة تلاغ، وهو عبارة عن ثكنة عسكرية داخل جبال الضاية وغاباتها الكثيفة، كان معتقلا للسياسيين الجزائريين أثناء الحرب العالمية الثانية، ومعظم الذين زج بهم فيه من الشرق الجزائري وبخاصة الأوراس[4]، وفيه قضى كل من الشبوكي وأحمد سحنون وعروة حينا من الدهر.

معتقل لودي : غرب المدية كان مركزا لاصطياف أبناء عمال السكة الحديدية المعمرين، لذا تتوفر فيه كل الشروط من نظافة ومأكل ومطالعة وسماح بزيارة الأهل.

معتقل دويرة : يقع في المتيجة، أنشيء عام 1956 خصيصا للذين غادروا السجون وعادوا مرة أخرى للعمل في الثورة[5].

معتقل سان لوي : ويسمى أيضا "بطيوة" يقع في شمال شرق مدينة وهران.

معتقل تيشي : قرب مدينة البويرة وهو أشبه بمركز عبور لاستقبال المساجين القادمين من فرنسا ومنه يوزعون على مختلف السجون والمعتقلات[6].

ومن السجون الفرنسية التي كانت تحتوي السجناء الجزائريين سواء الذين حملوا لواء النضال الفكري السياسي أو النضال العسكري، نذكر سجن فرساي، محتشد سان موريس بمقاطعة ثيم، معتقل "مورمولان

---

[2] - عثمان الطاهر علي – الثورة الجزائرية أمجاد وبطولات – المتحف الوطني للمجاهد - الجزائر - 1996- 140.

[3] - محمد الطاهر عزوي – ذكريات المعتقلين - 21.

[4] - المرجع نفسه - 22.

[5] - مجلة أول نوفمبر عدد 88-89 السنة 1988- محمد الطاهر غروي المعتقلات في الجزائر - 36 - وما بعدها.

[6] - وفي هذه المراكز سجن الحاج المناضل الشاعر عبد الرحمن قاسم الذي ضحى بنفسه من أجل أن يستمر النضال في منطقته بفرنسا - مجلة التراث - عدد خاص بالذكرى الأربعين – نوفمبر 1994 - جمادي الثانية 1415/ - على خلاصي - أساليب التعذيب والتنكيل التي مارستها فرنسا ضد الشعب الجزائري 1954-1962 - 207.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لوقران" بمارل[1]، سجن فرين الذي أقام فيه أحمد طالب الإبراهيمي من مارس 1957 إلى سبتمبر 1961 وهو تاريخ آخر رسالة من رسائله التسعة والستين التي غادرت جدرانه إلى أهله وإلى كثير من أحرار العالم المتعاطفين مع قضيته والقضية الجزائرية عموما[2]، وقلعة آل داكس التي سجن فيها ممثلوا العلاقات الخارجية لجبهة التحرير الوطني المكونة من أحمد بن بلة ومحمد بوضياف وحسين آيت أحمد ومحمد خيضر والأستاذ مصطفى الأشرف وظلوا فيه خمسة أعوام[3].

أما أساليب التعذيب التي مارسها الجلادون على نزلاء هذه المراكز التعذيبية ففاقت حدود التصور، لا يفرقون في ذلك بين كبير وصغير وامرأة ورجل، بين مريض وسليم بين مواطن عادي ومناضل، بل لقد فاقت في وحشيتها أساليب النازية باعتراف بعض جنودهم الذين كانوا شاهدا على الحدث مثل كتاب "المجندون يؤدون الشهادة"[4]، ففيه عينات عن فظائع التعذيب التي تعرض لها نزلاء السجون الفرنسية بالجزائر، وكتاب"ضد التعذيب" لبيار هنري سيمون الذي أورد فيه وثائق وشهادات قدم لها بقوله:"إنها باقة، لا من الزهور والأدب والإنسانية، بل من الأشواك الدامية المخجلة ولئن بقي ثمة فرنسيون يشعرون بعد بالشرف ككوناكري وبيغي، بطهارة الجندي كفوفنارغ وبعظمة فرنسا كميشليه Michelet وبالرحمة كهوغو، فإنهم لابد أن يحمروا خجلا إذ يقرأون هذه الشهادات التي أنقلها وأنا غاضب حتى الألم"[5]، من تلك الشهادات شهادة طبيب تعرض عليه أجساد المعذبين ليعالجها ويهيئها لجولات تعذيب أخرى، يقول في رسالة إلى صديقه "أشعر باشمئزاز لم أشعر به من قبل قط، إن الألمان بأساليبهم كانوا أطفالا صغارا بالنسبة إلينا"[6]، وأمام صور آلات العذاب الفرنسية البشعة ينتهي الكاتب فرانسوا مورياك François Mauriak إلى اتخاذ قرار حاسم بالانقطاع عن الكتابة الروائية والتأليف الخيالي، لأن فرنسا في نظره ولا سيما التي في الجزائر قد ماتت، وأنها "ستموت باستمرار في كل لون من ألوان التعذيب التي تخضع لها الجزائريين المسلمين، لأنها تفقد في كل لحظة شرفها"[7].ويمكن تلخيصها صور العذاب في الآتي[8] :

---

[1] - أحمد طالب الإبراهيمي – رسائل من السجن – تعريب الصادق مازيغ – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر والدار التونسية للنشر- أفريل 1983 .

[3] - عبد المجيد عمراني - جان بول سارتر والثورة الجزائرية - مكتبة مدبولي – د ت-91.

[4] - عبد الرحمن إبراهيم العقون – من وراء القضبان – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – ط2 - 1969 - 97 . يعرض عينات من فظائع التعذيب، اعتمد فيها على اعترافات وشهادات الفرنسيين أنفسهم مثل مجلة اسبري – كتاب المجندون يؤدون الشهادة – ضد التعذيب – حرب الإبادة - من نشرات جيش التحرير الوطني الجزائري.

[5] - سهيل إدريس - في معترك القومية والحرية - دار الآداب - بيروت - 1977 - 18.

[6] - المرجع السابق - 19.

[7] - المرجع نفسه - 17.

[8] - مجلة الرؤية – عدد 3 – فظائع الجيش الفرنسي في الجزائر – محمد الدرعي - 184-189.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- التعذيب بالتيار الكهربائي وهو أمر عادي مألوف عند النزلاء ، يمارس على كل المناطق الحساسة في لجسم.

- الكي بالنار، وممن عذب حتى الموت بنار التلحيم الشهيد عيسات إيدير الأمين العام للإتحاد العام للعمال الجزائريين وأثار اغتياله استياء الطبقة العاملة في كل أنحاء العالم.

- القتل الشنيع بواسطة الكلاب، أو رميا بالرصاص من الخلف أو بالقتل البطيء، ويتم بإتلاف الجسم عضوا فعضوا بطلقات الرصاص أو البتر بآلات خاصة، إحراق الشخص بعد رشه بالبترين القتل الجماعي، ربط السجين بسيارتين تنطلقان به في اتجاهين متعاكسين، رمي السجين من الطائرة، رمي مجموعة من المعتقلين في حفرة عميقة دفعة واحدة وتردم أو تملأ بالماء.

ولا يكاد يختلف عن هذه المعانات التي عرفها نزلاء سجون المستعمر الفرنسي في الجزائر ما عرفه نزلاء السجون الناصرية من بطش وعذاب وبخاصة ما لاقته حركة الإخوان المسلمين والحركة الشيوعية، و ما دارت أحداثه في سجون العراق، وما عرفه الفلسطينيون في سجون الاحتلال و في بعض السجون العربية، وسجناء الجنوب اللبناني في معتقل أنصار فقد دون كثير منهم هذه التجارب في سير ذاتية وأحيانا سير غيرية [1].

---

[1] – من السير الذاتية انظر : - محمود درويش – الجبهة الوطنية الفلسطينية ودائرة الإعلام في منظمة التحرير الفلسطينية 1980.

- غازي الخليلي – شهادات على جدران زنزانة – اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطنيين 1975 (يقدم معاناة الفلسطينيين في السجون الأردنية).

- معين بسيسو – دفاتر فلسطينية – دار الفارابي – بيروت – 1978 .

- عباس محمود العقاد – عالم السدود والقيود- مطبعة المعرفة – القاهرة – د ت .

- طاهر عبد الحكيم – الأقدام العارية – دار ابن خلدون – بيروت (كتب المخطوط الأصلي داخل معتقل الواحات المصرية على ورق السجائر في أربع نسخ ورسم غلافه أحد الرفاق الرسامين، قدم فيه موقف الشيوعيين ومعاناتهم في السجون المصرية).

- إلهام سيف النصر – في أبو زعبل – دار الفكر الجديد 1975(يعكس تجربة جماعة الإخوان المسلمين وراء القضبان ويؤرخ لسقوط الشهداء : فريد حداد – محمد عثمان – شهدي عطية في لحظة العبور الأولى المسماة بالتشريفة).

- مصطفى طيبة – رسائل سجين سياسي إلى حبيبته – منشورات العربي – القاهرة 1978 (تجربة أحد قادة الحركة الشيوعية المصرية - 12سنة سجن في 11 سجن ومعتقل). =

= - فريدة النقاش – السجن... الوطن – دار الكلمة ودار النديم – بيروت 1980 (أول عمل متكامل يكشف واقع القمع ومصادرة الحريات والحقوق الأساسية في عهد السادات المتشدق بسيادة القانون والديمقراطية).

- مصطفى أمين – سنة أولى – سنة ثانية – سنة ثالثة ... سجن - كتاب دار نشر اليوم - القاهرة - ط2 - 1975.

- المستشار علي جريشه – في الزنزانة – دار الوفاء للطباعة والنشر – مصر – ط3 – 1988 (رسائل مصرية من السجن من رجل القانون الذي انتصر أخيرا ورد إليه اعتباره واعتبار مؤسسة القضاء)

- محمود السعدني – مذكرات الولد الشقي في السجن – مطبوعات أخبار اليوم – القاهرة.

- عبد الله الطوخي – سنين الحب والسجن – دار الهلال – العدد 529.

- محمود طاهر العربي – هذا المجتمع الظالم سجن مصر – دار المستقبل – القاهرة .

- عبد الحليم خفاجي – عندما غابت الشمس – دار النذير – المنصورة - 1979.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذا عن آلة التعذيب التي خرجت الكثير من حملة العاهات المستديمة والنقوش الخالدة المحفورة على الأجساد شاهدا للتاريخ، والكثير من أصحاب الأمراض المزمنة التي صنعتها ظروف السجن القاسية كالربو والضغط والقلب والأعصاب وغيرها، وابتلعت الكثير فدخلوا إلى غياهبها و لم يخرجوا.

أما الذي يجب ألا ينسى فتلك العذابات النفسية العميقة التي تفنن زبانية السجون في ابتداع أساليبها، مستعينين في كثير من الأحيان بخبراء متخصصين في علم النفس ويعلمون سبل النفاذ إلى نفس السجين إما لغسيل دماغه وتدجينه والإفراج عنه إنسانا جديدا غير الذي دخله، وإما لتعميق آلامه، وقد انتهت كثير من هذه الفنون القذرة بالسجناء إلى الجنون، وفي أقل الحالات خسارة الخروج بأزمات نفسية وعصبية.

وقد فضح الكثير من السجناء ما لا قوه من أساليب قمعية وحشية، لا إنسانية، سواء من آلة المستعمر أو آلات بعض الأنظمة العربية الطاغية، في مؤلفاتهم الفكرية أو أعمالهم الأدبية أو اعترافاتهم التي تقف شاهدا على قرن من العذاب، وعلى أن الكثير من الشعارات المرفوعة مازالت بعيدة عن أرض الواقع وتحتاج إلى شجاعة لتخرج إلى النور ويتمتع الناس بعدالتها و حريتها وأمنها.

ومن المعتقلات والسجون العربية التي عبرها شعراء هذه الدراسة و آخرون معهم نذكر باختصار:

- من السجون المصرية :

- سجن ليمان طره : على طريق النيل، يقع بين المعادي وحلوان، مبنى قديم من ميراث الإنجليز.

- سجن قنا : يقع على ربوة شمال قنا، من ميراث النظام الإنجليزي، من أقسى السجون المصرية، أرسل إليه سجناء حركة الإخوان المسلمين منذ 1954 وجاء في مراسلات رسمية أنه مخصص لهذه الفئة.

- مذكرات الشيخ إمام – سنوات الفن والسجن والدموع – دار الأحمدي للنشر – القاهرة – دار التونسية للنشر – تونس 1973.
- عبد الرحمن إبراهيم العقون – من وراء القضبان – الشركة الوطنية للتوزيع والنشر – ط2 -1969 .
- محمود الدّره – حياة عراقي من وراء البوابة السوداء – الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1976- (قصة ضابط مع السجن).

أما السير والشهادات الغيرية فنذكر منها :

- محمد عبد الحليم خفاجي – محمود محمد حامد – ملك السجن – دار التوزيع والنشر الإسلامي – ط1 -2000 (تتناول قصة رشدي عفيفي وإبراهيم شوشة في سجون مصر خلال 16 سنة من 54- 1970).
- فيليسا لانجر – بأم عيني – ترجمة ونشر مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية – دمشق - 1974، (شهادة دامغة من محامية يهودية تفضح ممارسات الفاشية الصهيونية، مدعمة بالوثائق والصور والتواريخ والأرقام).

وأما الدراسات الميدانية فنذكر : - نجيب الكيلاني – المجتمع المريض – مسابقة إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم- الكتاب الفائز بجائزة وزارة التربية والتعليم .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- سجن مزرعة طرة : على بعد ثلاثة كيلومترات من ليمان طره، تتميز عنابره بالاتساع، تسع الواحدة ثلاثين فردا، جمع فيها سجناء الإخوان المسلمين تمهيدا للإفراج عنهم[1].

- سجن الأجانب : أقيم في جزء من مخازن التنظيم في شارع عباس على مقربة من البوليس الحربي، استخدم منذ 1936 للمحكوم عليهم في جرائم الصحافة وغيرها كسجن سياسي لما يتسم به من مواصفات ملائمة للسجناء السياسيين ومن نزلائه عزيز فهمي وعبد الرحمن الشرقاوي.

- سجن الحوض المرصود : يقع في شارع قدري بالسيدة زينب، حول اليوم إلى مستشفى للأمراض الجلدية وفيه سجن المنفلوطي وسليم سركيس مع حشد من اللصوص والسكارى.

- السجن الحربي: يقع في مدينة نصر، كان مخصصا للعسكريين ولكن النظام جعله مقبرة للأحرار من المدنيين المعارضين وبخاصة الإسلاميين والشيوعيين ، من أبشع السجون المصرية وقد أصبح علامة على التعذيب الوحشي في مصر، فمجرد ذكر اسمه يثير الرعب في النفوس، وقد أمرت المحكمة عام 1975 بهدمه باعتباره شاهدا على إذلال الشعب. من نزلائه يوسف القرضاوي والشاعر الفلسطيني معين بسيسو وقد نزل هذا الأخير سجن الواحات أيضا[2].

- **من سجون الاحتلال الإسرائيلي:** اشتهر الاحتلال اليهودي بكثرة سجونه على الرّغم من صغر مساحة الأرض المحتلة، نذكر منها ؛ نفحة، بئر سبع، المجدل، العرفند، سطة المسكوبية، الدامون، عتليت، كفار ريونا، هشارون، الجملة، كيشون، الرملة، نفي تريستا، تلموندا أوهلى كيدار، عوفر، مجدو، انصار 3، حواره – ايرز، ومنها سجن غزة المركزي، سجن جنيد، الخليل، انصار 2 . وقد أغلقت كلها لأنها تقع في المناطق الفلسطينية بعد الانسحاب[3]، كما أغلق سجن أنصار بلبنان بمعسكراته الثلاثة والثلاثين[4].

ومن السجون التي نزلها شعراء الدراسة نذكر الدامون والجملة والرملة ونفحة وغزة المركزي، فمن نزلاء الرملة والدامون الشاعر توفيق زياد، أما محمود درويش فزار كلا من الجملة والدامون أما سجن نفحة وسجن غزة المركزي فمن زوارهما الشاعر فايز أبوشمالة.

- **ومن السجون العراقية :** سجن بعقوبة والسجن العسكري ومعتقل الخيالة وقد زارها الشاعرمحمد جميل شلش، وسجن الموقف العام الذي نزله الشاعر علي الحلي ، وسجن الفاو وسامراء والعمارة وتنقل بينها الشاعر محمد بهجت الأثري، أما محمد مهدي الجواهري فكانت إقامته بسجن أبي غريب ، ونقرة السلمان الذي كان من نزلائه مظفر النواب.

---

[1] - علي جريشة - في الزنزانة - 57، 75، 109.

[2] - محمد محمود الغرباوي - الشعر في سجون مصر - 19 - 20.

[3] - نزية أبو نضال – أدب السجون – دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع – لبنان – 158.

[4] - حسين سعدون - أنصار 33 أدب المعتقل - مؤسسة الرؤى للطباعة والنشر والتوزيع - ط1 - 1984 - 147 - 148.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- **ومن سجون الشام** : سجن المزة العسكري وسجن النظارة وفيهما قضى الشاعر سليمان العيسى فترة عقابه.

- **ومن السجون اليمنية** الغنية عن كل تعريف، لأنها تحمل من علامات البطش الإمامي المخلد على صفحات الشعراء ، سجن حجة وسجن نافع (نزلهما الشامي) وسجن الأهنوم نزله الزبيري ومنها المشبك والرادع وغيرهما مما سنأتي على ذكره.

ونذكر السجن المركزي بعمان ، سجن فيه الشاعر الأردني مصطفى وهبي التل، كما نزل أيضا بسجن العقبة والرياضة بجدة[1].

وقد هدم الكثير من مراكز العذاب هذه وتحول بعضها إلى مراكز تقدم خدمات اجتماعية للناس كالمستشفيات والإدارات...وغيرها، ولكن الشعراء والأدباء والمثقفين خلدوا تفاصيل أحداثها الدامية بكتاباتهم المختلفة شعرا ونثرا وتحليلا ونقدا، وأقاموها شاهدا على التاريخ لا يبلى.

[1] - استدل على هذه السجون من سير الشعراء ودواوينهم الشعرية التي تذكر في بعض الأحيان مكان النظم .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

X Z

* الفصل الثـاني *

جدلية الإبداع بين الحبس والسلطان.

- المثقـف والسلطـــان.
- دواعـي الإبـداع ومنـزلة الحبس بينها.

E Θ

- المثقـــف والسلطـــان :

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يشوب العلاقة بالسلطان الكثير من الخوف والحذر والغموض على مرّ العصور، لما تواتر عن أخبار الحكام من استبداد وطغيان. وتعطينا كتب التاريخ انطباعا يوحي أن عدد الطغاة والمستبدين يفوق إلى حدّ بعيد عدد الحكام الخيرين، مما جعلهم دائما مصدر خوف وحذر منذ القدم.

وقد اهتم أصحاب كتب الآداب السلطانية بهذه العلاقة التي تكاد تكون مستحيلة وأفردوها بأبواب مستقلة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الطرطوشي الذي وضع بابا "في التحذير من صحبة السلطان" يقول فيه: "اتفقت حكماء العرب والعجم ووصاياهم على النهي عن صحبة السلطان.... وكان يقال قد خاطر بنفسه من ركب البحر وأعظم خطرا منه صحبة السلطان غررمن "[1]. وقيل "قد لجَّج في البحر، وأشد منه مخاطرة صاحب السلطان"[2]

وجاء في حكم الهند أن صحبة السلطان على ما قد تحققه من عزّ وثروة وجاه عظيمة الخطر، حتى أنهم شبهوها بارتقاء الجبل الوعر، فيه الثمار الطيبة والسباع الضارية والثعابين المهلكة، فالارتقاء إليه شديد والمقام فيه أشدّ."[3]

ويوازن الحكماء بين ما يمكن أن يصيبه المتعلق بالسلطان من خير ويلحقه من أذى، فيرون أنهما لا يتكافآن أبدا، لأن خيره لا يعدو أن يكون زيادة في الحال، والمرء يستطيع الحياة والاستمرار دون تلك الزيادة، أما شره فإزالة للحال وإتلاف للنفس التي من طبعها طلب المزيد. سئل العتابي يوما: لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب؟ فأجاب: لأني رأيته يعطي عشرة آلاف في غير شيء ويردي (من السور) في غير شيء، ولا أدري أي الرجلين أكون"[4].

ويكفي أن حذّر الحكام أنفسُهم من مخالطة السلطان[5] وما ينجرّ عنها فهذا معاوية بن أبي سفيان ينصح رجلا من قريش فيقول "إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبي ويرضى رضى الصبيّ ويبطش بطش الأسد." ويقول المأمون : "لو كنت رجلا من العامة ما صحبت السلطان". وقد نهى عمر بن عبد العزيز أحد جلسائه عن أربع أولها مصاحبة السلطان، فقال: "يا ميمون احفظ عني أربعاً لا تصحبن سلطانا وإن أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر...".

وقال بعض حكماء الفرس أن المال والسلطان مفسدان لكل أحد إلاّ لرجل له عقل كامل، وشبه بعض

---

[1] - الطرطوشي – سراج الملوك – تحقيق جعفر البياتي – رياض الريس للكتب والنشر – ط1 - 1990 - 357.

[2]- ابن المقفع - كليلة ودمنة - دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ط4 - 1983- 160.

[3] – الطرطوشي - المرجع نفسه – والصفحة نفسها.

[4]- المرجع نفسه – والصفحة نفسها.

[5] - المرجع نفسه –358.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحكماء صاحب السلطان براكب الأسد الذي يخشاه الناس وهو لما يركبه أشد خوفا منهم[1].

وجاء في كتاب كليلة ودمنة "ثلاثة لا يجترئ عليهم إلاّ أهوج (وفي رواية لا يسلم عليها إلاّ القليل) صحبة السلطان وائتمان النساء على الأسرار وشرب السم على التجربة". وجاء فيه أيضا "لا يسعد من ابتلي بصحبة الملوك فإنه لا عهد له ولا وفاء ولا قريب ولا حميم..."[2].

وينصح ابن المقفع بالاحتماء من السلطان بمن لهم سلطان يوازي سلطانه وهم العلماء، فيقول: "... إذا ابتليت بالسلطان فتعوذ بالعلماء"[3]، ونصح ابنه مرة فقال: "إن وجدت من السلطان غنى فاغن عنه بنفسك واعتزله جهدك فإنه من يأخذه السلطان بحقه يحل بينه وبين لذة الدنيا، ومن يأخذه بغير حقه يكسبه الفضيحة في الدنيا والوزر في الآخرة"[4].

هذا عن خطر الاتصال بالسلطان عمومًا، فإذا جئنا إلى علاقة المثقف بالسلطان وجدنا الأمر أخطر لأن المعرفة في الغالب هي التي تقود المثقف إلى السلطان لحاجته إليها في تسيير شؤون مملكته من جهة ولنزوع داخلي خفي هو أقرب إلى مشاركته الأمر أو منازعته ما دام يتفوّق عليه بتلك المعرفة...فبقدر ما يحتاج إلى العلماء بقدر ما يخشاهم، وأشد ما يخشاه من العلوم تلك التي توسع العقول، وتعرف الإنسان حقيقته وحقوقه، وتفسد عليه، ذلك أن "الاستبداد والعلم ضدان متغالبان، فكل إدارة مستبدة تسعى جهدها في إطفاء نور العلم وحصر الرعيّة في حالك الجهل".

ونادرا ما وصل العوام إلى مرتبة مصاحبة السلطان لأنهم يفتقدون إلى وسائلها من ذكاء ومعارف ومهارات شتى، اللّهم إلاّ في بعض حالات الجند الذين برعوا في مجالهم، واستطاعوا منافسة أصحاب الأقلام لدى الحكام، بل وزحزحتهم أحيانا عن المشاركة في صناعة القرار، نضرب على ذلك مثلاً بالكاتب الأندلسي ابن برد الأصغر الذي آله أمر تقريب الجند وتهميش الكتاب فأراد لفت انتباه السلطان إلى حاجة المملكة إليهما معًا "صاحب القلم وصاحب السيف" بمناظرته الخيالية بين السيف والقلم[5]، والتي انتهى فيها إلى عقد مصالحة بينهما لأن كلاّ منهما يكمل الآخر.

ويبدو أن هذه العلاقة الشائكة الضرورية المشوبة بالحيطة والحذر، المغشاة بالخوف تشكل جدلية صعبة بين المعرفي والسياسي في تاريخ الفكر الإسلامي، "والناظر المدقق في تاريخ الإسلام يجد للمستبدين من الخلفاء

---

[1] - المرجع السابق- 259 .

[2] - ابن المقفع – كليلة ودمنة 145 و الطرطوشي – سراج الملوك - 258.

[3] - ابن المقفع – الأدب الكبير والأدب الصغير - تحقيق إنعام فوال - دار الكتاب العربي بيروت - 1990-1420 - 72..

[4] - الطرطوشي – سراج الملوك - 358.

[5] - ابن بسام - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - تحقيق إحسان عباس - الدار العربية للكتاب - بيروت - 1395 - 1975 - 1/1 - 523 - 528.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والملوك الأولين... (والعلماء المنافقين) أفعالا مُريعة في إطفاء نور العلم"[1] ذلك أن بين الاستبداد والعلم حربا دائمة وطرادا مستمرا"[2] . مما حدا ببعض العلماء والمثقفين إلى لعن السياسة وكل ما يأتي من قبلها والدعوة إلى تركها لأهلها[3]، فقد انتبه بعض العلماء إلى إمكانية استغلال رجل السياسة لبعض مفاهيمهم وطموحه إلى استغلال منزلة الفقيه بين العامة، ودعوا إلى ضرورة الاحتفاظ بمسافة فاصلة بين رجل العلم ورجل السلطة، بل وقاد بعضهم ذلك الحذر إلى الفرار من رجل السيف والسلطان ومقاطعته ورفض التعامل معه[4]، فقد رأى محمد رشيد رضا في اتقاء السياسة... واجتناب مقاومة السلطان شرطا لكل نشاط يمارسه رجل العلم.

ولعل من أبرز صور علاقة المثقف بالسلطان في المجتمع العربي صورة الكاتب الذي لم يكد يخرج عن معنى "الخديم" كما قال الجاحظ في رسالته التي وضعها في "ذم أخلاق الكتاب": "إن سنخ (أي أصل) الكتابة يبنى على ألا يتقلّدها إلاّ تابع، ولا يتولاها إلاّ من هو في معنى الخادم، فأحكامه أحكام الأرِقّاء، ومحله من الخدمة محل الأغبياء"[5]. وسبقه إلى مصطلح الخدمة عبد الحميد الكاتب في رسالته الشهيرة[6] إلى الكتاب، حيث قال: "فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صناعتكم، خَدَم، لا تحتملون في خدمتكم على التقصير"، وكذلك يرى جلّ الدارسين المحدثين الذين تناولوا هذه العلاقة بالدراسة أن الكتّاب خدام الاستبداد[7]. لأنهم لا يعبرون إلاّ عن رأيه ولا يصدرون إلاّ بأمره، وتمتاز عنهم صورة الفقيه أو العالم لما يملكه من سلطة علمية موازية في قوتها للسلطة السياسية وربما فاقتها أحيانا بما لها من قبول شعبي، مما يجعل السلطان في حاجة دائمة إليها لاستمراره ويشعرها بضرورة ممارسة دور الرقيب عليه وإن تفاوتت صلات العلماء بالسلطان وعرفت مدّا وجزرا باختلاف ثقافات الحكام والعلماء وطبائعهم (قراء –فقهاء –متكلمون –متصوفة...)، وطائفة الأطباء التي لا يستطيع الحكام –الاستغناء عن خدماتها، وطبقة الفلاسفة الذين حاولوا الجمع بين الفكر الإسلامي وما انتهى إليه المتكلمون وبين الثقافات الأخرى المترجمة، وقد لاقى بعضهم عنتا ومرّ بمحن لا تكاد تختلف عن محن العلماء والفقهاء.

ولا ننسى طبقة الشعراء التي لم تكد تخرج في الغالب عن دور الموادعة والمداهنة بمديحها التكسبي الذي اتخذت منه مصدر استرزاق لا يمكن الاستغناء عنه وإن وجدت فيها بعض المواجهة فقليلة.

وسنقف عند بعض تجارب أعلام هذه المهن الحساسة التي لا يملك السلطان بدًّا من الحاجة إليها

---

[1] - عبد الرحمن الكواكبي- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد – مطبعة الأمّة – درب شعلان - مصر – 29.

[2] - المرجع نفسه - 27.

[3] - عبد المجيد الصغير – الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت – ط1 -1415ـ- 1994 - 12.

[4] - المرجع نفسه - 220.

[5] - الجاحظ – رسائل الجاحظ – شرح وتعليق محمد باسل - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 2000 - مج 1/ ج2 / 141.

[6] - الجهشياري –الوزراء والكتاب – تحقيق مصطفى السقا و آخرون–مطبعة مصطفى البابي الحلبي-مصر-ط2-1980 -74 وما بعدها.

[7] - علي أو مليل – السلطة الثقافية و السلطة السياسية – مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - ط2 - 1998 – 54.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والإستعانة بخدماتها لاستمرار ملكه، ولا يجد حرجا في قمع كل من تسوّل له نفسه الحول دون طموحاته ورغباته.

ولا عجبَ أن تجد الحركات الثائرة والمتمردة سندا أدبيا من هذه الفئات في أغلب الأحيان، وأن تتجرع هذه الفئة من بطش الحكام واستبدادهم لأن السلطان لم يعد يرضى بحيادها وعدم معارضتها وإنما يطلب تأييدها اللّامشروط وعداءها لكل من عاداه،[1] حتى رأى الكواكبي أن قلوب المستبدين الشرقيين هواء من خوف أهل العلم، وأنهم يرتجفون "من صولة العلم، وكأن أجسامهم من بارود والعلم من نار".[2]

- **الفقيه والسلطان، الصراع الدائم و النهايات المفجعة :**

ولعل أول صدام في التاريخ الإسلامي بين المثقف ورجل السياسة وأول مساهمة في الحركة السياسية هي حركة القراء[3] في ثورتها على الخليفة الثالث عثمان بن عفان، فقد أرسل إليه القارئ كعب بن عبدة المعروف بزهده رسالة ينتقد فيها سياسته، وأرسل إليه مجموعة من القراء قارئا آخر هو عامر بن عبد الله التميمي لينذره، ثم عامر بن عبد قيس ويقع بينهما حجاج ويتهمه عثمان بالجهل : " انظر إلى هذا، فإنّ الناس يزعمون أنه قارئ.. فو الله ما يدري أين الله.." فيردّ عليه: "...والله إنّي لأدري أن الله لك بالمرصاد"[4].

ونظرا لما أصبح يمثله القراء من خطر في تحريك دفة السياسة خشيهم الأمراء وحاول البعض تقريبهم وجعلهم من خاصتهم[5]، وربما اتخذت محاولة التقرب هذه صورة من صور التزلف لرجل العلم طمعا في استغلال منزلته وتوظيف معارفه في خدمة السلطان وتقوية نفوذه، مثل محاولة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك مع الفقيه التابعي سعيد بن المسيب[6].

وربما كان إغراء المال والتقريب في المجالس الخاصة من بين أساليب السلطان في محاولة استغلال المركز الاجتماعي للعلماء، وهو الأمر الذي رأى فيه جلّ العلماء نوعًا من أنواع الارتشاء والاستدراج وتزيين مجالس السلطان -على حد قول ابن خلدون-[7] وقد أشار تاج الدين السبكي إلى خطورة هذا الاستدراج من قبل رجل السياسة لرجل العلم، فقال : "فكم رأينا فقيها تردد على أبواب الملوك فذهب فقهه ونسي ما كان يعلمه... وذلك فساد عظيم وفيه هلاك العالم"[8]. ولذلك وجدنا الزهاد والعبّاد يتجنبون السلطان و يستغنون عنه، فهذا الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان يحجّ، فيستحضر أبا حازم ليعظه، ويدور بينهما حديث يسأله

---

[1] -عبد المجيد الصغير – الفكر الأصولي وإشكالية السلطة - 130.

[2] - عبد الرحمن الكواكبي – طبائع الاستبداد - 30.

[3] - وهم كتبة الوحي وحفاظه.

[4] - الطبري – تاريخ الطبري - 642/2.

[5] - المصدر نفسه – 317..

[6] - عبد المجيد الصغير – الفكر الأصولي وإشكالية السلطة - 128 - 220.

[7] - المرجع نفسه -221 .

[8] - المرجع نفسه -15.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فيه الخليفة عن عزوفه عن زيارته : "مالك لا تأتنا ؟ فيجيبه : وما أصنع بإتيانك، إن أدنيتني فتنتني وإن أقصيتني حزنتني وليس عندي ما أخافك عليه ولا عندك ما أرجوك له..."[1].

ولا يقف دور القراء عند النصح والتحذير والاكتفاء بالمركز العلمي، فيجمعون في المرحلة التالية بين الدورين العسكري والثقافي بمشاركتهم في معركة صفين وانضمام أغلبهم إلى صفوف الإمام علي، ثم بين الثقافي والسياسي حين دعوا إلى التحكيم واختاروا الحكم، ومنهم حجر بن عدي الكندي والذين امتنعوا معه عن لعن الإمام علي من فوق المنابر، وردُّوا بلعنِ مُحدِثِ هذه البدعة (معاوية بن أبي سفيان) فأمر بإحضارهم إليه مكبلين، ومارس عليهم صنوفا من الإرهاب والتعذيب، فتراجع من تراجع وصمد حجر بن عديٍّ في سبعة من أصحابه، فأمر معاوية بقتلهم[2]، وبهذه المواقف يكون القراء قد دشنوا سلطة العلماء الدينية في صناعة القرار السياسي، ودخلوا في مرحلة لاحقة في صراع مع الدولة الأموية عندما أحدث الخليفة عبد الملك بن مروان إصلاحات حاسمة في جهاز الدولة كالتعريب مثلا، وفرض لتحقيق مشاريعه ضرائب اعتبرها القراء غير شرعية، وانتهى الأمر بهم إلى الانضمام إلى ثورة عبد الرحمن بن الأشعب والمعركة الشهيرة المعروفة "بدير الجماجم"، نذكر منهم المحدث والفقيه سعيد بن جبير الذي شارك في الفتوح، وعندما اختلف الحجاج مع ابن الأشعث في خطة الحرب وعزله، ثار عليه وأصحابه، وانضمّ إليهم سعيد بن جبير. ولما انهزموا تولى الحجاج بنفسه مهمة استنطاقه وإهانته وإرغامه على التراجع ولما يئس منه أمر بذبحه[3]، ومثله سعيد بن المسيب الذي رفض مبايعة الوليد وسليمان ابني عبد الملك خليفتين من بعده على التوالي، وظل متمسكا بموقفه رغم مبايعة أهل المدينة، فجلد خمسين سوطًا وطافوا به أسواق المدينة ثم أدخل السجن وأطلق سراحه دون أن يتراجع، وظل بعيدا عن الخليفة وحاشيته[4].

وإن جمع القراء بين السلطتين الثقافية والعسكرية في هذه الفترة المتقدمة من التاريخ الإسلامي، وكانوا من السباقين إلى الجمع بين سلطة السيف والقلم ومواجهة السلطان ومحاولة إرغامه على الخضوع للعلم وللكتاب باعتباره مصدر الشرعية والسلطة، فإن الفقهاء الذين أخذوا عنهم وخلفوهم أخذوا يفقدون تدريجيا سلطة السيف ويكتفون بالسلطة العلمية مصدر للشرعية وللسلطة[5].

---

[1] - الطرطوشي – سراج الملوك - 112.

[2] - محمد عابد الجابري – المثقفون في الحضارة العربية –(محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد) – مركز دراسات الوحدة العربية – ط1 – بيروت – نوفمبر 1995- 69.

[3] - المرجع نفسه - 69 -70. .

[4] - محمد عابد الجابري – المثقفون في الحضارة العربية – (محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد) – مركز دراسات الوحدة العربية – ط1 – بيروت – نوفمبر 1995- 69-71.

[5] - عبد المجيد الصغير – الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام - 48 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولكنهم ومع ذلك الحياد لم ينج أغلبهم من بطش السلطان إلى الحدّ الذي يمكن القول فيه أن علاقتهم به قد اتخذت طابع المحنة أكثر من غيره ما دام رجل السلطة يدرك ثقل سلطانهم العلمي وموازاته لسلطته السياسية والعسكرية والاقتصادية، ويعلم قدرتهم على الحدّ من نفوذه المطلق[1]، لما لرجل العلم (الشرعي) من تأييد شعبي وتأثير واسع في المجتمع.

ولأن التاريخ مليء بصور الاصطدام والمواجهة بين رجل العلم ورجل السياسة على محدوديتها إذا ما قورنت بصور الموادعة، فإننا سنحاول الوقوف عند بعض تلك الصور بقدر ما يوصلنا إلى فهم العلاقة بين مثقف العصر الحديث والحاكم وإرث الحذر الذي توارثته طبقات المثقفين جيلا بعد جيل، وظل يعمق الهوة بين الطرفين.

فهذا أبو حنيفة وكان مؤيداً لزَيْد بن علي في ثورته يمتحن امتحانا قاسيا في عهد بني أمية،[2] ويتعلم الإمام الشافعي في مدرسة الإمام مالك أن سلطة العالم لا تعلوها سلطة أخرى، إنها سلطة لا تستند إلى السيف والسوط والحبس وإنما تقوم على العلم، وتجعل صاحب السيف لا يشعر بالذل والخضوع إذا هو وقف ببابها وينشئ شعرا في ذلك[3] :

إن الملوك بلاء حيثما حلّـــوا فلا يكن لك في أبوابهـــــم ذل
ماذا تؤمل من قوم إذا غضبوا جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا
فاستغن بالله عن أبوابهم كرمًا إن الوقوف على أبوابهـــم ذل[4].

ويمر هو الآخر بمحنة سياسية فعلية يدبرها له رجل السياسة (والي نجران) فيجد نفسه وجها لوجه مع الخليفة العباسي الذي رأى أنه يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه، ويأمر بإحضاره إليه في نفر من رفاقه المتهمين بالأموية، وينفذّ فيهم القتل جميعا ويعفى الشافعي بوساطة الفقيه محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة[5]، وقيل أنه شارك في ثورة زيد بن علي ثم ثورة إبراهيم بن عبد الله وأخيه محمد النفس الزكية ، شارك فيهما بالقول والإفتاء والمال[6].

وشبيه بهذه الحال محنة العز بن عبد السلام المعروف بسلطان العلماء عندما أنكر على سلاطين الشام تهاونهم في مقاومة الصليبيين وتحالف بعضهم مع الأعداء وندد بتصرفاتهم في المساجد فتعرض للمضايقة والإرهاب وفرضت عليه الإقامة الجبرية مِرارا، فرحل إلى مصر وعين قاضيا للقضاة، وكانت له مواقف صارمة

---

[1] - المرجع السابق- 128.
[2] - أحمد محمد الحوفي – أدب السياسة في العصر الأموي - دار القلم - بيروت - 127.
[3] - عبد المجيد الصغير – الفكر الأصولي وإشكالية السلطة - 158.
[4] - ديوان الإمام الشافعي – مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – لبنان – ط1 لبنان 2000 - 93.
[5] - عبد المجيد الصغير – الفكر الأصولي وإشكالية السلطة - 161.
[6] - مصطفى الشكعة – الأئمة الأربعة – أحمد بن حنبل – دار الكتاب اللبناني – ط3 -1991 – 119.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مع المماليك استجابوا على مضض لها و لم يعاقبوه عليها أو يتمردوا على سلطانه الديني الفقهي، فقد أعلن أنه لم تثبتْ حرية هؤلاء المماليك الذين كانوا في الأصل عبيدا للأتراك فثار عليه المماليك واضطرب أمرهم إذ قاطعهم الناس، وصاروا في حكم العبيد (لا يصح لهم بيع ولا شراء) ورجعوا إليه في الأخير طالبين موقفه، فأفتى بعقد مجلس ينادي فيه عليهم بالبيع لفائدة بيت مال المسلمين وأعتقهم بعدها"[1].

ولنا أن نكتفي من صور هذا الاستبداد لطائفة العلماء بمحنة الإمام أحمد بن حنبل الذي واجه السلطة في قضية فكرية سياسية دينية كبرى هي قضية القرآن أمخلوق هو؟ و لم يكن وحده فيها، فقد شاركه من علماء عصره الكثير من القضاة والمحدثين والفقهاء.

أمر المأمون من لم يقل بخلق القرآن بالإمساك عن الحديث والإفتاء في السرّ والعلن، ومن أصّروا منهم على موقفهم يرسلون موثقين إلى معسكر الخليفة يمتحنهم، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم على السيف جميعا، وفي رسائله إلى عامله على بغداد تسفيه لعلماء العصر وتكفير لهم وتهديد بإعمال السيف، وكأن مشاكل الخلافة كلها حلّت على يدي المأمون و لم يبق أمامه غير مشكل خلق القرآن. ويبدو أن سلطان السيف لم يبق غير ابن حنبل والشاب محمد بن نوح، اللذين أرسلا إلى المأمون لكن المنية عاجلته فأعيدا إلى المعتصم، ليموت محمد بن نوح والحديد في رجليه ويواصل ابن حنبل طريقه مقيدًا أين يلقاه المعتصم حامل وصية أخيه المأمون بالتصدّي لهؤلاء، وتعرف المحنة أبعادها القصوى في غياهب السجن تحت نير السياط بعد أن أقسم الخليفة ألاّ يقتله بالسيف وإنما يضربه ضربا بعد ضرب ويلقيه في موضع لا تُرى فيه الشمس، ثم حمل إلى بيته وأمر بأن يلزمه، ويمتنع عن تحديث الناس بل حتى الخروج إلى صلاة الجمعة، واستمرت إقامته الإجبارية في خلافة الواثق حتى إذا جاء المتوكل غير في السياسة الدينية للدولة وعمل على تقريب ابن حنبل[2] الذي التزم في جميع الأحوال النصح والحرص على حفظ النظام العام.

ولكن هذا الموقف الوسط لم يكن يرضي الكثير من الحكام لأنه التزم موقف الاستقلال عنهم وحرص على عدم مخالطتهم وحضور مجالسهم، و لم يكن يقبل جلّهم إلاّ أن يكون العالم معهم كلية وإلاّ فهو ضدهم.

وقد شهد عصر ابن حنبل تدخل الدولة بقوة من أجل "دولنة العلم الشرعي" وترميم مؤسسة القضاء وفرض مذهب الدولة الكلامي ليس فقط في قضية خلق القرآن التي لم تكن إلاّ حجة تخفت وراءها لتصفية حسابها مع ورثة الشرعية الدينية من علماء وفقهاء وقضاة ومحدثين، ولبسط سلطتها الكاملة في كل المجالات بما فيها القضاء والافتاء.. وعلى العامة التسليم بأن هناك سلطة واحدة ينبغي اتباعها والخضوع لها هي سلطة الدولة وشريعتها الرسّمِية[3].

---

[1] - محمد عابد الجابري – المثقفون في الحضارة العربية - 71-72.

[2] - مصطفى الشكعة : الأئمة الأربعة - 130-143.

[3] - علي أومليل – السلطة الثقافية والسلطة السياسية - 40-42.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن كبار رجال الحديث الذين امتحنهم المأمون أحمد الخزاعي وأبو مسهر الدمشقي،[1] فابن حنبل لم يكن البطل الوحيد في محنة خلق القرآن، ولكنه كان الناجي الوحيد من امتحانها إذ كتب له ألا يقتل كما قتل آخرون، ليتحول إلى بطل رمزي تاريخي لهذه المحنة التي لم يكن الهدف من ورائها إلاّ بسط نفوذ الحاكم وإلغاء كل سلطان عداه.

- الفيلسوف والطبيب وتقلب الأحوال :

وقد عرفت طبقة الأطباء على يد خلفاء بني العباس محنًا لا تختلف عن محن الفقهاء والعلماء، لما يقف عليه هؤلاء من أسرار القصر، فهم أعرف الناس بجسم الخليفة وخفايا أسرار حياته الخاصة، وهم أدخل الناس إلى أهله، لهم سلطة مبسوطة على جسم الخليفة وأجسام أهله وخاصته. وكثيرة هي الأسر الطبية المنكوبة مثل أسرة بَختيشوع التي تعاقبت على علاج الخلفاء (المنصور –المهدي –الرشيد –المأمون –المتوكل –الراضي)، حيث نكب الرشيد بجبرائيل بن بختيشوع ثم شفع له وزيره الفضل بن الربيع، ثم سجنه المأمون بتهمة مساندة أخيه الأمين، وينفي الخليفة الواثق بختيشوع بن جبرائيل ثم يقربه المتوكل ثم ينفيه إلى البحرين فيستمر بها إلى وفاته[2].

ومثل حنين بن إسحاق الذي انتهى به الأمر إلى الجلد والسجن وانتزاع الأملاك، ثم العفو بعد ذلك لحاجة الخليفة وحاشيته إلى صناعته الطبية[3].

وكذلك كان مصير بعض الفلاسفة، ويأتي في مقدمتهم الكندي الذي دشن دخول الفلسفة في الصراع حول السلطة العلمية، وسعى لانتزاع العلم الحقيقي من الفقهاء الذين ادّعوا ملكيته ونعتهم بأنهم: "أهل الغربة عن الحق، وإن تتوجوا بتيجان الحق من غير استحقاق... ذبا عن كراسيهم التي نصبوها عن غير استحقاق، بل للترؤس والتجارة بالدين."[4]

وقد دفع الكندي ضريبة الاتصال بالسلطان وثمن ذلك الصراع بين السلطات (علمية –وسياسية – ودينية) فقربه المعتصم وأقامه على تربية ابنه وأغدق عليه، ليعصف به المتوكل حين لعب ورقة أهل السنة ويجلده ويجرّده من مؤلفاته[5].

وكان مصير ابن سينا طبيبا وفيلسوفا السجن والمطاردات، وقضاء أغلب عمره هاربا متخفيا[6].

---

[1] - محمد عابد الجابري – المثقفون في الحضارة العربية - 95.

[2] - علي أومليل – السلطة الثقافية والسلطة السياسية -169.

[3] - المرجع نفسه - 172.

[4] - المرجع نفسه - 175 .

[5] - المرجع نفسه - 175.

[6] - المرجع نفسه - 190.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولا يختلف عنهما حال ابن باجة الذي أثر عنه على قربه من السلطان رفضه لما كان يعرف بكتب الآداب السلطانية التي كتبها –كما يقول- " البلاغيون في كتب الآداب التي يسمونها سلطانية، المشتملة على الوصايا والأقاويل المشورية في محبّة السلطان ليس له جدوى ولا هو علم"[1]، من أكثر الذين نظروا للآداب السلطانية الماوردي صاحب الأحكام السلطانية ، وتسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، والذي يرى أن تأسيس الدولة لا يكون على الدين وحده، يقول : " إن الدين والملك توأمان لا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، لأنّ الدين أس، والملك حارس"[2].

تقلد ابن باجة المناصب وتقلب فيها صعودا وهبوطا، فتولى الوزارة أكثر من مرّة وسجن مرات، وانتهى نهاية مفجعة إذ قتل مسموما بتهمة الزندقة[3]، وهي تهمة معهودة توجه إلى الفلاسفة ويلوّح بها الحكام كلّما لاحت لهم بادرة اعتراض أو ثورة.

وهذا الطبيب الفقيه القاضي الفيلسوف ابن رشد يعين قاضيا على إشبيلية إلى جانب كونه طبيب الخليفة، يصدر المنصور منشورا يقضي بإحراق كتبه الفلسفية ونفيه نحو عامين، ربما بسبب كتابه " الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملّة" الذي انتقد فيه المذهب الأشعري وهو انتقاد خفي لمؤسس السلطة الموحدية "ابن تومرت" ومشيع المذهب الأشعري في تلك البلاد، وقد عفا عنه وعن الفلسفة بعد ذلك[4].

وهذا لا يعني أن كل العلماء والفقهاء والفلاسفة قد نكبوا وإنما حذر السلطان وخوفه على ضياع سلطانه هو الذي يدفعه إلى تضييق الخناق حتى لا يرى الناس جميعا إلاّ في فلكه وتحت سلطانه.

- الكتاب والسلطان ، مهنة الخديم ودرب الموادعة :

بقي لنا أن نقف عند شريحة من المثقفين في صلتها بالسلطان والمغايرة لحدّ ما لكل الصور السابقة القائمة على الاستقلال بالرأي أو النصح والتلميح أو الرفض والمواجهة في أقصى الحالات، وهي صورة الكتاب والشعراء الذين تقوم علاقتهم على الموادعة والمهادنة إن لم نقل التبعية المطلقة غالبا، وإن كان سلطان الكاتب أقوى من سلطان الشاعر لحاجة السلطان إلى صناعته في تسيير شؤون البلاد، إذ عليها كما يقول أبو هلال العسكري "مدار السلطان" ويضيف إليها الخطابة فيجعلهما مختصتين بأمر الدين والسلطان وعليهما مدار الدَّار، ويبعد الشعر عن هذه الدائرة لأن أكثره -كما يرى- يبنى على الكذب والاستحالة من الصفات الممتنعة، والنعوت الخارجة عن العادات والألفاظ الكاذبة، بينما لا يحتاج إلى الشاعر إلاّ لغايات فردية هي إشباع رغبته

---

[1] - المرجع السابق - 189.

[2] - المرجع نفسه -137. وأيضا سعيدبن سعيد - دولة الخلافة دراسة في التفكير السياسي عند الماوردي– الفصل الرابع والخامس. (105 وما بعدها ، 131 وما بعدها).

[2] - المرجع نفسه - 188.

[3] - محمد عابد الجابري – المقفون في الحضارة الإسلامية - 119 - 123.

[4] - أبو هلال العسكري – الصناعتين – تحقيق علي محمد البجاوي – محمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية – صيدا – بيروت- 1986- 136-137.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في سماع المزيد من المديح والإطراء[1]، فقد عدّ الجاحظ الكتاب مجرّد خدّام وعدّ ابن خلدون الكتابة في عداد الصنائع الأخرى التي يستعين بها السلطان في تسيير مملكته، كالبناء مثلا والعمران والزراعة. بل هم كما يقول "آلته التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه والنظر إلى أعطافه وتثقيف أطرافه والمباهاة بأحواله." [2] لأن الكتابة ظلت محكومة بأصلها وهو خدمة الخليفة أو السلطان، فلا يمكن الاعتماد عليها في تأسيس سلطة مستقلة موازية لسلطانه كما هو الحال عند الفقهاء، لأنها لا تتحرك إلاّ في إطار حركته، تحتمي به وتستظل بسلطانه وتخدمه في مواجهة سلطات علمية أخرى أقواها سلطة الفقيه التي تعاقب جلّ الحكام على كسر شوكتها وفصلها عن مصدر قوتها واعتدادها وهو العامة.

ولكن الكتاب لم يقفوا عند حدود تدبيج الرسائل الرسمية، بل تحوّل أغلبهم إلى كتاب سياسيين يقدمون إلى مخدوميهم معرفتهم العلمية بالسياسية والمستمدة في الغالب من تقاليد نظم الحكم الملكية للأمم السابقة، وارتقى بعضهم إلى وظائف حساسة أعلاها الجمع بين الرئاستين: "رياسة القلم ورياسة السيف" وهو ما كان يعبر عنه بلقب ذي الوزارتين، وممَّن تقلد هذه الرتبة الفضل بن سهل وزير المأمون، والكاتب والفقيه والوزير لسان الدين بن الخطيب، وقد انتهى كلاهما نهاية مأساوية[3].

انتهج جل الكتاب إن لم نقل كلهم درب المهادنة والموادعة وقدّموا للحاكم ما يساعده على بسط سلطانه بما كانوا ينقلونه عن السابقين، مثل محاولات ابن المقفع القائمة أساسا على تعليم الاستبداد والتقليص من سلطة رجل الدين في سبيل إحكام قبضة الحاكم المطلق وإخضاع السياسي والديني على حدّ سواء إلى سلطانه؛ يقول: "الرأي إلى ولاة الأمر، ليس للناس في ذلك شيء إلاّ الإشارة عند المشورة والإجابة عند الدعوة"[4]، وعلى الكاتب ألاّ يعتدّ برأيه في حضرتهم لأنه مجرد خديم يعمل عمل السخرة، "...فإن كنت حافظا إن بَلَوْك، جلدا إن قربوك... تعلمهم وأنت تريهم أنك تتعلم منهم وتؤدبهم وكأنهم يؤدبونك. تشكرهم ولا تكلّف الشكر، بصيرا بأهوائهم، مؤثرا لمنافعهم ذليلا إن ظلموك، راضيا إن أسخطوك، وإلاّ فالبعد منهم كل البعد والحذر منهم كل الحذر"[5]، وكأننا به يدعو الكاتب لإلغاء ذاته تماما والذوبان في خدمة الحاكم والتأقلم مع كل تقلباته، ولكنه على الرغم من تفانيه وحذره وقع المحذور ودفع ابن المقفع ثمن صلته بالسلطان غاليا[6]، وقد مرت بنا في الفصل الأول صور شتى لمحن الكتاب ونهاياتهم المأساوية، فهم مخيرون بين أمرين إما الانسحاق والسخرة والذلّ والهوان وإما المحن.

---

[5] - ابن خلدون – المقدمة – دار الرائد العربي - بيروت 1982 -417-421.

[3] - علي أومليل - 54 وما بعدها.

[4] - المرجع نفسه - 65.

[5] - ابن المقفع - الأدب الصغير والأدب الكبير - 100.

[6] -انظر سالم المعوش- عبد الله بن المقفع مفكر وقضية - مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع- ط1- بيروت 1424-2004- 43-45.

[5] - عبد الحليم محمد حسين – السخرية في أدب الجاحظ –ط1 – الدار الجماهيرية – ليبيا - 1988 – 190 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وربما كان ذلك الحذر سببا في ابتعاد الجاحظ إلى حدّ ما عن السلاطين، بل وأجوائهم، ودفعه إلى ترك الديوان سرًّا و لم يمكث فيه أكثر من ثلاثة أيام[1]، إذ لم يكن من كتاب الدولة الرسميين، ولكنه مع ذلك أهدى –على عادة كتاب زمانه –كتبه إلى أهل السلطان دون أن يتوغل إلى وسطهم ويصيبه خيرهم أو شرهم.

أما أبو حيان التوحيدي فلم تتضح له رؤى تلك العلاقة و لم يستطع اتخاذ القرار وظل يتأرجح بين الإقبال عليهم والزهد فيهم، فكان مثالا للتردد "الفاجع بين طمع الحظوة لدى الأعيان والسلطان... وبين العزلة والتصوّف"،[2] وظل متأرجحا بين البابين كما كان يحبّ تسميتهما "باب الله وباب السلطان"، ويصف في صراحة نادرة معاناته وهو يقف عند باب السلطان مستجديا متكسبًا في زمن لم يكن فيه من منافذ لبضاعة الكتاب إلاّ "سوق السلطان" وما كانت تعرفه من تزاحم واعتبارات قد تتجاوز حدود المكتوب إلى الكاتب وعلاقاته فلا يجتاز عتباتها إلاّ القليل، وينتهي إلى ذلك الحكم البليغ الصادق النابع من أعماقه وقناعاته: "سفّ التراب أخف من الوقوف على الأبواب، إذا دنوا منها دفعوا عنها،[3]" ويقتنع في الأخير ألا فائدة من عرض بضاعته في سوقهم، فيحرقها ويتوجه إلى الباب الآخر الذي تردد في ولوجه كثيرا[4]. وينتقل من دائرة الموادعة إلى دائرة المواجهة فيكتب بعد فشله عند بابي ابن العميد والصاحب بن عباد رسالته الشهيرة في ذمِّهِمَا، ويختصهما بالغيبة التي تحرقهما وغيرهما بعد أن اختصَّاه بالخيبة، وعُذره أنه فقير، والفقير: "إذا مدح فَرَّط، وإن ذم أسقط"[5] - على حد تعبيره.

وكذلك فعل ابن زيدون بغريمه الوزير الأندلسي ابن عبدوس : "في رسالته الهزلية، الشهيرة، فقد مسخه مسخا، مقتفيا فيها نهج الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير[6].

- الشعراء والسلطان، فلسفة الشعر بالسعر:

هذا عن الكتّاب أو كما سماهم الجاحظ خدام السلطان، فإذا جئنا إلى طبقة الشعراء وجدنا حالهم أسوأ وشأنهم أقلّ من شأن الكتاب الذين غالبا ما كان يقلد بارعوهم المناصب السياسية البارزة كالقيام على أحد الدواوين أو رئاسة الديوان وأحيانا الوزارة بكل ثقلها وسلطانها مما يؤكد حاجة السلطان إليهم في مجتمع ينظر فيه أغلب النقاد إلى الشعر على أنّه مصدر كسب وحرفة أو صناعة ويهيئون الشعراء والكتاب ليكونوا خدما

---

[2] - علي أومليل – السلطة الثقافية و السلطة السياسية - 103.

[3] - أبو حيان - التوحيدي و الإمتاع والمؤانسة شرح أحمد أمين وأحمد الزين-منشورات المكتبة العصرية-بيروت-د ت- 212/3

[3] - رسائل أبي حيان التوحيدي – إبراهيم الكيلاني – طلاس للدراسات والترجمة والنشر – دمشق – ط1 - 1985-27-78، وانظر : ياقوت الحموي معجم الأدباء – 15./5

[4] - أبو حيان التوحيدي - مثالب الوزيرين : أخلاق الصاحب ابن عباد وابن العميد، تحقيق إبراهيم الكيلاني، دار الفكر – دمشق – المقدمة – ط .

[5] - انظر : ابن نباتة المصري - سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - 1986-1406هـ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في بلاط الملوك، ويبلغ بهم الأمر إلى سن قانون غريب يوجب على البليغ أن يلحن ويتعمد ذلك " عند الرؤساء الذين يلحنون والملوك الذين لا يعربون"[1]. فوجود الشعراء في قصور الحكام وبلاطاتهم واستمرار شاعر ما في مجلس أو قصر لا يتم إلاّ بما يقدمه ذلك الشاعر من مدائح للحاكم، وبجودته وسيرورته في الناس مما يبسط سلطانه، ويذيع أخباره إلى أبعد حدود مملكته بل وخارجها، يرهب أعداءه أو يغري محبيه، فإن لم يستطع أن يصل إلى السلطان لكثرة المتنافسين على نيل رضاه فلأحد رجال حاشيته أو أبنائه، وذلك ما يعرف بالمديح التكسبي الذي تحول بالشاعر إلى مجرد خديم يرضي غرور السلاطين ويقتات مما يعطونه مقابل شعره، فقد صارت المدائح سلعا حقيقية لا سيما في العصر العباسي وغلا ثمنها ونال بعض الشعراء ثروات طائلة بسببها، نذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر أن الخليفة المهدي جعل ثمن المدحة من مدائح مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم، وأعطاه الهادي على مدحة مائة وثلاثين ألف درهم[2]. حتى أصبح من الأمثال الشائعة قولهم "بيع الشعر بالسعر"[3]، بل تحوّل الشعراء أنفسهم إلى مجرد أثاث يزين به الخليفة مجالسه في زمن انقسمت فيه البلاد إلى دول ودويلات، وأصبح الأمراء والخلفاء يتنافسون في اجتلاب الشعراء اللامعين والعلماء في شتى فروع المعرفة إلى بلاطاتهم، ويفاخر بعضهم البعض الآخر بمن يضمهم مجلسه، فقد غدا كل قطر من أقطار المملكة مركزا ثقافيا وعلميا هامًا كبغداد والريّ وحلب ومصر والمغرب والأندلس بإماراتهما المختلفة وعواصمهما الثقافية .

والمتأمل لطبيعة العلاقة بين هؤلاء الشعراء والسلاطين يجدُها لا تتجاوز في الغالب عوالم المديح وسوق الأخذ والعطاء، فلا يتطاول الشاعر إلى سلطان أو يطمع فيه لأنه يعلم عاقبة الطمع ومنافسة السلطان ولنا في طموح المتنبي الجامح إلى الإمارة وما لقيه في سبيله من مطاردات المثل الواضح على طبيعة تلك العلاقة التي لا يجوز للطرف الأخر منازعة الحاكم فيها أو منافسته. وهذا لا يعني في جميع الأحوال أن شاعر "المديح قد تحوَّل إلى بائع متجول يعرض بضاعته ويقبض الثمن، فهناك من الممدوحين من تجسدت فيهم خلال حميدة جاز للشعراء التغني بها كما أن هناك التزامات أخرى معنوية يؤديها بعضهم تجاه الممدوح أهمها الولاء وتجديد العهد[4].

ولا نكاد نجد من الشعراء من انتقد تصريحا أو تلميحا سياسة حاكم في رعيته أو هجا حاكما مثلما فعل الشاعر العباسي الهجاء السليط دعبل الخزاعي الذي لم ينج من بطش لسانه كل الخلفاء الذين عاصروه (الرشيد-المأمون-المعتصم- الواثق، المتوكل) وقضاتهم ووزراؤهم وولاتهم وقادة جندهم وظل يتخفى منهم

---

[1] - علي البطل - الصورة في الشعر العربي حتّى آخر ق 2 هـ - دار الأندلس - ط1 - 1982 - 18-19.

[2] - شوقي ضيف – تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول – دار المعارف – القاهرة – ط8 - 3 /46.

[3] - درويش الجندي – ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده – دار نهضة مصر – القاهرة - 1970 - 98.

[4] - سوزان بينكني ستيتكفيتش- أدب السياسة وسياسة الأدب – 139.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حتى تهدأ ثورتهم ليعود إلى بغداد وإلى الهجاء من جديد[1]. بل وهناك من مارس ما يمكن تسميته بالهجاء التكسبي الذي يرغم الناس على العطاء وإلاّ تعرّض لهم، مثلما كان الناس يحذرون الحطيئة فيشبعوا حاجته قبل أن ينهشهم بهجائه السائر في الركبان، وكما فعل الفرزدق مع الرواة المتعصبين.

وقد ذهب أحمد أمين إلى أن مهنة الخديم أو الخدمة لازمت الشاعر منذ العصر الجاهلي عندما كان شاعر قبيلة يعبر عن ذوات لا ذات واحدة، "لقد رسم للشاعر أن يكون خادم السلطات... فكان الشاعر شاعر القبيلة لا شاعر نفسه إذ كانت السلطة للقبيلة، فهو يدافع عنها ويحميها من أعدائها، ويعبّر بلسانها،.... فقل التعبير بأنَا وكثر التعبير بإنا"[2] . ولكن مركز الخدمة هذا أخذ يتقهقر شيئا فشيئا أمام الدولة المترامية وسلطان الكتاب وما يقدمونه لاستمرارها و إرساء دعائمها وإن ظل مصطلح الخدمة نفسه يلازم الشاعر بالرغم من قدرة السلطان على الاستغناء عنها، بخلاف عجزه عن ذلك مع الكتاب والعلماء لأن السلطنة تقوم على خدماتهم أو صناعتهم، بينما لا تتجاوز خدمة الشاعر أو صناعته الممدوح والأثر المعنوي ، ويعلل الجاحظ سبب ارتفاع المهنة بالكاتب والخطيب فوق الشاعر لكثرة الإلحاح في الشعر وانحطاط الهمة فيه بعد أن كان الغالب على طباع الشعراء الأنفة من السؤال بالشعر، وتحول الأمر إلى "متاجرة رخيصة بالفن" حيث يدفع الممدوح للشاعر ثمنا لأكاذيبه الجميلة[3].

- المثقف الحديث والسلطان التأرجح بين المهادنة والمواجهة :

فإذا جئنا إلى العصر الحديث وجدنا أن المثقف العربي لم يتخلص من ثقل ذلك الميراث القديم المشوب بالخوف والحذر، على الرغم من الشعارات الكثيرة المرفوعة باسم المنظمات والهيئات الدولية كمنظمة حقوق الإنسان ومنظمة العفو الدولية ومجلس الأمن والأمم المتحدة وغيرها، والمنادية بشعارات حرية الشعوب وحرية الرأي والديمقراطية والعدالة وكثير من المصطلحات التي ظلت على الورق، ذلك أن الاستبداد ظل هو هو وإن لبس أثوابا جديدة وظهر بمظهر متمدن.

ولعل أكبر عقبة واجهها المثقف العربي في بدايات النهضة مشكلة الاستعمار الذي لم ينج من قبضته قطر عربي، وما نتج عنها من تقييد للحريات وتكميم للأفواه ، ولكن حتى بعد خروج المستعمر ظل المثقف العربي يواجه مشكلة الاستبداد و قمع الحريات و في مقدمتها حرية التعبير مثلما كان يواجهها ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الأنظمة الحديثة أظهرت زهدها في المثقف عموما وجعلت الولاء أهم من الكفاءة، وأثبتت أنها لم تعد في حاجة إلى وساطة المثقفين في وسط هيمنتها، إنها فقط في حاجة إلى دعاية وخبرة تقنية في ظل انفرادها

---

[1] - : ديوان دعبل الخزاعي- شرح ضياء حسن الأعلمي- مؤسسة النور للمطبوعات- لبنان - 205 - 213.

[2] - درويش الجندي- ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده - 171.

[3] - سوزان بينكن ستيتكيفيتش - أدب السياسة وسياسة الأدب - ترجمة حسن البنا عز الدين والمؤلفة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1998 - 133.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المطلق بصنع القرار[1]. ولأن جل الشعراء موضوع دراستنا هم سجناء رأي لم يرتضه سلطان فإننا سنقف عند بعض الصور فقط لتلك العلاقة الحذرة المضطربة بين المثقف العربي الحديث والسلطة.

وإن سجل المثقف العربي نضالا سياسيا ومحاولات جادة للتغيير، فإنه في الأغلب ساهم من حيث لا يدري في إزالة نظام متسلط ما وإفساح الطريق أمام نظام آخر متسلط يحلّ محلّه. فقد حرك الكثير من الثورات والهبات الشعبية ولكنه فقد الكثير من رأس المال الثقافي، إذ استعار منه الضباط وأصحاب السلطان كل مصطلحاته وشعاراته وخاطبوا بها الجماهير مباشرة دون ذلك الوسيط المثقف[2] الذي كان أول من يدفع ثمن تلك الثورة، إنه الصراع الدائم بين القلم والسيف والبطش الدائم الذي يسعى إلى قمع الأقلام ولكنها ظلت تتكلم حتى من قعر الزنازين المظلمة وتؤدي رسالتها وتقول كلمتها وتهربها إلى خارج الأسوار.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الكاتب الحديث أيضا أصبح بإمكانه الاستغناء عن السلطان وبالتالي أكثر حرية من سابقه لأنه لم يعد في حاجة إلى سوق السلطان وطرق أبوابه لإيصال بضاعته والترويج لها، فوسائل النشر الحديثة وانتشار التعليم جعلاه يتخلص من عقدة التبعية للحكام والأمراء وحاشيتهم التي استشعرها أسلافه، ولكنه مع ذلك ظل يتأرجح بين خطي الموادعة والمواجهة الذين انطلقنا منهما، فكثير من مثقفي العصر الحديث كان يعمل بحكم ثقافته في إحدى المؤسسات الثقافية التابعة للأنظمة، من دور نشر وصحافة ووزارة ثقافة وغيرها. وتبوأ بعضهم مناصب عالية في هيئات ثقافية وسياسية تابعة أيضا للنظام، مثل عباس محمود العقاد الذي ارتقى إلى البرلمان ومحمد مهدي الجواهري الذي عمل نائبا ممثلا لمنطقته ومحمود الزبيري الذي أعتلى الوزارة وغيرهم كونهم من طلائع المثقفين، ولم يهادن بعضهم بل عبّروا بكل حرية عن آرائهم وكشفوا مواطن الفساد فكان مصيرهم القمع، فقد سجن العقاد تسعة أشهر وسجن الجواهري أكثر من مرّة وأوقفت كل الجرائد التي كان بنشئها، وسجن الزبيري ثم أعدم. وسجن الكثير من أحرار العالم يتساوى في ذلك السجان وإن اختلفت البلاد، فهو حينا المستعمر، وهو أحيانا كثيرة الحاكم العربي الجديد الذي يرى ألا سلطان غير سلطانه، والذي لم يكتف بالأسماء الثقيلة في الساحة الثقافية، فقد طالت يده الكتاب الصغار أيضا والشباب المتحمسين لتيارات فكرية جديدة أمثال : عبد الرحمن الشرقاوي، وجمال الغيطاني، ويوسف إدريس، وأحمد عروة، ومحمد البشير الإبراهيمي وصنع الله إبراهيم، ومحمود أمين العالم، وغالي شكري، وعبد الحكيم قاسم، وغالب هلسا وصلاح نصر الذي لقب بـــ "ملك التعذيب" وقيصر الجحيم وغيرهم". ويؤكد إلهام سيف النصر في مذكراته "في معتقل أبي زعبل" أن الجلاد يونس مرعي كره كلّ حاملي الشهادات فانقض عليهم بفنون العذاب حتى أن منهم من قضى تحت التعذيب أمثال محمد عثمان وعلي الديب وعبد الفتاح

---

[1] - مجموعة مؤلفين – الثقافة والمثقف في الوطن العربي – مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت- 1992 – (غالي شكري – الإطار المرجعي للمثقف والسلطة - 75).

[2] - سماح إدريس – المثقف والسلطة – بحث في روايات التجربة الناصرية – دار الآداب – بيروت – ط1 -1992 - 28.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مفتاح والطبيب فريد حداد والزعيم اللبناني الشيوعي فرج الله الحلو وشهدي عطية وسيد قطب، على اختلاف توجهاتهم السياسية وإيدلوجياتهم الفكرية.

ولعلّ أحدا من المثقفين لم تسلط عليه أجهزة القمع والرقابة الحديثة كما سلطت على الأدباء والصحفيين وناشطي الأحزاب السياسية لآرائهم المناهضة للاستعمار أو الدكتاتوريات العربية التي قامت مقامه، فكانت تلك الأنظمة تعمد إلى حلّ الأحزاب أو تقييدها بشروط معجزة مهينة تفقدها القدرة على المساهمة في الساحة السياسية مثل منع فرنسا لكل الأحزاب السياسية التي أنشأها المناضلون السياسيون في الجزائر، وكلما منعت حزباً جاءوها بآخر فمنعته وهكذا، حتى انتهى بهم المطاف إلى الاقتناع بأن لغة النضال السياسي لم تعد تصلح لمخاطبة المستعمر وأن اللغة الوحيدة التي يفهمها هي لغة السلاح والقراع في سوح الوغى[1].

ومثل إقدام النظام المصري على إلغاء الدستور (10 ديسمبر 1952) وحل جميع الأحزاب (17 جانفي 1953) وحظرها باستثناء الإخوان، ومصادرة جميع ممتلكات الأحزاب بما فيها الصحف ومعدات الطباعة، فاختفت بذلك الصحف الحزبية، وأعقبتها مصادرة المجلات مثل مجلة "الكاتب" الناطق الرسمي باسم حركة السلام و"الملايين" و"صوت حدّتو" و"المعارضة"، كما أغلقت مجلات أخرى غير حزبية مثل "الثقافة" التي كانت تصدرها الدولة، و"الرسالة" وكان يصدرها أحمد حسن الزيات[2]، ليعرف المثقفون المصريون ملاحقات واضطهادات لم يعرف لها التاريخ مثيلا اضطر الرئيس لتغطيتها القانونية إلى ستة من الدساتير والإعلانات الدستورية في الفترة الممتدة بين عامي (1952-1969) وذلك في سنوات (53-56-58-62-64-69) اتفقت جميعها على إعطاء الرئيس السلطة المطلقة في تسيير شؤون البلاد. وطالت أيادي البطش الجامعات، ففصل مجلس قيادة الثورة أربعة وخمسين أستاذا من العناصر اليسارية في سبتمبر 1954 ليتفرغ النظام في أواخر السنة نفسها لحركة الإخوان المسلمين تفرغا مطلقا، ثم لتأميم الصحافة[3].

وكذلك عرفت اليمن أيام الحكم الإمامي اضطهادا كبيرا ومارست الحكومات العراقية المتعاقبة قمعا كان أعتاه قمع حكومة صدّام حسين إذ لم تعرف العراق نزيفا بهجرة مثقفيها إلى الخارج كالذي عرفته في عهده، ولنذكر منهم على سبيل المثال الشاعر أحمد مطر الذي وجد خارج العراق متنفسًا ومجالاً من الحرية

---

[1] - انظر : محمد قنانش – الحركة الاستقلالية في الجزائر بين الحربين -36 وما بعدها. وأحمد توفيق المدني - كتاب الجزائر - دار الكتاب - الجزائر - 1963 - 68 وما بعدها. من هذه الأحزاب : حزب الشباب الجزائري - حزب الإخاء الجزائري- الحزب اللبرالي الجزائري - فدرالية نواب مسلمي الجزائر - حزب نجم شمال إفريقيا - أحباب الأمة - حزب الشعب الجزائري - حركة أنصار البيان والحرية ... إلى أن ظهر الحزب الذي حمل لواء النضالين السياسي والعسكري معا ألا وهو حزب جبهة التحرير الوطني.

[2] - مارنيا ستاغ – حدود حرية التعبير، تجربة كتاب القصة والرواية في مصر في عهدي عبد الناصر والسادات – ترجمة طلعت الشايب – دار شرقيات للنشر والتوزيع – القاهرة – ط1 - 1995 – 21-23.

[3] - المرجع نفسه - 30. وعبد الرحمن أبو عوف – فصول في السياسة والثقافة والأدب – الهيئة المصرية العامة للكتاب - 2002- 263 -289 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لفضح أساليب ذلك النظام في لافتاته المعروفة وكذلك فعل كثير من شعراء العالم العربي أمثال الحيدري ومظفر النواب والسياب والبياتي ومفدي زكريا ومحمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد الذين ذاقوا مرارة المنفى في بلاد الآخر، بعد أن ذاقوا مرارة السجن في بلدانهم.

ويقف في الجهة الأخرى لهذه الطائفة المواجهة المثقفون الذين سلكوا نهج الموادعة والمهادنة عن رضى وقناعة حينا وخوفا من أجهزة القمع الحديثة وما أكثرها، وتبوأوا بفضل خدمتهم للسلطان وملازمته مراكز حساسة بلغت منصب وزير الثقافة[1]، مثل يوسف السباعي الذي حاول من خلال ذلك المركز احتواء كل محاولات التكتل خارج الحزب الحاكم وكل الذين لم يخوضوا صراعا مباشرا مع السلطان في كل أنحاء العالم العربي، إلى الحدّ الذي جعل محمود أمين العالم يرى أن غالبية المثقفين العرب قد أصبحوا أدباء بلاط أو بطانة مماليك وأذيال سلطان[2]، ويرى أن مرحلة السبعينيات من هذا القرن شهدت انسحاب المثقفين من العمل السياسي إلى التخصصات التقنية التي سمّاها الجاحظ من قبل "الخدمة" وعدّ أصحابها خدّاما للسلطان، وسماها ابن خلدون صنعة وعدّ أصحابها صناعا، وكأنها تحولت إلى مجرد حرف آلية تقنية بعيدة عن روح المثقف وإبداعه ومواقفه. لأن الأنظمة استوعبتهم، فأصبحوا يجدون المبررات الكثيرة لمواقفهم المتخاذلة والمتعاونة في بعض الأحيان إلى حدّ التلبس بدور الجلاد[3]، فقد صار انتقاء الموظفين والمسؤولين والأساتذة والقضاة وكل المراكز والمناصب الحساسة على اعتبارات لا تمت بصلة إلى الكفاءة أو المعرفة أو النـــزاهة أو الإخلاص وصرح بعض البعثيين والشيوعيين بأنهم يضعون الكفاءة بعد الولاء للحزب ، مما حدا بأحد الباحثين إلى التوكيد على أن الأغلبية القصوى من المثقفين العرب يولدون ويعيشون ويموتون في مؤسسات السلطة ويمارسون في ظلها سلطة ثقافية على الآخر الذي هو خارج الدائرة، وإن قدموا أنفسهم في الغالب على أنهم ضحايا السلطة فإنهم قلما يتنازلون عما تمنحهم من امتيازات، وقد بينت تجارب صعود المثقفين وارتقائهم في المناصب أنهم "يتنكرون للمبادئ التي دافعوا عنها ويستعملون السلطة التي طالما نددوا بها.. القمع والمحاكمات والمخابرات معهودة بين فئات المثقفين أنفسهم"[4].

فالسلطة تنجح غالبا في إخضاع المثقف أو تدجينه والمثقف يقبل الخضوع ويرضى بأن يكون موظفا خبيرا أو تقنيا —كما أسلفنا- في دائرتها، وعليه فإن أزمة المثقف العربي اليوم هي أزمة الحرية وما يلزمها من مؤسسات وتقاليد تضمن وجود الرأي والرأي المخالف وتتيح سبل إبلاغه دون رقابة خارجية أو خوف

---

[1] - محمد محمد عبد البديع - البناء السياسي والجريمة. (تحليل لبعض أنماط الجريمة السياسية (في المجتمع المصري المعاصر 52-1981) دكتوراه — جامعة القاهرة — كلية الآداب - قسم الاجتماع - 244.

[2] - سماح إدريس - المثقف والسلطة - 49.

[3] - مجموعة مؤلفين - الثقافة والمثقف في الوطن العربي- غالي شكري - إشكالية الإطار المرجعي للمثقف والسلطة - 69.

[4] - المرجع نفسه - 76.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

داخلي، وهو ما يتطلب نضالات أخرى من أجل إرساء دعائم الديمقراطية التي أساسها الحريات وفي مقدمتها حرية الرأي وحقوق الإنسان.

- **دواعي الإبداع و أفضل أوقاتها :**

أدرك النقاد العلاقة القائمة بين قوة الموهبة وضعفها أثناء العملية الإبداعية وبين أحوال النفس بين الاستجابة وانفتاح أبواب القول حينا والامتناع وانسدادها حينا آخر، فاجتهدوا في تعليلها بمساءلتهم للشعراء عن أحوالهم ودواعي انطلاقهم وساعات إقبالهم على النظم وبتتبع أخبارهم، وقدّموا نصائحهم في ذلك للمبدعين.

وفي مصادر النقد الأدبي القديم إشارات ذكية والتفاتات متفرقة تتحدث عن طبيعة العملية الإبداعية والظروف المساعدة على انبثاقها ودواعي النظم وأحسن أوقاته، وهي ملاحظات تفاوت القدماء في الإشارة إليها وكمَّل بعضهم بعضا وانطلق منها النقاد المحدثون وأضافوا إليها نتائج العلوم الحديثة وعلى رأسها علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ وغيرها من العلوم الإنسانية المتداخلة المتكاملة.

ومن القضايا التي وقف عندها النقاد لحظة الإبداع وأنسب الأوقات لممارستها ، وهي التي تكون فيها النفس في أوج قوتها وحيويتها، وقد حصروها في ساعات معينة من اليوم، يقول ابن قتيبة: "وللشعر أوقات يسرع فيها أتيه ويسمح فيها أبيُّه، منها أول الليل قبل تغشي الكرى ومنها صدر النهار قبل الغذاء ومنها يوم شرب الدواء، ومنها **الخلوة في الحبس** والمسير"[1].

ونصح بشر بن المعتمر في صحيفته باختيار وقت نشاط النفس وخلوّ البال دون تحديد زمنه أليل هو أم نهار أم سحر، فقال "خذ من نفسك ساعةً لنشاطك وفراغ بالك وإجابتها لك، فإن قلبك في تلك الساعة أكرم جوهرا وأشرف حسنًا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع.

واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكدّ والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلّف والمعاودة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصدًا..."[2].

وقريب منه ما أجاب به أبو تمام البحتري وقد سأله عن أفضل أوقات صنعة الشعر: "تخيّر الأوقات وأنت قليل الهموم، وصفر من الغموم، واعلم أن العادة في الأوقات إذا قصد الإنسان تأليف شيء أو حفظه، قصد وقت السحر، وذلك أن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم، وخفّ عنها ثقل الغذاء،

---

[1] - ابن قتيبة - الشعر والشعراء - دار إحياء العلوم - بيروت - ط5 – 1994- 35- وابن رشيق - العمدة في محاسن الشعر وآدابه - تحقيق محمد قرقزان - دار المعرفة - لبنان - ط1 - 1988- 1/ 376.

[2] - أبو هلال العسكري - الصناعتين - 134.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وصفا من أكثر الأبخرة والأدخنة جسم الهواء، وسكنت الغمائم، ورقت النسائم، وتغنّت الحمائم"[1]. وأضاف أبو تمام وقتا آخر إلى هذه الأوقات وهو وقت الدجى ويريد به وسط الليل يقول :

خذها ابنة الفكر المهذّب في الدجى والليل أسود رقعة الجلباب[2].

ويوافق ابن رشيق القيرواني أبا تمام في تقديم السحر على سائر الأوقات فيقول :

"... فليس يفتح بحور الخواطر مثل مباكرة العمل بالأسمار عند الهبوب من النوم، لكون النفس مجتمعة لم يتفرق حسها في أسباب اللهو أو المعيشة أو غير ذلك مما يعييها، وإذ هي مستريحة جديدة كأنما أنشئت نشأة أخرى، ولأن السحر ألطف هواء، وأرق نسيما وأعدل ميزانا بين الليل والنهار وإنما لم يكن العشيّ كالسحر... فالسحر أحسن لمن أراد أن يصنع، وأما لمن أراد الحفظ والدراسة وما أشبه ذلك فالليل، قال تعالى وهو أصدق القائلين : { **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا** }[3].

وإن ركزت آراء النقاد السالفة على أكثر الأوقات مناسبة للإبداع لما يتوفر فيها من عوامل الراحة النفسية، فإننا نستشف فيها دلالات أخرى على المكان، فهي تحقق إلى جانب الراحة عامل الاختلاء بالنفس أو ما أسموه بالخلوة أو العزلة ودلالة المكان الخالي تتمثل في "مساعدته على استمرار بروز مجال الإبداع..."[4].

وهذا لا يعني عندهم أن تتحوّل العملية الإبداعية إلى مجرد انتظار سلبي للحظات الخلوة تلك وانبثاق الإلهام، لأنها عادة ما تسبق بمجاهدات ومعاناة مختلفة كأن ينصرف الشاعر إلى تأمل ذكرياته الماضية وتجاربه وتقليب صفحاته وتتبع مواطن أفراحها وأحزانها تأملا عميقا يحرك انفعالاته ويثير فيه كوامن الإبداع، فقد كان النقاد على وعي بأهمية تلك الخلوة التي تتيح له أجواء الاستغراق في تلك اللحظة والغفلة عن كل ما عداها، مستعينين في ذلك بتجارب الشعراء التي اتفقت جميعا على توكيد دور الاختلاء بالنفس في استثارة المبدع، من ذلك ما روي عن جرير أنه كان إذا أراد أن "يؤبد قصيدة صنعها ليلاً يشعل سراجه ويعتزل، وربما علا السطح وحده فاضطجع وغطى رأسه رغبة في الخلوة بنفسه"[5].

وروي عن زهير بن أبي سلمى أنه كان يخرج على ناقته إلى البرية يستعين بذلك على قول الشعر إذا ما أكدى لأن الشعر بريٌ –كما يقول-[6].

---

[1] - حازم القرطاجني - منهاج البلغاء وسراج الأدباء - تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط3 - 1986 - 203.

[2] - أبو تمام – الديوان – دار الكتب العلمية – لبنان – ط3 - 2003 - 29.

[3] - ابن رشيق – العمدة في محاسن الشعر وآدابه – 377. (الآيـــة 06 من سورة المزمل).

[4] - مصطفى سويف – الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة - دار المعارف - مصر ط3 - 24 وما بعدها – و عبد القادر هني - نظرية الإبداع في النقد العربي القديم – عبد القادر هني – ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1999 - 301.

[5] - ابن رشيق القيرواني – العمدة في محاسن الشعر وآدابه - 375/1.

[6] - ثائر حسن جاسم- الإبداع الشعري في النقد العربي إلى نهاية القرن السابع الهجري - دار الرائد العربي - بيروت - 1987 - 96.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد سئل كُثيِّر عما يصنع إذا عسر عليه قول الشعر فقال: "أطوف في الرباع المخلية، والرياض المعشبة فيسهل عليّ أرصنهُ ويسرع إليّ أحسنه"[1]. وشبيه به جواب أبي محجن عندما سئل: "أتطلب القريض أحيانا فيعسر عليك؟ فقال: أي والله لربّما فعلت، فآمر راحلتي فيشدّ بها رحلي، ثم أسير في الشعاب الخالية وأقف في الرباع المُقْوِية، فيطربني ذلك ويفتح لي الشعر"[2]. وقال الخليع (الحسين بن الضحاك): "من لم يأت شعره مع الوحدة فليس بشاعر قالوا يريد الخلوة، وربما قالوا يريد الغربة، كما قال ديك الجن: "ما أصفى شاعر مغترب قط"[3]. وقال الأصمعي "وما استدعى شارد الشعر بمثل الماء الجاري، والشرف العالي (المكان المرتفع) والمكان الخالي"[4]. وكان الفرزدق إذا صعبت عليه صنعة الشعر يركب ناقته ويطوف وحده خاليا منفردا في شعاب الجبال وبطون الأودية والأماكن الخربة الخالية فيعطيه الكلام قياده"[5].

فهؤلاء الشعراء أجمعوا على ارتياد الأماكن الخالية طلبا لانفتاح مغاليق القول، لأنها تبعد قاصدها عن كل المؤثرات الخارجية مسموعة ومرئية، فليس أمامه غير الأرض الممتدة الخاوية والسماء وغير الصمت المطبق، فلا يرى إلاّ نفسه ولا يسمع إلاّ صوت أعماقه.

ولأبي نواس خلوته الخاصة التي يستحضرها، فقد سئل عما يفعله إذا أراد صناعة الشعر فأجاب : "أشرب حتى إذا كنت أطيب ما أكون نفسا بين الصاحي والسكران صنعت (يريد الشعر) وقد داخلني النشاط وهزتني الأريحية"[6]، وذلك لما يحدثه الشراب من إضعاف لصلة المبدع بالمحيط الخارجي. ومن الشعراء من يخرج إلى الجبائن ومنهم من يقصد البساتين[7] وغيرها من الأماكن التي تتفق جميعا في توفير عنصر الخلوة وتؤكد حاجة الإبداع إليه، إن لم نقل ضرورته.

وقد يستعين بعض الشعراء على النظم بهيئة أوحال اعتادها وصار يلجأ إليها كلما أراد صناعة الشعر، كأن يستلقي على ظهره كما كان يفعل الحطيئة أو يضع إحدى رجليه على الأخرى ثم يعوي في إثر القوافي كما يعوي الفصيل في إثر أمه[8]، أو يتقلب على الرمضاء كما فعل جرير في هجاء بني نمير أو يحبس نفسه في مكان مصهرج كما فعل أبو تمام أو يرجع الشعر ويتغنى به مثلما كان يفعل المتنبي، فقد قال ابن أبي الإصبع "والترنّم بالشعر مما يعين عليه، قال الشاعر:

---

[1] - المرجع السابق - الصفحة نفسها.

[2] - المرجع نفسه - 96.

[3] - ابن رشيق - العمدة - 386/1.

[4] - المصدر نفسه - 375/1.

[5] - المصدر نفسه - 375/1.

[6] - ثائر حسن جاسم - الإبداع الشعري - 376/1.

[7] - عبد القادر هني- نظرية الإبداع في النقد العربي- 302.

[8] - ابن قتيبة - الشعر والشعراء - 206.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تغنّ بالشعر إما كنت قائله إن الغناء لقول الشعر مضمار[1].

ومنهم من رأى أن في راحة الحمام محركا وباعثا على القول، وأن خير الفكر ما كان عقب الحمام، يقول ابن رشيق : "الحيلة لكلال القريحة انتظار الحمّام، وتصيّد ساعات النشاط، وهذا عندي أنجح الأقوال"[2].

فإذا نظرنا إلى هذه الاعترافات على تنوعها أو إلى نتائج تلك الاستخبارات التي اجتهد النقاد بواسطتها في الولوج إلى بواطن الشعراء والتطلع إلى خفايا تجاربهم الشعرية، نلاحظ بينها قاسما مشتركا هو ما تثيره في نفس المبدع من انفعالات، سواء كانت في الخلوة على تنَوع حالاتها بين خلوة إلى ذكر الأحباب أو تطواف في الربوع الخالية أو في الرياض والبساتين أو ركوب وسير وانفراد في الشعاب والأودية والجبال والخرابات، أو خلوة بصنيع الخمر في عقل صاحبها ونفسه.

إن هذه الممارسات على اختلافها من شاعر إلى آخر تعني شيئا واحدا"هو ضرورة حدوث انفعال حقيقي لدى المبدع ليتسنّى له الانخراط في جوّ العمل"[3]ونسيان كل ما ليس له صلة بموضوع الشعر، إنها وسائل وسائل نفسية يستعين بها الشاعر على التركيز وشدة الانفعال إلى نهاية العملية الإبداعية، تختلف باختلاف طباع الشعراء وعاداتهم وظروف معيشتهم، فقد يبدع الشاعر في غير السحر والليل، وقد يبدع في غير مواطن الخلوة كما قد يبدع في حال انشغال النفس وتعب الجسم، ويقول الشعر في حال الجوع والشبع وحال الصحة والسقم.

يقول ابن شيق : "إن للناس ضروبا مختلفة يستدعون بها الشعر فتشحذ القرائح وتنبه الخواطر، وتلين عريكة الكلام وتسهل طريق المعنى، كل امرئ على تركيب طبعه واطراد عادته"[4].

وإلى جانب هذه الظروف المساعدة التي يتخيرها الشاعر ويلجأ إليها هناك دوافع تفرض عليه الاستجابة لها وإن لم يفكر فيه من قبل ويتهيأ له بطلب تلك الخلوات أو الأوقات التي أشرنا إليها آنفا، وقد يتمنع الشعر على الشاعر وإن كان فحلاً وإن تخيّر له الزمان والمكان، لأن دوافع الشعر كثيرة ومتداخلة تداخل عواطف الشاعر وغموضها، فقد نلمح بعضها واضحا في بعض القصائد، وقد نلمح ظلال بعضها لمحا خفيا، وقد تتعدد الدوافع المباشرة وتتنوع وتتداخل مع دوافع أخرى خفية اعتملت في نفس الشاعر في أزمنة سابقة وشكلت رصيدا دفينا، يتحرك كلما وجد ما يستثيره من حوافز.

وقد وقف النقاد على تنوع الحوافز التي من شأنها أن تفجّر الانفعال الخلاّق في نفوس الشعراء، وعلى اختلاف طباع المبدعين ومدى استجابتهم لها، فقد يستثير مبدعا دافع لا يحرك شيئا في آخر، وقد يستثير انفعال

---

[1] - ثائر حسن جاسم - الإبداع الشعري في النقد العربي القديم - 142.

[2] - ابن رشيق – العمدة - 381/1.

[3] - عبد القادر هنّي – نظرية الإبداع في النقد العربي القديم - 302.

[4] - ابن رشيق – العمدة - 373/1 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أحدهم أكثر من دافع، وحاولوا الربط بين جودة العمل الفني وقوة الباعث عليه، يقول ابن قتيبة "وللشعر دواع تحث البطيء وتبعث المتكلّف، منها الطمع ومنها الشوق ومنها الشراب ومنها الطرب ومنها الغضب. وقيل للحطيئة أيّ الناس أشعر ؟ فأخرج لسانا دقيقا كأنه لسان حية فقال هذا إذا طمع. وقال أحمد بن يوسف الكاتب لأبي يعقوب الخريميّ : مدائحك لمحمد بن منصور بن زياد –يعني كاتب البرامكة- أشعر من مراثيك فيه وأجود. فقال : كنا يومئذ نعمل على الرجاء ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد، وهذه عندي قصة الكميت في مدحه بني أمية وآل أبي طالب، فإنه كان يتشيع وينحرف عن بني أمية بالرأي والهوى وشعره في بني أمية أجود منه في الطالبيين، ولا أرى علّة ذلك إلاّ قوة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة[1].

فابن قتيبة في هذا النص لا يقف عند دافع واحد وإنما يعدد وسائل إثارة العاطفة باختلاف الطباع، بل ويشعرنا أن هناك أخرى غير التي ذكرها" فهو يقول منها ومنها... ليترك للقارئ مجالاً لإدراك غيرها بحسب أحوال الشعراء وطبائعهم، وإن ألمح من خلال نماذجه إلى قوة عامل الطمع على ما سواه، فجعل العاطفة التي يحركها الرجاء أقوى من تلك التي يبعثها الوفاء، والتي يحركها الطمع في جوائز الممدوح أقوى من تلك التي تستثيرها الرغبة في ثواب الآخرة.

وقد أشار ابن رشيق إلى أن من الشعراء من تدفعه الحاجة "وتبعث قريحته فيجود، فإذا أوسع أنف وصعب عليه عمل الأبيات اليسيرة فضلا عن الكثيرة، وللعادة في هذه الأشياء فعل عظيم وهي طبيعة خامسة كما قيل فيها"[2].

ولكن الحاجة وحدها أو الطمع أو الرغبة وحدها لا تكفي فهناك دوافع أخرى أدرك النقاد أثرها في قوة الانفعال وجودة ما تستثيره، يقول ابن رشيق : "وحكى الأصمعي عن ابن أبي طرفة : كفاك من الشعراء أربعة : زهير إذا رغب والنابغة إذا رهب والأعشى إذا طرب وعنترة إذا كلب وزاد قوم وجرير إذا غضب. وقيل لكثير -أو لنصيب- من أشعر العرب فقال : "امرؤ القيس إذا ركب وزهير إذا رغب والنابغة إذا رهب والأعشى إذا شرب"[3].

فما يثير كوامن القول عند زهير ويعتلي به مراتب الجودة غير ما يثيره عند النابغة أو الأعشى أو عنترة أو جرير، فذاك تستثيره الرغبة وآخر الرهبة وآخر الغضبة وغيره الشربة، وقد رأى أرطأة بن سهية أن النظم لا يكون إلاّ بثلاث : "الشرب والطرب والغضب" سأله عبد الملك بن مروان: هل تقول اليوم شعرا، فقال: كيف أقول وأنا ما أشرب ولا أطرب ولا أغضب وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه"[4]. وروي القول على هذه

---

[1] - ابن قتيبة – الشعر والشعراء - 34.

[2] - ابن رشيق – العمدة - 215/1.

[3] - المصدر نفسه - 204/1.

[4] - ابن قتيبة – الشعر والشعراء - 80.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الصورة "ما أطرب، ولا أحزن يا أمير المؤمنين وإنما يقال الشعر لأحدهما"، وروى الأصبهاني "ما أطرب، ولا أغضب، ولا أرغب، ولا أرهب، وما يكون الشعر إلاّ من نتائج هذه الأربع"[1]. وعلى النحو نفسه روى عن كثير وقد سئل: "مالك لا تقول الشعر، أجبلتَ؟ فقال: والله ما كان ذلك، ولكن فقدت الشباب فما أطرب، ورزنت عزة فما أنسب، ومات ابن ليلى يعني (عبد العزيز بن مروان) فما أرغب"[2].

وأرطأة وكثير في هذه المحاورة لا يتكلمان إلاّ عن نفسيهما وما يشعران به من قوة إثارة هذه البواعث لهما أكثر من غيرها.

وهذا المسعودي سئل كيف يقول الشعر مع النسك والفضل والفقه؟ فقال :"لا بُدَّ للمصدور من أن ينفث"[3]، وهو وصف دقيق لدافع من دوافع الشعر لا يختلف عن حال الغضب والحزن اللذين وقفنا عندهما عبّر عنه بلفظة : "المصدور" وهو الذي يشتكي صدره، وفي حديث ابن عبد العزيز : قال لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة : حتى متى تقول هذا الشعر؟ فقال: لا بُدَّ للمصدور من أن يَسْعُلاَ، وفي حديث الزهري، قيل له إن عبيد الله يقول الشعر، قال، ويستطيع المصدور أن لا ينفث أي لا يبزق؛ شبه الشعر بالنفث لأنهما يخرجان من الفم[4].

ولذي الرمة دافعه المميز، فقد سئل: "كيف تفعل إذا انقفل دونك الشعر؟ فقال: كيف ينقفل دوني وفي يدي مفتاحه. قيل: وما هو؟ قال : الخلوة بذكر الأحباب"[5]. وهو الباعث الذي أشار إليه بشر بن المعتمر في صحيفته عندما قال : "والشيء لا يحنّ إلاّ إلى ما يشاكله، لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع الشهوة والمحبّة[6]".

وإن أكدّ حازم القرطاجني تفاوت البواعث فيما بينها في تحريك الانفعالات فإنه يرى أن "أحق البواعث بأن يكون هو السبب الداعي إلى قول الشعر هو الوجد والاشتياق والحنين إلى المنازل المألوفة وألاّفها"[7].حتى قال بعضهم : "من أراد أن يقول الشعر فليتعشّق، فإنه يرقُّ، وليرو فإنه يدلّ، وليطمع فإنه يصنع"[8].

ولابن سلام الجمحي التفاتة طيبة إلى فعل التقلبات السياسية في العملية الإبداعية والتي يخص منها الحروب التي يراها عاملاً في كثرة الشعر، لما تحدثه الحرب من مشاعر مختلفة في النفوس، يقول: "وبالطائف

---

[1] - ثائر حسن جاسم – الإبداع الشعري - 105.

[2] - المرجع نفسه و الصفحة نفسها.

[3] - المرجع نفسه و الصفحة نفسها.

[4] - لسان العرب - "صدر".

[5] - عبد القادر فيدوح – الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي (دكتوراه) –جامعة الزقازيق –كلية آداب بنها -قسم اللغة العربية – 1989-1990 - 14.

[6] - المرجع نفسه - 10.

[7] - حازم القرطاجني – منهاج البلغاء وسراج الأدباء – 249.

[8] - ابن رشيق - العمدة - 120/1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شعر وليس بالكثير وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج أو قوم يغيرون ويغار عليهم، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة و لم يحاربوا، وذلك الذي قلل شعر عمان وأهل الطائف..."[1]، فلا يمكننا تجاهل أثر الحرب بالنسبة لشعراء الجاهلية، كما لا يمكننا تجاهل التراعات السياسية الكثيرة التي عرفتها العصور اللاّحقة في تحريك همم الشعراء ومدّهم بما يحتاج إليه الإبداع، من ذلك أن النابغة أرتج عليه أربعين سنة. ثم كانت لقومه (بنو جعدة) موقعة ظهروا فيها على عدوّهم، فأخذه الفرح ولاَن له من القريض ما استصعب عليه، فقال بنو جعدة: "والله لنحن بإطلاق لسان شاعرنا أسَرُّمنا بالظفر على عدوّنا"[2]. وكان رؤبة بن العجاج يقول لقومه في الحرب التي كانت لهم مع الأزد : "يا بني تميم أطلقوا من لساني، أي أفعلوا ما أقول فيه"، ولنا أن نتأمل جواب الشاعر سلاّمة بن جندل بني تميم وقد طلبوا منه تمجيدهم بشعره: "افعلوا حتى أقول"[3] لندرك أن البطولات والانتصارات والوقائع لها أهميتها في بعث الانفعال في نفوس بعض الشعراء لما تولده من مشاعر مختلفة كالحزن والجزع والشوق والغضب والفرح والإعجاب وغيرها، هذا ولا يمكننا تجاهل الأحوال السياسية والاجتماعية التي مرّ بها العالم العربي الحديث والاضطرابات والصراعات والحروب الدامية التي عرفتها بعض الأقطار، فقد كانت جميعا عوامل مباشرة في دفع كثير من الشعراء إلى القول طلبا للتغيير وأملا في الغد الأفضل.

وهذه الإشارات والملاحظات التي سجّلها النقاد والاعترافات والإجابات التي أزجاها الشعراء تتفق على حاجة الشاعر وإن أوتي ما أوتي من فطنة وذكاء وموهبة إلى محفزات ودوافع مباشرة تدفعه إلى القول دفعًا، ولكنّها تتفاوت بين الشعراء فما يثير أحدهم لا يثير الآخر، منها الطمع كما أسماه ابن قتيبة والحطيئة وأسماه ابن رشيق الحاجة أو الرغبة عند كثير والرجاء عند الخريمي، ومنها الشوق عند ابن قتيبة تقابله الشهوة والمحبة عند بشر بن المعتمر، والوجد والاشتياق والحنين إلى المنازل المألوفة عند حازم القرطاجنّي، ومنها الشراب والطرب عند ابن قتيبة ابن رشيق والأعشى وأرطأة بن سهية كثير، ومنها الرهبة عند ابن رشيق وأرطأة بن سهية، ومنها الغضب عند ابن قتيبة وابن رشيق الذي أضاف إليها عبارة "عنترة إذا كلب" وهي لفظة لا تخرج عن دائرة الغضب وما ينجرّ عنه، وقد عبر عنها أرطأة بن سهية بالحزن كما عبّر عنها ابن مسعود بلفظة "المصدور"، وتفرد ابن سلاّم الجمحي بعامل الحرب الذي يستثير الكثير من الدوافع في نفس الشاعر وليس دافعا واحدا.

وكذلك يرى علم النفس الحديث أن دوافع الإبداع في الفنون متعددة ترجع في مصدرها إلى رغبة الفنان في التخفف[4] من عبء تلك اللحظات الشعورية المكثفة، غضبًا وفرحا وشوقا وحزنا وطربا ورجاء، نكتفي في ذلك بإشارة ترلنج إلى أن الإبداع لا يكون إلاّ بالمعاناة ومكابدة الآلام وهو ما يراه البعضُ ممثلا في مرض

---

[1] - المصدر السابق - 381/1.

[2] - عبد القادر هنّي – نظرية الإبداع في النقد العربي القديم - 307.

[3] - المرجع نفسه - 308.

[4] - عز الدين إسماعيل – التفسير النفسي للأدب –دار العودة –بيروت –ط.4 – 1981 – 8-9.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العصاب أو ما يعرف بجنون العبقرية[1]، يقول : "فعندما تنتهب نفس الشاعر الآلام يجد عوضا عنها تلك اللّذة التي يستمتع بها وهو في نشوة الوحي، وفي هذه النشوة يكمن مرض الشاعر ودواؤه. ولا بد أن يعني هذا أنه بسبب تلك الآلام كان الوحي، ومع الوحي كانت النشوة، أي أن المعاناة كانت السبيل إلى الوحي، أي الإبداع، وكان الإبداع وسيلة لإخضاع تلك الآلام والتلذذ بها، فلولا الآلام ما كان الوحي، ولولا الوحي ما كانت اللذّة..."[2] و يرى بعض العلماء أن استجابة الإنسان للألم هي أقوى الاستجابات في الجهاز العصبي وإن فسر بعض الدارسين المحدثين دوافع العملية الإبداعية برغبة الأديب في كسب معاشه مقابل الطمع الرجاء والرغبة عند القدامى أو مقابل حبّ الشهرة، فإنهم وقفوا حائرين أمام أولئك الذين كتبوا تحت أسماء مستعارة، وأولئك الذين أنفقوا المال من أجل نشر أعمالهم، فرأوا أن نشرها في حدّ ذاته دافع بما يحدثه فيهم من شعور الزهو وهم يرون الناس يقبلون عليها وينشغلون بدارستها، وقديما قال المتنبي :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر المرء جرّاها ويختصم[3].

ومنهم من رأى "أن الأديب لا يكتب لكي يستمتع بشمار عقله على نحو أو آخر، وإنما هو يكتب لأنه يستمتع بعملية الإبداع ذاتها فهذه المتعة هي حافزه على الكتابة، لأنه يتخلّص بها من وطأة الظروف"[4]، وهو ما يعرف في التفسير النفسي با"لهروب من الواقع" الذي أخذ طابع التعويذة في تفسير كل الأعمال الإبداعية.

والحق أن الأديب بلجوئه إلى الخيال لا يهرب من الحقيقة ولا يحتمي به من الواقع، وإنما هو يحاول تعمّق الواقع والغوص فيه، وعندئذ يكون الدافع إلى الإبداع هو الرغبة في التخلّص من ذلك الواقع وتجاوزه والتخفف من حدته و إعادة صياغته بطرق جمالية أخرى يستريح إليها الشاعر لا الهروب منه[5].

وذهب آخرون إلى ما يعرف بنظرية التعويض عن عاهة نفسية أو اجتماعية أو جسدية وكأن الأدباء كلّهم تحوّلوا إلى مرضى ومجانين ومعتوهين يصول علم النفس ويجول باحثا عن خباياهم لذلك وجب التعامل بحذر مع نتائجه التي غالبا ما تتعلق بحالات مرضية معينة لا يمكن إسقاطها على أديب بعينه ولا يمكن تعميمها وإن صدقت على أحدهم، لأنه يستحيل تطابق النفوس البشرية كما تستحيل الأحكام النهائية الجازمة في أمور نفسية خفية كالعملية الإبداعية وما يسبقها أو يرافقها من توترات لا يعرفها إلاّ الأديب بل قد يجهلها الأدباء أنفسهم لسرعة تقضّيها ولانشغالهم حينها بما تهبه تلك اللحظة من إبداع أدبي، ولذلك رأينا القدماء يلجأون إلى جانب اجتهاداتهم وآرائهم إلى طريقة الاستخبار يسألون الشاعر عن حاله ثم يدونون بعد ذلك نتائجهم، التي لم تنسهم أبدا جودة العمل الأدبي في حدّ ذاته، وقد تبعهم في ذلك الدكتور مصطفى سويف عندما أرسل

---

[1] -صابر عبد الدايم – التجربة الإبداعية في ضوء النقد الحديث – مكتبة الخانجي – القاهرة ط1 - 1990 – 23.

[2] - عز الدين إسماعيل – التفسير النفسي للأدب - 29 - 30.

[3] - المتنبي - شرح ديوان المتنبي - شرح عبد الرحمن البرقوقي - دار الكتاب العربي - بيروت - 1407 - 1986 - 84/3.

[4] - عز الدين إسماعيل – التفسير النفسي للأدب - 42.

[5] - المرجع نفسه - 44-45.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بمجموعة من الأسئلة إلى الشعراء المعاصرين وبنى جزءاً من كتابه "الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة" على تلك الإجابات والقصاصات والمسودات الأولية لبعض القصائد، التي تكرم الشعراء بإرسالها إليه[1]، وهي محاولة جادة تحتاج إلى محاولات أخرى شجاعة وجريئة تكملها.

كما لجأت بعض المدارس الأدبية الحديثة إلى محاولة ربط الأديب بواقعه المعيش ورأت أنه لا ينطلق إلا منه، فكانت نظرية الالتزام وما رافقها من مصطلحات كالأدب الهادف والأدب الملتزم والأدب المسؤول حتى أصبح من الصعب على أي أديب أن يتنصل من توجيه اجتماعي سياسي يحصل في أدبه، مباشرة أو غير مباشرة، بوعي أو بغير وعي، ولذلك كان مصطلح "الأدب الواقعي" و"القلم مسؤول اجتماعي" و"الأدب الثوري" و"الأدب التحرري" وغيرها من الموضوعات والقضايا التي فرضت نفسها على الساحة الأدبية العربية بحكم الظروف التي كانت تجتازها آنذاك من مقاومة للمستعمر أولاً ثم لشتى مظاهر التخلف والفقر والدكتاتوريات، دون أن يسقط أصحابها - في الغالب - الأبعاد الجمالية للنص الأدبي نتاج تلك الظروف[2].

وللنقاد التفاتة طيبة إلى صلة الموضوع الشعري بنوع العاطفة التي يثيرها الحافز الفني في نفس المبدع، يقول ابن رشيق "وقالوا قواعد الشعر أربع : الرغبة والرهبة والطرب والغضب، فمع الرغبة يكون المدح والشكر ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعّد والعتاب الموجع.[3]" وقد لخصها دعبل الخزاعي في قوله : "ومن أراد المديح فبالرغبة، ومن أراد الهجاء فبالبغضاء، ومن أراد النسيب فبالشوق والعشق، ومن أراد المعاتبة فبالاستبطاء".[4] وشرحها حازم القرطاجني شرحا وافيا، فقال : "إن للشعراء أغراضا أول هي الباعثة على قول الشعر، وهي أمور تحدث عنها تأثرات وانفعالات للنفوس لكون تلك الأمور مما يناسبها ويبسطها أو ينافرها ويقبضها أو لاجتماع البسط والقبض والمناسبة والمنافرة في وجهين، فالأمر قد يبسط النفس ويؤنسها بالمسرّة والرجاء ويقبضها بالكآبة والخوف وقد يبسطها أيضا بالاستغراب، لما يقع فيه من اتفاق بديع وقد يقبضها ويوحشها بصيرورة الأمر من مبدأ سارٍّ إلى مآل غير سارٍّ وإذ ارتيح للأمر من جهة واكترث له من جهة... والارتياح للأمر السار إذا كان صادرا عن قاصد لذلك أرضى فحرك إلى المدح، والارتماض للأمر الضار إذا كان صادرا عن قاصد لذلك أغضب فحرك إلى الذّم وتُحرِّك الأمور غير المقصودة أيضا من جهة ما تناسب النفس وتسرّها ومن جهة ما تنافرها وتضرّها إلى نزاع إليها أو نزوع عنها وحمد وذم أيضا، وإذا كان الارتياح لسار مستقبل فهو رجاء وإذا

---

[1] -مصطفى سويف-الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة- مصطفى سويف- دار المعارف-مصرط3- 215 وما بعدها.

[2] - عكاشة حساين شايف – مفهوم الأدب في النقد العربي المعاصر – جامعة الإسكندرية – كلية الآداب – قسم اللغة العربية - 1989 - 1990 - 74.

[3] - ابن الرشيق - العمدة - 246/1.

[4] - المصدر نفسه - 249.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان الارتماض لضار مستقبل كانت تلك رهبة وإذا كان الارتماض لانقطاع أمل في شيء كان يؤمل فإن نُحِيَ في ذلك منحى التصبر والتجمل سُمي تأسيا أو تسليا، وإن نُحي به منحى الجزع والاكتراث سمي تأسفا وتندّما ويسمّى استدفاع المخوف المستقبل استلطافا، وإذا استدفع المتكلم ذلك فأسعف به وضمَّن وصف الحال في ذلك كلاما سُمي عتابا... فتكون الأقوال في الأشياء التي علقتها بأغراض النفوس على هذا النحو متنوعة إلى فنون كثيرة نحو التشوقيات و الإخوانيات وما جرى مجرى ذلك..."[1].

نفهم من هذا النص المطوّل أن طبيعة الانفعال الذي يعتمل في ذات المبدع هي التي تحدد موضوع القول الذي تستجيب به قريحة المبدع، وقد أشرنا في حديثنا عن الدوافع إلى تفاوتها في إثارة الشعراء باختلاف طبائعهم وقدراتهم ومواهبهم وثقافاتهم، فما يحرك منها شاعرا قد لا يثير الآخر وهكذا.

فقد أدرك النقاد طبيعة العلاقة الموجودة بين قوة الموهبة وضعفها أثناء الإبداع وبين أحوال نفس المبدع فتخيروا له أحسن الأوقات والمواضع التي قد تساعده على الإبداع، ولفتوا انتباهه إلى أسباب الفتور علّه يتبينها ويطلب علاجها، فبعد ما وجهنا ابن قتيبة إلى تلك الدواعي التي تحث البطيء وتبعث المتكلف، ها هو يضع اليد على حالات استعصاء الشعر وتمرّد قوافيه، ويعلّل أسباب ذلك فيقول: "وللشعر تارات يبعد فيها قريبه ويستصعب فيها ريّضه... ولا يعرف لذلك سبب إلاّ أن يكون من عارض يعترض على الغريزة من سوء غذاء أو خاطر غمّ"[2]. وقد عبّر كثير من الشعراء على الحالات التي يستعصي عليهم فيها القول، حتى ليصبح عند الفرزدق خلع ضرس أهون من قول بيت من الشعر[3].

- منزلة الحبس بينها :

ولنا الآن بعد هذه الآراء والاقتباسات أن نسأل عن منزله الحبس أو السجن بين هذه المحفزات والدوافع ومنزلة نتاجاته الأدبية بين سائر الفنون والأغراض التي أطال النقاد عندها وقفاتهم، وخصوها بدقائق ملاحظاتهم التي لم ترد فيها إشارات مباشرة إلى الحبس وسائر مشتقاته بمعناه الذي طرحناه في الفصل الأول من هذا البحث والمحدد بمكان معين وظروف خاصة تميزه عن سائر الأمكنة الأخرى. وإن وردت لفظة الحبس في مقولة ابن قتيبة وهو يعدد أوقات تدفق الشعر "وللشعر أوقات يسرع فيها أبيه ويسمح فيها أتيه... ومنها الخلوة في الحبس والمسير..." فإنه لا يريد بها الحبس باعتباره وسيلة عقابية وإنما يريد توكيد أمر الخلوة في حال المسير وحال التوقف. ولكننا نجد حالاً شبيها بالحبس توفره تلك الخلوة التي وقف عندها مطولا النقاد والشعراء على حدّ سواء وعدّوها من أهم الفضاءات المناسبة للعملية الإبداعية بكل صورها، فجرير إذا أراد "أن يؤبد قصيدة" خالدة أشعل سراجه واعتزل وعلا السطح وحده واضطجع وغطى رأسه رغبة في الخلوة بنفسه، وكأن الناقد القديم يريد توكيد صور تلك الخلوه بألفاظ عديدة (اعتزل –وحده –غطى رأسه –رغبة في الخلوة...)، وزهير

---

[1] - حازم القرطاجني – منها ج البلغاء - 11-12.

[2] - عبد القادر فيدوح – الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي - 20.

[3] - ابن رشيق - العمدة - 372/1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بن أبي سلمى يركب ناقته ويطلب البرّية بكل ما توحي به كلمة البرّية من امتداد للفراغ من الآخر غير البري الذي يتجنب الشاعر لقاءه، وكثّير يطوف بالربوع المخلية والرياض المعشبةوأبو محجن يسير في الشعاب الخالية ويقف على الربوع المقوية و"الأرض المقوية التي لم يصبها مطر وليس بها كلأ، والمقوية الملساء التي ليس بها شيء"[1].

وكما لجأ الرواة وهم يصفون حال جرير في استحضاره الخلوة بألفاظ كثيرة وصفوا الفرزدق فقالوا أنه كان إذا أراد الشعر ركب ناقته ويطوف وحده خاليا منفردا في شعاب الجبال وبطون الأودية والأماكن الخربة الخالية فيعطيه الكلام قياده، فركوب الناقة وحده يوفر نوعًا من الخلوة لكنهم أضافوا إليه "يطوف وحده" ثم أتبعوها بقولهم خاليا ثم منفردًا وكلها تفيد المبالغة في طلب الوحدة، بل وأضافوا المكان الذي يوحي بالخلوة وإن لم تذكر لفظا فهو شعاب الجبال التي لا يقصدها الناس عادة ولكنهم نعتوها بالخالية، وكذلك أضافوا إلى بطون الأودية وباقي الأماكن التي يؤمها الفرزدق صفة "الخربة الخالية" وإن دلت هذه التوكيدات والعبارات المتكاملة المتقاربة على شيء فإنما تدلّ على مقدار ذلك الجهد الذي يبذله الشاعر في سبيل تحقيق تلك الخلوة المنشودة بل وذهب بعضهم إلى أن الشاعر الذي توفرت له و لم تجد قريحته بشعر فليس بشاعر يقول الحسين بن الضحاك (المعروف بالخليع) "من لم يأت شعره من الخلوة فليس بشاعر، وانتهى ديك الجنّ إلى الجزم أن معين الشعر لن ينضب أبدًا طالما اغترب أو اختلى صاحبه[2].

فإذا كانت هذه حال الشعراء وهم يطلبون لحظة الإبداع ويتهيأون لها ويجهدون أنفسهم في طلب وسائلها والظروف المساعدة عليها والتي تأتي في مقدمتها جميعا بعد استقرائنا لاعترافات الشعراء والروايات المختلفة "الخلوة"، فإن الشاعر السجين يجد نفسه غالبا في خلوة اضطرارية تفرضها عليه ظروف الحبس لا سيما في العصر الحديث الذي عرفت فيه الزنزانات الفردية التي تهيء له تلك الخلوة التي أجهد القدامى أنفسهم في سبيل بلوغها، وما عليه إلاّ امتطاء أحوالها وإسراج قناديل البيان، ولكن الحبس وما يوفره من خلوة لم يكن وحده الحافز على القول، فمن الشعراء من هالهم منظر الوحشة والوحدة والسكون فأخرسهم، ومنهم من حرك فيه نوازع القول ومنهم من فتقت رهبة السجن وصمته مواهبه و لم يكن شاعرا.

ومما تجب الإشارة إليه صعوبة تحقيق الخلوة والوحدة المكانية كما يحبها الشاعر السجين ويتمناها داخل السجن في الزنازين المشتركة والمعتقلات والمحتشدات، بل وفي الفردية منها لما يفرضه السجن من قوانين صارمة وما ينبعث بين جدرانه من الجلادين وطقوسهم المختلفة، لتبقى الخلوة النفسية التي يصنعها كل شاعرويتجاوز بها كل ما يحيط به من موانع، بالغوص في أعماقه والخلوة إلى آلامه وآماله وهي أعمق من كل خلوة.

فإذا تجاوزنا فضاء المكان الذي لم يكد يتحدد من ملامحه إلاّ عنصر الخلوة إلى فضاء الزمان وأحسن

---

[1] - لسان العرب – قــوا.

[2] - ابن رشيق – العمدة -382/1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أوقات انسياب القصيد، وجدناهم يفضلون بعض الأوقات على بعض، يأتي في مقدمتها الليل بكل حالاته أوله قبل تغشي الكرى كما يقول ابن قتيبة ووسطه كما يقول أبو تمام:

خذها ابنة الفكر المهذّب في الدجى والليل أسود رقعة الجلباب[1].

أو آخره كما نصح تلميذه البحتري وسمّاه "وقت السحر".

وكذلك كان جرير يصنع قصائده الخوالد ليلا، وهو الوقت الذي تخيره كثير من شعراء السجون لنظم قصائدهم لسكونه وهدوئه مقارنة بالنهار وما يعرفه من جلبة وأصوات المعذبين وصرير الأبواب وانشغال النزلاء بتبعاته من أعمال شاقة أو طقوس يفرضها زبانيته ومواقيت محددة لا يستطيع السجين التمرد عليها وخلوه إلى حدّ ما من الرقيب الذي لا يغفل عن ملاحقة السجناء ومصادرة إبداعاتهم وكل ما بين أيديهم، ولذلك يجد في الليل ملاذا لتداعي بنات الأفكار، وبخاصة في ظل الاستعمار الذي كان يحظر على النزلاء أدوات الكتابة من أقلام وأوراق، حتى أن مفدي زكريا كتب إحدى قصائده بدمه وأرسلها إلى صفوف جيش التحرير الوطني، بل ويحظر عليهم النور أحيانا فيضطر السجين إلى حفظ خواطر الليل ونقشها في الذاكرة وقد كان لمفدي زكريا حالات كثيرة تحدى فيها آلة المستعمر وفنون تضييقها وخلّد روائعه بطرق شتى.[2]

وكذلك الأمر بالنسبة لدواعي الشعر على اختلافها من شاعر إلى آخر، فمنها الطمع والرجاء والرغبة التي غالبا ما تكون عند شعراء المديح الذين اتخذوه حرفة يقتاتون عليها وهو ما يعرف بالمديح التكسبي ومنها الشراب والطرب واتصال أحدهما بالآخر في أحيان كثيرة، وهذان الدافعان بعيدان عن نفس الشاعر القابع بين الجدران، فهو لا يرغب أو يطمع في مال سجانه وإن وجد ذلك الطمع عند بعضهم فرجاء في الفرج وما يبعثه من شعر يمكن إدراجه في دائرة الاستعطاف وهي حالات تكررت عند الشعراء القدماء ولكنها تكاد لا تبين عند الشعراء موضوع الدراسة، فمعدودون هم الذين توسلوا الحاكم ورجوا خلاصه[3].

كما أن السجن بتقاليده وطقوسه و ممنوعاته لا يتيح للنزيل فضاء للطرب إلاّ نادرا مثل ما عرفته بعض الفضاءات -كما سنرى في المحتشدات والسجون الجماعية- وما كانت تصنعه من علاقات إنسانية مثالية يتجاوز بها النزلاء هموم السجن ومرارته وظلمه، بل ويقيمون الحفلات والسهرات ويحيون الأعياد. ومن الدوافع التي وقف عندها النقاد "الغضب" وقد ورد في معرض الحديث عن عنترة بن شداد بلفظ أقوى دلالة على الغضب فقالوا في أشعر الشعراء "...وعنترة إذا كَلِبَ" فالعرب تقول كَلِبَ الكلبُ واستكلب إذا ضريَ وتعوَّد أكل الناس وكَلِبَ عليه كلبًا إذا غضب ودفعت عنك كَلَبَ فلانٍ أي شرَّه وأذاه.[4]

---

[1] - أبو تمام - الديوان - 29.

[2] - ديوان مفدي زكريا - اللهب المقدس – المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر -1991 – 20-75.

[3] - مثل أحمد محمد الشامي و الزبيري .

[4] - لسان العرب – "كلُب".

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهذه المعاني كلها تحمل دلالة الغضب الشديد فإذا علمنا أن أغلب شعراء الحبسيات من سجناء الرأي الذين لم يدخلوا الحبس بجرم اقترفوه إلاّ جرْم القولِ والموقف والانتماء أدركنا درجة الغضب الموّار بداخلهم وما يمكن أن يفجر من روائع الأشعار، وبخاصة ما سجل منها في تحدّي وحشية المستعمر وقساوته، ومجادلته أحيانا ومقارعته و تحدي استبداد الحاكم و قسوة جلاديه وهو ما عبر عنه ابن مسعود بحال "المصدور" الذي لا بدّ له من أن ينفث، وكذلك حال الشاعر السجين الذي يعلم عدالة قضيته ويعاني من ظلم السجان وظلام السجن أصناف العذاب المادية والمعنوية. وقريب من الغضب الغيظ الدفين الذي ينتظر ساعة الانفجار ومنها الحزن كما حددّه أرطأة بن سهية عندما سئل عن دوافع امتناعه عن قول الشعر فقال "ما أطرب ولا أحزن"، وكيف لا يحزن الشاعر السجين وهو يرى نفسه خلف القضبان مع المجرمين واللصوص والصعاليك ولا ذنب له إلاّ حبّ الأوطان وقول كلمة الحق في وجه السلطان الجائر، بل ويراهم يكرمون ويذّل، ويتركون ويعذّب، ويطلق سراحهم ليعودوا إليه مرة أخرى ويبقى هو بين جدرانه أو يقاد إلى مقاصل الإعدام، وكيف لا يحزن وهو مبعد عن أهله وذويه قابع في مكان واحد لا يبرحه، يرتطم أنّى ولّى بالجدر والأبواب وسدنة السجن وزبانية العذاب، ويصطدم بالقوانين المقيدة.

ومن دواعي الإبداع الخلوة بذكر الأحباب كما يسميها ذو الرمة والشهوة والمحبة كما يسميها بشر بن المعتمر والوجد والاشتياق والحنين إلى المنازل المألوفة كما هي عند حازم القرطاجني، لأن الشاعر قبل كل شيء إنسان له روابطه الاجتماعية وصلاته فهو ابن وأخ وزوج وأب وصديق، تربطه بالمجتمع الخارجي علاقات حميمة، ويحرك فيه تطاول الوقت في فضاء السجن وخلواته حنينا إلى الأحباب ويثير أشواقه إلى ملاقاتهم ويتيح له فرص استرجاع ذكرياته العذاب معهم، ويفتح له مغاليق الكلام في كل تلك الأحوال والمشاعر المتدفقة. ونختم هذه الدوافع كما سماها ابن سلاّم الجمحي ورأى أن الشعر يكثر بها ويقل في غيابها بعامل التقلبات السياسية التي تدفع الشعراء إلى تسليط أضوائهم على كل النقائص وانتقادها ومحاولة علاجها مهما كلفهم ذلك من ثمن غالٍ أوّله فقدان الحرية، وآخره بذل الأرواح والمهج وكثيرا ما تعوّد الشعراء على أجواء السجن وألفوها، ولكنهم ظلوا مع ذلك حاملين مشاعل التنوير والبناء والتغيير، غيبت أجسادهم وصودرت وما صودرت أفكارهم وأشعارهم.

وأحيانا يتحوّل تتالي الأيام في السجن عليهم ومحاولتهم التعالي فوق مآسيها وأحزانها بالهروب إلى أحضان الشعر، إلى عادة يتعوّدها الشاعر، ويتخذ من الشعر ملاذا يحتمي تحت أجنحة منحه من آلة العذاب، لأن السجن بصورته الحقيقية لا يبعث في النفس إلاّ السأم والنفور ولا يثير فيها إلاّ الأحزان ولكن الشعراء صنعوا لأنفسهم عوالم جميلة تخففوا بها من وطأته فصار لجوؤهم إلى الشعر أشبه بالعادة التي يراها ابن رشيق طبيعة خامسة.

ولا يعني ما تقدم أن السجن وظروفه مصدر إلهام عبقري للشعراء أو أنه يمكن أن يتحوّل إلى أفضل فضاء للإبداع، وإنما هي عبقرية التكيف عند الأدباء وقدرتهم على ترويض العقبات وتحويلها جميعا إلى ملهمات

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإن تناقضت وتضاربت، فكما يحفزهم الطرب يحفزهم الغضب ومثلما يحفزهم الحضور يحفزهم الغياب وكما يحرك مشاعرهم الفرح يثيرها الحزن وهكذا، وقد يألف الشاعر السجن ويعتاد النظم بين جدرانه وتنشأ بينهما علاقة حميمة ويذكره كل ركن فيه بخاطرة أو ذكرى، فيتخير أوقاتا داخله للقريض وأركانا وحالات قد لا نجد لها تفسيرا إلاّ الألفة والتعوّد. وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدلّ على قدرة الأدباء على الاستمرار والتفاعل مع كل الظروف المحيطة بهم والتكيف معها بالقول أحيانا وبالصمت أخرى بحسب طبائع الشعراء واستعداداتهم النفسية وبحسب مقتضيات الأحوال، فكما أطلق السجن ألسن بعضهم وفجر مواهب جديدة لم تكن تعرف شيئا عن فن القريض[1]، أخرس ألسنا فلم تنبس فيه ببنت شفة حتى إذا غادرته انطلقت مع أجواء الفرح والحرية متجاوزة ذكره أو أدنى إشارة إليه وكأنها تريد إلقاء محنته في سجلات النسيان.

[1] - انظر : محمد محمود الغرباوي –الشعر في سجون - الملحق 643 -882 فقد اتخذ من مجلة السجون الصادرة بين 1958 - 1964 مصدرًا هامًا.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

X Z

* الفصل الثالث *

حصاد الشعراء من تجربة الحبس

- الإبـداع الأدبـي والحبـس.
- الذين وثقـوا وأرخـوا لحبسيـاتهم.
- الذيـن لم يؤرخـوا.

E Θ

- الكتابة والحبس:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

انتهينا في وقفتنا عند دواعي النظم وأوقاته إلى أن الحبس لا يشكل امتيازا بينها، وإنما يقف عنصرا بين سائر العناصر المساعدة على ميلاد لحظة الإبداع، تلك العملية المعقدة المتداخلة العوامل الغامضة، وعليه فلا يمكن أن تقرن الشاعرية أو غزارة الإنتاج بالحبس، كما لا يمكن أن تعدم بعدمه، وإنما مرد الأمر إلى طبائع الشعراء أنفسهم واستعداداتهم ومواهبهم وتكوينهم وبيئاتهم وظروف حياتهم فما يحرك شاعرا ويثيره قد لا يحرك شاعرا آخر، فهناك من طال به الأمد بين الجدران ولكنه لم يَصْهر هذه التجربة، أو لعله غض الطرف عنها وتجاوزها و لم يذكرها، كالمنفلوطي الذي دخل السجن شاعرا و أقام فيه ستة أشهر كاملة دون أن يقرض بيتا من الشعر، وغادره وقد انصرف عن الشعر تماما وتوجهت همته إلى النثر[1]، ومثله الشاعر عبد الفتاح إبراهيم الذي تعددت أعماله الشعرية وتنوعت بين الدواوين الشعرية والمسرحيات التي كتبها ونشرها بعد تجربة الحبس، ولكنه لم يكتب شيئا منها داخل السجن و لم يذكر شيئا عن هذه التجربة المريرة في أشعاره اللاحقة وكأنه كان يريد نسيان هذه الصفحة السوداء الأليمة أو إلغاءها[2]، ومنهم من اكتفى- على طول مكثه- بالإشارة الخفيفة إلى هذه التجربة كما فعل العقاد بقصيدته اليتيمة[3]، وكأنه يريد فقط التأريخ لها.

ومنهم من لم يطل به المقام في غيابات الجب وتدفقت ينابيع شعره من خلف القضبان وفي غفلة من السجان وأجهزته القمعية، أمثال الشاعر التونسي محمد الشاذلي خزندار[4]الذي لم يمكث به إلا خمسة عشر يوما بحصاد ثلاثة عشر قصيدة، حتى تمنى الناس لو طالت مدة سجنه ليتحفهم ببدائعه[5]، ومثله الشاعرالعراقي أحمد الصافي النجفي[6] الذي أقام ثلاثة وأربعين يوما في إدارة الأمن العامة الفرنسية ببيروت، بأمر من السلطات الإنجليزية عام 1941، فكان من ثمار هذه الإقامة غير السارة ديوان شعري كامل من سبعة وأربعين قطعة وقصيدة أسماه الشاعر حصاد السجن، وكأنه كان ينظم في كل يوم قصيدة جديدة ويتنفس الشعر بدل

---

[1] - مجلة الرسالة – السنة العشرون – عدد 1007 – أكتوبر 1952 – محمد رجب البيومي – المنفلوطي الشاعر الجريء – 1170.

[2] - محمد محمود الغرباوي – الشعر في سجون مصر - 69.

[3] - عباس محمود العقاد – الديوان – الجزء السابع – 640 (قصيدة القلم المسروق).

[4] - محمد الشاذلي خزنه دار (1299- 1881/1373- 1954) : محمد الشاذلي بن محمد المنجي بن مصطفى خزنه دار، شاعر تونسي (أصله من المماليك) نشأ في بلاط تونس وولي فيه بعض الأعمال ثم أُقيل أو استقال في خلال الحركة"الدستورية" إثر موت الأمير محمد الناصر (1340هـ)، فسلك طريق المعارضة السياسية مع ما يسمونه الاعتدال. قال عنه أحد الكتاب كان حليف الشعب وشاعر حركاته، كان آخر ما نظمه مقطوعة أرسلها إلى الصحف يوم وفاته يسمي فيها سياسة المقيم الفرنسي(سياسة التمنية) :

قالوا العميد يمنـــي أن سوف تعطى حقوق

وليس صوت التمني ممـــا لدينـــا يـــروق

(الأعلام – خير الدين الزركلي دار العلم للملايين – بيروت ط5 – أيار(ماي) 1980- 155/6.

[5] - محمد محمود الغرباوي – الشعر في سجون مصر - 69.

[6] - أحمد الصافي النجفي:(1897-1977) شاعر عراقي درس في معاهد بغداد العلمية والأدبية شارك في الثورات العراقية ضد الإنكليز و كان من الممهدين لثورة العراق الكبرى 1920، فر بعدها إلى إيران، ثم عاد إلى النجف عام 1927، وسرعان ما غادرها =

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأكسجين المحظور، إذ لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ولقطتها آلته الفكاهية الساخرة غالبا. ومنهم من طال به المقام وعبر عن معاناته بغزارة مثل الشاعر المصري عبد العزيز أحمد هلالي الذي فجرت فيه تجربة السجن ديوانا شعريا كاملا[1]،والشيخ أحمد سحنون، والشيخ محمد الشبوكي اللذان احتلت حبسياتهما ما يقارب نصف الديوان.

والحقيقة التي يمكن تسجيلها أن شعر الحبسيات وإن أخذ هذا الحظ الوافر من الاهتمام والدراسات، وإن كثر شعراؤه، قليل إذا ما قورن بنتاجهم الشعري أحرارا، ولهذه القلة أسبابها المعقولة، تأتي في مقدمتها قوانين الحبس ذاتها في تعاملها مع أدوات الكتابة ومع المطالعة سواء للجرائد والمجلات أو الكتب على الرغم من أن بعض السجون كانت مجهزة بمكتبات ضخمة،حيث تختلف هذه القوانين باختلاف السجناء ودواعي حبسهم وأماكنه، فما يباح في سجن أو بلد أو زمن قد لا يباح في آخر، وما يتمتع به سجين قد يحرم منه آخر، وإن كانت جل إدارات السجون تجمع على حرمان طبقة المفكرين والسياسيين والأدباء والشعراء والصحفيين من نبض الحرف لأنها تعلم جيدا مفعوله إن هم فجروه من داخل السجن، فعندما أبيحت أدوات الكتابة للسجناء السياسيين في ثورة 1919 وجدنا السجين أحمد مظهر يعكف على تدوين مذكراته داخل معتقل الأقصر ولا يكاد يترك شاردة أو واردة إلا ودونها[2].وقد عبر العقاد أحسن تعبير عن منع تسرب الأقلام إلى السجن حين شبه استحالتها بدخول الجمل في سم الخياط، "وأنت أيها القارئ... لا تعلم كما علمت أنا في السجن أن دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول قلم إلى غرفة سجين بإذن من مصلحة السجون"[3] فقد كانت أوامر المنع تسبق السجين السياسي والمثقف، فلا يكاد يصل إلى مثواه المحدد حتى يجد التعليمات قد وصلت بلاءاتها الكثيرة وممنوعاتها.

وقد حرم الشاعر مفدي زكرياء من تدوين خواطره فدون أحد أناشيده بدمه[4] ولم يقف الحضر عند

= إلى لبنان و سوريا شارك في إحدى المظاهرات المنددة بالإنكليز عام 1941 بلبنان فسجن مدة شهرين. عام 1977 أطلق عليه الرصاص وهو يهم بالخروج من منزله في بيروت عام 1976 أثناء الحرب اللبنانية فأعيد إلى العراق وأدخل مدينة الطب للمعالجة وبقي فيها إلى أن وافته المنية.له ما يقارب 14 ديوانا شعريا منها : الأمواج، أشعة ملونة، الأغوار التيار، اللفحات، ألحان اللهيب، الهواجس، شرر الشلال، حصاد السجن...(نسيب نشاوي – مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية-ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر/ 97. وأحمد قبش- تاريخ الشعر العربي الحديث – دار الجيل- بيروت – د.ت.ط./ 255 . و أحمد الصافي النجفي – ديوان حصاد السجن – المقدمة.)

[1] - عبد العزيز أحمد هلالي -ديوان "أنغام شاردة"- مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية- الكتاب الأول- الجمهورية العربية المتحدة.

[2] - محمد محمود الغرباوي – الشعر في سجون مصر 63.

[3] - عباس محمود العقاد - عالم السدود والقيود- 63.

[4] - مفدي زكريا - اللهب المقدس- 75 - (نشيد عشت يا علم، التحية الرسمية للعلم الجزائري وقد أهداه للحكومة الجزائرية المؤقتة).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإبداع الأدبي وإنما تجاوزه إلى رسائل السجناء إلى أهلهم وذويهم، والتي أصبحت كما يقول مصطفى أمين أشبه ما تكون باستمارة"صرف المعاش" من أحد دواوين وزارة الأوقاف لا تمر إلا وقد دمغت بخمسين إمضاء أو ما يزيد[1].

ولكنها مع ذلك لا تنجو من سلطان الرقيب، وتمزيق الخطاب أحيانا وعودة السجين إلى كتابة خطاب آخر رسمي جاف لا يتجاوز السؤال عن الصحة والأحوال يقول : "فهناك موضوعات محرمٌ علي أن أكتب عن زملائي في السجن، ومحرم أن أكتب عن نظام السجن... ومحرم أن أكتب اقتراحات لتحسين السجن، كل شيء محرم سوى إرسال ما أريد من التحيات والأشواق وأن صحتي على أحسن ما يرام..."[2]. فإذا كان هذا حال رسالة من سجين إلى أخيه أو أسرته، فإن حال القصيدة أو المقال سيكون أخطر ليس بالتجريد من أدوات الكتابة فحسب وإنما بدور الرقيب الذي يباغت زنزانات المشتبه فيهم بحملات تفتيش مفاجئة، ومصادرة كل ما يقع عليه من ممنوعات ولكن عناد السجناء وصمودهم جعلهم يخلدون الكثير من الروائع في أعماق الزنازين، برغم منع أدوات الكتابة وبرغم التفتيش وبرغم دور الرقيب الذي لا ينام وبرغم أجهزة العذاب المادية والمعنوية، بل ويهربون الكثير منها خارج أسوار تلك البنايات الشاهقة، مستعينين في ذلك بالسجناء الأميين الذين تغفل عنهم عين الإدارة بل وبالسجان نفسه الذي يقنعونه في كثير من الأحوال بعدالة قضيتهم، ويجعلون من خروج تلك النصوص (شعرية- نثرية- مؤلفات علمية...) أشبه بالأعمال البطولية الأسطورية التي تتداولها الشعوب في نشوة الانتصار، فكلما افتن السجان في أساليب المنع والقمع والرقابة افتن هؤلاء النزلاء المميزون في أساليب التحدي وإبداع أشياء من العدم ذلك أن المحنة أم الاختراع، فشكلوا عصابات أسموها "عصابات التهريب" ولكن تهريب الأقلام والحبر والورق ثم الأفكار وليدة الجدران، وإنما عصابة من نوع خاص، نوع شريف لتهريب الأفكار[3]، منها العصابة التي كونها الكاتب مصطفى أمين ونجح بفضل جهودها وتضحياتها في إيصال صوته إلى خارج السجن واستطاع تهريب أكثر من تسعة آلاف رسالة وأكثر من كتاب[4]، ويكفي أن كل مؤلفاته التي أصدرها -إلى تاريخ هذا الحوار- كتبها داخل السجن منها "سنة أولى سجن"، "سنة ثانية سجن "، "سنة ثالثة سجن"... وهكذا .. ثم قصته "أشرف امرأة في الشارع"وقصة "سنة أولى حب" وقصة"صاحب الجلالة الحب" وقصة "لا" و"الآنسة هيام" والكتاب السياسي "من واحد لعشرة"[5] فهذه جميعا ألفت في السجن وكانت العصابة تهربها ورقة ورقة، بل وكانت داخل السجن ورشات أخرى لخدمة الفكر غير عصابة المهربين فإذا وضع أحدهم كتابًا وجد من الرفاق الفنانين من يرسم غلافه، كما

---

[1] - مصطفى أمين- سنة أولى سجن - كتاب دار النشر- اليوم-القاهرة –ط2 -1975 – 196-197.

[2] - المرجع نفسه – 204.

[3] - حنفي المحلاوي – حكايتي مع السجن الدار المصرية اللبنانية ط1 - 1413هـ – 1993 – 34.

[4] - المرجع نفسه و الصفحة نفسها.

[5] - المرجع نفسه – 28.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حدث مع كتاب" طاهر عبد الحكيم "الأقدام العارية"[1]، وقد كان مفدي زكريا قابعا في أحد سجونه بينما كانت رسائله تصُول وتجول وتصل حتى إلى البلاد المجاورة، منها ما كان يرسله إلى صديقه أبي اليقظان عيسى من مقالات ورسائل موقعة جميعا ب"أبي فراس" ونشرت بالجرائد التونسية، وما كان يسربه من قصائد وصلت إلى القاهرة وتونس وألقيت من هناك في ذكرى الثورة التحريرية الكبرى.

وإذا غابت الأوراق لجأ السجناء إلى ورق السجائر، ومن الذين استعملوها في تدوين أفكارهم وإبداعاتهم طاهر عبد الحكيم الذي كاد يتحول إلى دار للنشر، فلم يكتف بنسخة واحدة لكتابه وإنما نسخ بخط دقيق للغاية أربع نسخ، اثنتان أعدهما للتهريب إلى خارج السجن ونسختان أخريان احتفظ بهما داخل السجن في مخابئ مأمونة[2]. كما دون معين بسيسو حبسياته على علب الكبريت والمناديل وبقايا الجرائد[3].

فإذا غابت مثل تلك الأوراق الاستثنائية لجأ السجين إلى أي سطح آخر يمكنه احتواء حروف، وإن غابت الأقلام والحبر عوضهما بمحاولات جديدة من صنع مخابر السجن العجيبة، يقول أحد أولئك المخترعين وهو عبد المغني سعيد : "وأسرعت بدوري أكيف نفسي لأوضاع السجن، فصنعت ريشة من أسنان المشط، وحبرا كان مزيجا من القهوة ومضمضة الأسنان ورسمت خطتي للاتصال بخارج السجن وتهريب الرسائل"[4].

وكثيرا ما تحولت جدران السجن نفسها إلى سجلات تاريخية يحفر على صفحاتها النزلاء آلامهم وآمالهم بأي شيء يمكن نحتها كالملاعق وأسنان المشط وأعواد الثقاب وأي شيء آخر من المباحات، فقد حدث أن حفر أحد المحكوم عليهم في المحاكم الاستثنائية قصيدة بأظافره على جدران زنزانته بالسجن الحربي[5]، ولا ننسى حبر مفدي زكريا المميز الذي صاغه من دمائه الزكية.

أما عن حصاد الشعراء موضوع الدراسة من تجربة السجن وهباته والمراد بها فقط النصوص الشعرية التي كتبت بين الجدران فتشوب عملية حصرها وتحديدها صعاب شتى يأتي في مقدمتها غياب التأريخ للقصائد عند أغلب الشعراء فلم يذكر زمن النظم أو مكانه أو أي إشارة أخرى تدل على الحبس إلا ما يقارب الربع منهم مما اضطرني للعودة إلى سيرهم وما كتب عنهم من دراسات والنظر في الأعمال الأدبية الصادرة بعيد مرحلة الحبس والاستعانة بإشارات الدارسين إلى القصائد نتاج الحبس.

- الذين أرخوا لحبسياتهم أو أُرّخ لها :

من أوائل الشعراء الذين وثقوا نتاجهم الشعري وذكروا مكان ميلاده وهو السجن الذي جادت عليهم

---

[1] - نزيه أبو نضال – أدب السجون – 178.

[2] - المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[3] - بسام علي أبو بشير –معين بسيسو حياته وشعره –ماجستير –جامعة الجزائر –معهد اللغة والأدب العربي -1991 -1992 –39.

[4] - مصطفى أمين – سنة أولى سجن – 40.

[5] - المرجع نفسه والصفحة نفسها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جدرانه وقضبانه بدواوين شعرية كاملة الشاعر أحمد الصافي النجفي[1] على امتداد سبعة وأربعين قطعة وقصيدة هي : تكسير الأصنام، غرفة السجن، طاب المرض، قبر في الجو، وداع لحرية، المشكلة العظمى، سير على كل حال، من البحر أو البحري، القبر مشحون، إما تاج وإما سجن سجن وانتظار، أثاث السجن، الظلام المنير، العلاج بالكي، سجين وطليق، فندق السجن، الجرم الشريف، إعلان الحرب، موت المعتدي، على أن لا يقال له سجن، الآن طاب الشنق، العقاب الضعيف، موسى وفرعون، قاعدة السجن، غرفة أم صندوق، نصف مسلم، يعشن يتامى، لا سلام ولا كلام، إعلان على بابي، لا صديق ولا صديق، فرصة موت، بخلاء كرام، المضايقة، حتى في الموت، المنبر الخالد، ملحمة السجن أو ألواح وأشباح، خدام السجن، الجواسيس، ليل السجن، رهين المحبسين، إفراج كالسجن، العقل كالجنون، الحرية إدام، الوفاء.

ومثله الشاعر عبد العزيز أحمد الهلالي[2] بديوان أنغام شاردة الذي أرسلته مصلحة السجون إلى الطبع بقصائده : الليلة الأولى، مع الماضي، شجوني، الشمعة الفانية، أنشودتي، ماذا يريدون مني، صباح، هذه الأصوات، مع كمان، انتباه، في الزيارة، ذكريات أم، إلى الأم، أيها السجان، لا تلوميني، حفر الليل، تفتيش أين أبي، قصة طلاق، قم، ذاك عفريت، من ابنة لأبيها، وعانقني على الآلام، نشيد الوداع، أريني الصبح، يا رفيقي، همسة إلى قلبي، لا تنكري، رفاق، غدا، عودة.

ولسليمان العيسى[3] قصيدته المطولة "شاعر بين الجدران" التي طبعت مستقلة في ديوان من الحجم الصغير،[4] وتتكون من ثلاثة عشر نشيدا أو قصيدة هي : نجوى - بين الجدران - في حرم الوحي- وحشة - شاعر ولاجىء - في بيت الشاعر- الطريق والمعري - في الشام - مع المحقق- في غرفة الجنايات - سجن المزة العسكري- نحن الطريق إلى جانب قصائده الثلاث الأخرى : أبو ياسين" "وجه السماء" و"لاجئة في النظارة" جاءت جميعها في أعماله الشعرية الكاملة، هذا وللشاعر الليبي أحمد إدريس حنبلة ديوان "خلف القضبـــان"[5].

---

[1] - يضم ديوانه حصاد السجن اثنتي عشرة قصيدة وخمسة وثلاثين قطعة.

[2] - بلغ عدد قصائد الديوان ثلاثين قصيدة .

[3] - سليمان العيسى- شاعر سوري معاصر عايش أحداث اغتصاب لواء الاسكندرون عام 1939، واصل تعليمه الثانوي في دمشق والجامعي في بغداد، من المؤسسين لحزب البعث العربي الاشتراكي، من دعاة الوحدة القومية والاشتراكية، ومن أنصار النضال القومي العربي والقضية الفلسطينية، سجن لمواقفه في سجن النظارة بدمشق وسجن المزة العسكري 1954 . (نسيت نشاوي مدخل إلى المدارس الأدبية 373. سليمان العيسى – ديوان حبات من الرمال الذهبية – صفحة الغلاف الداخلية، والديوان- الأعمال الشعرية- الجزء الأول حيث أرخ الشاعر لقصائده وذكر أماكن نظمها) .

[4] - سليمان العيسى – الأعمال الشعرية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت- ط1- 1995-1/207-250).
و أيضا : شاعر بين الجدران (قصة في قصيدة) نظمت في السجن –دار العلم للملايين –بيروت –ط3 -1963. وقد أهداه الشاعر "إلى الأطفال الذين كانوا يستيقظون في عهد الدكتاتورية فلا يجدون آباءهم").

[5] - سالم المعوش – شعر السجون في الأدب العربي الحديث والمعاصر – دار النهضة العربية- لبنان، ط1-1424-2003- 129.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يلي هؤلاء الشعراء أصحاب الدواوين الحبسية أولئك الذين شكلت حبسياتهم أغلب ما في دواوينهم الشعرية، يأتي في مقدمتهم الشاعر الجزائري أحمد سحنون[1] الذي بلغ حصاده ثمانية وعشرين حبسية اكتفى فيها بعبارة "من حصاد السجن" دون ذكر السنة واسم السجن أو المعتقل الذي تنفست منه، إلا نادرا وهي: عصفورة، أنت فوزية، إلى أولادي، إلى أبي، الإخوان بلسم الأحزان (ذكر أنها في الترحيب بزائر جديد لمعتقل بوسوي)، يوم ميلاد، بمناسبة إيقاف القتال، ميلاد وميلاد (ميلاد الرسول -ρ-) و ميلاد الدولة المؤقتة، البطل، الفدائي، يعز علي أني لا أراك، يا لها غربة، وداعا وداعا (في وداع الرفاق يوم خروجه من المعتقل)، خواطر في العيد، عام جديد، بشرى الجزائر، وطني، رجاء غد، صلة الشاعر بربه، أيها المبعد، أين يا صداح (لحنها الملحن هارون الرشيد وأنشدت في المعتقل)، شتاء بوسوي، حنانيك، بعد عامين في المعتقل، ذكريات المجد (ذكرى المولد النبوي الشريف)، ذكرى رأس السنة الهجرية، بدء نزول القرآن، العامل الجزائري، العمال[2].

يليه الشاعر محمد الشبوكي[3] صاحب السبعة والعشرين حبسية، حرص فيها على ذكر زمان ومكان النظم ومناسبته في كثير من الأحيان وهي :

- حصاد معتقل بوسوي : دولة الشعب (1958) إثر تأسيس الحكومة الجزائرية المؤقتة)، تبسة الصامدة (معتقل الجرف قرب المسيلة - 4 مارس 1956)، جيش التحرير الوطني (معتقل الجرف - 1956)، الشباب الجزائري الثائر (1958)، الشاعر المستهام (1957) مناجاة هلال رمضان (1959)، يوم العيد (1958)، ليلة أندلسية، ليلة ساهرة، الوردة الحزينة، الهامة والبلبل (1958)، الشاعر والملك (1958)، الشيخ المتصابي استوح قلبك.

- حصاد معتقل الجرف : يالها الله ثورة (1962)، نشيد الظفر (1956)، عود رشيد (1956)، تهنئة بهلال العيد.

---

[1] - أحمد سحنون : (1907 -2006) من مواليد ليشانة قرب بسكرة ، تلقى تعليمه على يد والده ثم الشيخ خير الدين و شيوخ زاوية طولقة ، اتصل بالشيخ ابن باديس و أدار مدرسة التهذيب الحرة بالعاصمة ، ونشر إلى جانب التعليم مقالاته الإصلاحية و شعره في جرائد الجمعية . اعتقل إبان الثورة التحريرية و أفرج عنه أواخر 1959 ولكن جبهة التحرير أخفته خوفا من تهديدات المخابرات الفرنسية بتصفيته . عاد بعد الاستقلال إلى عمله الإصلاحي ، وعاود تجربة الحبس عام 1982 وكان نتاجها ديوان شعر مخطوط تعذر الوصول إليه . وبعد خروجه من السجن واصل دروسه وخطبه إلى أن وافته المنية . (محمد ناصر الشعر الجزائري الحديث – 677 و محمد زغينة – شعر السجون والمعتقلات في الجزائر – 285-286 .)

[2] - أحمد سحنون - الدّيوان - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - القصائد موزعة على امتداد الديوان.

[3] - محمد الشبوكي : (1916-2000) محمد بن عبد الله الشبابكي المدعو الشبوكي. ولد بمنطقة ثليجان بالشريعة ولاية تبسة تتلمذ لوالده وحفظ جزءا من القرآن. ثم التحق بكتاب الأسرة وحفظ القرآن كله وعددا من المتون العلمية والشعر - واصل تعليمه / في تونس وأحرز على شهادة التحصيل من جامع الزيتونة عام 1942. عاد إلى الوطن معلما في المدارس الحرة لجمعية العلماء المسلمين، وكان مناضلا سياسيا وعضوا في جمعية العلماء ثم في مجلسها الإداري. ألقي عليه القبض عام 1956 بسبب نشاطه الثوري لستة أعوام. بعد خروجه من المعتقل درس في التعليم الثانوي وواصل نضاله في صفوف حزب جبهة التحرير الوطني. كان عضوا في المجلس الإسلامي الأعلى. وتولى مناصب إدارية مختلفة في ولايته. (محمد الشبوكي - ديوان الشيخ الشبوكي - منشورات المتحف الوطني للمجاهد - ترجمة صاحب الديوان - ذيل الكتاب).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- حصاد معتقل بولكزال : (1961)، نشيد الشباب الجزائري (1961)، نسمات الخريف.

- حصاد معتقل لودي : نشيد الجهاد (1960)، أين فيروز، نجاح سلام.

إلى جانب قصيدة لم يذكر عنوانها ولا تاريخها وإنما نسبها فقط لمعتقل بطيوة (سان لو).

يليهما الشاعر محمد جميل شلش[1] بديوانه"الحب والحرية" الذي انبثقت أغلب قصائده من قعر السجن، حرص فيها على إثبات اليوم والشهر والسنة واسم السجن، وهي على التوالي :

- حصاد سجن بعقوبة : إلى إخواني الشعراء (1961/4/17)، ثلاث أغنيات إلى تمـوز (1960/7/6)، آمنت بشعبي (1960/2/12)، أغنيـة حـب إلى شـهرزاد (1960/12/25)، الشـعر والنـار والزنزانـة (1961/11/4)، السجين (1960/09/28)، إلى مثني حمدان(أحد المحكوم عليهم بالإعدام، أهـداها إليـه في السجن، واستشهد صباح (14 رمضان) (1960/05/20)، رسالة إلى أمي (1960/09/18)، أغنية إلى دمشق (1961/09/29)، أغنية انتصـار للبـاخرة العربيـة كليوبـاترة (1960/05/10)، رسـالة مـن واحـدة (1960/04/23)، من أجل القضية (1961/03/12)، لأنني غنيت (1960).

- حصاد السجن العسكري "01" : أغنية في الزنزانة -1959/12/17)، رؤيا (1959/11/12) وصمود (1959/11/16)، الشاعر الشهيد (1959/12/15).

- حصاد الخيالة بغداد : النبي (1959/04/26)، أما ديوانه الثاني "غفران" فله فيه قصيدة إضمامة زنبق (1961/01/26) التي لم يذكر السجن الذي نظمت فيه.

وأما الشاعر مفدي زكريا[2] فقد بلغ حصاده في ديوانه اللهب المقدس ثلاثة عشرة قصيدة، منها واحـدة باللهجة العامية القريبة من الفصحى حرص على تدوين اسم السجن والتاريخ باليوم والشهر والسنة والمناسبة أحيانا ورقم الزنزانة وهي :

---

[1] - محمد جميل شلش : (1930- ...) ولد في فضاء الخالص وواصل تعليمه الإعدادي في بعقوبة والجامعي في بغداد، اشتغل في التعليم وفي عام 1959 أقتيد إلى محكمة المهداوي مع من اتهموا بحادثة اغتيال عبد الكريم قاسم، وحكم عليه بثلاث سنوات، نظم خلالها ديوان"الحب والحرية" أيام حكم الطاغية عبد الكريم قاسم – نشر بعضه في جريدة الحرية العراقية بتوقيع"أبو فراس" (محمد جميل شلش- ديوان الحب والحرية - صفحة الغلاف).

[2] - مفدي زكريا : شاعر جزائري (1908-1975)تفتح على الوطنية والنضال مند نعومة أظفاره في حضن عمه الشيخ صالح بن يحي (أحد مؤسسي الحزب الحر الدستوري في تونس)، واصل تعليمه في تونس وساهم في الحركة الثقافية والسياسية بمقالاته وقصائده التي كان ينشرها في الجرائد الجزائرية والتونسية على السواء، يدعوا فيها إلى يقظة الشعب الجزائري وترأس تحرير جريدة الشعب(لسان حال الحزب)تردد على السجن بين عامي 1937 و 1959 خمس مرات منها اعتقاله عام 1937 بسبب نشاطه السياسي، قضى عامين خلف جدران بربروس ليعود إليه في 12 أفريل 1956 وظل ينتقل بينه وبين سجن البرواقية والحراش إلى أن تمكن من الفرار عام 1959. (محمد ناصر- مفدي زكريا – شاعر النضال والثورة – المطبعة العربية – غرداية – 1984- 7 - 36) والمرجع نفسه - ط2 - 63 و ما بعدها).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- حصاد سجن بربروس : الذبيح الصاعد (18 جويلية 1955)، زنزانة العذاب رقم 73 (28 أفريل 1955، نظمها بعد جولة من جولات التعذيب المعتادة في ظلام الزنزانة وحفظهما بيتا بيتا لاستحالة كتابتها) وتعطلت لغة الكلام (1957)، حروفها حمراء (زنزانة رقم 63 جواب غي مولي حين دعا للانتخابات في شتاء 1958) ، فاشهدوا (النشيد الرسمي للثورة الجزائرية زنزانة رقم 69، 25 أفريل 1955)، والنشيد الوطني الجزائري حاليا عشت يا علم (التحية الرسمية للعلم الجزائري- لم يورد سنة النظم ولا مكانه، مكتفيا بقوله: في قعر الزنزانة)، نشيد الشهداء (زنزانة 65-29 نوفمبر 1937) نشيد بربروس لم يذكر مكانه ولا زمانه، نشيد بنت الجزائر (بربروس- زنزانة رقم 83، أوت 1956)، النشيد الرسمي للإتحاد العام للشغالين الجزائريين (زنزانة رقم 69، 12 جويلية 1956). قل يا جمال (زنزانة رقم 93، 29 أكتوبر 1956).

- حصاد البرواقيـــة : وقال الله... (في الذكرى الثالثة لثورة التحرير، ألقيت بالنيابة عنه في مهرجان الذكرى الذي أقيم بتونس –غرة نوفمبر -1957، إقرأ كتابك (بقعر الزنزانة رقم 375 –الذكرى الرابعة للثورة، ألقيت بالنيابة عنه في إذاعة صوت العرب بالقاهرة في أول نوفمبر 1958) ، وللشاعر قصائد أخرى لم تطبع في اللهب المقدس ترصد بعض جوانب تجربة حبسه الأولى (1937) حيث قضى عامين كاملين بعد مظاهرات شباب حزب الشعب التي عمت العاصمة في 14 جويلية 1937 مع رفاقه حسين الأحول و إبراهيم غرافة ومحمد قنانش وآخرون، ومن نتاج هذه التجربة نشيد اعصفي يا رياح وتحية شعرية أرسلها إلى الرفاق عندما التحقوا بالسجن، وله قصيدة ثالثة من المستشفى[1].

وللشاعر العراقي محمد بهجة الأثري[2] إحدى عشرة قصيدة وردت جميعا في ديوانه : ملاحم وأزهار، نظمها بين معتقل الفاو والعمارة وسامراء على امتداد أربعة أعوام وهي :

- حصاد معتقل الفـــاو : مرحبا بالنفي (1941/12/1)، مأساة ديك الفاو هنا العزة من أعماق السجن في المنفى السحيق (194/01/12).

- حصاد معتقل العمارة : أنا والعلى ومطامح التشييد (1942)، لم تشنأ الأنثى (ماي 1942)،

---

[1] - محمد ناصر – مفدي زكريا شاعر النضال والثورة - 35.

[2] - محمد بهجة الأثري : شاعر عراقي ولد ببغداد عام 1904، تعلم في صباه التركية والإنكليزية وعلوم العربية، عاصر معاناة وطنه تحت حكم المستعمر وعملائه وعانى من ذلك، وكان من الرافضين لهذه السياسات، شارك في ثورة العراق عام 1941 نظم فيها قصيدة : ثورة 1941"، انتخب عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق عام 1931 وانضم إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام 1948، كما انتخب نائبا لرئيس المجمع العلمي العراقي عام 1949 (حميد المطيعي – العلامة محمد بهجة الأثري – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد - ط1- 1988 – 99 - ومحمد بهجة الأثري – ديوان ملاحم وأزهار الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة 1974 – المقدمة بقلم الشاعر عبد العزيز أباظة).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سأغني... وأغني (1994/1)، شهب احترقت[1] (1943/09/11)، الأعرابية الكادحة (1943)، في عرس القمر (1943/1)، صخرة اليم (1943)، إلى ولدي (1363هـ 1943).

- حصاد معتقل سا مراء : يا وطني (1942).

أما الشاعر التونسي محمد الشاذلي خزنه دار فقد كاد يشبه أحمد الصافي النجفي الذي نظم من القصائد ما يقارب أيام حبسه فله في خمسة عشر يوما ثمانية عشر قصيدة وقطعة[2] هي : أقسام الناس، الجندي رغم أنفه، قالوا حبست، مناجاة العائلة بالسجن ، مناجاة الأخ ، النشيد الكمالي ، مناجاة الصديق ، مناجاة الوالد ، مرارة العز حلوة ، مناجاة تونس، سنجريها بحارا ، ثنائي على الصحافة ، شرف السجن ، أجندي أم شاعر، مكافاتنا واحدة ، يا سجينا ، العميد ، بلادي بلادي.

وللشاعر المصري جمال فوزي[3] عشر قصائد جاءت في ديوانه"الصبر والثبات" وهي : إلى الطاغية السفاح، إلى السفاحين، هدم الليمان ، شهيد الحق، وسط حلقات التعذيب الجماعي، هل لظلام المجرمين صباح، العيد بين جدران السجن الحربي، قصة قطة، سأقول لا، فقد البصر في السجن الحربي، وقصيدة واحدة، ضمنها ديوانه "الصبر والجهاد" هي قصيدته موت الطاغية جمال عبد الناصر (المؤرخة بـ 28 سبتمبر 1970) هذا إلى جانب قصائد أخرى تنتقد نظام السادات لاسيما في المشروع الخطر الذي أقدم عليه "اتفاقيات التطبيع" منها قصيدة التطبيع ونقد بناء وثورة على الفساد وأنا رجعي وهي جميعا إن لم تكن من بنات السجن فهي من أسباب دخوله.

وأما أحمد محمد الشامي[4] فله ثمانية قصائد في ديوانه"حصاد العمر" هي حصيلة خمسة أعوام من السجن توزعها كل من سجن نافع وقاهرة حجة وهي :

---

[1] - لم يذكر المعتقل ولكنه أرخ لها بـ 1943/9/11 وهي مرحلة تدخل في عداد تجربته السجنية لأنه نقل إلى سجن العمارة عام 1942 بعد حادثة وقصيدة ديك الفاو ولم يغادره إلا عام 1944.

[2] - محمد الشاذلي خزنه دار – الديوان – مطبعة العرب – تونس 1927 - 203/1 - 21 - 25 - 59 - 65 - 68 - 84 - 85 - 86 - 87 - 89، و طبع الدار التونسية للنشر - 1972 - 27 - 31 والقسم السجني - 70 - 96.

[3] - جمال فوزي : شاعر مصري عايش تجربة السجن على امتداد ثلاث حكومات متتالية أيام الملكية عام 1949، ثم في العهد الناصري 1954 ثم 1965 ومكث إلى ما بعد وفاة عبد الناصر – وفي العهد الساداتي عام 1981 وقد لاقى أعتى أنواع العذاب وأشدها على يد سدنه السجن الناصري، فقد عينه اليسري، وأصيب بانزلاق غضروفيخرج مقعدا. (الشاعر الإسلامي – جمال فوزي – حياته وشعره – عبد الباسط سعيد مصطفى عطايا – ماجستير – الأزهر – 1987 - 1407 - 65-111).

[4] - أحمد محمد الشامي : شاعر يمني من مواليد الضالع 1342هـ-1924م، هو ابن السيد محمد بن محمد بن أحمد الشامي عامل المدينة من قبل الإمام يحي، تعلم في الكتاب ثم في صنعاء، شارك في ثورة 1948 ودخل سجن حجة 5 سنوات بعد فشل انقلاب 1948، وانتهى به المطاف إلى اليأس واستعطاف الحاكم بمدحه والتذلل له ورجائه، عين وزيرا في مجلس اتحاد الدول العربية سنة 1958 (أحمد قبش – تاريخ الشعر العربي الحديث – 528 وعبد العزيز المقالح – الأبعاد الموضوعية لحركة الشعر المعاصر في اليمن – 78).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- حصاد سجن نافع : تحت صورة (1949)، ليلة عيد في السجن (1948)، شهداء الدستور (1948)، بسمة أسير (1948)، خمسة وعشرون عاما (1949)، بين الماضي والحاضر (نافع-1949).

- حصاد قاهرة حجة : ثورة مصر (قاهرة حجة - 1952)، مأساة شهيد (1952)، وله قصائد أخرى ضمنها ديوانه النفس الأول وكلها في التوسل للإمام : ضراعة سجين، رباعيات، من أعماق السجن، الإسلام والعفو.

أما حصاد حبس توفيق زياد[1] فثمانية قصائد توزعت بين سجني الدامون والرملة وهي:

- حصاد سجن الدامون : 14تموز (1958)، فهد (تموز 1958)، سمر في السجن (1959)، تحية (تموز 1958)، أشد من المحال (حزيران 1958)، جزيت النصر لانتفاضة 1958 (تموز،1958).

- حصاد سجن الرملة : من وراء القضبان (أيار 1958)، إليكم (أيار 1958).

وللشاعر المصري جابر الحاج[2]، خمسة قصائد في ديوانه ثورة يوليو هي : خواطر في الزنزانة، ذئاب المعتقل، ليلة من ليالي التحقيق، مع ليالي التعذيب الناصري، مناجاة وخواطر آخر يوم في التعذيب الناصري. وقصيدة واحدة في ديوانه (نور على الكون أضاء) وهي في الزنزانة ، المؤرخة في 14-09-1970.

وللشاعر كمال عبد الحليم[3]، سبعة قصائد ضمنها ديوانه"إصرار" وهي: الفجر الجديد، صراع ودموع، هذه الثورة ونحن في السجن (21 فيفري 1942)، الجبال، معسكرات ونشيد السجون.

وللشاعر الأردني مصطفى وهبي التل[4]، سبعة قصائد وردت جميعا في ديوانه عشيات وادي اليابس وهي: أهكذا حتى ولا مرحبا (منفى العقبة-1931)، توبة (العقبة-1931)، توبة عن التوبة (العقبة-15 آذار 1931)،

---

[1] - توفيق زياد (1929-1994) شاعر فلسطيني ولد في مدينة الناصرة، أنهى بها دراسته الثانوية، عمل محترفا في صفوف الحزب الشيوعي وقام بتحرير صحافته، أوفده الحزب إلى العديد من الدول الاشتراكية والغربية واختير رئيسا لبلدية مدينة الناصرة 1976، وانتخب في السنة نفسها نائبا في البرلمان عن الحزب الشيوعي عمل في الكنيست اليهودي لعدة دورات، له إلى جانب الشعر كتابات قصصية ومقالات من أعماله : – عن الأدب الشعبي الفلسطيني – نصراوي في الساحة الحمراء – كلمات مقاتلة – سجناء الحرية – حال الدنيا – مجموعة حكايات. (معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين ط2 - 2002 مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري – ونسيب - نشاوى المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر - 442).

[2] - شاعر مصري من حركة الإخوان المسلمين(محمد محمود الغرباوي – الشعر في سجون مصر – 52 - وقد وردت حبسياته كلها في ملحق الرسالة نفسها).

[3] - كمال عبد الحليم : شاعر مصري سجن لمواقفه السياسية، له ديوان :إصرار"(كمال عبد الحليم – إصرار- دار الفكر – ديسمبر – 1955- الديوان الأول من مجموعة الشعر الحديث - 1، 30، 32، 40، 42، 44، 46).

[4] - مصطفى وهبي التل : شاعر أردني (1899-1949) عانى مرارة السجن والنفي مرات بسبب مغاضبته للأمير ومعارضته للحكومة ومقاومته للمعاهدة الأردنية البريطانية، سجن عام 1923 في سجن معان العقبة وحدة ثمانية أشهر ونيفا، ثم في مطلع 1927 سجن شهورا بسبب قصيدة، ثم في 1942 سجن 40 يوما وكان يتقلب بين مناصب عالية (أمينا للأمير، كبيرا للمفتشين. بوزارة المعارف، حاكما إداريا وسجينا. (مصطفى وهبي التل – ديوان عشيات وادي اليابس – الأهلية للنشر والتوزيع – عمان – 1989- المقدمة. والزركلي – الأعلام – 246/7. وأحمد قبش – تاريخ الشعر العربي الحديث - 446)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رثاء الهبر (منفى العقبة-1931)، بر بالحسين (منفى العقبة)، مبتى (السجن الملركزي-عمان-1941) وراهب الحانة (جدة-أحد الأقبية-1923، نفثات خمر(العقبة-1931).

وللشاعر المصري محمود طاهر العربي، من بنات سجنه ستة قصائد جاءت في كتابي"هذا المجتمع الظالم سجن مصر" إلهام سيف النصر وكتابه "عندما غابت الشمس"[1].

أما الشاعر عبد الرحمان الشرقاوي[2]، فخلد أيام حبسه بين سجن القاهرة وسجن الأجانب في خمسة قصائد من ديوانه (رسالة من أب مصري) هي: أمسك زفرتك (سجن القاهرة 1946)، من وراء الأسوار (سجن القاهرة1946) ، رؤيا (القاهرة 1947)، أشواق (سجن الأجانب- القاهرة- 1946) نجوى (سجن الأجانب القاهرة 1946) وكانت له حبسيات أخرى نظمت خلال هذه السنة مثل قصيدته التي نشرت في ديوانه تمثال الحرية وقصائد منسية نظمها بسجن الأجانب 1946.

وليوسف القرضاوي[3] أربعة قصائد جاءت كلها في ديوانه "نفحات ولفحات" قدم لها بذكر التاريخ والمناسبة ومكان النظم لأنه انتقل عبر مجموعة من السجون على فترات زمنية مختلفة، وهي : مناجاة في ليلة القدر (ألقيت في معتقل الطور-27 رمضان 1363هـ 1949)، ملحمة الابتلاء كما أسماها "الملحمة النونية" قصيدة مطولة من 314 بيت (السجن الحربي-1955)، السعادة (السجن الحربي-1956)، ثورة لاجئ (سجن المخابرات- القاهرة - 1962).

وللشاعر الجزائري محمد قنانش[4]، ثلاثة قصائد من بنات سجن بربروس هي رد التحية فرض(جوابا على إحدى رسائل مفدي زكريا الشعرية المرسلة إليه مع السجان)، السجين والبق وعلى مقصلة الإعدام (بربروس - 1938).

---

[1] - محمود طاهر العربي : شاعر مصري، من نزلاء السجون الناصرية – وردت منتخبات من شعره في بعض الاعترافات والسير مثل"هذا المجتمع الظالم سجن مصر - 211 -225 وعندما غابت الشمس 490-492).

[2] - عبد الرحمن الشرقاوي : شاعر مصري حديث اشتهر بمسرحياته الشعرية وقد مثل أغلبها على خشبات القاهرة مثل الفتى مهران، مأساة جميلة بوحيرد، مأساة الحسين، الأسير، سانت كرين. (نسيب نشاوي-المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر - 396) .

[3] - يوسف القرضاوي : داعية مصري ولد عام 1926، تردد على السجون المصرية أربع مرات عام 1949 (عشرة أشهر) ثم عام 1954(شهرين ونصف) ليعود في السنة نفسها إلى السجن من 1954 إلى 1956(حوالي عشرين شهرا)، ثم عام 1962(خمسين يوما)، له مؤلفات في مجال الدعوة الإسلامية وديوان شعر (يوسف القرضاوي- ديوان نفحات ولفحات دار الوفاء - دار الصحوة - القاهرة ط3 - 1989- المقدمة - 11-31 وأحمد عبد اللطيف الجدع وحسين أدهم جرار – شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث – مؤسسة الرسالة - بيروت - 1978- 3/7وما بعدها).

[3] - محمد قنانش : شاعر وكاتب ومؤرخ جزائري شارك في حركة النضال السياسي منذ ظهورها ودخل السجن بسببها عام 1937 له مؤلفات عديدة منها:حزب الشعب الجزائري – حزب التجديد الجزائري – حزب نجم شمال إفريقيا.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وللشاعر المغربي محمد الحلوي[1] قصيدتاه في السجن و صرخة الجزائر، ولكل من الشاعرين المصريين نجيب الكيلاني[2]، وعبد الحميد الديب[3]، ثلاثة قصائد، أما الشاعر عزيز فهمي[4]، فله قصيدتان من وحي الأجانب هما: في السجن (14 يونيو 1946)، نذرت نفسي قربانا لفاديها (يونيو 1946)، وكذلك كان حصاد كل من عبد الرحمن العقون[5]، ومحمد حبيب العبيدي[6]، وسيد قطب[7]، حيث نظم الأول الأرجوزة وصف فيها معاناة السجن (سجن الكدية- قسنطينة) الحنين إلى الديار (سجن بربروس)، وللثاني الكتب

---

[1] - محمد الحلوي :شاعر مغربي ولد بفاس عام 1922، من شعراء الطليعة في المغرب الذين ألهبوا حماس الشعب وكانت له يد المستعمر بالمرصاد، إذ حكم عليه عام 1944 بالسجن سنة ونصف قضاها في المعتقلات مع الوطنيين من أبناء المغرب (تاريخ الشعر العربي الحديث – أحمد قبش – 221 والشعر الوطني المغربي في عهد الحماية – إبراهيم السولامي – 235) ومقدمة ديوان "أنغام وأصداء" للشاعر – دار السلمي للتأليف والترجمة والنشر – الدار البيضاء – ط1- 1965).

[2] - نجيب الكيلاني : طبيب وأديب مصري (1931-1995)، اعتقل عقب الحادثة المزعومة بمحاولة اغتيال عبد الناصر (1954) وتردد على : سجن قره ميدان – سجن أسيوط – السجن الحربي – سجن القناطر – وكتب فيها رواية "الطريق الطويل" ونال بها الجائزة الأولى، حصل على الإفراج الصحي، عمل بعد خروجه من السجن طبيبا، دون أن يتوقف عن الإبداع الأدبي. (حسين أدهم جرار وأحمد الجدع – أناشيد الدعوة الإسلامية – دار الوفاء ودار الضياء – الأردن -1988 – 71 وما بعدها، ومجلة الأدب الإسلامي – سنة3 – عدد 9-10خاص بنجيب الكيلاني - 1416هـ-1996/ -يحي إبراهيم – نجيب الكيلاني والترجمة الذاتية -31-36).

[3] - عبد الحميد الديب (1898-1943)شاعر مصري من أسرة فقيرة بإقليم المنوفية، انتقل إلى الأزهر ثم غادره إلى دار العلوم دون أن يكمل تعليمه في أي منهما، سجن أكثر من مرة بسبب إدمانه الخمر والمخدرات، وقد عالج معاناته وفقره في أسلوب شعري فكاهي ساخر. (د.عبد الرحمن عثمان – الشاعر عبد الحميد الديب – حياته وفنه – دار المعارف – مصر. وطاهر أبو فاشا – الذين أدركتهم حرفة الأدب – دار الشروق - ط1 - 1401هـ-1981- 121-166).

[4] - عزيز عبد السلام فهمي (1909-1952) ولد بطنطا، درس الحقوق سنة 1933 بالقاهرة ثم واصل تعليمه بباريس عام 1938، اشتغل بالمحاماة بعدها، اعتقل بتهمة العيب في الذات الملكية (في الحرب العالمية الثانية)دخل البرلمان نائبا عام 1952، ومات في حادث سيارة انقلبت به في النيل(الأعلام – الزركلي – 231/4).

[5] - عبد الرحمن العقون : (1908)ولد بواد زناتي، تعلم بها وحفظ القرآن الكريم، انضم إلى الحركة الوطنية وكتب في ذلك الشعر والمقالات، اعتقل إثر أحداث الثامن ماي 1945 ثم عاد إلى السجن في بدايات الثورة وأفرج عنه عام 1956. عمل سفيرا للجزائر بعد الاستقلال، ثم في سلك التعليم(محمد ناصر – الشعر الجزائري الحديث - 668 ويحي الشيخ صالح ، أدب السجون والمنافي – 412).

[6] - محمد حبيب العبيدي : (1882-1963) شاعر عراقي شهد الحربين العالميتين وما تلاهما، سجن عام 1919 في معسكرات الاعتقال بقصر النيل (مصر) وكتب شعرا في ذلك (حبيب العبيدي – ديوان ذكرى حبيب – مطبعة الجمهورية -الموصل - 1-10).

[7] - سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي: (1906-1966) ولد بمحافظة أسيوط، حصل على شهادة البكالوريا في الأدب عام 1933، شغل عدة وظائف في وزارة المعارف وأوفدته الوزارة إلى أمريكا سنتين إذ عاد عام 1950 واستقال من عمله بعد قيام الثورة بشهور بعد19سنة خدمة، من أوائل ضحايا الثورة إذ حكمت عليه بـ 15 عاما سجنا قضى معظمها في ليمان طرة بالمستشفى، أفرج عنه بعفو صحي عام 1964 ليعود إلى السجن سنة 1965 ويحكم عليه بالإعدام ترك سبعة وعشرين كتابا في الأدب والنقد والفكر الإسلامي. صلاح عبد الفتاح الخالدي -سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد –دار القلم – دمشق - 15 - 17.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المقدسة ويعاقبني قومي، وكلاهما من بنات معسكرات الاعتقال في قصر النيل المقامة بعيد الحرب العالمية الأولى، ولسيد قطب قصيدتاه هبل هبل وأخي أنت حر كلاهما أقرب إلى النشيد منه إلى الشعر، ومثله الشاعر محمد مهدي الجواهري[1] بقصيدتيه في السجن وظلام وهما حصاد ثلاثة أشهر حبس، أما شعراء القصيدة الواحدة فمنهم كمال ناصر[2]، بقصيدته من الأعماق التي نشرت في ديوان فدوى طوقان جوابا على قصيدتها المهداة إليه إلى السجين المغرد وعلي الحلي[3] بقصيدته 14 تموز (سجن الموقف-1958/11/19)، وعباس محمود العقاد[4]، بـ القلم المسروق، وقد سجل قصيدة إثر خروجه من السجن على ضريح سعد زغلول وفاء لعهد قطعهُ على نفسه أن يكون ضريح سعد أول ما يقف عليه في حياته الحرة الجديدة.

ونذكر من ذوي القصيدة الواحدة أو القطعة من مصر زكي مراد ومحمد الفاتح وسليم سركيس ومحمد محمد الهاشمي وعمر كيشار ومحمد شمس الدين الشناوي[5] وغيرهم. أما ذوو الحبسية الواحدة أو القطعة الشعرية الواحدة من شعراء الجزائر فنذكر منهم الشاعر مبارك جلواح[6] في قصيدة الظل المحرق[7] حسن حموتن وعبد

---

[1] - محمد مهدي الجواهري : (1900-1998) ولد في النجف من أسرة عريقة في العلم والأدب والشعر، نظم الشعر في سن مبكرة، اشتغل بالتدريس والصحافة، دخل المجلس النيابي نائبا عن كربلاء واستقال منه سريعا، أبعد عن العراق مرات، عارض في جريدته سياسة بكر صدقي قائد انقلاب 1936 فتحين له الفرص وسجنه ثلاثة أشهر، ثم زار السجن مرة أخرى عام 1952 عقب الانتفاضة (محمد مهدي جواهري – الديوان – دار العودة – بيروت ط3 - 1982، 1/المقدمة).

[2] - كمال ناصر : (1925-1973)شاعر فلسطيني وصحفي، سجن في الأردن عدة مرات وانظم في صفوف الكفاح بعد هزيمة 1967، له مجموعة من الدواوين منها "أنشودة الثأر"، "الجراح تغني"، اغتالته يد الغدر الإسرائيلي مع الرفاق، كمال عدوان ومحمد يوسف النجار، وعرفت الحادثة بمذبحة فردان. (عيسى فتوح – من أعلام الأدب العربي الحديث – دار الفاضل – دمشق - 1994 - 117-121 وأصداء النضال العربي في شعرنا المعاصر – 177).

[3] - على الحلي : شاعر عراقي حديث نشر قصيدته الأولى عام 1946، كان متأثرا بالجواهري، من دواوينه الشعرية "المشردون، و"ثورة البعث" (حسن نعيسه – شعراء من وراء القضبان –دار الحقائق – ط1 -1986 – 345 وديوان ثورة البعث – مطابع دار الأندلس - 1963 – بيروت).

[4] - عباس محمود العقاد (1889-1964) أديب وناقد ومفكر مصري، أسس مع المازني وعبد الرحمن شكري جماعة الديوان، سجنه الملك فؤاد الأول عندما صاح في إحدى جلسات البرلمان "إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس في البلاد يخون الدستور ولا يصونه" فصدر أمر بحبسه تسعة أشهر وغادر السجن في 8 جويلية 1931، كتب في شتى الموضوعات الفكرية والأدبية والدينية والاجتماعية، له ما يزيد عن الثمانين مؤلفا. (أحمد قبش – تاريخ الشعر العربي الحديث - 227. ونسيب نشاوي – مدخل لدراسة المدارس الأدبية – 217. ورجاء النقاش – عباس العقاد – بين اليمين واليسار - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ط1-1996 -61-113) .

[5] - مجموعة من الشعراء المصريين المغمورين ممن نشروا في مجلة السجون (محمد محمود الغرباوي –الشعر في سجون مصر الملحق).

[6] - عبد الله ركيبي - الشاعر جلواح من التبرد إلى الانتحار - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1986 - 393.

[7] - مجموعة من الشعراء الجزائريين منهم : – مبارك جلواح : (1908 - ولد بقلعة بني عباس قرب أقبو بولاية سطيف نشأ في بيئة محافظة وقرأ القرآن وبعض علوم العربية والدين على والده الذي كان من علماء عصره. استجاب في سن مبكرة للحركة الإصلاحية واتصل في الثلاثينيات بالشيخ عبد الحميد بن باديس. أرسل في وفد إصلاحي إلى باريس من أجل الدعوة إلى مبادئ =

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المالك البلغيثي وعمر الشكيري والمجاهد عيسى حمو النوري[1]، ومن الشعراء الليبيين الشاعر علي صدقي عبد القادر وعبد المجيد المجراب وخالد زغيبة وإبراهيم الأسطى عمر[2]، ومن شعراء المغرب الأقصى الطيب العلوى، محمد العربي الآسفي، عبد السلام أحمد الوالي، محمد الحبيب الفرقاني، عبد القادر حسن عبد الكريم الطبال وأحمد بلبداوي[3]، ومن شعراء اليمن نذكر الشاعر أحمد المروني ومحمود الزبيري، والشاعر الشهيد زيد

= جمعية العلماء. وظل يتردد على فرنسا من وقت لآخر قصد العمل.

ولما قامت الحرب العالمية الثانية أرغم على التجنيد لمحاربة ألمانيا. وكان شديد التعصب لهتلر، ولما انهزمت ألمانيا وجد ملقى بنهر السين ميتا، فدفن بباريس. (عبد الله ركيبي - الشاعر جلواح من التمرد إلى الانتحار - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1986 - 81 - 95) .

[1] - عيسى حمو النوري : (1914-1992) ولد ببلدة بنورة إحدى قرى وادي ميزاب تلقى تعليمه بالمعهد الجايدي ببني يسقن ثم العاصمة، انتمى إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، نشر في جريدة الشهاب والبصائر والثورة والأمة ثم في المجاهد والجيش بعد الاستقلال، شارك في نشاط حزب الشعب الجزائري ثم في صفوف جبهة التحرير سجن وحكم عليه بالإعدام ثم عدل الحكم إلى السجن المؤبد ثم الإقامة الجبرية، له ديوان شعري مخطوط(يحي الشيخ صالح-أدب السجون والمنافي في الجزائر في فترة الاحتلال– 415).

[2] - مجموعة من الشعراء الليبيين منهم :

- خالد زغيبة : شاعر ليبي معاصر من المحرضين على الثورة، حوكم وطرد من الجامعة واعتقل وصودر ديوانه "السور الكبير".
- علي صدقي عبد القادر ولد عام (1924) في مدينة طرابلس وتعلم فيها وحصل على دبلوم التعليم وإجازة في المحاماة، اشترك في حركة العصيان المدني الرافضة تقسيم ليبيا إلى نفوذ إيطالي – بريطاني – فرنسي، فلوحق وسجن.
- عبد المجيد المجراب (1938) شاعر ليبي معاصر هاجم في شعره الاستعمار والنظام الملكي وشارك في المواجهات التي عرفتها الساحة الليبية فاعتقل بسببها. (سالم المعوش - شعر السجون - 683).
- إبراهيم الأسطي عمر (1907-1950) شاعر ليبي عصامي، قاوم الاحتلال الإيطالي ووقع في قبضته، فسجن، وبعد الإفراج عنه عاد إلى نضاله من جديد، كما قاوم الإنجليز من بعدهم فنفوه ووضع تحت الإقامة الجبرية والحراسة المشددة إلى أن وافته المنية. (سالم المعوش - شعر السجون - 677) ومحمد الصادق عفيفي – الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع - بيروت - القاهرة بغداد - ط1 - 1969 - 425 -434 . (سالم المعوش –شعر السجون في الأدب العربي الحديث والمعاصر – 671، 676).

[3] - مجموعة من الشعراء المغاربة :

- الطيب العلوي : (1900-1964) شاعر مغربي، امتهن النضال في سبيل الوطن قرابة ربع قرن وسجن في سبيل ذلك النضال وبسبب أفكاره مرات عديدة منذ 1925 إلى 1952 (إبراهيم السولامي - الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية 1912-1956-دار الثقافة – الدار البيضاء – مطبعة النجاح – د.ت ودور الأدب في الوعي القومي – مجموعة مؤلفين – مركز دراسات الوحدة العربية – محاصرة هلال ناجي – 195)
- محمد العربي الآسفي : شاعر مغربي سجن بالقنيطرة وكتب من سجنه قصيدة صرخة ثائر (إبراهيم السولامي – الشعر الوطني المغربي – 294).
- محمد الحبيب الفرقاني : (1922) أعطى النضال جل وقته، وعكس شعره مواقفه ونضاله، قضى معظم سني عمره في سجون الاستعمار ومرحلة الاستقلال الشكلي (من 1955-51 ثم 1963، 1967، 1969) حكم عليه بعشر سنوات سجنا. واصل نشاطه السياسي بعد خروجه فكان مفتشا لحزب الاستقلال بمراكش نجح في الانتخابات البرلمانية عام 1993. ويذهب حامد النساج إلى أن أغلب قصائد ديوانه "نجوم في يدي" كتب في السجن. (سيد حامد النساج- أدب التحدي السياسي في المغرب =

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الموشكي، وأحمد المعلمي وإبراهيم الحضراني وعبد الله الشماحي[1]، إلى جانب مجموعة من الشعراء كتبوا كلهم إثر سقوط النظام الملكي المصري قصائد يحيون فيها الثورة وقائدها الأول محمد نجيب[2]، وهم: محمد صبره بقصيدة مصرع الطغيان، أحمد الشامي ثورة مصر، محمد الفسيل سقوط فاروق، أحمد عبد الرحمن المعلمي الملك الطريد، أحمد المروني مهرجان الحرية ، زيد بن علي الوزير صوت الحرية، قاسم بن علي الوزير نشيد الانقلاب المصري، إبراهيم بن علي الوزير آية التمجيد، محمد بن علي الوزير سقوط فاروق، أحمد بن محمد بن

= العربي دار الرأي – بيروت – 121. وكتابة : الأدب العربي المعاصر في المغرب الأقصى – دار سعاد الصباح ط2 - 1992 - 154-183).

- عبد الكريم الطبال : (1931) شاعر مغربي معاصر اشتغل بالتعليم الثانوي، وشارك في الأحداث المغربية من الخمسينيات إلى أواسط السبعينيات، فلوحق واضطهد واعتقل (سالم المعوش – شعر السجون - 676)

- أحمد بلبداوي : شاعر مغربي معاصر من شعراء الطليعة، وقف شعره على وصف المفاسد السياسية والاجتماعية فاضطهد واعتقل، وصف في شعره فصول المحاكمات الجائرة (سالم المعوش – شعر السجون في الأدب العربي الحديث والمعاصر - 661)

- عبد السلام أحمد الوالي : سجن إثر اضطرابات أكتوبر 1937 بعد اعتقاله قادة الحركة الوطنية خلد حادثة استشهاد رفيقه الشاعر الثائر"محمد القري"تحت وطأة التعذيب (دور الأدب في الوعي القومي – 199)

- محمد بن إبراهيم : (شاعر الحمراء) شاعر مغربي سجن عام 1937 وسجل في سجنه قصيدتان. (محمد السعيد ين الرجراجي – شاعر الحمراء بين الواقع والادعاء – مطبعة المحمدي – إشهار آسفى – المغرب 1/ط1 - 1419-1998- 1/86-89).

[1] - مجموعة من الشعراء اليمنيين منهم :

- محمد محمود الزبيري : (1919-1965) من الشعراء الثائرين المجاهدين بالرفض، سجن عام 1941 في الأهنوم واستشفع الإمام يحي فأطلق سراحه، عاد إلى السجن عام 1948 بعد فشل الانقلاب، وفر منه إلى الباكستان، ليعود عقب ثورة 1962 ويحتل مناصب سياسية مرموقة (وزير التربية والتعليم – نائب رئيس الوزراء لشؤون الأوقاف، اغتيل عام 1965. (الزركلي – الاعلام - 91/7 وعبد الستار الحلوجي – الزبيري شاعر اليمن – مطبعة الكيلاني 1968. وعز الدين إسماعيل الشعر المعاصر في اليمن - 33. و مقدمة الديوان).

- أحمد المعلمي : ولد 1919 في بيت علم وأدب وفقه، هاجر إلى صنعاء واختلط بأدبها وعلمائها، كان في طليعة الأحرار الذين سيقوا إلى سجن حجة إثر فشل الانقلاب. (البردوني - رحلة في الشعر اليمني - 91. وأحمد محمد الشامي الأدب اليمني - 146).

- زيد الموشكي : (1895-1948) اشتهر بالنباهة والذكاء واختلط بأبناء الإمام وصار أستاذا للصغار منهم، وهناك تكشفت له عيوب القصر فراح ينصح الإمام في شجاعة نادرة، فأضمرها في نفسه إلى فشل حركة 1941، اعتقل مع الرفاق واستعطفوا الإمام فأطلق سراحهم وشارك من جديد في الإعداد لانقلاب 1948، الذي فشل بدوره وانتهي بسجن الموشكي وإعدامه العاجل. (البردوني - الثقافة والثورة في اليمن - المنظمة العربية - جامعة الدول العربية - 1972 - 32. والزركلي - الأعلام - 60/3. وعبد العزيز المقالح وآخرون - زيد الموشكي شاعرا وشهيدا - مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء - دار الآداب - بيروت - سلسلة أعلام الحرية في اليمن - 2).

- إبراهيم الحضراني : ولد في حضران، عام 1918 ، شارك في انقلاب 1948 وسجن لثلاثة أعوام. (أحمد قبش تاريخ الشعر العربي الحديث - 526 والبردوني - رحلة في الشعر اليمني - 72).

[2] - الثورة المصرية في الأدب اليمني – قصائد لمجموعة من شعراء اليمن في سجون حجة – جمع وتقديم أحمد بن عبد الرحمن المعلمي – منشورات العصر الحديث – لبنان – ط1 -1987.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عبد الله الوزير بطولة الإخلاص، عبد الصمد الوزير تحية لنجيب أو يا شرق صفق، أحمد بن محمد بن علي الوزير الطواغيت المحطمة، محمد عقيل الأرياني فاروق الملك الطريد، علي الغفري سقوط فاروق ، ومحمد بن عبد الله الوزير فجر الحرية.

كما جاء في مجلة "السجون" المصرية قصائد كثيرة اخترت منها حوالي ستة عشر قصيدة كلها في مجاملة النظام الناصري ومدح جمال عبد الناصر خاصة[1]، وهي لشعراء مغمورين (محمد الفاتح- نصر حبيب سالم - عبد الوهاب الشعراني- حسين محمود عوض- أحمد فتحي مصطفى- محمد إبراهيم الشرقاوي- محمد عبد العزيز خضر- محمد يوسف صقر -محمد علي الذيب- أحمد عبد العال الزقم- فوزي جبر يوسف).

- الذين لم يؤرخوا لحبسيـــاتهم :

هذا عن الشعراء الذين عاشوا تجربة السجن ووثقوا لأنفسهم أو وثق دارسوهم لحبسياتهم وهي- كما يبدو- غزيرة تتجاوز الثلاثمائة قصيدة لأزيد من تسعين شاعرا، أما أولئك الذين مروا بتجربة السجن وأغفلوا التأريخ لقصائدهم أو أغفلوا ذكر أماكن نظمها فقد اعتمدت على سيرهم وما كتب حولهم من دراسات، لتحديد الفترات الزمنية التي قضوها في المحابس والسجون والمعتقلات، ومنها الاجتهاد في تحديد القصائد المحتمل أن تكون من بنات الحبس بالنظر إلى تاريخها أو تاريخ صدور الدواوين والمجموعات الشعرية إلى جانب الدراسات الأدبية، ولذلك فعدد هذه النصوص تقريبي .

يأتي في مقدمة هؤلاء الشعراء عبد الوهـــاب البيـــاتي[2]، الـــذي ذاق مـــرارة الســـجن في المعـــتقلات السعيدية عشية دخول العراق في حلف بغداد[3]، ليعود إليه عام 1950 إلى 1953، زمن حكومة نوري سعيد ثم عام 1954، وتنتسب مجموعته الشعرية الأولى"أباريق مهشمة" إلى هذه التجربة، كما ينتمي إلى حصادها

---

[1] - محمد محمود الغرباوي – الشعر في سجون مصر – 651 - 653 - 656 - 674 - 674 - 678 - 681 - 746 - 750 - 752 - 777 - 778 - 831 - 856 - 872 - 869.

[2] - عبد الوهاب أحمد جمعه خليل البياتي : (19 ديسمبر 1926-03 أوت 1999)شاعر عراقي من شعراء الطليعة المعاصرين، اعتقل أربع سنوات من 1950 إلى 1953 زمن حكومة نوري السعيد، ثم سجن مرة أخرى عام 1954. عشية دخـــول العـــراق إلى حلف بغداد غادر العراق إلى سوريا ثم بيروت ثم القاهرة ثم عاد إثر ثورة 1958 ونفي بسبب مواقفه الوطنية وسحبت منه عـــام 1963 الجنسية العراقية وجواز السفر و لم تردا إليه إلا عام 1968 ولكنه لم يلزم العراق و قضى بقية عمره متنقلا بـــين بلـــدان العالم إلى أن وافته المنية (عبد الوهاب البياتي في بيت الشعر – أعمال أربعينية البياتي بالتعاون مع إتحاد الكتاب التونسيين – الشركة التونسية للنشر – أعمال بيت الشعر4-1999 -13-33) .

[3] - تم بين العراق وتركيا في 24 فيفري 1955، ويرمي للتعاون العسكري والسياسي بين البلدين انضمت إليه الولايات المتحدة الأمريكية أواخر عام 1955 ثم بريطانيا وإيران وباكستان وكان القصد من ورائه التصدي للمد الروسي (الشيوعي) ومن جملة ما نصت عليه الاتفاقية المبرمة بين بريطانيا والعراق التعاون الإلزامي بين البلدين وبخاصة في المجال العسكري وأعطى لبريطانيا حق استعمال كل الأراضي العراقية، وهو ما دفع بالوطنين إلى الانتفاضة والمطالبة بفسخ هذا الحلف غير المتكافئ) انسحبت منه العراق في 21 أوت 1959 (ليلى جباري – الالتزام في الشعر العربي الحديث في العراق منذ نكبة فلسطين حتى نهاية الستينات – جامعة دمشق كلية الآداب – قسم اللغة العربية وآدابها -1986 -1987- ماجستر - 65-68) .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جزء من مجموعته الثانية "المجد للأطفال والزيتون" التي أرخ فيها لأغلب القصائد، لذلك وجدتني أتوقف فيها عند سنة 1955 كونها آخر سنوات سجنه ليبلغ حصاده ما يقارب الخمسين قصيدة .

أما الشاعر الفلسطيني محمود درويش الذي دخل السجن خمس مرات على التوالي : 1961-1965-1967 ومرتين عام - 1969، ونظم أغلب قصائد ديوانه (أوراق الزيتون الصادر عام 1964 وعاشق من فلسطين الصادر عام 1966 وآخر الليل الصادر عام 1967 والعصافير تموت في الخليل الصادر عام 1970 بين جدران سجون المحتل، فقد أحصيت له ما يقارب خمسا وثلاثين قصيدة عبر هذه الفترات الحبسية المتقاربة[1].

ومثله الشاعر العراقي بدر شاكر السياب[2]، الذي زار السجن أربع مرات ونظم بعض قصائد ديوانه "أعاصير مغرب"و"أساطير" في السجن، وبعض القصائد الأخرى الموزعة عبر جزئي الديوان إذ لم يعتمد في نشره على التسلسل الزمني، ومن أقرب القصائد إلى محنة الحبس : المخبر، يوم الطغاة الأخير، إلى جميلة بوحيرد، رسالة من مقبرة، إلى المجاهدين الجزائريين.

وللشاعر العراقي بلند الحيدري[3] صاحب السبعة أشهر من السجن والذي لم يؤرخ لقصائده هو الآخر

---

[1] - محمود درويش : (1941-) شاعر فلسطيني معاصر انضم في أوائل حياته إلى جماعة "الأرض"ثم انتمى إلى التيار اليساري، وشارك في الكفاح الوطني الفلسطيني، تردد على السجون الإسرائيلية ولم يتجاوز العشرين (سجن الجملة قرب مدينة الناصرة سنة 1961، ثم سجن الرملة عام 1965 وسجن القدس بين عامي 65 و 1967 - وسجن الدامون عام 67 وعاد للمرة الخامسة للسجن عام 1969) ، وبعد خروجه من السجن فرضت عليه الإقامة الجبرية في حيفا، ولكنه فضل في الأخير الحرية فاتخذ من بلاد العالم مقاما متنقلا لأنه يحمل الوطن في قلبه . (غسان كنفاني – الآثار الكاملة – الدراسات الأدبية- المجلد 4 - مؤسسة غسان كنفاني للثقافة ط1 - ديسمبر 1977 - 321/4 . وياسين أحمد فاغور – الثورة في شعر محمود درويش – دار المعارف للطباعة والنشر –تونس -1989 – 69-70. والزركلي -الأعلام- 1/ 126).

[2] - بدر شاكر السياب : (1926 - 1964) شاعر عراقي ولد في قرية جيكور وأكمل تعليمه الثانوي بالبصرة والعالي ببغداد. من رواد الشعر الحديث تبنّى الفكر الشيوعي في إحدى مراحل حياته ثم تحول عنه إلى القومية. سجن عام 1946 في بغداد ثم بعقوبة، واقتيد إثر وثبة 1948 إلى سجن البصرة فإلى سجن بغداد، ثم سجن في خريف 1955 أسبوعا وغرم، وسجن بضعة أيام عام 1958. قضى آخر أيامه في صراع مع المرض والفقر.(ديوان بدر شاكر السياب - دار العودة - بيروت 1971/1. ج1/ المقدمة ناجي علوش).

[3] - بلند الحيدري : (1926-1996) ولد في مدينة السليمانية(بكردستان العراق)من أسرة كردية برجوازية، كان والده عسكريا ولكنه انسلخ عن طبقته فسمي"بالابن الضال"، انضم إلى جماعة "الوقت الضائع" وقيل هو مؤسسها، ينسبون أنفسهم إلى بعض الوجودية والماركسية، وهم نفر من الشباب القلق الحائر، كانوا يتناقشون ويسكرون في مقهى ببغداد ابتدعوه وأطلقوا عليه اسم"واق الواق" وفيه كانوا يرسون أسسا للحداثة في الرسم والنقد والقصة والشعر. دخل السجن هو وزوجته عام 1963 حوالي سبعة أشهر، بسبب موقفه من الانقلابين الذين استشهد على أيديهم"جمال الحيدري"، عرف المنفى وعاش في بيروت بعض سني حياته، ثم في لندن منذ 1980 أو 1982 وبقي فيها إلى وفاته (عايدة كنعان – بلند الحيدري – دار سعاد الصباح ط1 1998- الكويت – 14- 17 . ومحمد راضي جعفر- الاغتراب في الشعر العراقي – منشورات اتحاد الكتاب العرب - 1999-65-66).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حوالي واحد وعشرين قصيدة صدرت في ديوانه "خطوات في الغربة" عام 1965، أما الشاعر العراقي مظفر النواب[1]، الممنوع في جل البلاد العربية لأهاجية اللاذغة، فله ما يقارب خمسًا وعشرين قصيدة موزعة عبر أعماله الكاملة، لأنه لم يؤرخ لها و لم يراع في نشرها تسلسلها الزمني.

كما أحصيت للشاعر الفلسطيني معين بسيسو[2] حوالي أربعا وستين قصيدة حصاد ستة أعوام في السجون المصرية توزعت على دواوينه "حينما تمطر الأحجار" الصادر عام 1956، و"مارد من السنابل" الصادر عام 1958، و"فلسطين في القلب" الصادر عام 1963، و"الأشجار تموت واقفة" الصادر عام 1965.

وكذلك أغفل الشاعر الفلسطيني سميح القاسم[3]، التوثيق لحبسياته وقد زج به في معتقلات الاحتلال عام لتفرض عليه الإقامة الجبرية في حيفا، مما اضطرني لاعتماد الديوانين الصادرين بعد تجربة السجن وهما "أغاني الدروب" الصادر عام 1964 و"دمي على كفي" الصادر عام 1967.

و لم يؤرخ الدكتور أحمد عروة[4]، لقصائد ديوانه"ذكرى وبشرى" التي تنتمي أغلبها إلى حصاد السجن،

---

[1] - مظفر النواب : (1934 -) شاعر عراقي معاصر، ولد في بغداد من أسرة ثرية عين مدرسا بعد تخرجه من الجامعة وما لبث أن فصل بسبب انتمائه إلى الحزب الشيوعي العراقي وظل عاطلا عن العمل إلى ثورة 1958 حيث عين مفتشا واضطر أمام احتدام الصراع بين القوميين والشيوعيين إلى الهروب إلى إيران عام 1963 ولكنه وقع في يد جهاز الأمن الإيراني "السافاك" وأخضع لتعذيب وحشي، ثم سلم إلى السلطات العراقية التي حكمت عليه للإعدام ثم خفق الحكم إلى المؤبد، تنقل بين سجن نقرة السلمان والحلة واستطاع الفرار مع مجموعة من ذوي الأحكام المؤبدة بحفر خندق وظل متخفيا إلى عام 1968 حيث صدر عفو عن الهاربين وعاد إلى وظيفته مدرسا، ثم أعيد إلى السجن إثر حملة الاعتقالات التي لحقت بالشيوعيين، و لم يطل مكثه. غادر العراق بعد الإفراج عنه وأخذ يتنقل في البلاد العربية واستقر به المقام في سوريا بعدما منع من دخول أغلب بلاد الوطن العربي. (باقر ياسين - مظفر النواب حياته وشعره - دمشق - 1988 - 15 - 29).

[2] - معين بسيسو : (1926-1984) شاعر فلسطيني ولد في مدينة غزة وتلقى فيها تعليمه الابتدائي والثانوي. التحق بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عام 1952 وانخرط مبكرا في العمل الوطني وعمل في الصحافة والتدريس، سجن في المعتقلات المصرية بين فترتين (من 1955 إلى 1957 ومن 195 إلى 1963). حاز على جائزة اللوتس العالمية ووسام درع الثورة الفلسطيني، كان عضوا بالمجلس الوطني الفلسطيني. أصيب بنوبة قلبية حادة أثناء أدائه واجبه الوطني ولفظ أنفاسه إثرها في لندن يوم 1984/01/23. أرخ لكثير من صفحات حياته في كتابه دفاتر فلسطينية. (الموقع الالكتروني :

- http : // spartacu. Com / nather. Htm.
- " " " " / gallery. Htm.

[3] - سميح القاسم : (1939) شاعر فلسطيني معاصر، عمل في التعليم، ثم فصل منه بسبب شعره الثوري وانضمامه إلى المقاومة، انتمى إلى التيار اليساري ، سجن أكثر من مرة منها عام 1961 وعام 1967 فرضت عليه الإقامة الجبرية وعدم مغادرة البيت بعد السادسة مساء إلا أن الشاعر الحر لم يطق هذه القيود واختار التنقل في البلاد العربية والغربية . (أحمد قبش- تاريخ الشعر العربي الحديث - 674. و غسان كتفاني – الآثار الكاملة – 4/ 345).

[4] - أحمد عروة : (1926-1992) ولد ببلدة مدوكال بباتنة في بيئة دينية كان أبوه إماما، تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بالجزائر، ثم فرنسا حيث تخرج منها طبيبا اعتقل في فترة الثورة المسلحة في معتقل بوسوي وهناك كتب مجموعات شعرية عديدة بالفرنسية نحو : au delà des barrières وواحدة بالعربية عبر فيها عن مآسي الشعب الجزائري هي ذكرى وبشرى. تقلد عمل غداة =

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما أكد ذلك الشيخ أحمد سحنون، وقد كان رفيقا له في سجنه[1].

وقد أحصيت للشاعر اليمني البردوني[2]، أربعة قصائد لم يؤرخ لها أو يذكر مكان نظمها وهي : "أنا الغريب، ليالي السجن ، عتاب ووعيد، وعيد الجلوس . وللشاعرين العراقيين المعاصرين نزيلي السجون الصدامية جواد جميل[3] ومصطفى المهاجر[4]، للأول : القصائد المجنحة، رسالة إلى الجلاد، لون الشمس، لشاعر ما، لا توافق، اقرأ، أماه أماه، لماذا لا ينتحر، أنا ونخلة، هكذا تكلمت، في لحظة أخرى، أما الثاني فذكر لي في لقاء معه قصيدة أعلن انتمائي للنخل والفقراء. وانتهيت إلى ثلاثة قصائد من حصاد سجن الشاعر الفلسطيني حنا أبو حنا[5]، طفل من شعبي، يا إخوتي، شعب أنا. وأحصيت للشاعر المتمرد حسين مردان[6]، الذي خرج عن دائرة النضال السياسي إلى دائرة التحرر الاجتماعي في شعره السلسلة 1956، صباح 1955، فجر الموت، النهاية، الغبار، الحديد. وقصيدتان لكل من الشاعر حسين محمود عوض، والشاعر الأردني علي الشريقي[7]،

= الاستقلال، مديرا للثقافة بالوزارة، وعميدا لجامعة الأمير عبد القادر، له عدة مؤلفات فكرية إسلامية منها الإسلام في مفترق الطرق – الإسلام والعلم- العلم والدين. (يحي الشيخ صالح – أدب السجون والمنافي - 414. وديوان ذكرى وبشرى - مقدمة الشيخ أحمد سحنون).

[1] - أحمد عروة : ديوان ذكرى وبشرى – المقدمة.

[2] - عبد الله البردوني : ولد عام 1925 في البردون باليمن، أفقده الجدري البصر في السابعة من عمره، تلقى تعليمه في ذمار وصنعاء، درس الأدب في دار العلوم بصنعاء، عمل مديرا ببرامج الإذاعة، سجن في سجن الرادع بصنعاء (مقدمة الديوان – المجلد الأول – بيروت - 1979).

[3] - جواد جميل : شاعر عراقي معاصر، عاش تجربة السجون الصدامية يقيم حاليا بدمشق (سوريا).

[4] - مصطفى المهاجر : شاعر عراقي معاصر، ذاق مرارة السجن زمن صدام حسين ، هاجر إلى سوريا وأشرف على الصفحة الثقافية في جريدة الموقف. (لقاء خاص مع الشاعر - مارس 2002) .

[5] - حنا أبوحنا : (1928) ولد في قرية الرينة قرب الناصرة ودرس في الكلية العربية في القدس، عمل في التعليم والصحافة، له بحوث أدبية ونقدية، ويعد في الرعيل الطبيعي الأول الذي تتلمذ عليه وعلى شعره معظم شعراء المقاومة العربية في فلسطين المحتلة . له ديوان تلك الجراح(غسان كتفاني – الآثار الكاملة – 315/4).

[6] - حسين مردان : من طلائع الشعراء الذين أثاروا فكرة التجديد في الشعر العراقي الحديث، ومن أكثر الشعراء جرأة وتقحما، ومن أوائل الشعراء الذين دعوا إلى تهديم أسوار التقليد ليس في الشعر فقط بل في مناحي حياته، وكان أن جلب له تحرره المشكلات واللعنات والشتائم والشهرة وأودعه السجن سنة1949 بعد صدور ديوانه"قصائد عارية" فمكث فيه شهرا بعد محاكمة طويلة تتبعها الناس بشغف وارتفعت الأصوات المنادية بإعدامه في ساحة الميدان وإحراق ديوانه علنا، وعاد إلى السجن مرة ثانية عام 1952 بعد صدور ديوانه"عزيزتي فلانة"المتضمن أشعارا جنسية مماثلة لسابقتها، وظل يرسف في الأغلال سنة كاملة، ليكون أول شاعر عراقي يسجن لقصائده الجنسية الجريئة (جلال الخياط – الشعر العراقي الحديث – مرحلة و تطور – دار الرائد العربي - بيروت – لبنان - ط2 -1987- 138-151. والموقع الإلكتروني الخاص بالشاعر : files - مردان حسين - gehat-com).

[7] - علي الشريقي : شاعر أردني، سجن في زمن الحكم التركي ثلاث مرات توفي عام 1970 (سالم المعوش – شعر السجون في الأدب العربي الحديث والمعاصر – 459)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والشاعر الكويتي دخيل خليفة[1]، وقصيدة للشاعرين السعوديين محمد سرور الصبان[2] وأنور عشقي[3] وللشاعر العراقي خيري الهنداوي[4].

هذا إلى جانب مجموعة أنصار اللبنانية[5] التي لم تكشف عن أسمائها الحقيقية وهي عبارة عن أناشيد وقطع وقطع شعرية أوردها حسين سعدون في كتابه "أدب المعتقل" مع رسائلهم وخواطرهم. وإن جاءت تجارب الشعراء مختلفة من بلد لآخر ومن سجن إلى آخر وبدت النصوص الشعرية غزيرة فإن نقاط تقاطع كثيرة تجمعها، ذلك أنها جميعا وليدة الجدران العالية والقضبان الرهيبة. والظلمات المبهمة.

---

[1] - ذخيل خليفة : شاعر كويتي معاصر – ولد عام 1964(سالم م المعوش – المرجع نفسه - 193)

[2] - محمد سرور الصبان : (1899-1972) شاعر سعودي، اعتقل 1929 بتهمة الميل إلى الأشرار، وبقي في سجنه ما يقارب السنة، عين أمينا لرابطة العلم الإسلامي في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز (الزركلي – الأعلام – 136/2).

[3] - أنور عشقي : (1264هـ-1336هـ)من أدباء المدينة المنورة ثار مع بعض رفاقه على الولي التركي على بطشه وظلمه لسكان المدينة فزج به سجن القلعة بالطائف سنة 1327هـ (إبراهيم الفوزان الأدب الحجازي الحديث بين التقليد والتجديد – مطبعة المدني – القاهرة -1981-1/190).

[4] - خيري الهنداوي (1885-1957) شاعر عراقي من أم تركية، نشأ في بغداد وكان له نضال طويل ضد العثمانيين الذين سجنوه أكثر من مرة. وناضل بعدهم في صفوف الثورة العراقية ونفي مع زعماء الحلة إلى جزيرة هنجام من جزر الخليج العربي. (الزركلي – الأعلام 328/2 وأحمد قبش تاريخ الشعر العربي الحديث -130. ويوسف عز الدين –خيري الهنداوي حياته وشعره – مطبعة البيان العربي - 1964. وللؤلف نفسه مقالات في الأدب العربي الحديث – الهيئة المصرية العامة 1393هـ-1973-165-173.

[5] - حسين سعدون – أنصار 33- أدب المعتقل مؤسسة الرؤية للطباعة والنشر- بيروت 1984.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

X Z

* البـاب الثـانـي *

الموضوعات ا لسياسيـة في شعر الحبسيات

- الفصل الأول : القضـايا الوطنية والسياسية.
- الفصل الثاني : صورة السلطان في الحبسيـات.
- الفصل الثالث : بين الشاعر السجين والسلطان.

E Θ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

X Z

* الفصل الأول *

القضايا الوطنية

- الحرية وحب الوطن.
- تواصل الشاعر السجين مع الشعب.
- تجاوزه إلى القضايا العربية الإسلامية.
- انفتاحه على القضايا الإنسانية.

E Θ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- **قضية الحرية وحب الوطن :**

عرف العالم العربي منذ مطلع القرن العشرين حركة دؤوبا وغليانا جماهيريا شاملا كانت بدايته مع نهاية الحرب العالمية الأولى، ذالك أن جل الأقطار العربية كانت إلى النصف الأول من القرن العشرين تحت وطأة الاستبداد الذي كان أول الأمر عثمانيا، وما كادت تتخلص منه حتى وجدت نفسها مرة أخرى في يد استبداد أشد منه وأنكى، ألا وهو الاستعمار الغربي في صوره المختلفة بين الحماية في بعضها والانتداب في بعضها الآخر والحكم المباشر المستبد في آخر.

وقد رافق الوجود الأجنبي منذ البدء محاولات عديدة للتخلص منه ونضالات كثيرة سياسية حينا وعسكرية حينا آخر، سواء في ذالك الوجود العثماني أو الاستعمار الغربي وعملاؤه من الحكام العرب الذين لم يكونوا في الغالب إلا حكاما شكليين تابعين له، مؤتمرين بأوامره، و لم يكونوا إلا أيادي لتنفيذ قراراته ومخططاته التي لا تخدم إلا مصلحة المستعمر، وإن خفف عامل الدين المشترك وفكرة الخلافة الإسلامية من حدة المواجهة بين العرب والأتراك فإن الوطن العربي لم يعدم محاولات لرفض ممارسات بعض الولاة الأتراك المستبدين.

إلا أن المواجهة والرفض الحقيقي كانا للمستعمر، فلم يخل وطن عربي من مواقع شهيرة في مقاومة الاحتلال، وبخروجه توجه كثير من الوطنيين الأحرار إلى نضال آخر جديد، هو النضال الداخلي ومواجهة بعض الأنظمة العربية المستبدة، يأتي في مقدمتها جميعا النظام الإمامي في اليمن الذي استغل سلطان الدين في قمع الشعب ولاقى على يده أحرار اليمن بطشا وتنكيلا، والنظام الناصري في مصر والحكومات العراقية المتعاقبة.

ويأتي في طليعته حملة ألوية هذه الثورات والانتفاضات وفي مقدمة المنظرين لها والمنظمين المثقفون ، وعلى رأس هؤلاء المثقفين الشعراء، فقد انتظم جل الشعراء موضوع الدراسة في الحركات والأحزاب النضالية المعاصرة لهم وتولوا فيها مراكز قيادية حساسة، وتحملوا في سبيل أوطانهم الاضطهاد والقمع والسجن والنفي والإقامة الجبرية، وما لا يمكن وصفه من العذاب وقدم بعضهم أرواحهم قربانا للأوطان أمثال الشهيد زيد الموشكي ومحمد صالح المسمري وسيد قطب.

وإن المتأمل لسير شعراء الحبسيات وحصاد حبسهم ينتهي إلى ملاحظة نقطة التقاء أساسية تجمع بينهم، وهي أنهم جميعا ذاقوا مرارة السجن والعذاب لأسباب سياسية وطنية تتمثل في رفضهم لأسباب الأنظمة القائمة استعمارية كانت أو عربية سواء بمقال أو قصيدة يحضون فيها الشعوب على النهوض واليقظة، أو جريدة أسسوها لتنوير الناس، ومساهماتهم الفعالة في ساحات النضال السياسي المعاصرة لهم، وتأيدهم للحركات التحررية والثورات الهادفة إلى التحرر من كل صور الاستبداد والتخلف والفقر، ومنهم من انخرط في صفوف النضال العسكري كما هي حال الشاعر اللبناني بدوي الجبل الذي شارك في معركة المصير الشهيرة "ميسلون" والشاعر والمجاهد الجزائري عيسى حمو النوري الذي قبض عليه عقب إحدى المعارك، ولا نكاد نستثني منهم إلا شاعرين يقفان نشازا بين هؤلاء المناضلين الوطنين، هما الشاعر المصري عبد الحميد الذيب الذي تردد على

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السجون المصرية بسبب إدمانه على الكحول والكوكايين، والشاعر العراقي حسين مردان بسبب شعره الماجن المتهتك في مجموعتيه "قصائد عارية" و"عزيزتي فلانة" وإن كانت وراءها أسباب أخرى خفية.

حمل هؤلاء الشعراء على عاتقهم مسؤولية بعث الوعي في أوساط الشعوب العربية المغيبة في متاهات الفقر والجهل والحرمان من جهة، وحملوا من جهة أخرى ألوية النضال السياسي، فلم تجد آلات الاستبداد من سبيل للخلاص منهم إلا أن تزج بهم في غياهب السجون ظنا منها أنها تبعدهم بذالك عن الشعوب، ولكنهم لم يسكتوا هنالك و لم يستسلموا لأجهزة القمع المختلفة، وواصلو نضالهم من داخل الزنازين المحكمة الأقفال، ومن خلف الأسوار الشامخة، مهربين فكرهم الحر الذي كان له فعل السحر، ويكفي أن نذكر مفعول قصائد مفدى زكرياء التي كان يرسلها من قعر زنزانات العذاب، فتتحول بأمر قيادات حزب جبهة التحرير الوطني إلى أناشيد تتلى في مناسبات معينة، مثل نشيد الشهيد الذي صار السجناء يرددونه في خشوع ويدوون به أركان السجن كلما اعتلى أحدهم الجلجلة [1] ، ومثل نشيد "في الطريق إلى الزنزانة"[2] لمعين بسيسو الذي نظمه وهو مقيد في طريقه إلى أحد السجون المصرية، وصار فيما بعد قسما يردده المساجين الفلسطينيون في سجون الأرض المحتلة[3].

ذلك أن "الشعر هو فن المقاومة في لحظة حضور... دائما في خط النار، بل خط القتال الأول من الجبهة"[4]، وهو من أكثر الأنواع الأدبية قدرة على التجاوب مع الأحداث والتفاعل معها وعلى"امتصاص رحيق الكارثة ومقاومتها في حينها"[5] والتحول بها إلى عمل إيجابي فعال.

واكب الشعر العربي الحديث تاريخيا حركة ثورية شاملة في الفكر والسياسة والأدب والاجتماع والواقع، وحلت "محل ارستقراطية الشعر وتغنيه بالإمارة والبطولة والأمجاد الفردية بديمقراطية الشعر وتشخيصه للهموم والأوجاع البشرية العامة"[6]، وأعلن عن التزامه الصريح بالواقع وقضايا الشعب ونضاله، لما يتمتع به من قدرة على الانتشار والذيوع بفضل بنائه الموسيقى واعتماده على الانفعال، فقد قيل إن شعر الحرب وشعر الحب يأتيان في صدارة الشعر الجوال السيار[7] لتشبع كل منهما بالحرارة العاطفية التي تسهل انتشارهما، ومثلهما شعر النضال الذي حمل ألويته شعراء الحبسيات وألهبوا به مشاعر المواطن العربي.

ولعل قضية لم تشغل الشاعر العربي كما شغلته فكرة الحرية، فكان لها بريقها وسحرها في فكره وفنه،

---

[1] - مفدي زكريا - اللهب المقدس- 84.

[2] - معين بسيسو - الأعمال الشعرية الكاملة - دار العودة - بيروت - ط2- 1981- 305.

[3] - بسام علي أبو بشير - معين بسيسو حياته وشعره - ماجستير- جامعة الجزائر - معهد اللغة والأدب العربي -1991-1992- 36.

[4] - غالي شكري - أدب المقاومة - دار الآفاق الجديدة - ط2- 1979 - 351.

[5] - المرجع نفسه - 317.

[6] -ميخائيل إمطانيوس - دراسة في الشعر العربي الحديث - المكتبة العصرية - بيروت - ط1- 1986- 10.

[7] - صالح سميع المسمري - أزمة الحرية السياسية في الوطن العربي - الزهراء للإعلام العربي - ط1- 1409- 1988- 15 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لارتباطها الوثيق بحياة كل إنسان وتأثيرها المباشر على حياته وسعادته الشخصية، فلم تعد الحرية حقا يجب أن يعطى وإنما صارت -كما يرى مالك حداد- واجبا[1] على الأديب أن يبذل كل ما في وسعه من أجل الظفر بها، إنها"الشيء الوحيد الذي ليس لنا الحرية في التخلي عنه"[2]، وبمقدار ما يملك المرء من حرية يملك من الحياة، يقول عبد الحميد بن باديس: "حق الإنسان في الحرية كحقه في الحياة، فمقدار ما عنده من حياة هو مقدار ما عنده من حرية"[3].ويشهد التاريخ البشري أن كفاح الأقوام لم يكن إلا من أجل الحرية، وأن"تاريخ الإنسان كله هو تاريخ الحرية...فليست الحرية إلا مرادفة للإنسانية"[4] ، لا حياة للمجتمعات دون حرية الأفراد، ولا حياة لهؤلاء الأفراد دون حرية الأوطان، فقد شخص أحد الدارسين الحرية على أنها عدوة الاستبداد والاستعباد(5) أينما كانت، ولنا أن نقول أن الاستبداد هو العدو اللدود لها.

لم يلهج عصر بالحرية مثلما لهج بها هذا العصر، و لم يحرمها بقدر ما حرمها هذا العصر [6]، بها تغنى الشعراء ولطيفها ناجوا،وبطيفها استأنسوا في غياهب سجونهم، ولا يكاد شاعر يغفل ذكرها. فهذا الشاعر عبد الرحمن الخميسي يجري حوارا عاطفيا فلسفيا فكريا فنيا مع طيفها، ويناجيه مناجيات عميقة في قصيدته"إلى الحرية"، راجيا من هذا الكائن الخرافي العجيب وتلك القوة الخفية أن تهب النور لعينه، معلنا عن قدرتها الفائقة على تحريك الكوامن وتحريرها، فلو أنها لامست حجرا لحركته، ولو أنها نبضت بقلب صخر لانتفض حيا حرا، وتتحول الحرية عنده إلى عقيدة ودين يعتنقه ويحطم به أغلالا كثيرة تكبل إرادته، يقول :

هتفت يا حريتي ضميني...! / هم في ظلام العيش قيدوني / لكنهم لم يطفئوا يقيني / فقوة سناك في عيوني/ أضاءت يا حريتي تفكيري / فأيقظى بما أرى شعوري / هاتي جناحي ! أفسحي مطيري !/ لبيك يا عقيدتي وديني!/ هذا أنا أحطم الأغلال / معتنقا حريتي مختالا /مبتهجا أقتحم الأهوال / منفردا للحق واليقين / حريتي أمست أعز مالي / بها أحس فتنة الجمال / ولا أرى بدونها كمالي / أنشأها الرحمن في تكويني [7] .

وإلى جانب هذا المنطق الفلسفي الفكري في قراءة الحرية، يقرأها الشاعر سميح القاسم قراءة أخـــــرى تشريحية، تقوم أساسا على مشاهدته الميدانية وتتبعه للحظات تشكل هذا الكائن الأسطوري الذي لا تنبجـــس نطفته إلا في رحم خاص مهيأ لاحتوائه ومده بما يوصله إلى درجات الانبثاق، إنه السجن بكل حالاته:

---

[1] - مالك حداد - الحرية ومأساة التعبير لدى كتاب الجزائر - (ترجمة)- وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق – د ت - 28.

[2] - سليم ناصر بركات - مفهوم الحرية في الفكر العربي الحديث - دراسة دمشق .ط 2 - 1984 - 26.

[3] - محمد الميلي - ابن باديس وعروبة الجزائر - دار العودة - بيروت 1973- 46.

[4] - علال الفاسى - الحرية - لجنة إحياء تراث زعيم التحرير - مطبعة الرسالة - الرباط - المغرب - ماي 1977- 8.

[5] - سليم ناصر بركات - مفهوم الحرية - 26.

[6] - جبرا إبراهيم جبرا - الحرية والطوفان - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت. د.ت - 21.

[7] - عبد الرحمن الخميسى - دموع ونيران - دار الفكر العربي - د.ت. - 48-51.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"وجه حريتي نطفة في السجون/ قوس نصر النهار/ ثغرة في جدار..." [1].

ويقاسمه الرؤية الشاعر اليمني محمد الفسيل فيرى أن هذا الكائن المسمى "الحرية" إنما يحيا في ظلام السجون وتنبثق أنواره الملتهمة لظلام الظلم المحرقة للسجن والسجان معا :

من ظلام السجون ينبثق النـــــــور وتحيا حرية الإنســـــان
هو نور كالنور يلتهم الظلـــــــم ويلوي بالسجن والسجان [2].

وتتحول الحرية عند معين بسيسو إلى أم مظفرة تخلع على المدينة أثوابها ورايتها الملوحة:"تقدمي بكل ما قد ألبستك أمك الحرية المظفرة". [3]

وإن طغت على شعر الحبسيات صورة المستبد أو المستعمر الطاغي، فذلك لأنه كان سبب كل ما طرقوه بعدها من قضايا، فهو صانع كل المآسي التي تتخبط فيها الشعوب العربية، هو مُكَمِّمُ الأفواه، وقامع كل محاولات التغيير وسالب كل الحريات وفي مقدمتها الحرية الكبرى "حرية الأوطان" التي غدت شغل الشعراء الشاغل وهدفهم الأسمى، لتأتي بعدها الحريات الأخرى السياسية والفكرية والثقافية والدينية والاجتماعية، ويأتي النضال الداخلي بأشكاله المختلفة في مواجهة تسلط بعض الأنظمة واستبدادها.

ولذلك تحتل الدعوة إلى مقاومة المستعمر والتحرر من صور ظلمه صدارة اهتمام الشاعر العَربي الحديث الذي لم يكتف في طلبها بالقصيد وإنما تعداه إلى مجالات أخرى، فخاض غمار النضال السياسي بكل ألوانه، ولحقه في سبيل هذا الطلب الغالي ما لحق الأحرار من أصناف العذاب على أيدي سدنة الاستبداد وخدام الاستعباد، وجرم بسببه ولاقى ما لاقاه باسم الثغر سرورا ورضى لأنه لم يوسم إلا بذلك الجرم الشريف الذي يحلو في سبيله السجن، ويشمخ به السجين ويتوج بتاج الوطنية إذ أدى واجبه نحو الوطن، يقول الصافي النجفي مفاخرا بتاج السجن راجيا أن يؤتى من القدرة ما يعينه على تحطيم أصنام العصر الجديدة ممثلة في اللوردات الجاثمين على صدر وطنه وسائر البلاد العربية :

أهلا بسجني لشهر أو لأعـــوام فـــإنما يـــوم سجني تـــاج أيـــامي
قضيت حرا حقوق النفس كاملة واليوم في السجن أقضي حق أقوامي
إن يسجنوني فجرمي يا له شرفا أنـــي أحارب قوما أهل إجـــرام
محمد كسر الأصنـــام شـــامخة من لـــي بتكسير"لوردات" كأصنام [4].

ويمضي الشاعر في المعنى نفسه ويحرص على توكيده في قطعة شعرية أخرى أعطاها تسمية "الجرم الشريف"فقد ضاق بالسجن أول الأمر عندما كان يجهل حقيقة جرمه إذ لم يكن سارقا ولا آثما، ولما أعلمه

---

[1] - سميح القاسم - الديوان - دار العودة - بيروت - 2000- 622.
[2] - الثورة المصرية في الأدب اليمني - 77.
[3] - معين بسيسو - الأعمال الشعرية الكاملة - 113 .
[4] - أحمد الصافي النجفي - حصاد السجن - دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع - لبنان 1951- 33.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أحد الخونة من سدنة السجن أن جرمه هو خدمة الوطن حلا له السجن حتى خاله جنة الخلد :

حبست وضاق الحبس حين زج بي إلى غـــرفة ظلماء محكمـــة السد
فقلت علام الحبس لا أنا ســـارق ولا آثم عمدا ولا دون مـــا عمـــد
مضى شارحا ذنبي، إذ الذنب أنني خدمت بلادي، قلت ويحك من وغد
فإنك قد ألبستني تـــاج ســـؤدد وملكتني عرش الفخـــار بـــلا قصد
ولما رأيت الذنب خدمة مـــوطني حلا السجن حتى خلته جنة الخلـــد[1].

وكذلك كان جرم الشاعر كمال عبد الحليم، أراد والأحرار من أبناء وطنه غير ما أراده المستعمر وأزلامه، أرادوا أن يعيش الشعب حرا لا يضام، فما كان من صدقي باشا إلا أن يزج عام 1946 بمائتين من أحرار ومفكري المجتمع في السجون المصرية بلا جرم سوى عدائهم للاستعمار وسائر أنصار الظلام :

نحن في السجن وللسجن ظلام وغيوم / نحن في السجن وتحت الشمس أنصار الظلام / هم أرادوا أن يظل الشعب حرا لا يضام / ولهذا فلنا السجن جزاء وانتقام / ولهم تنصب رايات وأعراس تقام[2].

فذلك الذي يراه الغاصب وخدامه من أشباه الحكام جرما عظيما هو في عين الوطنيين المصممين على الخلاص جرم شريف، وتاج يزين الجباه مثلما يزينها لقب العصاة وسائر الألقاب التي تدور في فلكه :

يـــا مهبـــط الأحـــرار... زان جباههم لقب العصـــاة[3]!

ولا يقف النجفي عند حدود السجن وما ينجر عنه من عذابات نفسية وجسدية في أقبيته المظلمة وزنازينه المدججة بالحراس والحديد، بل يمضي إلى أقصى ما يمكن أن يقدمه المواطن المخلص من تضحيات جسام تتوجها جميعا المهج الغالية، نستشفها من اللازمة التي أصر على تكرارها والمؤكدة لموقفه "ولما علمت"و"ولما رأيت"، والتي يغدو الحبس أمامها مجرد عقاب طفيف ضعيف لا يساوي ذلك الجرم العظيم الشريف :

ولما رأيت الجرم خـــدمة موطني رأى كاهلي حمل الجبال خفيفا
وقلت عقاب الحبس دون جريمتي فجرمي يرى هذا العقاب طفيفا
وقد ساءني ضعف العقـــاب لأنني تخيلت أن الذنب كان ضعيفا[4].

ولذلك طاب عنده بذل الروح واعتلاء منصة المشانق، يقول في قطعة " الآن طاب الشنق" :

حبست و لم أعلم بذنبي فأصبحـــــــــت فـــي ضيق وضـــاق بي الأفـــق

---

[1] - المصدر السابق - 47 .
[2] - كمال عبد الحليم - إصرار - دار الفكر - الديوان الأول من مجموعة الشعر الحديث - 1955- 40.
[3] - سليمان العيسى - الأعمال الشعرية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ط1 1995 - 1/ 249.
[4] - أحمد الصافي النجفي - حصاد السجن - 51.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولما علمت الذنب خدمة موطني حلا السجن في عيني وطاب لي الشنق[1].

فهو إذ يقدم نفسه. إنما يقدمها في حبور ورضا قربانا للوطن، ما دام ذلك يشكل إحدى لبنات صرح الحرية التي من منبرها ترتفع لعنات المستعمر الغاشم :

سجنـــوني دونما ذنب ســـوى أنني سامي المنى حـــر عزيز
لا يضير السجن مثلي إن يكـــن موطني يصبح في حرز حريز
ولئـــن أشنق تكـــن مشنقـــتي منبرا يعلن رجـــم الإنجليـــز[2].

وهي الصيحة نفسها التي أطلقها الشاعر محمد حبيب العبيدي في قصيدته "يعاقبني قومي" ففيها يعلن أن لا جرم له سوى أنه مسلم دعا إلى محاربة المستعمر ولبى نداء الدين والوطن، كما نبه إلى حقيقة الغرب كله وما يحمله من أحقاد على الإسلام والمسلمين :

يعـــاقبني قـــومي كـــأني مجـــرم وما لـــي ذنب غير أنـــي مسلـــم
سمعت سيوف الحق تخطب في الوغى وسمر العـــوالي بالهـــدى تتكلـــم
ولبيت صـــوت الله إذ هتفـــوا به ولست بمن عن صيحة الحق يحجم
وإن أنـــا لـــم أغضب لديني غيرة فلا رضيت عني شموس وأنـــجم
وإن أنا لم أغضب لقـــومي حميـــة فلا هـــاشم مني ولا أنـــا منهم[3].

ويشاركه في ذلك القربان الغالي الشاعر عزيز فهمي، فينذر نفسه هو الآخر قربانا لوطنه ولباذلي نفوسهم فيه، ويعلن في شيء من الوجد والهيام حبه للوطن وحسرته وأساه على ما آل إليه حال البلاد وقد اختلفت عليها أيدي الرماة تنوشها من كل جانب، واحتال عليها الغاصبون بمصطلحات براقة خادعة فمنوها بالجلاء، ولكن أي جلاء هو وقد ألبس قيود الحلف الجائر وشروطه الآمرة الناهية :

شكت إلى الله من عدوان أهليها وعاث غاصبها في أرض راعيها
وقفت قلبي عليهـــا في شبيبتـــه فشاب منها ومن عدوان سالبها
لما أفقت من الماضي بلا أمـــــل نذرت نفسي قربانا لفاديهـــا
... وما الجلاء إذا شدت بسلسلة من القيود وشرط الحلف يمليها[4].

وإن وهب هؤلاء الشعراء أنفسهم وبذلوها في سبيل الوطن، فإن عبد الوهاب البياتي لا يقف به الأمر عندها، بل يمتد إلى فروعها، فيجعل من نفسه وابنه ملكا للشعب ومنه فهما ملك للوطن وإن كره الطغاة :

---

[1] - المصدر السابق - 50.
[2] - المصدر نفسه - 62.
[3] - محمد حبيب العبيدي - ديوان ذكرى حبيب – تحقيق أحمد الفخري - مطبعة الجمهورية - الموصل - 1386- 1966- 158.
[4] - عزيز فهمي - ديوان عزيز (الشاعر الشهيد عزيز فهمي) - دار المعارف - مصر – د ت – 127 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إني أبارك، يا صغيري، رغم قسوتها، الحياة / فأنا وأنت لشعبنا ملك، وإن كره الطغاة[1].

ومن أجل هذا الابن ومن أجل أن يعيش شامخا مرفوع الجبين، ومن أجل أن يجنبه إشارات الناس إليه يتحمل الشاعر كل أصناف العذاب ليحيا ابنه عزيزا، فقد يحرق السجان شعره، قد يقلع ظفره، قد يشد الحبل على عنقه، قد يغمس إبهامه في عينه، قد يفري بالسوط جسده، ولكنه أبدا لن يخزي ابنه ولن يبوح بالسر، سيضل السر منغرزا في صدره، غائرا كنصل السجان، وسيحملهما الشاعر بلند الحيدري رمزين بارزين للإنسان الحر في هذا الزمن : ستعود لتحرق لي شعري/ ستعود/ لتقطع لي ظفري/ ستدوس على صدري/ أدري/ وفمي لن يفرج عن سري/ أغمس إبهامك في عيني/ والسوط سينبح في لحمي كالسم/ أأذيع السر/ أأفشي الأمر/ يا للجبن/ أأخزى ابني/ لا...لا/ وتعود لتحرق لي شعري/ ولتقلع لي ظفري/ لكن سترى/ سيظلّ كنصلك في صدري/ رمزين لإنسان حر[2].

ولحياة هذا الوليد وسائر طلائع الفجر الجديد أيضا آلى الشاعر كمال عبد الحليم أن يبذل روحه "آليت بذل روحي كي ينال الحياة بعدي وليدي"[3].

ويرسم عبد الوهاب البياتي طريق الحرية كما يراه هو منحوتا عبر الصحاري الموحشة، معلنا عن موت الأعداء، متفجرا من القبور الصامتات، مجلجلا من أفواه العبيد[4]، كما يرسم مفدي زكريا طريقا للخلاص من قبضة المستعمر، فيرى أنه لن يشق ولن يعبّد إلاّ بيد القذائف المتأهبة للانفلات والانطلاق في وجه العدو، ويرى ألاّ سبيل لانتزاع الحق المستلب إلاّ بالغصب والإرغام، سواء اعترف به الأعداء أم جحدوا :

أرزاقنـــا وقف علـــى أبنائنـــا لم يعطهـــا لسواهم القسام
وحقوقنا اعترفوا بهـــا أم أنكروا فطريقنـــا لبلوغها الإرغـــام
وبلادنا بيد الكلاص [5] خلاصها هيهات يجدي مجلس وخصام[6].

ويرى البرّدوني أن لهيب جراحات الشعب وتضحياته هي بمثابة النور الذي يقبس منه فجر الحرية مشاعله، وأن الأرض التي تواري رفاة شهداء الوطن وتضم عظامهم قادرة على إنبات الكرامات من ذلك السماد المتفرد الذي اختصوها به :

سوف نمشي على الجراحات حتى نشعل الفجر من لهيب الجراح
إنمـــا تنبت الكرامـــات أرض "سمّدت تربها" عظام الأضاحي[7].

---

[1] - عبد الوهاب البياتي - الأعمال الشعرية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - 224/1.

[2] - بلند الحيدري - الديوان - دار العودة - بيروت - ط2 - 1980 - 354-357.

[3] - كمال عبد الحليم - إصرارا - 1.

[4] - عبد الوهاب البياتي - الأعمال الشعرية - 145/1 - (قصيدة طريق الحرية).

[5] - الكلاص : (Cullace) كلمة فرنسية تعني الخزان الذي تنطلق منه القذيفة من البندقية.

[6] - مفدي زكريا - اللهب المقدس - موفم للنشر - ط3 - 2000 - 50.

[7] - البرّدوني - الدّيوان - 554/1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما حدود الوطن عند الشاعر معين بسيسو فلا تتشكل ولا ترتسم ملامحها إلاّ بتضحيات أبنائه، إنها خريطة ترسمها يد الجلاد من دمائهم المسفوحة، ومن الأغلال المصفَّدة أقدامهم وأياديهم :

ارسمي من دمي ومن أصفـــادي يا أيادي خريطة لبلادي[1].

وتشكل جماجم الشهداء عند مفدي زكريا لبنات لبناء صرح الأمة الحرة وتشييد أمجادها، أما دماؤهم الزكية المبذولة فتتحول عنده إلى رصيد فريد من نوعه، يودعه أولئك الأحرار لوقت الحاجة في بنك لا يعرفه غيرهم، إنه "مصرف البقاء ، مصرف الخلود " :

فمضى الشعب بالجماجم يبـــني أمة حرة، وعزا وطيـــدا
من دماء زكية، صبها الأحرار في مصرف البقاء رصيدا[2].

وهو إذ يقدم روحه فداء للوطن، إنما يقدمها خالصة لوجهه الكريم، وليتقرب إليه زلفى، وحسبه أن يحترق هو لينير درب شعبه ويعطر طريقه وحسبه وحسب شعبه أن غدا لهم عودا يعطرهم ذكره ويحترق[3]. ويواصل ابتكاراته اللغوية، فيجعل من أرواح الشهداء مصنعا يعكف ليل نهار على صناعة آلة واحدة هي استقلال الجزائر، وشق طريق واحد هو نهج المنايا الواضح المستقيم، الموصل لا محالة إلى الحرية والسيادة الكاملة، فقد صوّت الشعب في استفتائه بـــ"لا" لإباحة نقطة من أرض الجزائر :

تلك الجـــزائر تصنـــع استقـــلالها تخذت له مهج الضحايا مصنعا
طاشت بها الطرقات فاختصرت لها نهج المنايا، للسيادة مهيعـــا
شعب الجزائر قـــال في استفتائـــه لا!! لن أبيح من الجزائر اصبعا[4].

وقد أدى هذا الشعب الأبي للحرب كل ما تتطلبه من طقوس وقدم ما يليق بها من قرابين غالية وشق طريقه إلى الخلود بالأرواح[5]، وإنها لسوق متفردة تلك التي يؤمها أحرار الجزائر، سوق نادى بها الروح الأمين جبريل، فلبى الشعب النداء، باع ما باع واشترى ما اشترى وأهدى ما أهدى في سبيل الوطن المفدّى :

نادى به جبريل في سوق الفدا فشرى وباع بنقدها وتبرعا[6].

وكذلك تأخذ الحماسة وحب الوطن الشاعر اليمني إبراهيم الحضراني، فيعرض نفسه مرارا للموت

---

[1] - معين بسيسو - الأعمال الشعرية الكاملة -223.
[2] - مفدي زكريا - اللهب المقدس - 15.
[3] - المصدر نفسه - 29.
[4] - المصدر نفسه - 67.
[5] - المصدر نفسه - 45.
[6] - المصدر نفسه - 59.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويتحمل في سبيله العذاب ويبذل له الروح راضيا مختارا[1].

ويضيف معين بسيسو وظيفة أخرى للدماء، فتغدو دماؤه ودماء كل المعذبين وهي تتفجر من تحت سياط الجلادين وآلاتهم شاهدا يؤرخ لظلم الطغاة ويفضح جرائم الجلادين :

أخي، ارفع رأسك الشامخ كي تشهدني أذبح/ لكي تشهد جلادي، والسيف الذي يرشح/ أخي، من يفضح الجلاد، غير دمائنا تفضح[2].

ويتفق جل شعراء الحبسيات في الشوق والحنين إلى الديار، بل والأوطان، فهم خلف الأسوار يشعرون كأنهم خارج حيزها المكاني. ولكنها وإن غابت عنهم بفضاءاتها المادية الملموسة، بهوائها، بمشاهدها، حاضرة في وجدانهم وخيالهم، حاضرة في أشعارهم. من صور ذلك الفقد المادي والحضور المعنوي قصيدة الشاعر أحمد سحنون يعز علي أني لا أراك" التي يتأسى فيها بالفجر الآتي على أيدي بناة المجد من الشباب المتأهب للنزال، المزروع في ذرى الجبال، والحامل لبشائر أعياد الخلاص[3].

ويرسل محمود طاهر العربي زفراته، فيشكو لبلاده مكابداته في السجن ويبثها أشواقه وفرط صبابته، ويغرق في مناجاتها والتغني بمحاسنها وطمأنتها أنه باقٍ على العهد، لا يبدله سجن ولا ينسيه بعد، وأنه باذل روحه فداء لها :

كم ذا أكـــابد في الهوى وأعاني ... فمري خيالك أن يزور العاني

يـــا مصر يا ذات المحاسن رحمة ... بفؤاد صب في الهوى متفاني

يـــاجنة الدنيـــا ودار نعيمهـــا ... يا درة في تاج كل زمـــان

إني على عهدي وفرط صبابـــتي ... لا السجن بدلني ولا أنساني

وبذلت روحي في فداك رخيصة ... والروح ترخص غالي الأثمان[4].

هذا و لم يبلغ شاعر من ذوي الحبسيات ما بلغه مفدي زكريا في تغنيه بالجزائر ووقوفه عند مواطن جمالها وسحرها المادي والمعنوي، بجبالها وهضابها وتلالها، برمالها وصحرائها، بسواحلها وخيراتها، بخلالها وشمائلها، فعن مواطن جمالها المادي نقتطف له هذه السبحات :

وفي صحرائنـــا جنـــات عدنٍ ... بها تنساب ثروتنـــا انسيابـــا

وفي صحرائنا الكبرى كنـــوز ... نطارد عن مواقعها الغرابـــا

وفي صحرائنـــا تبـــر وتمـــر ... كلا الذهبين راق بها وطابـــا

---

[1] - البردوني - رحلة في الشعر اليمني - 72.

[2] - معين بسيسو - الأعمال الشعرية الكاملة - 222.

[3] - أحمد سحنون - الديوان - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر 1977- 103.

[4] - محمد محمود الغرباوي - الشعر في سجون مصر – الملحق- 776.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في واحـــاتنا ظـــل ظليـــــل تفور بـــه نواعرها حبابـــا
وفـــوق سمـــائها قمر منيـــر نطارحه الأحاديث العذابـــا
وتحت خيامها انبجست عيون لها هاروت قد سجد احتسابا
وهـــزت مريم العـــذرا نخيلا فاسقطت الفلوذج والرضابا
يدغـــدغ تحتهـــا الغنام نايا فينطق من فم الغنم الـــربابا.

وأما مواطن جمالها المعنوي فتتمثل في كنوز الشعر والعلم والأدب، وفي ذلك الميراث الفذ الذي ورثته عن الأجداد من شرف وحسن ضيافة وكرم، ولكن للكرام من الضيوف، أما الماكرون منهم فلهم المكر وزيـــادة :

وفي صحرائنا شعر وسحـــر كلا الملكين حطّ بها الركابا
وفي صحرائنا أدب وعلـــم زكا بهما المثقف واستطـــابا
وعن أجدادنا الأشراف إنـــا ورثنا النبل والشرف اللبابا
كرام للضيوف إذا استقاموا بسطنا في وجوههم الرحابا
فقل للنازلين بهـــا أقيمـــوا كراما، واعملوا تجدوا الثوابا
وقل للماكرين بها استريحوا فمن يمكر بها يلق الخرابـــا[1].

وفي مقابل هذه الصورة المشرقة نجد صورًا أخرى قاتمة فاضت بها قرائح بعض الشعراء تحت ضغوط مختلفة، فهذا الشاعر مظفر النواب يبلغ به اليأس ذروته وهو يرى الظلم والطغيان يتكاثران في وطنه الحرّ ظاهرا، السجين حقيقة فيتساءل في مرارة وألم تساؤل من لا ينتظر جوابا إن كان هذا حقا وطنه، أم أنه وطن الأعداء، ويعرب عن أسفه الشديد على هذا الوطن المعروض للبيع في العلب الليلية، ويكشف عن أعدائه الحقيقيين الذين يبيعونه ليلا ثم يبكون عليه :

وطني علمني.../ علمني أن حروف التاريخ مزوّرة / حين تكون بدون دماء / ...وطني هل أنت بلاد الأعداء؟ / يا وطني المعروض كنجمة صبح في السوق / في العلب الليلية يبكون عليك.../ أولئك أعداؤك يـــا وطني[2].

ويبلغ الألم درجته القصوى عند الشاعر الفلسطيني الذي رأى وطنه كله سجينا ووجد نفسه لاجئا في كل الحالات، داخل الوطن أو خارجه، سجينا داخل الوطن أو خارجة[3].

---

[1] - مفدي زكريا - اللهب المقدس - 34- 39.

[2] - مظفر النواب - الأعمال الشعرية الكاملة - دار قنبر - لندن - 1996- 1416 - 476-477.

[3] - شاكر النابلسي- مجنون التراب (دراسة في شعر وفكر محمود درويش)- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت - 1987 193 وما بعدها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولمحمود درويش قصته العجيبة مع الوطن الذي أحبه حتى النخاع واكتشف فيما اكتشف من عجائب الاحتلال وهو يطلب جواز السفر أنه ليس مواطنا، فيطلب جواز مرور، ويكتشف ثانية أنه ليس مقيما في إسرائيل... ويتساءل في مرارة : "لا أنا مواطن هنا - ولا أنا مقيم، إذن، أين أنا ومن أنا ..." ويخاطب وزارة الداخلية "أنا موجود أم غائب ؟، أعطوني خبيرا في الفلسفة لأثبت له أنني موجود !".[1]

ثم يدرك أنه موجود فلسفيا، وغائب قانونيا، يبحث في كل المدن عن شعبه فلا يجد إلا الزنزانات والضباط الوقحين[(2)]، وكرد فعل على هذا الإلغاء والتهم الموجهة إليه، من داخل إسرائيل على أنه من أعداء السامية، ومن خارجها إذ فضل البقاء داخل الوطن مهما تكن التنازلات على أنه خائن. ردا على هؤلاء وأولئك يتوحد الشاعر بالأرض، بكل ذرة من ذراها، بكل نفس من هوائها بكل قشة تخرج من بطنها ويصنع لنفسه فلسفة حلول خاصة فإذا رآهم يحرثون أرضه شعر بسكة المحراث تنزل في كبده[3].

ويتلازم درويش وفلسطين، فإذا حدثنا عن نفسه فعن أرضه يحكي، وإن حدثنا عن فلسطين فقصته يروي[4]، ويتحدى الظروف التي جعلت مواطنا بلا وطن بالانتماء المطلق إلى الأرض بالبقاء فيها رغم كل المضايقات بالكتابة عنها وفي ذلك يقول : "إننا عندما نكتب نتحدى، وعندما نكون موجودين على أرضنا نتحدى، وعندما نأكل من زادنا نتحدى لأننا نقاوم ترجمة الوطن كله إلى العبرية لغة، وإلى الصهيونية أرضا وتقاليدا..."[5].

ويرى الوطن الحبيب من خلال القيود فيشكر السجان الذي جعله "والحرية معادلة واحدة"، ويعلن أن الوطن "أجمل ما يكون عبر الأسلاك"[6]، ويقدم لهذا الوطن الجميل الذي لم يفز من حبه له إلا بأخشاب صليبه كل شيء، عيونه، فؤاده، أحبته :

وطني ! لم يعطني حبي لك / غير أخشاب صليبي ! / وطني، يا وطني، ما أجملك! / خذ عيوني، خذ فؤادي...خذ حبيبي ![7].

وتحمل الأرض الفلسطينية تسمية أخرى عند الشاعر سميح القاسم، فهي لم تعد وطنا ولا أما حرة وإنما هي"مسبية" تحمل أبناءها عار هذه التسمية وتبعاتها، فتوصَدُ في وجوههم كل الأبواب حتى أبواب المنظمات الإنسانية التي تزعم إغاثة المحتاجين ومد يد العون دون تمييز للجميع :

---

[1] - محمود درويش - يوميات الحزن العادي - دار العودة - بيروت - ط3 - 1981 - 94.

[2] - المرجع نفسه- 22.

[3] - المرجع نفسه - 142.

[4] - ياسين أحمد فاغور - الثورة في شعر محمود درويش - دار المعارف للطباعة والنشر – تونس - 1989-71.

[5] - المرجع نفسه - 85.

[6] - محمود درويش- يوميات الحزن العادي - 150-151.

[7] - محمود درويش - الديوان - دار العودة - بيروت - ط10- 1883- 64

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وجست معاهد التبشير والأوعاظ والحكمه / ودور رعاية الأيتام / سألت العدل ... لا للقمه !/ فأنكرني مدير وكالة العدل الخرافيه / ورد الباب في وجهي / وتمتم ضاغطا فكيه : / حسبك يا بن مسبيه[1].

ولكنها أيضا "الأرض الفدائية" و"الأم الرحيمة"[2]، التي لا يفتأ الشاعر يتغنى بها في ظلمات سجنه، وينقش صورتها على جدرانه، فإذا حال الظلام بين عينيه وعيني ذلك الوجه المعبود، فإنه يراه ماثلا في خيالاته وأوهامه، ويدعوه للتوحد معه في خيمة واحدة :

من عشرين عام / وأنا أرسم عينيك، على جدران سجني / وإذا حال الظلام / بين عيني وعينك / على جدران سجني / يتراءى وجهك المعبود / في وهمي / فابكي ... وأغني / نحن ياغاليتي من واديين / كل من وادينا يتبناه شبح / فتعالي.../ لنحيل الشبحين / غيمة يشربها قوس قزح !...[3].

- تواصل الشاعر السجين مع الشعب :

ومن القضايا الوطنية التي عاشها شعراء الحبسيات وعاشوا لها تواصلهم المطلق بالشعب ومشاركتهم له همومه وأفراحه، فلم تقف الجدران ولا السجان ولا زبانية العذاب في وجه ذلك التواصل الجميل، و لم تقو كل أجهزة العذاب وفنونه على هدم تلك الجسور المتينة التي ما فتئ شعراء الحبسيات يمدونها إلى أبناء شعبهم الذي ضحوا من أجله، فإذا أحجم الشاعر بلند الحيدري عن البوح من أجل ابنه، فإن الشاعر مظفر النواب هو الآخر يرفض الاعتراف برغم التعذيب، لأن الشعب أمانة في عنقه، وإن رسفت قدماه في الأغلال فإن قلبه يستطيع التسلل إلى هناك إلى موطن النخيل إلى غدوق نخيل الأهواز، ويستطيع العبور إلى كل شبر يشم فيه عبق العروبة لأنه بكل بساطة يتخذ من شعره جواز سفر إلى الأهواز، ومن عشقه للأرض جوازا، بل إنه يملك ألف جواز سفر آخر، ويستمد قوته من الشعب الواقف خلف الأسوار :

اعترف اعترف اعترف الآن / .. رفضت... رفضت ... رفضت... / وكانت أمي واقفة قدام الشعب بصمت / فرفضت / اعترف الآن ... اعترف الآن / رفضت وأطبقت فمي / فالشعب أمانة في عنق الثوري / رفضت / أرادوا أن أتعهد ألا أتسلل ثانية للأهواز / يا قلبي عشق الأرض جواز...[4]

وإلى كل الجموع الرافضة المقاتلة الباذلة في سبيل الأوطان يعلن مظفر النواب انتماءه إلى أولئك الذين صنعوا من قهرهم هرما بلبنان، إلى أولئك الذين أضاء نضالهم أبراج بابل، إلى أولئك الجياع... إلى كل المقاتلين... إلى المضرجين بدمائهم، المجندلين على المشانق ، إلى الرسول -ρ- فاتحا بالسلاح، إلى كل الثائرين عبر التاريخ و المغيرين وجهه :

---

[1] - سميح القاسم - الديوان - دار العودة - بيروت - 2000 - 284-285.

[2] - المصدر نفسه - 294، 410.

[3] - المصدر نفسه - 411.

[4] - مظفر النواب - الأعمال الشعرية الكاملة - 500-503.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أنا أنتمي للجموع التي رفعت قهرها هرما / ... أنا أنتمي للجياع ومن سيقاتل/ أنا أنتمي للمسيح المجذف فوق الصليب.../ لمحمد شرط الدخول إلى مكة بالسلاح.../ ...للفدائي... ولرأس الحسين.../ وللقرمطية كل انتمائي / وللماركسيين شرط الثبات مع الفقراء/ وشرط القيام بها بالسلاح كما هي أصلا/ بدون التفاف / ودون رياء[1].

ويرى محمد الحبيب الفرقاني ألاّ سبيل إلى الخلاص إلا بالتوحد بالشعب وتلبية نداءاته والالتحام به وبحراس أمجاده الأحرار :

لبيك يا شعبي / فإنك منتدى أقداري / آمنت بالأمجاد / تحرسها يد الأحرار / الفتية الأولى تدعوا / في دجى الأخطار[2].

ويبشر عبد الله الشماحي بإحدى السنن الكونية وهي نهاية الطغيان لا محالة، إذ لكل شيء غايته ونهايته، ولن تكون تلك النهاية، ولن يكون الخلاص والتحرر إلا على أيدي الشعوب فلها أولا وأخيرا حكم القضاء :

فلأعملـــن مـــع الرفـــاق لغـــاية هي أن يحرر شعبي الأحرار
ولســـوف يعلـــم أحمد وسيوفـــه أن الشعوب بكفها البتـــار
ولها وإن طال السرى حكم القضا ولكل شيء غاية وقـــــرار[3].

ويبلغ الشاعر الجزائري المعتقل أو السجين ذروة التواصل مع الشعب فيشاركه أفراحه وأحزانه ويعيش معه أعياده الوطنية والدينية ومآسيه التي يعكف المستعمر على صناعتها وتفجيرها بلا هوادة، فهذا الشاعر محمد الشبوكي يخاطب الشباب الجزائري في قصيدتين : "الشباب الجزائري الثائر" و"نشيد الشباب الجزائري"[4] ويحيي الثورة الجزائرية الكبرى مرة في خطاب إلى قادتها "جيش التحرير الوطني" ومرة ثانية بقصيدته "يا لها الله ثورة"[5]، ونكتفي من صور مشاركته الشعب أفراحه ومآسيه بوقفته عند حادثة حرق جيش الاحتلال لسوق تبسة وتأريخه لهذه الجريمة، يقول مصبرا ومبشرا بالنصر القريب الآتـــي :

لفها الليـــل واللهيب المسعر ودخـــان يعلو المنـــازل أحمر
ودهى تبسة المجيدة هـــــول روع الآمنيـــن ليـــلا وحيـــر
أحرقوا سوقها وعاثوا فســـادا في حماها ومارسوا كـــل منكر
أي جيش قد أشعل النار فيها ومشى في أحيـــائها يتبختـــر

---

[1] - المصدر السابق- 426-427.
[2] - سيد حامد النساج - أدب التحدي السياسي في المغرب العربي - دار الرأي - بيروت – د ت - 124.
[3] - عبد العزيز المقالح - الأبعاد الموضوعية والفنية للشعر العربي المعاصر في اليمن - 171 .
[4] - محمد الشبوكي - الديوان - منشورات المتحف الوطني للمجاهد - 1994 - 31،62.
[5] - المصدر نفسه – 22، 42.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يقتل الأبريـــاء أنى رآهـــم مثل (نيرون) في العتو و(قيصر)
قد تلقت كيد العدا بصمـــود فهي تزري بالهاجميـــن وتسخر
ولقد آمنت بأن جيوش الظلـــــــــــم فـــي أرضنـــا سوف تقهر
يـــا دماء زكية سفحتهـــا قوة الظلـــم أنت مسك وعنبـــر
أنت للنصر يا دماء ضمانـــــــــــا ت ورمـــز إلى المصيـــر المقرر
إيه يـــا تبسة المحـــامد تيهي بك جيش التحرير يزهو ويفخر[1].

ويعلن عن فرحته في قصيدته "دولة الشعب" التي سجلها في معتقل الضاية (بوسوي) بمناسبة ميلاد الحكومة الجزائرية المؤقتة عام 1958، ويهنئ الشعب بهذا النصر الذي لم يصل إليه إلا بمغالبات ومجالدات وركوب صعاب وأهوال :

هي دنيا من المباهج والأفـــــــــراح ماجت بحسنهـــا الخلاب
يالها لحظة تطرز فيها الكـــــــــون وانداح في قشيب الثيـــاب
أيها الشعب يا سليل الصنـــــاديـــــد هنيئـــــا نيل المنى بالغلاب
قد تحشمت للتحرر والإعـــــــــزاز هـــول الردى ووعر العقاب
حجج أربع تقضت تباعا مثقلات بفادحات الصعـــاب
دولة الشعب يا بشائر فجر قدسي بدا وراء السحـــــاب
ارفعي الراية الحبيبة في القطر فإنا لنجمها في ارتقـــــاب.[2]

وهي المناسبة نفسها التي احتفل بها الشاعر أحمد سحنون في المعتقل نفسه، في قصيدته "ميلاد وميلاد"، فقد صادف وأن تزامنت ذكرى المولد النبوي الشريف مع الإعلان عن ميلاد الدولة المؤقتة فاهتز مهنئا بالعيدين :

ياللرجـــاء المنعش الأرواح يدنو جناه بعد طول كفـــاح
ويعيد للوطن المخيم ليلـــــه ما قد خبا من نوره اللمـــاح
ويري طريد الظلم أفق بلاده متبلج الإمساء والإصبـــــاح
اليـــوم ميـــلاد النبي محمد ! من جاء رمز هداية وصـــلاح
واليـــوم تولد للجزائر دولة عربية من أهلها الأقحـــــاح

---

[1]- محمد الشبوكي الديوان – منشورات المتحف الوطني للمجاهد -1994، 20-21.-"تبسة الصامدة" (وقد أرخ للحادث بقوله: نظمت هذه القصيدة بمعتقل الجرف (قرب المسيلة) بمناسبة الحريق الذي شب بسوق تبسة من قبل الجيش الفرنسي في 4 مارس 1956).

[2] - المصدر نفسه – 15- 16.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بشراكم أدركتم آمـــالكم وجهودكم قد توجت بفلاح[1].

ويشارك الشاعر مفدي زكريا من قعر زنزانات العذاب شعبه وقادة ثورته احتفالهم بالذكرى الثالثة والرابعة لاندلاع الثورة التحريرية الكبرى، نظم الأولى بسجن البرواقية، وألقيت بالنيابة عنه في مهرجان الذكرى الذي أقيم بتونس غرة نوفمبر 1957، استهلها بتحية لهذا الشهر المبارك الذي أوفد محاورا خاصا للمعتدين، ملائك تنزلت بالفواتك، فأرغمت الغاصبين على الإنصات ووحدت الشعب فانصب تحت لوائها على الأعداء من جميع أنحاء الوطن وراح يفتكُّ النصر افتكاكا :

دعا التاريخ ليلك فاستجابـــا (نوفمبر!) هل وفيت لنا النصابا ؟
وهل سمع المجيب نـــداء شعب فكانت ليلة القـــدر الجـــــوابا ؟
تبارك ليلك الميمـــون نجمـــا وجل جلاله، هتـــك الحجـــابا !
زكت وثباته عن ألف شهـــر قضاها الشعب، يلتحف السرابا
تجلى ضاحك القسمات، تحكي كـــــواكبه، قنـــــابله لهـــابا
.. ملائك بالفواتك نـــازلات بإذن الله، أرسلهـــا خطـــابـــا
وهزت ثورة التحـــرير شعبـــا فهب الشعب ينصب انصبـــابا
... وحرب للكرامـــة في بلاد مضت تفتك عزهـــــا غلابـــا
وأوفدت الرصاص ينوب عنها ينافس غاصب الحق الحســـابا [2].

ونظم ثانية بالسجن نفسه وألقيت بالنيابة عنه في إذاعة صوت العرب بالقاهرة، وفيها يذكر الشهر الجليل ويدعوا إلى الوقوف إجلالا وإعظاما للسلاح، فهو الخطيب الوحيد المفوه الذي يستطيع إبلاغ صوته وتلحين سمفونية الجزائر ونظم أبياتها :

هذا (نوفمبر) قم ! وحي المدفعا واذكر جهادك والسنين الأربعـــا
واعقد لحقك في الملاحم نـــدوة يقف السلاح بها خطيبا مصقعا....!
وقل الجزائر واصغ إن ذكر اسمها تجد الجبائر ساجدين وركعـــا
إن الجزائر في الوجود رســـــالة الشعب حررها وربك وقعـــا
إن الجزائر قطعـــــة قدسيـــــة في الكون لحنها الرصاص ووقعا
وقصيـــــدة أزليـــة أبياتهـــــا حمراء كان لها (نوفمبر) مطلعا ![3]

و لم يبلغ شاعر من ذوى الحبسيات من الاهتمام بالأعياد الدينية ومشاركة الشعب إحياءها داخل المعتقل

[1] - أحمد سحنون – الديوان – 89 - 90.
[2] - مفدي زكريا – اللهب المقدس – 30-32 ("وقـــال الله" القصيدة من 76بيتا).
[3] - مفدي زكريا – اللهب المقدس – 57-58 - "اقرأ كتابك".

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خاصة، ما بلغه الشاعران الجزائريان محمد الشبوكي وأحمد سحنون، وربما كان لظروف حبسهما الأثر الكبير في ذلك إذ سجلا أغلبها في المعتقل، وقد سبقت الإشارة إلى ما يتمتع به المعتقلون من فرص التجمع واللقاء وتبادل الآراء والاحتفال الجماعي بمثل هذه المناسبات فلم تكن الظروف القاسية داخل المعتقلات لتمنع عن نزلائها إحياء مثل هذه الشعائر أو مشاركة الشعب احتفاله بمثل هذه الأعياد عنوانا على تمسكه بدينه وتراثه دون أن ينسى هؤلاء الشعراء الإشارة إلى مآسي شعوبهم وهمومها، فقد أهدى محمد الشبوكي من معتقله بعين وسارة قطعة شعرية إلى صديق يهنئه فيها بهلال رمضان، يقول :

هلال الصوم حيا بابتســـام نفوسا مؤمنات صادقات
ليهنك يا أخي نفحات فيض مضمخة بأنوار الصـــلاة[1].

ويناجي في قصيدة أخرى هلال رمضان وقد أطل على الكون بأطياف السحر والجلال[2]، دون أن ينسى شكوى حال وطنه الذي شمر للقتال، وله قطعة"يوم العيد" يناجي فيها هذا اليوم المبارك ويسأله أن يوزع الأفراح على شعبه المقاوم الثائر :

أنت يـــا عيد نشيد طـــافح بأمانينا الكريمات الحســـان
... وزع الأفراح يا عيد على شعبنا وامنحه أزهار التهاني
إنـــه شعـــب أبـــي ثـــائر قاوم الأعداء في كل مكان[3].

وتراود الشاعر أحمد سحنون خواطر وأسئلة كثيرة في إحدى إطلالات العيد عليه وهو سجين، خواطر كلها عن غد الجزائر كيف هو؟ أيكون لها عيد، أتكون لها دولة... أيعود المغيبون إلى وطنهم.... أيشرق ربيع الوطن؟ ولا يمضي به اليأس كثيرا حتى يبشر بعيد الانتصار القريب :

عيـــد الجـــزائر هل أراك قريبـــا فأذوق فيك من السرور نصيبا؟
هل يشتفي البلد الحبيب فطالمـــا ذاق البلاء وكابد التعذيبـــا؟!
شعب (الجزائر) هل أرى لك دولة قد ألبست ثوب الفخار قشيبا؟
أأرى الجـــزائر روضـــة فينـــانة وأرى بها غصن الحياة رطيبا!
.. كلا فسوف تعود بهجة حسنها ويزيدها كسب المفاخر طيبا!
وتعـــود بعد كفاحهـــا أمجادهـــا ويقام عيد الانتصار قريبـــا![4].

ويمضي الشاعر حاملا هم وطنه المثقل بقيود الاستعمار البغيض، فإذا حل عام جديد بدره بأسئلته

---

[1] - محمد الشبوكي – الديوان – 54 - (هكذا وردت الكلمة في الديوان "والصواب مضمخة").
[2] - المصدر نفسه – 51.
[3] - المصدر نفسه – 53.
[4] - أحمد سحنون – الديوان (شعراء الجزائر) –121.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحائرة الكثيرة كسابقتها، فعادة الأعياد الأفراح ولكن أنّى للجزائر أن تفرح بالعيد أو تتلقى أفراحه والأحداث والأزمات تحيط بها من كل جانب ولا سبيل أمام الشاعر إلا التوجه إلى المولى عز وجل أن يقبل هذا العام الجديد بخيراته وبشائره على الوطن[1]، و"في ذكرى رأس السنة الهجرية" يتغنى الشاعر بأمجاد الأمة الإسلامية وتاريخها المشرق الذي تعلم منه الشعب المرهق بحكم جلاديه كيف يمضي إلى التحرير جبار الخطى في تفان وتحد وصمود نحو العيد المنتظر، عيد تحرير الحمى فهو أعظم عيد :

أي تاريخ كتـــاريخ جـــدود؟ كل يوم فيه سفر من خلود !
مولد الإسلام ميـــلاد عـــلا لبني الأرض وتحطيم قيـــود
... جبهة التحرير لا يصرفها عن هواها أي جبار عنيـــد
ولهـــا الجيش الـــذي قـــوته ! قوة التيار تودي بالســـدود
أيهـــا المسجون لا تأس على ما تعانيه من الخطب الشديد
من يكن يعرف مـــا يطلبه ! هان ما يبذل فيه من جهـــود
فترقب عيـــد تحرير الحـــمى فهو في تاريخه أعظم عيد ![2].

كما يتغنى في ذكرى المولد النبوي الشريف من معتقل بوسوي بصفحة التاريخ الجديدة التي واكبت ميلاده -ρ- ويعدد صفحات المجد التي جاء بها منقذ البشرية، والأنوار التي جللت حياة العرب، ليذكرنا أنه وأبناء الجزائر من أحفاد أبطال التاريخ المجيد، ويبشر المصطفى -ρ- أنهم شعب لم تزل فيهم تعاليم الهدى، قد هب لتحطيم الأغلال وافتكاك استقلاله وطي صفحة الظلم والطغيان بنهاية كنهاية عاد وثمود، ويتوجه في آخر المطاف إلى الشباب الجزائري حاثا إياه على البذل في سبيل العلا والتمرد على الجلادين وأن يمضي قدما لا يخشى الردى، ويبشره هو الآخر بأفول نجم أعدائه وبزوغ نجم الجزائر[3]، ولا ينسى فرحته بذكرى نزول الوحي وما أحدثته من تغيير وطنه المكبل وقد هب أبطاله أمة واحدة يتحدون كل أعداء الحياة[4]. وكذلك ناجى يوسف القرضاوي هذه الليلة المباركة التي زانها الرحمن بتنزيله وزان بفضلها العالم ذات يوم، ولكنه يأسف على أنوار الوحي اليوم إذ لم تعد تجد من يبصرها فكأنها شمس أضاءت لعميان تحولوا بها إلى تمائم وتعاويذ وآيات تتلى في جوف المقابر على الأموات، ويتعجب بدوره مما آل إليه حال السلم والإسلام في مصر، فهما لفظان ترددهما الشفاه ولا تراهما الأبصار، ويتساءل عن تلك الشعارات البراقة المرفوعة من سلام وحقوق ودساتير، ومؤسسات قضائية وعدل، المغيبة عن الميدان، ويختم قصيدته التي ألقاها في حفل أقامه معتقلوا الطور عام 1949 بدعاء خالص أن ينجز الله ما وعد الصابرين من عباده :

---

[1] - المصدر السابق - "عام جديد" - 122.
[2] - المصدر نفسه – 203 - 204.
[3] - المصدر نفسه – 200 - 202.
[4] - المصدر نفسه – 215 - 217.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يـــا ليلة زانهـــا ربي وشرفهـــــا تتريله في دجاها نور قـــــرآن
... يا ليلة السلم والإسلام معذرة فالسلم في مصر والإسلام لفظان
أين السلام أروني أين موضعـــــه قد ضاع ضيعة يتم بين خـــوان
أين الدساتير فانظرهـــا معلقـــــة مثل التمائم في أحضان صبيـــان
أين الحقوق و لم نلمح لها صـــورا إلا سياطا كأذناب لثيـــــــران
... يا رب كم يوسف فينا نقي يد دانوه بالسجن والقاضي هو الجاني[1].

وللأعياد في سجون الاحتلال الإسرائيلي رتابتها ومرارتها، إذ تتوالى لطول مكث السجناء فيها، عيد تتبعه"أعياد" كما أحب الشاعر التعبير عنها بصيغة الجمع، ولا أثواب جديدة إلا الأصفاد، ولا أنوار إلا وهج الجراح، وإلا براكين الأحزان التي يفجرها الجلادون، ويسائل كسابقيه هذا العيد الزائر عن ذلك اليوم الذي يعصف بالأعداء ويزلزل بنيانهم القائم على الفساد متى هو؟ ومتى يتوشح بالفرحة كالأطفال من غير سلاسل وقيود :

عيد يمر ويتلو العيد أعيـــــاد والسجن يرفل والأثواب أصفاد
توهج الجرح واشتعلت جوانبه وفجر الحزن كالبركان جـــلاد
... يا أيها العيد، يا حبا نواعده متى سيعصف بالأعداء إعداد.؟
متى نزلزل كالإعصـــار أبنيـــة وردية الشكل والمضمون إفساد
ليلبس العيد كالأطفال بهجتـــه بلا سلاسل في الأنواء تصطاد[2].

ويشذ عن هؤلاء الشاعر اليمني أحمد محمد الشامي، وقد كان واحدا من أحرار اليمن الذين قادوا ثورة انقلاب 1948، وكتب دستوره بخط يده آنذاك ووقعه علماء اليمن وأحرارها بعد ذلك، إذ يغرق في حنينه إلى سالف أعياده خارج السجن وكيف كان يقضيها في لجة اللهوبين الأزاهير والحسان، فيتحسر على تلك الأيام الحرة المنطلقة، ويأسف على حاله إذ أصبح في عداد المفقودين من الحياة، تتباطأ أيامه في سجن نافع فكأنها تتقضى مقيدة مثله، زاحفة متشابهة فلا يعدها الشاعر أو يخلدها في ذاكرته :

أشعلت نار الجوى يـــا ليلة العيـــد فبت أزفـــر في هم وتسهيـــد
ذكرت سالف أيامي الـــتي قنصت شباب روحي في حب وتغريد
ذكرت عهدا غمسنا فيه أنفسنـــا في لجة اللهوبين الزهر والخـــود
واليوم لا نغمة الأفراح أسمعهـــــا ولا صدى سحرها يجزي بترديد

[1] - يوسف القرضاوي – نفحات ولفحات – دار الصحوة ودار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع – مصر – ط3- 1409-1989 - "مناجاة في ليلة القدر". 39- 40.

[2] - فايز أبو شمالة – "سيضمنا أفق السناء (قصائد مهربة من وراء قضبان السجون الإسرائيلية) مكتبة مذبولي – القاهرة –ط1 - 2002 - 51-52.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

... في السجن تزحف أيامي مكبلة بلا حساب، وتمضي دون تعديد
في سجن"نافع" حيث الحق مضطهد والناس مابين موثوق ومشدود...[1].

ويطرق العام الجديد معقل نجيب الكيلاني، ويأتيه على غير عادته خارج السجن، صامتا محملا بالأسرار الغامضة الخافية البعيدة عن الفهم والإدراك، ويكرر في جزء من لازمته العبارة الموجعة "أي عيد" هذا والشاعر لا يعيش لحظاته مثلما كان يحياها حرا طليقا، إلا أنه يتأسى في الختام ويتجمل بالصبر وينتهي إلى فلسفة جديدة تعلمها في مدرسة السجن، فيرى أن من يعش الاصطبار والاعتدال فذاك يوم عيده الحقيقي :

يا رفاقي قد أتى عام جديـــد مفعم بالصمت والسر العتيد
ليتني أدري خفايا صمتـــــه وطوايا سره الخافي البعيـــد
عندها أعلم مـــاذا خطبـــه وأنـــا فيه شقي أم سعيـــد ؟
لست أدري يا رفاقي أي عيـــد ؟
نسمة هبت وطافت بالعيون فشجاها الدمع والدمع هتون
همست بي أنت يا ذا موثق وأرى الأغلال صيغت من ظنون
إنما العيش ثلاث كلـــــه اِصطبار واعتدال وفنون
فـــاعلم الآن بـــأن اليوم عيـــد [2].

وكذلك يعود عيد الشاعر أحمد جلال بلا جديد، بل يعود ليفتح جراحه من جديد، فيدعوه أن يغادر سريعا لأنه لم يعد ذلك العيد الذي طالما تمناه واشتهته أمانيه الشهيدة، وعاش لحظاته السعيدة :

من جديد عدت تنكأ لي جراحي من جديد / وخيالي عاد للذكرى وللماضي البعيد / أمض يا عيد وأسرع لم تعد يا عيد عيد[3] .

ويعلن في قصيدة ثانية أن عيده لا يزال ناء بعيدا، وأنه لن يرضى بأي يوم عيدا له إلا ذلك اليوم الذي يجد فيه نفسه خارج الأسوار ويجد وطنه أيضا خارج السور الكبير:

لا تلم يا عيد قلبي للجمود/ فأنا يا عيد من دنيا القيود/ يوم عيدي لم يزل ناء بعيد/ يوم أغدو خارج السور الكبير/ لست أرضى غير ذاك اليوم عيد[4].

ويسائل الشاعر محمد فوزي راغب ذلك العيد الذي أطل عليه في سجنه عما يخبئه له هلاله في غد، أمبشر هو بالجديد؟ ويقدم له اعتذارياته إذ تمنعه القيود من تقديم التهاني بالعيد، ويتمنى لذلك الذي يستطيع

---

[1] - أحمد الشامي - حصاد العمر- دار العودة - بيروت - سلسة الأدب اليمني المعاصر- ("ليلة عيد في سجن نافع"). – 82- 79.
[2] - محمد محمود الغرباوي – الشعر في سجون مصر - 1882- 1980- الملحق - 684-685 .
[2] - المرجع نفسه – 685 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كسر أغلاله وفك قيوده السلامة والعافية "فلا شلت يده" :

يا عيد عذرا إن نظمت نشيدي لك حافلا بالنوح لا التغريد
ماذا يخبئه هلالك في غـــــد أتراه جاء مبشرا بجديـــــد
... ولقد أردت السير فيك مهنئـــا فوجدت رسغي محملا بحديد
... قد طال بي الأسر، فلا شلت يد تفري بقبضتها حديد قيودي[1].

ويدعوا الشاعر محمد الفاتح رفاقه إلى التجرد من أثواب اليأس واستقبال كل ما تأتي به الأيام بقلب مفعم بالإيمان والتوجه إلى الرحمن يوم العيد وهجران عالم الآثام السابق :

تجرد عن ثياب اليأس يا صاح ولا تبـــك
وصافح كل ما تأتي به الأيام من شـــــوك
بقلب ملؤه الإيمان كي تنجو من الشـــرك
فلا أنت الذي تقضي ولكن صاحب الفلك
... ووجه قلبك الباكي إلى الرحمن في العيد
وهاجر من دنى الآثام من أيامك الســـــود
ترى الدنيا كوجه الحسن فوق فؤاد مولـــود[2].

ونستشفُّ من هذا المقطع الشعري وما سبقه من شواهد شعرية لهؤلاء الشعراء المغمورين الذين نشروا نتاجهم في مجلة السجون المصرية أنهم لم يكونوا من سجناء الرأي أو الجرائم السياسية التي كانت القاسم المشترك بين أغلب شعراء دراستنا وإنما دخلوه لجنايات أخرى أشارت إليها أشعارهم تلميحا حينا وتصريحا آخر مثل قوله"هاجر من دنى الآثام من أيامك السود"، ذلك أن غيرهم من الشعراء الذين حملوا ألوية النضال السياسي لم يكونوا يجرؤون على تقديم نتاجهم الشعري إلى إدارة السجون، فهم يعلمون مدى رقابتها الصارمة بل رأيناهم يهربونه بطرقهم المعروفة ويوصلونه إلى القراء عبر قنواتهم الخاصة بعيدا عن أعين النظام.

والحقيقة أن العيد لم يكن مناسبة للفرح عند شعراء الحبسيات وإنما كان فرصة للتذكير بمعاناة الشعوب وآلامها والدعوة إلى خلاصها من براثن الظلم والعدوان وتحريرها من سجونها الكبيرة لتذوق طعم العيد الحقيقي.

ويلتفت الشاعر العراقي محمد بهجة الأثري من معتقله بالعمارة إلى شريحة مهضومة في مجتمعه المكبل هي شريحة الأعرابيات العاملات في الحقول وقد رآهن رأي العين يكابدن الشقاء باليات الأسمال شعث الشعور،

---

[1] - المرجع السابق – 876 .
[2] - المرجع نفسه - 686.
[2] - المرجع نفسه – 789- 790.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حافيات الأقدام، فأرسل زفرات واحتجاجات واستفسارات متواصلة على لسان إحداهن "متى يؤذن بصبح جديد" ولكنها صرخات تلاشت من غير جواب[1].

ويعيش الشاعر الفلسطيني فايز أبو شمالة أجواء من الفرح في إحدى صباحات شعبه المشهودة، فيشارك أبناء شعبه فرحة الدخول المدرسي وبداية العام الدراسي الجديد، ويهدي للأطفال تحياته وهم ينثرون على الوطن أزهار الأمل، ويحرك فيه تذكر ذلك المشهد أو ربما مرآه من إحدى منافذ السجن، أو سماع حركته وصخبه حنينا إلى معايشته ومشاركة أولئك الذاهبين لصنع المصير، الغادين إلى ساحة المعركة، معركة أطفال الحجارة البواسل :

ولكم صباح الخير يا أطفال حاضرنا الفتي / لكم رموش الفجر إكليل من الغار الذي / جمع الزمان على جبينكم البهي / وكرم هذا الفصل مسروج على ظهر الطموح / وما لنا إلا الطموح كنخلة تصبوا لئلا تنحني/ يا أيها الحب الكبير / ...لو كنت بينكم صغير / مع الغادين هذا اليوم صوب المدرسه / مع الغادين ساح المعركه / أين الحجر؟ / لو كنت مثلكم أطير / لرسمت قلبي أنجما ترنو اندفاعات المسير[2].

كما يرسل مفدي زكريا من الزنزانة رقم 83 (أوت 1956) نشيد "بنت الجزائر" يتغنى على لسانها بانتمائها للجزائر والعرب، وباستجابتها لنداء الواجب الوطني وخوضها غمار النضال إلى جانب إخوانها[3]، و يسجل أحمد عروة "نشيد الثائرات" اللائي اضطرتهن صيحات الجهاد ودماء الضحايا الأبرياء إلى خلع أثواب الخوف والتقدم إلى ساحات الحرب والمساهمة في تحرير البلاد[4]، ويتلقى الشاعر كمال ناصر وهو قابع في أعماق سجنه رسالة شعرية من رفيقة الكلمة "فدوى طوقا هي قصيدتها إلى "المغرد السجين" فيجيبها بقصيدته "من الأعماق" التي أبت إلا إثباتها في ديوانها، يعدها فيها بعد حديث الذكريات والماضي الهنيء أن يكون حرا كما أرادته، وأن يكون لشعبه أبى طلبه أتاه ، ويبشرها بانتفاضته الآتية فله – وإن ظل خامدا – ظفر رهيب وناب قادرين على الثأر واجتثاث الذئاب من الأرض :

أنا مثلما شئتني أن أكـــــون وشاءت لي الحادثات الصعاب
كبير على الذل لا أرتضيـــــه ولي موطىء خالد في السحاب
أريد الحياة لشعبي الجـــــريح لتكبر فيه الأماني العـــــذاب
غدا ينفض الشعب أوهـــامه وللشعب ظفر رهيب ونـــاب
ملايينه أقسمت لا تنـــــــام وفي دربها موطىء للذئـــاب

---

[1] - محمد بهجة الأثري – ملاحم وأزهار – الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1974 – " الأعرابية الكادحة" - 311.

[2] - فايز أبو شمالة – سيضمنا أفق السناء – 65-67.

[3] - مفدي زكريا – اللهب المقدس – 93-94.

[4] - أحمد عروة – ذكرى وبشرى 14-17 (وقد خاطب الشباب الحر بـــ"نشيد الشباب الثائر" الذي افتتح به ديوانه انظر ص 11- 13).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تحن إلى الثأر عبر العـــــذاب وتحصي الثواني ليوم الحساب
إذا هتف الشعب يوما بروحي أطلت له من حنـــايا التراب[1].

وفي هذا العصر الذي تعالت فيه المنظمات الدولية المطالبة بحقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعية وتكاثرت فيه المنظمات والاتحادات العمالية المطالبة بإنصاف هذه الفئة وتحسين ظروف عملها ومعيشتها، اتفق عدد من شعراء الحبسيات على نسيان واقعهم والتطلع إلى معاناتها، والتغني بنضالها في ميادين بناء الأوطان حينا وبناء صروح الحرية آخر، فعلى لسانها نظم الشاعر أحمد سحنون نشيد "العامل الجزائري" و"العمال"[2]، ولها وضع أحمد عروة "نشيد العمال"[3]، ثم صور معجزات عطائها في قصيدة ثانية هي "مناظر العمل"[4]، وعلى لسانها نظم مفدي زكريا " النشيد الرسمي للاتحاد العام للشغالين الجزائريين"[5]، وهم الذين يجعلهم توفيق زياد في قائمة أحبابه الطويلة، التي تضم كل قبضة مهزوزة في أوجه الأنذال[6].

أما البردوني الثائر الغاضب دائما فينفتح على شعبه بطريقته الخاصة، ويحمله مسؤولية ما آل إليه الإمام من تجبر وطغيان، لأنه هو الذي دلَّلَهُ صبيا وأجلسه كرسي العرش غلاما، ويدعوه إلى النهوض وترك الوهن والضعف وهدم أبراج الظلم التي شيدها على مر السنين :

اعذر الظلم وحملنا الملامـــــا نحن أرضعناه في المهد احترامـــا
نحن دللناه طفلا في الصبـــــا وحملنـــاه إلى العرش غلامـــــا
وغرسنا عمره في دمنـــــــا فجنيناه سجونـــا وحمامـــــا
لا تلـــم قادتنا إن ظلمـــــوا و لم الشعب الذي أعطى الزماما
آه منـــا آه ما أجهلنـــــا؟! بعضنا يعمى وبعض يتعامـــى
نأكل الجوع ونستسقي الظما وننادي "يحفظ الله الإمامـــــا"
يا زفير الشعب حـــرق دولة تحتسي من جرحك القاني مداما
أنت بـــانيها فجرب هدمها هدم مـــا شيدته أدنى مرامـــــا
لا تقل فيها قوى الموت وقـــل ضعفنا صـــورها موتـــــا زؤاما[7].

ولهذه الثورة المنشودة وقصص التمرد الشعبي ينتفض الشاعر توفيق زياد في سجن ألدامون ورفاقه،

---

[1] - فدوى طوفان – ديوان فدوى طوفان – دار العودة – بيروت – ط1 – 1978- 325-331.
[2] - أحمد سحنون الديوان – 310-311.
[3] - أحمد عروة – ذكرى وبشرى – 18-24.
[4] - المصدر نفسه – 25- 30.
[5] - مفدى زكريا – اللهب المقدس – 100- 103.
[6] - توفيق زياد – ديوان توفيق زياد – دار العودة – بيروت - 2000 -141.
[7] - البردوني – الديوان–1/392-397.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويهللون كلما جاءهم أخبار عن تمرد أي شعب ينشد الحرية، عن قصة أي شعب متوثب شامخ رافض الانحناء للظلمة، ويجعلون من تلك البطولات الشعبية إحدى محاور مسامراتهم السجنية الكثيرة :

أتذكر ... إني أتذكر/ لما كنا في أحشاء الظلمة نسمر / ... نتوعد عند حكاية سلب / ونهلل عند تمرد شعب.../ يتحرر /* * * / ونحدث عن صلف الأقزام / عن شعبٍ لم يحن الهامة للظلام/ ... عن عزم يتوثب/ في وجه الشعب الأسمر / عن أمل في عينيه يتنمر / ... عن يوم يشب فيه ويكبر[1].

ويعلن الشاعر عن حبه لكل شرائح شعبه الذي أرهقه الاحتلال بالجوع والتشرد والحرمان:

يا أمتي التي في عنقها الأغلال / يا شعبي الذي يريده الطغاة / أن يقبل النعال / .... يا إخوتي العمال أحبكم جميعكم / ... أحب شعبي الذي أرهقه التجوال[2].

ويختم سمره السجني بوعود يصر على تكرارها وتوكيدها يقدمها لهذا الشعب الأغلى من روحه عنده، إنه باق ومن معه على العهد، باقون على العهد حتى التحرير واستعادة الوطن المستلب :

يا شعبي .../ يا عود الند / يا أغلى من روحي عندي / إنا باقون على العهد / لم نرض عذاب الزنزانه / وقيود الظلم وقضبانه / ونقاسي الجوع وحرمانه / إلا لنفك وثاق القمر المصلوب / ونعيد إليه الحق المسلوب[3].

وإلى هذا الشعب الصامد المكافح يتوجه "بتحية" يحثه فيها على التمرد لتحرير تلك البلاد الجميلة التي يغرق في وصف مفاتنها لإغرائهم بالظفر بها بدل العدو الجاثم على صدرها السالب خيراتها الوفيرة وبيادر تبرها الضائعة وجداولها الفضية المنسابة :

تحية الإباء والتمرد / لشعبنا المكافح الموحد / توثبت حروفها غزيرة / ... تهب في انطلاقها بعصبة / أبية : تمردي.. تمردي / تمردي على الظلام واسخري / من مسخه المشرد المستعبد / من الطغاة سالبي غلالنا / بيادرا بتبرها المبدد / بلادنا جميلة ... جميلة / يضوع في نسيمها شذا الغد / وكل جدول بها كأنه / ذراع طفلة مفضض ندي / وغنوة من الحنان و الرضى / تذيبها على لسانها الصدي [4].

ومن أجل بقاء هذا الشعب الحبيب، من أجل سلامته، من أجل راحة هذا الشعب صانع اللهب، يقدم البياتي تضحياته الجسام، ويفقد في سبيله كل ما يملك، وينتهي إلى قمة التضحيات فيرتضي اعتلاء الصليب ليوقظ شعبه السجين من سباته ويذود عن عيونه ما تراكم عبر الزمن من غشاوة أو نعاس :

أنا هنا وحدي، وحدي على الصليب / يأكل لحمي قاطعوا الطريق والمسوخ والضباع / يا صانع اللهيب يا شعبي الحبيب / أنا هنا، وحدي على الصليب / يسيطر على بستاني الصغار / ويرجم الكبار/ ظلي

---

[1] - توفيق زياد – الديوان – 114-115.

[2] - المصدر نفسه – الديوان - 140- 142.

[3] - المصدر نفسه – الديوان – 119.

[4] - توفيق زياد – الديوان – 171-172.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الذي يبسط كفيه على النجوم / ليمسح الهموم / عن وجهك الحزين / يا شعبي السجين / يا رافع الجبين.../ أنا هنا وحدي أذود النعاس / عن عينك المتعبه / يا صانع اللهيب يا شعبي الحبيب[1].

وباسم الشعراء حملة المصابيح ومشاعل الهداية يغني الشاعر العراقي محمد جميل شلش لشعبه الحامل بذور الثورة رغم جدب الظروف التي استثقل أمدها فرآها ألفا من الأعوام العجاف، المبتلي بالعذاب المستمر، الرافع للقمة صخرة سيزيف العنيدة، ويغني لشعبه الكادح المرسي لبنات السلام، المداوي الجراح المسامح مرارا ومرارا، يغني في أعماق سجنه لشعبه المقهور ظاهرا، القاهر بصبره وإرادته الفولاذية أعداءه:

.... باسمكم يا إخوتي/ غنيت في ليل التتار/ باسمكم غنيت في أعماق سجني/ ... أيها الشعب الذي يحمل من ألف عجاف/ أيها الشعب الذي يرفع للقمة/ سيزيف الدماء الراعفه/ أيها الصامد كالبحر بوجه العاصفة/ آه كم تكدح للحب، وتبني للسلام/ كم تداوي الجرح بالجرح.../ وكم تعفو... وتعفو...[2]

ولأنه آمن بهذا الشعب الصامد صانع التاريخ، وظل يغنيه من أعماق السجن، ويعمر قلبه بحب الملايين في ليالي عذابه الطويلة، ولأنه ترقب الفجر وغنى لمجيئه، فإن أحفاد التتار وصناع المآسي اغتالوا أفراحه وأفراح شعبه الذي يستلهم من قصص صموده الزاد لشعره:

لم أزل في ليل هولاكو / وفي أعماق سجني/ للملايين التي تصنع تاريخي.../ لأحبائي أغني/ لم يزل ينبوع فني / شعبي الصامد في ليل الرفاق،/ ... وأنا في ليل سجني / للملايين أغني : / حسب إيماني.../ ... وحسبي... / إنهم - عشاق"لينين" / و"دمتروف".../ أحفاد التتار/ يصنعون اليوم مأساتي.../ ويغتالون أفراح النهار/ ويغنون على أشلاء أحبابي... وذنبي / أنني غنيت للفجر..../ وآمنت بشعبي[3].

وإن تفاعل هؤلاء الشعراء مع شعوبهم وتوحدوا بآلامها وتطلعوا إلى آمالها وتفاءلوا بنصرها، وإن شاركوها مآسيها وأفراحها بل ودعوها في كثير من الأحيان إلى رفض واقعها المر والثورة على سارقي أمنها ورفاهها، فإننا نجد الشاعر المصري عبد الرحمن الشرقاوي في لحظة من لحظات الضعف واليأس يشذ عن القاعدة ويخالف كل هؤلاء الشعراء الذين رفعوا التحدي شعارا ويستسلم لإرادة سجانيه فينصح الشعب المصري نصائح نستشف من ورائها سخرية لاذعة من صناع مآسي الشعوب باصطناع الصبر وكظم الآلام، ويقنعه بالرضا بحال الفقر والجوع وكل ما آل إليه على أيدي الطغاة المستبدين، ويبلغ به المدى أن ينصحه بإمساك زفراته إن استطاع وإلا فسيودي بها "نظام الحكم" كما أحب تسميته وكرر المقطع نفسه في موضعين، وسيلقى المصير نفسه الذي لقيه الشاعر ولكن مع هذا هناك بصيص أمل في غد الوحدة والأخوة القريب، حيث ستبني سواعد الأحرار من تراكمات الظلم والحرمان عالما حرا :

أخي يا أيها العاني ... ألا تصطنع الصبـــــــرا

---

[1] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية - " أغنية إلى شعبي" . 203/1.

[2] - محمد جميل شلش – ديوان الحب والحرية – منشورات مكتبة النهضة بغداد – 16-17.

[3] - المصدر نفسه – 52- 53.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فقد يودي نظام الحكم من زفرتك الحـــــــرى!
فلا تشكوا اضطراب الأمر في حيرتك الكبـــرى
ولا تصرخ من الجوع ... ولا تستبشع الفقـــرا
... ولا تغضب على الدنيا فإن الخير في الأخرى !!
.. تعلم أيها المسكين أن تصطنع الصبـــــــرا
فقد يودي نظام الحكم من زفرتك الحـــــرى !
لقد قلنا كما قلت فذقنا السجن ألـــــــوانا
غدا يا أيها الملتاع يحيا الناس إخـــــــــوانا
... وإن شد بنا الطغيان واستعمه واستشـــرى
فلم يترك من الأحـــرار في الخـــارج إنسانـــا
فإنا من جوى الحرمان نبني عـــــالما حـــــرا
جـــــــديرا بضحـــــــــايـــــانـــــا...![1]

- تجـــاوزه إلى القضايا العربية والإسلامية :

هذا وقد تجاوز شعراء الحبسيات الهموم الداخلية لشعبهم وانفتحوا على هموم المواطن العربي وعلى مشاكل الإنسان في كل أنحاء العالم فلم تكن الجدران العالية والزنزانات الفردية والحراس اليقظون لتمنع تواصل السجين بالعالم الخارجي مثلما لم تمنعه من مشاركة شعوبه وأوطانه، ولم تستطع كل تلك القوى المجندة لقمعه عزله عما يدور خارج السجن من أحداث فقد كانت لهم شبكات تواصل وإعلام خاصة، منها تلك التي كانت تتم تحت أعين السجانين وإدارة السجون بتوفير المجلات والجرائد ومنها الخفية التي كانت تتسرب إليهم عبر قنوات كثيرة لا يعرفها غيرهم، ولأن العالم العربي كان يعرف غليانا شديدا وحركات ثورية وانتفاضات فقد انفتح هؤلاء الشعراء على كل ما كانت تموج به الساحة العربية الكبرى من أحداث، فإذا كانت أجسادهم حبيسة هناك خلف القضبان، فإن أرواحهم كانت حرة محلقة جوالة، تنتقل من قطر إلى قطر دون حواجز أو حدود جغرافية ودون حاجة إلى جوازات سفر أو شهادات عبور وتصريحات بالخروج، فهذا سليمان العيسى يجوب بأحلامه وهو ملقى على خشب سجن "النظارة" الأوطان العربية فيسافر تارة إلى بلاد الرافدين ويحط حينا آخر بالجزائر، ويعود مرة أخرى إلى دمشق وإلى سجنه من جديد وواقعه المرير :

لو تنطق الجدر الثخـــان لحدثتك حديث شاعر
ملقى على خشب النظارة في عباب الحلم سادر

[1] - عبد الرحمن الشرقاوي – من أب مصري وقصائد أخرى – دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة – 1968 "امسك زفرتك" - 66-67.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هو في دمشق وتـــــارة في الرافدين وفي الجزائر[1].

وقد تواصل هؤلاء الشعراء بكل تلك الثورات والحركات، وتفاعلوا معها وشاركوا الشعوب العربية انكساراتها وانتصاراتها، وحيوا قادة ثوراتها وأبطالها المظفرين، ورثوا شهداءها، وهجوا الطغاة من قادتها، وفضحوا أساليب بطشهم وكشفوا خباياهم للشعوب، وتتبعوا أدق التفاصيل عبر أجهزة الإعلام المتاحة آنذاك للسجناء أحيانا كالأخبار التي كانت تنعش الصافي النجفي بصوت زميله يونس بحري وهو يقرأ عليهم من "إذاعة برلين" من داخل سجنه ما ينعش آمال القوميين العرب المتلهفين لأنباء الانتصار أو الخلاص :

وأشرفت من سجني على البحر قائلا ∴ من البحر يأتينا الخلاص أو"البحري"[2].

ومما يميز هذه المرحلة **بروز القومية العربية** وسعي بعض القادة إلى توحيد الأقطار العربية في إطار هذا الانتماء، مثل الجمهورية العربية المتحدة التي كانت تطمح تحت الحماس الجماهيري إلى ضم أقطار عربية أخرى كثيرة، ولكن الواقع العربي المتردي والخلافات العميقة والخصوصيات الداخلية لكل بلد حالت دون هذا الحلم. وبهذا الانتماء العربي تغنى كثير من شعراء الحبسيات وأطلوا من قعر السجن على الهم العربي المشترك ودعوا العرب للنهوض والدفاع عن الأوطان وافتكاك الاستقلال، يقول الشاعر مصطفى الغلاييني :

ما ذنبنا غير أنا معشر عـــــــرب نسعى إلى المجد سعيا غير متهـــم
مالي أرى العرب والأرزاء تعصبهم لا يوقظ الدهر منهم خامد الهمم
هب الغزاة إليهم في مضاجعهـــم يا للإباء ويا للصارم الحـــــذم
هبوا لكسر قيود طال محبسكـــم فيها فأنتم حماة المجد من قـــــدم[3].

ويصر جميل شلش على إهداء أغانيه للعرب والعروبة المطلقة أحيانا دون تحديد فهي في إفريقيا وآسيا، والمحددة أحيانا أخرى ببلدان معينة، فهو يغني للملايين الأبية في البلاد العربية، ويغني للملايين التي تقرع أبواب النجوم والتي تصنع في إفريقيا وآسيا السلام[4]، ويهتف بحياة العروبة الظافرة وبزوغ فجرها ودوام مجدها "لتحيا العروبة، حبا وخيرا، وفجر انطلاق"[5]، "المجد للعروبة الظافرة السمحاء"[6]، وإن بقي الشاعر وراء قضبان الحديد ظامئا محترقا، فإن هذا لا يمنعه من الغناء للنضال ولذلك الفجر الجديد، فجر العروبة المنتفضة المكتسحة الكوابح والسدود :

أنا لا أزال، وراء قضبان الحديد / ظمآن، محترقا أغني للنضال / لفجرنا الزاهي الجديد / لفجر العروبة

---

[1] - سليمان العيسى – الأعمال الشعرية – 230/1.
[2] - أحمد الصافي النجفي – حصاد السجن – 39.
[3] - أحمد قبش – تاريخ الشعر العربي الحديث – دار الجيل – لبنان – د.ت - 117.
[4] - محمد جميل شلش – الحب والحرية – 36.
[5] - المصدر نفسه - 81.
[6] - المصدر نفسه - 185.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهي تكتسح السدود[1].

ويتمنى في مناجاة حميمية لشعبه لو أن بأعماقه بركانا يتفجر في وجه الأعداء أو نارا خالدة في قلبه أو كبريتا محرقا على شفتيه أو زلزالا قاصفًا يحرك جماهير الفداء العربية، لو أنه يستطيع تجميع كل الآلام العربية في قلب رصاصة، أو يكون هو نفسه رصاصة تتفجر وتفجره، وتقذف حممه بطولات عربية سخية تجتاح الحدود العربية:

آه يا شعبي / لو كنت بأعماقك بركانا.../ وفي قلبك نارا أبديه / آه يا شعبي لو كنت على ثغرك كبريتا/ وفي عينيك أحلاما شقيه / آه يا شعبي/ لو كنت بوديانك زلزالا يهز الأريحيه / في جماهير الفداء العربيه/ آه لو جمعت آلامك في قلب رصاصه/ آه لو كنت رصاصه لتفجرت وفجرتك من أجل القضيه / لقذفت الحمم الظمأى بطولات سخيه / وانطلاقات تسد الشمس بالرايات / تجتاح النجوم العربية[2].

ومهما سجن الشاعر أو عذب فسيظل وفيا لهذا الانتماء الاختياري، ولن يبيع عروبتة بكنوز الأرض كلها :

"لأنني يا أصدقائي.../ بكنوز الأرض لا أبيع/ عروبتي./ ولن أكون الخادم المطيع"[3].

وقد عانت الجزائر من أجل هذا الانتماء الكثير وتعرضت لمحاولات طمس بشعة من قبل أطول استعمار وأبشعه، ومن عمليات محو لمقومات الشخصية الجزائرية ذات الانتماء العربي الإسلامي، وسن المستعمر من القوانين التي تعمل على إذابة الجزائري في المجتمع الفرنسي، مثل قانون الإدماج والتجنس وغيرها من المصطلحات الأخرى التي تهدف أساسا إلى محو المقومين الأساسيين: العروبة، والإسلام، وحارب التعليم العربي الإسلامي وحاصر خريجيه وضيق عليهم أبواب الرزق مما دفع ببعض الأسر إلى إرسال أبنائها إلى المدارس الفرنسية التي تعمل أساسا على خلق جيل أقل ما يتعلمه في مدارسها أن الجزائر قطعة فرنسية، ولكن على الرغم من قرن وربع من عمليات المسخ ومحاولات سلخ الجزائر عن الأمة العربية ظلت الجزائر عربية إسلامية وظل البيان العربي يدوي في فضاءاتها، وظلت الأمة العربية مشرقا ومغربا تؤازر هذا الشعب وتحتوي ثورته وثواره وتمده بالسند المادي والمعنوي إلى أن افتك حريته، وقد تغنى مفدى زكريا بهذا الانتماء وذلك الرحم الواصل أبناءه بالأمة، ورجا أمة العرب الكرام مواصلة مؤازرتها ونصرها ومرافعتها عن القضية الجزائرية العادلة :

وللشرق المؤزر دم نصيـــــرا ورافع عن قضيتنا مهابا[4].

وأشاد بكرمها ومسارعتها للنصرة كلما صاح صائح، وإلى كل أولئك الكرام يهدي الشاعر تحيته،

---

[1] - المصدر السابق - 214.

[2] - المصدر نفسه - 218.

[3] - المصدر نفسه - 221.

[4] - مفدى زكريا – اللهب المقدس – 40.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رسالة صاغها الشهداء وأسرى بها خياله المجنح إلى حمى الأمة، ولحنها وقع السلاسل سلاما يهديه فقط إلى أمم السلام، ولا سلام لغيرها، وكأننا به استحضر البيان النبوي في بعض مراسلاته الشريفة وصياغتها المميزة "سلام على من اتبع الهدى"، بتخصيصه وحده بالسلام دون غيره :

يا أمة العرب الكرام ، كـــرامة ... لك في الجزائر، حرمة وذمـــــام
في كل أرض للعروبة عندنـــــا ... رحم تشابك، عندها الأرحـــام
إن صاح في أرض الجزائر صائح ... لبته مصر، وأدركته شـــــآم
في المغرب العربي، عرق نـــابض ... يذكيه في (حرب الخلاص) ضرام
عز العروبة في حمى استقلالنـــا ... أيطير (مقصوص الجناح) حمـــام
هذي تحية شاعر يسمو بـــــه ... في دولة الأدب الرفيع نظـــــام
فعليك يا أرض الكرام تحيـــــة ... وعليك يا أمم السلام ســـــلام[1].

ويروي مفدي زكريا قصة صمود هذا الشعب وإصراره على انتمائه، ويؤكد تلك العرى الوثيقة والوشائج القوية التي تربطه بأمة الضاد، وقد زادت الجراح المشتركة روابطها قوة ومتانة، ليقف وقفة مطولة عند الجمهورية المصرية التي هرب إليها قصيدته المهنئة بالذكرى الرابعة للثورة والتي جلجلت بها إذاعة "صوت العرب" في فضاءات مصر الحرة :

... واستدرجوه فدبروا إدماجه ... فأبت عروبته لـــه أن يبلعـــــا
وعن العقيدة، زوروا تحريفـــه ... فأبى مع (الإيمـــان) أن يتزعزعا
وتعمدوا قطع الطريق، فلم ترد ... أسبابه، بالعـــرب أن تتقطعـــا
نسب، بدنيا العرب زكى غرسه ... ألم، فـــأورق دوح وتفرعـــــا
... إما تنهد بالجزائر موجـــع ... آسى الشـــآم جراحه، وتوجعـــا
واهتز في أرض الكنانة خـــافق ... وأقض في أرض العراق المضجعا
وارتج في الخضراء، شعب ماجد ... لـــم تثنـــه أرزاؤه أن يفزعـــــا
وهوت مراكش حوله، وتألمت ... لبنان، واستعدى جديس وتبعـــا
تلك العروبة إن تثر أعصـــابها ... وهن الزمان حيالها وتضعضعـــا
الضاد في الأجيال خلد مجدهـــا ... والجرح، وحد في هواها المترعـــا[2].

ومن الثورات العربية التي هللت لها الجماهير العربية واستبشرت بها وتفاءل بها الشعراء من خلف قضبان الحديد وباركوها آملين أن تحرك كوامن الثورة في شعوبهم ، و تفجر طاقاتهم الخاملة المستسلمة اليائسة،

[1] - المصدر السابق – 51-52.
[2] - المصدر نفسه – 59-60.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الثورة المصرية (ثورة 23 يوليو 1952) التي قضت على النظام الملكي وكل ما يحمله من رموز الاستعباد، وجاءت بشعارات جديدة هتفت لها الشعوب طويلا ولصانعها الأول وقائدها "اللواء محمد نجيب" تيمنا أن تتزاح عن بلدانهم ظلمات الاستبداد، و لم يبلغ من التهليل لهذه الثورة المظفرة ما بلغه شعراء اليمن القابعون في سجون حجة ونافع... الراسفون في الأغلال والقيود[1]، فقد اعتبروها ثورة العرب ككل ورأوا فيها منفذا ومخلصا لليمن كلها، وكأنهم كانوا ينظرون من وراء الغيب، فلم يمض على ميلادها عقد من الزمن حتى هبت مصر بكل ثقلها إلى نصرة أحرار اليمن الثائرين (في 26 سبتمبر 1962) والحفاظ على جمهورية اليمن الفتية[2]، و لم ينس شعراء سجون حجة وهم يقدمون تهانيهم الحارة للشعب المصري، لقادته، للنيل، أن يعرجوا على بلدهم السجين المصفد، طالبين له النصرة من هذه الثورة المظفرة، فهنالك وشائج متينة تربط الشعوب العربية وتوحدها، وتقربها من بعض، وإن باعدت بينها الحواجز الجغرافية الزائفة، إنه رحم الدين والعروبة :

إيه يا ثورة أطلت على الدنيـــــــا وكانت أشعة ووقـــــــــودا
أرسلي من لهيبك الحر لفحـــــــا نحو شعب قد عاف عيشا زهيدا
وابعثيه على الطغـــــاة شواظـــــا جامحا يخنق الربى والصعيـــــدا
هـــا هنا ثورة تئـــــن وشعـــب يقطع الجمر موثقا مصفـــــودا
وثبت أمس نحو "تنينها الجبـــــار" تبتز حقها المجحـــــــودا...
... أنقذوا أمة قد تلاشت وأرواحا تفانت وأوشكت أن تبيـــــدا
رحم الدين والعروبة يؤوينـــــــا ويدني ما كان منا بعيـــــــدا[3].

ويضمن الشاعر "محمد صبرة" قصيدته "مصرع الطغيان" أحكاما نفيسة مفادها أن الحاكم إذا طغى لن يحاكمه إلا عزم الشعوب وإقدامها، وأن الشعوب إذا أرادت فلن يوقف زحفها طاغ :

إذا زاغ رب التاج في حكم شعبه فليس سوى العزم الجريء يحاكمه
إذا ما أراد الشعب إدراك حقـــه فأي قوى يوم النضال تقاومـــــه
ومن يجعل الإخلاص للحق غاية له فليغامر فالنجاح ملازمـــــــه[4].

ويناجي الشاعر أحمد المروني هذه الثورة "منحة الإله وسطوته الحارسة الأفكار" أن تعم البلاد كلها وتسكن أشعتها كل الضمائر والمهج، ويسألها متى تزور شعبه الخوار لتبعث في دمه روحا جديدا قويا يعصف

---

[1] - الأغلال في الأعناق والقيود في الأقدام وقد وصف هذا المشهد شاعرهم القاضي عبد الرحمان بن يحي الأرياني. (انظر الثورة المصرية في الأدب اليمني – 15-18).

[2] - الثورة المصرية في الأدب اليمني – قصائد لمجموعة من شعراء اليمن في سجون حجة – 36- إلى آخر الكتاب.

[3] - المرجع نفسه– ثورة مصر) 45 - 46 - وانظر أيضا ديوانه "حصاد العمر" القصيدة كاملة من 141-157 عمد الشاعر إلى كتابتها في شكل يوحي أنها من الشعر الحر وهي عمودية.

[4] - المرجع نفسه – 61-63.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بعرش يسمي نفسه هاشميا يشيد حلمه على الأوهام والخرافات والأهواء[1].

أما الشاعر أحمد بن محمد بن عبد الله الوزير فيقدم قصيدته تحية إلى اللواء محمد نجيب البطل الحكيم الذي سطر لمصر نهج خلاصها وقادها بحكمته إلى بر الأمان، ويختمها بنداء إلى اليمن الخضراء ودعوتها إلى الثورة على درب صناع الدستور، فقد وضعوا لها الأساس وما على الشباب إلا مواصلة الدرب وتطهير اليمن من قتلة بنيه[2]. وكذلك يحيـــي الشاعر عبد الصمد عبد الوزير اللواء محمد نجيب وثورته المجيدة ويشكو من حال وطنه المظلم الواقع تحت قبضة الجناة على الدستور، ويدعوا الشباب إلى النهوض فهم أبطال هذا الشعب المقهور وهم حملة ألوية حريته :

يا شرق صفق للنجيب تحيـــــة تملا الفضاء تهانيا بســـرور
فهو الذي خلع المليك بقـــــوة وأباد عرشا كان للمغـــرور
وهو الذي ملأ القلوب شجاعة وحماسة من عزمه المشهـــور
يا شعب مصر تحية فيـــــاحة تهدي من الأرواح فيض عبير
مالي أرى وطني ظلاما خـــاليا من نور أفكار وعدل أميـــر
آراؤه وشعاره وحقـــــــوقه في قبضة الجاني على الدستور
أين التقدم يا شباب فأنتـــــم أبطال شعب جائع مقهـــور[3].

ويتحول جمال عبد الناصر بعيد انتصار الثورة وتنحية محمد نجيب إلى رمز بطولي شغل الشرق وهتفت الشعوب العربية باسمه وباسم الشعارات الثورية التي رفعها والإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التي دعا إليها، ورأت فيه رمز الموحد للعروبة والمخلص لها من أيادي الاستعمار والفقر والظلم، وظلت تلهج باسمه حينا من الدهر حتى وقعت فاجعة الهزيمة وصدمتها العنيفة، ومن الذين تفاءلوا به واتخذوه رمزا. الشعب العراقي مثلما تكلم على لسانه الشاعر عبد الوهاب البياتي ورأى فيه صانع السلام والأبطال وباعث النور في سماء العروبة المظلمة ورجاء الشعوب العربية :

باسمك في قريتنا النائية الخضراء / في العراق / في وطن المشانق السوداء / والليل والسجون / ... سمعت أبناء أخي القتيل / سمعتهم باسمك يلهجون / ... يا صانع السلام والرجال / يا جمال / وواهب العروبة الضياء/ ومنزل الأمطار في صحراء / حياتنا الجرداء، يا رجاء / عالمنا الجديد / وفجرنا المعذب الوليد[4].

وللشاعر أحمد المروني قصيدة نظمها إبان العدوان الثلاثي (الفرنسي، البريطاني، الصهيوني) على مصر

---

[1] - المرجع السابق – 98.
[2] - المرجع نفسه – 160.
[3] - المرجع نفسه – 165-166.
[4] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية – 1/ 191-192.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عام 1956، بعيد الجلاء وتأميم قناة السويس[1]. تتقد حماسة واندفاعا ومؤازرة للشعب المصري في محنته[2]، كما يطلق معين بسيسو صيحته من أعماق السجون المصرية مخاطبا أساطيل الأعداء الراسية على كل الشواطئ المفجرة أجساد الأبرياء بشظايا قنابلها المتطايرة بعبارة حازمة "فارفعوا الأيدي عن أرض القناة" وعن كل الموانئ لأن زمن القرصنة البحرية قد ولى، وعصر السفاحين عبر العصور قد اندثر، إنه عصر جديد أعلن ميلاده على أنقاض الثورات المظفرة، الداحرة لقوى الظلم كمعركة"دين بين فو" الفيتنامية التي هزمت فرنسا المتغطرسة شر هزيمة، وغيرت وجه التاريخ، وعصر التكتلات الجديدة لمقاومة الاستعمار ومساندة الشعوب الإفريقية في حق تقرير المصير كمنظمة دول عدم الانحياز وغيرها من المنظمات الإفريقية والآسيوية والأفروآسيوية والعربية والإسلامية :

الأساطيل وما زالت شظايا القنبلة / بدماء الشهداء الأبرياءْ / وهجا يلمح في موج ورمل اسكندريه / وعلى أمواج بيروت الضحيه / وهجا يصرخ لن تلقي الأيادي الهمجيه / بمراسيها على أرض القناه / فارفعوا الأيدي عن أرض القناه/ فبحار العالم المصطخبه / لم تعد أمواجها للقرصنه/ والأيادي العفنه / ليس هذا عصر توفيق الجبان / ... ليس هذا عصر نوري مندريس / ... إنه عصر جديد / عصر إنسان جديد ولدته فوق أطلال "دين بين فو" / ... عصر باندونج وأعراس الأمل.../ عصر أطفال الجزائر / عصر غابات الملايو اللامعة/ وبومضات الرصاص / وبأنوار الخلاص[3].

ويتغنى مرة أخرى بالمدينة الملوحة بزهرة الانتصار على المدى "بور سعيد"، بندقية البنادق وخندق الخنادق، ومصر المجنحة كلها، ويطمئنها أنها ليست وحدها في الميدان تقاتل، فلها شعوب أسرجت إليها البحار والسحب للقتال معها، من أجل إنقاذ مدينة الشاعر، عروس شعبه من فيالق الحية الرقطاء والغربان والهنود وكل الطامعين في جعلها حانة ومخدعا وقنطره[4].

ومن قعر بربروس يكتب مفدي زكريا رسالة إلى جمال عبد الناصر يؤيد فيها مسعى التأميم ويدعوه إلى مواصلة النضال وحماية مصر من هذا الضيف الثقيل النهم وقد عثر الحراس أثناء عملية التفتيش على مسودة القصيدة فمزقوها ودفع الشاعر ثمنها غاليا، عشرون يوما في زنزانة العذاب، يجلد بالسياط صباح مساء، ويعذب بالأشغال الشاقة والتجويع[5].

أما البردوني فالعروبة تعني له الشيء الكثير، تعني له الوحدة العميقة هوى ومصائر، يرى الوطن الواحد في الآخر والمدينة في الأخرى، صنعاء في دمشق، ومصر وسوريا علما في مأرب، وقبابا في صنعاء، وأهل دمشق

---

[1] - البردوني – رحلة في الشعر اليمني – 97.

[2] - انظر : مفيد محمد قمحية – الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر – 247-266.

[3] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 82-84.

[4] - المصدر نفسه – "المتاريس"- 105-116.

[5] - مفدى زكريا – اللهب المقدس- "قل يا جمال" – 299.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والكنانة والعراق ومكة ولبنان هم أهله وبنو أبيه الذين يبثهم أفراحه وأحزانه ويسألهم العون والنصرة لليمن المباح الدماء :

... دعني أغرد فالعروبة روضتي ورحاب موطنها الكبير رحـــابي
فدمشق بستاني ومصر جداولي وشعاب"مكة" مسرحي وشعابي
وسماء لبنان سمائي ومـــوردي "بردى" ودجلة والفرات شرابي
وديار"عمَّان" دياري... أهلها أهلي وأصحاب العراق صحابي
بل إخوتي ودم الرشيد يفور في أعصابهم ويضج في أعصـــــابي
وطن العروبة موطني أعيـــاده عيدي، وشكوى إخوتي أوصابي
يا ابن العروبة شد في كفي يدا ننفض غبار الذل والأتعـــــاب
فهنا اليمن الخصيب مقـــــابر ودم مباح واحتشاد ذئـــــاب[1].

ويتألم الشاعر سليمان العيسى من قعر سجن النظارة وهو يتأمل في ليله الساهر إلى الصباح صفحات كفاح أمته العربية وواقعها الراهن فلا يرى إلا الوحشة السوداء والأشلاء الممزقة وأضاحي الفداء، وما حياته بقعر الزنزانة إلا واحدة من ملاحم هذه الأمة السجينة ومآسيها :

الوحشة السوداء... صورة أمتي عبر الكفـــــــاح
هي فـــي زوايـــا الأرض أشلاء تمزق أو أضاحي
هي في النظارة ألـــــــف أغنية تعثـــــر بالجـــراح
ليست حياتي غيـــر بيت من ملامحها الفصـــــاح[2].

كما يتحسر معين بسيسو على حال العالم العربي كله، فالأردن لا بارقة أمل فيه ولا قطرة غيث في الأفق تلوح، وسحب كاذبة في عمان الناعق كالغربان، والشاعر عطشان لكن واحسرته على أمواه دجلة، على أمواج بردى، على النيل فاغر الفاه، وعلى جميع الأنهار العربية الهاربة خلف الأسوار والناس ظمأى والشاعر عطشان :

عطشان / واحرقة سحبك يا عمان / في الصيف الناعق كالغربان / لم تمطر قطره / واحسرة موجك يا دجله / بردى يا راوي الغله / كالجرح الفاغر يا نيلاه / ... قد ذبحوا البلبل / بجناح غراب / وأهانوا كأس جميع الأنهار / قد طفحت خلف الأسوار[3].

ومن الثورات العربية التي شدت إليها شعراء الحبسيات **ثورات العراق** وانقلاباتها وحكوماتها المستبدة المتعاقبة وحكامها الطغاة، وعلى رأسهم " نوري السعيد" الذي ردد أكثر من شاعر اسمه وعدد مظالمه، ووقف

---

[1] - عبد الله البردوني – الديوان- "زحف العروبة"- 1/ 375-377.
[2] - سليمان العيسى – الأعمال الشعرية – 1/ 228.
[3] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 183-184.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عند مظاهر فشله السياسي، حتى تخيل معين بسيسو الذي عاش في العراق وخبر سياسته عن قرب، وغادرها متخفيا هاربا خوفا من كماشة سجنه الرهيبة العراق كله سجينا تحت قبضته الغليظة، ولكن برغم مشانقه وأسلحته وبطشه ستظل تخفق روح المقاومة العنيدة وستعود بكل أولئك الذين يركبون ظهر المشانق والبنادق والسجون، يعدونه بالانتقام ويقفون في وجه الخيانة وإضاعة الوطن أو ما تشدق هو بتسميته "حلف الدفاع" :

سيظل يخفق في العراق / في ظل أقواس المشانق والرصاص / قلب المقاومة العنيدة والخلاص / ... أترى إلى شعب العراق / يعدو بأشلاء الوثاق ؟/ ...أترى سنابله الخصيبه / بدما مخالبك الرهيبة/ أترى إلى فهد الشهيد/ قد عاد يا نوري السعيد / قد عاد يركب مشنقه / أولم يعدك بمشنقه / وجميع صرعى حكمك الدموي عادوا يركبون / ظهر المشانق والبنادق والسلاسل والسجون / ... لكنهم عادوا ودل عليهم زهر الدماء / يهدونه الشعب الذي وقفت قواه بلا ركوع / وبلا فرار أو رجوع / في وجه ما أسميته حلف الدفاع/ وهو الخيانة والضياع[1].

وينتهي من مشاهدته العينية في العراق إلى اكتشاف نهر ثالث يضاف إلى نهري دجلة والفرات، نهر مغيب عن الخرائط الرسمية حاضر في الواقع العراقي، ينبع من سجن "نقرة السلمان" وباقي السجون له روافد تمده بدمائها المسفوحة ظلما، ويكتشف أن كل الطرق في العراق مسدودة، وكل الموانئ والمطارات والمحطات مغلقة، ولا طريق مفتوح مباح ولا مسلك متاح إلا ذلك المؤدي إلى السجون أو المقابر التي أحب الشاعر إيرادها في صيغة الجمع للدلالة على كثرتها :

أنا لن أراك، ولن تراني فالموانئ والبواخـــــر
والطائرات وكل ما هو للحقائب والمسافـــر
مسدودة إلا المسالك، للسجون أو المقـــــابر
... أنا لن أراك وربما ذابت ثلوجك في الخنادق
فذكرت دجلة والفرات وخفق أشرعة المشانق
فهناك نهر ليس تذكره الخرائط والوثـــــــائق
من "نقرة السلمان" ينبع والسجون له روافـــد[2].

وفي مظالمه القاصمة ظهر الشعب العراقي كتب الشاعر عبد الرحمن الخميسي، قصيدته"غنوة في العراق" وشعبه الموار غضبا على سياسته، وكما عودنا في مناجاته طيف الحرية المنتظرة، يدير حوارا فلسفيا فكريا مع طيفها المحبب إلى النفوس ويشكو لها حال هذا الشعب والوطن الأسير السخي في سبيلها بالمزيد من الدماء والشهداء، ولكن المتأهب أيضا للثورة على طاغيتها "نوري السعيد" والآخرون واجتثاثهم في أي لحظة :

---

[1] - المصدر السابق - "السجن الكبير" - 91-93.

[2] - معين بسيسو - الأعمال الشعرية الكاملة - 215-216.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حريتي... حرية الوطن المناضل في صمـــــــود
هذا العراق... دماه تقطر فوق أغلال الحـــــديد
ولوجهك المعبود ... يسخوا كل يوم بالمزيـــــد
فسلي المشانق والسجون... سلي المهاوي والنجود
وسلي الشوارع عن مصارع ألف عملاق شهيـــد
تنبيك أن الشعب طوفان على نوري السعيـــــد[1].

وإلى شهداء العراق (1947) أهدى الشاعر كمال عبد الحليم قصيدته" الحبال" مقدما بين يديها عبارته الشارحة "إن المشانق والسجون قد تقضي على الأشخاص... ولكنها لا تقضي على المبادئ" بل إن مشاهد إعدام القادة أمام شعوبهم، ومشاهد اختيال الدخلاء في البلاد وتمتعهم بخيراتها ومشاهد هول الموت والفقر والجوع ستفجر كوامن العداء الدفينة فيها وتحيلها إلى سلاح متمرد عملاق :

هاتوا الحبال من الأشواك واجتمعوا — لدى الجبال وهاتوا من تشـــــاءون
... أتشنقون أمام الشعب قادتـــه — وتجعلون من الإعدام قـــــــــانونا
وتعدلون فيأتي عدلكم عجبـــــا — من فاته الحبل يقضي العمر مسجونا
... فأقسم الشعب أن يلقي بشانقه — إلى الحبال لكي يحمي الملايينـــــــا
وقد يجفف هول الموت أدمعهـــم — ويستثير عداء كان مـــــــدفونـــا
فتستحيل أكف القوم أسلحـــــة — تردي ويلمع ناب الجوع مسنونـــا
وتصرخ الريح بعد الصمت معلنة — لقد تمرد شعب كان مغبونـــــا[2].

ومن سجن ألدامون يحيي الشاعر توفيق زياد ثورة 14 تموز العراقية ويتغنى على لسان قادتها وثوارها الذين ردوا الأمور إلى نصابها، واستردوا الأرض بخيراتها بدجلتها وفراتها وبتروها وذهب مناجمها الأخرى لأصحابها الحقيقيين، وأسقطوا التاج على رأس من استبد به وأذاقوه ما أذاقهم وعلقوا رأسه كما علق رؤوسهم بالأمس :

أنا علقت هذا الرأس / كي يذكر من ينسى / أنا علقته... والثأر يحيا / في دمي عرسا..!!.. أنا علقته الآن / فقد علقني.. قبلا!! / ... وهذا الرأس../ هذا القالب المتحجر القاسي / أنا علقته حتى / أعيد اليوم أعراسي / أنا عملاق هذي الأرض / لن أرضى لها غيري / أنا جبار دجلتها / ورب فراتها السحري / وذا البترول بترولي / وتبر مناجمي... تبري/ أنا علقته.../ ألقيت بالتاج إلى القبر/ فداء لعراق الكوخ/ فليسفك دم القصر/ أنا علقته اليوم/ فقد علقني أمسا..[3].

---

[1] - عبد الرحمن الخميسي – ديوان أشواق إنسان – دار الكتاب العربي للطباعة والنشر – القاهرة – 49.

[2] - كمال عبد الحليم –"إصرار" – 42-43.

[3] - توفيق زياد – الديوان- 43-46.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعلى أهازيج انتفاضة 1958 يسجل توفيق زياد قصيدته "جزيت النصر لانتفاضة 1958" ويهدي تحياته للعروبة المفداة، وللأمة التي غفلت زمانا على أغلالها ولكنها اليوم أفاقت وفي يدها سلاح الحق لصد الظالمين، أفاقت بشعوبها الثائرة التي صممت وأقسمت على الحرية من لبنان والشام والنيل وعلى تحطيم وهم العبودية وأسطورة القيد الواهية :

أتسمعها تزغرد في دمائي/ تحيات العروبة للواء/ ... وأفدي أمة غفلت زمانا/ على أغلال عبد مستبد/ أفاقت في فراش من لهيب/ وفي يدها سلام الحق يردي/ تحداها الطغاة فما توانت/ وكانت خير من قبل التحدي/ جزيت النصر ! نصل النصر دام/ يسل النور من صدر الظلام.../ جزيت النصر ! ذكر من تناسى/ "قناة الموت" ذكر من جديد / إذا اقتحموا الحدود فقد حفرنا../ قبور شبابهم.. عند الحدود !![1].

ويهدي محمد جميل شلش "أغنية إلى دمشق" وردة الربيع، من سجنه الرهيب، إلى أنشودة السلام ومشرق الوحدة ومشعل الفجر الكبير الذي يرنو العالم إلى سويعة انبلاجه القريبة، وتعمل السواعد في عتمة الظلام لتصنع الوحدة وتهب الحرية الحمراء للجميع :

إليك يا حبيبة الجميع / يا وردة الربيع / من سجني الرهيب / ... غنيت يا حبيبة القلوب / يا مشرق الوحدة يا أنشودة السلام / .. دمشق يا أنشودة الجميع / يا فرحة العصفور بالربيع/ دمشق يا جبارة تسحق كل نير/ يا مشعلا لفجرنا الكبير/ يا أمل الجميع[2].

ويرسل البياتي هو الآخر "أغنية خضراء إلى سوريا" وطن العقيدة والكفاح، وطن الأقاح المهدَّد الحدود بصغار النحل والطامعين في ابتلاع بعض أطرافه، يغني لها ويعلن عن حبه الخالد غير عابئ بالجلاد الممعن في تعذيبه ، مادامت تنتصب هناك على ضفاف بردى أكواخ رفاقه الكادحين، لأنهم هم صناع تاريخها الطويل وهم الأقوى من الأوغاد :

عيناي في عينيك، يا وطن العقيدة والكفاح / والنار في قلبي، وفي يدي السلاح / أحمي حدودك من صغار النحل/ يا وطن الأقاح / ... وليمعن الجلاد في قتلي، فحبي لن يموت / مادام لي كوخ على(بردى) ولي أبدا رفاق / ... للكادح العربي في عينيك / تاريخ طويل / أقوى من الأوغاد، يا وطن الرجال[3].

كما أرسل من قعر سجنه "أغنية زرقاء إلى فيروز" التي كانت رمزا ورسولا للسلام آنذاك، وغنت له وللشعوب المستضعفة، وكان لأغانيها دورها الإعلامي البارز في الساحة العربية، لذلك يريدها الشاعر أن تطل عليه في سجنه وتفتح بوابته للشمس ربما بأغنية جديدة حتى يرى العالم جراحه وجراح شعبه وقصص صموده، وأن تفتح كوة صغيرة في أغانيها لإسماع صوت الشاعر إلى العالم، يسافر من خلالها عبر الكلمات:

... افتحي للشمس، بوابة سجني/ ليرى العالم جرحي / .. ليرى العالم شعبي / صامدا في وجه أعداء

---

[1] - المصدر السابق– 297-305.

[2] - محمد جميل شلش – الحب والحرية- 173 -175.

[3] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية الكاملة –1/ 126-127.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحياة/ إنه أغنيتي الأولى وزادي وصباحي/ وعزائي في الكفاح / ... إنه شعبي، فحسبي / .. يا عبير الأوديه/ ... افتحي للبلبل/ في طريق الجبل / كوة في الأغنيات / ليرى العالم منها صرخاتي / إنها رحلتنا في عالم الإنسان عبر الكلمات / فافتحي الكوة، للشمس، وغني للحياة[1].

وإن فازت الحركات الثورية والانتفاضات والأبطال باهتمام الشعراء بل فرضت نفسها على فكرهم وإبداعهم لأنهم كانوا في الغالب يحملون الهم الوطني والعربي والإنساني على قصر عمرها، إذ هي أحداث تتقضى في بضعة أيام فإن **الثورة التحريرية الجزائرية الكبرى** لم تدم أياما أو شهورا ولكنها تطاولت بقوتها وشمولها كل تراب البلاد على امتداد سبعة أعوام كاملة امتد معها أيضا رد الفعل الفرنسي الجهنمي، وكان لها صداها في كل أنحاء العالم، وأثرها في ميلاد حركات تحررية جديدة، وحضورها في ديوان الشعر العربي المعاصر، وكانت أخبار معجزاتها وبطولاتها وأنباء المجازر الدموية البشعة تتسلل من خلف القضبان والأسوار إلى الشاعر العربي وتنسيه معاناته الفردية وتذكره أن هناك أوطانا كاملة ما تزال سجينة، فلا يجد إلا التجاوب معها وإرسال تحياته إلى أبطالها وبطلاتها وشهدائها وصناع أحداثها. ومن أجل إخماد تلك النيران الملتهبة بأرض الجزائر، ومن أجل اجتثاث جذور الهتلرية من أرضها وأرض المغرب العربي كله، يوجه جميل شلش نداء عاجلا إلى الضمير العالمي ليهب لنصرة القضية الجزائرية ويخبره في لغة الواثق من ساحة المعركة أن في الأوراس نيرانا ملتهبة إن لم يوقفوها فستأتي على المستعمر، وأن خلف المقاصل لا توجد جميلة واحدة أو اثنتين (بوحيرد وبوباشا مثلا) فنساء الجزائر كلهن جميلة وهن على أتم الاستعداد لاعتلاء مقاصل العدو ومنصات المشانق، ورجالها أيضا على أتم الاستعداد لحد مقاصل العدو، فكلهم عبد الرحمن خليفة يقدم الأعناق لحد المقصلة في سبيل الوطن، كلهم شامخ يتحدى مهزلة المستعمر والرأي الدولي المتفرج، ولذلك يوجه نداء عاجلا إلى هذا الضمير العالمي لإيقاف المهزلة الفرنسية على أرض الجزائر، نداء نستشف منه المعرفة الواسعة والإحاطة الجيدة بالثورة الجزائرية وأدق الأحداث التي تعج بها الساحة هناك، بشخصياتها بأمكنتها، بأزمنتها، وسائر تفاصيلها :

يا ضمير العالم الغافي على الأشلاء في ليل المجازر / إننا ندعوك من أجل الجزائر / إننا نصرخ من أعماقنا، من أجل كل البشريـــه / إن في أوراس نارا أبديـــه / وزنودا حرة سمراء، تجتث جـــــذور الهتلريـــه / إن في مغربنا الثائر من أجل القضيه / ألف أسطـــــورة مجـــد عربيـــه / ألف أخت لجميله / ألف"بوباشا" نبيله / ألف"رحمان" سيقضي تحت المقصله /شامخ الجبهة، حرا يتحدى المهزله / ... إننا ندعوك من أجل قضـــيه / يـــا ضميـــر البشريـــه[2].

ويرسل بدر شاكر السياب رسالتين إلى الجزائر الثائرة، أولاهما إلى البطلة جميلة بوحيرد حملها من عبق

---

[1] - المصـــدر السابق – 1/239-240.

[2] - محمد جميل شلش – الحب والحرية – "من أجل القضية" – 218- 219. (يريد برحمن : الشهيد عبد الرحمن خليفة).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأساطير القديمة وأسلوبه الموغل في الرمزية، ما يرتفع بها فوق البشر، بل فوق الأنبياء، ويقف بين يديها خجلا أمام هذا الذبح العظيم الذي قدمته فأنعشت به الحياة في دماء الجميع، يقول :

لا تسمعيها .. إن أصواتنا / تخزى بها الريح التي تتنقل، / ... عشتار أم الخصب، والحب، والإحسان، تلك الربة الواهه / لم تعط ما أعطيت، لم ترو بالأمطار ما رويت: قلب الفقيرْ / لم يلق ما تلقين أنت المسيح/ أنت التي تفدين جرح الجريح / أنت التي تعطين... لا قبض ريح، / يا أختنا، يا أم أطفالنا / يا سقف أعمالنا / ...ما خر سوط البغي في ساعديك / إلا وفي غيبوبة الأنبياءْ، / أحسست أن السوط، أن الدماء، / أن الدجى، أن الضحايا.. هباء / ... يا نفحة من عالم الآلهة / هبت على أقدامنا التائهة / إنا سنمضي في طريق الفناء، / ولترفعي "أوراس" حتى السماء[1].

وبعدها مباشرة يهدي قصيدة أخرى إلى المجاهدين الجزائريين "رسالة من مقبرة"[2]، يحثهم فيها على مواصلة النضال "لا تيأسو من مولد أو نشور،...وعر هو المرقى إلى الجلجلة" ويبشرهم بنور الشمس الذي بدأت تستقبله جبال الأطلس الشامخة.

ويختص عبد الوهاب البياتي من المغرب العربي الثلاثي المصفد بقصيدته "أغنية إلى مراكش وتونس والجزائر" يحي فيها أبطال هذا الجزء من إفريقيا ونجومه وأزاهيره وكرومه، ولهم يغني وهم يتحدون الموت في سوح القتال (في أوراس) ويعانون قيود الحديد في وهران على يد أعداء صديقه الشاعر إلوار[3]، إنهم الفاشيون صناع المآسي وزارعوا الظلام في فجر الشعوب المستضعفة الذين يدعو لهم بالموت ولأصدقائه في ليالي إفريقيا المظلمة بالنصر والسلام :

باسم أبطالك يا خيمة إفريقيا- النجوم / والأقاحي والكروم / ... باسمهم غنيت غنوا للسلاح / ... في ليالي شاعر حز وريده / في حديد السجن في "وهران" / في أعماق "وهران" البعيده / يا دما سال على أبيات "إيلوار الحبيبه" / إنهم أعداءه الفاشست عادوا من جديد / ...لك يا نافدة في ليل إفريقيا "السلام"/ ولك النصر / وللفاشست الموت الزؤام[4].

وعندما عجز المستعمر عن كبح جماح هذه الثورة العارمة، لجأ بعض قادته إلى أساليب قمعية بشعة سبق وأن أشرنا إليها في ثنايا تطرقنا للسجون الحديثة، ولكن الثورة واصلت زحفها وتدفقها، فلجأ بعض الحاقدين

---

[1] - بدر شاكر السياب –الديوان – 1/ 378-388.

[2] - المصدر نفســه 1/389-392.

[3] - إيلوار :Paul Eluard شاعر فرنسي –(1895-1952) انتمى إلى المدرسة السريالية في بداية حياته، ثم انضم إلى الحزب الشيوعي ، في أدبه أبعاد إنسانية واسعة. Petite La rousse – illustré 1986-paris - 1300

[3] - عبد الوهاب البياتي –الأعمال الشعرية - 1/234-235.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من الجيش الفرنسي إلى إنشاء منظمة الجيش الفرنسي السرية التي ما تزال آثار جرائمها إلى اليـــوم ماثلـــة في الذاكرة الجزائرية. وعن الفزع الفرنسي والرعب الذي أصابه والارتباك الذي حل في صفوفه إبـــان الثـــورة التحريرية، قصيدة"دقي يا أجراس الكومون" يصور فيها معين بسيسو حال باريس قبيل اســـتقلال الجزائـــر وشوارعها الغاصة بالكعوب الحديدية لمنظمة الجيش الفرنسي السري وهي تدكها، ولكن الشاعر لا يراها إلا طواويس منتوفة الأجنحة، قصيرة الخطوات لا يمكنها الوقوف في وجه زحف رفاقه الحـــراس هنـــاك خلـــف المتاريس، وكل ما يمكنها فعله هو إحراق الصورة المثالية التي تحاول باريس الظهور بها بعيدا عـــن عارهـــا في الجزائر، إحراق لوحاتها وقصائد شعرائها وروائع كتابها الإنسانيين الذين قـــاوموا الغـــزاة وكـــانوا مقـــاتلين على الجبهة في الحرب الوطنية العظمى ضد الاحتلال النازي[1]، أمثال "إيلوار و أراجون"[2]، فيتوســـل إليهـــا أن تنبعث من جديد من قلب باريس أغنية للحرية من شفتي أراجون :

باريس ... النار / ستضرم في لوحات / بيكاسو في أبيات / إيلوار في حدقات / عيون العمال / قد عاد على الساحات / من ولدوا من خطوات / "بيتان" براية"بيتان" / ... ما أقصر خطوات الطاووس / في ساحاتك يا باريس/ ... دقي يا أجراس الكومون / وإلى المتراس / رفاقي الحراس / ... يا بدر قصائد إيلوار/ في ليل الفاشه / ابزغ من شفتي أراجون / أغنيه / للحريه[3].

ويجد الشاعر المغربي "محمد الحلوي" في تحيته للجزائر وثورتها الفرصة سانحة للانقضاض على العدو المشترك، فقد خبره عن قرب وذاق وشعبه ويلاته واحترق بلظاه، وأيقن أنه جاف لئيم ليس من طبعه حفظ جوار أو صيانة ذمة، جبان ينتقم من الضعاف العزل كلما تلقى ضربة قاسية من فرسان التحرير، قاس لا ينبت في كل أرض يحل بها غير الدمار والثكل واليتم، لا تجدي معه أية لغة على وجه الأرض سوى لغة الحرب ومرادفاتها، ولذلك يدعوا الشعب كله رجاله ونساءه إلى خوض غمارها كما خاضها أجدادهم ورووا أرضها بدمائهم الزكية، ويقف الشاعر عند بطولات ليوث الغاب وزئير أولئك الثوار العرب الأباة الكرام وهم يسقون البغاة كؤوس الموت ويرجمونهم ببنادق الله، غير مبالين بطائراتهم المقنبلة المرسلة للموت أشكالا وألوانا، وبأعدادهم المتكاثرة كالنمل وعتادهم المزلزل المرعب :

أطلق النار أو فســـل الحسامـــــا هم أرادوا أن لا يقروا السلاما
وخض المـــــوت ثـــائرا عربيـــا ابن أسد عاشوا أباة كرامـــــا
لا يرعك العدو في عدد النمـــــــــــل يسوق الجيـــوش والأعلاما

---

[1] - كريم مروة – المقاومة - 216.

[2] - لويس آراجون Louis Aragon (1898-1982) كاتب وشاعر فرنسي واحد من مؤسسي المدرسة السريالية. انضم عام 1939 إلى الحزب الشيوعي الفرنسي، وناضل في صفوفه وظل يرتقى فيه إلى أن أصبح عضوا في اللجنة المركزية للحزب. كما ناضل بكتاباته وأشعاره التي تغنى فيها بحب فرنسا. Encarta 2004.

[3] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 205-207.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يرسل الموت من جبال حديـــــد مرعدات تزلزل الأهرامـــــا
ليس من طبعه الحفاظ على الجار ولا اعتاد أن يصون الذماما.

ويستخلص من قراءة مسيرة هذا الظالم الغاشم الذي خبره عن تجربة ورأى فعاله رأي العين حكما عديدة مفادها أن الباطل والضلال زهوقان، وأن للحق جولة تصرع البغي وترديه قتيلا، وأن العدو مهما أخمد من ثورات وانتفاضات فإن رمادها يخفي ضراما يأتي عليه كما أتى عليه أسد الثورة الغضاب من رماد ثورة الأمير عبد القادر ومن هبات الشعب الأخرى المخمدة، وأن لا سلام مع أدعياء السلام ممن يرفعون الشعارات الزائفة ويذيقون الشعوب المستضعفة مر العذاب، ولا حياة إلا لذي ظفر وناب، ولا حوار إلا للغة السلاح فهو المفوه الوحيد الذي إذا نطق أخرس من عداه وأرغم الكل على الإنصات له والاستجابة لإرادته :

.. قد خبرناهم فكانوا جفـــــاة وابتليناهم فكانوا لئامـــــا
..إن للحق جولة تصرع البـــــــــــــغي فتمسي أعوامه أياما
.. فامش في موكب الجهاد ولقن أدعياء السلام أن لا سلاما
قد خدعنا بالأنكلوسا كسون حينا وخبرنا من بعده العم ساما
فعلمنا أن الحيـــاة لذي ظـــــــفـــــرونا ب لا من يجيد الكلاما
ووجدنا الســـلاح خير خطيـــب كلما فاه أخرس الأقواما
إن ليل الغزاة ولى وفجر العـــــــرب يبدو مهللا بسامـــا
بـــارك الله في الجزائر شعبـــا عربيا مناضلا مقدامـــــا[1].

كما كانت **القضية الفلسطينية** ولا تزال في صدارة اهتمامات المثقف العربي والشاعر على وجه الخصوص[2]، فقد كان لها حضورها المميز في نتاج شعراء الحبسيات إذ تعني الأرض الفلسطينية الكثير للمسلمين جميعا والعرب على وجه الخصوص لقربهم الجغرافي منها وللروابط التاريخية العميقة بين الأقطار، ففيها أولى القبلتين وثاني الحرمين، وهي لم تقع في قبضة مستعمر يقضي مآربه منها ويعود إلى وطنه وإنما وقعت في يد شرذمة مشتته شريدة في الآفاق، أرادتها وطنا لها بعد شتات، وهذا مكمن الخطر ولب المأساة، فقد تفنن هؤلاء في اختراع ألوان من الظلم جديدة لم يعرفها التاريخ البشري على وجه الإطلاق، ، ولكن هذا لا يمنع الأمل في فجر حريتها وخلع ذلك الكابوس الثقيل بلاجئيه ومشرديه وأسلاكه الشائكة وجدرانه العازلة وكل مخلفاته الأخرى المعروفة والمجهولة.

ومن الشعراء الذين تألموا لمآسي الشعب الفلسطيني وبخاصة اللاجئين الشاعر سليمان العيسى فقد آلمه ذلك المشهد الذي لاحقه إلى سجنه في النظارة وحاوره، فخلد في قصيدته "لاجئة في النظارة" قصة لاجئة

[1] - محمد الحلوي – ديوان أنغام وأصداء – دار السلمي للتأليف والترجمة والنشر – الدار البيضاء – ط1- 1965- 117-125.
[2] - أنظر على سبيل المثال: مفيد قميحة –الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر -205-230.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فلسطينية ساقتها المقادير إلى مجاورته في سجنه وشق نحيبها وشهقاتها المتقطعة سكون ليله، فراح يتنصت ويلقي السمع إلى النحيب المتواصل يشق الدجى وينصت إلى توسلاتها للسجان ونصف شهقتها غير المكتملة، فقد أسكتت عويلها لطمة من السجان :

... وشق سكوني نحيب مريـــــر تقطعه شهقـــــــة عاريــه
وألقيت سمعي.. وراء الجـــــــدار وعلقت بالصمت أنفاسيـــــه
... وألقيت سمعي...وظل النحيب وراء جداري... يشق الدجى :
أقبل رجـــلك، دعـــني هنـــــاك أريد - بعرضك- أن أخرجا
.."خذوني"...وذابت بقايا الحروف على شهقة لم تجد مفرجـــــا
وأسكـــت إعوالهـــــا لطمـــــة تلاشت مع الباب.. إذ أرتجا[1].

وهنا ينتهي الشاعر من سرد القصة الحقيقية لهذه اللاجئة الفلسطينية ليدخل بنا عوالم الخيال والاحتمالات المفتوحة لرحلتها الطويلة، ويحملنا على أجنحة الخيال إلى بدايات قصة عذابها الأولى، وقد انقطعت عنه أنفاسها وجفاه النوم وتزحلق الجليد في جسده وتزاحمت الخواطر في خياله، فإذا بمجازر يافا تقفز إلى خياله ونكاد نراى معه بنيرانها ودخانها وأنقاضها وجماجمها، ونتخيل معه بنت العشرين تتخطى القذائف المجنونة وتتجاوز أهلها تحت الركام وتبدأ أولى خطوات النفق المظلم، تتسول اللقمة والمأوى، تهرب من بغي المحتل الغاصب فتجد نفسها في فبضة بغي عربي، بغي آخر أشد مضاضة، إنه ظلم ذوي القربى، ولا يراها وحدها بل يستحضر معها صورة ألوف ممن أوجدت لهم المحنة تسمية لم يعرفها التاريخ "اللاجئون "، ومنهم هذه الجارة التي وجدت ملجأ في الحديد، يلم أنفاسها الشاردة ويحميها من الظروف، وقد حمله الفضول إلى الحارس يسأله ما خطبها، ويعلم منه حقيقة أمرها، فينبري للدفاع عنها في مرحلة راجت فيها فكرة "المومس الفاضلة في الأدب العربي وتغنى بها كثير من الشعراء والأدباء[2]، ويحمل المجتمع مسؤولية ضياعها وجوعها :

أتجرم ... إن عثرت بالكمال وبالنخبة الصفوة الكـــاملة ؟
ألا قهقهي ما يشاء الخنـــــا ومري بإثمك فوق النـــــدم
وصبي على "الفاضلين" الدمار وألقي على الفاضلات"الحمم"
على بؤسك ارتفع المجرمـــون على عارك اتشحوا بالقمـــم
ألا قهقهي.. واسخري بالحياة برحمتنا بالأسى، بالألـــــم[3].

ويصور في قصيدة أخرى حال سجين لاجئ قذفت به هو الآخر فواجع حيفا إلى سجن النظارة فتمدد

[1] - سليمان العيسى – الأعمال الشعرية – 1/ 215-216.
[2] - انظر مثلا قصة الرافعي "في اللهب ولا تحترق" وقصيدة بدر شاكر السياب:"المومس العمياء"
[3] - سليمان العيسى- الأعمال الشعرية الكاملة- 1/ 218-219.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بجوار الشاعر، ذاهلا متوسلا بالحوقلات صابرا على قضائه وقدره :

وإلى جواري قد تمدد "لاجيء" مثلي مهاجـــــــــــر
قذفت به "حيفا" مصيـــــــرا مفجعـــا بين المصائـــــــر
متلفع بالحوقـــــلات على قضاء الله صـــــابر[1].

ويحمل الشاعر أحمد محمد الشامي الملك المصري ووزيره وقادته الذين وأدوا النصر الأكيد هزيمة 1948 وضياع فلسطين، ويعدها خيانة دبرها ثعالب المكر بشراء أسلحة مغشوشة :

آه لولا "ثعالب" المكر ما كنتـــم تركتـــــم في"تلثبيب" اليهـــــودا[2]
سحبوا جيشهم وأبقوكم تصـــــــــلون نار العـــدو جيشا وحيـــدا!
"والسلاح المغشوش" عانيتموه "ساعة الصفر" رهبة وصمـــــودا !
وإذا كانت القيادة عميـــــــــــــا ء فقد قادت الهزائم ســـــــودا
غلطة أم "خيانة"، أنا لا أعلم إلا الوعيد.... والتهديـــــــــدا
وتهاويل "قادة" خنقـــوا فـــي "ساعة الصفر" النصر والتأييـــــدا !
و"مليك " البلاد يرشف كأسا نخب لذاته، ويقرع "عـــــــودا"!
و "الوزير" الرهيب يستعبد الأحـــــــرار من قومه فخورا .. كنودا[3].

وإلى يافا المقيدة المعابر والحدود يهدي البياتي خمس قصائد، يرسم في الأولى معاناة شعبها عبر صلبان الحدود وأبوابها الموصدة في وجه أبنائها[4]، ويصور في الثانية مأساة ضياع اللاجئين المقهورين والصامدين وخيامهم البالية المشيرة إلى طريق العودة القريب ولكن الشاق والدامي أيضا[5]، وفي القصيدة الثالثة يخاطب أطفال يافا الهائمين على حدود الوطن العربي الكبير، يتقاذفهم ليل إسرائيل، يقيء الحقد والانتقام وينشر الشذاذ والمخبرين، ويصور ذلك الشوق الكامن فيهم إلى يوم يكبرون فيه ويترلون إلى سوح النضال[6]، ويحيي في قصيدته الرابعة كل شرائح الشعب الفلسطيني، المجاهدون، والشهداء، الأحياء والأموات، الأطفال والنساء،

---

[1] - المصدر السابق- 231.

[2] - في الصورة الأولى للقصيدة كما جاءت في كتاب الثورة المصرية في الشعر اليميني : ص 147.

آه لولا ثعالب المكر ماغـــــــــادرت في ذلك العرين يهودا
سحبوا جيشهم وأبقوك في الميـــــدان تصلى نار العدو فريدا
ثم غشوا – يا للنذالة ذخرا كنت أعددته زنادا عتيدا

[3] - أحمد محمد الشامي – حصاد العمر – 150-151.

[4] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية – 1/ 193.

[5] - المصدر نفسه – 194.

[6] - المصدر نفسه – 195.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشعراء والكتاب وهم يخوضون أيضا معركة المصير ويضربون يد الطغاة بطريقتهم الخاصة وسلاحهم المميز :

المجد للشهداء والأحياء من شعبي / وللمتمزقين الصامدين / المجد للأطفال في ليل العذاب / وفي الخيام / المجد للزيتون في أرض السلام / ...وللجيش المرابط في حدود / وطني الكبير/ جيش العروبة والخلاص / المجد للشعراء، والكتاب، أحباب الحياة / الخائضين اليوم، معركة المصير/ والضاربين يد الطغاة/ المجد للمرضى على سرر البكاء / وللنساء الكادحات / الأمهات[1].

أما القصيدة الأخيرة فيبشر فيها بفجر عودة إخوانه المتناثرين الجائعين"اللاجئون الفلسطينيون في كل أنحاء العالم" ويرى في الحلم كأنهم يعودون ويعود معهم يسوع ولكن من غير صليب إلى الجليل[2].

ويتفاعل الشاعر الثائر مظفر النواب مع القضية الفلسطينية، ويرى أن أي معركة تثور في العالم العربي والإسلامي لغير فلسطين هي معركة مشبوهة، ويجعل من القدس البوصلة الوحيدة التي يجب أن تتوجه إليها كل طاقات الجنود العربية والأعجمية، وإن توجهت بهم إحدى البوصلات إلى غيرها فليحطموها على رأس أصحابها ويعتمدوا على نبض القلب فسيقودهم لا محالة إليها، ويتفاءل أكثر بالجماهير العربية الزاحفة، ولكنه يفجع كما فجع الجميع بالهزيمة ولا يجد من يسأله عنها، عن أسبابها وملا بستاها غير الدم العربي:

يا جنود العرب../ يا جنود العجم../ أيها الجند / ليس هنا ساحة الحرب بل ساحة الالتحام / ... أيها الجند / بوصلة لا تشير إلى القدس مشبوهة / حطموها على قحف أصحابها / اعتمدوا القلب / فالقلب يعرف مهما الرياح الدنيئة سيئة جارفه / ... لقد داس من داس متجها نحو يافا بنيرانه الجارفه / جاء يوم الجماهير والعبقريات والعاصفه / مرحبا أيها العاصفه/ ... أيها الدم العربي لماذا هزمت / وواجبك العسكري فلسطين/ أنت أجب أيها الدم يا سيد المعرفه[3].

وينهال مرة أخرى بلغتهم الغاضبة الثائرة على العرب جميعا إذ فرطوا في القدس رمز عروبتهم التي يسميها "عروس العروبة" ويصرخ فيهم، يبحث عن شهامتهم، ويسأل إن كانوا عربا فعلا فلماذا أباحوا عروس عروبتهم لتدفقات الغزاة من كل جهات العالم لذلك الحمل غير الشرعي ، لماذا أباحوا عرضها، وتنافخوا شرفا صارخين فيها أن تسكت صونا للعرض، لكنها لن تصمت أبدا، ستفضح خيانتهم فقد ثرثروا ورقصوا كثيرا، وحملوا أسلحة لكنها كانت أسلحة تطلق للخلف! :

أصرخ أين شهامتكم / إن كنتم عربا... بشرا... حيوانات / فالذئبة حتى الذئبة تحرس نطفتها / والكلبة تحرس نطفتها / .. وأما أنتم فالقدس عروس عروبتكم / ...فلماذا أدخلتم كل السيلانات إلى حجرتها / ووقفتم تسترقون السمع وراء الأبواب / لصرخات بكارتها / وسحبتم كل خناجركم / ...أولاد قراد الخيل

---

[1] - المصدر السابق – 196.

[2] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية – 1/ 197.

[3] - مظفر النواب الأعمال الشعرية الكاملة - 24 - 25.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كفاكم صخبا / خلوها دامية في الشمس بلا قابلة / ... ستقيء الحمل عليكم بيتا بيتا / وستغرز إصبعها في أعينكم / أنتم مغتصبي / حملتم أسلحة تطلق للخلف / وثرثرتم ورقصتم كالدببة...[1].

فأولئك هم مغتصبوا فلسطين الحقيقيين لا الأعداء، وأولئك هم من باع فلسطين وأثرى، إنهم الثوار الكتبة المتخمون المتكرشون حتى غدوا بلا رقبة، الشحادون على عتبة الحكام الذين يقذفهم الشاعر بأقذع ألفاظ السباب والشتم من قاموسه الغاضب العجيب ويعريهم في كل عواصم الوطن العربي لأنهم قتلوا فرحه، يشتمهم ويشتم حتى نفسه، ويرى أنهم إن ظلوا على هذه الحال من المكابرة برغم الهزائم حكاما وجمهورا و لم يعترفوا فسيتحول العرب جميعا إلى يهود التاريخ وسيغدون مشردين في الصحراء بلا مأوى :

من باع فلسطين سوى أعدائك أولئك يا وطني / من باع فلسطين وأثرى بالله / سوى قائمة الشحاذين على عتبات الحكام / ومائدة الدول الكبرى / ... من باع فلسطين سوى الثوار الكتبه ؟ / ... القدس عروس عروبتكم / فلماذا أدخلتم كل زناة الليل إلى حجرتها / ...أولاد.../ لست خجولا حين أصارحكم بحقيقتكم/ أن حظيرة خنزير أطهر من أطهركم / في كل عواصم هذا الوطن العربي قتلتم فرحي / ...ما أوسخنا ما أوسخنا ونكابر / ما أوسخنا لا أستثني أحدا / هل تعترفون... سنصبح نحن يهود التاريخ / ونعوي في الصحراء بلا مأوى[2].

وتصبح فلسطين هذه القمة الصابرة المتقوية على جراحها، هذه المأساة الصامدة رمزا يتقوى به الشاعر ويستمد منه الصبر والثبات فكلما اشتدت عليه سياط الجلادين وغامت عيناه وتمزق لحمه تحت السياط وتأرجح بين الصحو والغياب، استند إلى بريق ذلك الصبر الأسطوري المعجز المضيء في عيني تلك الثكلى الشامخة، فلسطين التي يتماوج وجهها في عيني كل المغيبين الفاقدين للوعي إثر إحدى جولات التعذيب وتحضر لمدهم بحبال الصبر، لتذكيرهم أن لا وجع على وجه الأرض يمكنه مطاولة وجعها ولكنها واقفة:

غامت عيناي من التعذيب/ تشقق لحمي تحت السوط / ... بين الغيبوبة والصحو / تماوج وجه فلسطين فهذي المتكبرة الثاكل/ تحضر حيث يعذب أي غريب / أسندني الصبر المعجر في عينيها/ فنهضت[3].

وإن انتهى معين بسيسو إلى أن كل المعابر والموانئ والطرقات والمحطات في العالم العربي مقطوعة، ممنوعة إلا تلك التي تؤدي إلى المقابر أو السجون فإن الشاعر مظفر النواب ينتهي وفي غمرة ثورته وفي سخرية قاتلة إلى أن الوطن العربي الكبير كله سجون ممتعة، ممتدة من البحر إلى البحر: "العرب الأعراب من البحر إلى البحر بخير وسجون ممتعة"[4].

---

[1] - المصدر السابق - 483 - 484.

[2] - المصدر نفسه - 478 - 481.

[3] - المصدر نفسه - 498 - 499.

[4] - المصدر السابق – 546.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- انفتـــاحه على القضايـــا الإنسانيـــة :

ويتجـــاوز بعض الشعراء السجناء الوطن العربي والأمة الإسلامية إلى **العالم الكبير**، وينفتحون على شعوب العالم يشاركون الفئات المهضومة منها معاناتها، وفي مقدمتها السجناء وخاصة الذين اعتلوا منهم منصات المقاصل وتحولوا إلى رموز عالمية للشجاعة والفداء، وفئة العمال الكادحة وفئة المناضلين السود وما لاقوه من عنت التمييز العنصري القاضي بإبعادهم في أماكن خاصة، وحرمانهم من أبسط حقوقهم، من أولئك الذين حملوا لواء الكفاح ضد همجية التمييز العنصري، المناضل الرمز الذي أهدى إليه الشاعر معين بسيسو قصيدته" أغنية إلى زنجي أمريكي" جيمي ولسون Jimmy Walson، الصامد في سجنه والحالم حتى فوق صليبه بيد أخرى تواصل المسيرة بدلا عنه، ذراع البطل الروماني الشهير "سبارتاكوس"[1]، الذي قَاد أكبر ثورة للعبيد خلال عامين (73 - 71 قبل الميلاد)، وبميلاد عالم جديد يهب الجميع دون تفرقة بين أبيض و أسود :

هل يصدأ هل يذبل / ظل المصلوب وينطفيء البلبل..؟ / لا يا جيمي ولسون / قمري لن يسقط كالجمر / في قاع الجدول... / يا جيمي ولسون.../ هل تحرق في سجنك أم تشنق / لكنك تحلم / فوق صليبك تحلم/ بذراع سبارتاكوس تلمع/ والعالم يولد/ منها سنبلة فوق جبين/ الأبيض والأسود[2].

ويحيي سميح القاسم رفيقه المناضل"بول روبنسن" Paul Robenson المغني الزنجي الذي كان يدوي بأغانيه سماء نيويورك ويحاول إذابة الجليد عن قلوب أولئك القساة المتجبرين لينظروا إلى عمق مأساة الإنسان الأسود المقهور، فقد شقت صرخات ذلك المغني طريقها إلى قلب الشاعر الذي أدرك أن قوى الشر واحدة أينما كانت في أمريكا وإفريقيا وفلسطين، وأن عدو الإنسان الأسود هو نفسه عدو كل الشعوب المضطهدة التي تناضل من أجل الحرية، يقول :

من أقصى أطراف الدنيا / ينهلّ غناؤك في قلبي يا أقسى لافتة في الدرب / يا فاضح جور الإنسان على الإنسان / من أقصى أطراف الدنيا/ "بالله خذوا أمي للبيت" /"كي لا تشهد موتي" وتهوم في عيني / أشباح الكوكلوس كلان / يلهون بصلبك في الميدان / يلهون بصلبي في الميدان / وأفيق على ضربة طبل / ويعود إلى قلبي الإيمان[3].

ويشيد الشاعر السجين من قعر زنزانته المظلم بكل فلاحي العالم وعماله، ويراهم جميعا من صناع المصير وزراع النور في الآفاق، فكما تبزغ نجوم من دماء الشهداء وسواعد الثوار، تومض نجوم أخرى على يد

---

[1] - سبرتاكوس Spartacus : عبد ومصارع روماني فر مع مجموعة من العبيد وأعلنوا تمردهم بقادته، هزموا الجيش الروماني مرتين، ودمروا جنوب إيطاليا وواصلوا النهب والسلب حتى تصدى لهم القائد الروماني ماركيس ليسيس كراسيس marcus licis krassis فحاربهم وتابعهم وقتل قائدهم سبارتاكيس سنة71ق م وأباد جيش المتمردين. spartacus-encarta 2004 .

[2] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية – 200 - 202.

[3] - مفيد محمد قمحية – الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر - 480.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفلاح في التل الكبير، على يد حفار القناة وعمال الصين وكل عمال الإتحاد السوفييتي وعمال العالم ومشرديه:

أي أيام عذاب / ... بنجوم الدم تزهو في النهار / نجمة تومض من كل رصاصه / نجمة من عرق الفلاح حفار القناه / نجمة من كل فلاح وعامل في العراق / ... نجمة من كل ثائر / في الجزائر / نجمة من كل أبناء السلام / فوق أسوار بكين / نجمة من كل شغيل على أرض لينين / نجمة من قلب عمال المحطات البعيدة... نجمة من كل جرح لم يضمد / في بلادي لمشرد[1].

ويعلن محمد جميل شلش في غمرة تحديه عن بقية حياة باقية في كبده وإن نهشتها النسور الفاجرة، وعن تطلعه للحياة وإيمانه بالإنسان في كل أنحاء المعمورة في وهران، في فلسطين...[2].

أما البياتي فيهدي قصيدة "إلى غابرييل بيري وعمال مارسيليا الصغار" يوصل عبرها أنات شعبه المستباح وتمتمات أطفاله الكسحاء والمتسولين، ويخبرهم أن في العالم الآخر البعيد شعراء بسطاء يتحدثون هم أيضا عن السلام وعن نضال عمالنا الجياع المتعبين، ويقف بنا عند لحظة من لحظات عمر هذه الشخصية الثائرة المتمردة هي لحظة الإعدام ببنادق الفاشست أمام صمت ساسة فرنسا، والحقيقة أنهم لم يساهموا بالصمت فحسب وإنما باعتقاله وتسليمه للفاشية الألمانية التي حاولت صرفه عن الحزب الشيوعي وجعله يتنكر لمبادئه مقابل الإفراج، ولكنه أصر على موقفه فأعدم مع شلة من الرهائن في مونت فاليريان[3]، يقول :

عمال مارسيليا الصغار / يا أيها المتألمون / أتسمعون؟ / أنات شعبي المستباح وتمتمات / أطفاله الكسحاء والمتسولين / أتسمعون / شعراءنا البسطاء إذ يتحدثون عن السلام / وعن نضال / عمال عالمنا الجياع المتعبين/ (غابرييل) يا عبق الربيع ويا نشيد الثائرين / ما زلت أذكر وجهك الصافي العميق / وقد تخضب بالدماء/ مازلت أذكر صمت مرسيليا المرير / وبنادق الفاشست مرعدة / مازلت أذكر والرفاق / وراء نعشك سائرون[4].

ويتوقع الشاعر أن يلقى النهاية نفسها على يد فاشست آخرين أسماهم البرابرة اللئام في قعر سجنه المظلم، ولكن سيبقى العمال من بعد رحيل غابرييل ومن بعد رحيل الشاعر وسيواصلون مسيرتهم نحو الغد المشرق :

---

[1] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 80.

[2] - محمد جميل شلش – الحب والحرية - 109.

[3] - غابرييل بيرى (peri gabriel (1902-1941) سياسي فرنسي، عضو في الحزب الشيوعي الفرنسي وفي المنظمة العالمية للعمال (فرع فرنسا) شغل منصب أمين عام للشباب الشيوعي وعضو اللجنة المركزية، ظل يترقى في الحزب الشيوعي وصار نائبا في البرلمان لعهدتين أوقف في الثانية قبل نهايتها مع باقي البرلمانيين لمواقفه المضادة للفاشية بأمر من وزير الداخلية بيير بيشو، سجن وأعدم في 15 ديسمبر1941. (encarta 2004)

[4] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية - 1 / 207.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولربما يوما سيقتلني البرابرة اللئام / في قعر مظلمة كما اغتالوك في وضح النهار/ ويظل من بعدي وبعدك سائرين/ عمال مارسيليا الصغار/ نحو الغد النائي القريب[1].

وبعيدا عن أجواء الحزن والدماء يهدي الشاعر ثلاث أغنيات إلى أطفال وارسو ، للأمهات ، للملايين من الشعوب ويشاركهم نيابة عن أطفال بلاده وعمالها أفراحهم ويتمنى لو أن قلبه الأسير يملك أجنحة كتلك التي تحلق بها أشعاره أنى شاء وهو حبيس، لطار إلى وارسو وقاسم الأطفال وعصافير الجنة أجواء الفرح :

آه يا أطفال وارسو أغنياتي / باقة حمراء، من أطفال شعبي / لكمو، للأمهات / للملايين هديه / من بلادي العربيه / من بلاد الشمس من أعماق قلبي / إنها تذكار حب / لكمو، أطفال وارسو، من بلادي العربيه/ ليت لي –يا أيها القلب الأسير- / مثل أشعاري جناحين إلى وارسو أطير / مثل عصفور على أبوابها الخضر أغني[2].

لقد أكد هؤلاء الشعراء حتى وهم يعانون أعظم محنة، ويحرمون من الانطلاق كالآخرين، سقوط المسافات والحواجز بين الشعوب، وأكدوا تضامنها ووقوفها يدا واحدة في وجه الطغاة، لأن الظلم المشترك وحد مشاعر المظلومين وهيأ في أنفسهم الاستعداد للتطلع إلى الآخرين ومشاركتهم من أجل انتصار قوى الخير على قوى الاستبداد والظلم والطغيان، هذا و لم يقف شعراء الحبسيات في إطلالتهم على العالم عند حدود مشاركة الطبقات المظلومة آلامها، والبكاء معها وإنما تجاوزوها إلى محاكمة الفئة الظالمة منها، خاصة في الهيئات والمنظمات الدولية العالمية، ومناقشتها ومحاججتها على صمتها وغضها الطرف عما يحدث في العالم، بل ومخالفتها للقوانين فهي من تسنها وتصادق عليها وتتمتع شعوبها في ظلها ومن جهة أخرى تدوسها في مستعمراتها وتكتفي أحيانا باللوم والعتاب في ظرف يستدعي التدخل المباشر .

من أبرز الشعراء الذين فضحوا هذه المفارقات العجيبة الشاعر مفدي زكريا الذي وجه رسائل واضحة لكل أولئك المتلاعبين بمصائر الشعوب، فهو يطالب في حزم المجلس الدولي أن يكون حكما عادلا بين طرفي النزاع (الجزائر- فرنسا)، لا متفرجا مهادنا للمستعمر :

وقل للمجلس الدولي : إنـــــا نريد لديك(حكما)، لا عتابا[3].

وينحى باللائمة في موطن آخر على الفرنسيين أنفسهم الذين قادوا ثورة الحرية وصاغوا قوانينها ومواثيقها، وأيقظوا بفضلها العالم، هلا حرروا شعوبا أخرى تنوء تحت نير ظلمهم :

هم حرروا الميثاق، هلا حرروا أمما، تسام حقارة وتضـــام[4].

---

[1] - المصدر السابق – 208.

[2] - المصدر نفسه - 1/ 232-233.

[3] - مفدي زكريا – اللهب المقدس – 40.

[4] - المصدر السابق – 43.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويفقد الشاعر مظفر النواب ثقته في كل تلك المنظمات العربية والدولية وهو يرى فلسطين تضيع والقدس"عروس العرب" تضيع، وهم يتفرجون في صمت أو يقيمون الجلسات الغائبة عن معايشة الواقع ومعالجة المشكلات الحقيقية أو ما أسماه "الجلسات الصوفية في الأمم المتحدة...."[1].

وينصح الشعوب العربية أن تكون وطنا واحدا لا أوطانا ممزقة أشلاء، وألا تخدع مرة أخرى بالغرب في جميع أثوابه كما خدعت من قبل، وتقاتلت وتفرقت عندما انضم بعضها إلى دول المحور والبعض الآخر إلى الحلفاء، كما يحذرهم من وكالات الغوث الأخرى فقد تسوق لهم أسلحة فاسدة أخرى :

إياكم أبناء الجوع / فتلك وكالة غوث أخرى / أسلحة فاسدة أخرى / تقسيم آخر/ لا تخدع ثانية بالمحور أو بالحلفاء / فالوطن الآن على مفترق الطرقات / وأقصد كل الوطن العربي / فإما وطن واحد / أو وطن أشلاء/ لكن مهما كان فلا تحتربوا / فالمرحلة الآن لبذل الجهد مع المخدوعين وكشف وجوه الأعداء[2].

ومما لاشك فيه أن هناك يدا ظاهرة وراء كل هذه المآسي التي انفتح عليها شعراء الحبسيات وشاركوا شعوبهم آلامها، هي يد الحكام بالدرجة الأولى والتي صوب إليها الشعراء أصابع الاتهام منذ البدء، وحملوها مسؤولية كل ما تتخبط فيه الساحة العربية من اضطرابات وانهزامات وفقر وجهل وغيرها بدءا بالمستعمر الذي دمر كل شيء وانتهاء بخلفائه الذين لم يختلفوا عنه، إن لم يكن بعضهم أشد منه وأنكى، فقد صب الشعراء جام غضبهم على الحكام ومن والاهم وقدموهم في صور ممسوخة مجردة من كل مظاهر الإنسانية.

[1] - مظفر النواب – الأعمال الكاملة - 482.

[2] - المصدر نفسه – 570.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

X Z

* الفصل الثاني *

صورة السلطان في الحبسيات

- صورة الحاكم .
- صور من ممارسات الاستبداد .
- صورة أذناب السلطان وسدنته .

E Θ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- **صورة الحـــاكم :**

اصطبغ شعر هذه المرحلة بصبغة ثورية نضالية بارزة، وحمل الشاعر العربي الحديث والمعاصر لواء الرفض منذ البداية لكل مظاهر الاستبداد الاستعماري الأجنبي، إلى القمع العربي الجديد. فلم تعد ظاهرة الطغيان والقمع في الوطن العربي مجرد حالات شاذة تصدر عن هذا النظام أو ذاك في ظروف خاصة وتظهر في حالة الضرورة ثم تختفي بعد زوال أسبابها، و لم تعد الممارسات القمعية مجرد إجراء وقائي لحماية نظام، وإنما صار القمع والاضطهاد سمة بارزة لكل الحكومات المتعاقبة عثمانية وأجنبية وعربية، غير مرهون بطبيعة محددة لأنظمة ملكية أو جمهورية أو رجعية أو تقدمية أو رأسمالية أو اشتراكية، فجميعها مارس ما وصلت إليه عبقريته من فنون سحق الشعوب واضطهادها، كما أنه غير مرهون بمرحلة زمنية معينة أو بفترة انقلابية أو انتقالية معينة[1]، فالقمع في الوطن العربي الحديث حالة مرضية شمولية لا يكاد ينجو منها قطر عربي، ودائمة مزمنة لا تخلو منها مرحلة من مراحل التاريخ العربي، فحتى الحكومات المتعاقبة التي كانت تشجب مظاهر استبداد سابقاتها وتمارس الرفض قبل وصولها وتقدم الوعود البراقة، أبدعت فيه عندما اعتلت كرسي الحكم وتحولت إلى سوط في وجه شعوبها.

فقد سعت معظم الأنظمة العربية التي خلفت المستعمر إلى "تنمية أجهزتها القمعية بمعدلات تفوق بمراحل مثيلاتها في أي قطاع آخر، وقد خلق هذا التربص والتوتر، والشعور بالكره المتبادل بين الحاكم ومعارضيه وضعا غريبا في العلاقة التي تحكم القمة بالقاعدة ... بحيث صارت ... تشبه علاقة العدو بعدوه في ميدان الحرب بكل ما يلازمها من قوة مادية ومعنوية"[2]، إذ عرف الوطن العربي أنظمة مذعورة خائفة إلى حد الشك المرضي من الداخل والخارج على السواء، دفعها ذعرها الشديد وغير المبرر في كثير من الأحيان إلى إحاطة نفسها بقلاع حصينة وترسانة من الحراس المدربين وجهاز أمن داخلي مزود بأرقى تكنولوجيات الضبط والتنصت وتنظيم المعلومات، وبأحدث أدوات فض التظاهر وأساليب القمع والتعذيب، وفوق هذا عمدت بعض الأنظمة العربية إلى الاستعانة بقوات أخرى خارجية لحماية نفسها من شعبها[3]، ولكن كل تلك الترسانات لم تستطع إسكات صوت الثائرين والرافضين والمتمردين.

ولأن الأدباء والشعراء كانوا ضمير الشعوب وممثلي إرادتها فقد واجهوا في سبيل مواقفهم وكتاباتهم ومساهماتهم الفعلية في الرفض ما لاقوه من اضطهاد وسجن وتعذيب ونفي وتشريد وتصفية إن اقتضت سلامة الكرسي ذلك، "فالسلطة لا تقتل الشعراء لأنفسهم وحسب، بل لأنهم دعاة الحرية ولسان الشعب، وقادته نحو التنوير، وروحه الذي كلما ألقوا به إل النار بعث من جديد"[4]، ليشكل صراعهم مع السلطة جزءا مهما من

---

[1] - نزيه أبو نضال – أدب السجون – دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع – لبنان – د.ت – 7.

[2] - صالح حسين سميع – أزمة الحرية السياسية في الوطن العربي – الزهراء للإعلام العربي – ط1 -1409-1988 – 409.

[3] - المرجع نفسه – 410.

[4] - ريتا عوض - قضايا الشعر العربي المعاصر - دراسات وشهادات- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس 1988-142.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

معاناتهم[1]، إن لم يكن كلها. فقد كان الشاعر العربي الحديث والمعاصر من السباقين إلى حمل لواء التغيير منذ البداية ورفض الاستغلال والاستعمار وكل مظاهر الاستبداد وما ينجر عنها من فقر وجهل وحرمان، فبدأوا أول ما بدأوا بواقعية ثورية تشرح الواقع وتكشف عيوبه وعناصر الشر والفساد الطاغية فيه، وتحث على تغييره[2]، وانتهوا في كثير من الأحيان إلى المساهمة الفعلية في ذلك التغيير.

وقد أدى هذا الصراع المشروع كما يراه محمد قميحة[3]، ضد قوى الاستعباد والطغيان والجهل إلى "طغيان السياسة على حياتنا طغيانا أخذ علينا كل مسلك، وغمر بيوتنا ومكاتبنا وشوارعنا، وكل زاوية من حياتنا، بحيث ما عدنا نرى البشرية إلا من خلال هذا الطغيان[4]، بها تلبست كل فئات المجتمع العربي وكل نشاطاته فكرية واجتماعية وثقافية، فلا غرو أن يتلبس بها الأدب عموما والشعر على وجه خاص، حتى كأنه تحول إلى سياسة أو حوَّل السياسة نفسها إلى شعر ، هو ما يمكن تسميته بالأدب السياسي الذي واكب هذه الأوضاع المكهربة، ويكفي أن يعد الشعر فن المقاومة، وتعد الكتابة شكلا من أشكال النضال وتحمل المسؤوليات[5].

وفي ظل هذا الصراع المرير وظل المآسي العربية المتواصلة اختفى ضرب من الشعر، هو ذلك الذي يخدم الأسياد والحكام ويتغنى بما فعلوا و لم يفعلوا، لأن هؤلاء الأسياد والحكام أصبحوا خصمه اللدود، فهم صانعوا مآسي الشعوب ومهندسو محنها وانكساراتها الداخلية وانهزاماتها الخارجية، وإن لاحظ نسيب نشاوى اختفاء كل من المديح والهجاء، فإننا من خلال تتبعنا لنتاج شعراء الحبسيات ومن عداهم من أعلام الشعر العربي الحديث والمعاصر انتهينا إلى أنه وإن اختفى غرض المديح أو كاد يختفي نسبيا فإن الهجاء تقوَّى واستشرى لاسيما في تعامله مع هذه الشريحة الحاكمة المستبدة الطاغية وأذنابها وخدامها المطيعين. فقد جمع فيها الشعراء كل هموم العصر وحملوها مسؤولية كل ما تعانيه البلاد العربية من ترد شامل، وصبوا عليها جام غضبهم وغضب شعوبهم.

فلم يشغل اهتمام شعرائنا وهم قابعون في غياهب سجونهم موضوع كما شغلهم الحكام بأعمالهم، بخطبهم وقراراتهم، بإدارتهم، بسجانيهم وجلاديهم، وكل من يدور في فلكهم. وجاءت صورهم في قصيدة السجن كالحة مظلمة متشعبة الوجوه تشعب أياديهم وامتداد سلطانهم.

ولملامسة هذه الصورة أو مقاربتها قلب الشعراء جل صفحات التاريخ الإنساني و راحوا يستعيرون من

---

[1] - نسيب نشاوي - المدارس الأدبية - 314.

[2] - بلقاسم بلهوشات - تجربة المآساة في شعر بدر شاكر السياب - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - (ماجستير) 1408-1988 - 55-56.

[3] - محمد مفيد قمحية – الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر – 194.

[4] - جبر إبراهيم جبرا – الحرية والطوفان – 21.

[5] - حامد النساج – أدب التحدي السياسي في المغرب العربي - 87.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مستبدي العالم القديم كل صور بطشهم علها توازي بعض مظاهر هؤلاء فهم الفراعنة وهم الرومان والآلهة القديمة وهم شاهات فارس وهم القرامطة وهم الغزاة المستبدون وهم التتار... وهم الذئاب والوحوش والغيلان وكل الكائنات الأخرى المرعبة في الخيال العربي والإنساني، وانتقدوا مظالمهم الظاهرة وكشفوا الخفي منها وفضحوا ما ترتب عليها من قهر وفقر وتشرد وجوع وتخلف وخيانة وزيف، وأحيانا تناولوهم في قالب هجائي ساخر ونقد سياسي هزلي وقهقهات موجعة... كما صوروا أعوانهم وأزلامهم في صور عجيبة من مباحث وأجهزة أمن أو لقط -كما يسميها مظفر النواب- ومخبرين وزوار فجر وجواسيس وعملاء وقضاة وفقهاء وسجانين وجلادين وشعراء مادحين أو- كما يقول بسيسو- ثعابين محابر. ومن أوائل المستبدين الذين تفتحت عليهم عيون الشاعر العربي الحديث **الأتراك** الذين كان لهم حضورهم في القصيدة العربية الحديثة نذكر منهم السفاح"أحمد جمال باشا" الذي أعدم شنقا خيرة المكافحين من طلاب الحرية والاستقلال من العرب السوريين واللبنانيين وقد صور مظالمه وجرائمه تجاه العرب الشاعر فارس الخوري في قصيدة "في ذكرى الشهداء" الذين أعدمهم السفاح نظمها في سجنه بسبب مهاجمته الأتراك وفيها يفضح سياستهم الغادرة وإن حملت شعارات العدل والإحسان ويكشف عن تنكيلهم بالعرب واستباحة دمائهم وسلب أموالهم، إنهم يظهرون الطيب من القول ويخفون سم الحيات :

قالوا سياستهم والغدر دينهـــــــم سياسة العدل والإحسان واللين
يستدرجون بحلو القول مأربهـــــم وفي حلاقيهم سم الثعابـــــين
لاحت لهم فرصة في العرب سانحة فنكلوا واستباحوا كل قـــانون
دسوا لنا كل مغتر يعيث بنـــــــا نهبا ويرجع بأموال قـــــارون[1].

ويعلن الشاعر المغربي محمد بن إبراهيم أخيرا اكتشافه لطبيعة المستعمر الفرنسي وأنه من الوهم التعامل معه بمودة أو محبة كالتي سبق وأن عاملهم بها قبل سجنه، فهو اليوم عازم على هدم أسس مثل تلك العلاقة وبناء أخرى تناسب غدرهم وخيانتهم وظلمهم :

بنيت على رمل أساس ودادهـــم وإني إلى ذاك الأساس لهادم[2].

وإذ يمر سليمان العيسى في طريقه إلى السجن بمواطن أبي العلاء المعري فإنه يخصه بتحية عاجلة و يشكو إليه حال المعرة والوطن العربي المقيد كله، ويذكره بنضاله ووقوفه في وجه الفساد ولكن أي فساد هو إذا ما قيس بهذا المفسد الكبير الجاثم على وطنه، و يتأسف لأن المعري لم يعرف المستعمر السفاح وهو يغرز أنيابه ومخالبه في الوطن العزيز فلا يترك إلا الجلود و لم يعرف أيضا ظلاله وأذنابه من أنصاف أو أرباع الحكام ومن

[1] - سامي الكيالي : الأدب العربي المعاصر في سوريا (1850-1950) دار المعارف مصر -مكتبة الدراسات الأدبية ط2- 1968- 169، أنظر القصيدة كاملة من - 177-180.

[2] - محمد السعيد بن الرحراجي - شاعر الحمراء بين الواقع والادعاء مطبعة المحمدي إشهار-آسفي-المغرب- ط1- 1419- 1998- 87/1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عامة المجتمع وهم يتزاحفون خلفه ولا يصدرون إلا عن أوامره و لم يصدم يوما في رحلاته المشرقة المغربة بالحدود المزيفة التي لم توضع إلا لعزل الشعوب العربية عن بعضها البعض وخنق الشعور بالانتماء الكبير "الإسلام والعروبة" وتعويضه بانتماءات قومية عرقية محدودة، و لم يشهد احتلالا غاشما لشبر من التراب العربي، ويختم قصيدته بتحية أخرى عجلى لأنه ماض في طرق أخرى تبتعد به عن طيف المعري والذكريات المسترقة :

شيخ الخلود... تحيـــــة عجلى، وأنداء وطيبـــا !
زمجرت في وجه الفســـاد و لم تر الخطب العصيبا
لـــم تعرف المستعمـــــر السفاح في وطني نيوبا
ومخالبا... تـــدع الجلـــود بنا لتحتل القلوبـــــا
وظلاله المتزاحفيـــــــن وراء أرجله... دبيبـــا
ما كنت تصدم "بالحواجز" حيث أزمعت الركوبا
كنت الشروق متى أردت وكنت في وطني الغروبا
زمجرت لم تشهد "شمالا" يستباح ولا "جنونـــا"[1].

وفي "حوارية العار" يعرض سميح القاسم المحتل مرة في صورة اسكندر العصر الجديد ، الكون رهن إشارته، ويقدمه أخرى في ثوب السلطان صانع التاريخ، الحرفي عبيده وإمائه الملك المطاع:

مولاي يمتثل الجميع / الخزي... والدم و... والدموع / والعبد عن كرم يبيح السيد المعبود أرضه/ ويبيحه إن شاء عرضه ؟ / .... مولاي ! يا الاسكندر العصري / يا باري الغيوم الواعده! / مطر على الأتباع ياقوتا../ ونيرانا على زمر الفلول الجاحده ! / هذا الزمان كما تشاء.../ ورهن شهوتك الفلك / ... مولاي ! مولاي المطاع / .... ما شئت لك ! / .... ما شئت لك ![2].

وينظر سميح القاسم إلى المحتل وهو يعيث فسادا في أرضه وشعبه ويحكم الأرض بقبضة حديد "الحكم العسكري" وينظر إلى سواعد شعبه الحديدية وإرادته فيتخيل العدو مجرد مارد صغير أخرجه يوما من القمقم ساحر ربما هو أمريكا أو انجلترا فعاث في الأرض فسادا ولكن للجماهير بركانها الذي يلتهم الساحر ويجبر المارد على العودة ثانية إلى قمقمه والاستجارة بساحر جديد :

وشعوذ الساحر فانطلق / من قمقم البحار... مارد صغير/ يريد للزورق.... أن يقبِّل الغرق / يريد للحرية الحمراء / أن تقطن في كوخ.... من الورق / يريد للجذور أن تحيا بلا شجر/ يريد للإنسان أن يموت في الحياة !/ يريد أن .../ وانفجر البركان ! / والتهمت ساحره النيران / فعاد للقمقم يستجير/ بساحر جديد/ ساحر ليس له وجود[1].

---

[1] - سليمان العيسى – الأعمال الشعرية - 1/ 236-237.

[2] - سميح القاسم – الديوان - 548-553.

[1] - المصدر نفسه – 78-79.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولا يجد البياتي ما يصف به المستعمرين لأرض إفريقيا وشعبها البائس الكادح الجريح سوى أنهم برابرة لئام جاءوا لبعث الرعب و الفتك بالمئات من الشعوب :

الكادحون السود والغربان والمستنقعات / ومزارع المطاط، والبوليس يفتك بالمئات / ومنازل البيض، البرابرة اللئام / تغفو، كحيوان خرافي، عجيب[1].

وتنتهي آلام كل الشعوب العربية وتشرق في سمائها شمس الحرية الدافئة إلا فلسطين تبقى الأسيرة الوحيدة ، ومما يعمق جرحها تكاثر هذا العدو تكاثرا خارج القوانين الطبيعية ونواميسها المعروفة، فهذا الوطن المسروق لا يعتمد ككل الأوطان الأخرى على النمو الطبيعي وإنما يقوم على فلسفة الغزاة العابرين للقارات، يرسل الاحتلال ريحا من الطرد على أبناء الوطن تشردهم أنى شاءت لتعود محملة بأولئك المشردين في الآفاق العابرين الغزاة، ويتأمل الشاعر هذا المشهد العجيب فيتخيل العدو وحشا رهيبا يهيل تراب الفناء على كل شبر من الأرض المحتلة ، وحشا بأذرع من الجحيم تسرق نور الحياة من العيون وتفجع كل بيت بالموت أو الطرد أو السجن و تصادر كل بوارق الأمل فيه :

هو الاحتلال له أذرع من جحيم تجوب / على الصدر يجثم يخطف لون الحياة/ وينشب في الزهر ناب الخطوب / رياح من الطرد هبت علينا / تعاود بالعابرين الغزاة الهبوب / تجوس الشوارع تطفىء ورد الشباب / وتجأر بالسجن بالموت بالطرد في كل بيت/ ... مقيت، رهيب يهيل تراب الفناء/ /يصادر في الغيم برقا يضيء / ليغرق بالحزن نبض القلوب[2].

وذلك ما كان يؤلم الشاعر فايز أبو شمالة فبينما يقتاد أبناء الوطن وأهاليه إلى السجون ويهجرون إلى كل بلدان العالم أو ينفون، لحل محلهم غزاة آخرون قادمون من كل الأصقاع.

ويشكل النظام الإمامي في اليمن وسجونه الشهيرة (الرادع – قاهرة – نافع – المشبك – حجه- الأهنوم...) إحدى الصفحات السوداء في التاريخ العربي الحديث التي تجرع مفكروا اليمن وأدباؤه وأحراره ويلاتها، ففي عهد الإمام يحي (1904-1948) لم يعد نظام الحكم إماميا ولا ملكيا ولا سلطانيا وإنما "صار تسلطا وراثيا وقيدا تاريخيا ثقيلا يمنع تقدم الشعب ويعرقل تطوره"[3]، وربما كان عهد ابنه أعتى منه. ولعل أهم ما ميز هذا النظام توقه إلى استئصال كل الثورات المتمردة وتصفية عناصرها حتى امتلأت السجون بالرافضين والثائرين[4]، ويكفي أن الإمام يحي كان يعلن أمام الملأ بأنه سيلقى الله ويده مخضبة بدماء الأدباء[1]، ويعلن ولي عهده أحمد أنه سيقتل أحد الشعراء الجريئين ، فبعد حوار دار بينه وبين الشاعر زيد

---

[1] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية -1/ 179.

[2] - فايز أبو شمالة – سيضمنا أفق السناء - 119.

[3] - عبد العزيز المقالح الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن - 21.

[4] - مصطفى سالم -تكوين اليمن الحديث (اليمن والإمام)- معهد الدراسات العربية – المطبعة العالمية – القاهرة – 1963- 452.

[1] - مجموعة مؤلفين : الزبيري شاعرا ومناضلا – دار العودة – بيروت- د، ط، ت - 140.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الموشكي وقد كان قريبا من القصر عندما نشر ميثاق الأحرار خطأ وقد اختار الميثاق الموشكي وزيرا للعدل، هنأه في تهكم : مبروك يا ولد زيد على الوزارة! وتطور بينهما الحوار حتى استشاط غضبا وصاح في وجهه"إنني لأتمثل بقول عثمان لا أخلع ثوبا ألبسنيه الله " فرد الموشكي في صراحة نادرة : "وهل ستصبرون على مثل نهاية عثمان" فأعلن وهو يغادره محنقا للأستاذ صالح محسن" لقد حكم زيد الموشكي على نفسه بالموت"[1]، وأقسم في مجلس آخر وقد وقعت في يده إحدى قصائد الموشكي المحرضة على الثورة أنه سيقتله[2]، ولكنه مع ذلك لم يسكت عن قول كلمة حق في وجه سلطان جائر، فرآه وهو يقتاد أحرار اليمن مكبلين بالأغلال كالذي أصابه مس فأذهب عقله :

إلى أين بالأبطال تسعى بهم شدا أعقلك باق أم بك المس لا يهدا[3].

ويتساءل الزبيري إن كان هؤلاء الأئمة قد خلقوا الشعب اليمني فله عليهم عهود وذمم، ويضمهم إلى سائر المآسي التي يتخبط فيها من جهل ومرض وظلم ومجاعة ومخافة وإهانة وإمام يقيد الإرادات ويلجم الأفواه :

هب أنهم خلقوا الأنام فهل لمن خلقوه عهد عندهم وذمام
ما لليمانيين في لحظاتهم بؤس وفي كلماتهم آلام
جهل وأمراض وظلم فادح ومجاعة ومخافة وإمام
والناس بين مكبل في رجله قيد، وفي فمه البليغ لجام[4].

وقد كان الإمام أحمد يوقع أحيانا كتاباته ومراسلاته بـ "أحمد الله تعالى" قاصدا معنى آخر هو الذي فهمه الزبيري وأشار إليه سابقا وكرره في موطن آخر :

أصرخوا في الأذان "الله أحمد" واجعلوه ربا سوى الله يعبد
وازعموا أنه الحفيظ على الأرواح والمستعان في كل مقصد
والخبير العظيم"عيناه" في كل مكان ترى الخبايا وتشهد[5].

ويتسلل الزبيري في إحدى رؤاه الشعرية إلى محراب الطاغية وهو يصلي على صوت السلاسل والقيود وأنات شعبه المنبعثة من الأكواخ والقرى حيث المجاعات والأوبئة تحصد الناس والإمام غافل عنها في غيبوبة لذة الألوهية النكراء :

---

[1] - عبد العزيز المقالح وآخرون - زيد الموشكي شاعرا وشهيدا مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء - دار الآداب بيروت – سلسلة أعمال الحرية في اليمن - 2 - 37.

[2] - المرجع نفسه - 57.

[3] - المرجع نفسه - 88.

[4] - أحمد محمد الشامي – من الأدب اليمني – دار الشروق - 1974- 89.

[5] - المرجع نفسه - من الأدب اليمني - 101.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أيها الظـــالم الذي يتبـــــاهى أنه ابن للوحي أوسبط طه
تشهد الناس يركعون حواليـــك دهورا ويخفضون الجباها
تتوخى أن تكون شريك الله فيهم أم أن تكـــــــــون الله
كلها لذة الألوهية النكـــــــراء في سمتها وفي معناهـــــا
وإذا جئت للمصلى رأينـــــاك نفاقا موحدًا أواهـــــا
إن تكن أنت مؤمنا بإلـــــه فلماذا تكون أنت الإله[1].

ويسمى إحدى خطبه إثر عودته من رحلة استشفائية إلى إيطاليا وقد هدد فيها وتوعد بالقتل ب"خطبة الموت" ويصفه بالجزار الذي صدئت مديته فاستمنح إيطاليا مدية أخرى بابوية، وأنهك الذبح سيفه فجاءهم بسيوف أخرى أجنبية، ويُشعره مرة أخرى بمرض التأله على الشعب فيقول ساخرا:

فتأله وخذ مكانك فوق الشمـــــــــــس فوق العلياء فوق البريه[2].

بل إن الموت يعجب من الإمام المتعدد الأرواح في أرض اليمن فحيثما حل اليمنيون ارتاعوا وأبى ولوا صدمتهم بشاعة الحياة بعيون الإمام المزروعة في كل مكان فكل شخص وكل شيء فيها إمام :

وزعت روحه على الأرض يرتاع "اليمانيون" منه حيث أقاموا
فإذا بالحيـــاة شنعـــــاء فيها كل شخص وكل شيء إمام[3].

بل إنه جعل من الموت حقا مجانيا لكل اليمنيين وإن شغل غيره ببناء الأوطان وتشييدها وتوفير الأمن والعيش الهنيء لشعوبهم فإن الإمام يتجه نحو بناء آخر هو تشييد السجون الراقية :

شيدوا للأمن سجنـــا راقيـــا تستوي السكين فيه والطعين
إن مجـــانية المـــوت علـــــى رأيهم حق لكل العالميـــــن[4].

وهو المعنى نفسه الذي أشار إليه محمود درويش في قصيدته" الموت مجانا"[5]، فقد أهدى الاحتلال لأطفال كفر قاسم موتا مجانيا فتساقطوا كالفراش.

وفي فلك المعاني نفسها يشبههم الشاعر إبراهيم الحضراني بالأصنام التي تعبد في بلاده ويسميهم الطغاة بل الأقزام، ويسائل وطنه العزيز متى يرفع عنه هذا الضيم ويسقط عنه أغلال العبودية ومتى يرحل عن عرشه هؤلاء الطغاة ظلمًا، الأقزام قدرًا :

---

[1] - عبد العزيز المقالح - الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن - 73.
[2] - أحمد محمد الشامي - من الأدب اليمني - 102.
[3] - المرجع نفسه - 103.
[4] - عبد الله البردوني - الديوان - دار العودة - بيروت 1986- 2/ 514.
[5] - محمود درويش - الديوان - 1/ 212.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حتام يا وطني أراك تضـــام وعلى أديمك تعبد الأصنام

وإلا م يرتفع الطغاة ويعتلي عرش التبابع معشر أقـــزام[1].

ويوافقه الشامي فيرسل صرخة من سجن نافع شاكيا مخلفات وآثام أولئك الطغاة المجرمين الذين شوهوا وجه تاريخ وحضارة اليمن السعيدة ذات يوم، و لم يتركوا غير البؤس والفقر والدموع والمشانق والأغلال[2].

ويقلب سيد قطب صفحات العبودية القديمة وسجلات الأصنام والآلهة فلا تحضره إلا صورة هبل التي يسقطها في سخرية قاتلة على حاكم زمانه المستبد وقد صيغت له بطولات زائفة صنعتها له أمريكا وصدقها كما صدقتها شعوبه المستضعفة وراحت تزعم له من الصفات ما لم يبلغه حتى الأنبياء :

هبل هبل / رمز السخافة والجهالة والدجل / ... لمن التعبد والمثوبة والخضوع / دعها فما هي غير خرفان القطيع / معبودها صنم يراه العم سام/ وتكفل الدولار كي يضفي عليه الاحترام / ... هبل هبل/ رمز السخافة والجهالة والدجل / ... زعموا له ما ليس عند الأنبياء / ملك تجلبب بالضياء وجاء من كبد السماء / هو فاتح هو عبقري ملهم / هو مرسل هو عالم ومعلم / ومن الجهالة ما قتل[3].

وفي معتقل"أبي غريب "أطلق الجواهري قصيدة" ظلام" مصورا فيها ما فجره ذلك المستبد "الإله المهيمن" من ظلم وظلمات وشرور يعرضها في قالب رمزي توسل فيه بمظاهر كالحة من الطبيعة :

ظلام يفور.... ونجم يغور/ وزنجي ليل يخيف الدهور/ كأن ثناياه عش النسور/ ... كأن الإله الذي هيمنا/ يفجر من جنبات العصور / غباء الفسوق وعهر الفجور / وينسل مما تحيك الشرور/ رداء يجللها أدكنا/ به تتزيا بنات الخنا / ... أجل أيها الفلك الأعجف / ... أجل أيها الصاعق الأجوف[4].

ويرجع مظفر النواب بدوره إلى سجلات التاريخ القديم يقلب صفحاتها المثقلة بالمظالم عله يجد صورة مشابهة أو قريبة من صورة حكام عصره، فقد كان متحاملا عليهم جميعا بخاصة حكام الخليج، فتقفز إلى ذاكرته أعتى صور الاستبداد والطغيان في التاريخ البشري، صورة فرعون الذي لم يقف به الأمر عند صلاحيات الحاكم وليكن مستبدا وإنما أراد الارتفاع إلى درجة أعلى لا تتناسب ومظالمه وجبروته فحشر في ملئه "فنادى فقال أنا ربكم الأعلى"، ولكن مظفر يستنجد بهذا الفرعون القديم الذي أقام أهراما خلد بها الموتى من فرعون مصر الجديد الذي راح يبتني أهراما جديدة لتخليد المخازي والهزائم، فهل يسمعه فرعون مصر القديم ومتى كان الملوك و هم من هم في الطغيان والاستبداد يصغون، لذلك يحول الوجهة إلى حاكم مصري آخر هو كافور الإخشيدي وكل مماليك مصر يطلب هبتهم لإنقاذ مصر من هذا الفرعون الجديد :

فرعون.... فرعون.... فرعون/ يرتفع الصبح... فرعون/ يرتفع المجد... فرعون/ ترتفع الخيل بالرسن

---

[1] - عبد العزيز المقالح – الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن - 169.

[2] - أحمد محمد الشامي – حصاد العمر - 83 وما بعدها.

[3] - سيد قطب - هاشم الرفاعي - لحن الكفاح. الأردن .د، ت- ط - 11-14.

[4] - محمد مهدي الجواهري- ديوان الجواهري – دار العودة – بيروت – ط3 – 1982- 3/ 116-118.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الذهبية أصرخ قف/ .... وقلبي توقف في الحزن كالحجر الإردواز/ رفعت عيوني إلى نسر طيبة/ فوق الجبين الذي مسحته الخليقة بالخمر والاعتزاز/أفرعون يا من تخلد أهرامك الموتى أسرع/هنالك من يبتني هرما للمخازي/ولكن متى كان فرعون يصغي /دعوت أباالمسك/لكن متى كان كافور يصغي/استجرت المماليك.../لكنهم أرسلوا مصر فوق الجمال لوالي الجزيرة كسوه[1].

ويفضح كل تلك البيانات العربية الكاذبة والصفقات المشبوهة التي تبيع كل الأشياء العربية وليس النفط فحسب، تبيع النخيل وتنقل حتى الأرض مع النفط في البواخر بل يرى أن "خنازير هذا الخليج" يبيعون أيضا الإنسان العربي ويقبضون الثمن وليس للشعب المؤزر بالظلام غير الدماء :

تقول البيانات قد قتلوا عاملا واحدا / تكذب العاهره / فهذا دم يجمع العرب الفقراء من الأطلسي/ إلى ضفة في الخليج / وقد كفرت نخلة حين بيعت / وإني مع النخلة الكافره / أرى الأرض تنقل أيضا مع النفط في الباخره / خنازير هذا الخليج يبيعوننا / والذين هنا يمسحون قذارتهم بالقروض / لقد تمت الدائره[2].

ويحتفظ البياتي بصورة المماليك تلك ليسقطها على حكام وطنه ويخصهم بقصيدة "المماليك"[3]. وإذا رأى سميح القاسم المحتل مجرد مارد يبحث عن ساحر جديد بعدما فجر بركان الشعب ساحره فإن معين بسيسو لا يخرج عن دائرة استصغار هذا الذي تجبر أمام الشعب وأوهمه أنه غول الزمان . فيراه ويرى كل أمثاله مجرد غيلان من ثلج بمخالب رملية إن فجر السجناء بفؤوسهم الشمس الكامنة في أضلاع هذه الغيلان الثلجية تكسرت وتهاوت كأعواد من زبد ودخان :

غيلان من ثلج / يدفعها الموج / للشاطئ صياد يصرخ / أين الشمس؟../... هي ليست أسطوره/ غيلان الثلج المقروره / بعيون من زلف / ومخالب من رمل /... لا تسأل أين الشمس / شمسك في أضلع غيلان الثلج / أطلعها بالفأس / تتفجر والغيلان / تتكسر كالعيدان / من زبد ودخان[4].

وإلى جانب صورة الغول الخرافية الأسطورية يسقط بسيسو على طاغية العصر صورة التنين الضخم وقد بسط جناحيه على مدن فلسطين وقراها وحال دون الشاعر الظمآن المشوق إليها و دون الارتواء منها :

قد بسط جناحيه التنين / فوق الينبوع المختوم[5].

ويجعله في قصيدة ثالثة القيصر الذي يطلب الشاعر والشعب رأسه وينعب غراب البين مخبرا بنهايته الأكيدة :

كاله من غير يدين / تتبعني يا وطني وغراب البين / يخرج قدامي ويصيح إلى أين ؟ / يا طالب رأس

---

[1] - مظفر النواب - الأعمال الشعرية الكاملة – 272 - 274.

[2] - المصدر نفسه - 278.

[3] - البياتي الأعمال الشعرية -1/ 160.

[4] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - أسطورة غيلان الثلج - 208-209.

[5] - المصدر نفسه –الآتون من الأزمنة - 242.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القيصر يا حافي القدمين[1].

ويتأمل البياتي واقع شعبه المستسلم المخدر الذي إذا ضاقت به الأحوال راح شعراؤه يخمسون القصائد القديمة في ذم الزمان لا في صناع مآسيهم ، فلا فرق بينه وبين أفيون الشرق القديم الذي حول الناس إلى آلات لا هم لها إلا العبث بحبات الحصى والرمل و إلى عبيد كادحين بينما يزاول حكامهم من أمثال هولاكو وهارون الرشيد تجارة القول المزيف والرقيق والحريم :

...وسحائب الأفيون والشرق القديم / مازال يلعب بالحصى والرمل / مازال التنابلة العبيد / يستنزفون دم المساكين الحزانى الكادحين/... ويزاولون تجارة القول المزيف والرقيق / مازال (هولاكو) و(هارون الرشيد) وقوافل التجار والفرسان والدم والحريم / يولدن ثم يمتن عند الفجر في أحضان (هارون الرشيد)[2].

ويجد البياتي لهؤلاء الطغاة صورة قريبة من عصرهم إن لم نقل أنها مازالت قائمة إلى زمنه ألا وهي صورة العمدة المرهوب ماسح دماء الظهور بالسياط ، فما جرائمه إلا إحدى الصور المصغرة لطاغية العصور[3].

أما بدر شاكر السياب فلم يجد معادلا موضوعيا يوازي أعداء الإنسان في عصره إلا صورة إبليس في أعتى حالاتها وأشدها ، حالة الغضب وما ينجر عنها من دمار وإن غشى الصورة على عادته بالرموز والإيحاءات الكثيرة فإن الذي ظل واضحا جليا هو صورة الشر المطلق التي أحب أن يبرز بها طغاة العراق على امتداد عقود وطغاة العالم كله في رحلة شعرية مطولة في ثلاثية سماها "اللعنات" المسلطة على الشعوب من العراق إلى تركيا إلى الجزائر إلى الصين[4]، ويسمي حكام عصره في قصيدة أخرى "الأرباب المتطلعين بغير رحمة"[5].

ويستعير محمد جميل شلش للشيوعيين الذين ملكوا زمام العراق وارتكبوا جرائم بشعة في حق المواطنين منها ما ذكره الشاعر عن قصة سحلهم الناس بالحبال وتعليقهم في فروع الأشجار وقد عانى الشاعر بدر شاكر السياب عندما أعلن انسحابه من الحزب من الظلم و البطش والفصل من العمل ومن حرب التجويع والسجن الكثير[6]، يقول جميل شلش في قصة ذلك العذاب مخاطبا الشعب الذي أحبه وناضل من أجله:

أنا طرزت لك الفجر نشيدا عربيا / وتعلقت- لعينيك – صليبا / وهلالا راعف الجرح خضيبا / غير أني / لم أعقلك على أعمدة النور مسيحا / لم أعلقك إلها دامي القلب جريحا / لم أقل: فلتفتلوا يا قوم "حبلا" لم أقل فلتشحذوا يا قوم نصلا / لم أصافح فوق أشلاء "ديوجينوس" هولاكو جديدا / لم أقل / فلتسقط

---

[1] - المصدر السابق – 231-232.

[2] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية - 184/1.

[3] - المصدر نفسه – القرية الملعونة -154-155.

[4] - بدر شاكر السياب- الديوان - اللعنات-النار-ضحكة الشيطان - غضبة إبليس- 367/2-416.

[5] - المصدر نفسه - 486/1.

[6] - المصدر نفسه- 70/2- 72.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأمة تاريخا وشعبا ووجودا / ولتعش ذؤبان صهيون على أنقاضها / شعبا سعيدا[1].

ويحتفظ مرة أخرى لحكام بلاده بصورة هولاكو مضيفا إليها رمزا آخر من رموزه "التتار" الذين تحدر منهم وعاث وإياهم في الأرض فسادا :

لم أزل في ليل هولاكو / وفي أعماق سجني / للملايين التي تصنع تاريخي / لأحبابي أغني /... حسب إيماني.../ وحسب الشعر مصلوبا /... وحسبي /...أحفاد التتار/يصنعون اليوم مأساتي../ ويغتالون أفراح النهار[2].

ويتفاءل في موضع آخر بزوال التتار مادام في النفوس تموز سجين لأنه لا محالة ثائر و مهدم تلك الجدرالواهية :

هنا... حيث "تموز" مازال فينا / إلها سجينا / سيهدم ذاك الجدار / ويحيا ويفنى التتار[3].

كما يسميهم في موطن آخر "النسور الفاجرة"[4]، ولأن هولاكو أطبق سلطانه على الشعب العراقي المستكين فقد أحال حياته ليلا دامسا ولكن عيونه المرصودة في كل مكان سيجف بريقها وينطفئ ذات يوم عندما يهب العبيد ويحطموا القيود والأغلال[5].

ويرى البياتي حاكم المدينة الشرير وأتباعه وأذنابه وقد أطبقوا عليها غجرا استباحوا حرمتها، زرعوا فيها عيونهم وسدوا منافذ النور وأطفأوا أي بادرة أمل :

مدينتي استباحها الغجر / مدينتي أهلكها الضجر / مدينتي العمر /...يخاف من عيون / حاكمها الشرير/ الميت الضمير...[6].

وهم عنده أيضا قاطعوا الطريق والمسوخ والضباع ، ويسميهم في قصيدة أخرى اللئام البرابرة [7]، ولكن هل تكفي صفة الغجر والتتار لإيضاح صورة ضلالهم وظلمهم وامتداد أذاهم وجواسيسهم إلى كل مكان ،إن الصورة لم تتضح بعد في ذهن البياتي المنقب في أنقاض تاريخ الظالمين وعليه فإنه يردفها بصورة أخرى لقوم كتبت عليهم الإبادة من على وجه الأرض وهم "سدوم" قوم لوط[1]، يقول مستعرضا إحدى صور المنفى أو السجن الشبيه بالمنفى :

---

[1] - محمد جميل شلش – الحب والحرية -38-39

[2] - المصدر نفسه - 52-53.

[3] - المصدر نفسه- 79.

[4] - المصدر نفسه- 109.

[5] - المصدر نفسه - 180-182.

[6] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية - 201/1، 203 .

[7] - المصدر نفسه - 208.

[1] - انظر سورة الحجر آيــة 73-74 ، الأعراف آيــة 80 ، النمل آيــة 54 ، هود آيــة 78 ، القمر آيــة 37 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

... طلل وبوم/ولهيب تنور تراقص في وجوم / ماذا تروم / مني ومن طللي سدوم! / الشرك يورق كالصنوبر والكروم / إن باركته يد رؤوم / ماذا تروم؟[1].

ويخصص معين بسيسو من بين حكام العراق الطاغية نوري سعيد فيعدد جرائمه الكثيرة وفي مقدمتها الخيانة بتوقيع حلف بغداد الذي لا معنى له سوى أن "يظل النفط العراقي يدفق في فم المستعمرين" ، ويكشف عن جريمة أخرى بشعة قلما التفت إليها رفاقه الشعراء إنها حربه المعلنة على المثقفين حتى صار عنده "عدو المطبعة وعدو أشواق الورق"[2].

وكذلك لم تستطع صورة فرعون وهو ما هو في الطغيان أن تعادل عند مظفر النواب تصوره لحكام عصره من الخليج إلى الخليج، فراح يرفدها بصور تستطيع الصمود أمام تجاربه الفعلية معهم ومنها حادثة فراره من العراق إلى إيران خشية الوقوع في السجن وأثناء رحلة التيه في الصحراء يقع في قبضة "الغيلان الإيرانية" ومشتقاتها مما أسعفته به الذاكرة وحركته سياط العذاب فكان يستحضره بين الغيبة والأخرى تحت وقع السياط ، من الذئاب الشاهنشاهية إلى وطاويط الشاه إلى حسين الأهوازي والقرامطة ويخالط بعضها بعضا تجاوبا مع الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر تحت وطأة هذه الصدمة وكأن قدره السفر من سجن إلى سجن :

ناديت بكلتا أذني / فأيقظت مجاهيل الصحراء / رأتني في الطين أعدل من قدمي الملوية / والغيلان الإيرانية تقترب الآن من القدم الملويه / وجاء حسين الاهوازي يفتش عن دعوته /... وجاء التعذيب... وزاغ الجرح/ وشم الذئب الشهنشاهي دمي/ سال لعاب الذئب على قدمي.../ في طهران وقفت أمام الغول / تناوبني بالسوط وبالأحذية الضخمة / عشرة جلادين[3].

ويتخذ من القبطان الذي ارتقى المنصب ولم يبحر قط رمزا لحاكم العصر الذي غالبا ما يعتلى العرش بانقلاب عسكري وبدماء سابقيه ، والذي يعرفه من دون مؤهلات للحكم فيسائله كيف صار على الناس إماما وهو لا يعرف من فنون البحر إلا الوحل المثقل سجل تاريخه و دماء البحارين الأمجاد التي تلوث عنقه :

أيها القبطان زورا / ليس بالمركب والبحر ثقوب / إنما أنت هو الثقب / ولن يمنحك البحر احتراما / تدعي المركب... هيهات / ومن أين ولم تبحر / وتاريخك وحل / ودم النوتية الأمجاد في عنقك / أصبحت على البحر إماما[1].

وتراوده كلما جال بنظره صورة معاوية وطريقة وصوله الحكم وصورة ابنه يزيد ورأس الحسين ويرى أن التاريخ يعيد نفسه :"فمازال منهم كثيرون حول معاوية يضربون الصنوج / ويرعون شأن الحروب"[2]،

---

[1] - عبد الوهاب البياتي - الأعمال الشعرية -176/1 .

[2] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 93.

[3] - مظفر النواب- الأعمال الشعرية الكاملة – وتريات ليلية – الحركة الثانية - 486 وما بعدها.

[1] - المصدر نفسه - 512.

[2] - المصدر نفسه - 427 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولذلك ينصح القائد المنتظر الذي ليس هو يزيدا ولا المعتصم ألا يسلم زمامه لأمثال من أسلم لهم علي بن أبي طالب العنان فأضاعوا الخلافة وصار الذئاب هم قادة القافلة :

لا تسلم عنانك للأشعري ولا تتزلق / أو ثقت بمن بموافقه لا يثق[1].

ويمتطي في كثير من الأحيان مطية الهجاء المقذع الساخر الذي لا نكاد نجد له شبيها إلا عند شعراء النقائض وما كانوا يتراشقون به ، فيسميهم "أبناء قراد الخيل"[2].

أما الشاعر جواد جميل خريج مدرسة السجن الصدامية فيرى الحاكم وحاشيته أشباح الزمن الغابر مرة و أشباح كهوف وأصحاب أكف قذرة[3].

ولا ترقى صورة من صور الحاكم العربي إلى ما بلغه الإمامان يحيى وابنه أحمد في الشعر اليمني غير صور الرئيس المصري جمال عبد الناصر الذي ارتبطت به مخازي الهزيمة النكراء ، فبقدر ما هلل الشعراء المغيبون عن الحقيقةلهذه الشخصية وهتفوا ببطولاتها في بدايات ثورة 1952 بقدرما كشف نقاط ضعفها أدباء آخرون بكتاباتهم النثرية الغزيرة وجلهم من خريجي السجون الناصرية وشاركهم شعراء السجون الذين نالوا حظهم من بطشها وزيادة، فهذا جابر الحاج يشبه أتباع الرئيس بالذئاب بل هم في نظره والشياطين سواء ويتعجب كيف استباح بهم جمال كل قيم الخير والمحبة والإخاء :

من أين جاءوا بالذئـــاب هم والشياطين ســـواء
كيف أستباح بهم "جمال" سبل المحبة والإخـــــاء
زعموا شعارات تعيـــــــــــــد لمصر عهد الأقــوياء
فإذا الحقيقة علقـــــــم والبغي يغريه الثنـــــاء
يا من زعمتم أنكـــــم للشعب قمتم أوصيـــاء
لا خير يأتي بالمظـــــــــــــالم والجهالة والغبـــاء[1].

ومن القصائد التي لم تترك صغيرة ولا كبيرة عن هذه المرحلة الحرجة من تاريخ مصر إلا أحصتها "نونية" القرضاوي أو كما سماها ملحمة الابتلاء التي جاوزت أبياتها الثلاثمائة بيت (314 بيت) نظمها الشاعر داخل السجن الحربي وحفظها عن ظهر قلب – كما فعل من قبل مفدي زكريا – لتحريم الأوراق والأقلام، وحفظها شباب المعتقل وصاروا رواة لها ومنهم من نقلها خارج مصر، فهي وثيقة تاريخية هامة لأن الشاعر اعتمد فيها على الأسلوب المباشر وسرد الوقائع الحقيقية بأدق تفاصيلها بخلاف سائر الشعراء الذين مزجوا بين الحقيقة والخيال واعتمدوا الرمز وركزوا على الجوانب الجمالية الفنية وفيها يسمي حكام مصر بالعصابة التي لا

---

[1] - المصدر السابق - 540.

[2] - المصدر نفسه - 484.

[3] - جواد جميل - للثوار فقط - دار الفرات للنشر و التوزيع - بيروت- 1991-32 ، 84-85 .

[1] - جابر الحاج – نور على الكون أضاء - 19.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تحتكم لأخلاق أو قانون فقد أنست جرائمها الناس ما أحدثه "نيرون"[1]، وجعلتهم يترحمون عليه ناسين أن التاريخ لا يغفل حدثا وأن الله يحفظ أفعال الخليقة في لوحه المحفوظ :

نونية والنون تحلو في فمـــــي ... أبدا فكدت يقال لي:"ذو النون"
صورت فيها ما استطعت بريشتي ... وتركت للأيـــام مـــا يعيينـــي
أحداث عهد عصابة حكموا بني ... مصـــر بلا خلق ولا قـــانـــــون
أنست مظالمهم مظالم من خلـــوا ... حتى ترحمنـــــا على "نيـــــرون" !
حسبوا الزمان أصم أعمى عنهـــم ... قـــد نوموه بخطبة وطنيـــــــن
وبراعة التاريخ تسخر منهـــــم ... وتقـــوم بالتسجيـــل والتدوين
وكفى بربك للخليقة محصيـــــا ... في لوحه وكتابه المكنـــــــون[2].

وهم لا يختلفون عن كل المتألهين الطواغيت الذين خصهم الشعراء بالذكر وأرخوا لجرائمهم وحللوا أسبابها واتفقوا جميعا على أنها ما كانت إلا لإرضاء الغرب أولا وأخيرا ، يقول القرضاوي فاضحا الثورات المزعومة من ثورة صناعية وزراعية ساخرا من إنجازات مصر العظيمة في صناعة ما لم تدركه مصانع العالم كلها، إنها صناعة التعذيب بكل ألوانه وصوره :

قل للعواذل إن رميتـــم مصـــرنا ... بتخلف التصنيع والتعديـــــــن
مصر الحديثة قـــــد علت وتقدمت ... في صنعة التعذيب والتقريـــــن
...لحساب من هذا أتدري يا أخي؟ ... لحساب الاستعمار والصهيـــون
أرضى بنا الطاغوت ســـــادته لكي ... يعدوه بالتثبيت والتأميـــــن
يا مصر حظك مثل حظي عـــــاثر ... كم قد نكبت بغاشم وخئـــون
ثرنا على ملك، فجاءوا عشـــرة ! ... كل يريد الملك غير رزيـــــن
وإذا رئيسهم يرى في نفســـــــه ... ملك الملوك ووارث الفرعـــون
في نفسه ودمائه: " أنا ربكـــــــم ... لا تجعلوا ربا لكم مـــن دوني" ![1]

ويشاركه الشاعر جمال فوزي رؤيته تلك الصورة التي حاول عبد الناصر الظهور بها أو حاول المحيطون إيهامه بها فصوروه عملاقا يسعى بين الناس حينا وقديسا يباركهم حينا آخر، ولكن هل يستطيع الشاعر الصادق مع نفسه أن يزعم كل تلك المزاعم وهو يرى أساطير تنكيله بالناس وقد شرب من كأسها على يد

---

[1] - كان نيرون حاكما وطاغية، وكان فظ الطبع، مغرورا، دعيا، حقودا، غادرا بأقرب الناس إليه حتى أمه، وكان شاذا في قسوته ...حتى قيل إنه أحرق روما ليتلهى بمنظر نيرانها المشتعلة، ووقف يتغنى على قيثارته على لهب التاريخ – انظر أنس داود – الأسطورة في الشعر العربي الحديث – 487 .

[2] - يوسف القرضاوي – نفحات ولفحات - 54 .

[1] - المصدر نفســه -58 - 66.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

زبانيته علقمها ، ويرى تنزله عليهم بشروره كأنه الموت الذي شبه به شعراء اليمن أئمتهم المتجبرين، يقول في قطعة سجلها وهو يقيم تحت الحراسة المشددة في مستشفى االنيل الجامعي وقد أجريت له عمليات جراحية من آثار تعذيب أعوان الطاغية، وإذا برحمات الله -كما يقول في تقديمها- تجتث ذلك الطاغوت في عنفوان قوته وجبروته :

هبني مدحتك بين الناس قاطبـــة ... متى جعلتك بين الناس عملاقـــا
وبين شتى الزعامات التي سبقت ... تمسي زعيما غزا في الناس أعماقا
هبني زعمتك قديسا تباركنـــــا ... وقلت إنك خير الخلق أخلاقـــا
من ذا يصدقني الألى عرفـــــوا ... عنك الخداع وسفاحا وأفاقـــا
نكلت بالناس في حمق وفي صلف ... كأنك الموت في الآفاق أفاقـــا[1].

ولا يكتفي بهذه القصيدة ليضيف إليها أخرى هي "موت الطاغية" الذي فاق عنده الفراعين المتألهين يتوجه فيها باللوم لأولئك الذين أرادوا أن يلبسوه ثوبا آخر من العظمة المزيفة كالذي ألبسوه حيا ولكن هل يقبل الشعب كل هذا الزيف ؟ ويدعوهم إلى الترفق بأحاسيس النّاس :

ضجت ملائكة السماء وزمجرت ... في الأرض آلاف الجموع نفورا
قالوا أيدفن بالمساجد فاجـــــر ... سفك الدماء تجبرا وغـــــرورا
في أي دين أو بأي شريعـــــة ... يمسي الجبان مدللا مذكـــــورا
لو جمعت رمم الكلاب جميعها ... عفن اللئيم يفوقها مدحـــــورا
...أورام أهل الأرض نقل رفاته ... زكمت أنوف العالمين دهـــورا
... رفقا بإحساس البلاد وطهروا ... بيت الإله من الأذى تطهيـــرا
أو دمروا الركن الذي حلت به ... أشلاؤه في عزمة تدميـــــرا
فاق الفراعين الذين تألهـــــوا ... ومضى يعربد ساخرا شريرا[1].

- صور من ممارسات الاستبـــداد :

وإذ يقدم الشعراء هذه الصور العجيبة الغريبة لحكام عصرهم إنما يمهدون بها لما يترتب عنها من ممارسات تصب جميعها في بوتقة الاستبداد والقمع والظلم والخيانة وغيرها، ولأن كثيرا منها يتصل بعذابات السجن وفنونها العبقرية فسنكتفي هنا بالوقوف عند بعض الممارسات التي ركز عليها الشعراء وتكرر حضورها في حبسياتهم، ولعل أبشع صور القمع الجماعي الممارسة على الشعوب العربية هي ما اقترفته آلة المستعمر دون تمييز بين مدنيين ومجاهدين. ودون استثناء للصغار والرضع والشيوخ والنساء، فقد أربكتها الثورات التحريرية

[1] - جمال فوزي – الصبر و الثبات – 20 .

[1]- جمال فوزي - ديوان الصبر والجهاد – دار الثقافة العربية للطباعة – عابدين – دار الأنصار - القاهرة. د- ت - 13-14.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنبثقة هنا وهناك فأفقدتها صوابها وصيرتها آلة عمياء تضرب في كل مكان. من الشعراء الذين تفوقوا في رصد صور ذلك الجحيم المسلط على الرقاب، الشاعر مفدي زكريا الذي وقف مطولا عند جور السياسة وظلمها إنها سياسة تعمل في الخفاء وتؤمن بمبدأ اقتسام السهام في الخفاء، وإنكار الحقوق الصريحة الواضحة، إنها مجرد عبث لا طائل من ورائه ولا مجال لانتظار هباته أو حلوله :

إذ تنكر الحق الصراح سياسة فيها توزع في الخفاء سهام!
فلنا على عبث السياسة ثورة ولنا لرد الطامعين سهـــام[1].

وينتقد في موقف آخر ما تذهب إليه هذه السياسة العابثة من ترقيعات واهية ترمي من ورائها إلى صرف الشعب عن الخط الثوري الذي انطلق فيه ولا راد له إلا الاستقلال، يأتي مخادعها "غي مولي" عام 1958 ويدعوا إلى الانتخابات المحلية في وقت قطعت فيه الثورة أشواطا حاسمة غير قابلة للتراجع فيسأله مفدي بصرامة نادرة عن معنى هذه المجالس النيابية إذا لم يكن الشعب يحكم بلاده إنه لا يريد من هذه التسميات والتحريفات إلا استقلاله واضحا جليا فلا يغريه التكافل ولا التعاون ولا الارتباط :

لاذ بالانتخاب (مولي) سفاها في بلاد تسيل فيها الدمـــــاء !
أي معنى لمجلس دون حكـــم وطني على يديه القضـــــــاء ؟
نحن نبغي استقلالنا...حرفوه.. ما استطعتم.. إن صد عنه الحياء
لقبوه تكافلا... وارتباطـــــا ما عساها، تهمنا الأسمـــــاء ؟[2].

ويهزأ مفدي من تلك الشعارات التي ترفعها فرنسا المتمدنة في المحافل الدولية ويكشف الستار عما تخبئه المدنية من شرور، فما العدل والسلام المزعومان إلا خرافة تحلل بها آثامها التي يعددها في إطلالة خاطفة عجلى، منها السجن والتعذيب والإعدام ومنها الطائرات الممطرة بقنابلها على الشعب الأعزل ومنها الاعتداءات البشعة على شرف الكواعب المخدرات ومنها بقر بطون الحوامل وذبح أجنتها ومنها تعويض المراضع بفوهات المسدسات تفرغ في أحشاء الرضع لهيبها وغير ذلك من أفعال الوحوش الجائعة :

لا النار لا التقتيل يثني عزمـــه لا السجن لا التنكيل لا الإعـــدام !
... لا الحاملات بطونها مبقورة ذبحت أجنتها وفك حـــــــزام..
لا، والمراضع عوضت أثداؤها بفم المسدس، والرصاص فطـــــام
...يا للفظاعة من وحوش جوع تسمو على أخلاقها الأنعـــــام ![1].

كما يسخر مفدي من جيش فرنسا المرتزق المأجور الجبان الذي يلقي السلاح لأول رجفة، شرذمة من

---

[1] - مفدي زكريا - اللهب المقدس - 28 .
[2] - المصدر نفســه - 50.
[1] - المصدر السابق - 53-54 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الغلمان المرد المخنثين يندفعون إلى نزواتهم اندفاعا لا يردعهم خلق أو ضمير عن الفسق إن هم أيسروا ولا عن السرقة إن هم أعسروا، فأي مطمع لها في النصر وهؤلاء السماسرة جنودها :

لا تطمع النصر من جند سماسرة أيحرز النصر مأجور ومرتـــــزق ؟
جند:يباع ويشرى مثل ماشيـــة يلقي السلاح إذا مانابه الفـــــرق
جيش من المرد غلمان مخنثـــــة أحلاس يدفعها – للزلة- الشبـــق
فلا ضمير عن الفحشاء يردعهم إن أيسروا فسقوا أو أعسروا سرقوا[1].

ومن الوجوه الاستعمارية الجائرة الاحتلال الإنجليزي الذي عاث في الأرض فسادا وعاث تحت لوائه ثلة من الخونة العاقين إفسادا في أمجاد البلاد القديمة والحديثة يقول فيهم محمد بهجة الأثري :

عاث الغزاة وعاث تحت لوائهم عقق بشملي طارف وتليد
...باق ووجه الحر أبيض مشرق وذوو الخيانة بالوجوه السود[2].

ويعرضه الشاعر كمال عبد الحليم وقد تقوى في مصر وبطش بأهلها في صورة اللص المتخفي في ثياب الأطهار أو كما قال هو "لص موسر"[3].

وقد عانى الصافي النجفي من سياستهم المعوجة الخادعة، من ذلك أنهم وضعوا الشاعر في قائمة الانتظار إذ لم يكن له جرم معين ولكنه وجد نفسه في سجن حقيقي بعقوبة الانتظار التي قد لا تنتهي حتى شبه نفسه وقد رأى السجناء فوج يغادر وآخر يحل مكانه بأس السجن التي لا تتغير أبدا يقول في ذلك الانتظار العجيب صنيع الإدارة الاستعمارية :

سجنوني شهرا بأقبـــــح دار جمعت حجفلا من الأكـــــدار
ثم قالوا ها محل انتظـــــــار ليس سجنا، فالسجن في غير دار
قلت الانتظار سجن، فسجني بالبؤس مضاعف بانتظـــــــار[1].

ويهاجم النجفي ذلك العدل الإنجليزي المزعوم وكل الذين اعتقدوا بعدالتهم التي لا تظهر إلا مع الأقوياء وأما الشعوب المستضعفة فيدوسونها كما داس ذات يوم المغول الضعاف بل ليت المغول يعودون ليروا فعالهم

فهم أشبه بالجراثيم التي لا تتخير إلا الجسوم الضعيفة لتتكاثر فيها وتنشر أدواءها :

غرنا بالسراب شر دعـــاء حين قالوا الانكليز عـــدول

---

[1] - المصدر السابق - 28 .
[2] - محمد بهجة الأثري – ديوان ملاحم وأزهار - 109.
[3] - كمال عبد الحليم – ديوان إصرار - 44 .
[1] - الصافي النجفي – حصاد السجن - 53 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قلت ليت المغول ترجع يوما لترى ما جنته هذى المغـــول !
يصول الانجليز على ضعيف ولا يبدون للخصم العنيـــف
هم المكروب في جسم البرايا يفتش كي يحط على ضعيف[1].

ويسخر من كرم أولئك البخلاء الكرام "الانجليز" الذين التهمت عليهم النيران في كل مستعمراتهم فراحوا من حين إل آخر يتجحون بهذا الكرم الخيالي المزعوم لغايات خيرية إنسانية ولولا أيادي الثوار الممتدة إلى أعماقهم لنا منحوا شبرا من على وجه الأرض حريته :

حرر الانجليز مستعمـــرات حين باتت على شفا الأخطار
كلما فر من يد الطفل طير قال أطلقته لوجه البـــــاري
منحونا حرية حين مدت نحو أعناقهم يـــد الجـــــزار
بخلاء مادام فيها حيـــــاة كرماء في حالة الاحتضـــار[2].

ويحاكم محمد قنانش المستعمر الفرنسي ذلك الذي يزعم العدل والعلم، ويرفعهما شعاران يتباهى بهما أمام الأمم، ويتظاهر بتطبيق أحكامهما فينفذ حكما بالإعدام في حق سجين اقترف جريمة القتل، ظانا أنه يحقق مبدأ العدل بقتل النفس بالنفس وينسى أو يتناسى أنه لم يقتل نفسا واحدة وإنما أباد أمما كاملة :

ذاك قرن العلم والعـــدل فـــــلا تنتظر رفقا ولا مسترحما
من معاني العدل في الأرض الردى ومن العلم حلال وعمى
يقتلـــــون النفس بـــالنفس ولا حرج إذ يقتلون الأمـــما[3].

ولا تختلف المنظمات الخيرية عن المستعمر فهي من صنيعه وأعضاؤها المتشدقون بالإغاثة والرحمة والإنسانية هم من أبنائه ومواطنيه المخلصين وإن رفعوا رايات السلام في صفوف المضطهدين الطيبين وحملوا أغصان الزيتون ورسموا بأيديهم الصليب رمزا للسلام وأوهموهم أنهم منهم فإن الأيام هي الوحيدة التي تكفلت بفضحهم فإذا بهم يهمسون لأعداء الرجال الطيبين إنهم منهم و إذا بالرايات منصوبة في طريق ضحايا الاستعمار:

ورفعت رايتك الصغيرة في طريق الطيبين / وهمست : إني منكمو / ومضيت مرفوع الجبين /.. ويداك حبا ترسمان حمامة بيضاء تحتضن الصليب / وغصن زيتون خضيب / لكنها الأيام دارت والسنين / فإذا برايتك الصغيرة في الوحول وفي طريق الميتين / وإذا، بأني منكمو!! / تنصب في آذان أعداء الرجال الطيبين[1].

---

[1] - المصدر السابق - 53 .
[2] - المصدر نفسه – 61 .
[3] - يحي الشيخ صالح – أدب السجون والمنافي في الجزائر - 152.
[1] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية - 206/1

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإلى الرجال الأنيقين في هيئة الأمم المتحدة أصحاب ربطات العنق في عز الظهيرة والأحذية اللامعة السوداء والنقاشات المثيرة يوجه سميح القاسم سؤاله الحاسم ما الذي تجديه في هذا الزمن اجتماعاتهم تلك ونقاشاتهم، ما الذي تجديه لقاءاتهم الكثيرة وخطاباتهم الخطيرة أمام تنامي هذه الدولة الطفيلية غير الشرعية واتساعها، فكأنها طحلب ينبت في قلب الشاعر ولا يترك أي مجال للضوء، ما الذي تجديه بياناتهم في هذا العصر الجبان الذي لم يقدم للمستضعفين غير الشعارات والبيانات والخطب المثيرة :

أيها السادة من كل مكان ؟ / ربطات العنق في عز الظهيرة / والنقاشات المثيرة / ما الذي تجديه في هذا الزمان؟ /...نبت الطحلب في قلبي / وغطى كل جدران الزجاج / واللقاءات الكثيرة / والخطابات الخطيرة / والجواسيس... وأقوال البغايا.. واللجاج / ما الذي تجديه في هذا الزمان؟ / ....أيها الأحذية اللامعة السوداء من كل مكان / نقمتي أكبر من صوتي... والعصر الجبان / وأنا... مالي يدان!![1]

ويخاطبهم مرة أخرى بعد عشرين عام من الاحتلال أي بعد الهزيمة (1947-1967) وسقوط جميع الأقنعة، يخاطب مجلس الأمن الموقر برسالة بعد أن تعذر عليه إسماعهم صوته في غابات الدماء والحرائق والمخيمات محذرا من تطاول العدو عاما تلو العام فربما ابتلع الحوت الإسرائيلي القدس القديمة، ولكن مجلس الأمن لا يسمعه ولا يجيب نداءاته المبحوحة من عشرين عام :

ناديت من عشرين عام / يا مجلس الأمن الموقر- آه - / من عشرين عام / واليوم غير صواعق متربصات بالسلام / صوتي يجيئك بالبريد / من غابة الدم والحرائق والمرارة والخيام /... يا مجلس الأمن القديم / صوتي يجيئك وردة حمراء / من حقل الجريمة / فإلى اللقاء... إلى اللقاء../ يا مجلس الأمن القديم / أراك في القدس القديمه[2].

وحتى إذاعاتهم تصب في الخانة نفسها فتأتي أخبار جرائمهم باردة هادئة وتأتي أصوات المذيعهم متخشبة كأحاسيسه فقد شاءوا له أن لا يحس بما يذيع ، يقرأ عدد الضحايا المتساقطين "عشرون ألفا" ويبرر أسباب سقوطهم "ليحيا الأخرون" أو أنهم "قتلوا لتزدهر السنون"[1] :

صوت المذيع / متخشب / شاءوا له أن لا يحس بما يذيع / "لندن" / وتدق بيك بن./...دن...دن./... وحدي أنا / ويدي تشد على يدي /... ألم فظيع / وأكاد أسمع من هناك / ومن هنا / صوت المذيع / متخشبا/ شاءوا له أن لا يحس بما يذيع[2].

أما عن صور القمع الداخلية فكثيرة لا تحصى منها اتفاق جل الشعراء الذين صهرتهم نار السجن على أن بلدانهم مجرد سجون متواصلة، أو أن الوطن العربي سجن كبير يمتد من المحيط إلى الخليج أو أنه سجون إلى

---

[1] - سميح القاسم – الديوان – إلى جميع الرجال الأنيقين في هيئة الأمم المتحدة - 510.

[2] - المصدر نفسه - 635-636.

[1] - بلند الحيدري - الديوان- 350-351 .

[2] - المصدر السابق – 250- 253 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حد يمكن أن نتصوره أمة متصلة من السجانين، سجانا يمسك بيد سجان أوهي أمة من المنافي المزروعة في كل شبر. فعندما تتراكم آلام مظفر النواب، يجأر بشكواه إلى الله تعالى من انعدام شعوره بالأمان وبالانتماء إلى الوطن فحتى الطير لها أوطان تؤوب إليها بينما يظل هو محلقا في هذا الوطن الممتد من المحيط إلى الخليج لأنه لم يجد فيه غير السجون المتلاصقة :

سبحانك كل الأشياء رضيت إلا الذل / وأن يوضع قلبي في قفص في بيت السلطان / وقنعت بكون نصيبي في الدنيا كنصيب الطير / ولكن سبحانك حتى الطير لها أوطان / وتعود إليها وأنا مازلت أطير / فهذا الوطن الممتد من البحر إلى البحر / سجون متلاصقة سجان يمسك سجان[1].

وفي سخرية لاذعة تلمح إلى كثرة السجون وكثرة نازليها والمتنقلين بينها يأتي حسين مردان بلغة هازئة أخرى من سجانيه الذين يسجنون الوطن كله فصار الناس "يصطافون" في السجون :

كنا هنا موتى، لها حياة / "نصطاف" في السجون / ونعصر الجفون[2].

ويتلفت الشاعر الكويتي دخيل خليفة يمينا وشمالا في هذا الوطن الكبير فلا يرى منه إلا مدنا زائفة يقرأها على الخرائط وفي الأوراق ويفتقدها على وجه الأرض لأن الأقفال تحاصرها فتتحول إلى غرف مقفلة وأوجه ميتة فكأنها هي الأخرى مقفلة ،إذ تختصرحركة الحياة فيها فلا يقع زائرها إلا على الوجوه الذابلة العيون، المتلاشية فوق جدران السجن ، أو الأعناق المدلاة من مقاصل الإعدام ، إنها بتعبير أدق المدن السجون :

مدائن من ورق كلها / أوجه مقفله / غرف مقفله / عيون تذوب على حائط السجن / أو عنق يرتدي مقصله[3].

ويجسد معين بسيسو الوجع الفلسطيني الكبير في قصيدته "جواز سفر فلسطيني" وجع الحواجز والحدود المقفلة وما يعانيه المواطن الفلسطيني مع إدارة الاحتلال المتغطرسة وما يقضيه من عمره في استخراج بطاقات العبور وتصريحات الدخول، وأي جواز سفر صعب هو! ليختم بمناجاة لمدينته والمرجح أن تكون القدس وشكوى من استبداد الدروب إليها وحصار الوحوش مداخلها فلا يسمحون حتى بدخول النعوش لتدفن في ثراها الزكي بينما يباح الوطن للسواح الآتين من الغرب، وللمهربين واللصوص :

للسائح العجوز، للطاووس / للمهرب السعيد /... بطاقة المرور / يا هذه الأخشاب سندت / يا هذه الحدود / طرقت باب من أحب / ردني ناطور بيته الشرير /... أتممت ألف دورة، ولم أزل أدور/ وهذه الوحوش حول خيمتي تدور/متى أراك، إنني أموت / أموت في مغارة الضياع / في خيوط عنكبوت/أموت لا يمر نعشي الصغير/ تحت قوسك الكبير[1].

---

[1] - مظفر النواب –الأعمال الشعرية الكاملة – 307.

[2] - حسين مردان- طراز خاص - 53.

[3] - دخيل خليفة –ديوان عيون على بوابة المنفى – ط1 -1973 –دون دار نشر - 145-146.

[1] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 243 - 244.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد صور محمود درويش هذه المأساة على امتداد كتابة "يوميات الحزن العادي". وليست المدينة وحدها السجينة عند بسيسو فحتى الشوارع مقيدة قد لبست أقدامها الأغلال[1]، يختفي منها دبيب الحياة فلا ظل فيها إلا أشباح الجنود وإلا عبارتهم الممجوجة "قف" كلما ملأ الشارع ظل لشهيد :

لمن الشارع من يملكه/نحن أم من يملك الجيش الكبير/... لمن الشارع لا ظل به/يا رفيقي غير أشباح الجنود/غير "قف من أنت" تدوي كلما/ ملأ الشارع ظل لشهيد[2].

ويبين مظفر في رحلته التائهة عبر الصحراء من العراق إلى إيران أسباب تلك الهجرة المضنية ، كانت للبحث عن الأمن المفقود في العراق ، أصر على تكرارها شوقا إل هذه الدوحة التي افتقد ظلها في وطنه الكبير فراح يطلبها في بلاد فارس ويستنجد بأول من يلقاه في دربه المتعب أن ينقذه من وطنه المثقل بأعلام الدول الكبرى بينما يموت أبناؤه كمدا من الأحزان ولكن لعنة اللاأمن تلاحقه دائما :

أنقذني من وطني / التف على جسدي الواهن روح المطلق / متشحا بالقسوة والنرجس والزمن / حملتني ريح الغيب إلى درب / تترقرق فيه بواكير الصبح / وأول عصفور زقزق في الأفق الأزرق ملتهبا / أمن...أمن... أمن /...أبكيك بلادي.. أبكيك بحجر الغرباء /...إلام ستبقى يا وطني ناقلة للنفط / مدهنة بسخام الأحزان وأعلام الدول الكبرى / وتموت مذله/[3].

ويحفظ مظفر الدرس جيدا ويعي ما تعنيه الحدود الملغمة بين بلد وآخر، وما تعنيه مراكز الحدود الأشبه هولا بيوم القيامة ولكنه ينتقم من شرطتها ومن شرطة الحاكمين ومن الوزراء واجتماعات البرلمانات ومن المخبرين الغلاظ ينتقم منهم جميعا بدون حياء بطريقته الخاصة المرصعة بزخم شتائمه المقذعة حد الإفحاش[1].

ويصبح اللاأمن غولا يطارد الشاعر أنى ولى وجهه في البلاد العربية أو ما صغره احتقارا "الدويلات" القائمة على الانتماءات الطائفية الضيقة :

أرى الانتهاك يراقبني / والدويلات ترفع أعلامها الطائفية المزهوة...[2]

وتمتد أيادي جهاز الأمن في هذه الدويلات إلى كل مكان ويفعل القهر ما يفعله من عجائب وربما كان ما سيأتي أخطر إنهم أولئك الذين يبيعون نفط البلاد بل يبيعون أخضرها ويابسها على السواء ويتخفون تحت ستار الدين حينا والفكر الحر آخر :

---

[1] - المصدر السابق - 235.

[2] - المصدر نفسه - 219 - 220.

[3] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة - 470 - 472.

[1] - المصدر نفسه - 417 - 419 وانظر أيضا شتائمه - : 27 - 28 - 31 - 32 - 97 - 179 - 180 - 181 - 183 - 185 - 186 - 188 - 219 - 225 - 226 - 258 - 253 - 413 - 458...

[2] - المصدر نفسه - 327.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يزني القهر بنا / والدين الكاذب والخير الكاذب/ والفكر الكاذب والأشعار.../ كيف يكون الإنسان شريفا/وجهاز الأمن يمد يديه بكل مكان /والقادم أخطر / نوضع في العصارة كي يخرج منا النفط /...فالبعض يبيع اليابس والأخضر[1].

ولا يسكت الشاعر على هذا القهر بل يرد على كل الحكومات العربية بمثل فعلها وزيادة وينطق بقدر صمتها وزيادة من ذلك ما أراده هازئا على لسان بيروت شكرا باسم الشهداء على ما بذلوه في سبيل فك الحصار عنيها ورد العدوان الإسرائيلي بالصمت القاتل ويذكر منهم فهدا بالشكر الخالص :

نطق المولون إلى الخلف أخيرا / نشكركم باسم الشهداء / نشكركم بالسيقان المبتورة شكرا لا حد له / نشكر علانا وفلانا وفلينا والفلن الثاني وفهد / بالذات فهد / ما قصرتم أبدا /نشكر همة أعضائكم الجنسيه / في صد هجوم الجيش الإسرائيلي / وإلقاء الصمت على المغتصبات / نشكركم يا فضلات[2].

ويتكلم حسين مردان في سخرية قاتلة على لسان الزمن أنه يريد عبور بلاد الخوف والأشجان وبلاد أغنيات السلاسل والقيود "العراق" فقط ليغادرها في سلام :

تمهلوا...فإنني الزمان / أريد أن أمر في سكون / عبر بلاد الخوف والشجون / فها هنا لا تفتح العيون / فكل شيء في ربى السلام / ينوح في ظلام / لكنني أسمع من بعيد / أغنية الحديد / أهذه العراق[3].

وكما أشار زيد الموشكي إلى السيوف والمدى البابوية التي استعارها أو استوردها الإمام من إيطاليا وأكد حسين مردان الفكرة في قصيدته "الحديد" التي تجعلنا وقصائد أخرى من ديوانه "طراز خاص" نميل إلى عدم الوقوف بأسباب سجنه عند القضية الأخلاقية وديوانيه "قصائد عارية" و"عزيزتي فلانة" بإضافة عامل آخر ربما هو أقوى من سابقه ألا وهو الرفض القوي والمعارضة السياسية الواضحة ففي هذه القصيدة يصورولع الفئة الحاكمة التي وصفها "بالمدنسة الشعور" بالحديد تطلبه بكل أنواعه تستورده من خلف البحار من كل الجبابره العتاة، وبالقانون تكمم الأفواه وتحكم على الرافضين بالزندقة وتمارس عليهم بعد ذلك كل طقوس التعذيب المعروفة :

فئة مدنسة الشعور / تحيا على ثمر العزور / فتود لو تبني القصور على الجماجم والنحور/ فتروح تقترض اللظى / من كل جبل عنيد / خلف البحار لتستفيد من الحديد/من كل أنواع الحديد /.....

...ويلزها الخوف الشديد من المصير/فتلوذ بالحقد المرير/وتمد بالقانون حتى يستحيل إلى سطور/سوداء تمنع كل حقك بالسلام / وبالكلام / فإذا رفضت! فأنت زنديق / خلقت بلا ضمير / ويقص ضلعك ثم تقذف في حفير/.....[1].

---

[1] - المصدر السابق - 304-305.

[2] - المصدر نفسه - 245-246.

[3] - حسين مردان – طراز خاص – المكتبة العصرية – بيروت – صيدا - 49.

[1] - المصدر نفسه -183-184.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولعل حدثا لم يحرك الأوساط العربية كلها بما في ذلك الشعراء القابعون خلف الأسوار كما هزته هزيمة 1967 وقلبت الموازين النفسية للمواطن العربي وأحدثت في وجدانه شرحا عظيما لأنه وإن تنبأ بعض الشعراء وطلائع الأمة بها وسائر الهزائم الأخرى والنكبات لم يكن يتوقع هذه النهاية الفاجعة والهزيمة السريعة الساحقة لنظام كان يتبجح بالقوة ويهدد بسحق إسرائيل فإذا به يتراجع مضيفا إلى خريطة العدو ما لم يكن يحلم به من أرض فلسطين موليا عن سيناء.

لقد كانت الهزيمة مفاجأة مزلزلة فلم يتوقع أحد ولا حتى أشد المتفائلين الإسرائيليين أن ينهزم الجيش المصري في فترة وجيزة لا تتجاوز ثلاث ساعات ونصف حيث حسمت جهود 492 طائرة إسرائيلية مركزة في ثلاث موجات مصير معركة وأصبح ماتلا ذلك كله حتى توقف القتال ... مجرد تفاصيل لا تغير في الصورة النهائية للمعركة شيئا ولا تنقص فيها أو تزيد.

و لم يقف الأمر عند جريمة الهزيمة ومرارتها وإنما أعقبتها جريمة أخرى لا تقل خطورة وألما عن الهزيمة وهي قرار الانسحاب الذي اتخذ فجر السادس يونيو وطريقة تنفيذه، فقد أحدث جوا من الفوضى والاضطراب وأدى إلى كارثة نزلت بالجيش المصري، إذ فقد ما يقارب التسعين بالمائة من معداته وأسلحته التي دفع بها إلى سيناء وارتفع عدد الشهداء بهذا القرار إلى 6811 شهيدا، وقد تركت تلك المعدات والأسلحة دون أي استخدام على كثرتها – حتى أن المارشال الروسي- "زا خاروف" قال حينها للرئيس عبد الناصر : "لو أن كل دبابة من الدبابات السوفيتية التي تركها المصريون في سيناء أطلقت عشر طلقات فقط، لكسب العرب الحرب"[1].

فهذا القرار الارتجالي الخطير كما يقول المؤرخ العسكري وجيه أبو ذكري كان يحتاج إلى نظام ودراسة بل إلى خطة عسكرية دقيقة شأنه شأن الهجوم، خاصة وأن 85 بالمائة من القوات المحتشدة قد تم استدعاؤها قبيل الحرب بأيام و لم تتدرب على القتال وحمل السلاح منذ سنوات و لم تتلق خطة عسكرية للحرب أو للدفاع أو حتى الثبات فبمجرد صدور القرار ترك الجنود السلاح وجروا نحو قناة السويس[2] مخلفين وراءهم بنص كلام الرئيس عبد الناصر: صفقة السلاح الروسي كاملة[3]، حتى ذهبت القيادات الإسرائيلية إلى تحليل نفسي للقيادة المصرية فسرته بفقدان الإرادة وانعدام الرغبة في القتال[4]، وقد أثيرت بعدها نقاشات ساخنة حول الخيانة والمتورطين فيها وحول قضية السلاح المغشوش الذي شكل هاجسا لدى الشعراء قبل الهزيمة وبعدها، إذ اختلف المثقفون والعسكريون والقادة والشعراء وإن أدرك هؤلاء الشعراء وأعلنوا أن المسئول المباشر عن هذه

---

[1] - مشهور عبد الله الأنور فواز – الشعر السياسي في مصر من 1967 إلى 1980 – ماجستير- جامعة القاهرة – كلية دار العلوم – قسم الدراسات الأدبية 1993 - 53.

[2] - وجيه أبو ذكري –مذبحة الأبرياء – المكتب المصري الحديث – ط4 -1988 - 285.

[3] - محمد عبد الباسط زيدان – الاتجاه الوطني في الشعر المصري المعاصر (50-1975) جامعة الزقازيق – ماجستير (19) - 28.

[4] - المرجع نفسه والصفحة نفسها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الكارثة الحقيقية هو المسئول عن الواقع المتردي الذي أدى إليها فما هي بكل هولها وفظاعتها إلا نتيجة حتمية طبيعية لتلك الفوضى وذلك الارتجال السياسي ومن هنا اتجهوا إلى فضح القيادات المسئولة عن ذلك الواقع العربي المريض .

من الشعراء الذين آلمتهم أساليب السياسة العربية في التعامل مع القضايا الكبرى الحاسمة وعلى رأسها الاحتلال الشاعر الفلسطيني معين بسيسو الذي أعلن رفضه لهذه السياسات الفاشلة وانتقد في سخرية قاتلة هؤلاء الحكام الذين لا يسلطون سيوفهم إلا في أوجه الثوار من أبناء الوطن مركزا على ثلاثية الجمهورية العربية المتحدة المستعدة دائما للقتال ولكن أي قتال هو، إن أيدي هؤلاء (أعور الذئاب والثعلب المقطوع ذيله وآكل الديدان والذباب) المتأهبة لا تطوف سيوفها إلا برؤوس الثوار تحصدها وتلك هي معركتها المقدسة :

وجاء عاويا من الذئاب / أعور الذئاب / الثعلب المقطوع ذيله / وآكل الديدان والذباب / وتاجر الأجراس والضباب / دعوتهم إلى كتاب الله والكفاح / فمشطوا اللحى وأقبلوا / أيديهم على مقابض السيوف /... برأس كل ثائر تطوف[1].

ويعجب بسيسو من هؤلاء القادة لصوص الرايات وما أعدوه من عتاد حربي للمعارك المصيرية "حناجر ملعونة محشوة بالخطب الرنانة، وسيوف لكن من خشب"[1].

ويسخر من رد الفعل العربي على ضياع المدن الفلسطينية الواحدة تلو الأخرى في بطن الحوت اليهودي، رايات وألوية مرفوعة كأنها قمصان عثمان التي رفعها بنو أمية وخرجوا لاسترجاع حقه ولكنهم ينسون ما خرجوا من أجله ويمتطون كرسي الحكم وتطوى القضية الأولى . يرى الشاعر ألوية وسوار وقمصان خافقة ولا سلاح إلا أفواه على أبواق معارة تجلجل بالخطب بينما يمضي الحوت بيافا :

قمصان عثمان التي بليت على الأيدي / ومصحفه المخضب بالدماء / في كل سارية قميص خافق / وفم على بوق معار/ يافا ببطن الحوت مازالت / يجوب بها البحار[2].

ويبلغ الشاعر حالة من حالات اليأس المطبق القاتل مما آل إليه أمر هذه الأمة فلا يجد أمامه إلا السخرية المريرة من أولئك القادة العائدين من المعارك "أرض الخيال" "أرض واق الواق" يمتطون الهوادج كالنساء وتصهل حول هوادجهم الكلاب لا الخيول ويتقدم موكبهم صقور المنابر لا المعارك وناطحوا الكلمات لا السحاب يصيحون وقد حزموا حناجرهم بدل السلاح والغراب ينعب فوق رؤوسهم منذرا بالخراب ومعلنا عن الصورة التي يمكن أن يعود بها "ملك الرماد" من معركة خاسرة كهذه :

ملك الرماد يعود من غزواته/ملك الرماد / من أرض واق الواق / تصهل حول هودجه الكلاب /... صقر المنابر ناطح الكلمات / أبرع من مشى فوق السيوف /... الآن وقت الشد يا ملك الرماد / صاحوا وقد

---

[1] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة -252.

[1] - المصدر نفسه - 163- 164.

[2] - المصدر نفسه -238-239.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حزموا حناجرهم / وفوق رؤوسهم / صهل الغراب![1]

ولنا أن نتخيل هذه البطولات الوهمية التي يحاول بعض المستبدين لباسها أو يلبسهم إياها المحيطون بهم، بطولات تحدث خارج الزمان والمكان في الساعة الخامسة والعشرين من اليوم ، وتنحر على شرفها القصائد وتتضارب الروايات حولها ولا يفهمها إلا معين بسيسو لأنه وحده يعلم أنها بطولات وشهادات وهمية من ورق[2]، ربما هي بطولة الخطب الرنانة التي تحزم لها الحناجر وتستعار لأجلها الأبواق والويل لمن لم يصفق لها من غضب السيد كما حدث مع الشاعر جابر الحاج الذي أرهق نفسه في البحث عن سبب نزوله الزنزانة فلم يجد احتمالا غير أنه لم يصفق للزعيم الذي وعد برفع الرؤوس فإذا به يخفضها إلى الركب وربما كانت له تهم أخرى منها صناعة الهزيمة النكراء يقول محاكما مسائلا حائرا :

قال الزعيم : أريد رفع رؤوسكـــــم ... من ذا الذي خفض الرؤوس إلى الركب؟
...هل كان ذنبي أن سمعت فلم أصفق ... أم كان فرضا أن أصدق من يلفـــــق؟
...قال انتصرنا والحقيقـــــة مـــــرة ... النصر شيء غير هـــذا يـــــا زعيـــــم
النصر طرد للخصـــوم ودحرهـــــم ... يا من رميت بكل "سينـــا" في الجحيـــم
...هل أصبح الطيران تحت قيـــــادتي ... فتركته هدفـــا لنـــــار الضـــــاربين؟
أو كنت في "سينا" أقـــود كتيبـــــة ... فأمرتهم عودوا وعدنـــــا خائبيـــــن ؟
أو كنت سهرانا أشاهـــــد نجمـــــة ... لعب الشراب بنا فصرنـــــا راقصـــين
وأتى الصبـــاح ونحن في سكراتنـــــا ... جاء العدو فحطـــم الخـــط الحصيـــن[1].

ويذهب جمال فوزي لشرح وتوضيح أسباب الهزيمة ويميل إلى الإفصاح أكثر من سابقه إنها الخيانة بأتم معانيها :

الأرض ضاعت وبات القزم يسمعنا ... نحيبه المر خوارا وخوانـــــا
وبات يشكو خيانات تحيط.... به ... هو الخؤون وفي الآفاق أخزانا
كم ارتمى في رحاب الروس أقزمة ... فبات إمعة ألقوه نكرانـــــا
رانت على صفحة الدنيا فضيحتنا ... بتنا نزين بين الناس... بلوانا[2].

ويشير الباحث عبد الباسط سعيد إلى أن القيادة المصرية وبالتحديد المخابرات الحربية المصرية كان لها جاسوس يحتل منصبا هاما في الجيش الإسرائيلي، وأنه أمدهم بمعلومات تفيد أن الهجوم الإسرائيلي يكون بين

---

[1] - المصدر السابق – الهودج والكلاب – 276-277.
[2] - المصدر نفسه – البطل في الساعة الخامسة والعشرين - 271-273.
[1] - جابر الحاج – شطحات ثورة 23 يوليو - 79-82.
[2] - جمال فوزي – ديوان الصبر والثبات - 57.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3 و 6 يونيو (جوان) ولكن عبد الناصر أمر قائد الجيش عبد الحكيم عامر بالطيران إلى سيناء لزيارة وحدات الجيش هناك في الوقت نفسه الذي بدأ فيه الهجوم[1]، وإلى تلك الخيانة يشير معين بسيسو في قوله :

وأخيرا صافح قادتنا الأعداء ونحن نحارب / ورأيناهم ناموا في الجيش الآخر والجيش يحارب[2].

ويعرض مظفر النواب هذه الهزيمة في صورة هزلية ساخرة مؤسفة لأن العرب فيها لم يعدموا السلاح وإنما أعدموا حملته ومسيريه فتحول في أيديهم إلى أرانب وإلى سلاح للفرجة والمهرجانات لا لخوض المعارك ويبالغ في سخريته القاتلة ولعبه العجيب باللغة فيرى أن طائرات العدو عندما حلقت في السماء العربية حلقت شوارب القوم هناك وأفقدتهم كل موازين الرجولة :

لولا... لعنت لولا / ملعون من يتبعها / تملك أسلحة الأرض وتسأل كيف نحارب / يا عبد الله ساعات الضيق / تحولت الدبابات أرانب / فتلت أسلحة الجيران شواربها ليلا وصباحا/حلقت وتغاضت / وغدا الميثاق القومي بدون شوارب / وصواريخ الفرجة ضجت / وانتهت يا عبد الله مهمتها / ضمن مهمات صواريخ القوم مقالب[1].

وفي أسلوب رمزي على عادته يوجه معين بسيسو خطابا احتجاجيا لاذعا إلى "راجم الخطب" الذي نفهم ضمنا من قرائن أخرى عديدة أنه الرئيس جمال عبد الناصر يحاكمه فيه على الدم العربي الذي بدا أرخص من أي شيء يقول :

أرخص من مياه ذلك المستنقع النتن / أرخص من زجاجة العرق / دماؤنا / أرخص من منديل مومس / من قطعة الصابون / لحمنا / من كسرة الحطب / أرخص من لجام بغلة/ شريانا / أذل من وتد/بيرقنا، يا ناظم القصائد العجب / يا راجم الخطب / في وجهنا يا آكل اللهب /تعال واصطحب / سلطانة الغناء والطرب...[2]

وفي صورة ساخرة أخرى قريبة منها يقدم الشاعر في بطاقة معايدة إلى بوشكين الأديب الروسي الشهير وصفا كاريكاتوريا مضحكا لبلاطات عصره اجتمعت فيها كل المتناقصات وخرجت من رحمها كل العجائب :

لو عشت في بلاط عصرنا / في هذه الأيام / حيث الأرانب العرجاء / تركب الأفيال / وترتمي العنقاء في قفص / وتكتب الأسماك والحيات / أجمل الأشعار والقصص / لو عشت في بلاط عصرنا / لجاء أصلع الجناح

---

[1] - عبد الباسط سعيد مصطفى عطايا – الشاعر الإسلامي جمال فوزي حياته وشعره – ماجستير – الأزهر –كلية اللغة العربية - 1407-1987 - 143.

[2] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 308.

[1] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة - 227-228.

[2] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 246-247.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من بطانة الأمير مبارزا / وأشهرت في وجهك السلاحف الرماح / فالشعر في المخلاة والنجوم / في مذاود البقر....[1].

- صـــورة أذناب السلطان وسدنتـــه :

لأن شعراء الحبسيات ذاقوا وشعوبهم من الويلات بأمر من هؤلاء الحكام وعذبوا تحت أعينهم داخل السجن وخارجه حتى صار الوطن العربي عند أغلبهم أشبه بالسجن الكبير فقد صوب جل هؤلاء عبقرياتهم ومواهبهم الشعرية إلى الحكام تنقب عن كل صغيرة تضخمها كما يفعل الرسام الكاريكاتوري في محاولته لفت الأنظار لعيب ما وتهول منها ، لأن كل هذه الانتقادات فيها من الصواب الكثير وفيها من غضب الشعراء، والشعراء إذا غضبوا أحرقوا فما بالنا بغضب حبيس خلف القضبان وما يمكن أن يفعله بسجانه والآمر بسجنه فقد عرف العالم العربي الكبير محاولات للإصلاح والتغيير منها ما أثمر وأوصل إلى بعض الغايات المنشودة و منها ما قارها ومنها ما أخفق إخفاقا شديدا وارتكب حماقات فضيعة ومارس ضغوطات وقمعا واستبدادا مازالت الأمة إلى اليوم تتجرع نتائجه وهي الزاوية التي ركز عليها شعراء الحبسيات جميعهم وسلطوا عليها كامرا نقدهم اللاقطة وأرخوا لمرحلة هامة من تاريخ الأمة العربية وأكملوا المشهد بصور أعوانهم و أتباعهم فهم أياديهم التي بها يبطشون وآذانهم التي تلقط لهم الأنفاس و أعينهم التي ترصد حركات الناس من رجال أمن ومخابرات وقضاة ومحققين وسجانين وأدباء ، نرجيء منها صورة السجان لارتباطها بواقع ذاتي معيشي داخل السجن يراه كل شاعر من زاويته الخاصة من خلال طبيعة صلته بهذا الكائن البشري حينا والحجري أحيانا كثيرة .

يأتي في مقدمة هؤلاء السدنة جهاز الأمن بمباحثه ومخبريه وزوار الفجر من رجاله وغيرهم فقد حاول الشاعر العربي مظفر النواب وهو يطوف بالبلاد العربية ويمنع منها الواحدة تلوا الأخرى تعداد رجال المباحث وقربعد عجزه في هذه المهمة المستحيلة أنهم كالبعوض لا يمكن عدهم أبدا :

اقفل فمك ... فالمباحث من حولنا كالبعوض / فصمت[1].

ولمظفر النواب الذي عاش التشرد والهروب والضياع حواس أخرى يتحسس بها هذه الموجودات غير المرئية ويراها تمد أياديها بكل مكان[2]، ويخترع لها تسميات عديدة فمرة يسميها باسمها "المباحث وجهاز الأمن" وأخرى وهي الأغرب يسميها أجهزة اللقط التي تلتقط كل أفعاله القلمية السرية ، ولأنه يعلم أنها تعلم كل شيء فعله يكشف طوعا عن كل المخلفات التي يحملها جسده الموشوم بآثار كل السياط التي مرت عليه من العراق إلى الأهواز وما عداها، يكشف عن جرمه السري الوحيد جرم القلم وماقذفه :

أعرف أن هنالك لاقطة / زرعتها أجهزة اللقط / لذلك نزعت ثيابي وتعريت على باب الدنيا / هذا

---

[1] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 281-282.

[1] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة - 277.

[2] - المصدر نفسه - 304.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جسدي الموشوم بكل الشهوات / وأخبار الغزو الليلي / وخوض القصب الجارح في الأهواز / وقائمة الجلد الرجعي / مارست جميع الأفعال السرية / فاستدعيت صباحا / أعلنت ممارستي بالقلم السري / وأبعدت عن البلد المعني بتهمة قذف / قلت نعم.../ قلبي حرضت[1].

ويسميهم بكتاب التقارير الذين يفقد معهم أدبه أو كما يقول ساخرا يتشيطن ويؤدي لهم طقوس الاحترام اللازمة و الخارجة عن كل النظم والقوانين :

فيا حضرة كتاب التقارير / تشيطنت / و لم أذكر نظاما / رافعا فردة سباطي كالهاتف / كي أشتمهم
يا أخوات الـــ..../ قطع الخط و لم أكمل مراسيم احترامي / ربما بالفردة الأخرى / أرادوا الاحتراما[2].

ويجري حوار جريئا مع أحد كتاب التقارير الذي يلازمه كالظل حتى في لياليه الباردة العارية وكأن الوطن العربي كله بخير من المحيط إلى الخليج و لم يعد يحتاج إلى خدمة أخرى تصلح من شؤونه إلا ملازمة الشاعر، وكأن إسرائيل أصبحت ترش ماء الورد بدل القنابل و لم تعد الساحة تحتاج إلى جندي يرد هجماتها، ويرجوه أن يكتب ما شاء دون أن يريه وجهه الذي ربما تخيلناه بقناع بشع أو نظارات سوداء مما جعل الشاعر ينفر منه ويشمئز ثم يسأله إن كان قد أفزعه في شيء أو أنه يحب كسب مال إضافي لشراء حذاء لهذه الخدمة التي يقدمها لأسياده ولكن هل يساوي هذا الكاتب التعيس وراتبه وتقريره ثمن الحذاء :

يا من تسعل من كل مكان إلا حلقك / البرد شنيع وقضيت الليل تراقبني / العرب الأعراب من البحر إلى البحر بخير/... إسرائيل ترش علينا الورد من الجو / وأنت تراقبني / ما أجمل هذا المنظر/ إسرائيل ترش وأنت تراقبني /.. أكتب ما شئت لمن شئت بما شئت / ووجهك للحائط أرجوك / تشكيلة وجهك تزعجني / عفوا لا أقصد جرحك في شيء / هل ظل هناك ما يجرح فيك /...هل آذيتك في شيء / إن كنت بهذا التقرير توفر خبز عيالك/ سيشبون حراما / أو كنت تريد شراء حذاء / أنت وتقريرك والراتب يا دوب حذاء[1].

وأما بدر شاكر السياب فينطق المخبر نفسه ويجعله يكشف حقيقته التي لا يمكن لأي شاعر مهما أوتي من الإلهام الوقوف على خباياها البعيدة، ويجابه بها ضحاياه بلا خجل وليقولوا عنه ما يشاءون وليحكموا عليه بما شاءوا، فهو الحقير صباغ أحذية الغزاة وبائع الدم والضمير للظالمين ، هو الغراب هو الدمار هو الخراب... ولكن له عينان إبرتان ثاقبتان تتقريان الوجه وتقرآن ارتعاشاته وتنسجان له الشراك وتعدان له الكفن إن شاءتا وجمرتان حارقتان حتى وإن تخفيتا خلف الجريدة واطمأن الآخرون إلى نجاتهم من قبضته وإفلاتهم من نار عيونه فإن له حواسا أخرى يرى بها، يراهم بدمائه ويحسهم في الهواء وفي عيون الآخرين ويعجب إذ ينظرون إليه شامتين عندما قرأوا أنباء عن نهضة تونس للنضال وعن الثوار الجزائريين الذين صنعوا من الرمال كفنا للطغاة،

---

[1] - المصدر السابق - 368.

[2] - المصدر نفسه - 520-521.

[1] - المصدر نفسه - 547.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فيتحدى نظراتهم الشامتة بالقيود لمن يكون صدأها له أو لهم ؟ هو اللئيم هو الغبي هو الحقود لكنه بفعله فيهم هو القوي هو القدير هو الحامل في نفسه آلاف القيود يلقيها على من يشاء، ويستبيح من الحسان ما يشاء ،هو المصير هو القضاء ، الحقد فيه مراجل تغلي وتنور يفور، قد كان يطيف به في البدء شبح يقال له الضمير ولكنه تنفس بداخله برهة في البدء إذ لم يكن سوى أجير ثم مات عندما راح يرتقي في عمله و يدمن الخطايا لينجو من وخزاته وأصبح قوته وقوت بنيه من لحوم وعظام آدمية ، فليحقد عليه الأنام ما شاءوا وليحملوه دماء قتلاهم. ولكن موت الضمير لا يعني أبدا راحته فها هو يكشف عن عذابه وقلقه ويتمنى الدمار للعالم أجمع ويعتريه رعب وقلق ممض على المصير ، لا يضطرب بداخله رجاء ولا اشتياق ولا نزوع لأي شيء غير الرعب والقلق على المصير الذي يكاد يراه ماثلا أمامه على أيديهم فيصدر زفرته الأخيرة الأليمة :

رباه إن الموت أهون من ترقبه المرير / ساء المصير / لم كنت أحقر ما يكون عليه إنسان حقير؟![1]

ويسمي مظفر النواب دوريات الأمن التي تجوب الشارع العربي "بدوريات الإخصاء" التي تمارس على كل فم مفتوح عملياتها الجراحية الخاصة ليعم الشارع بعدها صمت مطبق[2]، ويتساءل متى تنتهي كل هذه الأحداث "الفوازير" وكل أولئك المخبرين الغلاظ الوجوه والنشرات الرخيصة[1]، ومتى يتخلص الشارع العربي من كل مظاهر القمع المصطنعة.

ويكاد يقترب من لغة مظفر الكاشفة الشاتمة الغاضبة الشاعر معين بسيسو في نظرته لكل رموز الاستبداد في الوطن العربي بل يشاركه في ألفاظه الساخرة المبتذلة المتكلفة الإفحاش في مواطن عديدة فيسمي بعض المحيطين بالسلاطين، بعض أعوانهم وحاشيتهم ولنقل بعض خدام السلاطين "بخصيان السلاطين" على نهج المتنبي في بعض أهاجيه ويريد بهم الشعراء الذين لطخوا شرف الشعر وصاروا ثعابين المحابر و ثعالب تبلغ حد التخمة حد السمنة من لحم الشعراء الحقيقيين الذين لا يبيعون الشعر بالميزان ويشكوا إليه ما فعله هؤلاء بالشعر ويطلب منه أن ينقذ مدينته الفاضلة من هؤلاء المرتزقة الذين لم يجربوا فروسية الميدان الحقيقية و لم يخوضوا معاركها، و لم يعرفوا الخيل ولا الليل ولا البيداء و لم يعرفوا القوافي عندما يصير حدها كالسيوف الصارمة القاطعة في وجه الطغاة والظالمين :

يا أبا الطيب خصيان السلاطين / وغلمان القياصر / كل ذي قرط وخلخال /وعقد وأساور /...كل من لطخ بالحبر الأظافر / كل من لم يعرف الخيل ولا الليل / وبيداء المخاطر/ والقوافي وهي كالبيض البواتر/ جاءنا يركب صهوات القصائد /... يا أبا الطيب قم صح النواطير / وقم صح القياثر/دقت الأجراس للصيد / ثعابين المحابر/ بشمت من لحمنا / هذي الثعالب[2].

---

[1] - بدر شاكر السياب - الديوان - قصيدة المخبر - 1/338- 343.

[2] - مظفر النواب - الأعمال الشعرية الكاملة - 544- 545.

[1] - المصدر نفسه - 419. .

[2] - معين بسيسو - الأعمال الشعرية الكاملة - 288-289.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكم هو تافه ذلك الثمن الذي باع به هذا الشاعر الضمير؟ باعه بثمن بخس، فقد وجد ميتا وتحت وسادته "دينار نحاس"[1]. ويقدم سميح القاسم هؤلاء الخدام في مسرحيته الشعرية المصغرة "حوارية العار" في محاورة ذليلة مستكينة لـــ "السادن" أي الخادم[2]، الذي لا يتحرك إلا لإرضاء سيده السلطان، فإن أراد كان هو السوط الذي يفري به جلود الرافضين الذين هم في نظره آبقون تافهون أو يكون لهم مقصلة أو حد سيف بتار، وينصح سيده بأن يفتح لهم أحد بابين المنفى أو السجن بعذابه :

"السادن" : مولاي ! مولاي المطاع / الآبقون التافهون.... فم يصيح... ولا ذراع / ألب عليهم حسرة المنفى و أوباء السجون / واجعل ضماد جراحهم ملحا وكبريتا وطين / وإذا أمرت... فإنني سوط، ومقصلة وسيف / وإذا أمرت....فإنني لعنات جامحة وبيله / لا تسأل الأحطاب: من أي الجذوع؟ ولا تعق!! [3].

وربما مثل القضاة الدور نفسه فلم يكونوا إلا مجرد خدام يسخرون هذه المؤسسة المحايدة نظريا لإرادة الحكام، ولولا هؤلاء القضاة البارعون في أداء طقوس الخدمة ما انتهى جل شعراء الحبسيات إلى ما وصلوا إليه من أحكام جائرة ، فهذا القانون الذي وضع لحماية الظلم بجميع أشكاله وأعطيت له نظريا سيادة واستقلال تام عن باقي السلطات يتحول في أيدي الطغاة إلى آلة من آلات القمع المقنن بنصوص مطاطية فضفاضة على مقاسهم.

عن مهازل هذه المؤسسة المحايدة، يروي لنا يوسف القرضاوي مأساة محاكمة الإخوان أين أصبح القانون هو روح العنف وخلاصته المكثفة وحيث تحول الخصم إلى خصم وحكم في آن فهو المدعي وهو المحقق وهو القاضي الذي يقضي بأهوائه وأهواء سادته الذين لا يهمهم استقلال القضاء عن سلطانهم ولا تعنيهم نزاهة القضاة وعدلهم بقدر ما تعنيهم درجة موالاتهم وقرابين تقربهم ويكفي أن يرفعوا لرئاسة المحكمة رجلا من خريجي مستشفى الأمراض العقلية البكباشي جمال سليم ليحاكم قادة حركة الإخوان المسلمين من أمثال حسن الهضيبي ويحكم بالإعدام على عبد القادر عودة ومحمد فرغلي ويوسف طلعت وسيد قطب وآخرون ثم يقصى بعد إنجاز هذه المهمة القذرة[1] ، إنها ليست محاكمة بل رواية بل مهزلة :

قالوا محاكمة فقلت : روايـــة	أعطوا لمخرجها وسام فنون!
هي شر مهزلة ومأساة معـــا	قد أضحكتني مثلما تبكيني!!
... الخصم فيها مدع ومحقق	وهو الذي يقضي بلا قانون
إلا هواه... وما يدور برأسه	من خلط سكير ورأي أفيـــن
أرأيت محكمة ترأسها امـــرؤ	يدعوه من عرفوه "بالمجنـــون"

[1] - المصدر نفسه - تحت وسادة شاعر ميت - 289-290.

[2] - انظر لسان العرب - مادة سدن "سادن من قوم سدنة وهم الخدم".

[3] - سميح القاسم - الديوان - 522.

[1] - يوسف القرضاوي – نفحات ولفحات – هامش60-

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أرأيت أحرارا رموا بهم لدى قاض عديم دينه مأبـــون
أرأيت إنسانا يدان لقولـــه الله ربي، والحنيفة دينـــــي ؟![1].

أما جمال فوزي فيذكرسفاحا آخر ممن رفعتهم جرائمهم إلى رئاسة المحكمة ومحاكمة أبناء البلد الشرفاء، وهو الدجوي الذي ركع أمام اليهود في حرب 1956 وأخذوه أسيرا ليكيل من إذاعة العدو الشتائم لأبناء الأمة، وتمر الأيام ويصعد صعوده الصاروخي إلى رئاسة محكمة تحاكم المخلصين ، إنها إغارة بشعة على القضاء يشكوها الشاعر للدهر والتاريخ ويعتذر لهما عما سجل فيهما من جرائم وآثام :

يا دهر عفوا ويا تاريخ معـــذرة كم سجلوا فيكما زورا وبهتـــانا
حتى القضاء أغاروا فوق ساحته داسوا قداسته قهرا وطغيـــــانا
..يعلو المنصة خوار ساحتهـــــا أخلى لصهيون في سيناء ميـــدانا
ألقى السلاح بلا حرب يمارسها ينجو هزيلا وباع الخصم أو طانا
هذا هو الفاجر الدجوي جيء به بشرعة الغاب للإرهاب إعلانـــا
هذا الجهول الجبان النذل في سفه يعلو المنصة للتنكيل سكرانـــا
بالأمس قد أطلق الساقين في هلع للريح حتى بدا كالكلب حيرانا.[1].

ويلي هؤلاء القضاة أيادي الاستبداد وآلاته الذين يخيطون الأحكام القضائية على مقاس الحكام، الفقهاء الذين يصدرون لهم ما يناسبهم من الفتاوى ليتحول فقيه العصر إلى مجرد خادم بسيط من خدام السلطان بعد ما كانت مؤسسة الفقيه تكاد توازي مؤسسة السلطان أو تفوقها أحيانا. عن هذه المهزلة الجديدة يحدثنا الشاعر معين بسيسو وقد ضاق قاموس العصر عن احتوائها و احتواء ما ينوء به صدره من ثورات بلغة أخرى استعارها من التراث الأدبي القديم ليفرغ بواسطتها عذابات صدره المتراكمة فكان وعاء الناقد الساخر بديع الزمان الهمذاني أقربها إلى احتواء هذه المهزلة الجديدة المهداة أيضا إلى بديع الزمان . وفيها يفضح الشاعر تلك الحاشية المزيفة والبطانة المحيطة بالحكام ويروي عنها أعجوبة هذا المفتي رواية متواترة لا مجال لردها أو الطعن فيها عن "وراق في الكوفة" عن "خمار" في البصرة عن "قاض" في بغداد " عن "سائس خيل السلطان" عن قمر الدولة" في شمس الرابع من رمضان اختار السلطان من جمع الفقهاء والشراح المقيمين خلف أبوابه "خفاش بن غراب" والشيخ الواثق بالله ابن مضيق" صاحب ألف طريق وطريق تسكله الزنديقة والزنديق و"عبده" وأواء النطاح الذي وقع عليه اختيار السلطان ليخرجه من ورطة عظيمة بمعجزة فقهية عظيمة :

وانزلق الشيخ من الباب / وبرك أمام السلطان / مولانا كفا في كف ضرب، / وهمهم يا وأواء.../ أقسمت ثلاثا للجارية الرومية وطفاء / أن أطرق مخدعها / ضلت قدمي، واختلطت في عيني الأبواب/

[1] - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[1] - جمال فوزي –الصبر و الثبات – 24 -25

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وصحوت مع الديك، فإذ بي، / أتمدد في ذبني / في حجرة أحد الغلمان/ وتنحنح، بسمل، حوقل، / وأواء النطاح وصاح : / ليس على مولانا جناح / فالقسمة غلبت، والعبرة في النيه / لا أين تسير القدمان.../ وسواء في المخدع إنس أو جان، / والذنب على الجارية، / فلو وضعت في باب المخدع مصباح/ ما ظلت قدما مولانا، / والله تعالى أعلم و السلطان... / وخازن بيت المال.[1]

ولنا أن نتخيل ما يمكن لطغاة العصر أن يقترفوه من ذنوب وما يمكن لفقهائهم أن يخيطوه من فتاوى تحت الطلب إرضاء لأهواء السلاطين ولشهوة تكديس الأموال.

[1] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 291 - 293.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

X Z

* الفصل الثالث *

بين الشاعر السجين والسلطان

- محاورة السلطان ومجادلته.
- التهديد والوعيد.
- الدعوة إلى الثورة.
- الدعاء عليه كآخر الحلول.

E Θ

- محاورة السلطان ومجادلته :

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لم تزد كل تلك الصور البشعة المرعبة وكل تلك الممارسات الدكتاتورية الطاغية الشعراء إلا تمسكا بمواقفهم وإصرارا على المطالبة والمغالبة، بادئين أولا بالحوار البناء والدليل القوي والحجة المقنعة ومساءلة هؤلاء المستبدين ونصحهم، ولكن هل تعي أذن واعية وهل يحاور غير العقلاء إلا بلغتهم. لتأتي لغة القوة والدعوة إلى الثورة عليهم والهزء بآلات عذابهم وسجنهم لأنها لا تطال إلا الأجساد ولن تزيدهم إلا تحديا وتهديدا بطوفان الشعوب الثائرة ووعيدا أن كل الطغاة إلى زوال.

وتحول بعضهم وقد يئسوا من أي خير يرجى من هؤلاء إلى باب الدعاء على الجزارين وصناع الإبر وسائر آلات العذاب. فهناك من الشعراء من حاول محاورة هذا الخصم القوي العنيد وإقناعه بكف أذاه عن الشعوب الضعيفة وتذكيره بالمبادئ نفسها التي يزعم أنه من أنصارها ومن الذائدين عنها، من الشعراء السباقين إلى ذلك محمد حبيب العبيدي في قصيدته "الكتب المقدسة" التي لو وعاها قومه واتبعوها لما ظلموا ولما قتل أو استعبد إنسان إنسانا.[1]

ومثلها محاججة الشاعر الشهيد زيد الموشكى للإمام يحي حميد الدين بعد أن أحرقت و هدمت داره ودار رفيقه في النضال وفي السجن الشاعر محمود الزبيري، واحتكامه إلى الدين نفسه الذي يزعمه الإمام ويعرف مبادئه ويخالفها ، فقد قضى الدين بحرمة المال والعرض والدم ولكن الإمام أباحها جميعا أباح المال بأن هدم بيوت الناس بما فيها، وأباح الأعراض بأن شرد نساءها وبنيها وتركهم في العراء في غياب المعيل والحامي وأهدر دماء كثير من قادة ثورة 1948م ومنهم الموشكى نفسه فيما بعد، يقول :

تخاصمنا بـــالدين والدين موجـــــع لأنك قـــد أدميت مهجتـــه عـــــدا
قضى باحترام المال والعرض والدماء فلم لا تجد إلا الخـــــلاف لـــــه ردا
...وإلا فهل ظلم النســـاء وهتكهـــا حلال ولو في دين من يعبد الصلـــــدا ؟
أتقضي طواغيت بهـــدم بيوتهـــــا وترويعها والدمع يستعطف الجنـــــدا
...ويرضى لك الدين الحنيف وربـــه تصد النسا عن قوت أطفالها صـــــدا
...وإن قلوب الناس أضحت مريضة لأنك حطمت الديانة و المبـــــــــدا
أليس الـــذي قد جئتـــه لا يبيحـــه سوى الوحش لكن ليس نعني به الأسدا. [2]

كما خاطب الشاعر الأردني مصطفى وهبي التل المعتمد البريطاني في عمان في عجالة يعلمه أنه ما أصاب الشعب على أيديهم من جراح لا تندمل وإن كتمها وكضم آلامه لأنها هي التي تشق طريقه إلى النور وأن الظلم مهما استطالت لياليه لا محالة زائل :

لا تحسب الجرح فيمن لا يضج أسى يا "كوكس" مندملا فالضيم نكـــاء

[1] - محمد حبيب العبيدي – ديوان ذكرى حبيب – 124- 125.

[2] - عبد العزيز المقالح وآخرون – زيد الموشكي شاعرا وشهيدا – 89 - 90.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

و الحق لا بد من إشراق طلعتـــــه مهما استطالت على أهليه ظلمـــاء[1].

و لم يبلغ أحد من شعراء الحبسيات ما بلغه مفدي زكريا في محاججة الخصم ومساءلته و إقناعه بالحجة الدامغة إذ كيف يشقى أصحاب الدار وينعم بخيراتها دخيل ويرمى أهل الدار في العراء بينما يحتل الدخيل قصورها المشيدة ويجوع أبناؤها ويحظى الدخيل بعيشها الرغيد وخيراتها وهل بقي إلى زمن الشاعر سادة يملكون كل شيء وعبيد مسخرون لخدمتهم أبدا :

ليس في الأرض سادة وعبيـــد كيف نرضى بأن نعيش عبيدا
أمن العدل صاحب الدار يشقى ودخيل بها يعيش سعيـــــدا
أمن العدل صاحب الدار يعرى وغريب يحتل قصرا مشيـــدا
ويجوع ابنهـــا، فيعـــدم قـــوتا وينال الدخيل عيشا رغيـــدا
ويبيح المستعمـــرون حماهـــــا ويظل ابنها طريدا شريـــدا ؟[2].

ويرجو من فرنسا ألا تحاول خداعهم مرة أخرى بخروجها عن صلب أهداف الشعب الجزائري كله، ومحاولتها شغل الناس بتوفير بعض ضروريات الحياة من مأكل وملبس وشغل وغيرها من المحاولات الترقيعية اليائسة الفاشلة لأن الشعب أدرك مطلبا وحيدا عظيما ينال به جميع حقوقه الأخرى التي أبصرتها فرنسا متأخرة ويسألها إن كان فيها من العقلاء الحذقين الذين يفهمون ما يريده الشعب :

هذا الذي يا فرنسا تهدفين له جهلا أما في فرنسا حازم حذق ؟
وضع السلاح أحاديث ملفقة خرافة صاغها للكيـــد مختلـــق
لا تشغلينا بأثواب وأرغفـــة أهدافنا المجد ليس الخبز والخرق[3].

ويرد على أولئك الذين لما رأوا شهب الحرب ترجمهم راحوا يشككون في جزائر ما بعد الاستقلال ويظنون أنها ستكون حربا على كل أجنبي، فيطمئنهم أنّها لن تكون حربا إلا على الماكرين منهم فقد ألف أبناؤها العدل والصدق وورثوا عن أجدادهم الأشراف النبل والشرف والكرم وورثوا عن دينهم التسامح والتآخي واحترام سائر الديانات :

وقالوا في الجزائر سوف يلقى أجانبها – إذا انتصرت – تبابا
...ونحن العادلون إذا حكمنا سلوا التاريخ عنا و الكتابـــــا
ونحن الصادقون إذا نطقنـــــا ألفنا الصدق، طبعا لا اكتسابا
وعن أجدادنا الأشراف، إنـــا ورثنا النبل والشرف اللبابـــا

[1] - مصطفى وهبي التل – عشيات وادي اليابس - الأهلية للنشر والتوزيع- عمان -1409- 1989 - 90.
[2] - مفدي زكريا – اللهب المقدس - 16.
[3] - المصدر نفسه - 27

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كرام للضيوف إذا استقاموا .. بسطنا في وجوههم الرحابـــا
ونحترم الكنيسة في (حمانـــا) .. ونحترم الصوامع و القبابـــــا
...وقل للماكرين بها: استريحوا فمن يمكر بها يلق الخرابـــــا.[1]

ويهجم على فرنسا هجمة شرسة في قصيدته " وتعطلت لغة الكلام"، فيرد على مزاعمها التي لم تعد تناسب عصر الثورات واسترداد الحقوق الضائعة ولا تعدو أن تكون مزاعم مجنون أو مريض فاقد لصوابه قد رفعت عنه أقلام اللوم أو لص يسرق الناس في وضح النهار ولا يستحي من فعلته فمن طباع اللصوص اللؤم . ثم يدعو معشر المستعمرين لأن يكفوا عن مطامعهم فقد أخذوا ما يكفي من حبوب الجزائر وكرومها وزيوتها و لم يعد فيها شيء لدخيل :

زعمت فرنسا في المحـــافل ضلـــــة ملك الجزائر... والجنون غـــــرام
... لا تعجبوا فالقوم ضاع صوابهم يا ناس، ليس على المريض مـــلام
من يسرق الأحرار في كبد السمـــا يسرق شعوبا واللصوص لئـــــام!
يا معشر المستعمرين، تربصـــــــوا ودعوا المطامع... فالسحاب جهام.
إن أتخمتكم في القديم حبوبنـــــــا وبطرتم فعلى الحبوب ســـــــلام
أو أسكرتكم بالمدام كرومنـــــــا لم يبق في هذي الكروم مـــــــدام
أو أبشمتكم في البطون زيوتنـــــا لم يبق فيها للدخيـــــــــل إدام !![2].

ومن سجن نفحة الصحراوي يحاور الشاعر فايز أبو شمالة المحتل وغيره ممن يدعون الفلسطينيين وحدهم إلى السلام، سلام من نوع خاص لا يفهمه إلا الاحتلال وحماته ومناصروه، سلام القيود و استلاب الخيرات والتجويع، سلام النفي والطرد والتهجير ، إنه قاموس جديد للتسامح كما تفهمه إسرائيل وأعوانها ولذلك يتحداهم الشاعر أن يأتوه بكل قواميس التسامح ويدلوه على أي الشرائع أو القوانين التي تؤمن بذلك السلام الخاص :

قالوا سلاما والقيود بمعصمـــي هذا كلام أين فعل المقنـــع
من بعد ما حصدوا سنابل زرعنا جادوا علينا بالعذاب المفجع
...أنا لست ضدا للسلام وإنمـــا ضد لأن أحيا طريد الموقـــع
هاتوا قواميس التسامح والرضا أي الشرائع قال: مت بالأدمع!![3].

---

[1] - المصدر السابق – 38- 39
[2] - المصدر نفسه – 48- 49
[3] - فايز أبو شمالة – سيضمنا أفق السناء - 75- 76.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- **التهديـــد والوعيـــد** : ولكن هل يسمع هؤلاء وقد جعلوا القمع شرعتهم وقانونهم إلى حوار وهل يقبل هؤلاء النزول إلى الآخر ومحاورته ، يبدو أن على عقول وقلوب أقفالها ولذلك خفتت هذه اللغة عند شعراء الحبسيات لتنوب عنها لغة أخرى أقوى ، لغة تستطيع الوقوف في وجه لغة الخصم وآلات عذابه إنها لغة الغضب والثورة لغة الوعيد والتهديد بانفجار الشعوب وثورتها فلكل طاغية نهاية ولكل كبت بركان قاصف يدك أركان الظلم والظالمين.

ولأن هؤلاء الشعراء كانوا أشد قربا من شعوبهم وأكثر احتكاكا بها ودراية بآمالها و همومها وتطلعاتها فقد أدركوا أن سويعات الصمت معدودة وأن طوفان الثورة زاحف لا محالة على الطغاة.

من أولئك الشعراء الذين استشرفوا الغد الآتي وتنبأوا بنهاية الظالمين الشاعر المغربي محمد الحلوي الذي وجه رسالة صريحة لفرنسا ليعلمها بزحفة الشعب التي لن يعود منها إلا بعد استرجاع أمجاده المستلبة وبناء صرحها فوق أشلائه وزخزحة العدو عن أرضه لأنه لم يعد يرهب فرنسا العسكرية وبطشها كما لم يعد يثق في فرنسا بدهائها السياسي ووعودها وأمانيها المعسولة :

فقل لفرنسا إنه الشعب زاحفا ليسترجع المجد السليب الموزعا

سيبني على أشلائه صرح مجده ويجلي عن الأرض العدو المقنعا

فلا ترهبيه إنه غير خـــــــائف ولا تطمعيه بالأماني فقد وعى[1].

وللمستعمر الفرنسي نفسه يوجه الشاعر زكي مراد رسالة تهديد واضحة إذ لم تعد إفريقيا تلك الجنة بأرضها ومائها وعبيدها و لم تعد تلك الشعوب الضعيفة المستكينة المنتظرة رحمة الآخرين و لم تعد إفريقيا ملكا للغرب ينهب خيراتها ويثرى وتجوع هي وتعاني ، إن كل شيء فيها اليوم يومض بالثورة وينذر بالشرر، وكل شيء فيها يثير ملايين الشعوب ويدفعها إلى الثورة ولذلك يوجه الشاعر نصحا خالصا لذلك الأبيض أن يعجل بالرحيل قبل أن تزحف نحوه مواكب الحرية الحمراء لأنها إذا أدركته لن ترحم ضعفه أو دموعه ولن يجني إلا حصاد زرعه الحاقد :

لم تعد إفريقيا أرضا وماء / وعبيدا أو إماء /... لم تعد إفريقيا طفلا يتيما / يرتجي قلبا رحيما /... لم تعد إفريقيا ملكا لأبيض / ينهب البترول يثرى وهي تمرض /كل عين في رباها اليوم تومض / كل عرق في ثراها اليوم ينبض / ولهيب الثورة الحمراء يعلو ويحرض / والملايين تقوض / أيها الأبيض فلترحل وإلا سوف تهلك / أو لا تلمح حشدا هائلا يزحف نحوك / موكب الحرية الحمراء والنور تحرك / والوجوه السود لن ترحم دمعك/ ...إنه الحق الذي أنت زرعته / فتجرع ذلك السم الذي كنت نفثته[2].

وهي النهاية التي يجمع عليها جل الشعراء فلكل طاغية نهاية ولكل مخلوق أجل[3]، وتلك عقبى الظالمين

---

[1] - محمد الحلوي – ديوان أنغام وأصداء – 165.

[2] - محمد محمود الغرباوي – الشعر في سجون مصر – الملحق 866- 867

[3] - سيد قطب، هاشم الرفاعي – لحن الكفاح - 14.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وذلك حكم التاريخ وهو خير الحاكمين :

ومن استبد بأمره../ وعتا عتو المفسدين / وأهان كل فضيلة / فأنذره بالشر العظيم وتلك عقبى الظالمين / واتركه للتاريخ / فالتاريخ خير الحاكمين.[1]

ويصرخ مظفر النواب في وجه من أمره بالسكوت مخافة أن تتحرك الثورة في مصر "ويزحف الدم" في القاهرة مؤكدا له أن الثورة لا بد منها كخاتمة نهائية للظلم، فقد تعلم من هبات العراق بأن الدماء هي الآخرة[2]، وهي وحدها الكفيلة بالخواتيم وبقطع دابر الطغيان. ويذكر الشاعر معين بسيسو طاغية العراق نوري السعيد بجرائمه في العراق وبأن وقت تصفية الحساب قد حان ولن يجني الظالم من بذره اللعين إلا أنهار الدماء الغاضبة ولن يجني إلا إرث ما زرعت يداه من مشانق ومذابح ومنافي وليحزم أمتعته فلا مفر له من قبضة الشعب الغاضب ولا طريق إلى قطار أو مطار، ويتألم الشاعر ويعلن عذابه المتصاعد ليس لتشريد أسرته في شتى البلاد وليس شوقا أو حنينا إلى الرفاق ولكن العذاب كل العذاب أنه ليس في أرض العراق وليس في شوارعها أينما كان انفجار وانطلاق ليشارك في صناعة الحدث ورسم اللمسات الأخيرة لنهاية المتجبرين :

لنصف يا نوري الحساب / ...فسيركض الدم في الدروب / معلقا نيرانه /...فستستحيل إلى سيوف كل أغصان السلام / ولطائرات قاصفات كل أسراب الحمام / وستقفز القضبان غضبى من زنازين السجون / أبدأت تعرف ما المصير وما الجريمة والعقاب؟ / أبدأت تلمح ذلك الشرر المهدد في الضباب؟ / وإلى ضحايا الحلف سوط الاضطهاد والاغتصاب / تمتد أيديهم دما ولظى ومن تحت التراب / أبدأت تحصي إرث ما سجنت وما اغتالت يداك؟ / إرث المشانق والمذابح والمنافي والهلاك.[3]

ويقدم الشاعر نفسه في قصيدة أخرى نبوءة أحجم العراف عن إعلانها خوفا من مقصلة السلطان و تحمل هو عبء إعلانها والتبشير بها :

الليلة يخرج من قمقمه الثعبان / والسمكة تلقي خاتمها / ويثور البركان / الليلة يتدحرج / رأس السلطان؟[4].

ويعلن محمد بهجة الأثري ثورته على رئيس الوزراء الذي هدد بإطالة سجن الشاعر لما بلغه نبأ قصيدته "ديك الفاو" وما أحدثته في السجناء الذين استجابوا لها وأقاموا حفل تأبين للديك سخروا فيه من سلطان الدولة الواهية وقوات الاحتلال ، ويهدده بأنه سوف يرهق نفسه ويحرقه بنار قصائده وأنه لن يذل ولن يرجو فكاكا من قيد الأسر فليس الشاعر وحده السجين، إن الأمة كلها مثقلة بالأغلال وإن العراق كله سجين وإن بينه وبين الذل ثورة تقطع الوريدين (وريد الخصم والشاعر)، يكون الشاعر أحد الناقمين الثائرين الثلاث هو

---

[1] - أحمد محمد الشامي – حصاد العمر – 87.

[2] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة - 278.

[3] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 96-94 .

[4] - المصدر نفسه - 286.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والعلا ومطامح التشييد :

حنق الوزير علي لما جـــــاءه شعري وأوعد أن يزيد قيـــودي
بشراي! إني سوف أرهق نفسه صعدا، وأحرقه بنار قصيـــــدي
سيزيده حنقا على حنق بـــه وسمي على خرطومه الممـــدود
لن أرفع المكواة...فليشرب إذن ماء الصديد ولوعة المعـــــود
لست الذليل فأزدهيه تـــوددا ليفك من أسري عرا تصفيـــدي
هل نافعي قيدي يفك وأمـــتي في القيد؟ ما أنا بينها بوحيـــــد
سجني هنا ضنك، وأية بقعـــة ليست بسجن"في العراق" شديد
بيني وبين رجائه في ذلـــــتي لهواه قطع وريده ووريـــــدي
الثائرون الناقمون... ثلاثـــة : أنا، والعلا، ومطامح التشييـــد.[1]

ويشبه حسين مردان نهاية أولئك الجبابرة القساة والعمالقة الطغاة بالغبار ويرى أن كل ما اقترفوه وإن تعاظم وتطاولت أيامه لا يعدوا أن يكون مجرد مسرحية أعلنت سنن التاريخ نهايتها الحتمية وأسدلت الستائر على جيفها المسربلة بالفناء و لم يبق شيء في السماء سوى الغبار فقد انتهوا جميعا وانتهت معهم جرائمهم:

ما فات / فات / أين الجبابرة القساة / أين العمالقة الطغاة/ جيف يسربلها الفناء /...وغدا سينسدل الستار /....فليس يوجد في السماء / سوى الغبار.[2]

- الدعـــوة إلى الثـــورة :

و لم يكتف الشعراء بالتفرج على الأحداث أو التطلع إلى ما يصلهم إلى أعماق الزنازين من أخبار عن ذلك العالم الخارجي الملتهب والثورات المشتعلة في كل مكان، و لم يكتفوا بالتهديد والوعيد فقد كانوا صناع الحدث ومهندسوه قبل أن تطال القضبان أجسامهم وسيظلون وهم يقبعون خلفها صناعها بما تفعله أشعارهم المتسللة إلى الجماهير المتأهبة في النفوس وما تثيره فيها من حماس ، ويكفي أنها كانت تحفظ بعض القصائد والأناشيد المهربة عن ظهر قلب وتحولها في أحايين كثيرة إلى أناشيد وطنية ، فلم يجد هؤلاء الشعراء المقيدون مقصوص والجناح المثقلون بالأغلال بدا من دعوة الشعوب إلى الثورة والتمرد ورفض كل أصناف الظلم وتحريضها على المقاومة والثبات على المواقف والإصرار على الحقوق والجهر بصوت الرفض وإذاعته عاليا مهما تمادت أجهزة القمع وآلاته في تشديد الخناق فهذا الشاعر جواد جميل ينصح شعبه المسحوق بأقدام سدنة النظام الصدامي ويقدم له وصفة لاءات شامخة "لا توافق" حتى وإن خنقوا أطفالك سحقوا أضلاعك مزقوا جلدك فما تلك الجراح النازفة إلا واحات رفض ومرايا تعكس درجة الكبرياء والشموخ أمام أقزام الغاب :

---

[1] - محمد بهجة الأثري – ملاحم... وأزهار 108-109.

[2] - حسين مردان – طراز خاص – 173-174.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عندما تطحن أضلاعك، أعقاب البنادق / عندما تخنق من طفلتك الشقراء / أنفاس الزنابق / عندما تضرم في عينيك آلاف الحرائق / عندما تقطع كفاك / بسكينة سارق / كيف تنسى كل هذا وتوافق؟ / ..كان لا بد أن تصنع من جرحك / خيلا وببارق / يا صديقي لا توافق /...لا توافق / أن يخط الزيف / من شريانك الراعف / تأريخا لأصحاب السوابق / لا توافق / لا توفق / لا توافق.[1]

ومثله يرسل جمال فوزي لاءاته المتتالية في وجه الطغاة المفسدين في قصيدة "سأقول لا" ،"لا" للطغيان، "لا" للحكام "لا" للسوط "لا" للمجرمين "لا" للحاقدين وتتوالد منها لاءات أخرى وألف لاءات.[2]

ويرسل معين بسيسو مثلها ويرفض وشعبه أن يهللوا لسلطان منهزم عائد أو أن يدفعوا الثمن بينما يتسلق اللصوص ويتطاولون.[3]

ومن سجن الأجانب يوجه الشاعر عزيز فهمي نداءات متتالية لقومه أن يهبوا لنجدة مصر والذود عن حماها ولا يبالي إن أجابوا نداءه ونداء مصر المستغيثة ولا يبالي إن بح صوته فهو مستمر في دعوته لا يحيد عنها حتى يرى وطنه حرا عزيزا :

أهبت بقومي أن يذو ذوا عن الحمى ومازلت أدعوهم ومازلت أشهد
أهبت بقومي والخطوب زواحف تلم بهم طورا وطورا تهدد
وأنذرت حتى بح صوتي ولم أزل ومصر تناديهم وصوتي يردد.[4]

ويذهب الشاعر كمال عبد الحليم وهو يرى ما تتخبط فيه الأمة من مآسي أن كل يوم يمر ليس من العمر إذا لم يعشه المرء في الكفاح[5]، لأن العصر لم يعد يقبل لغة الدموع والبكاء لأ لم الآخرين فلا بدمن تفجير مراجل الغضب وخوضها ضد الطغاة حربا ضارية فإما حياة كريمة و إما ممات يهب للأجيال القادمة حياتها :

لن يريح النفوس إلا انفجار فصراع مروع الصرخات
لن ينال الحقوق إلا أباة يتحدون معجزات الطغاة
هي حرب الحياة إما حياة أو ممات يكن معنى الحياة[6].

ويشبه في قصيدة أخرى الثورة بالعاصفة الهادرة حينا والبركان القاصف بالحمم المتطايرة حينا آخر والزلزال الغاضب الراجف حينا ثالثا ويرى الجموع الغاضبة وهي تتقدم في وجه الطغاة لا تملك سلاحا إلا سلاح التضحية تنحت به مستقبلها الذي بدأ يأخذ ملامحه من الشعل والرايات الحمراء المتعالية ، فقد هبت

---

[1] - جواد جميل – للثوار فقط - 55-45.
[2] - جمال فوزي – الصبر والثبات - 144.
[3] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 166.
[4] - عزيز فهمي – ديوان عزيز - 162.
[5] - كمال عبد الحليم – إصرار - 30.
[6] - المصدر نفسه-31.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وللريح إذا هبت زئير[1]، وقد اختار الشعب الحياة على أرض مستقلة فصب جام غضبه ولعناته على المستعمر ولن يخمد هذه الثورة إلا بتحطيم القيود :

هبت الريح وللريح إذا هبت زئيـــــــــر
كتل تدفق كالموج وتدوي كالهديـــــــر
ووجوه القوم أشباح وشياطين تثـــــور
وانتفاضات أكف القوم زلزال خطيـــــر
إنه الشعب دعاه الليل أن يصبح شعلـــه
قد أحس الأرض قضبانا وفي القضبان ذله
إنه يفنى ليحيـــــا فوق أرض مستقلـــه
هذه الثورة لن تحمـــــد إن لم تظفـــــر
لن ينام الشعب عن قيد إذا لـــم يكـــسر
لعنة الشعب على الأصنام والمستعمـــــــر[2].

وقد شبه سميح القاسم الشعب في ثورته بالبركان ساعة انفجاره والتهامه كل ما يجده في طريقه[3]، كما شبه القرضاوي صمته ورفاقه إلى حين بالنار التي تكمن حينا في جوف البركان وتظل تنذر بثورات آتية :

إنا لعمري إن صمتنا برهة فالنار في البركان ذات كمون.[4]

وكذلك يعلن بلند الحيدري أن وراء ذلك الصمت الرهيب ووراء تلك الجراح الثرة المريرة ووراء نزيفها هنالك في الدروب غد مشرق لامع وأن ملء ذلك الصمت العظيم مراجل متقدة إذا ما انفجرت استجاب لها الغد والحنى :

أعرف يا مدينتي / ماذا وراء بيتنا الكئيب / ماذا وراء صمته الرهيب / أي غد يلمع في الدروب/ ...أعرف أن أعين الرجال في مدينتي / لا ترقد / وأن ملء صمتهم / مراجلا تتقد / غدا / إذا ما انفجرت / سينحني لها الغد.[5]

ويحي بدر شاكر السياب أولئك الذين ثاروا على حلف بغداد وعصابته ووقفوا في وجه عملية البيع الآثمة التي حاول نوري سعيد تمريرها وقصروا بما قدموه من ضحايا للوطن عمر الطغيان والطغاة في العراق، وكشف لهم حقيقة أولئك الحلفاء الذين لا يثبتون على موقف واحد حتى لا يخدعوا بهم إن أظهرواصفوا أو

---

[1] - المصدر نفسه - 32 – ردد الشاعر هذه اللازمة ثلاث مرات.
[2] - المصدر نفسه - 32- 33.
[3] - سميح القاسم – الديوان – الساحر والبركان - 78.
[4] - يوسف القرضاوي – لفحات ونفحات - 68.
[5] - بلند الحيدري – الديوان – 423 - 424.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مودة فطبعهم التقلب وأنى كانت مصلحتهم ولوا وجوههم ، ويختم برسالة واضحة إلى الحليفة بريطانيا أولا ثم من يليها من الحلفاء يعلمهم أن الشعب العراقي قد أفاق ووعى ولن يرضى بغير استقلاله مطلبا :

حررت بالدم كل جيل نـــــــاء آت سيذكر منة الآبـــــــاء
ورقيت من جثث الضحايا سلمـــا يقضي إلى الحرية الشمـــــاء
....حطمت قيدا من "قيود" فاتخذ للباقيات تأهب الأكفـــــاء
إن "الحليف" هو الحليف وإن صفا لا تخدعنك صبغة الحربـــــاء
....قل للحيفة إن شعبا قد وعـــى هيهات أن يرضى بغير جلاء.[1]

ويحذر الطغاة الغارقين حدا الثمالة في خطاياهم من العقاب الآخر الأشد والأنكى العقاب الإلهي إلى جانب العقاب البشري المتمثل في ثورات المظلومين وزحفهم :

ويل الطغاة السكارى من عقاب غد إن زلزل الكوكب المنكود إيذانا.[2]

كما يدعو البياتي كل ما في إفريقيا إلى النهوض ويرى النور آت من أحراجها فهي مأوى الثوار وملجأهم المزروع بالحراب في كل شبر فليحذر الأوغاد هذه الغابات البكر المحاربة إلى جانب شعوبها وتلك الطبيعة المقاتلة :

أحراج كينيا يا ينابيع الضياء! / يا كوكبا في ليل قارتنا الحزين / يهدي الرفاق السود في أفق الصراع/ أحراج-كينيا – يا زنابق يا حراب ! / ...إنا سنزرع بالحراب / غاباتنا العذراء يا وغدا بقافلة الطغاة.[3]

وإن تجبر طاغية العصر وإن عتا هولاكو كما صوره البياتي من قبل – فإن العبيد العائدين[4] وقد حطموا القيود،يحملون إليه الفناء لا محالة ويحطمون تاجه العتيق ويطفئون بريق عينيه الذي أرعبهم طويلا، إنهم نهر الحياة يجرف كل ما يعترض طريقهم وينهي مسيرة الظلم والظالمين.

وفي لهجة جريئة وصريحة يدعوا الشاعر زيد الموشكي أبناء اليمن إلي الثورة علي البيت الإمامي الذي تعطلت فيه كل القيم وطنية ودينية وأخلاقية ،ويري الثورة فرضا وواجبا وطنيا مقدسا لأنه يئس من أي خير يمكن أن تأتي به هذه الأسرة الإمامية الرجعية التي توارثت الظلم والحكم :

بني اليمن الميمون إن عليكـــم فرائض لم تنفك منكم علي الكتـــف
أأحسنتمو بالمستبدين ظنكـــم وهم داؤكم لو تعلمون الذي يشفي
أقمتم إماما للتقدم في الـــــدين فكان إماما للتقدم في النســـــــف

---

[1] - بدر شاكر السياب الديوان – 2/434 - 443.
[2] - المصدر نفسه -369.
[3] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية – 1/179.
[4] - المصدر نفسه - 182- 183.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأخرجتموه ينظر الكون مشرقا فزج بكم مستحسنا ظلمة السقـــف
أما آن أن تبدوا له من إبائكـــم زئيرا كأسد الغاب في منتهى جلـــف[1].

ويكفي أن كانت هذه القصيدة السبب المباشر في إهدار دم الشاعركما يروي بعض زملائه فقد كانت أول دعوة من نوعها للخروج على الإمام وإعلان اليأس من الأسرة الإمامية كلها . وكان ولي العهد يحي يحتفظ بنسخة منها بين أوراقه الخاصة[2] وقد صدقت نبوءة الشاعر في أئمة النسف فكان من أوائل الدور المعرضة لآلة نسفهم دار الشاعرين الموشكي و الزبيري .

ويسخر الشاعر أحمد عروة من المستعمر الذي بدا خائفا من الموت بعد أن زرع آلاف الموتى، خائفا من القتل وسيوفه تحمل دماء قتلاه، خائفا من الظلم والطغيان والقرى المنسوفة تئن تحت مدافعه، ويدعوه لتحمل نتائج ظلمه وتلقي طوفان الجماهير الهادرة المعربدة المنبعثة جبارة عنيدة، وليتحمل قذائف القدر فقد علم الناس دروس الغضب وما عليه إلا تجرع حمم رد فعلها :

علم الناس دروس الغضب / واملأ الكون غبارا / ... واملأ الكون دخانا / ولهيبا من حريق / ...قل لمن أهلك بالموت / دواعي للحياة / قل لمن دمر / بالقمع وبالسجن رموز الحريات / ...قل لمن شتت بالنار جموع اللاجئين / أتخافون من الموت / وأنتم قاتلون / أتخافون من الظلم / وأنتم قاهرون / ... إنه صوت الجماهير يدوي في السما / بين سحب قد جرت فيها /عروق من دما / ...إنها صيحات شعب مقمع / دمدمت فيه دواعي العربدة / ...ودنا للموت جبارا عنيدا / ورماها بقذيفات القدر[3].

ويدعو في قصيدته "زفرة اليأس"[4] إلى الثورة أيضا ولكن في أسلوب رومانسي رمزي حزين وهو الغالب على جل قصائد مجموعته "ذكرى وبشرى".

وتتحول أوطان الشعوب المظلومة بكل ما فيها إلى حراب في وجه الطغاة، هواؤها يقاتل الغزاة مياهها تتحول إلى آلات مسنونة تحفر في أعماقها قبورهم، نوافذها المكسورة و الزجاج تتفجر حقدا في وجوههم وأرضها لا تنبت إلاّ العناد، مقاتلوها يزمجرون في عناد والمدينة كلّها تتحول إلى كتلة عنيدة من النضال، مدينة شاهرة السلاح والجراح[5]، هي مدينة الشاعر معين بسيسو الذي يدعو الشعب كله إلى التوحد والالتحام لطرد ذلك المارد المعترض طريقها، ليأت الفلاح والمهاجر وعامل النسيج، ليأت الصياد والمسافر الجائع والمشرد الطريد ليأتوا جميعا وليقفوا يداً واحـــدة لتحطيم ذلك المارد، لتحطيم تلك القيود أو تقييد تلك السلاسل وإبطال مفعولها :

---

[1] - عبد العزيز المقالح وآخرون - زيد الموشكي شاعرا وشهيدا - 55 - 56.
[2] - المرجع نفسه - 57.
[3] - أحمد عروة - ذكرى وبشرى- 45 - 50.
[4] - المصدر نفسه- 70 - 71.
[5] - معين بسيسو- الأعمال الشعرية الكاملة- 97- 99.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فلنرم إخوتي البواسل / شباكنا على السلاسل[1].

وتظل صورة البركان الغاضب المتأهب للانفلات والزلزال المتأهب للانفجار ماثلة عند أغلب الشعراء وهم يرون جموع الشعب الغاضبة تتدفق على صانعي المذابح والمآسي، و تلك هي مدينة الشاعر معين بسيسو التي غدت برفضها، بانتفاضتها حمم البركان منصهرة مضيئة، وبسمة الزلزال وهو يفتح بطن الأرض لابتلاع الطغاة:

مدينتي يا أدمع البركان قد جرت مشاعل / ويا ابتسامة الزلازل / مطبوعة سيفا على جبين شعبي المكافح[2].

وفي لغة المقاتل المتمرس الثائر يهتف توفيق زياد مهددا بهذا الشعب الأشد من المحال مقسما بكل نقطة أذى تجرعها على يد الأعداء ليثور ثورة مستعر العزم محرقا كل ما يقف في طريقه و ليكشف وجه الصباح :

....يا إخوتي الأرض تهتف / بالنساء وبالرجال / هيا نلبي.....إننا / شعب أشد من المحال!! / قسما بأجنحة النسور تمردت رغم الجراح /...قسما بأرضي، بالشواطئ / بالسواقي، بالمراح / بالعزم المسعر بالرياح / لتبرقعنّ نسورنا أعشاشها / بلظى الكفاح / كي تنجلي خصل الظلام السود / عن وجه الصباح[3].

ويعلن الشاعر معين بسيسو أن عهد المساومات والمفاوضات الذليلة قد انتهى ولا مجد اليوم إلاّ للمقاومة ولرايات الإصرار المرفوعة، للمناضلين المكبلين في القيود للجرحى الساقطين في ميادين القتال للمطاردين :

قد أقبلوا فلا مساومة / المجد للمقاومة / لراية الإصرار شاهقه / ولليد المكبله / ولليد الطليقة المناضله / المجد للجريح والمثقوب قلبه وللمطارد[4].

ويقدم لنا نموذجا مثاليا لواحد من أوائل الثائرين في التاريخ العربي الإسلامي، من أوائل الرافضين الذين جاءوا بلاءاتهم ولوفي حضرة الخليفة، إنه رمز أبي ذر الغفاري الذي احتج على الخليفة الثالث عثمان بن عفان في تقسميه الفيء، وقد حاول الخليفة إسكاته ولما أخفق أبعده عن المدينة ولكن الشاعر لا يقف عند هذه النهاية الصامتة وإنما يتخيل عودة أبي ذر الإرادية من الجنة رفضا لما تلا عصره من أخطاء، فهناك بقية من كلام لم تزل حبيسة ويجب أن تقال وهناك مساءلات يجب أن يطرحها عليهم واعترافات يريد كشفها من جديد فمن أحق بهذه الغنائم ولماذا يذهب إلى الخليفة القعيد الذي لم يخرج إلى المعركة و لم يركب لها بحرا أو برا كل ذلك الفيء من مراكب وهو ادج من الذهب ولماذا تذهب كل تلك الخيرات إلى الولاة. ألف قينة وألف قصر وألف بئر خمر...؟ولماذا يدق كل ليلة أبوابه السياف بيمين تحمل كيس ذهب ويسار تحمل سيفا :

وسار وحده ومات وحده وعاد / يصيح مت لم تزل / بقية من الكلام في فمي / ...وعدت يا معاويه

---

[1]- المصدر السابق - 114.

[2]- المصدر نفسه - 106 .

[3]- توفيق زياد- الديوان - 284- 286 .

[4]- معين بسيسو، الأعمال الشعرية الكاملة - 105 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ألقي بشعرة الذئاب / في مغازل العناكب المشرده /... ياأيها الذئاب / قسمتم الأسلاب / فللمها جرين حفنة من الزقوم، /جرعة من الغسلين للأنصار، / ...ولم يزل عثمان /يداه تقطعان أرض الله، / وهو خاشع يرتل القرآن....[1].

ويحمل مظفر النواب الشعوب جزءا من المسؤولية فيما آل إليه الحكام من تماد في الطغيان وكأنهم واقعون تحت لعنة الجبر وكأن الاستعمار والفقر والجهل والظلم قدر مقدور لا يمكن رده أو رفضه أو تغييره، وقد ناضل رجال النهضة والإصلاح من أجل إسقاطها ونهضت الشعوب تنفض عنها غبار المستعمر المستبد وتسترد حريتها، ولكنها عادت لتركن ثانية إلى لعنة الجبر تلك، وكأن الظلم قضاء وقدر لا يمكن رده. ولإبطال مفعولها يستنجد الشاعر بالثائر العربي جهيمان العتيبي[2] ليطهرالشعوب العربية مرة أخرى من هذا الدرن ويخلصها من تراكمات تلك المعتقدات الزائفة التي غدت مثل كتل الشحم والأورام المنذرة بالخطر :

اتقد.. طهر الشعب من لعنة الجبر / شمر وذوب مقاديرنا الشاحمة / تمرد...تمرد... فهذي الشراذم ملعونة الأبوين / على عهرها شدت الأحزمه[3].

ويخاطبه في أسى وأسف شديدين على النهاية المجهولة التي انتهى إليها إثر انتفاضته في الحرم المكي، فلا يعلم مصيره بعد القبض عليه، ولا يعلم إن كان حيا مغيبا بأحد قبور النظام أو أقبيته المجهولة، وينحى باللائمة على الأحزاب اليسارية التي ينتمي إليها الشاعر إذ لم تحرك ساكنا إزاء الحدث ويتهمها بالغباء، ويهجم على الحكام الملوثين بدماء الضحايا تلاحقهم أنى ولوا وجوههم، حتى في طوافهم يحاصرهم وجه جهيمان وإن سجدوا للصلاة زكمت أنوفهم وقبصت قلوبهم الدماء المسفوحة ظلما، ويبشره أنّ اختفاءه لا يهم لأنه سيظل بين الناس ثورة عارمة في جميع الحالات، ويختم بدعوة الجماهير إلى الثورة على هذه الأنظمة الغائبة وكنسها من على وجه الأرض :

يا جهيمان حدّق فما يملكون فرائصهم / ...فإذا طوفوا كان وجهك/ أو سجدوا فالدماء التي غسلوها/ تسدّ خياشيمهم ومناخيرهم وقلوبهم الآثمه /لم يناصرك هذا السيار الغبي /...كيف يحتاج دم بهذا الوضوح / إلى معجم طبقي لكي يفهمه / أي تفوه بيسار كهذا / أينكر حتى دمه / ...أيها الجمع صه / لا تصفق لأنظمة غائبة / ...زلزلي...واكفهري...اكفري / اكفهري يا أجمل من أمة غاضبه[4].

ولا يؤمن مظفر إلا بالثائر المقتحم، المتهم، المنتقم، أو ما يطلق عليه تسمية في قاموسه الشعري الخاص"الرجل البندقية" الذي لا يستريح ولا يجد فضاء من الوقت لملذات الذات، ولا يحتكم إلا إلى السلاح الكامل النضج، ولنقل غير المغشوش، فلا حل للمعضلات بغير الاقتحام الجريء، ولا هازم لوحدة الأعداء إلا

---

[1] - معين بسيسو- الأعمال الشعرية الكاملة - 259- 260.

[2] - قائد حركة التمرد التي عرفها الحرم المكي عام 1979 (كانون الأول/ديسمبر).

[3] - مظفر النواب - الأعمال الشعرية الكاملة - 27- 28.

[4] - المصدر نفسه- 28 - 31.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إطباق وحدات البنادق ، فإن لم يقتحم هذا البطل الخرافي، بدل الشاعر مواقع الاتهام من الخصم إلى الثائر نفسه :

اتهم واقتحم وبغير المنايا البنادق لا تلتزم / قل أنا البندقية لست يزيدا ولا المعتصم / واقتحم و اقتحم أو فأنت الذي أتهم / ...إنما الرجل البندقية لا يستريح ولا يحتلم / انهض إلى حربة أكملت وعيها نحتكم / اقتحم واسحب السلسلة / تجد الحل جزءا من اللغز / واللغز جزء من الحل والمعضلة /...أطبقوا وحدة البندقية / وحدة أعدائكم تنهزم[1] .

ويخص الجندي المصري الذي رد على لغة النظام المصري ممثلا في رئيسه أنور السادات وحاشيته بنفس اللغة، واختار أسلوب الإبعاد النهائي والإلغاء المطلق للخصم كرد فعل على إلغاء السادات وتغييباته ليس بالسجن فحسب –كما كان في العهد الناصري وإنما مورست أنواع قمع أخرى، كإبعاد الكتاب عن وسائل الإعلام ، وإبعاد آخرين عن النشر تماما ، وفصل آخرين من العمل[2]، واشتدت أساليب القمع بعد اتفاقيات كمبديفد وبلغت أوجها ، ففي أوائل سبتمبر 1981 اعتقل 1563 شخصا من بينهم أبرز الكتاب والمثقفين المنتقدين لسياسة السادات الاقتصادية، والرافضين لسياسة التطبيع خاصة[3] لأنهم يرونها صلحا منفردا مع إسرائيل لم يعد على مصر إلا بالذل والهوان ، وقد أكد السادات نفسه في خطابه أمام الكنيست الإسرائيلي أنه غير كافي للسلام الدائم، وأنه يؤجل الفتيل إلى مرحلة قادمة، فحتى تحرير سيناء وسيادة مصر ظلت منقوصة، فبحكم بنود الاتفاقية تم نزع سلاح ثلاثة أرباع سيناء[4].

وتتفاقم الأوضاع أكثر وترتفع موجة القمع، ليتجاوز عدد المعتقلين في السادس من أكتوبر 1981 ثلاثة آلاف معارض في المعتقلات التي كان السادات قد أعلن قبل سنوات عن إغلاقها[5].

وقد حسم الجندي خالد الإسلامبولي كل ذلك الصراع بطلقة واحدة، انتفض لها مظفر وراح يضفي عليها من القدسية والجلال، إنها طلقة آتية من شاحنة الأقدار، طلقة شهق الكون لها، وأطربت حتى الجماد، واختزلت كل الخيانات، إنها التكبيرة الأولى لتراتيل صلاح الدين الأيوبي، مركبة من مزيج فريد، من خليط الأحزان وأعشاب العزة، إنها الطلقة الخالقة الأولى، الطلقة الفاصلة المطفئة لمشروع التطبيع، المسقطة الدول بما في ذلك أمريكا داعمة المشروع والسياسة الاقتصادية المنتهجة في مصر، الطلقة الغصة في حلق ذلك الجرب الكلّي الممتد وفي طريق ضباط ألحان الخيانة "مجموعة جرذانٍ كراشٍ، فرقة العزف الخليجي وقرد يضبط اللحن

---

[1] - المصدر السابق- 593 - 542.

[2] - مارينا ستاغ –حدود حرية التعبير - 70- 72.

[3] - المصدر نفسه - 73.

[4] - مشهور عبد الله الأنور – الشعر السياسي في مصر- 366 .

[5] - مارينا ستاغ – حدود حرية التعبير – 35 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخياني"[1].، هي مجرد طلقة واحدة ثم كان الحدث :

... طلقة...ثم الحدث/ ... طلقة غاضبة تفتح في الشرق الحسابات/ وسوف الطلقة الأخرى/ ولما تبرد الأولى ولا ارتاح الجدث/ ... طلقة ثم الحدث/ سنبلة أولى وحدس بالحصاد/...فهذي طلقة قد أطربت حتى الجماد/ شهق الكون من التنفيذ/ من شاحنة الأقدار/ ... هذي كانت التكبيرة الأولى/ لأرتال صلاح الدين في أيامنا/ ... منذ هذي الطلقة الفاصل/ مشروع بن عزى لن يرى النور/ لن يأكل إلاّ الرمل/ إلاّ الشوك/ والغصة والتنغيص[2].

ويرتفع بمفجر الطلقة الأولى وصانع الحدث إلى مصاف الأبطال الأسطوريين العمالقة، الذين طالما تشوقت الأجيال لرؤيتهم أطوادا شامخة، هو يقذف بالنار والجماهير تردد خلفه لتنفض من حوله حكومات الجراد ، يراه عملاقا في وقفته النشوى، عملاقا في تخطيطه، في وثبته، في إجهازه، ثم في ذلك التلخيص السريع للموقف بصرخته "تحيا مصر"، في وعيه الرسالي لمشكلة الجوع، وتنفيذه لصراع طبقي سيد بدل ذلك الصراع المزعوم الذي انبثق من السلطة وحولها يدور، إنه رجل الصحو الذي تمنى كل شبل أن يكون الإصبع الأصغر في كفه، وهو الرجل الأسطوري المتعدد الحضور، يراه الناس رأي العين في القدس يطعم حمامات الأقصى، ويرونه في الوقت نفسه هناك على طاولة التعذيب يسقط الأنظمة الحاكمة، ويدعو الشاعر مصر كلها أن تهلل وتكبر وتزغرد لوجه هذا "الرجل اللحظة والتاريخ والبذل"، وتهب لهدم السجن الذي يحوي بين جوانحه القائد "التنفيذ" والقبطان الجريء المبحر نحو القيامة:

وتلك الوقفة العملاقة النشوى / أيا عملاق ...يا عملاق / في التخطيط... في القفزه.../ في الإجهاز/ في تلخيصك الفوري للموقف/... تلك الطلقة الأولى وللحدس شواهد / رجل الصحو/ تمنى كل شبل أن يكون الإصبع الأصغر في كفك /... أنت نفذت/... وعادت ماسة النيل إلى العقد الإلهي / فحسن العقد من حسن الفرائد / أنت نفذت صراعا طبقيا سيدا/ بعض صراع طبقي صار للسلطة طباخا / وبعض منه حشو الجيب أو حشو الجرائد[3].

ويجد الشاعر منفذا لتفجير أحزانه المتراكمة من الوضع العربي كلّه، ويتهجّم على حكامه ويخص منهم حكام الخليج وحسني مبارك على امتداد القصيدة ويبكي من قدر الأصفار، من غربتها ووجعها وصمتها ويدعوها للثورة، لسحق كل آليات النفي العمياء، وبعث إيمان جديد لا يؤمن بفلسفة الجبر العمياء ويختم القصيدة المطوّلة بتحية خاصة لخالد الإسلامبولي فيجعل عمره هبة لمن يرتقي الجدران إليه يهديه قلبه وشعره وسلامه وحبّه :

...إننا لا شيء.../ أصفارًا /نعاني غربة الصفر...احتلام الصفر.../حزن الصفر...صمت الصفر.../

---

[1] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة - 219 .

[2] - المصدر نفسه -201- 219.

[3] - المصدر نفسه -213- 217.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أخرج أيها الصفر من النّفي النهائي /...انتفض...كن / امحق الآلية العمياء والنفي / ونفي النفي /فالإنسان لا الجبرية العمياء قائد / الدرج الأرجواني الذي عمري سأعطيه /...سوف أعطيه لمن يرقى جدار السجن / يعطي خالدًا قلبي / وشعري... وسلامًا من كثير الحب نث[1].

ومما لا شك فيه أن تحية مطولة ووقفة عند هذا الرجل الذي تضاربت حوله التأويلات وتعددت القراءات تؤدي غاية واحدة دعا إليها مظفر تصريحًا في مواطن كثيرة هي الثورة، وجسدها في هذه القصيدة بالنموذج كما يراه هو "الرجل التنفيذ" فقد رأى أن جميع الثورات المتحركة هنا وهناك قد أخمدت، كما أخمد ثوار نهضوا فرادى كجهيمان العتيبي، وسليمان خاطر العسكري المصري الذي أطلق النار على الإسرائليين في سيناء، وقتل عددا منهم، وتم اغتياله داخل زنزانته، وها هو خالد الإسلامبولي يخمد هو الآخر ولا يتغير شيء.

- الدعـــاء عليه كـــآخر الحلـــول :

وإذ يعود الوضع إلى نقطة الصفر التي انتهى إليها بعض الشعراء، فقد انتفضوا وثاروا وانتقدوا وكشفوا الخفيّ المستور وألهبوا المشاعر، ولكن الدار ظلت هي الدار والسجون هي السجون والقمع هو هو وربما تصاعدت وتيرته، فأصيبوا بإحباط ويأس ولم يعد أمامهم غير باب الرجاء والدعاء، فهو ملاذ الحائرين ممن تقف القيود حاجزا دون طموحاتهم العظيمة.

من أولئك الذين جأروا إلى الله بالدعاء على ظالميهم والدعاء -كما نعلم - مجانيق الضعفاء ، الصافي النجفي الذي دعا على الإنجليز وقد سجنوه ظلما بالعمى والحرب مثلما حاربوه :

خسئت انجلترا واللـــــــــــــه أعمى مقلتيهـــــا
قبرها في كل أرض حفرته بيديهـــــــــا
أمنت حربي وسجني يعلن الحرب عليهـــا[2].

كما يدعو البياتي "بالموت للمستعمرين"[3] مكررا الدعاء تعبيرا عن رغبته الملحة في الإجابة واستعجاله رؤية مشهد نهاية المسرحية الاستعمارية. ويدعو محمد بهجت الأثري بالتعس على الخونة الذين باعوا وطنهم للدخيل، يسرح فيه ويمرح، بينما يرسف أبناؤه المخلصون في القيود والأغلال :

ألا...لالعا للخائنين، تعثروا وقاموا ليهووا في مساقط آجال[4].

و عندما يرغم السجين الجزائري على رفع علم المستعمر كل صباح وإنزاله كل مساء و أداء طقوس التحية، لا يجد الشاعر حسن حموتن لما جاء دوره لرفع علم المستعمر سوى الدعاء على من أذل الشعوب

---

[1] - المصدر السابق - 219 - 224.
[2] - الصافي النجفي – حصاد السجن - 48.
[3] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية 126/1.
[4] - محمد بهجت الأثري – ملاحم وأزهار - 100 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالذل، يقول في قصيدته "أمام علم الظالمين" :

على الرغم مني رفعت العلم رفعته والقلب مني انهزم
فلما اعتلى قلت يا ذا الكرم أيا من يذل ويعلي الأمم
أذلّ فرنسة بين الدول[1]

ويدعو كل من الشامي والمعلمي على سجن حجة الرهيب الذي ذاق فيه أحرار اليمن لا سيما بعد فشل ثورة 1948 من ويلات النظام الإمامي، يدعو عليه الشامي بالزوال وعلى بانيه بالهلاك، فيقول :

أشاده الظلم تأييدا لدولته والظلم بالظلم قد يحظى بتأييدا!!
تبًّا له ولبانيه، ولا هطلت على ثراه غمام الخير والجـــود![2].

ويوافقه المعلمي فيدعو عليه بالزوال من الوجود ويعقب دعواه بأخرى على قومه، ثم يتراجع ويعذر ظالميه ويدعو لهم بالهداية وإن كابد من أذاهم، لأنهم لم يأتوا ما آتوه من طيش إلاّ عن جهل :

سلو حجة عني، محا الله سجنها وإن شاء بعد السجن هد المبانيا
لقد ذقت فيها الويل أسود قاتما وشيّب فودي هـــــولها وفؤاديا
فما شوّهوا هذي الحياة تعمدا ولكن جهلا طمّ نجدا ووادي[3].

ومثلهما يدعو سليمان العيسى بالفناء والهلاك لكل ما شادته أيدي الظالمين من الحواجز والسدود:

للموت...ما رفع الطغـــــاة من السدود وللتباب[4].

أما جميل شلس فيدعو على السجان بالاندحار والإبعاد والصغار وكل ما يحمله الفعل "خسئ" من دلالات، يقول :

خسئ السجان... يا أرض استنيري / واستعدّي للغد[5].

ولمعين بسيسو لعنة عميقة غائرة محفورة يقذف بها وجه الجلاد الحائل بينه وبين الأنهار العربية من عمان إلى بردى، لعنة ظمآن إلى الوطن الكبير تغدو أغنية أسطورية في وجه ذلك الجلاّد اللعين:

يا طفل السحب العطشان/ هي ذي أغنية الأسطوره.../ هي ذي لعنتنا المحفورة / أن يسقط قلب الجلاد/ قفازا، قلب الجلاد /في كف جميع الأنهار[6].

---

[1] - صلاح مؤيد – الثورة في الأدب الجزائري – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة - 68.
[2] - أحمد محمد الشامي – حصاد العمر -81- 82.
[3] - أحمد محمد الشامي – من الأدب اليمني -148.
[4] - سليمان العيسى – الأعمال الشعرية – 1/ 248.
[5] - محمد جميل شلش – الحب والحرية - 108.
[6] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 184.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويختم القرضاوي إحدى مناجياته في ليلة القدر برجاء النصر الموعود للمتقين الصابرين، ويراه بعين البصيرة قريبا :

يا ربّ رحماك، أنجز ما وعدت به وانصر، فنصرك من أهل الهدى دان[1].

ويستحضر في ملحمته النونية وهو يرجو خلاص مصر من كابوسها بعض القصص القرآني بإشرافات نسائم النصر وبشائر الانفراج، يستحضر قصة نوح -ט- { **أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ** }[2]، فاستجاب له ربه وحمله في الفلك المشحون، وقصة إبراهيم عليه السلام وقد ألقي في النار فنجاه الله منها بكاف ونون، فكانت { **بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ** }[3]، وذا النون { **إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ** }[4]، فاستجاب له ربه وأخرجه من بطن الحوت، ويختم الشاعر هذه القصص بدعائه أن يرحم الله من هذا البلاء العظيم عباده الواقعين في بطن حوت العصر، فكلهم "ذو النون" :

يا رب خلص مصر من أعدائها وأعن على طاغوتها الملعـــون
يا رب إن السيل قد بلغ الـــزبى والأمر في كاف لديك ونون
يا من أجبت دعاء نوح "فانتصر" وحملته في فلكك المشحـــون
يا من أمرت الحوت يلفظ يونسا وسترته بشجيرة اليقطـــــين
يارب إنا مثله في كربـــــــــة فارحم عبادا كلهم"ذو النون"[5].

ويتفرد مظفر النواب بمعجم دعاء خاص استلهمه من ثوراته الغاضبة، ينظر حوله فلا يرى إلاّ "حيفا،... بهائم بل ويرتفع بالبهائم عليهم ويسألهم عن عقيدتهم، عن أي دين أباح لهم كل تلك الجرائم الوحشية، عن أي ناموس أمرهم بذلك، ولا يجد إلاّ أن يستنزل عليهم غضب المولى -Y، ولو غضبا قليلا :

يا جيفا يا نتانات/ أين ديانتكم /أين عقائدكم / يا بهائم / إن البهائم ما نهبت بعضها / ... أما تستحي أنت يا رب منهم / لقد وسخوا الكون /فاغضب قليلا / هلالك قد جعلوه وعاء لآثامهم/ صليبك قد عاقفته العصابات نازية/ خجل...خجل...خجل...[6].

وفي إحدى حالات يأسه من الأفق المسدود وهو ملقى على الحدود الإيرانية العراقية وسياط السافاك تتهاوى عليه، يسأله سبحانه وتعالى أن يبدأ بالتخريب في تلك اللحظة ردًّا على ما يحدثه الآخرون من فساد في الأرض :

---

[1] - يوسف القرضاوي – نفحات ولفحات – 40.
[2] - سورة القمر – الآية 10
[3] - سورة الأنبياء – الآية 69.
[4] - سورة القلم – الآية 48.
[5] - يوسف القرضاوي – نفحات ولفحات - 69.
[6] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة - 332 - 333.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اللهم ابتدئ التخريب الآن /فإن خرابا بالحق بناء بالحق[1].

ويستعجل في قصيدة "القبطان" وعد الله لعباده المستضعفين في الأرض، فقد آله مشهد ركضهم الإجباري في المسالخ يوميا، ويدعوه أن يلتفت إليهم وينقذهم من أولئك القادة المنتفخين المتعاظمين من العدم:

أين وعد الذين استضعفوا في الأرض/ والركض إلى المسلخ يوميا/ أنا أصرخ يا رب التفت للناس /ما هذي القيادات المنافيخ فراغا[2].

ويدعوه مرات أخرى أن يقضي قضاءه ولا يخجل من هؤلاء الحكام، وأن يكف عن الناس أذى الثيران والحكام المثقوبين ، القردة وأقزام الردة والمتكرشين والشيوخ أبا عن جد، ويسأله أن يكف عن مسامعهم تلك الخاءات المتوارثة جيلا عن جيل ويتخيل مشهد نهايتهم في الأخير ومآلهم الذي لا يراه إلا النّار :

يا رب كفى خجلا / يا رب كفى ثيرانا /... يا رب كفى خجلا / يا رب كفى حكاما مثقوبين /... ألقوا أول أقزام الردة في النار وهاتوا الآخر/ من أنت / أنا...(يطرق) يا ابن الـــ.../ ألقوه كذلك.../ هاتو المتكرش/.. والله أنا الشيخ بن الشيخ حفيد الشيخ.../ كفى هذي الخاءات الوسخة/... يا رب كفى بقرا[3].

كانت هذه ملامح الصورة الأولى من صور علاقة الشاعر السجين بالسلطان، ألا وهي صورة المواجهة كما أشرنا إلى ذلك في قراءتنا لجدلية العلاقة بين المثقف والسلطة، وهي الغالبة على شعر الحبسيات، فمن غير المعقول أن يتعرض الشاعر لكل ذلك القمع بدءًا بالسجن للاشيء وانتهاء في كثير من الأحيان بعاهات وأمراض مستديمة ونتوقع منه مدح سجَّانه وجلاده أو حتى مهادنته كفا لأذاه، بل إنه كلما تمادى أولئك في القمع تمادى الشاعر السجين في التمرد والرفض والتمسك بالموقف والإصرار عليه، وما تلك النصوص الشعرية الصامدة، الرافضة، المتحدية الثائرة إلاّ إحدى النتائج الحتمية للقمع إلى جانب نتائج أخرى عملية تمثلت في مساهمة أولئك السجناء في الحركات النضالية من عمق السراديب والأقبية.

ويمكن اعتبار ما شذ عن هذا الاتجاه من حبسيات –على قلته- نشازا وخروجا عن المعهود والمتوقع، فهي نصوص قليلة إذا ما قورنت بالكم الهائل الذي يصب في دائرة الرفض والمواجهة، جاء بعضها في استعطاف الحكام وأفلح في الإفلات بصاحبه من قبضة الحديد، وجاء بعضها الآخر في صورة مجاملات للنظام، وهي في الغالب نصوص لشعراء مغمورين وجدوا فرصة للنشر في مجلة السجون المصرية التي كانت تشرف عليها إدارة السجون نفسها ولا تمرر منها إلاّ ما وافق هواها وهوى النظام، كما يبدو من مستواها الفني أنها لشعراء ناشئين محدودي الثقافة لم يتسن لهم كشف خبايا السياسة والوقوف على حقيقتها، يعتمدون في معلوماتهم على أجهزة الإعلام الرسمية، فجاءت قصائدهم أبواقا أخرى مكررة لكل ما تلفظه تلك الأجهزة، لاسيما في مرحلة ما قبل هزيمة 67، وربما كانت لشعراء دخلوا السجن لجرائم معينة غير"جرم وطني"، فحاولوا

---

[1] - المصدر السابق - 497.

[2] - المصدر نفسه - 515.

[3] - المصدر نفسه - 180-181-185.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مجاملة النظام للظفر برضاه والفوز بتخفيف الأحكام أو الإفراج في إحدى المناسبات.

وعلى الرغم من محاولات التدجين التي تعرض لها السجناء، ظلت مساحة الرفض هي الأكبر، ونادرا ما أفلح سجن في صناعة"مرتد"[1]، تلفظه الحياة ويرفضه الشارع والناس، ويتنكر له الأهل عقابا على الخيانة، فلا نجد من المرتدين إلاّ بعض مدائح ومجاملات شعراء مجلة السجون المصرية وضراعات الشاعرين اليمنيين"الشامي" و"الزبيري"، فلهذا الأخير قصيدة أرسلها من سجن الأهنوم إلى الإمام يستدر عطفه بمشاهد من أسرته التي فقدت معيلها، ولكنها كانت استعطافا إلى حين الخروج من السجن ليعود الشاعر إلى ساحات النضال من جديد، وقد برر فعله بما تنطوي عليه القصيدة من وصف لآلام السجن مما يهيئ الشعب للإطلاع على المظالم وانتقادها[2]، وقد انتهى الأمر بالشاعر إلى الفرار من السجن ثم الفرار من الوطن كله[3]، من تلك القصيدة هذا المقطع الذي يطالب فيه أسرته بالذهاب إلى الإمام لاستعطافه عله يرق لنسائها وصغارها :

سيروا إلى المـــــــولى لعـــله ... يحنوا على هذي القلوب ويخشع
صبوا المدامع تحت ظل حنـــانه ... إن الحنـــــان إلى المدامع يسرع
وتحملوا معكم صغارا رضعـــا ... فعساه تعطفه الصغـــار الرضع
من أين يأتيك الفساد وأنت في ... أرض تكـــاد صخورها تتشيع[4].

أما الشامي فسجل مجموعة من الاعتذارات الذليلة مثل"رباعيات" و"من أعماق السجن" و"الإسلام والعفو" و"ضراعة سجين"، رفع فيها الإمام إلى مصاف الأبطال وظل كذلك إلى أن تيقن الإمام من تدجينه والتحاقه بحظيرة الرعية المطيعة، فأفرج عنه، يقول في قصيدته ضراعة سجين التي تكشف عن ضعف الشاعر وتمزقه وذله :

مولاي : مالي في البيان وسيلة ... إلا مني قلب بحبك يخفـــــــق
وشعور مسجون توزعه الأســـى ... فشعوره بيد الأســـى متفـــرق
وحنين محزون وهت كلماتـــــه ... فيكاد يشهق بالكلام ويصعق
ودموع مفؤود تقرح جفنـــــه ... فيكاد يخنق بالدمـــوع ويشرق
ورجاء مكدود تكاد لحالـــــه ... صمّ الحجـــــارة رحمة تتشقق
ودعاء مبتهل يؤمل فرجـــــــة ... ممن إليه من الشـــــدائد يفرق
المنقذ الهلكـــى إذا مـــــا ابتلوا ... وتمزقت آمـــــالهم وتمزقـــوا
والمنصف المظلوم إذ عبثت بـــه ... يد ظالم أو نابه ما يرهـــــــق

---

[1] - معين بسيسو- الأعمال الشعرية الكاملة - 308-313
[2] - محمد محمود الزبيري - الديوان - ثورة الشعر- 78- 79
[3] - عبد الستار الحلوجي- الزبيري شاعر اليمن- 27 .
[4] - مجموعة مؤلفين - الزبيري شاعرا ومناضلا- 81.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إني لأعتنق الخطوب وفي فمـــي ما اسمه القدسي نور مشـــــرق
في كل حرف دمعة مهراقـــــة وبكل سطر زفرة تتحـــــــرق
أودعتها شكواي لا أرجوهـــا إلا رضاك .... وليتني أتوفـــــق[1].

ومن زاوية إثارة المشاعر واستدرار العطف والشفقة يحاول عبد العزيز أحمد هلالي النفاذ إلى قلب سجانه، فكما لهم أطفال ينتظرون عودتهم مساء، له هو أيضا طفل كان يرعاه ويملأ حياته حبا وحنانا، وقد أفقده السجن ذلك الظل فإذا هو صباح مساء يسأل أمه عن ذلك الغائب الذي طال غيابه :

إن لي طفلا كأطفالك في المهد وأحلى
كنت أغذوه حنانا وأنمي فيه عقـــــلا
ويلاقي بين أعطافي إحسانا وفضـــــلا
وأراه نور عيني ودنياي وأغلـــــــــى
وهو يلقي اليوم من بعدي تشريدا وهولا
وهو يبكي سائلا عني بين الدمع أهـــلا
أين يا أماه"بابا"هل جفانا حين مـــــلا
أم تراه كان حلما ومع الفجر تولـــى[2].

أما سائر القصائد الأخرى فتدور في فلك جمال عبد الناصر ترتفع به إلى مصاف الأبطال الأسطوريين وتمجده وتهلل للوحدة المصرية السورية وتتغنى بتحرير قناة السويس، نشرت كلها في الفترة الممتدة بين فيفري 1958 ونوفمبر 1964 في مجلة السجون المصرية[3].

فعن فرحة الوحدة نقف عند قصيدة نصر حبيب سالم المهللة بالوحدة والمتطلعة إلى أحلام وأمجاد جديدة بقيادة جمال عبد الناصر، يقول :

حيوا"جمال" وطيبوا اليوم يا عـــرب إن "الفرنجة" منا الآن قد عجبوا!
"سوريا "العزيزة في ريعان نهضتهـــا تدعو العروبة حيث المجد يرتقب
ضمت"لمصر"وصار"جمال" قائدهـــا نحو الفخار فحق الذخر والأرب
سيف"ابن عامر" يحمي صرح وحدتنا فيه الهلاك لمن في غزونا رغبوا.[4]

---

[1] - أحمد محمد الشامي – ديوان النفس الأول – مطبعة مخيمر – القاهرة – 1954 - 95.

[2] - عبد العزيز أحمد هلالي – أنغام شاردة- 40.

[3] - محمد محمود الغرباوي – الشعر في سجون مصر- الملحق (حوالي 16 قصيدة - 651 – 653 - 656 - 665 - 674 -678 - 746 - 750 - 752 - 777 - 778 - 831 - 856 - 869 - 872)

[4] - المرجع نفسه - 653.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومثله يستبشر محمد علي الذيب بهذه الوحدة التي يراها قد حققت للعرب شعورا طالما حرمه المستعمر من الإحساس به، بما كان يزرعه من حدود وحواجز بعد ما كانوا أمة واحدة تحت راية واحدة هي راية الخلافة الإسلامية :

بردى تهادي ضاحكا جذلانـــــا والنيل واديه النضير ازدانـــــا
لما استظل التوأمان برايـــــــة وقفت تطاول في السماء عنانا
يا مصر تيهي وافخري فقد انقضى عهد تصدع فيه شمل حمانـــا
بالأمس فرقنا العدو، وفي غـــــد سنذيقه من جمعنـــا ألوانـــــا
أقسمت ما بعد اتحاد ديارنـــــــا نصرا أراه لمجدنا عنوانـــــــا[1].

ويسجل أحمد عبد العال الزقم إحدى تهانيه لجمال، البطل الأسطوري الذي تقدم يبني ويهدم ويدمدم، على درب رموزأخرى عالمية من أمثال ماوتسي تونغ وهرو، يقول :

ألف عيد، يا جمال/ يا يد الشرق التي تبني وتهدم/ يا صدى البعث الذي دوى/ يدمدم/ يا أخا "ما و" و" نهرو"/ يا هديلا للحمام /.... يا هوى كل جواد/ يا نبات التضحيات/ يا معين المعجزات/ ألف عيد ، ألف عيد، ألف / عيد...[2]

وهو عند عبد العزيز خضر" حفيد خوفو" الذي جاء ليبني أمجاد مصر الحديثة ويكمل مجد الفراعنة وأهراماتهم الخالدة :

يا بانيا فوق الـــــربى أهرامـــــا وقد افتخرت على الزمان تماما
يا من تركت لمصر أروع آيـــــة "بوالهلول" منا ضاحكا بساما
وإذا سئلت عن" جمال" فقل لهـــم فاق الحدود وهدم الأصنامـــا
قد شاد[3] في "أسوان" صرحا خالدا فخرا لمصر وكعبة وإمامـــــا
قولوا"لخوفوا" حفيدكم بلغ الذرى رفع البناء وعزز الإسلامـــــا[4].

والحقيقة أن هذه النغمة لم تكن حكرا على هؤلاء الشعراء السجناء، وإنما كانت قاسما مشتركا بين عدد من الأدباء والشعراء الذين تغنوا بالعروبة وتفاءلوا بالوحدة وعلقوا آمالا عريضة تبخرت في لمح البصر بانسحاب سوريا من الوحدة ثم بالهزيمة النكراء.

---

[1] - المرجع السابق -778- 979.
[2] - المرجع نفسه - 856.
[3] - في الأصل "أشاد".
[4] - محمد محمود الغرباوي – الشعر في سجون مصر 750.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

X Z

* البـاب الـثـالـث *

الموضوعات الـذاتية في شعر الحبسيـات

- الفصل الأول : السجــن من الــداخل.
- الفصل الثاني : بين الشــاعر والسجــان.
- الفصل الثالث : تجاوز محنة الحبس بصناعة فضاءات أخرى .

E Θ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

X Z

* الـفـصـــل الأوّل *

السجـن من الـداخل.

- من لحظة المباغتة حتى الوصول إلى السجن .
- الحياة خلف الأسوار .
- طقوس السجن ، نظامه و ممنوعاته .
- صراع الشاعر مع الظلام و النور المخنوق و تطلعه إلى العالم الخارجي.

E Θ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- من لحظة المباغتة والاقتياد حتى الوصول إلى السجن :

كما كانت علاقة الشاعر بالحكام علاقة صراع وصدام لا تهدأ إلا لتلتهب، ولا يغادر الشعراء موضوعا إلا ليهتدوا بثاقب فكرهم إلى آخر يغيضون فيه السلطان ويكشفونه، فقد كانت علاقتهم بالسجن والسجان أيضا علاقة مواجهة ومغالبة، قلّما يهدأ فيها سجان من بطش وقلّما يهدأ فيها شاعر من نبش، تداخل فيها السياسي بالذاتي، خاصة وأن الشعراء في هذه الصفحة يعرضون جوانب لصيقة بيومياتهم في السجن، ولا عجب في ذلك، فالشعر فن وجداني، لصيق بذات الشاعر وتجاربه المتنوعة وهو استجابة لانفعالاته ومشاعره المختلفة من فرح وحزن وغضب وكره وحب، ورضى ورفض.

ولذلك فإنه مهما استجاب الشاعر لنداءات خارجية أخرى قوية كنداء الواجب والوطن الذي التزم به شعراء الحبسيات وأدوا ما عليهم من رسالة التبليغ والتبصرة والتذكير بل والتغيير أيضا. فإن ذلك لا يعني إهمالهم لمعاناتهم الشخصية وتجاربهم الذاتية، وسط ذلك الواقع العربي المتردي المؤذن بالانفجار. فقد كانت أشعارهم بمثابة وثائق هامة تؤرخ لمرحلة حرجة من تاريخ الوطن العربي. زالت نظم ودالت دول وسقطت أنظمة وقامت أخرى ، وظلت تلك القصائد تحتفظ لنا بكثير من ملامحها، تهدمت سجون بفعل عوامل الطبيعة وهدمت أخرى بأوامر عليا، واندثرت آثارها وامحت من صفحة الأرض، ولكنها ما زالت قائمة إلى اليوم في معمار الشعراء الذي لا يتهدم، إذ نحت لها الشعراء منحوتات لا تمحي، ورصدوا تجارب حبسهم، منذ ما قبل الاقتياد إلى السجن إلى ساعة مغادرته وغربتهم خارجه. فوصفوا مفاجآت الزوار الذين يخافون النور فلا يطرقونهم إلا ليلا أو فجرا، وتتبع بعضهم رحلة السجن الطويلة، وطرقها المتعبة المملة الثقيلة ثقل السجن نفسه، وصفوا أقبية السجن وجحوره وقبوره وجدرانه، ظلامه وحشراته، طعامه وشرابه، ليله ونهاره، وصفوا جيران السجن ورفاقه الذين ينزل بعضهم إلى دركات الشياطين، ويرتفع آخرون بتسامحهم وتوادهم وتعاونهم وتعبدهم إلى درجات الأنبياء، واحتفظوا لنا بصور من بعض مجالسه الأدبية والفكرية وحفلاته، حدثونا عن قوانينه وطقوسه التي تختلف من سجن إلى آخر ومن بلد لآخر، بحسب اختلاف أمزجة السجان وأسياده، وأطلعونا على قائمة ممنوعاته ومحرماته الطويلة، وعن زبانيته الغلاظ الغضاب وهم يتفننون في صناعة العذاب بأشكال شتى، جسدية ونفسية تمتد أحيانا إلى الأهل، كما نقلوا لنا بعض أفراحهم التي كانوا يصنعونها برغم القهر ويلجأون إلى عوالمها الجميلة مع الأهل والأحباب أحيانا، وفي رحاب فضاءات أخرى أبعد من أن تدركها يد السجان أو تمنع انطلاقها جدرانه العالية وقضبانه الحديدية، رحاب الحلم، رحاب الأمل، رحاب الرجاء والدعاء المفتوحة، وافتخروا أحيانا بالسجن ومدحوه أن وفّر لهم خلوات ما كان الطغاة يتيحونها لهم لو أنهم ظلوا خارجه.

وانقلبوا في بعض الأحيان إلى أجواء الدعابة والسخرية والضحك القاتل، كل ذلك في تداخل عظيم بين الذاتي والسياسي، يتعذر الفصل بينهما، لأن ذلك السياسي هو صانع هذا الذاتي وهذه الصور الحية من

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تجارب الشعراء في المعتقلات والمحتشدات والمحابس والسجون.

إن أول ما اصطدم به هؤلاء الشعراء المقاتلون بالكلمة هو طرق اعتقالهم غير المعهودة، ذلك أنهم يعلمون جيدا أن القانون يكفل للمواطن الحرية، ويعلمون أن المرء بريء حتى تثبت إدانته، وأنه لا يقتاد قسرا إلا في حالات الجرائم الخطيرة كالقتل والتخريب وغيرهما، بينما يستدعى في الغالب ذوو الجنح والمخالفات.

وقد رأينا أن أغلب تهم شعرائنا لا تخرج من دائرة الجرائم السياسية وجرائم الرأي، ولكن الشعراء فجعوا بالمباغتات الليلية المفاجئة التي تأخذهم غالبا نحو المجهول، فلا يعرف أهلهم وذووهم المكان إلا بشق الأنفس، وربما انتهوا و لم يعرف الأهل الوجهة التي أخذتهم، ولا مكان رفاقهم، ولا إن كانوا في عداد الأحياء أو الأموات.

وعن هذه الزيارات الليلية يحدثنا سميح القاسم عن تلك الخطوات المشبوهة التي عكرت عليه أجواء الصمت حيث كان مشرفا على استقبال قصيدة جديدة، فنفرت الصورة عن بيت القصيدة الأخير بوقع خطواتها وأجسادها المختفية، لا يبدو للشاعر شيء من فوهة بابه غير عنوان المترل المدسوس تحت معاطفها المميزة، ويتابع الشاعر صعودهم السلم ، تهامسهم، نقرهم بابه ، تاركا مساحة من البياض والنقاط للقارئ يتخيل المشهد المحذوف، ليختم في الأخير بعتاب جميل ليس على ذلك المشهد المألوف من السينات المتتالية والركل والقلب العشوائي للأشياء. وإنما فقط لأنهم قطعوا عليه نفس القصيدة في آخر لحظات الميلاد، وبتروا بيتها الأخير ونعلم مدى أهمية البيت الأخير عند الشاعر:

صعدوا السلم.../ أسمع وقع الخطوات المشبوهه / أبصر تحت معاطفهم / عنوان المترل، والفوهه /صعدوا السلم.../ همسوا، / ثانيهم يتقدم / يعقف سبابته، ينقر بابي./...../ ...../ ويلك يا هذا... عكرت الصمت/ ويلك....نفرت الصورة / عن آخر بيت ! [1]

وينقل إلينا مشهدا آخر من مشاهد تلك المفاجآت الهمجية المعكرة صفو أسرته المنشغلة بهمومها الصغيرة، المنهمكة في حياتها المألوفة، جاءوه فجأة ودفعوا أمه وأخته جانبا، مما يوحي بدخولهم العنيف، بخلاف الدخول السابق المبتدئ بالطرق على الباب، وأخذوه بعيدا إلى حيث لا يدري، وكانت رحلة العذاب الليلي الطويلة والجسد المسحوب على الأوحال والأسلاك والأشواك طوال الليل.

كانوا بوجوه عجيبة لم يستطع الشاعر تبيّن تقاسيمها وملامحها ، و لم يرد إيلامنا بمشاهد ما بعد الاعتقال مباشرة، فترك بياضها للقارئ يتخيلها كما شاء له مخزونه الثقافي ومعرفته بمباغتات أولئك الزوار:

ذات يوم فاجأوني / دفعوا أمي وأختي جانبا / واعتقلوني /...../ كالتماثيل الترابية كانوا / بوجوه فقدت ضوء العيون / ..... يوم جاءوا فجأة / واعتقلوني / وبعيدا.....أخذوني/.....وعلى

[1] - سميح القاسم - الديوان - 366.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأوحال والأسلاك/ جروني طوال الليل[1].

ويحدثنا عن طرق أخرى للاعتقال غير مباغتة الأبواب، إنها مباغتات دوريات البوليس التي لا تنام للشباب المسالم الوديع، فهي لا تفتأ تتحرك وتدور في الظلام، تجوس في القرى، ولا ينجو من طرقاتها باب، تمزق سكون الشوارع الهادئة، وتمضي غاضبة تكاد تقلب جيوب من تصادفه في الطريق، وتداهم مجلسا من مجالس السلام، تحلق فيه جمع من الأصدقاء حول الشراب يطالعون الشعر ويتبادلون النكت المضحكة، ولكنه ضحك كالبكاء، وكان بينهم محارب من طراز آخر، مخضب اللواء، محارب سلاحه الأشعار المقاتلة المتقاطرة ، ليأتي الفراغ والنقاط واصفين لما بعد القبض على ذلك المحارب بالكلمات وتفرق الجمع وبقاء الشراب كما ابتدأ المجلس في الكؤوس[2].

دورية البوليس لا تنام / ما فتئت تبحر في مستنقع الظلام / تجوس كل قرية... تطرق كل باب /...ما أجمل السلام في حلقة أصدقاء / يطالعون الشعر، يشربون، يروون من النكات / ما يضحك الأحياء من بلية الحياة ! / وبينهم من جحفل الحرية الحمراء / محارب مخضب اللواء / سلاحه... أشعار/ تقطر من حروفها الدماء ! / وداهمت مجلسهم دورية البوليس / لتلقي القبض على محارب وجهته النهار/...../ وباتت الخمرة في الكؤوس[3].

وتكتمل صورة الاعتقال عند سليمان العيسى بكل دقائقها وتفاصيلها بدءا من أولئك العشرين الذين ارتموا فوق باب داره حتى روعوا جاره، وبينما أحاط الآخرون المتبقون بداره الصغيرة كالسوار مما يوحي بكثرتهم، تناثروا هم داخل البيت يعيثون فيه فسادا، ويلتهمون ما فيه وينثرون مكتبته، ويعبثون بأوراق ديوانه، يفتشون عن شيء مفقود يجهله الشاعر نفسه ويرمقونه من حين لآخر في ازورار، فيتساءل متعجبا عن أي الطائرات أو أي المعدات الحربية الثقيلة التي حواها هذا البيت الصغير، الذي لا يعدو أن يكون عشا لكناري منشغل –ككل الشعراء- بالقوافي والغناء، ويلتفت إلى ابنه معن الغاضب القسمات من هؤلاء الضيوف، الذين لم يقاسموه مرحه وفرحته على عادة سائر الضيوف الآخرين، وكان يود لو أن القوافي تطاوعه ليفتح عليهم خط النار مثلما أرعبوا أمنه، ولكن القوافي والخلال الكريمة أبتا عليه الثأر فحاشا لسقفه أن يجاوز حدود المروءة والكرم :

...كيف ارتموا عشرين... فوق	الباب... حتى ارتاع جاري
وأحيط "مأواي" الصغير	بمن تبقى كالسوار
وتناثروا في البيت...	يلتهمونه مثل الشرار
يذرون مكتبتي بديواني	بأوراقي الصغار

[1] - سميح القاسم - الديوان - 188 - 189.

[2] - يقول الشاعر معلقا أن الرقيب الصهيوني حذف المقطعين الثاني والثالث من القيصدة وهما على سعة سبع صفحات من الديوان.

[3] - سميح القاسم - الديوان - 92 - 94.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويفتشون... وينبشـــــــــــون ويرمقوني بـــــــازورار
أي "المعدات" الثقـــــــــــال[1] تراه ... في عش الكناري؟
...ووقفت أنظر... لم يشـــــأ شعري ليفتح خط نـــــار
...حاشا...فسقفي لن يظـــــل سوى المروءة والنجـــــار.[2]

وتبدأ الرحلة إلى دمشق ويبدأ الطريق الشاق والشاعر يقظ يرمق النجوم الساهرة، يؤنس وحدتها ويرصد كل تفاصيله، نوع السيارة والحارس الجالس جنبه كالحا مقطبا والندى المتساقط على زجاج السيارة، والخواطر المحبة التي أيقظها الظلام، وصرة ملابسه البيضاء التي كان مصيبا في اصطحابها معه، فقد غدت وسادته طوال رحلة سجنه، إنها طريق معرة النعمان التي حركت في خياله شاعر المعرة، فتراءى قائما أمام ناظريه يكاد يصدمه ويحرك أشجانه، فيشكو له ما آل إليه التراب العربي على يد المستعمرين، ويختم شكواه باعتذار وتحية عجلى، فالسيارة تنهب الطريق نهبا وخيال المعري يبتعد شيئا فشيئا عن الشاعر ولا بد من وداعه لاستقبال محطـــات أخرى :

...ومضت بنا "أرســـــان"[3] تنتهب المسالك والدروبا
وتركز الحرسي جنـــــــبي كالحا أبدا قطوبـــــــا
....ورميت طرفي للنجوم.. نسيبة لاقت نسيبـــــا
...والظل يعبث بالزجـــاج أمام أوجهنا ضروبـــا
وملابسي في "صـــــرة" بيضاء كنت بها مصيبا
... هذا خيال "أبي العلاء" يكاد يصدمني قريبـــا
هذا تمـــــرده على الأجيـــــــــــال لم يبرح صخـــوبا.[4]

وعندما يصل إلى الشام يكون الليل قد انزاح، فيرى المدينة بعين أخرى هي عين السجين المقيد المتلهف إلى كل شيء فيها، أشياء كثيرة لم تكن تروقه أو تفتنه ينظر إليها اليوم بعين الحبيس المقيد المشوق الذي تشده حتى جذوع أشجارها العارية وشتاؤها، ويحس طرقها تهتز ترحيبا به، ولكنه ينهر هذا الشعور فمـــا جـــدوى الطبيعة لشعب حبيس، إذ لا فرق بينه وبين ذلك الذي يراه طليقا يحث الخطى على الرصيف، فهـــم جميعـــا مثقلون بالأغلال :

أنا في الشآم ... وما أرق الشـــــــــــام أهبطها سجينا !

---

[1] -كتب الشاعر تحت عنوان القصيدة "لدى تحري بيت المدعو س ع تحريا دقيقا لم نعثر على شيء من الأسلحة الممنوعة أو غيرها" عن تقرير ضابط.

[2] - سليمان العيسى - الأعمال الشعرية - 1/ 233 - 234.

[3] - نوع من السيارات المعروفة في سوريا آنذاك.

[4] - سليمان العيسى - الاعمال الشعرية - 1/235 - 236.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذا الشتاء أحســـــــــه فيها ربيع الحالمينـــــا
والعطر لم يك مسكـــــرا كاليوم للمتنسمينـــا
...حتى الجذوع العاريات بدت تشوق الناظرينا
...لا فرق... معتقلين كنّا يا أخي أو مطلقينـــا
تتراكم الأغلال ح تـــــى تشمل الشعب الأمينا.[1]

وأخيرا ينتهي به الطريق إلى السجن، ويكون التحقيق أولى خطواته، يدخل متعبا حاملا صرته البيضاء، على المحقق الذي سأله سؤالين أجاب عليهما بلفظتين أسكته بعدهما و لم يترك مجالا لثالثة، ولكن الشاعر أكملها في هذه الفسحة الحبسية لأنها في نظره أهم تعريف به ألا وهي صفة الشاعر التي تلبس بها ليفهم أخيرا من قراءته لعبوس هذا المحقق أسباب كل تلك الرحلة الطويلة والمعاناة، إنها أفكار الشاعر وقناعاته التي تبناهـــا عقيـــدة راسخة وانتماء للأمة العربية وحدة متكاملة تأبى التمزق والانفصال، تخفق بجميع أقطارها في صـــدره بغـــداد كتونس كالشام، ويشعر أن كل أبنائها الجائعين الضائعين هم عيال يقع عليه واجب رعايتهم وإعالتهم والثأر من ظالميهم :

...ووقفت ناحية الجـــدار... ألـــــوح من تعبي خيـــــالا
من أنت ؟ ما العمل الكريـــم؟ وغـــــاص في الورق انشغالا
وبلفظتين أجبت ... لـــــم يتـــــرك لثالثة مجـــــــالا
أنا شـــاعر ومـــــــــــدرس يرضي البلاغة حيث صـــالا
... وإذا المراد عقيـــــــدتي يا للضحى... نسخ الضلالا !
أنا للعروبة مذ رأيـــــــت النـــور... كنت ولـــن أزالا
أنـــا وحدة يا سيـــــــدي عربيـــة تـــأبى انفصـــــالا
أنـــا شهقـــة المتضوريـــــن طوى ... وأنـــات الثكـــالى
ودموع قومي الضائعـــين .. على الـــدروب غدوا عيالا.[2]

ويحول من غرفة التحقيق إلى غرفة الجنايات لتؤخذ صورته وبصمات أصابعه على طريقـــة المجـــرمين، غرفة يغشاها الظلام تتخلله نتف الضوء، تنساب من مقاعدها روائح الجريمة ويتسلل من نافذتها نـــور ضـــئيل مخنوق الرجاء، تناثرت فيها أشياء ومعدات عجز عن فهمها ذكاء الشاعر، ربما لأنه يراها لأول مرة في حياته، يدخل إليها الشاعر كالذبيح لا يشعر بشيء غير جوها الرطب اللزج، فيخرج زفرة عنيفة يتحسر فيها علـــى مآل سليل فطاحل الشعراء والعلماء، سليل المعري والمتنبي وسيبويه والكسائي، وعلى الكبرياء الجريحة عنـــدما

[1] - المصدر السابق - 238 - 239.
[2] - المصدرنفسه - 240 - 241.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

زج به مع الجناة والمجرمين، ليخرج من هذه العملية الكريهة بكل تفاصيلها وشعور عميق بغثائية هذا الوجـــود وتفاهته:

هي غرفة ... ســـاد الظلام بها على نتف الضيـــاء
تنســـاب رائحة الجريمـــــة من مقاعدها الوطـــاء
ويدب من شباكـــــــــها نور كمخنوق الرجاء
... أدخلت فيها كالذبيـــح وفي دمي رعش استياء
... وبصمت عشر أصابـــع واسودّ كمـــي بالطلاء
وشنقت فـــوق "مقيعـــــد" ورسمت "نصفا" باعتناء
وخرجت أشعر بالوجـــــود وقـــد أحيل إلى غثاء.[1]

ولكن المقام لم يطل به في سجن النظارة ، فقد أرادت إدارة السجن نقله إلى "سجن المزة العسكري" فيغادر بصرته البيضاء القبو الذي انغلقت أبوابه خلفه عن زبانية غضاب إلى طريق المزة الذي يحمل الكثير من المرارة بدءا من اسمه العسكري وما يحمله من معاني القمع على غرار كل السجون الحربية، ولذلك كان الطريق إليه واجما أسود بخلاف متعته في طريق الشام وإن ظل على الموقف نفسه، يرى الأمة كلها مكبلة في السلاسل، ويرى كل ما حوله سجنا كبيرا ملفعا بالحراب وبالحديد :

وانداح باب القبر خلفي عن "زبانية" غضـــــاب
...ونهضت أعلـــــم أن دربي درب إخوتي الشباب
... درب الحياة تغل، ثم تزج في أحد "الجبـــــاب"
... ومضيت بين ثلاثـــة لحراستي أبدا غضـــــاب
أبدا يوجه كالـــــــح أبدا بحملقة ارتيـــــــاب
....هذي طريق "المزة" السوداء واجمة الرحاب !
هذي سلاسل أمـــــتي نثرت على تلك الشعاب.[2]

لتبدأ رحلة سليمان العيسى الجديدة بعد كل هذه المقدمات والمراحل الحتمية مع السجن بأتم معانيه، وهي نهاية جميلة ومحمودة، فهناك من جاءهم زوار الليل واقتادوهم و لم ينته بهم الطريق المهـــول الغـــامض إلى السجن، وإنما ذهب بهم إلى نهايات مجهولة أضافتهم إلى قائمة المختطفين والمفقودين[3] وما أكثرها.

ويحدثنا القرضاوي في عجالة عن لحظة الاقتياد ومباغتتها، فقد فزّع في ليلة من ليالي نوفمبر من نومه

[1] - سليمان العيسى - الاعمال الشعرية – 1/ 243 - 244.
[2] - المصدر نفسه - 247.
[3] - انظر: معين بسيسو - الأعمال الشعرية الكاملة - 226.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بصوت الجرس، فإذا بكلاب الصيد تهجم عليه بغتة، تحيط به وتتخطفه من بين أهله وذويه، وتعود فرحة بذلك الصيد الثمين، وفي الطريق يعزل الشاعر عن رؤية أو سماع أي شيء إلى أن يقذف به في ساحة السجن الحربي، وحسبنا اسمه وما يبعثه في النفوس من قشعريرة وخوف :

في ليلة ليلاء من نوفمـــــــــبر فزعت من نومي لصوت رنين
فإذا "كلاب الصيد" تهجم بغتـــة وتحوطني عن يسرة ويميـــــن
فتخطفوني من ذويّ وأقبلـــــوا فرحا بصيد للطغاة سمـــــين
وعزلت عن بصر الحياة وسمعها وقذفت في قفص العذاب الهون
في ساحة "الحربي" حسبك باسمه من باعث للرعب قد طرحوني .[1]

كما يضعنا معين بسيسو أمام مشهد الاقتياد إلى السجن الذي يبدأ عنده بتفتيش الجنود غرفته فلـــم يجدوا فيها إلا بعض الكتب وأكواما صغيرة مكورة، هي عظام إخوته الذين أيقظهم الزوار بركلاتهم فراحـــوا يئنون وقد اشتعل الغضب في عيون الجميع، وينقلنا إلى مشهد الجنود يسحبونه بكل ما تحمله كلمة الســـحب من معاني عنف الساحب واستعماله كامل قواه وتمنّع المسحوب وتمسكه بأهله، وبصورة وجه أبيه وهو يسلحه بالأمل وأنين أمه وصراخ إخوته من حولها وقد تحلق حولهم بعض الجيران الذين مروا بتجارب مماثلة، فلكـــل منهم ولد في السجون، ولكن الشاعر يرفع يده لتحيتهم برغم القيود، ويصيح بهم مبشرا بعودته المؤكدة مـــع كل الرفاق، وقد نقش المشهد في ذاكرة الشاعر وظل ماثلا يستحضره بتفاصيله في غيابات الجب :

لقد فتشوا غرفتي يا أخي/فما وجدوا غير بعض الكتب / وأكوام عظم همو...إخوتي / يئنون ما بـــين أم...و أب / لقد أيقظوهم... بركلاتهم / لقد أشعلوا في العيون الغضب / أنا الآن بين جنود الطغاة / أنا الآن أسحب للمعتقل / وما زال وجه أبي ماثلا / أمامي ... يسلحني بالأمل / أنا الآن أسحب للمعتقل/ ومـــازال وجه أبي ماثلا / أمامي..... وأمي... وأمي أنين طويل/ ومن حولها إخوتي يصرخون / ومن حولهم... بعض جيراننا / وكل له... ولد في السجون/ ولكنني رغم بطش الجنود/ رفعت يدا أثقلتها القيود / وصحت بهم إنني عائد.. [2].

وفي أسلوب يختلط فيه الرمزي بالواقعي والحقيقة بالخيال ينقل لنا الشاعر مظفر النواب جزءا من رحلة فراره خشية الوقوع في سجن القوميين الذين احتدم صراعهم بالشيوعيين وازداد بطشهم ولكنها لم تكن كما يشتهي الشاعر ويتمنى، فقد قادته إلى صحراء إيران وكان له "السافاك" وعيون الشاه بالمرصاد هناك، وكـــان العذاب الوحشي ثم العودة إلى يد السلطات العراقية وحكم الإعدام الذي خفف فيما بعد إلى المؤبد في سجن "نقرة السلمان" و"الحلة".

---

[1] - يوسف القرضاوي - نفحات ولفحات - 54 - 55.

[2] - معين بسيسوا - الأعمال الشعرية الكاملة - 305، 306.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عن تلك الرحلة المشؤومة يحدثنا الشاعر عن فحل حمام (هو مظفر نفسه) يمتطي جناحيه ويهاجر إلى الصحراء أسفا على ذلك الهذيان المسرف الذي طالما ردده بحديثه عن الأممية والوجع الأممي[1]، يصحر ذلك البدوي المسرف بالهجرات ولا ينوي الرجعة أبدا، فقد تعلم غربة القلب في وطنه، فما تضيره غربة الجسد، وفي ليل الصحراء الخائف تعوي الذئاب ويرى الشاعر الهارب المتخفي النخل كائنا آخر غيرها، هو الغيلان الإيرانية التي أخذت تقترب منه شيئا فشيئا ومن قدمه الملتوية، ويفترسه ضوؤها ليبدأ مرحلة التعذيب حتى الإغماء:

....فحل حمام في جبل مهجور/ ...كنت أجوب الحزن البشري الأعمى/ ...كم أخجلني من نفسي/ هذا الهذيان المسرف بالوجع الأممي/ ...وأما أنت/ فاصحرت بلا أي علامات أو أي صدى/ وعرفتك لا تنوي الرجعة/ ... يا هذا البدوي المسرف بالهجرات/ لقد ثقل الداء/ ...من ذلك يأتي بين النث/ وبين عواء الذئب/ وبين هروبي في النخل/ ... والغيلان الإيرانية تقترب الآن من القدم الملوية/ والأضواء افترستني. [2]

وكما استشف سليمان العيسى أسباب سجنه وقرأها في ملامح المحقق الغاضبة، يجاهر جمال فوزي في شيء من الفخر والاعتزاز بسبب سجنه ورفاقه التي لا تعدو اتخاذ الإسلام شرعة ومنهاجا يقول:

إلهي قد غدوت هنا سجينا لأني أنشد الإسلام دينا
وحولي إخوة بالحق نادوا أراهم بالقيود مكبلينا.[3]

ويعدد القرضاوي مجموعة الجرائم التي يدين عليها النظام الناصري ويقتاد مقترفيها إلى سجونه وبخاصة "السجن الحربي" منه قول المرء جهرا: "الله ربي والحنيفة ديني"، أو نصحه الناس بالعودة إلى الدين فهو طريق نجاتهم، أو كان من أولئك الفتية المتطوعين الذين واجهوا الاحتلال الصهيوني في بداياته الأولى ، أو كان من الأحرار السابقين الذين حاربوا الاستعمار، أو كان حافظا للقرآن فكل تلك براهين وأدلة دامغة توصل إلى السجن وزبانيته وعلى رأسهم بطل التعذيب "حمزة البسيوني" يقول متعجبا من حال مصر وحال قضائها :

أرأيت إنسانا يدان لقوله الله ربي والحنيفة ديني؟ !
أو قال : يا قوم ارجعوا لكتابكم طوق النجاة لكم بكل يقين !
يا سوء حظ فتى رأوا بسجله شرف الجهاد لعصبة الصهيون !
أو كان يوما في كتيبة فتية شهرت بنادقها على السكسون

---

[1] - يريد بذلك الشيوعية الأممية التي لم تقدم له شيئا من الحماية و لم تنقذ بلده من الطغاة والمستبدين ولقد رأيناه في مواقف سابقة ينتقد اليسار العربي على مته.

[2] - مظفر النواب - الأعمال الشعرية الكاملة - "وتريات ليلية – الحركة الثانية"- 486 - 489.

[3] - جمال فوزي –الصبر والثبات، 106 - 108.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أو كان حافظ آل عمران فقد ظفروا ببرهان عليه مبين.[1]

وإن فضل شعراء كثيرون غض الطرف عن انتماءاتهم الحزبية التي كانت في الغالب سبب سجنهم فقد سبقت الإشارة إلى تحملهم السجن وويلاته في سبيل حرية الأوطان وخيرها ورفاهها، وقد زج بأغلبهم دون محاكمة أو ذكر للجرم، وأقاموا وهم يجهلون السبب ومدة الإقامة.

أما إذا جئنا إلى السجن من الداخل وجدنا الشعراء يجتهدون في نقل خبايا ذلك العالم المجهول من زوايا مختلفة وينقلون إلينا صورا عن دبيب الحياة بداخله برغم السجان والجلاد والرقيب ومن والاهم. فهذا السجن الذي اقتيد إليه أغلب شعرائنا في جنح الظلام، وقطع أغلبهم الطريق إليه معصوب العينين، أو داخل شاحنات مغلقة بحيث يصعب عليهم **تحديد مكانه**، أو التخمين بمكان وجوده على الخارطة الجغرافية، يفلح شاعر من شعراء الحبسيات في استشعار موقعه وإفضاء السر، ولكن لا أحد يستطيع الإهتداء إليه بخارطة مظفر لأنه يقع في مكان تعجز المدارك عن تصوره، فهو وراء محيطات لا نعرفها، محيطات رعب تسكنها الغيلان، وهنالك "قلعة الصمت" التي لايسمع فيها صوت، وفي تلك القلعة بئر موحشة منها يمتد آخر قبر يفضي بالسر إلى السجن، وقد تفنن بعض الحكام في تهريب السجون إلى أماكن مجهولة وتفننوا في إخفاء مخططاتها العمرانية فلا يعرف مداخلها ومعابرها وأبوابها الداخلية سواهم.[2] يقول مظفر:

... فوراء محيطات الرعب المسكونة بالغيلان/ يتأكد هنالك قلعة صمت/ في القلعة بئر موحشة كقبور ركبن على بعض / آخر قبر يفضي بالسر إلى سجن/ السجن قفص تلتف عليه أغاريد منية/ ويضم بقية عصفور مات قبيل ثلاث قرون/ تلكم روحي[3].

فهم يتخيرون للسجون من الأماكن أقساها وأصعبها، كأن يكون في عمق الصحاري أو بين الجبال الوعرة أو الجزر النائية، فلا يرى السجين إلا القمم العالية تحجب عنه الفضاء أو الرمال المترامية أو الأمواج الطامية، يقول محمد بهجة الأثري في طبيعة الأرض التي نقل إليها :

نُفيت إلى أرض، كأن أديمها وجوه فئام[4] في العراقين أنذال
عجبت لها.. آنا يثور قتامها، وآنا يجيء المد فيها بأوحال
تراوحها ريح الجنوب وبيئة فتخنق أنفاسي، وتعرك أوصالي

---

[1] - يوسف القرضاوي –نفحات ولفحات - 60.

[2] - ويكفي أن نذكر سجون النظام الصدامي التي لم يهتد الناس إلى أبوابها لإنقاد من فيها و لم يكونوا يسمعون إلا صراخهم، ثم انطفاءهم بداخلها.

[3] - مظفر النواب –الأعمال الشعرية الكاملة - 465.

[4] - فئام : جماعات من الناس، ويريد بها أعوان الإنجليز.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

و حلّئت عن سلسال "دجلة" سائغا إلى مورد في "الفاو" ليس بسلسال
زعاق .. كأن السم ديف بجوفــه، و نتن.. كما تستاف أنفاس متفال [1].

- **الحياة خلف الأسوار** : ويلي صدمة أول أسرار السجن المتمثل في موقعه المجهول، تليــه أســراره الداخلية وما أكثرها، منها طرق **اسقباله للداخلين وآداب الترحاب** بهم، ومن الشعراء الذين تفردوا بتخليد فنون الاستقبال يوسف القرضاوي الذي يحدثنا عن مشهد النظرة الأولى وذعر المشهد الذي لم تبلغه ظنــون الشاعر ، ولا أدركه خياله، إنها طقوس الترحاب المعهودة بالسجين الجديد حين يصطف الجنود صفين متقابلين بالسياط يمر بينهما السجناء الجدد لتلقي أدبيات الترحيب يعقبها بعد ذلك واجب الكلاب المدربــة تحيــي السجين هي الأخرى بطريقتها الخاصة، وقد انتهى بعض السجناء عند هذه اللقطة و لم يكتب لهم أن يستمروا لمعايشة باقي المشاهد الدامية الأخرى التي جعلت القرضاوي يرى فيها إحدى الصور المصغرة للظى جهــنم أو مصنعا للهول يذكرنا بأهوال يوم القيامة :

ما كدت أدخل بابه حتـــى أرى عيناي ما لم تحتسبه ظنــوني
في كل شبر للعــذاب مناظـــــر يندى لها –والله- كل جبين
فترى العساكر والكلاب معـــدة للنهش طوع القائد المفتــون
هذي تعض بنا بهــا وزميلـــــها يعدو عليك بسوطه المسنــون
...عجبا !! أسجن ذاك أم هو غابة برزت كواسرها جياع بطون؟
أ أرى بناء أو أرى شقي رحـــى جبارة للمؤمنين طحـــون؟
هذا هو الحربى معقل ثـــــورة تدعو إلى التطوير والتحسين !!
هو صورة صغرى استعيرت من لظى في ضيقها وعذابها الملعــون
هو مصنع للهول كم أهدى لـــنا صورا تذكرنا بيوم الديـــن [2].

ومنها غرفه التي اخترع لها الشعراء مرادفات أخرى لحالها، فهي قبر عند بعضهم وقبو عنــد الآخــر وصورة مصغرة لجهنم وغيرها من المسميات.

يأتي "الصافي النجفي" في مقدمة الشعراء الذين صوروا السجن تصويرا يكاد يكون فوتوغرافيا للسجن من الداخل مع مزيج من الفكاهة والدعابة المعهودتين في شعره وحياته حتى غدت غرفه أشبه بالفندق يؤمه جميع السجناء، وحينا يشبهها بالقبر ولكن المعلق في الفضاء لعلوها وآخر بالقفص المعلق في الهواء:

هي سجن وإن تعالت فسجني قفص لي معلق في الهـــــواء

[1] - محمد بهجة الأثري –ملاحم وأزهار - 98 - 99.
[2] - يوسف القرضاوي - نفحات ولفحات - 56 - 58.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قبري السجن صار و القبر قبـــر حفروه في الأرض أو في السماء[1].

وهو يسميه **قبرا** لطول مكثه فيه وطول مماطلتهم له، يعدونه بالخروج ويظل قابعا فيه مع الموتى إلى موعـــد الحشر، تتلاعب به أيادي الحراس وإدارة السجن ينقلونه من قبر، إلى قبر يجددون له الآمال دون تحقيقهـــا ويعدونه مواعد كاذبات فيوقظون من حيث لا يدرون مواجعه وأشجانه :

حسبت لطول السجن أنّي في قبر فإن يخرجوني منه آمنت بالحشـــر
فكم وعدوني بالخروج و لم تـــزل عيوني مع الموتى إلى موعد النشـــر
أموت وأحيا في يد الموت والرجا فأخرج من قبر وأدخل في قبـــــر
يجدد لي الآمال حارس محبســـي فيوقظ لي الآلام من حيث لا يدري.[2]

ويشكو البردوني من طول ليالي حبسه وثقلها الجاثم بلا رحمة على صدره، حتى غدا من طول مـــا تحمـــل وكتم من الآمال ودفن من الآهات كالصخرة الصماء التي لا تشعر بشيء ولا تفهم شيئا :

نزلت ليالي السجن بين جوانحي فجعلت صدري للهموم ضريحا
وجثت على قلبي كأني صخرة لا تفهم التنويه والتلميحـــــــا
فدفنت في خفق الجراح تألمـــي حيا وألحدت الأنين صحيحـــا
وحملت دائي في دمي و كأنني في كل جارحة حملت جريحـــا.[3]

ويضيق صدر النجفي من ذلك القبر فيتمنى مرضا ينقذه من جحيمه ليرى الدنيا في طريقه إلى المستشـــفى ويحظى ببعض الحياة الآدمية فيه من فراش وثير وغطاء وفضاء مريح:

ضاق بي السجن فقلت هل مرض ينقذني من شر سجن قد أمض.[4]

وفي دعابة ساخرة يحدثنا عن غرفه التي أقيمت **لأقزام بني الحيوان** لا البشر، فهي تحب في الســـجين القصر وإذا مشى فيها الطويل فلا مجال أمامه غير السير على أربع، فكأن الداخل إليها يندس في جوف حفرة، وكأن سقفها يلامس النائم فيها ويغطيه، وكأنه كابوس يجثم على صدره أو طود حجر، وهـــي كصـــندوق بضاعة خال من أي شيء إلا السجين، يخشى عليها حتى التهدم والسقوط من شخير نزيلـــها، ويتســـاءل إن كانت هذه **جحر ضب** أو **قبر جن** محتقر فقد غدت في نظره كالقبر، تنتحر فيها الأحلام والآمال العـــذاب، ويصبح واردها كوارد الردى بلا عودة أو خروج :

أقمت في السجن ويا بئس السجون من مقر

---

[1] - الصافي النجفي - حصاد السجن - 36.
[2] - المصدرنفسه - 44.
3 - عبد الله البردوني - الديوان - "ليالي السجن" - 223/1.
4 - الصافي النجفي - حصاد السجن - 35.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في غرفة واطئـــة تحب في الضيف القصر
يسير فيها راكعـــا كل امرئ فيها خطـــر
فهي لأقزام بـــــني الحيوان لابني البشـــر
يمشي على أربعـــة إذا بهـــا الطويل مـــــر
كأن من يد خلهـــا يندس في جوف الحفـــر
ينام سقفها علـــــى من نام فيها واستقـــــر
...فهي كصندوق بضـــــــــــــاعة ونحـــــن المدخـــر
... وجار ضب هذه أم قبر جـــن محتقـــــر
فهي سواء والـــردى ورودها بلا صـــــدر[1].

و في ذلك السجن الخاوي على عروشه يصبح السجين أثاثه الوحيد :

رمونا كالبضائع في سجون وعافونا و لم يبدوا اكتراثا
رمونا في السجون بلا أثاث فأصبحنا لسجنهـــم أثاثا[2].

ويرسم في قطعة أخرى لوحة لغرفته الخاوية ويبين حدودها وأبعادها، فنراها غرفة متهالكة، عاريـــة ، فكأنه في صحراء مقفرة إلا من غطاء مهترئ إذا تدثر فيه من ترابها ألقى عليه من شعره ووبره، فأصبح يمضـــغ شعرا وترابا كأنه أكل نصف فراشه وشرب نصفه الآخر، وكأنه نوع من الوحش لم يخطر بفكر أحد[3].

ويسميها سليمان العيسى قبرا حينا و**جبّـــــا** حينا آخر ولكن في صيغة الجمع جباب كما مرّ بنا في طريقه إلى سجن المزة العسكري[4].

بل إن القبر أفضل منها ولذلك يعتذر له القرضاوي عن هذا الظلم، فالقبر لأهل التقوى روضة بينمـــا يغدو السجن جحيما لأهل التقى والإيمان، يحشر في غرفه على ضيقها ثمانية أو سبعة سجناء متداخلين كعلبـــة السردين التي تغدو في الشتاء ثلاجة وفي الصيف فرنا ملتهبا.

ويسميها الشاعر مرة أخرى المقبرة الصغيرة، ويقدم عرضا مختصرا عنها لا يختلف عن عرض النجفي إلا قليلا، ففي أعلاها ثقبت **نويفذة** صغيرة لإزعاج الهواء والتضييق عليه في الدخول، فلا يصله إلا القليل منه، وحول هذه الكوة الصغيرة تشابكت قطع الحديد كأنها الرماح المسنونة لتزيد من عذاب الشاعر وحجـــز

---

[1] - المصدر السابق - 54 - 55.
[2] - المصدر نفسه - 34.
[3] - المصدر نفسه والصفحة نفسها.
[4] - سليمان العيسى –الأعمال الشعرية الكاملة - 247/1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الرؤية والهواء عنه، أما جدارها فلا يزيد ارتفاعه عن الستة أشبار، وعليها تناثرت كتابات في جميع أنحائها تروي قصص الذين مروا من هنا للذنب نفسه، يقول :

أرأيت مقبرتي الصغيرة شدّ داخلها جناحـــــــي
ثقبت "نويفذة" بأعـــلا ها "لنرفزة" الريـــــــاح
و تشاجرتتقطع الحديد بها كأسنان الرمـــــــاح
جدرانها ست من الأشبـــــــــــــــــار أشباري الصحاح
زخرت بأسماء هنـــــا وهناك في كل النواحـــــي
قصص الذين : تشرفوا" قبلي بسوقهم "جناحـــــي"
لو تنطق الجـــدران أي مجلد" هي للكفـــــــــاح[1]

كما يسميه مظفر النواب جبا، كناية عن السجن المؤبد والتغييب المجهول لكثير من أبناء الوطن العربي، الذين انتهوا إلى الجب و لم يخرجوا منه قط :

آه يعقوب/ راقب بنيك/ فما افترس الذئب يوسف/ لكنه الجب/ آه من الجب في الأمة العربية آه[2].

أما البياتي فيسميه **قبـــــوا**، لا يجد السجين فيه إلا الضراعة من ذلك المصير المروع المجهول، وعينـــاه ترقبان النجم الحزين :

عين السجين / من قبوه الأرضي، للنجم الحزين/ من قبوه الأرضي تضرع - والمصـــير يروعـــه- عـــين السجين[3].

ويترك لنا كاظم الدجيلي حرية التسمية التي يمكن استخلاصها من أول إطلالة عليه، عندما يصفه من الداخل بضيقه وجدرانه المحدودبة الصخور ورطوبته الشديدة التي تزكم أنف الداخل الجديـــد إلى غرفـــه وروائحه الكريهة التي تزداد حدة كلما اشتد الحر، ويستقبل كما استقبل كل إخوانه بالترحاب من زبانية السجن على طريقتهم الخاصة :

إلى أن وردنا السجن والسجن ضيـــق وقاعته محدودبات صخورهـــــــا
و قد ألصقتها بالتـــراب رطوبـــــــة يفت بأعضاد القوي يسيرهـــــــا
يشم حديث العهد منا نتانـــــــــــة يزيد إذا اشتد الهجير ظهورهـــــا
و يلقى من السجان عند دخولـــــــه من الضرب ما يلقى بنجد كفورها[4].

---

[1] - المصدر السابق - 1/ 228 - 229.

[2] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة - 343 .

[3] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية - 1/ 129.

[4] - رفائيل بطي – الأدب العصري في العراق العربي - المطبعة السلفية: مصر. 1923. 198 - 210.
(القصيدة بعنوان : "بوليس بغداد" في حوالي ثمانين بيتا تروي في قالب قصصي رحلة الشاعر داخل السجن وعذابه).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما الشاعر حسين الجزيري فيسمي سجنه **"ربع التعاسة"** على وزن الربع الخالي، ويراه في أسلوب ساخر بعض المقابر جعلت حبسا، وأول ما يتقلده الداخل إليها رقم يلغي كل انتماءاته السابقة واسمه ولقبه وكناه، ويحوله إلى مجرد رقم بين أرقام، يعطى قطعة من حديد تحمل انتماءه الجديد -رقمه- ، ولكنه يكتشف ورفاقه فيها مآرب أخرى بعدما جرد من كل ما تحمله جيوبه:

أتيت إلى ربع التعاسة والشقا ... بيوم له وجه من الصبح عابس
يصاحبني عونان يمنى ويسرة ... قساة قلوب بئس تلك الأبالس
وصلنا إلى المسعى بأرض عهدتها ... مكان قبور قد جفته المكانس
فقلت وطرفي سارح في فنائه ... مقابر قوم عند قوم محابس
دخلت وقد ألفيت ثمة مكتبا ... به كاتب تنهال منه الأوامر
دنا خادم مني وظل مفتشا ... جيوبي وما فيها إلى الحجز صائر
و ناولني من بعد ذلك نمرة ... حديدا لها حد حكته البواتر
فقلت إذن للقطع يستعملونها ... نوامر قوم عند قوم خناجر [1].

ولكنهم يكيفون ذلك الأسوأ من القبر ويتكيفون مع ضيقه ويحولونه إلى **غرفة متعددة الخدمات**، فهي حينا غرفة نوم وحينا منتدى للأصحاب وهي حينا آخر مطعم وآخر صالون يجمعهم، وربما يجمع معهم زوارا آخرين. وهي حينا مسجد ترتفع في حناياه التكبيرات وتعلو في فضائه الأدعية وتعم أرجاءه آي الذكر الحكيم، وحينا ساحة للعب والتمارين يقتل بها السجناء فراغهم، وتغدو في أسف شديد من الشاعر كنيفا ولا ذنب لهم ولكنه السجان الذي أراد مثل هذا الهوان :

أعرفت ما قاسيت في زنزانة ... كانت هي القبر الذي يؤويني
لا بل ظلمت القبر، فهو لذي التقى ... روض، وتلك جحيم أهل الدين !
هي في الشتاء وبرده "ثلاجة" ... هي في هجير الصيف مثل أتون
نلقى ثمانية بها أو سبعة ... متداخلين كعلبة السردين
هي منتدانا وهي غرفة نومنا ... وهي "البو فيه" و"حجرة" الصالون
هي مسجد لصلاتنا ودعائنا ... هي ساحة للعب و التمرين
وهي "الكنيف" وللضرورة حكمها ... ما الذنب إلا ذنب من سجنوني [2].

ومن قاع قبره يرسل السياب صيحة إلى المجاهدين الجزائريين ويحيي أبطالها وقد ألقوا عن صدورهم

---

[1] - حسين الجزيري – ديوان الجزيري - طبع الدار التونسية - 1971- 29.

[2] - يوسف القرضاوي – نفحات ولفحات - 62

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عبء الدهور ونهضوا لاستقبال أنوار الحرية[1].

وهناك بداخل مثل تلك القبور والحفر والأقبية ومنازل أقزام الحيوان والجحور **تدب حيـــاة أخـــرى** تنسجم وطبيعة المأوى، فبذلك السجن "الأعمى بلا كوة"[2] تتجمع الرطوبة[3] وتختنق أنفاس السجين ويعاني من شدة الحر صيفا وشدة البرد شتاء ويرث من هذه الأجواء أمراضا مزمنة شتى كالربو والمفاصـــل والحساســـية الجلدية والضغط وغيرها. وهناك تتكاثر الحشرات **كالبعوض والصراصير والبق والقمل**[4] تكدر صفو حياته، ولعل أخطرها البق الذي إذا هجم على أحد فليودع النوم كما فعل سميح القاسم في إحدى ليالي سجنه المؤرقة، فلا شيء يستطيع الشاعر فعله للتغلب على عذابات **حرها وبقها وأرقها**. فلا أقلام متاحة ولا أوراق يمكنـــها التسرب خلف ملاقط السجان وقضبانه :

ليس لدي ورق ، ولا قلم/ لكنني .. من شدة الحر، ومن مرارة الألم/ يا أصدقائي... لم أنم/ من شدة الحر، من البق، من الألم/ يا أصدقائي لم أنم[5].

ولمحمد قنانش معركة فريدة مع البق الذي حول ليله نهارا وجعل دمه شرابا مستساغا، حرب شـــعواء ميدانها الحائط أو السقف، ويختلط عليه فيها البق بالمستعمر المتسلط المتجبر فيصب جام غضبه علـــى فيالقـــه المتنقلة جهارا إذ لا يرى فرقا بينها وبين المستعمر، فيخاطبها أو يخاطبهما معا بحوار هادئ ويطلب منـــهما أن يرعيا حرمة الجوار في الأشهر الحرم، ولكنه ينتهي إلى أنه لا جدوى من الحوار مع مثلهما وأنه لابد من حربهما وإخراجهما بالقوة :

وليلة قضيتهـــــا بالحرب وسط المعمـــع
ميداننا الحـــائط أو سقف العرين البلقـــع
أحارب البق الذي أقض عني مضجعـــي
بأنمل كـــأنهـــــا سيف حديد مـــروع
يرى من البعد كفيـــــــــلق جريـــر مـــروع
يفعل في الجســـــ كفعـــــل الاستعمار الأبشع
دمي شراب سائغ و قوته من أضلعـــــي
يا أيها البق أمـــا ترعى جوارا أو تعـــي

---

[1] - بدر شاكر السياب – الديوان - 389/1، 393

[2] - بلند الحيدري – الديوان - 370.

[3] - سليمان العيسى – الأعمال الشعرية الكاملة - 225/1 - "صمت "النظارة" والرطوبة والذي حولي".

[4] - انظر محمود الدره - من وراء البوابة السوداء - 197 - 198.

[5] - سميح القاسم – الديوان - 95 - 96.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

...فارحل علينا أو تـــــــــــذوق من سموم الأنقع[1].

وتتحرك في غرفة سليمان العيسى بجدرانها الواجمة الغليظة وهو ملفع في معطفه من شدة البرد كائنات أخرى تدب على رجله وتداعبه في حياء ، وتضاف إلى سمفونية ليله المتنوعة الساهرة :

وسحابة في الليل تهوي فوق نافذتي هُويّـــــــا
ووجوم جدراني الغلاظ و معطفي الساجي عليا
ودبيب صرصور على رجلي.. يداعبني حييّا[2].

كما تدب في رمس الطيب العلوي مثيلاتها، ففي زنزانة دامسة الظلام، يتلمس الطيب العلوي فضاءها فيصطدم بكائنات جديدة كأنها **ديدان القبر** تعلوه بلا خوف، وتتوالى عليه الظلم وتتراكم، فلا يعلم يومه من أمسه إلا بالتنصت إلى الحركات الخارجية ورصد السكون والضوضاء، إن مد رجله لدغت أصابعه **الرطوبـــة** وامتدت برودتها إلى سائر جسده وإن سحب يده عن طعام هجم عليه **جيش من الحشرات:**

يا ظلمة جمعت قلبي بوحشـــــتها و استنزلت نفحات الصفو للقلـــــب
كأنني بك في رمس تساورنـــــي ديدانه فهي تعلوني بلا رهـــــــــب
باب وباب وباب كلها ظلـــــــم من ظلم ذي الجور لا من ظلمة الرب
لا أعلم اليوم من أمسي إذا اختلفا إلا بساكنة الضوضاء والـــــــدب
رجلاي إن مدتا يلدغ بنانهـــــما سم الرطوبة إذ يعلو إلى صلـــــــبي
أكف كفي عن قوت يحل بـــــه جيش من الحشرات زدن في كـــــربي[3].

ويغدوالأرق قاسما مشتركا بين جميع السجناء ليس بسبب البق وسائر الحشرات الأخـــرى، ولـــيس بسبب الحر وضيق السجن وظروفه الداخلية المحيطة بالشاعر والمقلقة راحته فحسب،و إنما بسبب الحبس في حد ذاته، فبينما الإخوان خارج السجن يناضلون ويموتون، وبينما يكدح الشعب ويشقى، يعزلون في هذه الأقبية والكهوف ويمنعون المشاركة في صناعة الحدث فيضطرون إلى السهر ومقاسمة النجوم يقظتها والتفـــرد عليهـــا بالأحزان ، يحدثنا محمد حسن أبو المحاسن عن سمو أهدافه واحتماله في سبيلها كل ما يتطلبـــه ، غـــير مبـــال بتواصل أشجانه وتواصل سهره فيقول :

أنا والنجم كلانا ساهر غير أني مفرد بالشجـــــــن
لاأبالي والمعالي غايتي وصل أشجاني وهجر الوسن[4].

---

[1] - يحي الشيخ الصالح – أدب السجون والمنافي في الجزائر - 129.
[2] - سليمان العيسى – الأعمال الشعرية الكاملة - 245/1.
[3] - إبراهيم السولامي – الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية - 126
[4] - رفائيل بطي - الأدب العصري في العراق - 136/2.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويتراءى الليل للشاعر محمد بهجة الأثري بحرا خضما، ويرى نفسه غريقا يصارع لججه، معلق القلب بين اليأس والرجاء، أينجو من ظلماته ويصل إلى بر الأمان أم يظل يصارع كلكله ، وقد قطع صمته من حين إلى آخروقع أ قدام الحراس المتجولين أو دوران المفاتيح في بعض الزنازين :

كأن الدجى بحر خضم، كأنني غريق ترامى بين يأس وآمـــــــال
تقطع صمت الليل حولي قعاقع فمن صوت أغلاق ، ومن قرع تجوال
كأني أنا الباغي المذل لقومـــه كأني أنا العاتي، كأني أنا القـــــالي[1].

أما محمود درويش فيحدثنا عن حياته الجديدة في السجن بكل تغيراتها، وقلبها لموازين حياته السابقة، تغير عنوان بيته، ومواعيد طعامه تغيرت، ومقدار تبغه تغير، ثيابه تغيرت ووجهه وشكله، بل حتى الكون مـــن حوله تغير، فذلك القمر الذي كان يراه حرا طليقا هو اليوم في ظلام السجن يراه أحلى وأكبر، ورائحة الأرض يحسها عطرا زكيا، والطبيعة كلها تغدو في عينيه أبهى وأجمل، فكلما رأى مشهدا منها احتفظ له بصورة خالدة كأنما تسمرت بعينيه، لم يكن يشعر بتلك الطبيعة عندما كانت متاحة، وكان هو حرا يراها في غدوه ورواحه، أما اليوم وهو لا يراها إلا من كوة السجن أو القضبان وهو مقيد لا يستطيع تفيؤ ظلالها والتملـــي بمناظرهـــا الجميلة فإن حبه وشوقه لمناظرها ونحته لكل ما يتاح له مرآه في الذاكرة يزداد، بل إنه يسمر على صـــفحات عينيه كل ما أمكنه احتواؤه من مناظرها:

تغير عنوان بيتي/ وموعد أكلي/ ومقدار تبغي تغير/ ولون ثيابي، ووجهي، وشكلي/ وحتى القمـــر/ عزيز علي هنا / صار أحلى وأكبر/ ورائحة الأرض، عطر/ وطعم الطبيعة، سكر/ كأني على سطح بيتي القديم/ ونجم جديد / بعيني تسمر[2].

وهناك في تلك القبور والأقبية والحفر حيث ينعدم النور ويكاد يتشابه ليل السجين ونهـــاره ويفقـــد موازين الزمن، ولكنه مع ذلك لا يفقد تواصله مع العالم الخارجي وارتباطه بالأيام والساعات، ولقد رأينا كيف اهتم الشعراء بالأعياد وشاركوا أبناء وطنهم في احتفالهم بتلك المناسبات متحدين بذلك السجن والسجان، فإذا كان نهار النجفي من عبوسه ليلا، وكان ليله بثقله وتطاوله ألف ليل[3]، فإن بداخل السجن كنوزا وجواهر ثمينة مضيئة، تجعله يرى السجن وإن اسودت آفاقه، كالمنجم الذي يحتوي في أحشائه الماس الخالص الصافي المضيء، وليست هي إلا الشاعر و رفاقه يقول :

أرى السجن مهما اسود أفقا كمنجم حوى من بديع الماس مجلى النواظر
بكى صاحبي من ليل سجن وسرني بداجي ظلام السجن لمع الجواهر[4].

---

[1] - محمد بهجة الأثري - ملاحم وأزهار – 100.
[2] - محمود درويش - الديوان - 109/1.
[3] - الصافي النجفي - حصاد السجن - 67.
[4] - المصدر نفســه - 43.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- **طقـــوس السجـــن، نظـــامه وممنوعـــاته :**

للسجن قوانينه الداخلية وآدابه التي توجب على السجين الالتزام بها كأي مؤسسة أخـــرى، ولكـــن الكثير من تلك القوانين والطقوس تحول إلى آلة من آلات العذاب الأخرى التي تحفر في جسم السجين ونفسه وفكره آثاره الخالدة.

يأتي في مقدمتها **عذاب طعام السجن** الذي أغفل ذكره كثير من الشعراء ربما لانشـــغالهم بقضـــايا أخرى وربما لاعتمادهم المبالغ للرمز، مما جعلهم يرفضون ملامسة الكثير من جوانب هذه التجربة باحثين فيها عما يمكن مزاوجته بالحلم والرمز والخيال. ولذلك غابت ملامح الحياة داخل السجن في أغلب قصائد الشـــعر الحر المعتمد أساسا على الإبداع بعيدا عن الرصد المباشر للأحداث ومن الشعراء الذين أرخوا لهذا العـــذاب، وحفظت قصائدهم جزءا من تاريخ الوطن العربي من الداخل، من أعماق السجن، نجد القرضاوي الذي يضعنا أمام مشهد آخر من مشاهد العذاب، وضرب آخر من ضروب التعذيب هو عذاب الطعام، الذي يأتي مكدرا بعد تكدير العذاب الجسدي، يأتي شبيها بأفكار السجان ليس منه غير تسمية الوجبات، فالفطور عدس مزين بالحصى لا يفارقه أبدا، وتلك إحدى قوانين السجن الداخلية الثابتة في تعيين طعام كـــل ســـجين، والغـــداء فاصولياء حتى رؤيتها تؤذي الشاعر، وأما العشاء فشيء أحتار في تسميته وكأنه مصنوع من طعام أهل النـــار من "غسلين"، ولكنه حشف وسوء كيلة، فعلى حاله تلك لا يقدم منه إلا القليل الذي لا يشبع لتكمل سياسة التجويع مشهد العذاب، ولكنهم يضطرون لأكله اضطرارا، فقد عرفنا من بعض المذكرات والسير أن هناك في السجن من تولوا أمر طعامهم بأنفسهم، ولا سيما في المعتقلات والمزارع حيث يجد المعتقلون فضاء من الحرية يقول:

هم كدروني لا طعام أذوقـــــــه ولا شيء من برد الشتاء يقيني
فإذا انقضى التكدير جاء طعامهم دكنا كأفكار الألى اعتقلونـــي
ضرب من التعذيب إلا أنـــــــه لا بد منه لسد جوع بطـــون
ففطورنا عدس يزين بالحصـــــى إن الحصى فرض على "التعيين"
قد عفت حتى إسمه وحروفـــــه من عينه أو داله والسيـــــــن
وغداؤنـــــا "فاصولية" ضاقت بها نفسي، فرؤية صحنها تؤذيـــني
وعشاؤنا شيء يحيرك اسمـــــــه فكأنما صنعوه من غسليـــــن
لا طعم فيه ولا غذاء وإنمـــــا يحلو لنا من قلة التمويـــــــن
طبق يكال لسبعة أو نصفـــــــه وعليّ أن أرضى وقد ظلمونـــي.[1]

[1] - يوسف القرضاوي - نفحات ولفحات - 63.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإلى جانب **العدس المخلوط بالحصى**، ينقل لنا عبد العزيز أحمد هلالي صورة أخرى من صور طعـــام السجن المخلوط، ولكن هذه المرة بـ**السوس** الساكن أعماق **الفول**، فيودعه في نغمة فكاهية درامية، ويعلن عن أسفه لتلك النهاية المحزنة التي ينتهي إليها هذا المخلوق المسالم المهادن الذي لم يكن ناموسا معتـــديا أو قمـــلا لاسعا، فلو كان ناموسا لهلل فرحا لخلاصه ممن شرب طويلا دماء الخلق وعربد وكوى منهم الوجوه والأيدي، والأرجل، ولو كان قملا أو بقا لاستبشر لراحته من وخزاته وسهاده الإجباري، ولكنه كان سوسا، و لم يكن يوما من المفسدين أو المعتدين فلذلك يفديه الشاعر بروحه، يقول :

أني جعلت لك الفدى "يا سوس" من كيد العدا
...أفديك يا مسكين في قلب "المواقد" منشـــدا
لحن الجنـــاز على جموعـــ ك وهي تعتنق الـــردى
إنني أخـــاف عليـــك أن تفنى على طول المـــدى
...أقسمت أنك لم تكن يا "يومـــــــا مفســـدا"
"كالقمل" حين يغـــــزني، فأبيت ليلي مسهـــــدا
و"البق" و"النـــاموس" إن ركب الظلام وهـــــددا
فاهنأ بموتـــك إنـــــــني ســـأظل فيك مـــــرددا
إني جعلت لك الفـــدى يا "سوس" من كيد العدى[1].

ويحمل إلينا شعراء الحبسيات قائمة **الممنـــوعات** في السجن وهي كثيرة، تـــأتي في مقدمتـــها أدوات القراءة والكتابة التي تكاد تكون ممنوعة على شريحة الشعراء موضوع دراستنا وكل المثقفين وإن شاكسوا قوانين المنع تلك، وأسسوا عصابات لتهريبها حتى قال محمود الدرة في شكره للسجان الذي أوصل إليه الأوراق أنـــه يستحق نصف عمره[2]، وتأتي إلى جانبها ممنوعات أخرى كثيرة، فبينما تتسرب إلى الجهة الأخرى من السجن السموم الخطيرة من المخدرات بكل أنواعها تحرم شريحة من أبسط حقوقها، ويصبح **المـــاء** من المحرمات على السجين الذي يعذب عذابا نفسيا خاصا، يسمع خرير الماء وهو لا يجد ما يروي ظمأه، أو يتوضأ به ويصـــدم بالمفارقة العجيبة إذ يباح ذلك الماء المنسكب الرقاق للكلاب ويمنع عن السجين والويل له إن غامر ودنا مـــن مملكة الكلاب، يقول جمال فوزي:

سمعت خرير الماء في السجن مـــرة فخيل لي أن الوضوء مباح
وأخبرت أن المـــاء غير ميســـــــر لمثلي ومثلي عندهم سفاح
وعدت طريد السوط من كل جانب وجسمي يعلوه دم وجراح

[1] - محمد محمود الغرباوي - الشعر في سجون مصر - 190.
[2] - محمود الدرة - من وراء البوابة السوداء - 202 - 205.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وساءلت نفسي هل تحرم قطـــــرة علينا ، وماء للكلاب مباح؟ ! [1]

ويحدثنا العقاد في حبسيته اليتيمة عن قوانين المنع التي طالت **قلـــمه** ونال من الحبس ما نال صاحبه ، فقد رافقه إلى السجن، ولكنه وضع مع الودائع وظل حبيسا ملفوفا مع ودائعه المحفوظة إلى أن غادر الشـــاعر السجن، ويتمنى فيها أن لا يقع القلم في يد خوان أو متهم فيشتم الأحرار ويترل إلى الحضيض بعـــدما رفعـــه الشاعر وأمثاله عاليا في وجه الطغاة والظالمين :

زاملني في السجن ذاك القلم ونالـه ما نـــالني من قســـم
ومس فكري وأســـــراري ما رامه الناس وما لم يـــرم
فرب معنى ما وعاه ســـوى ريشته ثم انطوى فـــانحسم
أما وقد فارقتنا يا قلـــــم وصالح اليأس عليك الألـــم
فخير ما أرجوه أن لا ترى في كف خوان ولا متهـــم
ولا تخط الجهل في صفحة "أبيض" ما فيها سواد الحمم
بدأت في الأوج فلا تنحدر إلى حضيض الذل في المختتم [2].

ويعدد القرضاوي مجموعة الممنوعات التي يعاقب عليها قانون السجن ويساق إلى غرف العذاب كـــل من ضبط متلبسا بإحداها، منها الأوراق وتبعاتها، ومنها الآلات الحادة التي يضرب مثلا بأقلها شأنا وأصغرها **الإبـــرة** ومنها **النـــوم** الذي غدا في شرع بعض السجانين من المحرمات، فإذا نام السجين أثير حوله مهرجان من الصخب ليظل صاحيا، وتلك صورة أخرى من صور العذاب النفسي، وحتى **الحديث** ضـــمّ إلى قائمـــة المحظورات، كأنه مخدر يحمى منه السجين، وتليها **الكـــتب** التي يتسلى بها السجناء، إذ تؤخذ منـــهم عنـــوة وتخزن دون أن يستفيد من كنوزها أحد، وتغدو **المصاحف** أيضا من المحرمات في بعض السجون، وإذا لجـــأ بعضهم تحت وطأة الفراغ بعد كل هذه الممنوعات إلى صناعة مسابح من نوى الزيتون، صادرها سدنة السجن الذين لا يؤمنون إلا بسياسة السكون المطلق للسجين، ليختم قائمة الممنوعات بحرمة **الشكوى والألم والأنين** من أي شيء، فإذا اشتكى من ظمأ أو مرض كان السوط وحده حلال المشاكل وقاضي الحاجات :

من أجل ضبط وريقة أو إبرة ولغير شيء ... طالما استاقوني
وتجمعوا حولي ضواري همها نهشي... ومالي حيلة تنجيـــني
إن نمت توقظني السياط سريعة فالنوم ليس يباح للمسجـــون !
وإذا تحدثنا لنذهب بالـــــكرى حظروا الحديث علي كالأفيون !

---

[1] - جمال فوزي - الصبر والثبات - 109 - 110.

[2] - ديوان العقاد - عابر سبيل - منشورات المكتبة العرية: صيدا - بيروت - 3/640-641.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإذا شغلنا بالقراءة وقتـــــــنا أخذوا جميع الكتب للتخزين !
وإذا تلونا في المصاحف حرموا حمل المصاحف وهي خير قرين
وإذا تسلينا بصنع مسابـــــح جمعوا المسابح من نوى الزيتون
هذي سياستهم، وتلك عقولهم عيشوا بغير تحرك وسكـــون!
إياكمو أن تشتكوا أو تألمـــــوا موتوا بغير توجع وأنيـــــن !
يا ويل من قد مسه لهب الظما فدعا بلطف للجنود اسقوني[1].

كما ينقل أحد معتقلي أنصار اللبنانية إحدى صور المنع الإسرائيلية الفظيعة في الجنوب اللبناني، تمتـــد حتى إلى منع النظر وخنق الأنفاس ومنع الحركة، منع الكلام، الابتسام، الفرح ، الغناء... منع كل شيء فـــلا ينقص هذه الجثث المتنفسة ببطء وعناء سوى الموت، وإن كنا نراها تتجرعه قطرة قطرة، يقول تحـــت اســـم مستعار "بابلو" في قالب أقرب إلى النثر في قصيدة "بكائية يناير" المهداة إلى الشهيد حسين قصير الذي استشهد في مقر الحاكم العسكري :

جثث تتنفس ببطء / تتألم، تتحسس بوجودها / جثث أشاركها هذا الموت البطيء / ...تهم كـــثيرة، متشابهة تحملها القامات المنتصبة / الرأس معصوب / اليدان مكبلتان / الكلام ممنوع / الابتسام... الغنـــاء... الفرح / كل شيء / إذا...لا ينقص سوى الموت[2].

ويحدثنا عبد العزيز أحمد هلالي عن **طقـــس** من طقوس السجن في قصيدته **"إنتباه"** وعن الهلع الـــذي تحدثه هذه الكلمة في صفوف السجناء، وهي تدمغهم عجلى تتقدم الضباط وأشباههم من حملـــة النياشـــين والأوسمة، وتزرع في السجن جوا مهيبا بصمته وخشوعه، يصطف السجناء بمجرد سماعها خافضي الـــرؤوس خاضعين خانعين متجمدين، ليبدأ التفتيش وتظل كلمة انتباه تدوي فضاء السجن وتجرح مســـامعه صـــباح مساء:

"إنتباه" في صباح ومســـــاء زلزلت أمـــني وأودت بالهناء
"انتباه" قد أتى ضباطكـــــم فيهم حزم وعـــزم ومضـــاء
احتراما يا رفاقي واحـــذروا أي همس أو كلام أو دعـــاء
واخفضوا أرؤسكم، ثم قفوا في خشوع، وخضوع، وانحناء
إن للضباط إن خالفتمـــــو غضبة تصدع قلب السجنـــاء
"انتباه" إنهم قد خطـــــروا في خطاهم كل يأس ورجـــاء
بدأوا التفتيش يا ويلتـــــنا إن في "التفتيش" خسرا وفنـــاء

[1] - يوسف القرضاوي - نفحات ولفحات - 64.
[2] - حسين سعدون - أنصار 33- أدب المعتقل - 327.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ذلك المسمار من علقـــــه إنه آلة قتل واعتـــــــــــداء
انزعوا تلك البطاطين الـــتي جعلت "للبرس" سترا وغطـــاء
هكذا قال نظام محكـــــم لم يميز بين صيف وشتـــــــاء.
"انتباه"قد أثارت كـــمدي وأرتني كل ألوان الشقـــــــاء
"انتباه" حملتني حســـــرة و أذلتني صباحا ومســـــــاء[1].

ولنا أن نذكر طقسا آخر من طقوس السجن **هو تحية علم المستعمر** صباح مساء، وما يحدثه ذلك من ألم في نفوس الأحرار من أبناء الوطن، وقد مر بنا مشهد الجزائري حسن حموتن وهو يرغم على رفعه وتحيته[2]، ومثل **عذاب الظلام أياما** أو **النور المتواصل** أياما، مما يؤدي ببعض المساجين إلى الانهيار.

ومن عذابات السجن أيضا، **عذاب الزيـــارة** وطقوسها المانعة، فالذين يؤذن لهم بزيارة الأهل تقف دون لحظات اللقاء المرجوة حواجز إسمنتية صلبة وشبابيك حديدية تقتل فرحة اللقاء وتحول دون العنـــاق أو المصافحة، ويليها صف الجنود المتأهب المنتصب، مما يعكر صفو البوح والإفضاء اللذين يحتاج إليهما الســـجين مع أهله ليتخفف من بعض آلامه وعذابه، يضاف إلى ذلك مصادرتهم لكل ما يحمله الأهل من طعام بحجـــة تطبيق القوانين، ولعلّ أشد صور العذاب في مشاهد الزيارة هو لحظة الوداع الإجبارية الخاضعة لوقت الزيارة المحدود، ولآلات إنذارها المزعجة.

من الشعراء الذين نقلوا بعض تفاصيل هذا العذاب الشاعر عبد العزيز أحمد هلالي في مناجاته حينا لأمه وآخر لأخته وثالثا لزوجته[3].

- صراع الشاعر السجين مع الظلمة والنور المخنوق وتطلعه إلى العالم الخارجي :

داخل بعض تلك **القبور العمياء بلا كوة**، ومن بعض تلك الأقبية المظلمة، ومن ثقوب بعض تلـــك الأقفاص أو ما يمكن تسميته تجوزا نويفذة يجلس الشعراء وكلهم **تطلع إلى العالم الخارجي** ، يسترقون النظر إذا أتيحت لهم منافذ، ويسترقون السمع أحيانا إذا لم يجدوا كوة، ويتشوقون إلى النسيم العليل، ويحن بعضهم حتى إلى رؤية وجه السماء، ويفرحون إذا أتيح لهم شيء من هذه المباهج فرحا طفوليا، يخاطبون كل ما تبدى لهـــم من ذلك العالم الخارجي، ويتخذون منه رسلا إلى أحبابهم وذويهم، يحملونه نقل أخبارهم وسلامهم، يحاورون الأشجار، الطيور، الخفافيش، القطط، ويتابعون صدى خطى العابرين وهي تتباعد شيئا فشيئا عن مســـامعهم حتى تتلاشى.

---

[1] - عبد العزيز أحمد هلالي - أنغام شاردة - 30.
[2] - صلاح مؤيد - الثورة في الشعر الجزائري - 68.
[3] - عبد العزيز أحمد هلالي - أنغام شاردة - 53، 55، 31، 33.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فهذا عبد الرحمن الشرقاوي يحدثنا عن شوقه إلى العالم الخارجي الذي بلغ أقصى درجاته "حتى الجنون" –كما يقول الشاعر- ولكن ذلك لا يعني التراجع أو التنازل عن المبادئ، فهو صابر أبدا لا يلين :

سجين / سجين حزين / سجين حزين عميق الأنين / مشوق إلى العالم الخارجي ولكنه صابر لا يلين/ يلح به الشوق حتى الجنون/ وإن كان أحبابه في السجون ! [1]

وتتعالى نداءاته كالصدى الممتد المتعالي من وراء الأسوار تتحدى الآفاق نداءات متناغمة متتالية يرسلها إلى رفاقه من خارج الأسوار يسألهم أن يحدثوه عن الليل والنهار، فهو لا يعرفهما في غياهب جبه، أن يحدثوه عن السماء طويلا، فقد نسي ملامحها، وعن الحقول الخضراء والأنهار، عن عذارى بلاده يتهادين خفافا، ويتحسر على الشعب يشقى ويعتصر الحياة اعتصارا، ولكنه لا يشرب خمر جهده، وإنما يذهب إلى المستعمر وحاشيته يقول :

يا رفاقي من خارج الأسوار حدثونا عن الدجى والنهار
حدثونا عن السماء طويلا والحقول الخضراء والأنهار
حدثونا عن العذارى تهادين خفافا في موكب معطار
كيف خمر الحياة يعصرها العبد ويشقى بها لدى الخمار؟؟[2]

وفي غرفة توفيق زياد السوداء "لولا حزمة النور البديد" تدور يد السجان بالمفتاح، وتغلق كل الأبواب و لم تبق للشاعر إلا بقايا كوة يسترق منها النظر إلى العالم الخارجي، وتتراءى له من خلفها الروابي ويلوح له رأس الكرمل وقد غطاه الضباب، ومن بقايا تلك الكوة يتأمل الشاعر أنوار الفجر تجلل جبينه الشامخ وتلوح بين شعابه الخضراء، وفي أحضان هضابه أعشاش الطيور والأزاهير، ومن هناك ينصت الشاعر إلى وشوشات الريح تهمس للصنوبر والبراعم فتحرك ذكرياته العذاب :

دارت يد السجان بالمفتاح / تغلق كل باب / إلا بقايا كوة / من خلفها تبدو الروابي / ويلوح رأس الكرمل المخمور برقع بالضباب / الفجر فوق جبينه المعتزل / كالعاج المذاب / ...والريح تهمس/ للصنوبر، للبراعم، للغياب / يا طيب تلك الوشوشات / كأنها همس التصابي / غمزت جوانحها، فهاجت / بادّ كارات عذاب[3].

وينادي صاحب المفتاح يخبره عن شوقه الوحيد ليس إلى طعام أو شراب أو ما لذّ وطاب من الأماني، ولا حتى إلى لقاء أم مشوقة، فقد تعودت هي الأخرى على بعده ولكنه شوق للشارع الفلسطيني وقد روته دماء الشباب ومشى على جوانبه شعب لا يعرف لغة الانحناء :

---

[1] - عبد الرحمن الشرقاوي - من أب مصري - "أشواق" - 68.

[2] - المصدرنفسه - 129.

[3] - توفيق زياد - الديوان - 105 - 107.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يا حامل المفتاح/ ما شوقي لأكل أو شراب/ كلا... ولا للقاء أم / قد تعودت اغترابي /لكنه للشارع المطلول فيه / دم الشباب / زحفت جوانبه بشعب غير محني الرقاب[1].

ومن قبوه الأرضي ينصت البياتي لأصوات الطريق، فيتردد على مسامعه صدى القوافل والطيور العائدة من هجرتها إلى الجنوب، وتلوح في تلك العودة إحدى مشاعر الفرح التي كان يسمعها في أصداء أغاني القافلة[2].

ويلمح عبر باب السجن حركة الحياة خارجه، ويتابع من خلفه كل صورها، فيرى كوخهم يلمع في السهل ويرىالنجوم و الموتى والقبور البيضاء المزروعة، والسور القديم، ثم يعود إلى واقعه المر وقيوده وإلى بعض أشيائه العزيزة في السجن "كبطاقات البريد" ويناجي كل الرفاق خارج السجن، الأصدقاء والأشجار والعصافير، النجوم، النخل، ويدعوهم جميعا للغناء للخير والحب العميق :

عبر باب السجن عبر الظلمات / كوخنا يلمع في السهل، وموتى والنجوم / وقبور القرية البيضاء والسور القديم /وقيودي وهواها / ...وبطاقات البريد / يا رفاقي في الطريق / عبر باب السجن غنوا، يا رفاقي /...يا رفاقي والنجوم / وطنين النحل في مقبرة القرية، غنوا ! [3]

و لم يجد سميح القاسم منفذا يطل منه على العالم الخارجي أو رسولا يسأله عنه أو يحمله رسالة إلى الأحباب غير زائر قادم من الظلام هو الخفاش الذي لا يعرف شيئا عن النهار، تسلل إليه من كوة زنزانته السوداء، فكان الزائر الجريء الوحيد الذي يهجم عليه بأسئلة متتالية عن أخبار العالم الخارجي، لأنه من مدة لم يقرأ الصحف هنا، و لم يسمع الأخبار، لتضاف إلى قائمة الممنوعات الأخرى "الصحف" و"الأخبار"، يسأله أن يحدثه عن الدنيا لأنه في عالم آخر خارجها، ربما هو في الأخرى أو أي مكان آخر لا ينتمي إليها، يسأله عن الأهل والأحباب، لكنه صفق بأجنحته السوداء، وطاردون جواب، ودون أن يحمل معه رسالة الشاعر إلى الأصحاب :

...وزارني من كوة الزنزانة السوداء / لا تستخفوا...زارني وطواط / وراح في نشاط / يقبل الجدران في زنزانتي السوداء / وقلت: يا الجريء في الزوار / حدث !... أما لديك عن عالمنا أخبارا؟ ! / فإنني يا سيدي من مدة / لم أقرأ الصحف هنا... لم أسمع الأخبار / حدث عن الدنيا، عن الأهل، عن الأحباب / لكنه بلا جواب ! / صفق بالأجنحة السوداء عبر كوتي ... وطار ! / وصحت: يا الغريب في الزوار / مهلا ! ألا تحمل أنبائي إلى الأصحاب؟...[4]

---

[1] - المصدر السابق - 108.

[2] - عبد الوهاب البياتي - الأعمال الشعرية - 130/1.

[3] - المصدر نفسه - 152/1.

[4] - سميح القاسم - الديوان - 95 - 96.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما أحمد سحنون فيتسرب إلى مسامعه والناس نيام شدو عصفورة ويحرك فيه الحنين إلى عصفورة أخرى خلّفها وراءه ابنته "فوزية"، فيحمل هذه الزائرة المثيرة الأشواق سلامه إليها إن هي مرت بحمى أسرته، ورجاءه أن ألا تحزن وتملك بالأسى والحسرات عليه، وأن تحتفل بالعيد في غبطة وسرورا كسائر عهدها، لأن أباها ما زال حليف وفاء يذكرها ويحلم بوجهها الطاهر، في النوم وفي اليقظة[1].

ويطل محمد الشبوكي ليلا من معتقل "بوسوي" القائم على هضبة تحيط بها الأشجار متتابعة في انتظام عجيب تحجب رؤية ما سواها، ويرمق مجموعة من النجوم أسماها نجمة القافلة وتتخيلها روحه المتلهفة للانطلاق قاطرة إبل تسري ليلا وتشق طريقها حرة طليقة فتنعش عزلته القاحلة وتحرك فيه جميل الذكريات:

تراءيت في الأفق لي حافله بنورك يا نجمة القافله
فهل أنت للقلب ثغر الأماني تبسم في عزلتي القاحله
أراك فترقص لي الذكريات و تمثل في حفلها رافله
أراك فيحلو لقلبي النشيد وتصبح نفسي له ناهله
تجوبين آفاقك الواسعات بين الكواكب كالذاهله[2].

ويسمع يوما صوت البوم الذي يمثل أحد رموز التشاؤم في الموروث العربي، فيدعو رفاقه لإسكات هذا الكائن المخلوق للبكاء في الطلول العوافي، إفساح المجال للبلبل يتغنى ويغني معه كل الرفاق تجاوبا مع ألحانه وتيمنا بها[3].

وينقلنا سليمان العيسى إلى صورة أخرى من صور العذاب، هي صورة **الظلام الدامس** الذي تواصل عليه أسابيع لا نعلم عددها لأنه تركها هكذا في صيغة الجمع مبهمة نستشف منها الدلالة على الكثرة، ففي قصيدته "وجه السماء" يرجو حارسه أن يفتح له الباب للحظات قصار، يستنشق فيها عبير الأرض ويكحل طرفه بوجه السماء، الذي حرم من النظر إليه طويلا، ويرى تدفق النور وسريانه في أوصاله ودمائه وفضائه الموحش، فقد كاد الصمت وجدران حجرته السوداء أن يخنقا أنفاسه وقد حطم سرير "النظارة" حنبيه ورسمت مساميره آثارها في ضلوعه ، مجرد لحظة يتنفس فيها عبق التراب والماء والحصى، ويرمق فيها الأفق وخيط الضياء أمام نافذة السجن، يبدد بنورها ليله المتطاول، وينتقل بنا فجأة إلى فرحة طفل أتيح له وجه السماء لحظة، وأنفاس الهواء بعد حرمان طويل، فإذا به يقفز فرحا منتشيا والهواء يتدفق شهيا في صدره، ويمد الطرف إلى الأفق الرحب يرنو إلي النجوم سابحات في ملكوت السماء، ويرى الغيوم تترامى حواليها كروحه المجنونة فرحا ويلتفت إلى الطريق قريبا منه وإلى الروضة الخضراء ويحاول في هذه اللحظات المعدودة أن يحتوي أكبر

[1] - أحمد سحنون - الديوان - 69 - 70.
[2] - محمد الشبوكي - الديوان - 153.
[3] - المصدرنفسه - 169.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مشهد يمكن أن يمتد إليه طرفه، فإذا هو قد اكتفى وارتوى وحمل زاد أيامه الباقية، ويطلب من سجانه أن يُعيده إلى "القيد" مرة أخرى فقد أودع النجوم أغانيه وشكواه وهي كفيلة يرجع صداها أو إبلاغها لمن أراد :

...افتح الباب لحظة... يدفق النور بروحي، ووحشتي، ودمائي
ادفع الباب لحظة... أتنفس عبق التراب والحصى والماء
أرني الأفق... من ترى حرمّ الأفق على مقلتي... وخيط الضياء ؟
... لحظات... أمام نافذة السجن أبدد ليلي بخيط ضياء
ما أحب الهواء... يدفق في صدري شهيّا... وما أشد انتشائي
لحظات أمد طرفي إلى الأفق إلى النجم... حافلا في العلاء
وإلى هذه الغيوم... ترامى مثل روحي مجنونة في الفضاء
وإلى هذه الطريق التي تمتد قربي...والدوحة الخضراء
يا رفيق الإسار.. عُد بي إلى "القيد"ودع للنجوم رَجع غنائي[1].

ومن كوة زنزانته الصغرى يبصر الشاعر سميح القاسم طبيعة وطنه المستلب تبتسم له، ويلوح له أهله يملأون سطوح المنازل، وتطل وُجوه من النوافذ تبكي وتصلي من أجله، وفي ذلك المشهد كله تلوح للشاعر زنزانة سجانه الكبرى التي بناها لنفسه بظلمه :

من كوة زنزانتي الصغرى / أبصر أشجارا تبسم لي / وسطوحا يملأها أهلي / ونوافذ تبكي وتصلي/ من أجلي / من كوة زنزانتي الصغرى / أبصر زنزانتك الكبرى[2].

وهناك من الشعراء من رصد مشهد **الأعمال الشاقة** التي زج ظلما بهؤلاء الشعراء إلى خوض غمارها، يأتي في مقدمتها العمل في مقالع الحجارة الذي رصده الشاعر المغربي محمد الحلوى في عجالة عندما اشتكى من آثار الفؤوس وقد أثقلت كواهلهم وكادت آلامها تذهب بأصابعهم يقول:

...و بين فؤوس هدّنا حمل ثقلها وآلامها قد أفقدتنا الأصابعا[3].

ويوضح المشهد أكثر رفيقه أحمد المحاطي فيسمي مكان العمل ويشكو من تلك الصخور القاسية الصماء وهي تمتص كل طاقته، ويبقى عندها منسيا، يتأرجح بين الصحو والإغماء من شدة التعب، فلا هو بالصاحي ولا هو بالغافي، ربما من خوف السياط التي قد تفجعه فجأة كلما سها أو غفا :

---

[1] - سليمان العيسى – الأعمال الشعرية - 212/1 - 214.
[2] - سميح القاسم - الديوان - "خاتمة النقاش مع سجان" - 580/1.
[3] - محمد الحلوي – أنغام وأصداء - 164.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أنا المنسي عند مقالع الحجاره / وتحت الصخرة الصماء تأكل من شراييني/ أكاد لا أصحو ولا أغفو[1].

كما أشار كاظم الدجيلي إلى الأعمال الشاقة وإلى عجيب مفارقات السجن، فبعد نهار كامل في شق الطرقات يأتي المبيت على الأرض وما يخلفه من آثار على أجساد السجناء خاصة في فصل الشتاء :

وفي كل صبح نقصد الطرق التي تدقّ بأيدينا نهارا صخورهـــا
وبتنا كما شاء البوليس على الثرى و ليلتنا قد طال منها قصيرها
و لازمنا من شدة البرد رجفـــــة بها العين منا لم يقر قريرهـــا[2].

[1] - مجلة أقلام المغربية – عدد 9 – 10-سنة 1965- قصيدة "من كلام الأموات" - 14.

[2] - رفائيل بطي - الأدب العصري في العراق - 200/1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

X Z

* الفصل الثاني *

بين الشاعر والسجان

- صور من فنون العذاب وأساليب مصادرة الأجساد ومحاولات التدجين.
- صورة السجان والجلاد .
- تحدي الشاعر للسجن والسجان وطقوس السجن .
- شرف السجن .
- التحدي بالقصيدة .

E Θ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- صورة من فنون العذاب وأساليب مصادرة الأجساد ومحاولات التدجين :

نمضي مع الشعراء تصاعديا في **رحلة العذاب** لنبلغ أقصى مقاماته، وندخل معهم متاهات السجن ونرى أهواله ونكتشف أساليبه وآلاته، ونتعرف على المسالخ وطاولات المشرحة وكراسي الإخصاء والمشانق والمقاصل والسياط حلالة المشاكل وأخشاب الصلب وآلات النفخ وكلاب العذاب المدربة، ونتعرف على زبانية هذا الفن الملعون وما أحدثوه ببعض الأجساد وما خلفوه من عاهات وأمراض مستديمة.

يتفاوت الشعراء في سرد تلك التفاصيل بين التلميح والتصريح وبين العبور العاجل ومحاولات التجاوز والنسيان والوقفات المطولة عند أدق تفاصيلها وصورها الممتدة في أحيان كثيرة حتى إلى الأهل، إنها صور محاولات مصادرة الجسد وتغييبه بعد فشل محاولات تدجين السجناء وتحويلهم إلى حظيرة الطاعة العمياء، فهذا حسين الجزيري يُجمل معاناته في السجن في كلمة **"هول"** وما تحمله من معاني العذاب، ويُعطينا حرية الإغراق في الحديث عنه بلا حرج، فقد امتدت المحنة إلى أهله إذ فقدوا معيلهم، يقول:

حدث عن السجن بالإغراق لا حرج هيهات أنسى له هولا إلى الأبد
إني ابتليت به ردحا بلا سبب غير احتراق فؤادي في هوى بلدي
طال العناء به والأهل في كدر والدهر يسطو عليهم سطوة الأسد[1].

ويضغنا على الرقيعي أمام أحد أساليب "كلاب الإنجليز" في امتهان جسد السجين، يلهبونه **بالسياط** حينا، وحينا يدوسونه **بركلاتهم** العنيفة القوية لا يستثنون منه موطنا،ناهيك عن وقع السلاسل المطوقة:

وهدرت بالألم الكمين بخاطري المتوجع / متأجح الأحقاد...مجروح الإباء الأروع / رغم السلاسل في يدي ، والسوط يلهب أضلعي / و صرامة الركل المميت تدوس أرهف موضع / وصرخت فيهم: يا كلاب الإنجليز / في قبونا الأرضي.. في ظلمات سفاكي الدماء[2].

ويضيف الشاعر محمد الحلوي آلة أخرى إلى آلات رفيقه الرفيعي،و مشهدا آخر من مشاهد مملكة العذاب هي **العصي** التي لم تدع هي الأخرى موضعا إلا وعرجت عليه، ويضعنا أمام صورة لمجموعة من السجناء تهوي عليهم أطراف العصي فيهرولون،كأنهم حجيج يطوف مسرعا بالبيت العتيق ،و لكنه مع ذلك لا ينسى مدينته وأهلها في كل حالات القمع سواء كانت مهاوي العصي أو سياط البغي أو فؤوس المحاجر :

فإن أنس لن أنسى عشية حلقت علينا عصيّ لم تدع قط موضعا
كأنا وأطراف العصي تنالنا حجيج مطيف يقطع البيت مسرعا

---

[1] - محمد الفاضل بن عاشور – الحركة الأدبية والفكرية في تونس - معهد الدراسات العربية القاهرة - 1956 - قيصدة "صوت من السجن" - 117

[2] - فوزي البشتي – حكم الثورة في الشعر الليبي - المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان- طرابلس - ليبيا 1985 -61 - 62.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سقى الله فاسا بعدنا كل صيّب فإن الأسى لم يبق في العين أدمعـــا
ذكرناكم بين الأخاديد والربى وبين سياط البغي توهي الأضالعـــا[1].

وقد جمع القرضاوي هذه الآلات جميعا، تاركا لنا الحرية في إضافة كل أسلوب خسيس دوني إليها :

بالرجل... بالكرباج... باليد..بالعصا وبكل أسلوب خسيس دون
وسل السياط السود كم شربت دما حتى غدت حمرا بلا تلوين[2].

وما تلك الأحذية الكريهة التي هوى بها الجلادون على جسد الشاعر سميح القاسم، إلا من بقايا أحذية فرق "الإس إس" النازية التي حولت جسده إلى بستان جراح وراحت تداويه بإحدى طرقها الفريدة بالملح:

فركوا بالرمل والملح جراحي / و إلى ركن كريه ركلوني / كانت الأحذية السود الهجينه / من بقايـــا فرق الإس إس / في بون اللعينه / ...[3].

ويتحول **السوط** على يد زبانية العذاب إلى حلال للمشاكل، يقضي حاجة الظمآن إن طلب مـــاء، ويشبع بطن الجوعان، ويداوي شتى الأمراض، فلمن يشكو إسهالا عشر جلدات، ولمن اشتكى من الصـــداع مثلها أو ضعفها بدل "الأسبرين" ومثلها لمن اشتكى من مرض السكري، فهي أعز أنسولين، وفي مرارة قاتلـــة ساخرة يجزم أن هذا من اكتشافات الثورة، بل والاختراع الفريد الذي تفخر به مصر على جحيم الهتلرية :

فالسوط حلال المشاكل لم يضـــق يوما بطول مآرب وشؤون
من راح يشكو الجوع فهو غذاؤه ومن ابتغى ريا فأي معين !
ومن اشتكى وجع الصداع فمثلها أو ضعفها بمكان "الأسبرين"
ومن اشتكى من سكر فبنحوهـــا يجد العليل أعز "أنسوليـــن"
هذا اكتشاف الثورة الفذ الـــذي فخرت به مصر على برلين[4].

وفي قالب رمزي تتحول **أجساد السجناء** وأرواحهم إلى شجرة من أشجار السجن أنضجها التعذيب بشكليه فأثمرت أفكارا نيرة من جراح ألف يسوع، بل ويمتد حبل العذاب عند البياتي إلى أهله، فهـــذا أبـــوه أطفئت عيونه المخضلة دائما بالدموع من شدة الحزن، ولكنه مع ذلك يهنئ البقية العائدة من مجزرة الأيـــدي الخيرة! يقول:

طوبى لكم! طوبى إننا / بقية عادت من المجزرة / ... بيوتنا، آلامنا، أمسنا / عاثت به أيديكمو الخيره /

---

[1] - محمد الحلوي –أنغام وأصداء - 163 - 164.
[2] - يوسف القرضاوي – نفحات ولفحات - 56 - 58.
[3] - سميح القاسم – الديوان - 190.
[4] - يوسف القرضاوي – نفحات ولفحات - 64.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نسقي ولا نسقى وخماركم / يشد في أرجلنا المعصرة / لو عاد للعالم أمواته / لاحتضنوا في أرضنا المزهـــره / ألف يسوع في جراحاته / مات لتحيا فكرة نيره /... حتى أبى، بالدمع مخضلة / عيونه المطفأة المبصره[1].

فخلف الأبواب المغلقة هناك تفاصيل مسرحيات دامية يسلط الشعراء في كل مرة أضـــواءهم علـــى إحدى زواياها التي تمتزج فيها غالبا الحقيقة بالرمز، بالخيال، يحدثنا جواد جميل عن طقس من طقوس ســـجنه يبدأ بها يومه الطويل ويختتمه ، يصحو صباحا على طعنة خنجر ويغفو آخر الليل على أخرى مماثلة وبينـــهما جراحات إذا لم تشرب النار تتحجر، وبينهما تاريخ رهيب لا يصدق :

وأنا في ألمي معتقل / و الباب مغلق / كلما لملمت فوق الرمل خطوي / يتفرق ! / إنني مر على عيني / تأريخ رهيب لا يصدق / ... أنا أصحو أول الصبح / على طعنة خنجر ! / ثم أغفو آخر الليل / على طعنـــة خنجر[2].

ومثلما أخبرنا يوسف القرضاوي في مطلع نونيته أنها سرد لبعض الوقائع الحقيقية لأنـــه لا يســـتطيع احتواء كل أهوالها ولأن القوافي تضيق دون فظاعة ما رأى وذاق من وَيْلات فقد تفرد في رصد كثير من فنون آلة العذاب، وقدمها في قالب ساخر ردّا على كل من رمى مصر بالتخلف الصناعي، فكفى مصر الحديثة أنها تقدمت في هذا المجال العظيم "صناعة التعذيب والتقييد" بأشكال وألوان مختلفة حتى لا يمل العابرون عليهـــا ، ويسأل القارئ إن كان قد سمع بشيء من تلك الاختراعات العجيبة التي دارت تجاربها على أجساد ســـجناء "الحربي" ونقشت عليها بصمات لا تمحي، فمنها تلهي زبانية العذاب حينا **بنفخ بطن السجين** حتى يغـــدو في هيئة كرة كبيرة، أو **بضغط رأســـه** بطوق ينتهي بالبعض إلى فقدان العقل، وحينا **بإشعال النـــار** فيه بعد صبغ جسمه بمادة قابلة للاشتعال "الفزلين". ومن بدائع الاختراعات السجنية يعرفنا بجهاز تعذيب يســـميه أهـــل السجن **العروســـة** وما يخلفه من جرحى ومطعونين و**زنازين الجليد** التي يلقى فيها السجين لليال عاريا أو شبه عار في عز الشتاء، وهناك يكتب كثيرون ما يملى عليهم من اعترافات كاذبة لأجل الخروج من ذلك الجحـــيم وأحيانا يتنقل السجين بينها وبين النار يقول :

قل للعواذل إن رميتم مصرنـــــا	بتخلف التصنيع والتعديـــــن
مصر الحديثة قد علت وتقدمت	في صنعة التعذيب والتقريـــن!!
وتفننت – كي لا يمل معذب-	في العرض والإخراج والتلوين!
أسمعت بالإنسان يشعل جسمـــه	نارا وقد صبغوه "بالفزليـــن"؟
وسل "العروسة" قبحت من عاهر	كم من جريح عندها وطعين

[1] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية - 214/1.

[2] - جواد جميل – للثوار فقط - 80 - 83.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كم فتية زفوا إليها عُنـــــــوة ! سقطوا من التعذيب والتوهين
واسأل "زنازين" الجليد تجبك عن فن العذاب، وصنعة التلقيـــن
بالنار أو بالزمهرير، فتلك فـــي حين ، وهذا الزمهرير بحيـــن
يلقى الفتى فيه ليأتي عاريـــــا أوشبه عار في شتا كانـــــون
وهناك يملي الاعتراف كما اشتهوا أولا فويل مخالف وحـــرون[1].

وعن هذه العجائب التي لا تصدق يقول الكاتب الصحفي مصطفى أمين.. "داخل السجن شـــاهدنا أشياء لم أتخيل أبدا أنها موجودة بالسجون المصرية... ولو روى لي سجين هذه الحقائق ونقل لي هذه الصـــور قبل أن أدخل السجن لما صدقت..." [2] ولكنه عاشها في تجربة حبسه الطويلة على امتداد تسعة أعـــوام بـــين حكمي عبد الناصر والسادات (1965-1974) التي كتبها بكل عجائبها داخل السجن، كما أكدها كل الذين مرّوا من ذلك الممر وكتبوا عن تجربتهم فيه.

ولا يقف القرضاوي عند هذه الفظائع وإنما يذهب بعيدا إلى جبل المقطم وما يخفيـــه مـــن ضـــحايا العذاب، ويكشف عن شهداء آخرين غير أولئك الذين حوكموا علنا بما سمي بـــ"محكمة الشعب" فيـــذكر في هامش النونية أن أربعة وعشرين سجينا سقطوا في "ليمان طرة" تحت طلقات المدافع الرشاشة، ويخبر أنه عقب التحقيقات التي أجريت في السجن سقط تحت السياط الغاضبة خمسة وتسعون آخرون، ولن يجـــد الزبانيـــة المتوحشون تلاميذ النازية مكانا يُواري جرائمهم غير جبل المقطم القريب منهم[3].

ويسرد علينا بعض صور العذاب التي لا تنتهي إلا بانطفاء أجساد المعذبين، حيث **يعلـــق الســـجين كالذبيحة** المهيأة للقطع ويسهر عليه الجلادون ليالي متتاليات كأنهم في تهجد، فإذا عجزت السياط عن إنطاقه وافتكاك اعتراف، صعدوا الموقف إلى **الكي بالنـــار**. ويستمرون في اختراعهم غير مبالين بجراحه وقد غطاهـــا الصديد، ولا بأناته، إلى أن يلفظ أنفاسه، فيحمل في جوف الليل إلى تل المقطم ويوارى هناك ويُعمى رمسه، كأنه سر مدفون تحت الثرى لا يعلم أمره إلا دافنوه، ولكن عين الله ترقبهم والليل والكواكب والثرى يشهدون جميعا على تفاصيل هذه الجرائم النكراء، يقول :

وسل "المقطم" وهو أعدل شاهد كم من شهيد في التلال دفين
قتلته طغمة مصر أبشع قتلـــــــة لا بالرصاص ولا الفنا المسنون
بل علقوه كالذبيحة هيبـــــــئت للقطع والتمزيق بالسكيـــــن
وتهجدوا فيه ليـــالي كلـــــــــها جلد، وهم في الجلد أهل فنون!

[1] - يوسف القرضاوي – نفحات ولفحات - 58.
[2] - حنفي المحلاوي –حكايتي مع السجن - 25.
[3] - يوسف القرضاوي - نفحات ولفحات - 60.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فإذا السياط عجزن عن إنطاقـــــه فالكي بالنيران خير ضميـــن!!
...لم يعبـــأوا بجراحه وصديدهـــا لم يسمعوا لتأوه وأنيـــــن
قالوا اعترف أو مت... فأنت مخير!! فأبي الفتى إلا اختيار منـــون
فإذا قضى ذهبوا بجثتـــــــه إلـــى تل المقطم وهو غير بطيـــن
واروه ثم محوا معالـــم رمســـــــه فغدا كسر في الثرى مكنون
أخفوه عن عين الأنام ومـــــا دروا أن الإله يحوطهم بعيـــــون[1].

وفي الخط نفسه خط التصفية الجسدية يطلعنا الشاعر فايز أبو شمالة على الأساليب الوحشية الإسرائيلية التي هي في نظره فعل واحد تتبدل فقط أشكاله الخارجية المرئية ويظل المعنى واحدا هو **التغييـــب والإلغـــاء النهائـــي** :

أردوه قتيلا !؟ / ذبحا تحت جنازير الدبابة / تعذيبا في أقبية التحقيق / برصاص طائش / خنقا، شويا، غرقا لا فرق / كلمات الموت بقاموس الحريه / إن يتبدل فيها الشكل على المرآة / لها وقع واحد /إما زنبقـــة للذكرى / أو قبل في النجم الواعد[2].

ويتعجب معين بسيسو من هذه النهايات التي ينتهي إليها المخلصون للأوطان ولاجرم لهم إلا حبها ، بينما ينعم بالحرية المجرمون والقتلة سليلوا "باراباس".. القاتل السفاح وما ذلك بعجيب فقد أطلق قديما طبقـــا لتقاليد الإمبراطور الروماني السجين المجرم القاتل "باراباس" في ذكرى صلب المسيح[3]:

واقترعوا يا شعبي / من يأخذ ثوبي / بعد الصلب... / * * * / كأس الخل بيمناي / وإكليل الشوك على رأسي / باراباس ابن السكين طليق / وابنك يا شعبي / ساقوه إلى الصلب[4].

كما ينقل القرضاوي فصلا من فصول المسرحية بعد العودة من المحاكمة، وما أدراك ما المحاكمة، يوم ثقيل متعب ينقل فيه السجناء فجرا إلى المحاكم ويعودون مساء منهكين، مثقلين بأحكامهم المتفاوتة بين الإعدام والمؤبد ولا يكاد النوم يأخذهم من ذلك اليوم المتعب الثقيل حتى ينادي منادي الموت "رقيب السجن الحربي" فيهب كل العائدين من المحاكمة ليجدوا **التكديـــر**[5]في انتظارهم ، صف من الجنود المظفرين المسلحين و بنادق ومدافع فاتحة أفواهها، يعدو أمامها طابور السجناء المرهق لينال نصيبه من التحية، وتلهب السياط لســـاعتين

---

[1] - يوسفالقرضاوي –نفحات ولمحات - 60

[2] - فايز أبو شمالة –سيضمنا أفق السناء - 48

[3] - Barabbas - Encarta 2004. -

[4] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 161-162.

[5] - أحد المطلحات المستخدمة في السجن الحربي ، وهو لون من العقوبات، كالحرمان من الخروج من الزنزانة أو الزيارة أو غيرها، من المكدرات الأخرى.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الظهور وتصب أنهار العرق والدموع، ويخر من يخر مغمى عليه، لكنه سرعان ما يفيق على ضربات السياط، ويسقط في حلبة العذاب الشيوخ والمرضى، تدوسهم الأقدام، ثم يختم الفصل بتوزيع قائد السجن منحة الختام بين عشرين وخمسين جلدة، ينال كل سجين نصيبه كما حدده بتراهة في العد والإتقان والتحسين:

أنا إن نسيت فلست أنسى ليلة ... في ساحة الحربي ذات شجون
عدنا المساء من المحاكمة التي ... كانت فصول فكاهة ومجون
...طابور "تكدير" ثقيل مرهق ... في وقت أحلام وآن سكون
نعدوكما تعدو الظباء يسوقنا ... لهب السياط شكت من التسخين
ومضت علينا ساعتان وكلنا ... عرق تصبَّبَ مثل فيض عيون
من خر إغماء يفق عجلا على ... ضربات سوط للعذاب مهين
ومن ارتمى من شيخوخة ... أو علة ...داسوه دوس الطين
لم يكف حمزة كل ما نؤنا به ... من فرط إعياء ومن توهين
فأتى يوزع بالمفرق دفعة ... بالسوط من عشرين للخمسين[1].

ويذكر مجموعة من رفاقه الذين **حكم عليهم بالإعدام**، مع مالهم من صفحات مشرقة في تاريخ مصر والأمة العربية، فمنهم من شارك في حرب الإنجليز واليهود، أمثال يوسف طلعت، ومحمد فرغلي، الذين انتهيا بالإعدام شنقا ومثلهم العالم الفقيه عبد القادر عودة،وغيرهم كثير، يتعجب الشاعر ويتساءل في صيغة الاستفهام الإنكاري فيم قتل هؤلاء جميعا ولحساب من كانت كل تلك الفصول من الرعب، فقد أجاب من قبل بأنها لم تكن إلا لإرضاء السادة من الاستعمار واليهود.

وإن ركز القرضاوي على مشاهد العذاب الجماعي التي عاش تفاصيلها بنفسه وجربها وشاهد بعضها الآخر فآلمه المشهد، وذاب في المعاناة الجمعية المشتركة، فإن جمال فوزي يحملنا إلى جزء من مشهد ذاتي عايشة، نفسا نفسا، ينقل لنا بعضه في قالب نثري والبعض الآخر في قالب شعري، يقول في حادثة اعتقاله أول ديسمبر 1956 "...صاح صوت من خلال مكبر الصوت: أنت بالمخابرات العامة إما الاعتراف وإما الموت... وبالطبع تبينت حقيقة المكان ولكن عن أي شيء أعترف ؟ و لم يطل بي التفكير إذ دخل علي زبانية المخابرات العامة ليوقعوا بالجسد المشلول المزيد من العذاب... علقوني من ذراعي إلى الأعلى وربطوها في حبال...فصار جسدي معلقا ومتدليا ثم ربطوا قدمي في اتجاهين مختلفين ثم بدأت عملية الفسخ ...بشعة ... رهيبة... قاسية ...وترددت على شمس بدران لأذوق العذاب ألوانا حتى كانت ليلة أصر فيها (بدران) على أن ينتزع مني أقوالا... أتهم فيها الأبرياء وعلقوني على القلعة، وهمّ شمس بدران أن يضربني في موضع قاتل فتكورت فأمسكني ومزقتني الآلام، فقد فقدت الخصية الشمال ، وربطت كما ربط غيري في السقف مرات ومرات،

[1] - يوسف القرضاوي – نفحات ولفحات - 61.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي الفلقة وعلى العروسة، حتى فقدت عيني اليسرى أيضا وانزلق غضروفي..."[1].

وفي الحادثة الأخيرة **"فقد البصر"** يقول واعظا ظالميه ومذكرا إياهم بعين الله التي لا تنام وأنهم مهما ذهبوا ببصره فهو يراهم بعين البصيرة، ويضرب لهم مثلا من القرآن الكريم بأنه { **لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور** }[2]، يقول :

فقدت اليوم أبصاري وعين الله لم تنم
بنور الله أبصركم فما جزعي من الظلم
فما بالعين إبصار وبين قلوبنا النظر
ألم تسمع من القرآن أن العين لا تعمى
وبين صدورنا قلب يكون إذا عمى أعمى[3].

وإلى جانب هذه **العاهات المستديمة** التي يصنعها زبانية العذاب، فإنّ ظروفه القاسية تخلف **أمراضا مستديمة** هي الأخرى، وقد أشار سميح القاسم إلى واحد منها هو **داء المفاصل** في قصيدته "ما تيسر من سورة السلاسل"[4]، وإلى جانب السياط الملتهبة التي اشترك جل السجناء في الإشارة إليها ، يضيف مفدي زكريا مشهدا آخر حدثنا عنه بعض الشعراء وهو مشهد فعل النار في جسد السجين ، فقد أخرجه إخراجا جديدا عندما شبه القائمين عليه "بخزنة جهنم" فسّماهم **"خزنة النار"** ويضيف إلى مشهد زنازين الجليد المصرية آلية أخرى شبيهة اخترعتها عقول المستعمر الفرنسي هي **أحواض العذاب** التي يلقى فيها السجين إلى القعر أحيانا حتى يكاد يختنق تحت الماء ، ويسقى منها حتى يكاد ينشرق:

...أم السياط بها الجلاد يلهبني أم خازن النار يكويني فاصطفق
والحوض حوض، وإن شتى منابعه ألقى إلى القعر أم أسقى فانشرق[5].

ويعرض المجاهد عيسى حمو النوري فنا آخر من فنون عذاب المدرسة الفرنسية الاستعمارية بعدما وقع في أيديهم إثر معركة "شعبة النيشان"[6]، فن غير الذي رأيناه من ذاك المخصص لسجناء الرأي والنضال السياسي، إننا أمام مجاهد ألقي عليه القبض بعد معركة سقط فيها الكثير من الضحايا، يحتاج إلى آليات استنطاق أخرى ليكشف عن شبكات المجاهدين وأسرار التنظيم، كاللجوء إلى **الصعقات الكهربائية القاتلة**

---

[1] - عبد الباسط سعيد مطفى عطايا - الشاعر الإسلامي جمال فوزي - 95 - 96.
[2] - سورة الحج – الآية 46.
[3] - جمال فوزي - الصبر والثبات - 115. ويقول موضحا : أبيت التأييد فأفقدوني البصر خلال محنة 1965.
[4] - سميح القاسم - الديوان - 579/1.
[5] - مفدي زكريا - اللهب المقدس - 20.
[6] - بغرداية في جوان 1960.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والضرب المبرح والقيود والأغلال، ولكن مشهدا من هذه لم يؤلمه كما آلمه ذلك الامتهان البشع لكرامة الإنسان عندما **سكبوا "البول"** على **عينيه** يقول :

ونهش الوحوش الضاريات لأعظمي وضربي ضربا لا يكال بمكيال
وأخذ عنيف من تيار مكهرب يسلط تسليطا على جسمي البالي
...ثلاثون يوما مرت في مناقشتي على حساب كيوم الحشر من غير إمهال
فما جزعت نفسي بشيء أسامه سوى جزعي من غسل عيني بأبوال[1].

ويذهب عبد الحليم خفاجي وهو يعدد بعض صور العذاب إلى أبعد من غسل الوجه أو العين كما يقول المجاهد عيسى حمو النوري بأبوال، فيطعلنا على مشهد دام أليم يضطر فيه السجين تحت وطأة الظمأ القاتل إلى **شرب بوله**، ويكرر بعض صور نونية القرضاوي كنفخ السجين حتى يغدو كالكرة الكبيرة أو رميه للكلاب الجائعة تنهش لحمه، أو **ترك الجريح تترف جراحه** وتتعفن كأنه جثة ميت، أو **وضعه في ثلاجة** يعوي من تجمد جسمه، أو يلبس **الطوق العجيب الموصول بالكهرباء** حتى يسري تيارها في كل جسده أو **تزهق روحه ويعلن عن فراره من السجن أو انتحاره.**

كما **تتعرض السجينات** إلى **انتهاك الحرمات** وضروب أخرى من الأذى لم يستطع الشاعر ذكرها ، ويعبث السجانون بجسد الفتيان الصغار لا يرحمون سنهم ولا يرقون لصراخهم، يقول:

وبكل من بات الليالي ظامئا حتى تجرع بوله في كفه
وبكل من نفخوه حتى إنّه قد كان "كالبالون" في حركاته
وبكل من نهشته أنياب الكلا ب ومزقت من لحمه
وبكل من تركوه يترف جرحه وكأنه ميت يفوح بقبره
وبكل من وضعوه في ثلاجة جعلته يعوي من تجمد جسمه
أو ألبسوه الطوق في وحشية والكهرباء تسير في أطرافه
وبكل روح طاهر قد أزهقوا وتظاهروا في شعبنا بهروبه
وبكل سيدة أهانوا ضعفها وتحملت ما لا أبوح بذكره
وبكل طفل باسم حلو الثنا لم يرحمو هذا الضنى لصراخه[2].

أما دخيل خليفة فيضعنا أمام مشهد آخر أبشع من مشاهد **إذلال السجين** وامتهان إنسانيته، يؤمر وهو مسلوب الإرادة أوامر عجيبة تلبي أمراض السجان فلا يجد في جحيم الخوف غير الاستجابة لأوامره

[1] - يحي الشيخ صصالح - شعر السجون والمنافي في الجزائر - 135 - 136.
[2] - عبد الحليم خفاجي – عندما غابت الشمس – 490- 492 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في هذا الزمن الذي يحكمه قانون الغاب، ويترك لنا فضاء من الفراغ نتخيل فيه أوامر أخـــرى لا يعلمهـــا إلا الشاعر:

وأنا هنا / بين جدران من الفولاذ / مسلوب الإرادة / ..... / صوتي تعالى / وأنا أقبـــل في جحيم الخوف / أذيال الكلاب / الحرّ يرفض أن يقبل أنف أحذية الكسالى / لكنه زمن الكلاب / والليل يحكمه هنا / قانون غاب[1].

كما يضعنا توفيق زياد أمام مشهد من مشاهد العذاب التي يتحول فيها جسد السجان بكل ما فيه إلى آليات عذاب أخرى، بنعله التي تدوس على الصدور والرؤوس، بكفه التي تخنق الأنفاس، بل ويتخيله أفعى بناب أصفر معقوف تنفث سمومها في طعامه وشرابه ويرى رأسه مجرد قالب متحجر قاس، خال من كـــل صفات البشر :

وهذي النعل...كم داست / على صدري ... على رأسي / وهذي الكف...كم كانت / تسد علي أنفاسي / وهذا الناب... هذا الأصفر المعوج كالفاس / ألم ينفث سموم الموت في صحني وفي كأسي / وهـــذا الرأس... هذا القالب المتحجر القاسي[2].

وكما سرد مظفر النواب تفاصيل رحلة ضياعه في الصحراء ووقوعه خطأ في أيدي السافاك الإيـــراني مازجا بين الواقع والرمز ، يحدثنا عما تعرض له من عذاب على أيديهم يكفي أن نعرف بشاعته من عبارتـــه "**وزاغ الجرح**" التي نفهم من ورائها غياب الشاعر عن الوعي، ونرى خلف بعض رموزها تدفق دمائه:

وجاء التعذيب/ وزاغ الجرح/...آلمني الجرح/مددت بساقي/ خرجت قدمي كالرعب من الحلم/ وكان لإبهامي عين حمراء[3].

يتناوب عليه **عشرة جلادين** بالسوط والأحذية الضخمة حتى **يغيب عن الوعي** وتغيم عينـــاه مـــن التعذيب ويتشقق لحمه تحت السياط، ولكنه يظل مع ذلك صامدا وفيا لحزبه لا يعترف، بل ينهض ويرد على الجلاد بما تستطيع قواه الخائرة "بصقت عليه"، فيدق رأسه ثانية في الأرض ويأتونه بآلة لم يذكرها غيره مـــن شعراء الحبسيات، **كرسي حفرت هوة رعب فيه** ، ويمزقون ثيابه ويهددونه بالعبور عليه كما مرّ بضع رفاق إن لم يعترف، ثم يسكت الشاعر ولا يحدثنا إلاّ عن عرقه والألم الذي اكتسح جسمه وتعداه إلى الكون من حوله، فقد كانت مساحة الجسم أصغر من أن تتحمله، أحس بالوجع يمتد إلى الحائط والغابـــات، إلى الأنهـــار إلى البشرية حتى الإنسان الأول، ولكنه لم يعترف، فالشعب أمانة في عنق ثوري مثله، أمهلوه لليلة، فامتد صموده

---

[1] - دخيل خليفة - ديوان عيون على بوابة المنفى - 36.

[2] - توفيق زياد - الديوان - 44 - 45.

[3] - مظفر النواب - الأعمال الشعرية الكاملة - 491 - 492.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلى اليوم التاسع ، ولما كفوا عن تعذيبه ، ونزعوا القيد جاءت معه قطع اللحم ، وكان الشرط أن يتعهد ألا يتسلل ثانية إلى الأهواز التي يشتم فيها عبق العروبة بنخيلها ومياهها وفلاحيها وأهلها:

تناوبني بالسوط وبالأحذية الضخمة / عشرة جلادين / ...غامت عيناي من التعذيب / تشقق لحمي تحت السوط / ...وجيء بكرسي حفرت هوة رعب فيه / ومزقت الأثواب علي / ابتسم الجلاد كأن عناكب قد هربت / أمسكني من كتفي وقال / على هذا الكرسي خصينا بضع رفاق / فاعترف الآن / ...اعترف الآن اعترف الآن / عرقت / وأحسست بأوجاع في كل مكان من جسدي / ...وأحسست بأوجاع في الحائط / أوجاع في الغابات / وفي الأنهار / وفي الإنسان الأول / ...في اليوم التاسع كفوا عن تعذيبي / نزعوا القيد / فجاء اللحم مع القيد... [1].

وإلى جانب **كرسي الإخصاء** هذا، يذكر مظفر النواب أجهزة أخرى تجعلنا نتخيل السجين في إحدى **غرف العمليات متمددا على طاولة التشريح** والمباضع والمخالب وآلات أخرى تلعب في الجسد اليقظ على غير عادة الأطباء الذين يخدرون المريض حتى لا تفجعه رؤية تلك الآلات، يقول مقدمًا لقصيدته "عروس السفائن" :

"لم يبق شيء لم يطبق على مضغة قلبي، كم هي مخيفة هذه القاذورات ! ... يقظ لحمي على طاولة التشريح مدهوش من كثرة المباضع والمخالب والأضواء القذرة والوجوه الغريبة. أية غرفة عمليات لا إنسانية هذه[2]..."

كما يسمى أحيانا أخرى غرفة العمليات التعذيبية **مسلخا**[3]، ويشاركه فيها فايز أبو شمالة الذي أشار في الهامش أنها تسمية أطلقها السجناء على غرف التعذيب، ويحدثنا عن أحد الرفاق الذي جاءت طفلتاه لزيارته وكان في المسلخ يؤدي واجب الوطن هناك ، وطقوس الصمود التي قد يعود منها وقد لا يعود ، فقد أخبرتنا المحامية اليهودية "فيلسيا لانجر" في كتابها "بأم عيني" عن أولئك الذين دخلوا غرف التحقيق أو المسالخ، و لم يعودوا وأخبر ذووهم كما أخبرت هي بأنهم انتحروا، يقول الشاعر مجيبا الطفلتين وقد امتد إليهما الخوف والعذاب :

وراء السلك أنت الآن وشوشة / سؤال حرّك الشفتين : أين أبي؟ / أريد أبي! ! / وأين أبي بكاء هيج الذكرى / ...إلى التحقيق / هناك أبوك في المسلخ / يقيم طقوس ثورتنا إلى الأوطان / هل نرضخ؟ / ...أبوك الآن في المسلخ / يعود إليك أو قد لا يعود ، والمسعى فداء[4].

---

[1] - المصدر السابق - 497 - 502.

[2] - باقر ياسين - مظفر النواب حياته وشعره - 288.

[3] - المصدرنفسه - 180 - 515.

[4] - فايز أبو شمالة - سيضمنا أفق السناء - 41 - 43.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكلما ارتفعت وتيرة العذاب، وتفنن الزبانية في إخراج مشاهد جديدة غير مألوفة، ارتفع خيال الشعراء في رصدها والتقاط أحداثها والبحث لها عن معادلات موضوعية توازي بشاعتها، إلى أن يبلغوا المشهد الأخير ودرجة العذاب الخاتمة ألا وهي **الصلب**[1]، أو **ارتقاء الجلجلة** إذ لم يعودوا يتصورون وهم يتراوحون بين الصحو والغياب، وجود عذاب آخر بعدها. ومهما قلب الشعراء فلن يجدوا أقوى تعبيرا من صورة المسيح مصلوبا عن بشاعه ما لا قوة على أيدي زبانية العذاب. من الشعراء الذين استعاروا ذلك المشهد المؤثر بدر شاكر السياب في قصيدته "المسيح بعد الصلب" ، يقول وقد غمرت الفرحة كيانه بعدما تأكد أن كل ذلك العذاب لم يمته، فها هو يسمع بعد مغادرة الطغاة حفيف الحياة ويسمع حتى عويل المدينة تحت وطأتهم، ولكنه يلمح أيضا خيط النور القادم :

بعدما أنزلوني، سمعت الرياح / في نواح طويل تسف النخيل / والخطى وهي تنأى، إذن فالجراح / والصليب الذي سمروني عليه طوال الأصيل / لم تمتني ، وأنصت : كان العويل... [2].

وتصبح الصورة أشد إيلاما ، عندما يلجأ الطغاة بعد يأسهم، وفشل كل المحاولات في تدجين السجين أو اقتلاع اعتراف منه ولو كاذبا، إلى الحل الأخير **"التصفية الجسدية"** ويصدر لهم القضاة أحكاما جاهزة بالإعدام غالبا ما تنفذ ليلا، حيث يقضي السجناء ليلهم في ترقبها لمواساة المحكوم عليهم الذين قضوا أياما عصيبة في زنزانة فردية، يتمزقهم القلق والانتظار، يحدثنا مفدي زكريا في سياق نثري عن طرق انتقال نبأ هذه الأحكام إلى المساجين ورد فعلهم فيقول : "يذهب كل صباح عشرات من السجناء إلى المحكمة ليعودوا في المساء مثقلين بالأحكام، وسكان بربروس لا يشعرون بعودة الركب إلا عندما يسمعون صلصلة السلاسل، فتنطلق الحناجر بالزغاريد والأناشيد، على شرف الذين يعودون من المحكمة مصدرين بوسام الشهادة الكبرى، شهادة الموت في سبيل استقلال الجزائر، ثم تتجاوب الأنباء في جميع قاعات بربروس وزواياه : خمسة بالإعدام، عشرة بالأشغال الشاقة، ثمانية بعشرين سنة، والباقون بأحكام تافهة، وهي في اصطلاح المناضلين مادون العشرين سنة "[3].

ثم ينقلنا إلى مشهد حي من مشاهد آلة الدمار الاستعمارية وهي تحصد أرواح الأبرياء لا لشيء سوى أن طالبوا بحقهم في وطن مستقل كسائر الناس، وأي مشهد هو، إنها قصة أول شهيد يدشن المقصلة "أحمد زبانا" نظمها مفدي زكريا كما يقول "بسجن بربروس" في القاعة التاسعة في الهزيع الثاني من الليل أثناء تنفيذ حكم الإعدام على أول شهيد يدشن المقصلة "المرحوم أحمد زبانا" وذلك ليلة 18 جويلية 1955[4]،

---

[1] - انظر : على سبيل المثال ديوان مظفر النواب - 19. وحكم الثورة في الشعر الليبي الحديث - قصيدة علي الفزاني "صلبوني" - 32 - 33. وديوان معين بسيسو - 165.

[2] - بدر شاكر السياب - الديوان - 1/ 457.

[3] - يحي الشيخ صالح - أدب السجون والمنافي في الجزائر - 145 و مفدي زكريا شاعر النضال والثورة - 200.

[4] - مفدي زكريا - اللهب المقدس - 9.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفيها يرتفع بالشهيد إلى مصاف القديسين، ومدارج الأنبياء الأطهار، وفي مقابل ذلك يهزأ بكل آلات العذاب وأساليبه، ها هو زبانا في مخيلة الشاعر القابع في إحدى زنازين العذاب يتقدم إلى المقصلة في وقار كالمسيح، يرتل الأناشيد، باسم الثغر كالملاك، شامخا "رافع الرأس لأنه يتقدم نحو جنان الخلد، وتتراءى للشاعر سلاسل الحديد في قدمي الشهيد وهو ينصت إليها والرفاق المترقبون، خلاخلا تملأ بزغاريدها الفضاء، ويتسامى الشهيد كالروح "جبريل -ن- " في ليلة هي أشبه بليلة القدر، لأنها ستغمر الكون بأنوار الفداء، ويتقدم "زبانا " ويعرج ممتطيا مذبح البطولة إلى جنان الخلد ، راجيا المزيد ، وعلى لسانه يهزأ الشاعر من تلك المقصلة الجائرة والقيود الزائفة ، فما المقاصل والمشانق والسلاسل سوى قربان بسيط لبناء مجد الجزائر وهرم حريتها ، وليكن رأس زبانا أولى لبناته، فكل من في الجزائر أمسى زبانا وصار يتمنى أن يفوز بالشهادة مثله :

قام يختال كالمسيح وئيدا يتهادى نشوان يتلو النشيدا
باسم الثغر كالملاك أو كالطفل يستقبل الصباح الجديدا
شامخا أنفه جلالا وتيها رافعا رأسه يناجي الخلودا
رافلا في خلاخل زغردت تملأمن لحنها الفضاء البعيدا
حالما كالكليم كلمه المجد فشدّ الحبال يبغي الصعودا
وتسامى كالروح في ليلة القدرسلاما يشع في الكون عيدا
وامتطى مذبح البطولة معراجا ووافي السماء يرجو المزيدا
اشنقوني فلست أخشى حبالا واصلبوني فلست أخشى حديدا
و امتثل سافرا محيّاك جلادي ولا تلتثم فلست حقودا
أنا إن مت فالجزائر تحيا حرة مستقلة لن تبيد[1].

هذه إحدى صور العذاب التي أراد الشعراء إخراجها إلى النور وكشفوا بعضا من فنون آلتها وهي تنخرأجسادهم الحبيسة وتنحت بصماتها على صفحات نفوسهم المكلومة نحتا لا تمحي صوره ولا تندثر آثاره، وإن كنّا نظن أن هناك صفحات أخرى منها ظلت حبيسة الذاكرة تجاوزها الشعراء لانشغالات أخرى أعظم من معاناتهم الذاتية.

- صورة السجان والجلاد :

لم يغفل الشعراء تصوير صناع تلك المشاهد من حراس وجلادين، مثلما فعلوا مع الحكام من قبل، وإن جاءت **صورة السجان** عندهم أقل فظاعة لأنهم في نظرهم مجرد عبيد وخدّام ينفذون أوامر الأسياد حرفيا،

[1] - المصدر السابق - 9 - 10.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وربما زادوا عليها وبالغوا من باب إرضائهم والطمع في ترقياتهم، ولذلك نظر بعضهم إلى بعض هؤلاء الخدام المطيعين نظرة إشفاق وعدّوهم مساكين مثلهم تحكمهم قيود خفية، فهذا الصافي النجفي يحدثنا عن ألفته لهم وحسن معاملتهم حتى صار السجن عنده بمثابة الوطن، وصار ولاة السجن بمثابة الإخوان، وظلوا يجاملونه ويولونه من حسن المعاملة حتى صار يشعر كأنه سجّان يأتمر بأمره كل من في السجن، وتجتمع فيه جميع الشخصيات: السجين والسجان، الآمر والمأمور، ولله في تصريفه شؤون:

ومرّ عهد فصار السجن لي وطنا أرى به من ولاة السجن إخوانا
وجاء وقت فأولوني مقالده إذا السجين بأمري كان من كان
أنا سجين وسجان فتشهد بي عيسى وموسى وفرعونا وهامانا[1].

وينقل إحدى صور التآزر المثالية أين يصبح السجان أخا وخلا، يشفق على السجين ويبكي لآلامه:

و يوم كنت مسرورا بسجني أرى السجان فيه أخا وخلا
أتاني مشفقا فبكى لما بي فأبكاني فرحت أقول مهلا[2].

ويشفق سميح القاسم على السجان، حارسه القابع خلف الباب، فيسميه "الحارس المسكين" المبتلى هو الآخر بالسهر، ليس من البق والحر والألم ولكن لأنه موكل بحراسة هذا السجين الأرق، يقضي ليله جيئة وذهابا، مثله لم ينم، وكأنه محكوم عليه هو الآخر بالسهر والسجن بلا أسباب :

من شدة الحر من البق من الألم / يا أصدقائي.. لم أنم / والحارس المسكين، مازال وراء الباب / مازال.. في رتابة ينقل القدم / مثلي لم ينم / كأنه مثلي، محكوم عليه بلا أسباب.[3]

وكذلك يراه سليمان العيسى سجينا مثله ويذكره إكراما له بكنيته "أبو ياسين" ويعدد خلاله وحسن معاملته له فهو يوقظه في حذر وهمس من نومه، وذلك ما لم يفعله سجّان، يحنو على السجناء في رقة والد عائد من السفر، منشرح الوجه صافي القسمات، صامت هادئ، يحدثه أحيانا بإشارات وإيماءات تنبئ عن نبله وطيبته التي لها مفعول السحر في كل السجناء، يحتوي بأدبه ولطفه كل الذين جمعهم سجن النظارة بين مجرم آثم وسارق كسرة خبز من وطأة الجوع وسكارى، ويحدثه أحيانا أخرى بزفرة يحملها عميق فلسفته في الحياة من هذه التجربة الثقيلة التي يمر بها داخل السجن بين الأسرى والآسرين، ويكون أحيانا أخرى الوسيط بين الشاعر السجين والعالم الخارجي، إنه أسير مثله قدر عليه السهر مثل كل السجناء فكأنه صار قطعة منه لا تنفصل، وما هو إلا صورة من صور الشعب المطحون المهضوم الحقوق، ثم يوغل الشاعر في مناجاة ذاك المجهد، الكبير الظل، ويدعوه "أخا الظلمة" حينا و"أخ الوحشة" آخر و"كسير الظل" حينا ثالثا، ويسميه في قصيدة

[1] - أحمد الصافي النجفي – حصاد السجن - 52.
[2] - المصدر نفسه - 46.
[3] - سميح القاسم – الديوان - 96 - 97.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أخرى " أبا السطوات"[1]، ويرجوه أن يطفئ النور وينعم برقدة هانئة بعد سهر مضن طويل:

رقة تعرفـــــــها فـــي والـــــــــد شط عن أبنائه في سفـــــر
رُبّ إيمـــــاءة نبـــــــل صـــــادق أو رقت منها ضلوع الحجر
هو مثلـــي في إســـــار مرهـــــــق نتفة منه اتصـــال السهـــر
رب ليل غـــــص فيه ملكـــــــــــه "بالرعايا" من قديم وطري[2]
... يا كسير الظل.. لو تدري العلـــى أنها في جهدك المعتصـــــر
...يا أخا الوحشة.. ينهال الدجـــــى قطعا سودا بها في بصري!
يا أخا الظلـــــــــمة والصمت..أمـــا لأراجيع الهوى من خبـــر؟
.. يا أبا ياسين .. عفوا إن أكـــــن ضِعتُ في لجَّة حلم مسكر!
أطفئ المصبـــاح.. ولتنعم بـــــــها رقدة خضراء.. بعد السهر![3].

ويراه الشاعر عبد العزيز أحمد هلالي وإن أظهر ذلك الجانب المتعجرف القاسي "رقيق القلب بالفطرة" ولذلك يدعوه إلى سماع قصته بكل دقائقها مشاركته ومقاسمته آلامه بزيارة واحدة إلى بيته ليرى مرارة المحنة، فقد خلف هذا السجين وراءه أطفالا ينتظرون عودته ويتشوقون إلى مرآه ، وخلّف أمهم الباكيـــة الحـــزين ، وهناك أيضا أب وأم أقصى مناهما الفوز بنظرة إليه ويرجوه أن يأخذ العبرة من هذه القصة ولا يـــأمن غـــدر الدهر، إن له هو الآخر أبناء وأهلا، فليرحم لوعته ويدع المفتاح بعيدا عن بعض النسائم الحرة تتسلل إلى صدره ويدع القيد قليلا. وإذا به يلمح في عينيه بعض الرقة واللين فيؤكد له ما بدأ به وهو أنه إنسان وأن قلبه لـــيس جلمودا قد من الصخر :

تعال تعال يا سجان واسمع قصتي المره / لتمزج دمعنا إن سالت الأحداث بالحسره / تعال فأنت إنسان رقيق القلب بالفطره / فقلبك ليس من صخر، وإن خلناه كالصخره / تعال تعال يا سجان خذ من قصتي عبره / لقد كانت لنا كالناس يوما عيشة حره / و آمال جميلات تناغي النفس مخضره / و أحلام كنور الصـــبح في الإشراق والنضره / طواها السجن كالملحود عانق في الصبا قبره/ ... تعال تعال يا سجان واسمع قصتي المره / ... تعال تعال يا إنسان وارحم لوعتي مره/ دع المفتاح لا يغلق باب النسمة الحره / ...فما قلبك يا ســـجان جلمودا ولا صخره.[4]

ومثله يحاول سميح القاسم إيقاظ ضمائر سجانيه وسجاني وطنه الكبير الذين يلومونه ويطالبونه بالأخوة

---

[1] - سليمان العيسى - الأعمال الشعرية الكاملة - 1/ 250.

[2] - يشرح في الأبيات الموالية أصناف السجناء، فمنهم ذوو الجنح البسيطة، ومنهم المجرمون اضطرارا، ومنهم الجناة الآثمون، ومنهم السكارى الذين لا يغادرون السجن إلا ليعودوا إليه فكأنهم نشأوا فيه أوهم ساكنوه الدائمون.

[3] - سليمان العيسى – الأعمال الشعرية الكاملة - 1/207 - 211.

[4] - عبد العزيز أحمد هلالي – أنغام شاردة - 58 - 60.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لأنهم هم وائدوها، فهم الذين رموه في قلب سجن مظلم بلا بعض كوة ، وهم الذين حفـــرت قيـــودهم في معصميه الأحاديد، وهم الذين أبعدوه عنوة عن بيته وكرمه وحقله، وهم العاكفون على تعذيبه بما لا يطاق ، وهم الذين يشتمونه ويعلمون أبناءهم شتمه، ويمنعونه حتى من الأنين أو البكاء ، يخرسون من أبنائهم من يحاول إنصاف الشاعر وقومه ويتهمونه باللغو والطيش، فكيف يطالب معذب مثله بالتغني بالسلام والمحبة والإخاء :

أخوك أنا ! هل فككت القيود التي ... حفرت فـــوق زندي فجـــــــوه !
أخوك أنا ؟ ! من ترى زج بـــــي ... بقلب الظلام بلا بعض كـــــــوه ؟
أخوك أنا ؟ من تـــرى ذادنـــــي ... عن البيت والكرم والحقل...عنـــوه
تحملني من صنوف العـــــــذاب ... بمـــا لا أطيـــق وتغشاك زهـــــوه
وإن قام من بين أهلـــــــك واع ... يبرّئنـــي .. تزدريه بقســـــــــوة
فكيف أغني قصائد حـــــــــب ... وسلم...وللكره والحرب سطـــــوه؟
أيا لائمي ! أنت باللوم أحـــــرى ... إذا شئت أنت... تكون الأخـــوة!![1]

أما البياتي فيرثي لحال الطواغيت ويغفر لهم، ويحملهم مسؤولية كل الهزائم والنكبات، يعبر عن تسامحه في عبارتين موجزتين لم يزد عليهما شيئا لأنهم لا يستحقون حتى ذلك الغفران:

إني غفرت لهم ... إني رثيت لهم ![2]

وتتجاوز علاقة السجين بسجانه الشفقة والرحمة والأخوة لتصل إلى مشاركة السجان رفاقه الســـجناء همومهم الوطنية وتحمله ولو جزءا يسيرا من عبء هذه الرسالة النضالية الخالدة ولو بإيصال صوت السجين إلى رفاقه خارج الأسوار وتهريب رسائله وقصائده ، وكثيرا ما قام رسولا بين السجناء أنفسهم ، فقـــد أخبرنـــا مفدي زكريا عن موقف من مواقف التآزر والالتحام ، إذ يرسل مع أحد سدنة بربروس إلى السجناء الجدد من رفاق النضال رسالة ترحيب ويتلقى على يديه أيضا ردّ التحية[3].

كما لعبت أقلام الشعراء وتلاعبت بالعتاة القساة منهم وصورتهم في أبشع الصـــور، فهـــم لصـــوص الصلبان،والذئاب، وثعالب الموت، وعزرائيل صياد الأرواح، وهم يهوذا وفرعون، وهم الخنزير يغرز نابـــه في ضحاياه والحدأة والغراب ومختلف الحيات،و هم الأنذال التافهون الأغبياء، الخونة، وهم الزبانية الطغاة القساة، كلاب الأبواب والشياطين وغير ذلك من المسميات التي ضج بها شعر الحبسيات ، وربما هم كائنات أخرى لا يمكن نسبتها إلى بني البشر، لما لوثت به أياديها من جرائم !.

فهذا الصافي النجفي يحدثنا عن فرحته بالمستشفى الذي نقل إليه حتى شبهه بالجنة، ولكنها فرحة غـــير

---

[1] - سميح القاسم - الديوان - 81 - 83.
[2] - عبدالوهاب البياتي - الأعمال الشعرية - 127/1.
[3] - يحي الشيخ صالح - أدب السجون والمنافي في الجزائر - 126.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مكتملة لأن **حارسا بالباب** يكدر صفوها ويضايقه في الدخول والخروج :

نقلت من السجون إلى مصح كدار الخلد ذي مرأى بهيـــج
ولكن أوثقوا في الباب كلبـا يضايق في الدخول وفي الخروج[1].

وينعت في قطعة أخرى **خدام السجن** بالقسوة والغباء وموت القلب والطمع حتى ليكـادوا يـأكلون جيوبه ، فإذا اجتمع عليه هؤلاء والقبر العميق المسمى تجوزا سجنا خال نفسه كالمدفون في قـبر والحشـرات تنهش جسمه وتنفذ إليه من كل جانب :

وخدّام قساة أغبـــياء ضعاف العقل أموات القلـوب
أشاهد منهم الأطماع حولي تدور تكاد تأكل لي جيوبـي
كأني ساكن قبرا أغـذي به الحشرات من شتى الضروب
كأن عيونهم حشرات نهش طلعن علي من خلل الثقـوب[2].

أما البياتي فيسميهم **التافهين** الذين يشكلون حاجزا آخر منيعا في وجهه إلى جانب جدران السـجن، ويمارسون مهنة أخرى هي المساومة ومحاولة شراء الضمائر الحية والقلوب اليقظة :

مثلي ومثلك يحفرون قبورهم عبر الجدار/.... لا نستطيع.../ وإذا استطعنا ، فالجدار/ والتافهون/ يقفون بالمرصاد، كالسدّ المنيع/ لا نستطيع.../... والتافهون يساومون على رفـات/ نسـر صـغير/ سمـاه بائعـه "ضمير"...[3].

وفي قالب ساخر يرى الجواهري نفسه بأولئك الحراس من المحظوظين، فإذا كان لا بدّ أن يحسد علـى شيء فعلى الموكلين عند بابه بتتبع كل ما يصدر عنه في كل دقيقة وثانية، يقول :

إن كنت تحسد من يحوط البـاب منه حارسـان
فلديك حراس كـأنـك منهم في معمعـان
وموكلون بمـا تصـرّف في الدقائق والثواني[4].

ويسميهم شمس الدين الشناوي **"أقزامـا"**، ولا يقصد بذلك البسطاء منهم وإنما يريد قائدهم "رئـيس المحكمة العسكرية" "الدجوي"، فيتساءل كيف لقزم مثله ركع أمام اليهود في حرب 1956 وأخذ أسـيرا إلى إسرائيل أن يقيد عمالقة الوجود، يقول :

ووجدت في قفص الحديد جماعة مثل الأسود / سخرت من الجلاد وهو يسوق آيات الوعيد / قـزم

---

[1] - أحمد الصافي النجفي: حصاد السجن - 60.
[2] - المصدر نفسه - 65.
[3] - عبد الوهاب البياتي - الأعمال الشعرية الكاملة - 149/1 - 150.
[4] - محمد مهدي الجواهري - الديوان - 117/2.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يحاول أن يسيء إلى عمالقة الوجود / هيهات هل نسي القيود وأسره عند اليهود[1].

كما يسميهم توفيق زياد أيضا بالأقزام الذين يجتمع السجناء في أحشاء الظلمة ويتسامرون بحكايا صلفهم وطيشهم؛ ويشاكسونهم بالصخب المتحدى أوامر الصمت :

لما كنا في أحشاء الظلمة نسمر/ في الزنزانة... في "الدامون" الأغبر/ ونحدث عن صلف الأقزام/ عن شعب لم يحن الهامة للظلام.[2]

ويسمى بلند الحيدري أحد رفاق الطفولة والصبا[3] وقد صار **رقيبا** عليه يحصى أنفاسه وجلادا يقف في الصف الآخر مع العيون القائمة والأصابع الآثمة **"يهوذا"** ويذكره بروابط الماضي وأحلام الطفولة، ولكنه يتمادى في غيه ويبالغ في إذلاله مع الأصابع الآثمة ولا يخجل حتى من القيود تنهش يديه، فيبيعه اليوم مقيدا مثلما باعه بالأمس حرّا، وتغمره الفرحة في الأخير وهو السجين المقيد لأنّه وبكل بساطة لم يكن "يهوذا" :

وأشرت ...أنت / أأنا...؟ ! /-أجل / وبلا خجل / كانت تصر يداك؟...أنت / فكأننا لم نبن في أحلامنا بالأمس بيتا /...يا من وقفت مع العيون القاتمات / تشير...أنت / يا من وقفت مع الأصابع آثمات / تصر...أنت... أجل / وأنت / ...هلا ذكرت وقد رأيت القيد ينهش من يدي / لينير من أمسي / غدي / هلا خجلت / وقد وقفت مع العيون القائمات/ مع الأصابع آثمات/ تشير...أنت/وتصرّ...أنت أجل / وأنت / لتبيعني...حيا وميتا / .../ لكنني / -وافرحتاه- / ما كنت أنت /[4].

وخلف تهويمات الزمن وظلاله الشفافة حينا والمعماة حينا آخر يلبس معين بسيسو سجان وطنه وجلاد شعبه ومن في فلكهما تسميات عديدة، فهو **لص الصلبان والحصاد الأفاق** ولصّ الحقول والثعبان والحدأة، ويحذر شعبه من غدر كل هذه الكائنات التي لا أمان معها :

...وحذار حذار / من حصّاد أفاق / من لص الحقل / حماه، بسياج جراد../ أحبابي : / لا يبني الطائر عشا في جحر الثعبان.../ الطائر لا يدفأ / تحت جناح الحدأة ، أحبابي[5].

ويصبح الجلاد عند مظفر النواب **ذئبا** شرسا "ذئب شاهنشاهي"أي ملكي تستهويه رائحة الدماء يعذب ضحيته حتى إذا تفجرت منها أنهار الدماء راح يشمها، ربما ليجهز عليها :

---

[1] - محمد محمود الغرباوي - الشعر في سجون مصر - 650.

[2] - توفيق زياد - الديوان - 115.

[3] - ربما هو أخوه أو أقرب أصدقائه ، كما توحي بذلك بعض مقاطع القصيدة "بيت عرفتك فيه... أنت... ليظل ذاك البيت في أحلامنا..."، فقد استطاعت بعض الأنظمة أن تفرق بين الأخ وأخيه وتجعل من أحدهما رقيبا على الآخر.

[4] - بلند الحيدري - الديوان - 390 - 394.

[5] - معين بسيسو - الأعمال الشعرية الكاملة - 167.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خرجت قدمي كالرعب من الحلم / وكان لإبهامي عين حمراء /... وشم الذئب الشاهنشاهي دمي/ شم الذئب دمي/شم دمي/ سال لعاب الذئب على قدمي...[1].

أما جلاد السياب **فختزير** حاد الأنياب، إذا غرزها في يده امتد لظاها إلى أعماق جسده وخلفت وراءها أنهارا من الدماء :

ناب الخنزير يشق يدي / ويغوص لظاه إلى كبدي ، / ودمي يتدفق ، ينساب : / لم يغد شقائق أو قمحا / لكن ملحا[2].

ويسميه في قصيدة أخرى **"ثعلب الموت"** و**"الصياد"** الذي يرمي بسهامه الطائشة في كل اتجاه ويبعث **الرعب** في قلوب الناس فترتعد وتختض ارتياعا من ذلك الظل المخيف وهو يدنو منها ويدنو، هو "ثعلب الموت" "فارس الموت"، ثم يرتفع به درجات أخرى، إن كائنا يشحذ كل آلات العذاب تلك ، ويحمل وهو يتقدم من ضحاياه مهيئا أنيابه الجائعة كلَّ ذلك الرعب ، لا يمكن أن يكون بشرا ولا يمكن أن يجد له الشاعر معادله الموضوعي حتى في عائلة الوحوش الحقيقية والأسطورية ، ولذلك لجأ إلى الموروث الديني فلم يجد أقوى من صورة قابض الأرواح عزرائيل الذي لا ينجو منه أحد ، بل تجاوزه، فها هو يراه ملطخ الأنف بدماء ضحاياه، لا يفرق بين قوي وضعيف، ولا كبير وصغير، إنه مارد يستبيح دماء الجميع ولا نجاة منه ولا مهرب فأسوار بغداد كلها موصدة ولا صوت يسمع فيها إلا رجفة الضحايا ، فالاغتيال السريع الذي يخنقها غير مكتملة:

كم يمض الفؤاد أن يصبح الإنسان صيدا لرمية الصياد؟/... قابعا في ارتعادة الخوف، يختضّ ارتياعا، لأن ظلا مخيفا/ يرتمي ثم يرتمي في اتئاد/ ثعلب الموت، فارس الموت، عزرائيل يدنو ويشحذ/ النصل، آه/ منه آه، يصك أستانه الجوعي ويرنو مهددا، يا إلهي/ واعذاباه، إذ ترى أعين الأطفال هذا المهدد المستبيحا/ صابغا بالدماء كفّيه في عينيه نار وبين فكيه نار / سور بغداد موصد الباب ، لا منجى لديه ولا خلاص ينال/ هكذا نحن ، حينما يقبل الصياد عزريل رجفة فاغتيال[3].

ويصنع مظفر النواب من كبير الجلادين مخلوقا عجيبا يكاد يخرج من دائرة البشر لغلظة منظره وبشاعته فله عينان كبيتي نمل أبيض وفي منخاريه شعر بارز هو "شعر خنازير" ويخرج من شفتيه مخاط من الكلمات وهو يسأل فريسته ويحقق معها :

من أنت : / وكان كبير الجلادين له عينان/ كبيتي نمل أبيض مطفأتين/ وشعر خنازير ينبت من

---

[1] - مظفر النواب - الأعمال الشعرية الكاملة - 492.

[2] - بدر شاكر السياب - الديوان - 1/ 410.

[3] - المصدرنفسه - 447 - 448.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

منخاريه / وفي شفتيه مخاط من كلمات / كان يقطرها في أذني/ ويسألني من أنت /[1].

كما يسميهم محمد جميل شلش حينا **الذئاب** وآخر **ضباع الموت**، ويسميهم مرة ثالثة **الأذناب والكلاب**، ويسمى فنون عذابهم التي ظل يصارعها ليحمي أفكاره ومعتقداته ويصمد في وجهها بالإ**رهاب:**

وكنت في ليل عذابي.../ كنت مع الذئاب،/ كنت أذود النوم، عن عينيك يا عقيدتي.../ كنت بلا أصحاب ،/ أصارع الإرهاب ،/ أصرخ من أعماق أعماقي../ أغني: يا ضباع الموت../ يا أذناب[2].

ويسمى توفيق زياد جلاده **"بالذئب ، العاهر، النذل"**[3]، وأما فالقرضاوي فيشك في إمكانية انتساب أولئك الزبانية المعدّين للتعذيب إلى فصيلة الآدميين فيستعير لهم التسمية القرآنية لخزنة النار والقائمين عليها، فيسميهم **"الزبانية"** ويشاركه فيها كثير من أصحاب الحبسيات، ويصفهم كما وصفهم من قبل النجفي بالبلادة والغباء، فكأن عقولهم ركبت بأكفّهم، لا فرق بينهم وبين السياط التي يحملونها ، فهم أيضا مجرد سياط في يد أسيادهم ومجرد خدام يوجهونهم أنّى شاءوا ، عتاة لا يقدرون أهل العلم والدين بل لنقل إن أعدى أعدائهم هم هؤلاء العلماء لأنهم وحدهم الذين وقفوا على مخازيهم وكشفوا عيوبهم، قساة لا تأخذهم شفقة أو رحمة بشيخ واهن أو مريض عاجز، بل إنهم يبالغون في إذلال هؤلاء وإهانتهم، ويكتفي في ذلك بذكر صورة عجيبة حيث يطلب هؤلاء الغلاظ الجفاة من شيخ طاعن في السن وبكل وقاحة نتف شعر لحيته فإن أعجزته الآلام لاقى على أيديهم من ويلات الأذى :

فيه زبانية أعدّوا للأذى ... وتخصصوا في فنه الملعون
متبلدون... عقولهم بأكفهم ... وأكفّهم للشر ذات حنين
لا فرق بينهم وبين سياطهم ... كل أداة في يدي مأفون !
لا يقدرون مفكرا ولو أنه ... في عقل سقراط وأفلاطون
لا يعبأون بصالح ولو أنه ... في زهد عيسى أو تقى هارون
لا يرحمون الشيخ وهو محطم ... والظهر منه تراه كالعرجون
لا يشفقون على المريض وطالما ... زادو أذاه بقسوة وجنون
...وكبيرقوم زينته لحية ... أغرقهم بالسبّ والتعليين
قالوا له: انتفها بكل وقاحة ... لم يعبأوا بسنينه الستين
فإذا تقاعس أو أبى ياويله ... مما يلاقي من أذى وفتون[4].

---

[1] - مظفر النواب - الأعمال الشعرية الكاملة - 497 - 498.
[2] - محمد جميل شلش - الحب والحرية - 140 - 141.
[3] - توفيق زياد - الديوان - 43.
[4] - يوسف القرضاوي - نفحات ولفحات - 56 - 57.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويتساءل إن كان هؤلاء ينتمون لآدم، ولكنه يتره الآدمية عنهم **ويتزل بهم** إلى **دركات الشياطين** ويجزم أنهم متحدرون من الشيطان الرجيم ، فليس لهم من الآدمية غير تلك الأسماء التي يحملونها وهم بعيدون عن معناها ، من أمثال محمود وياسين ، وجودة ومصطفى وحمادة وعطية وأمين[1]، ولادين لهم غير سبّ الدين، ويكفي أن سيدهم الذي ألغى كل قوانين السجن وصار عندهم هو القانون نفسه "حمزة البسيوني" قال للمساجين من جماعة الإخوان المسلمين يوما "هاتوا لي ربكم وأنا أحطه في زنزانة!"[2]، ويقول رفيقه "شمس بدران " لزينب الغزالي والدم يترف من قدمها والألم يتصاعد وهي تسألهم أن يدعوها تجلس على الأرض : "لا لا.. أين ربك... أدعيه لينقذك من يدي"[3]، ويختم القرضاوي المشهد بصفاتهم التي لا تختلف عن ملامح المجرمين والقتلة من ذوي السوابق في سفك الدماء:

أترى أولئك ينتمـــــــــون لآدم؟ أم هم ملاعين بنو ملعـــون؟ !
تا الله أين الآدمية منهمـــــــو؟ من مثل محمود، ومن ياسين؟ !
لا تحسبوهم مسلمين من اسمهم لا دين فيهم غير سبّ الدين !
من ظن قانونا هناك فإنّـــــــما قانوننا هو "حمزة البسيونـــي"
جلاّد ثورتهم وسوط عذابـــــهم سموه زورا قائدا لسجـــــون !
وجه عبوس قمطريـــر حاقـــــد مستكبر القسمات والعرنيـــن
متعطش للسوء في الدم والـــــغ في الشرّ منقوع، به معجـــون[4].

ويشبههم مفدي زكريا **بعفاريت الجن** الذين سخروا لخدمة النبي سليمان -ﷺ-. ويسميهم سميح القاسم **"طغمة المسخ الجبان"** ويشبه السجان وهو يدخل عليهم مسرعا لاهثا غرفتهم السوداء لو لا بصيص نور وهم يدووها بالنشيد بالذئب الطريد ، يذوب صوته في جلجلة أناشيدهم ، ثم يسميه بألصق أعماله به وأخطرها **"حامل المفتاح"**، إذ لا شيء يقلق راحة السجين مثلما تقلقه تلك المفاتيح التي تعزله عن العالم الآخر وتحجب عنه حتى بصيص النور وأنفاس الهواء :

يا طغمة المسخ الجبان / يضجّ – موتور الوعيد /...يأتي إلينا يلهث السجان / كالـــذئب الطريـــد / ويصيح : "ما هذا...؟" / فيغرق صوته موج النشيد[5].

---

[1] - هذه أسماء حقيقية لبعض زبانية السجون الحربية التي عرفها القرضاوي - من 1954 إلى 1956.
[2] - يوسف القرضاوي - نفحات ولفحات - هامش 57.
[3] - زينب الغزالي - أيام من حياتي - دار الشرق - 90.
[4] - يوسف القرضاوي - نفحات ولفحات - 57.
[5] - سميح القاسم - الديوان - 105.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- تحدي الشاعر للسجن والسجان وطقوس السجن :

على الرغم مما وقف عليه شعراء السجون من عذاب وذاقوه من آلام السجن ماديا ومعنويا فإن صوت الشكوى كان صوتا خافتا ضعيفا ، وإن رفع بعض الشعراء **صوت الشكوى** من السجن وحدثونا عن بعض آلامهم أو عجزهم ، فإنها تظل **نغمة خافتة** أمام أطواد الصمود وطوفان الصبر وأسطورية التحدي ، من أولئك الذين لم يستطيعوا مواصلة مسيرة النضال وتحمل تبعاته ولو بالصبر الشاعر أحمد محمد الشامي الذي بدا حزينا باكيا مستكينا، وانتهى به الأمر إلى الخنوع الذليل للسلطان واستعطافه –كما مرّ بنا- والتنكر للثورة وصناعها بل والتهجم عليهم في قصائد كثيرة ، من لحظات ضعفه نقتطف قوله في هذه البكائية الرومانسية الحزينة:

نفس يردده السجين، / من قلبه المضنى الحزين/ في غمرة الظلمات/ يلفظ لوعة الألم الدفين / ويشيع الماضي الكئيب / بذائب الدمع السخين / ويراه كالشبح المحطم / بين أوحال السنين .[1]

كما يشكو الصافي النجفي من طول مكثه والذي لم يتجاوز الأربعين يوما حتى شبه نفسه بأسّ بناء السجن الذي لا يمكن الاستغناء عنه[2]، وهي مدة قصيرة أمام جلّ شعراء الحبسيات الذين طال حبسهم وتكررت حالاته عند بعضهم فلا يكادوا ينعمون بالحرية حتى يعودوا إليه، ويكاد يتحوّل ديوانه "حصاد السجن" إلى أنين متواصل وشكاوى قدمها في قالب فكاهي غالبا ، حتى تشبه برهين المحبسين أبي العلاء المعري ، حبس الضنى وحبس الفقر ، ويتعجب كيف لسجين هذين الحبسين أن يضاف له السجن :

رهين المحبسين ضنى وفقر وأحبس: جلّ ذلك من نصيب[3].

فيصبح بذلك رهين ثلاثة محابس "كحال البردوني" الذي راح يتحسس طريقه مع القيد والعمى لا يلوح له في الأفق غير الظلام والأشواك ، والدرب المسدود المثخن بالجراح ، ويسمي تجربته تلك برحلة التيه ويشكو آلامها حينا، يقول :

هدّني السجن وأدمى القيد ساقي فتعاييت بجرحي ووثاقي
وأضعت الخطو في شوك الدجى والعمى والقيد والجرح رفاقي
ومللت الجرح حتى..... ملني جرحي الدامي ومكثي وانطلاقي
وتلاشيت فلم يبق سوى ذكريات الدمع في وهم المآقي[4].

---

[1] - أحمد محمد الشامي - حصاد العمر - 83.
[2] - أحمد الصافي النجفي - حصاد اسجن - 53.
[3] - المصدرنفسه - 71.
[4] - البردوني - الديوان - 557/1 - 558.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولكنه سرعان ما يفيق ويعلن أنه على استعداد لتحمل كل شيء في سبيل فجر الشعب وخلاصه[1].

ويشكو أحمد سحنون في إحدى قصائده من وطأة الشتاء في سجن "بوسوي"، حيث يواجه السجناء برده وجيوش ثلوجه التي أعجزت حتى التتر والإسكندر، لا يجد من خلاص إلا التوجه إلى الله بالدعاء في مواطن عديدة ليرحمه ويمّن عليه وعلى وطنه بنسائم الحرية[2].

أما معين بسيسو وشكواه فليس من الحبس والقيد لذاتهما ، ولكن لأنهما منعاه من الانطلاق في سوح النضال ومشاركة الرفاق ، ولذلك تتكرر لعناته للجدار والقيد ، فكلما طار إليه خبر عن مآسي شعبه المضطهد ، وكلما صفّر قطار الليل المحمّل بالمشردين في أصقاع العالم لعن عجزه[3]، وكلما دوّى صوت مقاتل عنيد ورنت في جدرانه أصوات المدينة العنيدة النضال لعن الجدار الظالم الذي ترفرف بين أحضانه الشجاعة المكسورة الجناح فيمنعها من التحليق بعيدا :

صوت المقاتل العنيد ما يزال / صوت المدينة العنيدة النضال / يرنّ في الأنقاض والدخان / يرنّ في جدارنا هنا فنلعن الجدار / هنا ترفرف الشجاعة المكسورة الجناح / هنا يد بلا سلاح / هنا دم بلا جراحْ...[4]

ويرسل زفرات الألم والحسرة على مدينته السجينة الباحثة عمن يكسر سلاسلها ويفك أسرها ويعلن عن ألم الشاعر الأسير وعذابه إذ لا يستطيع أن يقدم لها في عزّ حاجتها إلى النضال غير قصائده المقاتلة ، وذلك أقصى ما يمكن أن يقدمه راسف في السلاسل:

مدينتي ! واحسرة القيتارة الخرساء / للغناء والبلابل / تشدو إلى الأبطال، واعذاب شاعر / في السلاسل / وأنت في السلاسل / و لم تكن تناضل / غير الحروف من شريانه جرت قصائد[5].

وتظل صورة الطائر الكسير الجناح ماثلة أمامه يستحضرها كلما ضاق بقيوده المانعة وتذكر انطلاقته الأولى عندما بدأ شاعرا محاربا ولكنه انتهى طائرا كسير الجناح لا يملك سلاحا سوى سهام الحروف يغمدها في أعين الأعداء :

الشاعر الذي مضى محاربا / وعاد يسحب الجناح / الشاعر الذي رمى على المقابر السلاح / ...ويمضغ الأوراق/ ويغمد الحروف في الأحداق[6].

كما يشكو فيلسوف الصعاليك عبد الحميد الديب من وطأة السجن ولا ذنب له، بينما ينعم ذوو

---

[1] - المصدرالسابق - 558.

[2] - أحمد سحنون – الديوان - 160، 161، 168.

[3] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 86 - 87.

[4] - المصدرنفسه – 99.

[5] - المصدرنفسه – 107.

[6] - المصدر نفسه – 195.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الزلات بالحرية، ويعجز حتى عن الدعاء لنفسه بالفرج ويقع أسير همومه ويأسه وقنوطه :

ولج السجن بريء طاهـــــر و أخو زلاته لم يلـــــج
أنا من قالوا خليع مـــــرح و طوال العمر لم أبتهـــج
رب لا نشكو، فكم من محن لم نجد في كربها من فرج
قد رجونا كشفها فاعتكرت من يرح في هجرة الهم يج[1].

ويبدو من خلال تتبعنا للحبسيات أن لغة الشكوى من ظروف السجن وسطوات السجان وحالات اليأس والقنوط قليلة إذا ما قورنت بحالات الأمل والتفاؤل والتصدي ، فقد واجه جل الشعراء هذه الطغمة من خدام السلاطين **بالصمود والتحدي** ، فكلما تمادى السجان في بطشه وطغيانه تمادى الســـجين في صـــموده وتحديه وتمسكه وإصراره على مواقفه، وذلك أمر ليس بالغريب فالتاريخ الإنساني قديما وحديثا يضج بنماذج من القمع الوحشي وأخرى من الصمود البطولي في وجه هذا القمع والتعذيب والتحقيق الفاشـــي ، قـــدمت حياتها لقضية الحرية[2].

فقد رسم شعراء الحبسيات فصولا مشرقة في النضال الصامت بين السجين وجلاده في غيابات الجب ، جلاد يملك كل آلات العذاب ويملك القانون الذي يستصدر من أحكامه ما شاء لممارسة المزيد مـــن القمـــع وسجين لا يملك إلا جسده وبيانه يتحمل الأذى ويصبر، ويتصبر، ويدعو رفاقه إلى الصبر ويقـــف في وجـــه جلاده شامخا متحديا ولو بابتلاع الألم والصمت كأدنى رد فعل أو عقاب.

من الشعراء الذين اختاروا **لغة الصمت** في الرد على سجانيهم الشاعر محمود درويش ليقول له أشياء كثيرة عن الوطن، وهل هناك أوجع من الصمت جوابا لكل ذي صلف وطيش :

حاور السجان صمتي / قال صمتي برتقالا / قال صمتي هذه لغتي[3].

فإذا نصب جلادوه الصليب على الجدار وخيروه بين السجود لهم وإظهار الاستكانة والخضوع بـــين أيديهم، وبين اعتلاء خشب الصليب، اختار الأخير، فليس هو أول شهيد أو أول حامل إكليل شوك، فعســـى صليبه يكون صهوة ترتفع عليها فلسطين وعسى إكليل الشوك المضرج بالدماء يكون لها إكليل غار، وعساه أن يكون آخر من يتشهى الموت ويتحرر بعده الوطن:

يا أنت ! / قال نباح وحش: / أعطيك دربك لو سجدتَ / أمام عرشي سجدتين / ولثمت كفي، في حياء، مرتين / أو تعتلي خشب الصليبْ /... ما كنت أول حامل إكليل شوك / فعسى صـــليبي صـــهوة ،/

[1] - عبد الرحمن عثمان – عبدالحميد الديب - حياته وفنه – 288 - 289.
[2] - كريم مروة – المقاومة - دار الفارابي - بيروت - ط1 - 1985 - 223.
[3] - محمود درويش - الديوان - "تلك صورتها وهذا انتحار العاشق" - 449.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والشوك فوق جبيني المنقوش / بالدم والندى / إكليل غار ! / وعساي آخر من يقول : / أنا تشهيت الردى !"[1]

ويعلن عن صموده في كل الأحوال "سأظل فوق الصخر.. تحت الصخر..صامد"[2] ويلقن شعبه المستضعف درسا تعلمه من فلسفة السلاسل، فيدعوه إلى بعض الشموخ والكبرياء، لكي يحبه أكثر كما علمته السلاسل درسا آخر وهو قتال الآخر من أجل هذا الشعب الذي يحبه أكثر :

تكبّر.. تكبَّرْ ! / ...و إني أحبك ..أكثر / يداك خمائل / ولكنني لا أغني / ككل البلابلْ / فإن السلاسلْ / تعلمني أن أقاتلْ / أقاتل...أقاتل.../ لأني أحبك أكثر[3].

فالسلاسل التي هي أرشدته إلى أوجه رد الفعل التي يظهر بها، فلكل فعل رد فعل لائق به، وليس الجلاد كالإخوان فقد أهداه حديد السلاسل القدرة على الجمع بين الأضداد، الجمع بين الصلابة والقوة ورقة الأمل والتفاؤل بالغد، فإذا أطفأوا عليه النور اعتمد على أنوار قلبه وأشعل شموسها، وإذا حاصروه بالأسوار العالية، إنتفض وزغردت السلاسل، فإما أن يحطمها أو يحترق على صلبانها وينتهي قديسا مقاتلا :

و طني يعلمني حديد سلاسلي — عنف النسور ورقة المتفائل
سدوا علي النور في زنزانة — فتوهجت في القلب..شمس مشاعل
لن يبصروا إلا توهج جبهتي — لن يسمعوا إلا صرير سلاسلي
فإذا احترقت على صليب عبادتي — أصبحت قديسا.. بزي مقاتل[4].

وقد سجل الشاعر هذه القصيدة عقب هزيمة 1967م فكانت النموذج المثالي لأدب المقاومة الذي لا يعرف العتاب والعويل، ولا التنصل والتخلي ولا الانهيار أمام أصغر هبة ريح، وكان الشاعر الوحيد في الوطن العربي الذي "يتلقى كارثة الخامس من حزيران بثبات وصمود ويجعلها حافزا"[5] قويا للنهوض والثورة لا للبكاء والعويل.

ومثلما أخبرنا من قبل كثير من الشعراء أن نطفة الحرية لا تنمو إلا في أحشاء السجون، فهاهو الشاعر يسمع صوت الحرية قادما من صليل السلاسل، ويرى الصلبان إن ابتلعت بعض الضحايا تتحول إلى حراب في وجه الأعداء :

---

[1] - المصدر السابق - 103 - 104.
[2] - المصدرنفسه - 114
[3] - المصدر نفسه- 243 - 244.
[4] - المصدرنفسه - 239 - 240.
[5] - غسان كنفاني - 4/ 311 -

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صوت حريتي قادم من صليل السلاسل / وصليبي يقاتل !"[1].

وكذلك يتحداهم الصافي النجفي أن يقيدوا فكره إن استطاعوا، لأن الأسلاك والقيود والجدران والأغلال والقضبان وكل مرادفاتها لا يمكنها أن تطال غير الأجساد أما الفكر فسائح في الفضاء جذلان مستقل، يصنع للسجين بخياله المجنح عوالم أسمى وأرفع، ومن امتلك فكرا كهذا فلن تضيق به السجون لأن الدنيا تضيق بمن ضاق عقله ، فكم من سجين طليق وحرّ سجين:

غير أني وإن سجنت ففكري ... سائح في الوجود والنفس جذلى
إن يفتني كون فلي من خيالي ... ألف كون يسمو على الكون فضلا
لا تضيق السجون بالفكر رحبا ... والفضا ضيق بمن ضاق عقلا[2].

فلا هم يستطيعون حبس الأرواح ولا القلوب ، ولا هم بقادرين على حبس الخيال المحوم ولا حبس الضمير الذي صار إرضاؤه من أبعد غايات الشاعر السجين وفي هذا المعنى يقول محمد بن إبراهيم :

لئن حبسوا جسمي بجدران سجنهم ... فما حبسوا روحي ولا حبسوا قلبي
و لا حبسوا مني خيالا مرفرفا ... يحوِّم من سر الحياة عن اللب
و لا حبسوا مني ضميرا عرفته ... فأرضيته جهدي وإرضاؤه حسبي[3].

و يذهب عبد المغني سعيد المذهب نفسه، فليحبسوا الجسم ما شاءوا له من حبس أما فكره فحر طليق لن تدركه أغلالهم، بل إنه يقظ فطن يحصي جرائمهم ومكائدهم وينال منهم دون أن يستطيعوا النيل منه، وينتصر عليهم الشاعر بالله الذي ينصر جنوده من كل مكروه:

ليحبسوا الجسم في جدران أربعة ... فإن فكري طليق لن يغلّوه !
يحصي ويذكر ما كادوا ما وارتكبوا ... ينال منهم، ولكن لن ينالوه!
مهما أرادوا بنا فالله ينصرنا ... قل: هل يصيب جنود الله مكروه[4].

و يُقسم عبد الحليم خفاجي بكل مشهد من مشاهد العذاب التي مر على صراطها وشاهد عبور آخرين، ويقسم أنه باقٍ على العهد ، باق على الذكر باق على الجهر بالقرآن حتى يغيب في الثرى :

قسما وربي والكتاب وآيه ... و العرش والكرسي فوق سمائه
وبكل سجن ضمني جدرانه ... ورأيت فيه الموت من سجانه

---

[1] - محمود درويش الديوان- 291.
[2] - أحمد الصافي النجفي – حصاد السجن - 45 -
[3] - محمد السعيد بن الرجراجي – شاعر الحمراء - 88.
[4] - محمد محمود الغرباوي – الشعر في سجون مصر - الملحق - 826 - 827.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبكل يوم قارس قدّ الحشـــا و بكل صيف عشت في جمراتـــه
وبكل أنات الأحبة في الدجى تشكو لبارئها فظائع خلقـــــــه
قسما وربي، والكتاب وآيـــه قسما به، قسما به، قسمـــا بـــه
قسما سأصدع بالكتاب مجاهرا مهما جرى، حتى أغيب في الثرى
ليعود للقلب المعنى حبـــــــه و الخير يجري في الصحاري أنهرا[1].

ويمضي نجيب الكيلاني حرا طليقا وإن شوهت حياته الأسوار، مغردا للنور، متجاوزا آلامه، صامدا في وجه النكبات صانعا تاريخه المشرق غير عابئ بالظالمين وجورهم:

أنا الصامد في النكباء تعرفني ميادي_____ني
ومن شوق الأسى المشؤوم قد نبتت رياحيني
أنا الأمل الذي يخفق في أرض المساكي____ن
لقد ساروا على أثري، وقد طربوا لتلحينـــي
أنا حر وإن شابت جلال العيش أســـــوار
فذل الراحة الخرساء إفناء وإهـــــــــــدار
سأمضي رغم ما ألقاه، والإقدام إصـــــرار
سأمضي أصنع التاريخ لا أعنو لمن جـــــاروا[2].

ويقف عبد الله الشماحي هو الآخر في خط الإصرار والصمود ، ولينقل نظريته التي تعلمها في سجون اليمن المختلفة ، ونتاج تجربة حبسه التي مفادها أن السجون لن يهدم أسوارها إلا الأفكار:

من هاهنا من سجن نافع نبتدي فالسجن تُعدم سوره الأفكار[3].

ويتحدى مفدي زكرياء السجن وحراسه وخزنة ناره، ويسخر من قيوده الواهية التي لن تحبس روحه المنسابة أنّى شاءت في ملكوت الله، الهازئة بالسجان العاجز عن إدراكها، وأمام هذه الفسحة يتساوى عنـــده إغلاق باب السجن أو فتحه، وتتساوى عنده كل أصناف العذاب في عجزها عن إنطاقه أو اقـــتلاع ســـره العظيـــم :

سيان عندي مفتوح ومنغلـــــــق يا سجن بابك أم شدت به الحلق
أم السياط بها الجلاد يلهبنـــــــــي أم خازن النار يكويني فأصطفـــق

[1] - عبد الحليم خفاجي - عندما غابت الشمس - 492.
[2] - محمد محمود الغرباوي - الشعر في سجون مصر - 798.
[3] - عبد العزيز المقالح -الأبعاد الموضوعية والفنية للشعر العربي المعاصر في اليمن - 171.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سري عظيم، فلا التعذيب يسمح لي نطقا ورب ضعاف دون ذا نطقوا
يا سجن ما أنت؟ لا أخشاك تعرفني من يحذق البحر لا يحدق به الغرق
أنام ملء عيوني، غبطة ورضـــى على صياصيك، لا هم ولا قلــق
والروح تهزأ بالسجان ساخـــرة هيهات يدركها أيان تتزلـــق
تنساب في ملكوت الله سابحـــة لا الفجر إن لاح يفشيها ولاالغسق[1].

وهو الدرس الذي يحفظه سميح القاسم ويرد به على سجانيه، فمهما تمادوا في فنون تعذيبه يظل شامخا مرفوع الجبين، حتى إذا تسللوا إلى زنزانته ليلا وأعدموه فإنه يلقى الردى مرفوع الجبين :

وعلى الأوحال والأسلاك/ جرّوني، طوال الليل/ لكن ظلّ مرفوعا جبيني/.. حين صرّ الباب في بعض السجون/ قبل ميلاد الصباح/ وبلا رعشة هدْب../ قتلوني .../ قتلوني ذات يوم/ يا أحبائي.. لكـــن../ ظـــل مرفوعا إلى الغرب... جبيني[2].

ويسخر في قصيدته "ما تيسر من سورة السلاسل" من كل ما في السجن بدءا من بوابة السجن الغبية إلى حيات السلاسل وآلات العذاب إذ يتحول في حضرتها إلى رجل أسطوري ، ذراعاه المقيـــدتان تصـــيران صارية ثابتة لا تقتلعها رياح العذاب ، ويصبح جسده صخرة صامدة في وجه الرياح والأنهار، تتجدد كل يوم، ويقف في وجه الإغراءات والمساومات صامدا لا يقايض شيئا من وطنه بزيف الدخلاء ، تعجز كل المعجزات أن تقتل فيه أشواقه وحنينه لرائحة الوطن الآتية من كل شيء ، يتنسم عبيرها في حبات المطر خلف الأبواب ويشم عطر عبقها ، ويتجذر فيه حب الوطن فتعجز كل قوة على وجه الأرض أن تسلخه من منبعه المســـتلب الذي تحدر منه وعن انتمائه للوطن المفدى :

باسم ذات الغبطة الكبرى وآلاء الشهاده / في رحاب الياسمين : /ما الذي تفعله بوابة السجن الغبيـــه/ والزنازين، / وحيات السلاسل؟ / ما الذي يفعله الداء / ومرشات الجحافل /...عبثا يحلـــم بالمـــدّ وعنقـــي الأخطبوط / عبثا يبحث عن عيني رمل الهاويه / أقرب الأرض إلى الشمس... جبيني وذراعي صاريه/ فلكـــي متزن / فارتحلي يا زوبعه / ...صخرة في النهر والريح، أنا / .. لم أقايض فافهموني / مرة أخرى أعيد / جدولي يرفض أن ينسى لديكم منبعه/ ولذا تعجز كل المعجزات أن تميت الشوق في لحمي وصوتي..[3]

فمن العبث أن يطبقوا عليه جدران السجن وظلامه، ومن العبث أن يأمروا الأسلاك وغيرها من آلات العذاب باقتراف موت هذا الرجل العاشق لفلسطين، الواهب نفسه لها، التواق لأن يدفن وجهه في ترابها داخل ذلك العالم الحافل بالسحر والغبطة، وإن فعلوا فإنهم يهبونه من حيث لا يدرون غبطة الموت وأعراس الشهادة

[1] - مفدي زكرياء –اللهب المقدس - 21.
[2] - سميح القاسم –الديوان - 189 - 191.
[3] - سميح القاسم –الأعمال الكاملة - 553/1 - 556.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التي يقيمها ويدعو إليها أرواح أهله من شط الأعراف لتشهد استقباله للموت رافع الجبين، ناصع الحزن مصليا للشهداء، وماذا عساها تفعل بوابة السجن الغبية بأناشيد مقبل على الشهادة مثله، مالك لمفاتيحها، وما الذي يفعله داء المفاصل وآلات العذاب لمشتاق إلى بطن التراب يرى حبسه مجرد طرفة، ويرى موته نزهة :

عبثا تقترف الأسلاك موتى / عبثا يطبق ليل وجدار/ في دمي يصهل مزمار النهار/ واقعا في غبطة الموت جبيني / واشهديني ناصع الحزن أصلي/ ما الذي تفعله بوابة السجن الغبية /...ما الذي يفعله داء المفاصل في الزنازين، / وآلات العذاب/ عندما يصبح دفن الوجه في طقس التراب/ عالما بالسحر والغبطة حافل/ ما الذي تفعله قضبان سجني / ما الذي تفعله / ما دام عمري / في زمان الحب برهه/ ما الذي تفعله / ما دام حبسي طرفة / والموت ...نزهه !؟[1].

كما تبدو القيود لتوفيق زياد أوهى من زنوده، لأنه يستمد القوة والصمود من حب الشعب وحب الكفاح الذي لن تخبو ناره ولن ينحبس وإن حبسوا الشاعر وغيره من الرفاق، ولن ينحبس عزم الشباب الحر. وإن حشرت الأجساد في قعر الزنازين، فلن تخبو أناشيد الشاعر الشرقية العربية الحمراء[2] مهما حاولوا، ويتحدى طغمة الحكام ويسألها إن كان هناك مزيد لطغيانها فلتجربه مع صموده ولتلق قيودا أخرى على قيوده ولتفعل ما شاءت فإن الشعب عائد من منافيه ومهاجره الاضطرارية ليبني أطلاله المتهدمة ويبعث الحياة من جديد:

ألقوا القيود على القيود / فالقيد أوهى... من زنودي /... إن يحبسونا.. إنهم / لن يحبسوا نار الكفاح/ لن يحبسوا عزم الشباب الحر / يعصف كالرياح / يا طغمة الحكام زيدي هل لاضطهادك من مزيد...؟[3].

ويتحداهم بلند الحيدري بما بعد تصفيته الجسدية وإلغائه، فحتى وإن تسللت إليه أيديهم التي لم يجد لبهوت لونها معادلا غير البهتان "صفراء كالبهتان" لانتزاعه، فإنه سيبقى ينبض في صرخة الإنسان في كل مكان، وسيظل صورة ماثلة في بريق كل العيون، ونبضا في كل قلب، سيظل فكرة تزحف حتى في ظلال الصمت المخيمة وسيعطى موته للغد الطالع ، وللفجر أياد كثيرة وأشرعة يُقلع بها نحو النهار:

بعد ساعات ستنشل ذراعي /...ويد صفراء كالبهتان تسعى لانتزاعي / غير أني / سوف أبقى/ صرخة الإنسان في كل مكان /...و سأبقى / فكرة تزحف في الصمت / ومن موتى / سيبقى / للغد الطالع / للفجر/ ذراع وذراع وذراع/ وسينساب شراع وشراع وشراع[4].

---

[1] - المصدرالسابق - 556/1، 558.

[2] - يعبر الشاعر عن انتماءاته المتتالية وهي الشرق الكبير ثم العروبة فالشيوعية التي اقتنع بها وتبالها انتماء سياسيا وإيديولوجيا وناضل في صفوفها حتى سقط في سبيل القضية.

[3] - توفيق زياد –الديوان - 102-112.

[4] - بلند الحيدري – 405 - 406.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وليفعل الجلاد ما شاء وليتفنن في أساليب التقييد ومحاولات القمع فإن سلاسله تقف عاجزة عن احتواء القلوب وتقييد حبها للأهل والأوطان عاجزة عن تقييد أماني جواد جميل المنسابة وهامته الشامخة كالنخل العراقي وأطول، فليصهر بأحقاده الدفينة ما تبقى من جسده، وليطعم للدود كبده وليمدد حبائل شره إلى أهله، فإنه لا محالة رادّ كيله، إنه لا بد محرق عينيه لأنه لن يكون أعزلا ذات يوم :

قل لجلادي / بأن القيد صلى في يدي /... قل له إنك لو تصهر بالحقد / بقايا جسدي / أنت لو تطعم للدود المرائي كبدي / أنت لو تسرق حتى شعر رأسي، / أنا لابد بأن أحرق عينيك، بخورا لغدي ! / قل لجلادي / بأن الحب في شاطئ قلبي لا يكبّل / والمنى الزرقاء، / تنساب بأعماقي جدول / هامتي تشمخ كالنخل العراقي، / وأطول / و أنا ما عدت أعزل[1].

ويختم رسالته إلى جلاده بتذكيره بثورة جراحه الغاضبة ولهيب نارها المحفور على صفحات عينيه كلما ألهبتها السياط، ويهدده من فعل هذا السلاح الجبار "الغضب" في الغد القريب حيث يتراءى له عمر الجلاد مصلوبا على جراحات ضحاياه، فقد كتب بدمائهم ميلادهم وحفر بمظالمه قبره:

في عيوني غضب يحفره / مهر، حسيني محجل / كلما ألهبه سوطك، / أضحى لي أجمل / وغدا، إذ تشرق الشمس، / ترى عمرك مصلوبا، / على جرحي المرمّل !/ قل لجلادي/ بأن الدم من جرحي / لا يكتب نصرك / إنه يحفر فوق الصخر / ميلادي، / وقبرك !![2].

ومثله يتجاوز محمود درويش التحدي والصمود في وجه الجلاد، إلى التحذير والتهديد من فورة الغضب، لأن "الذي يخسر كل شيء، لا يهمه بعد ذلك أن يفعل أي شيء"[3].

ويشرح للآخر فلسفته في الحياة منذ الصفحة الأولى ، إنه إنسان مسالم، لا يكره أحدا، ولا يسطو على أحد وليس كما يصوّره الآخر، ولكن حذار من غضب هذا المسالم المثالي الإنسانية حذار من تشريده، حذار من ظلمه، من تجويعه، لأنه إذا جاع يفقد صوابه ويأكل لحم ظالمه يقول معرفا بنفسه في "بطاقة هوية" :

سجل أنا عربي / أنا اسم بلا لقب / صبور في بلاد كل ما فيها / يعيش بفورة الغضب / ...وجدي كان فلاحا / بلا حسب... ولا نسب! / يعلمني شموخ الشمس قبل قراءة الكتب / سجل برأس الصفحة الأولى / أنا لا أكره الناس / ولا أسطو على أحد/ ولكني...إذا ما جعت آكل لحم مغتصبي / حذار حذار من جوعي ومن غضبي/[4].

---

[1] - جواد جميل –للثوار فقط - 09 - 11

[2] - المصدرنفسه - 11 - 12.

[3] - محمد مفيد قميحة – الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر - 209.

[4] - محمود درويش - الديوان - 73- 76.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكذلك يهزأ محمد جميل شلش من جلاده وسجانه، ذلك النذل صانع آلامه ومفجر بركان عذابه ويذكره بإحدى لقطات إذلاله عندما كان يبصق في وجهه، ويتوعده ويهدده بالغد القريب عندما يثور وإخوانه هناك ويلقاهم خارج الأسوار أحرارا:

في وجه جلاّدي وسجاني / قذفت بركاني / يا ليل سجاني / يا نذلُ، يا صانع بركاني، / أنا الذي تبصق في وجهه، / أنا، وإخواني، / غدا، وراء السور، في قريتي، / على جناح الفجر تلقاني[1].

ويتحدى كل ضباع الموت والذئاب والأذناب والكلاب بأنهم لن يطعنوا عقيدته ولا جذوة شبابه، ولن يخضعوا أبدا شعبه،و مهما طالت ليالي العذاب، فموكب الفجر قريب:

لن تقتلوني أيها الكلاب ،/لن تقتلوا عقيدتي../لن تطفئوا في ليل سجني.../ جذوة الشباب ،/ لن تخضعوا شعبي.../ وإن طالت ليالي الموت والعذاب/ فموكب الفجر على الأبواب[2].

ويهدد سليمان العيسى ذلك **الرقيب** الذي ألغى ذاته ولبس قناع سادته العتاة وراح في رواق السجن يوزع على قاطنيه الشتائم تلو الأخرى، ويدعوه إلى بعض الرفق، بعض الالتفات الشاعر ورفاقه، إلى بعض العبوس، بعض الكبر، بعض التجهم، لا كلّه فما هم إلا من أقاربه، وما هو إلا واحد من هذا الشعب الممزق المسحوق، ويحذره من ملاحم البطولة التي تبدأ من أعماق السجن وتتخلق وتنبت من ثراه الأبطال الأباة ومن هناك تنبعث مسارج للهداية والهداة، ولو وعى ذلك الرقيب لكان مع المشاة الذين شق لهم الشاعر ومن معه طريق الكفاح :

قل "للرقيب"، وقدتقنّع وجه سادته العتاة.
و مضى يوزع في الرواق شتائما متلاحقات!
...مهلا أبا السطوات..بعض الكبر ، وأذن بالتفات!
بعض العبوس... فلست إلا من أقاربنا العفاة
...من شعبنا المتمزق، المسحوق تحت النائبات
نحن الطريق...و لو وعيت إذا لكنت مع المشاة
هذا ثرانا يا رقيب الصيد الأباة
إنا سنبعثها ... مسارج للهداية والهداة
إكليل غار للحياة على جبين الكائنات
إنا سنبعثها ... ملاحم للبطولة... خالدات[3].

---

[1] - محمد جميل شلش - الحب والحرية - 131 - 132.

[2] - المصدرنفسه -141.

[3] - سليمان العيسى - الأعمال الشعرية الكاملة - 1/ 249 - 250.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويظل بهجة الأثري صامدا ثابتا على موقفه ونضاله باذلا عمره في سبيل الوطن، متحديا كل أساليبهم الهمجية ومحاولات تدجينهم، مبيحا لهم الجسد متعاليا بشيمه وخلاله التي تأبى عليه خذلان الوطن والسير في ركب الطغاة الظالمين، فليأخذوه إلى المنفى البعيد وليلقوا بجسده المقيد الذي يسميه جثمانا في ظلمات السجن، وليقيدوا حتى لسانه وليجوّعوا صغاره، فإنه باق على العهد، باق على حب الوطن وحفظ الأمانة :

خذوني إلى المنفى السحيق وجاوزوا ... بي البحر مسجورا بنار وأهوال
وسيروا بجثماني إلى السجن موثقا ... و زموا بأنساع لساني وأقفال
وبوؤوا كما تهوى المظالم في الورى ... بمقطع أرزاقي ومورد أشبالي
ولا تطمعوا في شيمتي أن أردّها ... إلى خلق واهي الأمانة خذّال
أبى ذاك آباء نمتني إلى العلى ... ونفس براها الله للمثل العالي[1].

وكما واجه بعض الشعراء زبانية السجن وسدنة العذاب بالصمت القاتل وأذاقوهم من العذاب النفسي بقدر ما أذاقوهم من العذاب الجسدي، تصدى آخرون لآلات العذاب بالصبر ودعوا من وهن من الرفاق إليه وتحدى بعضهم بقدرته الخرافية على الصبر حتى صار ابنا للصبر، يقول محمد الحلوي :

سنصبر حتى يعلم الصبر أننا ... بنوه إذا المفجوع يوما تضعضعا[2].

ويصبح محمد بهجة الأثري بالصبر ثابتا راسخا كصخرة اليم التي تتحطم عليها الأمواج وتتكسر دون أن يصيبها أذى :

أنا بالصبر صخرة اليم ...قامت ... تتحدى آذيّه أن يريبا[3].

ويؤكد محمد سرور الصبان أن اليأس والقنوط لا يعرفان طريقا إلى من طبعه الحزم ودرعه الصبر وقناته الثبات، ومن صار الزمان صديقه والدهر طوع بنانه :

ويحي أيعترض القنوط عزيمتي ... والحزم من طبعي ومن عاداتي؟
والدهر طوعي والزمان مصادقي ... والصبر درعي، والثبات قناتي[4].

فلابد بعد الصبر من فرج وتمكين كما يخبر بذلك القرضاوي رفاق السجن ويدعوهم إلى الصبر تأسيا بصبر يوسف -ﻉ- على مكثه في السجن بضع سنين، وأملا في نصر الله الموعود، يقول :

صبرا أخي في محنتي وعقيدتي ... لابد بعد الصبر من تمكين
ولنا بيوسف أسوة في صبره ... وقد ارتمى في السجن بضع سنين

---

[1] - محمد بهجة الأثري - ملامح وأزهار - 101.
[2] - محمد الحلوي - أنغام وأصداء - 165.
[3] - محمد بهجة الأثري - ملامح وأزهار - "صخرة اليم" - 380.
[4] - إبراهيم الفوزان – الأدب الحجازي الحديث - 810/2 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هوّن عليك الأمر لا تعبـــــأ به إن الصعاب تهون بالتهـــــوين
لا تيأسّن من الزمان وأهلـــــه وتقل مقالة قانط وحـــــزين[1].

ويتوجه مثله أحمد سحنون إلى رفاق السجن، أولئك المبعدين عن الأهل والديار فيدعوهم إلى اتخـــاذ الصبر ثوبا، ويعدهم بثمر الصبر القريب ويبشرهم بأوان انقشاع ظلام الخطوب :

أيها المبعد إن عانيت ضـــــرا فالبس الصبر له حتى يمـــــرا
سوف يغدو أعذبا ما كان مرّا أ فما ترضى بأن تصبح حرا ؟ !
أيها المبعد قـــــــد آن الأوان وكأن قد زال ظلم وهـــوان
وبدا في الأفق عـــز وأمـــــان ودنا بالمبعد النائي مكـــان[2].

ويبقى الإعداد للفجر الآتي والغد المشرق همّ كل شعرائنا ، يشكلون لبناته بآلامهم ، بدمائهم ولـــن يتراجعوا قيد أنملة عن الخط الذي رسموه والدرب الذي مشوا فيه نحو ذلك الفجر المنتظر الوشيك انبلاجه:

أخي ، لو شحذوا السيف على عنقي فلن أركع / ولو في فمي الدامي حبال سياطهم تنقع / فلن أرجع عن فجري، لن أرجع / وقد أوشك أن يطلع، قد أوشك أن يطلع /[3].

يبدأ هذا الأمل منذ أول يوم من عمر السجن، بل في الطريق إليه كما عاشه معين بسيسو"في الطريق إلى الزنزانة"ورآه حقيقة ماثلة أمام عينيه، ويبشر به كل المفجوعين بمشهد اقتياده"إنني عائد"وهناك من مئـــات الرفاق تتضافر السواعد ، فمهما أكلت القيود من عظمهم ، ومهما مزقت السياط لحمهـــم ومهمـــا أبـــدع الجلادون وتفننوا ، فإن قوة سواعد الرفاق هي الغالبة في الأخير، وهي المسقطة جدران الزنـــازين والمقتلعـــة جذورالموت :

أنا الآن بين مئات الرفاق/ أشد لقبضاتهم...قبضتي/ أنا الآن أشعر أني قوي وأني سأهزم زنزانتي/ نعم لن نموت، نعم سوف نحيا/ ولو أكل القيد من عظمنا/ ولو مزقتنا سياط الطغاة/ ولو أشعلوا النار في جسمنا/ نعم لن نموت، ولكننا/ سنقتلع الموت من أرضنا[4].

ويتفرد كل من البياتي ومظفر النواب برد فعل خاص لم يجربه سائر شعرائنا، لا يقل إيلاما عن أفعال السجان الأخرى، بل قد فعله إمعانا في إذلال السجين وامتهان كرامته وأتى منكرات أخرى أكبر، لم يجد أمامها

---

[1] - يوسف القرضاوي - نفحات ولفحات - 69.
[2] - أحمد سحنون – الديوان - 157.
[3] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 221.
[4] - المصدر نفسه - 307.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

البياتي سوى أن يبصق على سجانه وعلى قيوده : "فقد بصقت على قيدي وسجاني"[1].

وكذلك فعل مظفر النواب عندما أحاط به عشرة جلادين ومعهم كبيرهم الذي ركبه في صورة عجيبة، وعندما غامت عيناه من التعذيب واستعار الصبر والصمود من المتكبرة الثاكل فلسطين، وتقوى مستندا على الصبر المعجز في عينيها، وقف أمام الجلاد وبصق عليه من الأنف حتى القدمين :

بين الغيبوبة والصحو/ تماوج وجه فلسطين/...أسندني الصبر المعجز في عينيها/ فنهضت/وقفت أمام الجلاد/ بصقت عليه من الأنف إلى القدمين[2].

ونختم صور **الصمود الأسطوري**، الضارب في أعماق السجون بقصة عاش تفاصيلها من داخل السجن الشاعر الفلسطيني، حنا أبوحنا وكتب فيها قصيدته، "طفل من شعبي" وأهداها إلى "ذلك الطفل وصديقه ، اللذين تعاونا فرفع أحدهما الآخر ليطل على شباك غرفة سجين ، وغالب العتمة حتى رآني ، ثم قذف في داخل الغرفة بهذه الكلمات : تخفش منهم...كن شجاع"[3]. تفجر فيه هذه الكلمات القصار لفظا الثقال معنى طاقات من الأحاسيس والآمال ، ضمنها القصيدة ، فروى في شطرها الأول ما أحدثته هذه الزيارة المفاجئة في نفس السجين القابع في زاوية الغرفة من طفل لم يتجاوز العاشرة ، يتشبث بشباك النافذة ويتحدّى العتمة بحثا عن آثار سجين ، وتراوده أفكار شتى ، وقلبه متلهف لمعرفة سرّ هذا الطائر الزائر والعينان المحوّمتان في عزم ومضاء ، أهو عبث وفضول طفولي لمعرفة شكل السجين ، أم هو رسول كالحمائم يحمل بشرى عظيمة فيسائله : "يا طيرا بشباكي ، ما تحمل يا غصن الزيتون[4].

ويواصل مراقبة المشهد وينتظر بشوق ما تريد قوله مخالب هذا النسر الصغير وعيناه اللامعتان في حلك الدهليز، ويتسمع حوارهما إذ تعذر عليه اختراق العتمة، ولكنه في فرح يقول : أبصرته.. ويروي لصديقه مشهد السجين كاملا ليبدأ الحديث :

حيي ، فأجبت تحيته / وكسا بالقوة طلعته / وبصوت سحري الإيحاء / منحوت من ماس وضّاء / هتفت شفتاه / اصمد ، لا تخشهم أبدا / وتشجع لا ترهب أحدا / اصمد ، فالنصر لمن صمدا[5].

و يطير الطفل الطائر الزائر عن الشباك ويرحل ، ويتدفق شلال الأحاسيس ويملأ فضاء الغرفة ، شلال رنين كلماته "الثورة" وبشائر الفجر المقبل بألوية النصر ، مادام في الشعب أطفال يعلمون الناس الصبر والصمود ويحملون مثل هذه الأفكار، ويقفز الشاعر في زنزانته فرحا بهذا الطفل من شعبه بهذا الجيل "جيل

---

[1] - عبد الوهاب البياتي - الأعمال الشعرية - 307.

[2] - مظفر النواب - الأعمال الشعرية الكاملة - 499 - 500.

[3] - غسان كنفاني - الأثار الكاملة - 315/4.

[4] - المرجع نفسه - 317 - 319.

[5] - المرجع نفسه –318 - 319.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفجر"، بهذا الوحي المتنزل على أرض فلسطين :

طفل؟ / بل هو جيل الفجر/ وبشائر ألوية النصر/ وربيع يعبق بالزهر / يتحدى أعشاب الشر/ في حقل المأساة المرّ / ويصون الأشواك ليدمي كفّ الباغين! / *** / طفل من شعبي... يا مرحى... طفل؟ / بل هـــو وحي يوحى![1]

- **شرف السجن** : يستقبل الشعراء السجن راضين، قانعين ، فهو ثمن لغايات نبيلة ناضلوا في سبيلها عندما كانوا خارج جدرانه ، وهاهم داخله أيضا يناضلون بما استطاعوا ولو بحراب الكلمات وقذائفها ، فهم لم يدخلوه إلا بجرم الوطنية وجرم النضال في سبيل راحة الأوطان والشعوب ، ولذلك وجدنا بعضهم يفخـــر بهذا الشرف والوسام الذي قلده الطغاة من حيث لا يدرون ، شرف السجن ، وهل يغمد غير الحسام ، وهل يودع القفص إلا ليث الغاب خشية سطواته.

فهذا الصافي النجفي يصف دخوله السجن في سن الثلاثين بالتوفيق ، فبينما خاب مسعى الشاعر الثائر على كل الحكام والسلاطين دعبل الخزاعي في بلوغ هذه الغاية ، فكان يقول : "مرت عليّ أربعون سنة أحمل خشبتي فلا أجد من يصلبني عليها"[2].

يوفق الشاعر المشوق النفس إلى باب من أبواب الشرف فيقول :

سجنت وقد مرت ثلاثون حجة من العمر فيها للسجون تشوقـــت
سعى دعبل للسجن طول حياته فخاب ، وفي المسعى لسجني توفقت[3].

ويفخر بالقفص الذي لم يجعل إلا لليوث الغاب أو العنادل المغردة، ويرى نفسه فيهما معا، فهو ذلك الطائر المغرد المسجون ظلما، المغني من عمق آلامه لإسعاد الآخرين، ولكنه أيضا ذلك الليث المكشر عن أنياب الأقلام، المقلق راحة الجبناء وإن وهن منه الجسم :

لئن أسجن فما الأقفـــاص إلا لليث الغاب أو للعندليـــــب
ألا يا بلبلا سجنوك ظلمـــــا فنحت لفرقة الغصن الرطيب
ويا ليث الشرى سجنوك مثلي لدن خافوا وثوبك أو وثوبـــي
لئن كشرت للهيجاء نابـــــا فأقلامي تكشر للحـــــروب[4].

ويتصبر الشاعر عزيز فهمي ويتأسى بتلك الحكم العربية، المتوارثة جيلا عن جيل، والتي مفادهـــا أن

---

[1] - المرجع السابق - 319 - 320.
[2] - أحمد الصافي النجفي - حصاد السجن - 35.
[3] - المصدر نفسه - 71.
[4] - المصدر نفسه - 71.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السجن للأحرار كالغمد للحسام يدخله حينا ويعود إلى عمله المنوط به، أو هو كالقفص لليث يحتويه ولكنه لا يستطيع إسكات زئيره المرعب حتى من داخل الأقفاص :

كفاك عزاء أنك اليوم أوحـــــد وقد يسكن الغمد الحسام المجـــرد
....وقد يؤسر الليث المنيع عرينه ويرهب منه الصوت وهو مصفد[1].

أما سليم سركيس فإلى جانب فكرة الغمد والحسام، يشبه محنة حبسه بالبدر الذي يغشاه الأفول حينا ولكنه يعود بعد رحلة الغياب مشرقا يهدي الناس السبيل، فالسجن عنده أشـــرف مـــن بلاطـــات الحكـــام وقصورهم وهو المهيء للمستقبل المشرق :

....فالسجن أشرف من ســـــــــراي ملؤها لـــؤم الأصـــول
والسجن غمـــــــــد للحســـــــام وإنه غمـــــد جميـــل
هل فيه إلاّ حبـــــــس جســـــــــم وهـــو حبس لا يطول
فأكون كالبـــــــــــدر الذي يغشاه من ظلم أفـــول
ويعود ثمـــة مشرقـــــــــــا يهدي الفلول إلى السبيل[2].

ويرحب الشاعر خيري الهنداوي بالخطوب ما دامت وحدها الكفيلة ببلوغ الغايات ، وأحبّ هـــذه الخطوب إلى نفسه حبس يلحق فيه بالكرام الذين سبقوه إليه ، ويرتفع به درجات في سلم المجد والشرف :

مرحبا بالخطوب إن هي كانت سببا موصلا إلينا الحقوقـــا
وأحب الخطوب عندي حبس فيه نستطيع بالكرام اللحوقا
إن في الحبس للفتى في سبيل الحـــــــق مجدا يعلو بـــه العيوقـــــا[3].

ويفرح الشاعر محمد الشاذلي خزنه دار بالسجن الذي حقق له إحدى اللقاءات النادرة بينـــه وبـــين وطنه، إذ لم يزده إلا تعلقا بتونس السجينة هي الأخرى، بل إن الحساد أعدوا له من حيث لا يدرون خلـــوة على نهج الصوفية، فكان بينهما ما كان من التناجي والصبابة والتشاكي فالالتحام :

سجنا معا فازداد كلٌّ صبابـــــــة وما غاب كلٌّ عن أخيه ثوانيا
أعد لنا الحساد بالسجن خلـــــوة فزدنا التحاما عندها وتشاكيا
ودارت كؤوس الحب بيني وبينهـــا وكان بها مجرى السلافة صافيا
تنادي انتسب يا شاذلي ، قلت تونسي فقالت : أنا للشاذلي إذ غدا ليّا

---

[1] - عزيز فهمي - ديوان عزيز "في السجن" - 126.

[2] - مجلة الهلال - يناير جانفي 1973 - 93. ومحمد محمود الغرباوي - الشعر في سجون مصر - الملحق - 745.

[3] - أحمد أبو سعيد - الشعر والشعراء في العراق 1900 - 1958 - دار المعارف - بيروت - 1959 - "أيها الشرق" - 99.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فما كان أحلاها لدينا صبابة وما كان أحلاه لدينا تناجيا[1].

بل ويجعل في دخوله السجن مواطن حسد لأنه لا يسجن على يد طغمة المستعمرين إلا الرجل الشريف، وهناك في السجن يتبادل الشاعر ورفاقه التهاني بدخوله حتى لكأن السجن صار وظيفة للشرفاء:

دخلت السجن محسودا عليه كذلك يسجن الرجل الشريف
يهني بعضنا بالسجن بعض كأن السجن للشرفا وظيف[2].

وإن مما يخفف عليه آلام السجن ويهبه الشجاعة والثبات أنه صار بفضله في عداد العظماء الذين انشغلوا بحب الوطن عن متاع الدنيا ولذاتها :

و لم يمرر بقلبي طيف جبن و لم تجر الدموع على كلامي
فليس الفكر مشغولا بشرب ومفروش وثير أو طعام
يخفق حمل هذا الضيم عني عدادي اليوم في صف العظام[3].

وكذلك يشبه مفدي زكريا سجنه بالعرين، ويهنئ رفاقه الذين التحقوا به على المنزلة التي حلوها، والجزاء الذي أعد خصيصا لأمثالهم من المجاهدين في سبيل الأوطان، ويشبهه مرة أخرى بالصرح الشامخ الذي يباري صرح هامان بل ويفاخره ويباهي ناطحات السحاب[4].

أما الجواهري، فيحدثنا في أسلوب ساخر أن السجن دار عظيمة ذات صيت ، لا يباح دخولها إلا للأشخاص الخطرين ، ذوي الشأن العظيم ، دار يشار إليها بالبنان ، إن لم يجد فيها المرء شيئا فكفاها أنها تقيه رغم أنفه من شرور عديدة ، من دنان الخمر وغرور المال وسحر الغواني الحسان ، ثم إن الشاعر فيه صار مثل الأشياء الثمينة التي تحجب حتى عن العيون مبالغة في صيانتها ، وهناك تغدو خشخشة السلاسل عنده ألذ من عزف القيان ، بل إن بعض رناتها استقامت وتوازنت وشكلت أوزانا لشعره :

أسكنت دارا ما لها في الصيت والعظموت ثاني
ما إن يباح دخولها إلا لذي خطر وشان
دار يشير لها صديق أو عدو بالبنان
وقيّت فيها رغم أنفك من خبيئات الدنان
وحفظت فيها من غرور المال، أو سحر الحسان

---

[1] - محمد الشاذلي خزنه دار - الديوان -1/ 84.

[2] - محمد الشاذلي خزنه دار - الديوان "شرف السجن" - 86. ومثلها قصيدته "قالوا حبست" -1/ 65-86

[3] - المصدر نفسه - "الجندي رغم أنفه - 59.

[4] - يحي الشيخ صالح - أدب السجون والمنافي في الجزائر- 127.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حجبوك عن لحظ العيون تأنقا لك في الصـــيـــان
...أو ليس خشخشة الحديد ألذ من عزف القيـــان
أوزان شعـــرك بعض أوزان حوتها باتـــــــزان[1].

ويشذ عن هؤلاء جميعا عبد الحميد الديب في نظرته إلى السجن وقد دخله أكثر من مرة ووجد فيـــه الملجأ والملاذ ، من حياة التشرد والجوع ، ففيه الغذاء والكساء والمبيت وهي أشياء عزت عليه في عالم الحرية ، وفيه وجد الخلاص من حياة الضياع والبؤس وبؤر الفساد التي كان يتخبط فيها ، وعلى نهج القصيدة المنفرجة لابن النحوي يرحب بهذا السجن الذي فرج إحدى كربه وأعطاه الدار والأهل :

لذت بالسجن بقلب بهج مرحبا بالضيق دون الفرج
ههنا داري وأهلي ، وهما كل ما أرجو ليوم حـــرج[2].

أما **قصة خروج** هؤلاء الشعراء من السجن فلا نكاد نجد لها أثرا، ربما لأن أجـــواء الفـــرح شـــغلت الشعراء عنها، وربما لأن أغلبها كان مفاجئا مباغتا شأنه شأن لحظة الاقتياد، لا يتيح للشـــاعر وقتـــا لمـــيلاد القصيدة، أو لأنهم كانوا يرونها حرية منقوصة ، لأنهم خرجوا من السجن الصغير ليجدوا أنفسهم داخل سجن كبير مع شعب كله سجين ، فهم يريدونها حرية كاملة للأوطان والشعوب، وما نضالهم وما تحمّلهم عـــذاب السجن إلا في سبيلها ، هذا إلى جانب شعورهم أو يقينهم بالعودة إليه ثانية، ما داموا لا يستطيعون الصمت، وقد تردد أغلبهم على السجن أكثر من مرة ، فعلى سبيل المثال زاره كل من محمود درويش وبـــدر شـــاكر السياب ويوسف القرضاوي وجمال فوزي أربع مرات على قصر مدة مكث السياب مقارنة بهما ولكن حدث التردد وحده يكفي ، وتردد عليه معين بسيسو ثلاث مرات ومثله مصطفى وهبي التل، الذي عرفـــت حياتـــه سلسلة من المفاجآت والتقلبات، فمن الوظيفة إلى السجن ومن المحاماة إلى السجن وفي سجل حيـــاة أغلـــب هؤلاء الشعراء أكثر من تجربة حبس، وفي ذاكرتهم أكثر من سجن ، مما يعني أن دخول السجن أو خروجه لم يعد حدثا ذا بال، ولذلك اختفى من أشعارهم و لم يعبر عن فرحة الخروج والانتصار إلا شاعران فرا إلى ميادين النضال هما مفدي زكريا الذي سجل إثر هروبه من السجن إلى المغرب قصيدة يتحدى بها المستعمر الفرنسي وقد قالها خارج السجن[3] في طريقه إلى المغرب الأقصى وكذلك محمد محمود الزبيري الذي أنشد إثر فراره من اليمن كلها قصيدة يتحدى بها الإمام وبطشه[4].

---

[1] - محمد مهدي الجواهري - الديوان - 117/2.

[2] - عبد الرحمن عثمان - عبد الحميد الديب - حياته وفنه - 288. ومحمد رضوان - فيلسوف الصعاليك - عبد الحميد الديب - مركز الراية للنشر والإعلام - القاهرة - 1999 - 37.

[3] - مفدي زكريا - اللهب المقدس - 124 - 129.

[4] - محمد محمود الزبيري - الديوان - "ثورة الشعر" - 98.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويتفرد بين هؤلاء جميعا الصافي النجفي في الإشارة إلى حادثة الإفراج، ولكنه يصدمنا بإحدى شطحاته وخلطه الجد بالهزل، فها هو يتلقى صدمة الإفراج بعدما ألف السجن ومن فيه، وصار يحسبه داره ويحسب من فيه أهلا له، فكأنهم سجنوه من جديد بعدما كان يخشى صدمة الفرحة وما قد تحدثه فيه:

كنت أخشى في السجن أن تأت بشرى بفكاكي أصب لها بالجنون
أطلقوني من بعدما اعتدت سجنـــــــي فكأني مجددا سجنـــــوني.

- التحـــدي بالقصيـــدة :

لعل أكبر تحد قدمه هؤلاء الشعراء هو تحدي الكلمة ليس انتقاما لأنفسهم فحسب على ما لحقهم من عنت الطغاة واستبدادهم ، ولكنه انتصار للإنسانية المهدورة الكرامة ، ذلك أنه من أهم وظائف الشعر الدفاع عن إنسانية الإنسان، وقد رآها مایاكوفسكي الوظيفة الوحيدة له[1].

فقد رأينا من خلال النماذج الشعرية الكثيرة التي مرت بنا انفتاح الشعراء على مشكلات الإنســان وقدرتهم الفائقة على تحريك الشعوب وإيقاظها بوهج الكلمة وثورتها، إذ جرّدهم السجن من كــل طاقــاتهم الأخرى ، أو عطّلها إلى حين ، وعجز عن الوقوف في وجه هذا المارد الجبار الذي لم يجد الشعراء غيره لــرد الفعل والانتصار من بعد الظلم ، فراحوا يشحذون القصائد ويسنون قوافيها الجريئة ، يرجمون بهــا الظــالمين ويُغيظون الأعداء ويسرون بها الأحباب والأصدقاء ، ويرتفعون بالكلمة إلى درجة التقديس.

فهذا معين بسيسو، يقسم بالقصيدة وبطابع البريد، منفذاه الوحيدان إلى العــالم الخــارجي اللــذان يكسران السلاسل ويذهبان أنّى وجههما الشاعر:حلفت بالقصيدة.../ بطابع البريد وهو شرفتي الوحيدة[2].

ويستأنس بها سليمان العيسى في وحشة سجنه ويسميها "رعش الألوهة" الذي يركع عند أول ومض له حتى المنون ، به يتحدى الشاعر الظلام والقيود وينتصر على الرطوبة والوحدة والوحشة ويطرد به الضجر ويروض الأرق وكل منغصات القبر الأخرى :

يا شعلة الــــوحـــــي المقـــــــدس أيها السر الدفيـــــن!
يا جذوة الإبداع...تركـــــــــــــــع عند ومضتها المنــون
يا فن...يا رعش الألـــــــــــــــوهة في دمانا...يا جنون!
كيف استطبت بك الظـــــــــــلام وهزني هذا السكــون؟
كيف استحال القيد لحـــــــــنـــــا..في النجوم له رنــين؟
و ضجرت...فانطلق النشيـــــــــــد ..العذب سامري الأمين

---

[1] - إحسان عباس – اتجاهات الشعرالعربي المعاصر - دار الشروق، عمان - الأردن - ط2 - 1992 - 155.

[2] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 191.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأرقت... فانسابت رؤا ك وارفة منها الفتون
يا نفحة الوحي المقدس أنت سامري الأميـــن
وعلى الرطوبة والظلام ووحشتي بك أستعيـــن[1].

ويؤكد محمود درويش قداسة الكلمة والتزامها بمسؤولية تنوير الشعوب وتوعيتها وجـــدارتها بصـــناعة الأنبياء في زمن الذرة ، ويحكم عليها بالعدم إن هي لم تؤد رسالتها وتنقل النور من بيت إلى بيت ، وإن هي لم تستطع النزول إلى البسطاء و لم يفهم هؤلاء معانيها ، فحري بالشعراء أن ينثروها للريح تعبث بها ويخلدوا إلى الصمت:

قصائدنا بلالون ، بلا طعم ، بلا صوت / إذا لم تحمل المصباح / من بيت إلى بيـــت ، وإن لم يفهـــم البسطا معانيها / فأولى أن نذريها / ونخلد نحن للصمت[2].

وهو المعنى نفسه الذي أكده محمد جميل شلش في رسالته إلى الشعراء ، عندما شبههم "بديو جـــين" حامل المصباح في وضح النهار بحثا عن الإنسان ، واستبشر بزحفهم في ليالي الشرق، وزرعهم الخصب والنماء في أرضه بعد قحط:

يا يدا ترفع مصباح "ديو جين" شعار / يا فما يبدع سمفونية الأجيال / من نور ونار،/ يا صدى ينداح في ليل مخاض الشرق/ خصبا واخضرار، / باسمكم يا إخوتي/ غنيت في ليل التتار[3].

فالشاعر المبدع خليق -كما يقول عبد الرحمن شكري- بأن يدعى متنبئا ، يرى المجاهيل بعين الصقر، ويكشف لثام الظلام عن خفي الأسرار، ويري الناس من الحقائق ما لا يتجرأ على الاقتراب منه غيره ، ويفري أهل القسوة والجهل[4]، ويبصر الناس بما يجب القيام به من أجل حريتهم وخلاصهم من براثن الظلم والتخلف والاستبداد.

وبالقصيدة أيضا يستعين عبد العزيز أحمد هلالي على ظلماء سجنه وقيوده ويتجاوب بها مـــع كـــل حالاته، فهي تنسكب في حالات صفوه ورضاه ألحانا طروبة ، وتجيء ساعة حزنه شجية فإذا آلمتـــه القيـــود وأضناه الحديد أحالها مأتما باكيا معولا :

و إن علي ألحـــــت ظلما بضرب وطعن
أطلقت شعري حزينا يشدو بآلم لحـــــن

---

[1] - سليمان العيسى – الأعمال الشعرية الكاملة - 1/ 226 - 227.
[2] - محمود درويش – الديوان - 55.
[3] - محمد جميل شلش - الحب والحرية -"إلى إخواني الشعراء"- 15- 16، للبياتي قصيدة بالعنوان نفسه-الأعمال الشعرية - 1/ 202.
[4] - رجاء عيد ومحمد شوكت-مقومات الشعر العربي الحديث والمعاصر-دار الفكر-دارالجيل للطباعة- قصر اللؤلؤة الفجالة - 42.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإن شجتني قيـــــود من الحديد بسجن[1].

وبالحرف يتحدى الشاعر حصار الحدود المضروبة على الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، ويتحـــدى قوانين المنع التي طالته ووجد نفسه ممنوعا من دخول كثير من الدول العربية لا لسبب إلا لأنه اختار المـــوت كلاما على الموت صمتا، فأعطته القصائد هادمات الحدود جناحا ومنحته ألف جواز سفر وألف تأشيرة دخول إلى الوطن العربي الكبير، وعلى ظهرها استطاع الدخول إلى كل بيت وكل ناد وكل مجلس عربي[2].

ويصبح القلم نابا يكشر عنها الصافي النجفي، وتصبح القصائد زئيرا مدويا يخشاه الســـجان[3]، لأنهـــا الوحيدة القادرة على الكلام في زمن تغتال فيه الأنفاس وتحاصر الجدران كل شيء وتملأه أعـــين الحـــراس ولا يسمع إلا صدى السكون ، زمن تتجمد فيه الكائنات وتصبح كأنها منحوتات مسلوبة الحركة والصوت، هناك حيث لا يعلو غير الصمت والجدران ، يقول الشاعر كلمته ويمتطى خيوله المجنحة ويكسر طوق الصمت:

في زمن يغتال الأنفاس! / في زمن تدفنه الجدران ،/ وتغمره خوذ الحرّاس! / صمت ، / في زمن يغتال الأنفاس/ كنا ، لكن قصائدنا / تختال مجنحة الأفراس![4]

مما يجعلها ويجعل الشعراء هدفا للطغاة، ويصنع علاقة حتمية بين القصيدة والصليب وبين فعل القـــول وفعل الصلب الذي يستقبله الشعراء في رضى وحبور ما داموا قد قالوا كلمتهم.

فلكي تكون شاعرا، يكفي وجود القلب، ودمعة حرى ليوم الصلب!![5].

وهناك فوق الصلبان يرمي الشعراء بنار قصائدهم فتنمو وتتكاثر سيوف الحروف البتارة حول الصلبان وتعانقها، فيغدو الصليب والقصائد شجرة عريقة ذات جذور تمتد إلى القدم وثمار وقطوف دانية:

والذين يرجمون / قصائدي وينكرون / سيفها مسمرا على الصليب/... للصليب يا أحبابنا جـــذور/ وحيث فوقه، سيف قصيدتي قطوف / من السيوف[6].

وتستمر جدلية الشعر والصلب مع معين بسيسو في "القصيدة والخنجر" لأن الشاعر وحده من يتجشم مخاطر القول، ووحده الفائز بشرف الصلب، ويتحدى بسيسو إن كان هناك من يستطيع الوقـــوف في وجـــه الطغاة وقول الحقيقة غيره والفوز بإكليل الشعر :

من يشتري جناح بجعة، / صليب شاعر، / من يشتري الإكليل؟ / أين الذي يقول؟ / ونجمه يظل فوق

---

[1] - عبد العزيز أحمد هلالي –أنغام شاردة - 21.

[2] - مظفر النواب - الأعمال الشعرية الكاملة - 503.

[3] - الصافي النجفي – حصاد السجن - 71.

[4] - جواد جميل – للثوار فقط - 18.

[5] - المصدر نفسه –42.

[6] - معين بسيسو - الأعمال الشعرية الكاملة – 283 - 284.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رأسه ، / أين الذي يقول؟ / كذابة أجراسكم / كذابة سنابك الخيول![1].

فحتى وإن أحجم العراف عن قول الحقيقة، وخاف من إبلاغ ما تنبئ به قراءاته للمستقبل، فإن الشاعر لن يسكت، بل إنه ينوب عنه ويتحمل مسؤولية القول ونتائجها، إما ظلمة السجن التي تطال أيضا قلمه فتكبله وإما الموت، ولأن الحرب أزلية بين الشاعر والسلطان، ولأن نهاية الشاعر الثائر معروفة مسبقا فإن بسيسو يدعو الشعراء إلى اختيار خط القول وخط الموت الأفضل والأشرف ، إذ يصبح الصمت عن قول الحق والسكوت عن الظلم موتا آخر تأنفه نفوس الشعراء وتعافه مروءتهم ، ويموتون إن هم اقتربوا من بريق السلطان وبلاطه وتموت أشعارهم في حضرته إذ تغدو مجرد شعر في المخلاة[2] أو شعير، يقول :

الصمت موت / قلها ومت / فالقول ليس ما يقوله السلطان والأمير / و ليس تلك الضحكة التي يبيعها المهرج الكبير/ للمهرج الصغير / فأنت إن نطقت مت / وأنت إن سكت مت / قلها ومت[3].

في سير الشاعر في ركاب السلطان ومدح جواريه وغلمانه وتسوله ولهاثه من قصر لقصر، موتا آخر له، فقد رفض بسيسو هذه التجارة واختار منذ البدء موت النطع على موت الإنسان أوالضمير فيه[4]. ولذلك يحذر الشعراء من غصة الكلام الذي لا يقال، ويشبه الكلام المحبوس قسرا وخوفا بعضة الثعبان القاتلة، ليغلق أمامهم كل الخيارات إلا خيار القول، فالصمت موت والقول على هوى الطغاة موت والكبت موت:

الماء في فمي، لكنما الكلام / إن لم تقله مثل عضة الثعبان، / يقتل الكلام[5].

ويشهد توفيق زياد ما تحدثه الكلمة الجريئة من معجزات فيضم إلى قائمة أحبابه "كلمة جريئة تقال للظالم"، مفسحا أمامها وخلفها المجال لتأويل ما تركه من نقاط تتعلق بطبيعة هذه الكلمة ومن تقال فيه أو له :

أحب كل قبضة مهزوزة / في أوجه الأنذال / وكل جبهة شامخة / في ساحة النضال / وكل كلمة جريئة... تقال..[6]

ويتحدى درويش سجانيه ويؤكد لهم أنهم مهما شدوا وثاقه ، ومهما منعوا عنه الدفاتر والأقلام والسجائر، ومهما حاولوا إبعاده عن وهج القصيدة ، فإنه لا يستطيع إلا الكتابة ولو بنحت شعره بأظافره على جدران السجن لأنها تشبه الخناجرأو أي شيء يمكن به تخليد بنات الشعر،ولا يستطيع إلا القول في كل مكان ، في غرف التوقيف، تحت سياط الجلاد، تحت القيد ، في قمع السلاسل، في السجن، ولا يستطيع إلا لغة الرفض

---

[1] - معين بسيسو - الأعمال الشعرية الكاملة – 283 - 284.

[2] - المصدر نفسه – 282.

[3] - المصدر نفسه – 287.

[4] - المصدر نفسه – 265 - 266.

[5] - المصدر نفسه - 253.

[6] - توفيق زياد – الديوان - 141.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والعزف على وتر اللحن المقاتل فقد امتزج الشعر بدمائه وتوحد بذراها :

شدوا وثاقي / وامنعوا عني الدفاتر / والسجائرْ / وضعوا التراب على فمي / فالشعر دمّ القلـــب.../ ملح الخبز.. / ماء العين / يكتب بالأظافر / والمحاجر / والخناجر / سأقولها / في غرفة التوقيف / في الحمام.../ تحت السوط../ تحت القيد../ في عنف السلاسل../ مليون عصفور / على أغصان قلبي / يخلق اللحن المقاتلْ[1].

ويتحداهم مرة أخرى أن يجلدوا صوته إن استطاعوا إدراكه أو إمساك صداه ويصيح فيهم ويهتف أنا "لا أهاب"[2].

ومثلما يطلب السلطان رأس الشاعر ويسلط عليه كلاب التنصت تلاحقه أنّى ولى ، فإن الشاعر هـــو الآخر يطلب رأس السلطان وهو الأعزل الحافي القدمين ، الذي لا يملك إلا حراب الحروف يغمدها في أحداق الأعداء ويلجمهم بها[3].

وإذ يكتب الشاعر من أعماق سجنه ، وإذ يرسل شواظ قلمه إلى ساحات المعركة فـــذلك مبتغـــاه، وذلك دوره في الكفاح برغم الرقيب ، وبرغم خطى السجان التي يحسها فوق أوراقـــه المهربـــة إلى المطـــابع المدوية هي الأخرى والمساهمة في معركة المصير، فلذلك يهتف ممجدا هذه الآليات العبقرية وهي تخوض الحرب جنبا إلى جنب مع المدرعات في خطوط النار، ممجدا قصف رعد المطبعة، قصف رعد الكلمة، معربا عن فرحه أن أدّى دوره في الكفاح:

أي أيام عذاب / أن يكون الحلمُ دوري في الكفاح / وأنا أكتب دوري في الكفاح / وأنا أكتب مـــن أجل القناه / وخطى السجان فوق الورقه / وبقلب القاهره / قصف رعد المطبعه / قصف رعد الكلمه / يامجد الكلمه / حينما تغدو عناقيد ضياء / في أيادي الشعراء[4].

لذلك يسمي الرئيس العراقي نورى السعيد الذي حارب المثقفين وحاصرهم "عدوّ المطبعـــة" حينـــا و"عدوّ أشواق الورق" حينا آخر، ويتحداه بأنه وإخوانه الشعراء ماضون على درب القول وطباعة قـــذائفهم، وإن صادرها فسيعيدون الكرة تلو الأخرى[5].

ويعرب مظفر النواب عن بالغ حزنه وأساه على الرقابة المشددة من طرف كل الحكومات العربية على شعره، على صمته، على أوراقه ، على حركاته وسكناته وكل أحواله ، ويتألم للمنع الذي طال قصائده بسبب موضوعاتها الجريئة ، ويكفي دليلا على ذلك المنع ديوانه الذي لم تستطع جل دور النشر العربية تحمل مسؤولية

---

[1] - محمود درويش - الديوان - 123 - 124.

[2] - غسان كنفاني - الآثار الكاملة - 275/4.

[3] - معين بسيسو - الأعمال الشعرية الكاملة - 198، 231، 295.

[4] - المصدر نفسه - 78 - 79.

[5] - المصدر نفسه - 93 - 94.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إخراجه إلى النور، فطبع بلندن، وطبعت بعض دواوينه في فلسطين ، ولكن هذا المطبوع أيضا ممنوع في معظم البلاد العربية[1]، ويتساءل الشاعر في ألم شديد إن كان له في هذا الوطن الكبير حق في الكلام متى يشاء ، والصمت متى يريد ، والمشي في الشوارع غير الرئيسية والبكاء ، وإن كان له فيه حق من حقوق النشر والتوزيع ولو للنيران مجانا ، كما يفعل الحكام ببعض الكتب المصادرة:

لماذا يدخل القمع إلى القلب / وتستولي الرقابات على صمتي وأوراقي / وخطوي ومتاهاتي/ ألا أملك أن أسكت / أن أنطق / أن أمشي بغير الشارع الرسمي / أن أبكي / ألا أملك حقا من حقوق النشر / والتوزيع للنيران مجانا[2].

ومن حبسه في سجن الرملة يرسل "حنا أبو حنا" عام 1958 بطاقة إلى الرفاق، يكشف لهم فيها عجز العدو عن حبس أناشيده ، إذ لم تزد القيود قصائده إلاّ تمردا وانطلاقا ، أرادوا إسكاتها بالحبس فإذا بها تتحوّل تحت لهيب السجن وعذابه إلى شواظ من نار تأكل السلاسل والقيود، وجحيم يقذفها الشاعر في وجه الطغاة ويقض مضاجع الخصوم، ويستثير الرعب حتى في الحديد الذي أرادوا تطويقه به، وتصبح القصيدة المتحدية أقوى من السجن وأقوى من الجند المدجج بالسلاح ، ومن الحواجز والسدود ومن حشود العلوج :

خسئوا فما حبسوا نشيدى / بل ألهبوا نار القصيد / نار تأجج ، لا تكبّل / بالسلاسل والقيود / نار، جحيم للطغاة / وزمرة العسف المريد / شرف لشعري أن يقضّ / مضاجع الخصم اللدود/ فاعجب لشعر يستشير الرعب / في مهج الحديد / أقوى من السجن المزنّر/ بالعساكر والسدود / أقوى وأصلب من حشود علوجهم / أبدا نشيدى[3].

وكذلك تصبح كلمات البياتي قذائف تدك جدران السجون وتكتسح بحروفها المتوجهة الطغاة لتنير طريق المستضعفين في الأرض وتصنع المعجزات:

كلماتنا ستدك جدران السجون / وتضيء للموتى منازلهم وتكتسح الطغاة / بحروفها المتوهجه / كلماتنا ! ما كان لا، عبثا يكون[4].

وتصير قصائد محمد بهجة الأثري شواظ نار يحرق بها الأعداء ويرهق نفوسهم:

بشراي إني سوف أرهق نفسه صعدا وأحرقه بنار قصيدي[5].

---

[1] - عادل الأسطة - مظفر النواب - الصوت والدى - 136.

[2] - مظفر النواب - الأعمال الشعرية الكاملة - 203.

[3] - غسان كنفاني - الآثار الكاملة - 271/4 - 272.

[4] - عبد الوهاب البياتي - الأعمال الشعرية - 1/ 229.

[5] - محمد بهجة الآثري - ملامح... وأزهار - 108.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالشرف كل الشرف لشعر يغيظ الأعداء ويقلق راحتهم، ويهزم ترساناتهم العديدة والمتنوعة، من سجون وجنود ومخبرين وجلادين وآلات عذاب وفنون تعذيب، والمجد كل المجد للشعراء والكتاب الواقفين في وجه الطغاة، الخائضين بسلاحهم الفريد معركة المصير:

المجد للشعراء والكتاب، أحباب الحياة / الخائضين، اليوم ، معركة المصير / والضاربين يد الطغاة[1].

ولذلك ينتهي مظفر النواب إلى أن المدينة لا تكون إلا بالشعراء ، فإذا منع الشعراء من القول ، أو احتكر فن القول غيرهم من أصحاب مخالي الشعر أو الشعير -كما نعتهم بسيسو من قبل- فلن يرتفع في سمائها إلاّ نقيق الضفادع الذي يعلن عن موتها:

مدينة يمنع فيها الشعر / أو يحتكر الكلام كالشعير يا حبيبتي / يقتلها النقيق[2].

كانت هذه إحدى صور تجربة السجن بكل مراحلها من لحظة الاقتياد إلى السجن إلى أقبية العذاب وما يتجرعه السجين بين جدرانها و خلف قضبانها من عذابات معنوية ومادية كثيرة ، تتمازج فيها الحقيقة بالخيال، والتراثي بالأسطور تتناول جانبا من جوانب حياة السجين هو صلته بالمكان قبرا ، قبوا، زنزانة، جحرا، نافذة ، كوة... من جهة ، وصلته بالسجان وما تحت يديه من آليات العذاب من الجهة الأخرى ، وهما لازمتان مريرتان تطاردان السجين وتحاصرانه أنى ولى وجهه وقد صارعهما بأساليب شتى بالصبر والتجلد حينا وبالمواجهة والتحدي حينا آخر، وحاول بأسلوب آخر تجاوزهما إلى فضاءات أرحب من ضيقهما وقتامهما.

[1] - عبد الوهاب البياتي - الأعمال الشعرية - 196/1.

[2] - مظفر النواب - الاعمال الشعرية الكاملة - 137.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

X Z

* الفصل الثالث *

تجاوز محنة الحبس بصناعة فضاءات أخرى

- التواصل مع الأهل والأحباب.
- تحول السجن إلى ناد أدبي وفكري ومدرسة علمية، أو جامعة.
- الهروب إلى ملاذات أخرى.

E Θ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- التواصل مع الأهل والأحبـــاب :

إن انفتاح شعراء الحبسيات على السياسة وانشغالهم بالجوانب الوطنية وإغـــراقهم في عـــوالم الـــرفض والثورة، واندفاعهم في خطوط النضال السياسي حتى وهم خلف القضبان حتى كادت السياسة أن تكـــون الهواء الذي تتنفسه أشعارهم الخارجة من هناك ، إن كل ذلك لا يعني تجردهم من ذواتهم وتخلصهم من جوانب حياتهم الاجتماعية، ذلك أن الإنسان كائن اجتماعي يحتاج إلى تواصل مع الآخرين وبناء علاقـــات متنوعـــة معهم، ولا يستطيع العيش بعيدا عن ذلك الوسط الحيوي، إنه في حاجة دائمة إلى الانتماء والارتباط بالآخرين، "وهي حاجات حيوية عند الإنسان تنمي إحساسه بذاته وتشعره بوجوده الإنساني"[1] إلى جانـــب حاجيـــات كثيرة اجتماعية وبيولوجية وشخصية.

ولكن السجن وقف حائلا بينها وبين نزلائه فاستسلم بعضهم لقوانينه الجائرة الضـــاغطة، وانتابتـــهم حالات من الخمود والكآبة والفتور، وتمرّد بعضهم الآخر بصناعة عوالم خاصة تشعره بانتمائه، وكان منـــهم الشعراء الذين لم تلغ الجدر والحواجز والحراس والقيود وكل ما أعد داخل السجون لشل حركة السجين رغبته في التواصل بالآخرين، بالأهل، بالأحباب بالأصدقاء ، برفاق النضال، لأن الإنسان إذا حرم من شيء مرغوب فكر فيه أكثر مما كان يمتلكه[2]، وركب في سبيل الوصول إليه المخاطر، وكما حاول الشعراء من قبل اختـــراق ممنوعات السجن والحصول على أدوات الكتابة وتهريب ما كتبوا بواسطة ما اصطلحوا على تسميته بعصابات التهريب، وكما حاولوا من قبل اختراق فضاء السجن والاطلاع على العالم الخارجي من النوافـــذ المختنقـــة بالحديد، وأنصاف النوافذ إن وجدت، ومن الكوات الصغيرة المعلقة في أي ركن من أركان الغرفة المظلمة ومن ثقوب المفتاتيح والسجان يقف وراءها لمنع حزمة النور من التسلل إلى الداخل. فإذا كان السجن ضـــريرًا أو أعمى بلا كوة لجأ أولئك المقبورون في أحشائه إلى التنصت لحركة الحياة خارجـــه و لم يستســـلموا لإبعـــاده الاضطراري، وقنعوا في أشد لحظات العزلة بالإنصات إلى صدى الخطوات الآتية مـــن بعيـــد إلى أن تختفـــي وتتلاشى ويطبق السكون والظلام قبضته. وتعرفوا من خلاله على الزمن واتخذوه ساعتهم المفرقة بـــين الليـــل والنهار،فقد حاولوا التكيف مع طقوسه بأساليب إن دلت على شيء فإنما تدل على صمود الشعراء وتحـــديهم روتين السجن وتجاوزهم كآبته وتكرار أحداثه حدّ الملل بصناعة عوالم شتى عوضوا بها حرمانهم الشديد، لأن الحبسَ يقوم أساسا على الحرمان من الحرية، ولأن حرمان أي جانب من جوانب الحياة وحاجياتها الأساســـية يدفع بصاحبه "بالضرورة إلى تعويض محتوم"[3].

وقد كان الشعر أول جسر يمدونه للتواصل بالأهل والأحباب، يسألونهم عن مواطن حيـــاتهم الحـــرة،

---

[1] - محمد عثمان نجاتي – القرآن وعلم النفس – دار الشروق - القاهرة - 1985 -47.

[2] -جان كازونوف-سيكولوجية أسيرالحرب- ترجمة عدنان سبعي وخليل شطا-دار دمشق للطباعة والنشر-سوريا-دار لبنان – ط1 - 1983 – 37.

[3] - المرجع نفسه - 15.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يفضون إليهم بلواعج أشواقهم، يوصونهم، يصبرونهم وأحيانا يبثونهم أحزانهم وشكواهم، وأحيانا يمتطون إليهم الأحلام كنوع آخر من التعويض، ينعمون فيها للحظات بقربهم، لأن الحلم لا يقدم للمعتقل أو السجين مشاهد من عالمه الحاضر، ولكنه يقدم له غالبًا "رؤى تحمله إلى ما بين أسرته. وإلى بلده، بالقرب من أصدقائه ومعارفه، فهو يجد نفسه حاضرا في كل ذلك الماضي"[1].

وفي كثير من الأحيان لا سيما في المعتقلات والمحتشدات والزنازين الجماعية ينشئ السجناء مجتمعات أخرى صغيرة بديلة عن مجتمعهم المفقود ويصنعون نظاما داخليا يتقاسمون فيه الوظائف والواجبات بطريقة يعجز عن تحقيقها عتاة السجانين بسياطهم وعصيهم، ولكن التآلف والحاجة صنعتاه بعفوية وتلقائية، ورسم لنا الشعر بعض ملامح تلك الحياة بمؤسساتها العلمية والدينية، والثقافية والفنية وغيرها. كما انفتح الشعراء على بعض عذابات رفاق النضال معهم في السجن أو في سجون أخرى عبر أنحاء العالم وبخاصة الشهداء منهم، وأطلوا على فضاءات الأمل في الغد القريب، أو فضاءات إيمانية روحية وارتمى بعضهم بين أحضان الطبيعة، ومنهم من هرب من سجنه إلى عالم آخر يغيب فيه عن الإدراك، هو عالم الخمر كما فعل مصطفى وهبي التل، ولكنهم أجمعوا كلهم على الهرب إلى عوالم الأمل الفسيح في الغد المشرق ورأوه قاب قوسين أو أدنى.

ومما تجدر إليه الإشارة أن الشعراء حتى في هذا الجانب الوجداني اللصيق بالذات، خاصة ما تعلق بمناجاة الأهل والتواصل معهم لم يستطيعوا التخلص من السياسي، فكان هناك تداخل بين الاثنين وتمازج يستعصي معه الفصل بينهما، فما تلك العوالم التعويضية المصطنعة وما تلك القصائد المجنحة إلاّ من نتاج ذلك الواقع السياسي بكل ملابساته، بكل قمعه واستبداده.

ويأتي التواصل مع الأهل في مقدمة الفضاءات النفسية التي صنعها السجين هروبا من واقعه المسدود الآفاق وبحثا عن بعض أجواء السعادة والفرح في ربوع الماضي، فمما لاشك فيه أنهم جميعا خلفوا أهلا يبكون فراقهم (أمهات - آباء - زوجات - إخوان وأخوات، وأبناء) ويحنون إليهم ويتوقون إلى سماع أخبارهم. ويبدو أن أكبر مساحة للحوار والتواصل هي تلك التي منحها الشعراء للأم والزوجة والحبيبة، كونها أول المتألمين للفقد وأشدهم حزنا، فهذا عبد العزيز أحمد هلالي يخص الأم وحدها بأربع قصائد، يتخيلها في الأولى تطوف أركان بيتها وتتحسس آثار ابنها الغائب ومواطنه، غرفته الخالية، سريره الموحش، وتغرق في ذكريات الصفو والهناء وترحل إلى عوالم طفولته وأماكن لعبه ولهوه تسترجعها مع أخته إلى أن تخنقها العبرة وتفيض الأحزان، وتتذكر ليلة اختطافه وتذهب معه بالخيال إلى السجن لتعود العبرة الخانقة من جديد ورعدة الحزن والأسى :

هنا حجرة لم تزل خاليه / هنا المهد في وحشة باديه / هنا قصة النشأة الغاليه / هنا كان يلعب يا

[1] - المرجع السابق - 48.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"ساميه" / وتختنق النظرة الحانيه / وترعد في حزنها أميه/ هنا كانت الليلة الشاتيه / هنا راح من بين أحضانيه/ ليحيا مع الذل في ناحيه / بسجن ضراوته عاتيه/ هنا كبلوا ابني يا ساميه / وتختنق النظره الحانيه...[1]

وفي قصيدة أخرى يبثها شكواه من ظلمة السجن وحديده وينقل إليها بعض تفاصيل حياته هناك، فيبدأ بالصباح الذي يفقد معناه في السجن بكآبته، إذ يصطدم بحواجز السجن فلا ينير كما اعتاده الشاعر، تعقبه الوحدة القاتلة وما تصنعه بالنفوس، وهنا بين يدي الأم تسقط كل الحواجز، فإذا تقوى السجين أمام سجانه وتحدّاه بصبره وتماسكه الخرافيين فإنه بين أحضانها لا يستطيع مقاومة ضعفه الإنساني فيبكي ويفضي إليها بجانب منه، ويبثها شكواه من قيوده وحديده الذي قتل كل أمانيه وزرع اليأس القاتل في كل دروبه:

يا أم قد طلع الصباح/ صبح كئيب لا ينير وعلى مفاتنه ستور/ سود تكللها الجراح/ يا أم إني ها هنا/ وحدي هنا/ أبكي الشباب الذّاويا / أبكي الأماني الغاربه / أبكي وقلبي المستجير / من قسوة الدنيا يثور/ ويصيح بي أين الخلاص؟ / فأقول : في طيّ القبور / يا أم إني ها هنا..يا أم إني ها هنا / وحدي مع القيد الحديد/ في ظلمة السجن العتيد/ ظمآن يهفو للحياه/ والدهر يسلبه مناه .[2]

ويروي لنا إحدى اللقاءات الحزينة التي أتاحها السجن، وأي زيارة هي ! وصف من الجنود يطوقها وقبلهم سلك من الحديد الصلب يقف بينه وبين هذه الزائرة التي هيجت أشواقه وهزت فؤاده عند اللقاء بنظرها العاطفة الحانية ونجاوى عينيها وصمتها الحزين ، فمنتهى مناها ضم قرة عينيها السجين ولكن سلك الحديد العاتي الشديد. وصف الجنود يحولان دون المنى ودون العناق، ويشتم الجنود رائحة الطعام ويرونه من بعيد فيصادرونه باسم النظام والقانون، غير عابئين بتوسلات دموعها ورجائها، لتصدم القلوب بالصفير الحاسم المنذر بنهاية اللقاء، ويحين موعد الفراق وصيحات الجنود، ولا سبيل إلى الوداع فسلك الحديد وصف الجنود يحولان دون ذلك الوداع الكئيب:

دموع تفور/ وشوق كلفح اللظى في الصدور/ ووجد يثور/ يهزّ الفؤاد لدى الملتقى/ وكل الأسى/ وأنة أم براها الحنين/ لضمة قرة عين/ وقيد حديد/ وسلك من الصلب عات شديد/ وصف جنود/ يحولون دون عناق الحديد/ ويا رّب أم تعد الطعام/ وباسم النظام يردّ الطعام/ فيعلوا البكاء/ ويصرخ في الأم قلب شهيد/ وفي لوعة الحزن تلقى الرجاء/ وراء الرجاء/ لعلّ الجنود/ يرقون في مأتم للشجون/ ويعلو الصفير/ ويصدر أمر خطير مرير/ وبين الصفير وبين الزفير/ يصيح الجنود/ بلحن الوعيد/ وباسم النظام/ وكيف الوداع وكيف السلام؟/ ومن بيننا قام صخر مشيد/ وصف جنود/ يحولون دون الوداع الكئيب[3].

ويوجه إليها رسالة شعرية يحملها رجاءات متتالية ويوصيها إن هو مات أن تطوف بجثمانه كل حجرات البيت وكل ركن من أركان ذلك الفضاء الذي ضمه ذات يوم، وتهبه كل ما حرمته منه جدران السجن،

---

[1] - عبد العزيز أحمد هلالي – أنغام شاردة- 34 - 36.

[2] - المصدر نفسه - 23 - 26.

[3] - المصدر نفسه - 31 - 33.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حنانها قبلاتها صدرها الدافئ، لمسات كفيها، وتروي قلبه الظمآن بكل ما حرمه، ويوصيها بإخوته الصغار أن تزودهم بالصبر، لأن الموت حق، ويحملها رسالة إلى أبيه الملتاع، الحائر. فقد حفظ عهوده ودروسه وها هو يلبس ثوب النبل ويختاردرب العلا[1].

كما يبعث محمد جميل شلش برسالة شعرية إلى أمه ردًّا على رسالتها الحزينة الباكية: " يا حبيبي، هكذا خلفتني، وحدي، غريبه، أشرب الدمع، وأجتر السّواد"[2]، حاول فيها أن يرفع من معنوياتها بتجاوزه المحنة، فها هو يكتب إليها، ورؤى العالم الخافق بآلام العروبة تتراقص أمام عينيه، وها هو باق على عهد وفائه وإخلاصه لها، ويدعوها أن تكفكف دموعها، لأنه لم يكن مجرمًا أو سارقا أو كافرا، وأن تهدأ وتبتهل في صلواتها ودعائها له ولهذا الشعب الصامد الذي قد يعرى ويجوع ولكنه لن يتوقف عن نشدان الحقيقة:

من هنا أكتب باسم الحب.../ يا أمي الحبيبة / وبقلبي / يرقص العالم خفاقا.../ بآمال العروبه،/ كفكفي دمعك يا أماه.../ من أجلي.../ فما يجدي البكاء؟/ أنا لم أشرب دم الناسِ.../ ولم أسرق طعام البسطاء ،/ أنا لم أقتل بريئا ،/ أنا لم أكفر بربّ أو سماء ،/ فاهدئي، وابتهلي من أجلنا.../ نحن يا أماه، من أجل غد الإنسان نمضي/ للسراديب العميقه ،/ ونغني خلف سور الليل والقضبان.../ من أجل الحقيقه / مرة أخرى... ومن أعماق قلبي/ لك يا أمي.../ لعينيك.../ تحياتي.../ وحبي[3].

كما يوجه شاعر "أنصار" الذي وقع قصيدته باسم "قيس -أكاديمية أنصار الثورية" رسالة إلى أمه يذكرها فيها بالمصير الذي آل إليه عالمهم من تشرد وضياع على يد اليهود ، فهذا أخوه مفقود في الجبل لا تصلها أنباؤه، وهذا هو في السجن لا يملك رسولا إليها غير دفتر أشعاره، وذاك رفيقه يسقط شهيدا، ولكنه مع كل ذلك يدعوها إلى الصبر وكفكفة الدموع، لأن حزنها ودموعها تضاعف آلامه، فيكفيه ألم الأصفاد وسياط الجلاد وهمجية الأوغاد:

أمّي لا تبكي سجني / وأنا موجود في السجن / وأخي مفقود في الجبل / ورفيقي استشهد في الوادي/ لا تبكي أمي أرجوك / يقتلني حزنك / يكفيني ألم الأصفاد/...ظهري يؤلمني / آثار من ضرب الجلاد / والباقي من طعن الأوغاد / لا تبكي أمي أرجوك / حزنك يقتلني يكفيني ألم الأصفاد[4].

ومثله يتوجه جواد جميل إلى قلب الأم بشكواه وآلامه التي فاقت التصور "إنني مرَّ على عيني، تأريخ رهيب لا يصدق"[5]، ولكنها لا تفتأ برغم الانسداد الذي يملأ عليه الآفاق تبعث فيه الأمل وترتفع به من دركات اليأس إلى مدارج الأمل والصّبر، وهو ما يبشرها الشاعر به :

---

[1] - المصدر السابق - 61 - 64.

[2] - محمد جميل شلش –الحب والحرية - 170.

[3] - المصدر نفسه - 172.

[4] - حسن سعدون – أنصار 33 - أدب المعتقل- 235.

[5] - جواد جميل – للثوار فقط - 80.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتقولين : وراء الأفق كوكب / لست أدري، / هل نشق الأفق، / بالسيف الخرافي المذهَّب:/ وتقولين : دعو الجرح الدفين / غافيا تحت جدار المقبره / إننا نخفي وراء الجلد يا أماهُ / برديا، وطين/ وسماء مقمره/[1].

وبلغة الواثق في الغد التي عوّدنا عليها جل الشعراء يخاطب سميح القاسم أمّه، وهو يتخيل بعض ما تفعله أي أم فجعت بفقد فلذة كبدها في غياهب السجون، فيحزن لأرقها وبكائها الصامت من أجله، وأسئلتها المكبوتة عن يوم عودته، ويتألم لإحجامها عن الطعام أو فقدانها الرغبة فيه، فكل ما في البيت يذكرها بالفراغ الرهيب الذي خلفه وراءه، مقعده الخالي، ضحكاته...كلامه...، لإجهاشها بالبكاء كلما سأل عنه أصدقاء، ولكنه لا يفقد الثقة أبدا في المستقبل، فيخاطبها في يقين الواثق ويؤكد لها أن روعة الحياة إنما تولد من رحم المعتقلات، ولن يكون زائره المقبل خفاشا أعمى، وإنما هو النهار الذي ينحني له السجان وتتهدم من لهيب ناره جدران المعتقل:

أماه كم يحزنني / أنك، من أجلي في ليلٍ من العذاب / تبكين في صمت متى يعود/ من شغلهم إخوتي الأحباب / وتعجزين عن تناول الطعام / ومقعدي خالٍ... فلا ضحك... ولا كلام لكنني أومن يا أماه/ أومن...أن روعة الحياه/ تولد في معتقلي / أومن أن زائري الأخير... لن يكون / خفاش ليلٍ...مدجلًا، بلا عيون / لا بدّ أن يزورني النهار/ وينحني السجان في انبهار/ ويرتمي..ويرتمي معتقلي/ مهدما...لهيبه النهار[2]!!

أما بلند الحيدري فيحملنا إلى مشهد الانتظار الطويل المرير الذي طالما عاشت جحيم سرابه الأمهات المفجوعات بمباغتات زوار الفجر، لا يعلمن إلى أين ساروا بفلذات أكبادهن ولا متى يعودون إن كتبت لهم العودة، وما أمه إلاّ واحدة من مئات المكتويات بلظى الانتظار الليلي الطويل، فيراها تهتز كلما لاح لها في الأفق ظل ويجيبها كأنه أمامها يراها ويشاركها ألمها، أن ذلك ليس ظله، ويلوح ظل من جديد ولكنه أيضا ليس ظله فهو هناك يجر أغلال الحديد،ويدق منتصف الليل وهي كباقي الأمهات عينان مفتحتان تنتظران من آت لآت، ولكنه لا يأتي إلاّ أبناء الليل، تمرّ أقدام سكارى وتمر حولها وشوشات وأحاديث عن عذارى، وتعبر قهقهات المومسات، وتبيت أمه تهمهم قلقا وتسترجع ذكريات فقيدها، ويلوح ظلّ... لكنه ليس ظله أيضا وهل لمن يعيشون داخل السجن الأعمى ظلال :

واهتز ظل من بعيد / لا...ليس ظلي/ فأنا/ هنا / في السجن يا أمي أجر براءتي / في ألف غل/ ويدق نصف الليل...نصف الليل/ مثل الويل/ ينبش في قلوب الأمهات / عينان / تنتظران من آت لآت / ...وتظل أمي قلقا يهمهم في السكون وحفنة/ من ذكريات / ورؤى تهوّم حول اسمي/ ويلوح ظلّ من جديد / لا.../ ليس ظلي/ فأنا...هنا / في السجن يا أمي/ هنا ... وحدي أعيش بدون ظل[3].

وتغيب صورة الأب فلا نراها إلاّ طيفا خفيفا يخاطبه عبد الغفار محمد زكي معاتبا على عدم الزيارة،

---

[1] - المصدر السابق - 79 - 86.

[2] - سميح القاسم – الديوان - 97 - 98.

[3] - بلند الحيدري – الديوان - 425 - 428.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويذهب في تأويلات واحتمالات شتى لهذا العزوف، فربما كان النسيان سبب هذا النفور ، وربما غادر البلاد كلها، وربما تجنب زيارته حتى لا يضعف أمامه وينفلت منه زمام الدموع، ويواصل رجاءه وتوسله المعرب عن مسيس الحاجة إلى الأهل لمواساته والتخفيف عنه، ولولا أن المرجو هو الوالد لحسبناه يستجدي الزيارة استجداء لتجاوز محنته أو حتى نسيانها ولو للحظات قصار هي وقت الزيارة، يقول :

يا والدي لم لا تزور وأنت ذو القلب الكبير؟
لم لا أرى الأب الحنون وبسمة الوجه المنير ؟
هل يا ترى نسي الوداد فلن أرى غير النفور؟
أم يا ترى ترك البلاد بلا وداع أو نذير ؟
أم خاف أن يأتي إلي فيسكب الدمع الغزير ؟
يا والدي رحماك إن الأرض من تحتي تمور
والدمع جف من العيون وبت كالشيخ الضرير
فارحم شبابي الغض واحضر أيها الشيخ الوقور
لتزور سجني، قبل اللقا يوم النشور[1].

كما أشار إليه عبد العزيز أحمد هلالي في ثنايا وصاياه و إفضاءاته للأم[2]، ولا يحضر إلاّ في قصيدة واحدة أين اختصه أحمد سحنون بتحية عدد فيها خصاله وفضائله عليه[3].

ومن إفضاءات الشعراء إلى الزوجة، شريكة العمر وأم الأولاد وراعيتهم في غياب الأب، رسالة مصطفى وهبي التل وقد زاره خيالها وخيال أطفاله ليلة العيد و آله حزن الزائر فرجاه ألا يعود بتلك الحال إلى حمى سجنه وكوخه الكئيب، ويعتب عليه إذ لم يبادله التحية والترحاب اللائقين بلقاء من طال به الغياب، ويسبح في عوالم الماضي السعيد والذكريات، ويستنجد بالدموع علّه يستريح ولكنها هي الأخرى تضن عليه فيبقى حبيس آلامه، يقول معاتبا أطياف الأحبة وقد برح به الشوق وأضناه الحنين :

أهكذا حتى ولا مرحبا ... لله أشكو قلبك القلبا
أهكذا حتى ولا نظرة !! ... ألمح فيها ومض شوق خبا
أهكذا حتى ولا لفتة !! ... أشم منها عرفك الطيبا
يا هند برق لاح لي موهنا ... تنورته العين مستهضبا
فرف بالقلب رسيس الهوى ... وود صدع الشمل لو يرأبا
خيال أطفالي وقد زرتني ... غداة أمس العيد مستعتبا

---

[1] - محمد محمود العرباوي – الشعر في سجون مصر – 715 - 716.
[2] - عبد العزيز أحمد هلالي - أنغام شاردة - 64.
[3] - أحمد سحنون – الديوان - 76.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من كوخ إرهاقي وهذا الحمى حذار بعد اليوم أن تقربا[1]...

وبعد عشرة أعوام أخرى وفي تجربة سجنية أخرى[2] يتذكر أيضا زوجته في ليلة عيد الفطر، فتجيش به الأشواق ويقف السجن حائلا بينه وبينهما فيغرق في الذكريات وتتراءى له الزوجة بفتنتها المادية المعهودة فيغرق في وصف مواطن سحرها ويسألها موعدا للقاء ، ولكنه يصطدم بجدران السجن المركزي بعمان فيصدر صرخته اليائسة المتموجة عبر كل مقاطع القصيدة الطويلة "من لي بأن أدري" "يا ليتني أدري" "لا أدري" "يا ليتني أدري":

متى يا حلوة النظرات والبسمات والإيماء والخطر / متى أملي على الآلام والحدثان والدهر/ أحاديث الهوى العذري؟ / متى؟ / من لي بأن أدري! / متى يا حلوة الخطرات يا مياسة القد / يحل محل هذا النأي والتشريد والبعد/ لقاء؟.../ صه! فلن يجدي/ تساؤل عاثر الجد / وقل لبلابل الصدر/ صهي! حتى متى تتساءلين؟ / لا أدري....[3]

وفي ثنايا هذه المناجيات والتساؤلات الحائرة يتذكر هلال العيد وعمره الذي لم يجاوز اليومين ويسأل من حوله إن كانوا قد رأوه قبل أن يوصد السجان كوة الغرفة ويتذكر صغاره في العيد، فيعود إلى الزوجة يسألها إن كانوا قد ابتهجوا وأبهجوا العيد بلهوهم وألعابهم ويتخيل فرحهم فيمتد الفرح إلى بعض مقاطع القصيدة ونراها تهتز اهتزازا لنشوة الصغار وفرحة الأب لها حتى وإن لم يشاركهم، ليعود إلى العزف على الوتر الحزين وترديد اللازمة الفاصلة "لا أدري" جوابا على كل أسئلته عن أوان التلاقي:

أجاء العيد وابتهج الصغار وأبهجوا قصفه/ فهذا نافخ بوقا، وهذا ضارب دفه / إذن لعبوا...إذن طربوا../ إذن قفزوا...إذن وثبوا../كما يثب الغزال الغر وهو يطارد الخشفه / وكم زحلوقة زلوا / لها العينان تنهلّ / يقوم حيالها طفل / ومنها حظه اللهفه / وكم تحفه وكم طرفه.../ متى يا حلوة النظره / يكف زماننا عنا ؟ / ولو في عمره مره / أذاه ونكتفي شره... / متى...؟ / من لي بأن أدري! / متى...؟ / يا ليتني أدري![4]

ويتاح لمحمد بهجة الأثري مشهد القمر ليلة اكتماله، فيحرك فيه من الذكريات الجميلة التي كانت لهما يومًا تحت أنواره، فيهنأ للحظات قصار في دنيا الحلم والماضي البعيد، ويُشهد عليها القمر الذي قاسمهما سعادتهما ويحاول التواصل معها بواسطته :

أيا قمر التمّ...أذكرتني ليالي أفراحنا في "الفنار"
ليالي نلهو ولا ثالث يسارق أخبارنا أو يغار

---

[1] - مطفى وهبي التل – عشيات وادي اليابس - 59 - 61.

[2] - سجل القصيدة الأولى عام 1931 في ليلة عيد دون أن يحدده، وسجل الثانية في ليلة عيد الفطر من سنة 1941، وقد كان معه في السجن ابنه وفي التهمة نفسها "التآمر على الحكومة". (الديوان هامش 135).

[3] - مطفى وهبي التل – عشيات وادي اليابس - 135 - 136.

[4] - المصدر نفسه - 136 - 138.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

...وأنت على عرشك العبقـــري أنرت دجى ليلنا فاستنـــــار
مضى ما مضى مثل طيف الرؤى و لم يبق لي منه إلاّ ادّكـــــار
طوى الدهر عشرا على شملنـــــا فكيف طواها؟ وكيف استدار؟
فأين الزمان؟ وأين المكـــــــان؟ وأين الحبيب؟ وأين المـــــزار؟[1]

ولكن خيط الذكريات يتيه من يده فجأة فيعود إلى واقعه المرير يجر أذيال الخيبة ويفيق من غيابه ويدرك أن ذلك مجرد عهد ولّى و لم تبق منه سوى الذكريات.

ومما يعتري السجين من ويلات الحبس وأهواله تبدّل ملامحه وانطفاء إشراقته، وتعجيل المشيب على كثير منهم فهذا محمود طاهر العربي ينبئنا بما زرعه السجن من شيب راع زوجته التي عهدته بالأمس القريب فتيـــا، وأذهلها فعل الزمن السريع ولكنه لم يأسف لهذه الحال الجديدة التي أورثه السجن وإنما راح يجيبـــها في فخـــر واعتزاز بأن ذلك الشيب كان في سبيل الوطن، وهل تدهم المحن إلاّ الأحرار، وما هو إلاّ بشير بالخلاص بعـــد الأسر، والهناء بعد العسر :

راعها شيبي والعهد فـــــتى نضر الزهرة كالغض اللـــدن
عجبت مني وقالت: ويلتـــا يا فتى الفتيان من فعل الزمـــن
قلت يا ذات البها لا تجزعي إن هذا الشيب في حب الوطن
دهم الدهر شبابي بالأســـى هكذا الأحرار أهداف المحـــن
إن هذا الشيب فجر مشرق وفخار لا يســـاويه ثمـــــن
وبشير بالهنا بعد العنـــــا وفكاك الأسر مـــن دار الفتن[2].

ويفضي الشاعر محمد الشاذلي خزنه دار إلى زوجته بأحزانه ويطلب عندها راحة لنفسه المثقلة بالهموم، كما يدعوها إلى الصبر لأن غيابه مجرد سحابة ستزول بعودته القريبة إليها، ويوصيها برعاية الأبناء وتعلـــيمهم المبادئ التي رأتها فيه ، ويمدح فيها عفافها وكل فضائلها ، ويثني عليها حليفة له في نضاله السياسي بانخراطها الحزب الدستوري -كما شرح ذلك في هامش القصيدة- :

زوجي "حسنية" خففي لأوائي أعطاك ربك يا ابنة الأمـــراء
فلتصبري صبري فإنّي راجـــع لك بالسعادة فابشري بلقائي
غذي البنين وعلميهم نخوتـــي عملي همو وحياتي هم أبنـــائي[3]
كوني معي قربا وبعدا إنـــــني أهوى عفافك فالعفاف ردائي

---

[1] - محمد بهجة الأثري – ملاحم ... وأزهار - 356 - 358.
[2] - محمود طاهر العربي- هذا المجتمع الظالم (سجن مصر) 225 .
[3] - في الأصل : وحياهم أنبائي .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فيك الفضائل كلها جمعت فما حسناء فيهم شابهت حسنائـــي[1].

ويناجي عبد القادر المراكشي زوجته وقد حال السجن بينهما وكاد الأسى يتخطفه عليها إذ انقطعـــت أخبارها ، ولكنه يستبشر ببوادر النصر ويرى المسافة بينها وبينه خطوات قليلة سوف يخطوها ليفاجئها بزيارة ذات مساء أو صباح مكللا بتاج النصر، يقول على نهج نونية ابن زيدون الذي ابتلي هو الآخر بمحنة السجن والبعد :

خلوا سبيل الهوى يأخذ بأيدينـــــــا فقد يئسنا من النطس المداوينا
يا ليت شعري وكف الدهر قد بطشت أي المصائب لم تنزل بوادينـــا
سجن ونفي ولا رسل ولا كتـــــــب كأنما قد وئدنا في فيافينـــــــا
نأسى عليكم ولا نأسى بحادثـــــــة مهما انتشى سكرة منها أعادينا
فلم يعد بيننا و النصر غير خطـــــى قليلة سوف نخطوها ميامينـــا
فقد نفاجئكم إن طارقين مســـــــا أو مبكرين ونادي النصر حادينا[2].

أما معين بسيسو فيبعث برسالة إلى خطيبته صهباء البربري ويرمز إلى الحرفين الأوليين مـــن اسمهـــا في إهدائه "إلى ص ب"، يدعوها في أسلوب رمزي إلى النضال ، فقد كانت رفيقته فيه، وقد دفعت ثمنه حبس ما يزيد عن العام[3]، لذلك يحملها مواصلة الدرب ما دامت حرة طليقة، ومسؤولية إيقاظ الشـــعب لأن طـــوابير الكعوب الحجرية قد عادت إلى المدينة تعيث فسادا وتضم أطرافها تحت أجنحتها القوية أو كما أسماها الشاعر معطفها الحجري، ويشبه هذا الملتهم النهم بحدأة جائعة تلتهم ذلك العصفور وريشه يتطاير أعلاما أعلامًا :

عاد الطابورْ، / ليدق بكفك مفتاح مدينتنا، / عاد الطابورْ.../ والكعب الحجرية عادت، / والشارع كشراع إله مكسورْ / قد ألقى الطابورْ / معطفه الحجري، / على عظم مدينتنا المكسورْ / أين شـــراعك؟/في منقار الحدأة عصفور/ تمضغه والريش يطيرْ / أعلاما، أعلاما، الريش يطيرْ[4].

ويهديها قصيدة ثانية يصرح فيها باسمها "هي مصباح علاء الدين إلى صهباء".[5] أما بلنـــد الحيـــديري فيذهب مذهبا آخر غير عوالم الحلم والذكريات والبوح التي ولجها الشعراء وتخففوا في ظلالها من أثقالهم، دون أن يتخلصوا منها أو ينسوا واجبهم وحاجة الأوطان إليهم، فإذا استحضر الآخرون الزوجة وحاوروها وحملوها وصاياهم وأفرغوا بين يديها آلامهم، ها هو بلند الحيدري تحضر إليه حقيقة أو حلما فيردّها لأن مرآها يـــوقظ

---

[1] - محمد الشاذلي خزنه دار – الديوان – 76- 79 .

[2] - إبراهيم السولامي – الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية – 121.

[3] - عاشت معه هي الأخرى تجربة السجن (27 - 07 - 1959) ومكثت في السجن الحربي أربعة أشهر، وتسعة أشهر في سجن النساء بالقناطر ، وكانت بعد خروجها من بين الذين يهربون أشعاره (بسام علي أبو بشير- معين بسيسو حياته وشعره- 40)

[4] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 175 - 177.

[5] - المصدرنفسه - 254 - 255.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فيه أحقاده الدفينة أحقاد ما قتلوه فيه من أماني راقصات ذات يوم عندما لم يكتفوا بسجنه وحده وألحقوها به هي الأخرى، فصار مرآها يذكره بذلك الجرح الذي لا يندمل، ربما لو لم تمتد قضبانهم إلى زوجته لغفر وتجاوز، أما وقد طال امرأة حياته فذلك ما أورث غابات أحقاده الكمينة، فلا قدرة له على ضرب مواعيد للحب أوالتحليق في رحاب الأحلام قبل تفجير براكين ذلك الحقد الدفين :

لا.../ ابعدي / لا تبحثي في ناظري عن موعد / لا... / إبعدي / يا أنت... يا من تحلمين / بالفجر يولد في رؤى زهر ندي / بالياسمين / أنا من سنين / لو تعلمين / أيقظت في الأشواك من عطشي المهين/ حقدي الكمين / حقد الأماني المائتات على طريق أسود /... أنا من سنين / لو تعلمين / غابات أحقاد تنام لموعد / قد لا يجيء مع الغد[1].

ويوضع الشاعر مفدي زكريا في زنزانة مظلمة إمعانا في تعذيبه، بعد عودته من غرفة التعذيب فتتحدى روحه الطليقة ظلام الغرفة الدامس إلى دنيا الحرية المنشودة، وفضاءات الحلم الذي تصبح له قيمته عند سجين خارج لتوه من نوبة العذاب، وهل تكون أحلام السعادة إلاّ في الأكواخ والمستشفيات والسجون[2].

ويطلق الشاعر لهذه الروح المتمردة على طقوس الحبس وقوانينه العنان لتتخير مواطن انسيابها وسبحاتها، فتعرج إلى الحبيبة، وتعود إليه محملة بعبق ينشر شذاه في ربوع السجن فيهيج في الخيال من الذكريات الجميلة التي كانت له مع "سلواه"، ولكن شاعرنا المشرب وطنية حتى النخاع لا يستطيع أن يتفيأ ظلال الحب وما يبعثه من مشاعر في نفس سجين بربروس مثله، بعيدا عن معشوقته الأولى، وسالبة لبه "الجزائر" فما تعلق قلبه بامرأة إلاّ لأنها قبس من نور الجزائر الفياض، وإلاّ لاحتوائها بعض أوصاف الجزائر التي ساوى حبّها في قلبه حب الله –على حد قوله- وهكذا يختلط الحب عنده بعاطفة أخرى أسمى منه وأكبر هي حب الأوطان الذي يخرج الشاعر من ذكريات القلب وسويعات أفراحه إلى محاججة المستعمر ومناقشته وتفنيد مزاعمه:

وربّ نجوى، كدنيا الحب، دافئة ... قد نام عنها رقيبي، ليس يستـــرق
عادت بها الروح من (سلوى) معطرة ... فالسجن، من ذكر (سلوى)، كله عبق
هل تذكرين، إذا ما الحظ حالفنا ... إليك أهتف يا سلوى، فنتفـــق؟
نسابق الشمس، نغزوها بزورقنا ... فيسخر الموج منا كيف نلتحـــق
وتغرب الشمس، تطوي في ملاءتها ... سرين، أشفق أن يفشيهما الشفـــق
سلوى! أناديك سلوى! هل تجاوبني ... سلوى؟؟ فإن لساني باسمها ذلـــق
ردّي علي أهازيجي موقعة ... فقد أعارك وزنًا، قلبي الخفـــق
واستأذني، في رسالات الهوى قمرا ... يرنو إليه كلانا ، حين يتســـق
يا لائمي في هواها إنها قبس ... من الجزائر، و الأمثال تنطبـــق

[1] - بلند الحيدري –الديوان - 418 - 420.

[2] - جان كازوروف –سيكولوجية أسير الحرب - 115.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بنت الجزائر...أهوى فيك طلعتها فكل ما فيك من أوصافها خلـــق
أحبها مثل حب الله أعبدهـــــا آمنت بالله لا كفر و لا نـــزق[1].

هذا عن الزوجة التي كانت سندا قويا للشاعر السجين والخطيبة رفيقة النضال أما فضاءات الحب المفتوح التي لم يشر فيها الشعراء إلى طبيعته وأغفلت المراجع الإشارة إليها، فإن أغلب الشعراء الذين تواصلوا مع الحبيبة ركزوا على أولوية النضال واختاروا ما يمكن تسميته بالحب المؤجل إلى حين أو الحب الممنوع، فإذا ما استثنينا أحمد محمد الشامي الذي يتوق في يوم عيد داخل السجن إلى أيام أعياده الحرة خارج قضبان الإمام، المنطلقـــة في دنيا الملذات في "ربا الغيد الأماليد"[2]، ويشكو ألم الفراق الذي غدا عنده أشدّ من وطأة السجن :

اشهدي يا نجوم كم بت في محـــــــــــراب حبّي أشكو ليالي الفراق
لا أبالي مرارة العيش في سجـــــــــــــني ولا بالقيود تهصر ساقي
حبها قد طغى على كل شيء فأنا منه في أشد وثـــــاق[3].

وإذا ما استبعدنا "نجوى" عبد الرحمن الشرقاوي التي يستحضر فيها طيف الحبيبة يخفف بـــه عـــذابات السجن، وجدنا باقي الشعراء يؤجلون الحب أو يمزجون بين الحبيبة والأرض وبين الحب والنصال فلا نكاد نميز أيهما يريد الشاعر وإن كنا نرجح الوطن على الحبيبة، من خلال قراءتنا لنصوصهم الشعرية مثل قصيدة محمد جميل شلش "أغنية حب إلى شهرزاد" التي لم تكن إلاّ العراق :

أيا شهرزاد الجديده، لعينيك يا حلوة المقلتين ،/ لعينيك يا بسمة الرافدين،/ لعينيك نفنى ليحيا العراق[4].

ومثل قصيدة محمود درويش "عاشق من فلسطين" أين تتوحد الحبيبة بالأرض وتأخذ من صفاتها الكثير، ويراها في كل ذرة من ذرات الوطن وأوجاعه:

رأيتك في خوابي الماء والقمح /...رأيتك في شعاع الدمع والجرح / رأيتك في المواقد...في الشوارع../ في الزرائب...في دم الشمس / رأيتك في أغاني اليتم والبؤس! / رأيتك ملء ملح البحر والرمل / وكنت جميلة كالأرض...كالأطفال...كالفلّ[5] .

كما يمتزج الحب بالنضال عند البياتي ويتلون بألوان ثورته وانتصاره وانكساره حتى قال فيـــه نـــاظم حكمت "إن حبه لون من نضاله"[6] ، ويختلط عند سعدي يوسف بظلال مأساة الشعب على نهج معظم شعراء

---

1 - مفدي زكريا – اللهب المقدس - 27 - 21 - 26.
2 - أحمد محمد الشامي – حصاد العمر - 79 - 80.
3 - هلال ناجي – شعراء اليمن المعاصرون – 94.
4 - محمد جميل شلش – الحب والحرية - 81.
5 - محمود درويش - الديوان - 79 - 84.
6 - جليل كمال الدين - الشعر العربي الحديث وروح العصر - دار العلم للملايين بيروت - 198 - 103.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الواقعية في العالم العربي[1].

فعن الحب الممنوع الذي تحول دونه تفاصيل الشارع الفلسطيني المزروع بالشرطة والجنود ويتربص بـه قطاع الطريق، يحدثنا "محمود درويش" ونلمح اعتذاره الخفي للحبيبة عن غيابه، عن كتمانه، لأن الحب ممنوع في هذه المدينة، ولا شيء فيها يأذن لمواعيده بالتنفس في شوارعها المدججة:

قالت لنا الشرفات / لا منديله يأتي / ولا أشواقه تأتي / ولا الطرقات تحترف الحنينا / نامي! هنا البوليس منتشر /..الحب ممنوع../ هنا الشرطي والقدر العتيق / تتكسر الأصنام إن أعلنت حبك / للعيـون السـود / قطاع الطريق / يتربصون بكل عاشقة[2]...

كذلك كان سجن "أنصار" مانعا آخر يقف دون المواعيد والأفراح، يضرب أحدهم الصيف موعـدا للفرح، ولكن حبال السجن كانت هي الأسبق، فيأتي الصيف ويمضي ولا يأتي معه فارس الأحـلام، وتظـل الحبيبة في انتظار الوعد الموؤود والموعد الضائع خلف القضبان[3].

ويتلقى "محمد جميل شلش" رسالة حزينة من الحبيبة، تحاول فيها إيقاظ أحلام الماضي وتذكيره بما كان يكنه من مشاعر وأشواق فينبئها بواقع حاله المحاصر بالأسر، ولكنه يرنو لفجر العروبة الزاهي ويدعو على زهرة هذا الحب الأسير هو الآخر بالذبول ، وعلى لحنها المخضوب بالانطفاء في خضم معركة المصير، لأنه وإن ظلّ يؤمن بالحب فإنه يؤمن أكثر أنه لا بدّ لهذا الحب من فجر يهب به نقيا لا تكدر صفوه قيود:

يا موكب الحب المخضب بالدموع، / وبالنجيع، / أنا لا أزال، وراء قضبان الحديد/ ظمآن، محترقـا، أغني للنضال / لفجرنا الزاهي الجديد : / فجر العروبة، وهي تكتسح السدود، / فلتذبلي يـا زهـرة الحـبّ الأسير،/ ولتختنق، يا لحنها المخضوب.../ في طوفان معركة المصير /...إنّي، وإن قالوا، وإن كذبوا عليك، / مازلت أومن أيها النائي القريب / مازلت أومن يا حبيب / بالفجر، بالحب المعذب، بالغد الآتي.../ يكحـل مقلتينا بالهوى الصافي العميق[4].

أما الأبناء فيشكلون هاجسا كبيرا لدى الأب السجين الذي اختطف من بين أيديهم وهـم في أمـس الحاجة إليه. ولذلك رأيناهم يسألون عن أحوالهم كل زائر ولا سيما الأمهات ، ويحملـونهن أمـر رعايتـهم وتربيتهم على المبادئ التي سجنوا من أجلها ، ويرسلون إليهم أشواقهم ووصاياهم ، ويهيئونهم للمسـاهمة في صناعة المستقبل، لأنهم جميعا (الآباء والأبناء) ملك للشعب ، إذا دعاهم لبوا نداءه . ويتخيلون أحيانا فلـذات الأكباد أمامهم فيوصونهم بالأم والوطن خيرا.

فهذا "عبد الوهاب البياتي" يحاول الاحتماء بالحلم من أولئك القاتلين الذين يحصون أنفاسـه في ذلـك

---

[1] - المرجع السابق - والصفحة نفسها.

[2] - محمود درويش - الديوان – 127 .

[3] - حسين سعدون - أنصار 33 - أدب المعتقل - 255 .

[4] - محمد جميل شلش - الحب والحرية – 214 - 215 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الوطن المعذّب السجين، ويسجنون آباء كثيرين لصغار آخرين مثله، فينادي ابنه "عليا" ليفتح عينيه على إحدى صور الواقع المرير، برغم صغر سنه،و حتى إن ظل لاهيا منشغلا بلعبته ولا يجيب أباه، يبشره بنهضة الشعب العظيم وسقوط الأغلال عن الوطن الحبيب، وحتى إن حالت بينه وبين فلذة كبده كتل الجليد الجاثمة على قلوب الطغاة، وأجاب نداءاته المتواصلة الصدى، فإنه يواصل رسالته ونصائحه إليه حتى ختامها الحامل بشائر النصر، يقول :

/ ولدي الحبيب / ناديت باسمك، والجليد / كالليل يهبط فوق رأسي، كالضباب /...فجاوبني الصدى "ولدي الحبيب" / والقاتلون / يحصون أنفاسي، وفي وطني المعذب يسجنون / آباء إخوتك الصغار/ ويبشرون/ بالعالم الحرّ، العبيد / وأنت لاه، لا تجيب ، لا تجيب / لاهٍ بلعبتك الجديدة، لا تجيب /... ووراء أسوار السجون / يستيقظ الشعب العظيم / محطما أغلاله، ولدي الحبيب / وأنت لاهٍ لا تجيب[1].

وإليه ثانية يوجه الشاعر نداءه وشكواه من تلك الجدر التي لا تريد أن يخفق بين أحضانها أي شعور جميل فما عندها من دواء للمشاعر إلاّ النسيان أو الموت، ويستعين بصغيره على تجاوز محنته:

قالت لي الأسوار : أن أنساك أو أموت /... هديتي إليك / كناري الصغير، قبلتان/ فمدّ لي يديك/ رغم سجون الأرض ، لي يديك / فإنني حزين / تمطر في قلبي ، وفي مدينتي السماء[2].

وتطل على معتقل أحمد سحنون عصفورة خفيفة ، حرة طليقة وتذكره بطلاقة وحيوية ابنته فوزية ، فيحملها رسائله إليها وأشواقه ، ويرجوها أن تفرح وتمرح بالعيد ، لأن ساعة اللقاء لابد آتية :

كوني رسولا صادقا للتي ... من بينهم تدعى (بفوزية)
وبلغيها من أب والهه ! ... تحية الطل للزهرة!
قولي لها: لا تهلكي بالأسى ... ولا يذب قلبك بالحسرة !
وابتسمي –كالزهر- لا تعبسي ... واحتفلي بالعيد في غبطة
أبوك مازال حليف الوفا ... يحلم في النوم وفي اليقظة !
وسوف تأتي ساعة الملتقى ... لابد للغائب من أوبة ![3].

ويستحضر عبد العزيز أحمد هلالي طفلته على براق الأحلام ويعيش بعض اللحظات السعيدة بين الحلم والوهم، يراها فتنتفض الفرحة الأسيرة ويطاوعها حينا، ولكن تساوره الظنون في حقيقتها، ويتساءل، أحلم ذاك أم خيال، ويفيق من عوالم الحلم، ويدرك أنه مجرد طيف تلاشى، فيودعه بتريف الدموع المزلزلة لقيود السجن وأسواره :

أراك مني القلب يا طفلتي ... وجنة روحي وأطيارها

---

[1] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية - 244/1 .

[2] - المصدر نفسه - 258 .

[3] - أحمد سحنون – الديوان – 69 - 70 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وسحر ابتسامتك اللؤلؤي يهدهد في النفس أقطارها
...دعيني أعانق في ناظريك جمال الحياة وأسرارهـــا
فمن مقلتيك يسيل الصفاء وتستلهم العين أنوارهـــا
أحلم أرى ذاك أم صـــورة تؤجج بين الحشا نارهـــا؟!
يريني سناها خيال ابنـــتي وقد ردد القلب تذكارهـا
وتترف من أعيني عبـــرة تهز القيود وأسوارهـــا[1].

ويتخيل مرة أخرى صغيره وهو يبكي ويسأل أمه عن ذلك الأب الذي طال غيابه و لم يعد وقد عاد كل الآباء إلى أبنائهم بالهدايا والبشائر، ويضعنا أمام حصار الأسئلة لقلب هذه الأم الحائرة التي ظلت تمنيه بالعودة ولكن تمر الأيام وينقضي عام إثر عام بفقره وجوعه ولا ظل أب يلوح في الأفق ، مما يحرك بداخله الهـواجس والظنون، أيكون قد نسي، ألا يذوب شوقا إليهم كما يتحرقون، ويسألها في لهفة عن عنوانه ليكتـب إليـه يستعجل أوبته ورجوعه :

صاح الصغير بأمه والدمع يجري بالخـــدود
...أماه، كل فتى يعود أبـــوه من سفر بعيد
معه الهدايا والتحايا والبشـــائر والسعـــود
وأبي كما خبرت يـــا أماه في سفر مديـد
يبغي به إمتاعنا بالمغريـــات وبالنقـــود
وتلألأت عبرات أمّ زوجهـــا رهن الحديـد
...كم قلت يا أماه سوف يعود والدك السعيد
لكنه عام يمر وإثره عام جديـــــــد
وتهزنا الأيام هز الريح للفرخ الشـــــرود
...يا أم أين مضى أبي؟ أسلا ومُزّقت الـوعود
أفلا يذوب فؤاده شوقا إلينـــا كل عيـد
يا أم قولي أين حلّ لكي أهم إلى البريـــد[2]...

وينقلنا الشاعر نفسه عبر البنية المفجوعة في أبيها إلى مشهد آخر أشد وقعا على عودها الغض الطـري وأكثر إيلاما، هو من نتاج السجن الذي تمتد عذاباته في أحيان كثيرة إلى الأهل، فهذه أمها تقرر هي الأخرى في لحظة من لحظات ضعفها وانكسارها أمام المسؤوليات الجسام التي سقطت على كاهلها في غيـاب الأب، الانسحاب من حياتها وحياة إخوتها الصغار، وتترك فلذات كبدها في غياب الأب لصفعات الأيام، وقد كان

[1] - محمد محمود الغرباوي - الشعر في سجون مصر - 833.
[2] - عبد العزيز أحمد هلالي – أنغام شاردة - 47 - 48.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ذلك القرار المتهوّر بمثابة صفعة قوية في وجه الزوج السجين تعمق هوة آلامه وتحفر أخاديدها في أعماقه، فراح يعاتبها ويحاكمها على لسان هذه الطفلة الحائرة، التي تضطر لوداع أمها وداع الأموات ولكنها بقلب الطفلة البارة تسامحها وتتمنى لها السعادة صباح مساء وإن أذنبت في حقها وحق إخواتها :

ويا ابنة عمري اصبري للأسى ... فما فاز إلاّ كريم صبـــــــر
وقولي لأمك يا طفلـــــتي ... وقد نسيت سحر عيش غبر
...ويا أم ماذا جنينا عليـــك ... ليرمى بنا في عذاب نكـــــر؟
رميت بنا في خضم الحيـــاة ... فراخا لها جانب منكســـــر
فكيف نعالج عصف الريـــاح ... بأوراقنا في ربيع العمـــــر؟
...برغمي أقول لأمي الوداع ... كأن الزمان لها قد قبـــــــر
فما فرق الأم عن بيتهـــــا ... وأولادها، غير ذاك السفـــر
ولكنك اخترت يا أمنـــــا ... وما اخترت غير الهوى والبطر
سأدعو لك الله أن تسعدي ... مع الصبح دوما وعند السحر
فإنك أمي وإن أذنبـــــــت ... وأدمت كؤوس هنائي بضـــر[1].

ولا ندري إن كانت هذه إحدى صور عذاب الشاعر، أو نتاج مشاهداته لمعاناة سجناء آخرين عاشوا معه في السجن وأحسّ بألم مثل هذه المأساة فترجمها شعرا.

وتتسرب إلى مسامع الشاعر السجين مرة رنات وأصوات أشبه بصوت صغيره النائي، فتـــذكره بـــه، وتراود خياله أسئلة كثيرة عنه، أهو الآن في ملعبه مع أتراب جدد لا يعرفهم الأب المبعد، أ مازال يذكر الماضي ومتعه وطفولته، أيذكر عبثه بالجيوب واختطافه حبات الحلوى المهيأة خصيصا لفرحة ذاك الهزار وتغريده، أما زال يذكر أباه، أيرجو رؤيته ولقاءه، أم أن طول الغياب أنساه حتى صورته:

هذه الأصوات فيها رنـــة ... ذكرتني بحبيـــبي ولـــدي
ليت شعري، أهو في ملعبه ... بين أتراب صغار جـــدد؟
يذكر الماضي وقد كنت له ... خير معوانٍ، وأقوى سنـــد؟
كم يلقاني بوجه باســـــم ... فاحصا كلً جيوبي باليـــد
يخطف الحلوى التي أعددتها ... هاتفا مثل هزار غـــــرد
...أتراه لم يزل يذكرنـــي ... وهو يرجو أن يراني في الغد
أم طويل البعد قد غيـــره ... وزوى طيفي بركن بـــدد؟[2].

ولكن هذه الأسئلة الحائرة التي راودت الشاعر و لم تجد جوابا تفجعها إحدى الزيارات التي طالما انتظرها

---

[1] - المصدر السابق - 49 - 50.

[2] - المصدر نفسه - 27.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتمناها، يجيئه السجان بالبشرى، فيهلل وتتماوج الأفراح ويضطرم الحنين وتهيج الأشواق إلى لقاء الأسرة كلها وبخاصة ذاك الصغير الغض الذي طال بعده، ويأتي اللقاء صامتا هادئا تتحاور فيه العيون، ويتناول الشاعر الصغير كي يروي ظمأه إليه ولكنه يولّى هاربا، وتروح الأم تدعوه إلى تقبيل تلك اليد التي طالما هزته وأرغدت عيشه، يد الغالي الذي طالما بكى للقائه، ولكنه يصرخ مستنكرا لأنه يذكر وجه أبيه جيدا ويحفظ صورته النيرة في الذاكرة، أما هذا الذي تبدّى فما هو إلاّ عفريت أخضر:

جاءني السجان يعطيني إشارة ... أن، لي، اليوم من الأهل زياره
فتقدمت وفي قلبي رنين ... وبصدري همسات وأنين
وتناولت صغيري كي أقبل ... منه وجها وجبينا يتهلل
غير أن الطفل ولّى مدبرا ... وبكى من رؤيتي واستعبرا
قالت الأم ألا قبل يدا ... طالما هزتك أيام الندى
ذلك الغالي الذي طال بكاك ... للقاه وشجاني وشجاك..
صاح طفلي صارخا مستنكرا ... إن "بابا" كان بدرا نيرا
ذاك عفريت تبدّى أخضرا[1].

أما محمد بهجة الأثري فيوجه رسالة إلى أبنائه يشكو فيها آلام الفراق ويتوجه بالدعاء إلى الله علّه ينتقم له من ظالميه ويريه نهايتهم الوشيكة ويجمع شمل الشاعر المبدد ويردّ إليه أهله وأصحابه، وقبل كل ذلك يوصيهم بطاعة أمهم والانتصاح بنصائحها والعمل على مرضاتها كمايوصيهم بأخواتهم بل يوصي بعضهم بالبعض الآخر، وقد تفنن الشاعر في التورية عن أبنائه جميعا وهو بحضورهم إلى صفحات هذه القصيدة عدا البكر الذي جاء ذكره صريحا "زاهر".

وأمكم ، يا بارك الله فيكم ... سليلة بيت طيب العرق مفضال
خذوا النصح منها خالصا وابتغوا الرضى ... رضاها، وما كالأم من أحد غالِ
...سئمت حياتي نائيا عن وجوهكم ... وأضحاي أن أدنو إليكم وشوالي
لعلّ الذي في حكمه الأمر كله ... يريني وشيكا كيف يصرع خذالي
ويجمع ذاك الشمل بعد افتراقه ... ويفرح قلبي بالصحاب وبالآل[2].

وفي واحد من معتقلاته التي تعاقب تقلب فيها في يده قصيدة للشاعر الفارسي الشهير نظامي الكَنجوى في النصح والتوجيه، فيعكف على انتخاب بعض معانيها وترجمتها في قالب شعري ثم إرسالها إلى ابنه البكر علّه

[1] - عبد العزيز أحمد هلالي – أنغام شاردة - 53 - 55.
[2] - محمد بهجة الأثري –ملاحم...وأزهار - 103 - 104.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يستفيد من تلك الدرر التي نظمها نظامي وأعاد هو نثرها بين يدي بكره[1].

وبينما الشاعر في معتقل العمارة، تأتيه البشرى بإطلالة مولودة جديدة، يسمّيها زينب، باسم أمه ويسجل قصيدة في الترحيب بهذه الوافدة الجديدة، ويرتحل معها إلى رحاب الأسرة يعرفها بهم واحدًا واحدًا ويوصيها بما يليق بكل واحد منهم من الآداب، دون أن ينسى الإشارة إلى ما هو فيه من سجن وإبعاد وما هو باللّص ولا الجاني ولا المهرب، ولكنه حب الأوطان وثمنه الغالي دائما[2].

ويبشر بلند الحيدري ولده بالعودة ويتخيل لحظاتها وفرح الولد بعودة الأب إليه حيا ويتطلع إلى معرفة الكثير عن عالم الأموات ذاك من وراء الجدران ومعجزة النجاة من مخالبه، وإلى فتح آلاف الجراح الغائرة لكن الأب يتوسل إليه إن هو عاد إليه ثانية ألا يسأله عن تلك المرحلة من عمره أبدا لأن مجرد تذكرها يبكيه :

سأعود ثانية إليك / لأقبل النور الذي في ناظريك /... ستصيح! / عاد أبي إليّ / حيًّا / برغم الموت عاد أبي إليّ/.. أنا إن رجعت غدا إليك / إن عدت ثانية إليك فلا تسل/ عما لدي / عن غيمة تجتاز هدأة مقلتي / لا / لا تسل / عما وراء الصمت من زهر وشوك / أنا إن سألت / فسوف أبكي[3].

أما فايز أبو شمالة فينقل صورة من صور بطولات الطفل الفلسطيني الذي صيرته المآسي أكبر، وعلمته كبت أناته وآلامه، ويضعنا أمام آخر مشهد من طقوس الزيارة المعقد بالحواجز والأسلاك وصفوف الحراس، مشهد الوداع أين تقف طفلته الصغيرة في مواجهة لهفة السجان وهو يحث الوقت بالإسراع ويمزق بنصل لهفته دفء اللقاء، ويخنق بلجامه الأشواق بعبارتها البريئة : "م اللهفة"، ويعجل فحيح الجرس بقطع الخيط وتنحر على الشباك الأماني لتزلزل الشفاه كلمة الوداع، ويعقبها تهديد بالانتقام لهذه البراءة المذبوحة، ورد الصاع صاعين، وقد نجح السجناء بعد سلسلة من الإضرابات عن الطعام من افتكاك موافقة مصلحة السجون الإسرائيلية على أن تكون الزيارة نصف ساعة كل أسبوعين، يقول :

تقول : وداع ، / وتكتم في براءتها هدير الحزن / تكتم أنة الأوجاعْ / فحارت هدأة الكلمات بين مهابةٍ نجلاء/ بين تلهفٍ للقلب كاد يمزق الأضلاع / لم اللهفه؟/ فحين تحمحم الأشواق يخنقها كما فرسٍ / لجام وداعْ ! / لم اللهفه؟ وتطوي تحت جفنيها شقائق فوق زحف الدمع / يقهرها مع التنهيد سجانٌ/ يحث الوقت بالإسراع / لم اللهفه ؟ /..وكان وداع / وقد ذبحت على الشباك أمنية / وقد هبطت على الشفتين زلزلة/ وكان وداع /...فأقسم مع تنهدّها / كما ذبحوا براءتها/ سنعرف كيف صاعين نكيل الصاع[4].

ويأتي الإخوة في قائمة المقربين، لَما بينهم من علاقات وطيدة وفضاءات للبوح والإفضاء يصنعها جوّ الأسرة وتآلف أفرادها وتعاطفهم، فإذا كانت تجربة الحبس، كان الإخوان بلسما للجراح، وعينا ترعى الأبناء،

---

[1] - المصدر السابق - 403 - 404.

[2] - محمد بهجة الأثري – ملاحم... وأزهار - 384 - 387.

[3] - بلند الحيدري – الديوان - 407 - 408.

[4] - فايز أبو شمالة – سيضمنا أفق السناء - 55 - 57.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يبصر من خلالها الشاعر السجين العالم الخارجي، وله آمال وقفت القيود والقضبان حائلا بينه وبينها فيتخير لها أقرب الناس إليه، إخوانه.

فهذا محمد الشاذلي خزنه دار يرى في أخيه السند الذي يمكن الاعتماد عليه طيلة غيابه، بل يرتفع به إلى مراتب أخرى ودرجات أعلى فهو حارس البيت والسيد والأب مما يوحي أن المخاطب هنا هو الأخ الأكبر الذي يحظى باحترام إخوته الصغار وتبجيلهم، فيناديه ويحمله أمانة رعاية الأبناء نيابة عنه فهو خير كافل بعد الرعاية الإلهية :

أخي وحارس بيتي سيدي وأبي أبقاك ربي إلى الأبنا تراعيها
ما كنت أخشى عليها والكفيل أخي بعد الإله وحاشا أن يبكيها[1].

فإذا برحت الأشواق بقلب الشاعر عبد العزيز أحمد هلالي بعد عامٍ إلى أخيه ورفيق طفولته وصباه، دعاه في عالم أحلامه، وراح يتخيل تفاصيل اللقاء بعد عامٍ من الشوق والحنين بسبحاتها في ذكريات الماضي وتحليقها في أمنيات المستقبل، ومكابدة كل منهما في مغالبة الأحزان وإخفائها، ولكن الأحلام أيضا تطاردها مقصلة الوداع القاتلة، وتلاحقها قوانينه الصارمة، ويفنى الحلم على صوت الحراس ويمضي الأخ الزائر يحمل صليل القيد تذكارا من شقيقه السجين إلى العام القادم :

بعد عام من فراق وعناء ودموع للتلاقي ونداء
وانتظار في صباح ومساء سوف يحلو لفؤادينا اللقاء
يا شقيقي
بعد عام سوف نقضي لحظات نتغنى بجميل الذكريات
يا شقيقي
سوف تحفي قصة اليأس المرير بين جنبيك وتروي في حبور
قصة المترل يعلوه السرور ثم تنسى عامدا شر الأمور
يا شقيقي
ثم يفنى الحلم في صوت كليل أيها الزوار قد حان الرحيل
ثم تمضي باكي القلب عليل وبأذنيك من القيد صليل
يا شقيقي
هكذا يمضي غدا ذاك التلاقي بين بشر وابتسام واشتياق
وحديث ذي شجون وانطلاق وفراقٍ، آه، من هذا الفراق
يا شقيقي[2].

---

[1] - محمد الشاذلي خزنه دار – الديوان - 80 - 81

[2] - محمد محمود الغرباوي – الشعر في سجون مصر – 796 - 797 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فحتى الأحلام يكدر صفوها جرس نهاية الزيارة ونعيب الحراس بفأل الشؤم، ممـــا يجعـــل الشـــعراء يلخصون الزيارة كلها في مقطعها الأخير الجارح الذي يمحو كل تفاصيلها ويحولها إلى مجرد ذكريات يرجعها السجين كلما اشتد به الشوق وأضناه الحنين.

وإلى جانب الأخ الصديق والأب في آن، يفضي الشاعر بآلامه إلى الأخت، ويسقط بين يـــديها دروع التماسك والقوة التي كان يجابه بها سجانه وينهل من فيض عطفها وحنانها، فقد خصها عبد العزيز أحمد هلالي بثلاث قصائد، تحسر في الأولى على عمره الضائع في ذل السجن وحرمانه، وكشف عن يأسه الشديد وعجزه بتمنيه الموت خلاصا وراحة مما هو فيه من عذاب، يقول :

لا تلوميني إذا ما عفت قطـــره ... إن كأس السجن يا أختاه مره
لا تلوميني إذا أودعت كأسي ... دمعة تحرق أجفـــاني وعبـــره
يا لأعوام مضت لم أصطبـــح ... بنسيم قد أحب القلب عطـــره
يا لأعوام مضت لم أنطلـــــق ... في ظلال الروض أستنشق زهره
لا تلوميني إذا ما بحّ صوتـــي ... من أنيني إن عند القيد ســـــره
لا تلوميني إذا ودعت عمـــري ... وتمنيت نعيي طيّ حفـــــره
إنما الموت لمثلي راحـــــــة ... فحياة الذل يا أختاه مـــــــره[1].

وفي القصيدة الثانية يرجوها أن تصف له بعض ملامح العالم الخارجي التي أنساه إياها السجن أو كاد، ويجعل الصبْح والنور محور حاجاته، فيطلب منها أن تريه الصبح الذي صيّره السجن في عداد الممنوعات المغيبة، وقتل أطياره وقد كانت من قبل مغردة على الأفنان، بل وأمات الإحساس به في نفس الشاعر تتالي عواصـــف الذل والهوان، يرجوها أن تريه بهجة الإشراق عساها تبدد ما حوله من ظلمات، وتصف له بهجة الدنيا علـــها تبدد سحب اليأس عن فكره، وأن تصف له النور فقد غشيت الظلمات كل ذرة فيه، فكره، نفسه، قلبـــه، و الروض وما فيه من زهر، وطير وشجر، تصف له النهر والنسائم المتموجة، القصور والأكواخ، وكل ما يتخلق من أحلام وحبّ وآمال، تصف له روعة الدنيا وفتنتها فقد نسي الكون كله :

صفي لي الروض والأشجـــــــــاروالأطيار والزهـــرا
صفي لي النهر والأنســـــــــــام والأكواخ والقصرا
صفي لي الحب والأحـــــــــــلام والآمال و السحرا
فإني قد نسيت الكـــــــــــون في آلامي الكبرى!!
أريني الصبح يا أختـــــــــــاه إن الصبح مستـــور
وقد حفت بي البأسا ... فلا سحر ولا نـــــور

[1] - عبد العزيز أحمد هلالي – أنغام شاردة - 42.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

...أريني الصبح إن الصبـــــــــــح ماتت كل أطياره
فمـــا في الفجرصـــــــــــــدّاح يناجيني بأســـــراره
...أريني الصبح إن الصبـــــــــــح قد أرداه في نفســـي
هوان دائم الإرعـــــــــــــاد في يومي وفي أمسي
...صفي لي بهجة الإشـــــــــــراق فالظلمات من حولي
تسدّ طريقي الممـــــــــــــــدود نحو الصحب والأهل
...صفي لي بهجة الدنيـــا لحل البؤس من عقـــلي
صفي لي النور فالظلمـــــــــــات في فكري وفي قلـــبي
خذي بيدي إني اليوم حيـــــران على الـــــدرب[1].

ويواصل شكواه لهذه الأخت الزائرة أخاها من أجل التخفيف عنه ، وسرد تفاصيل صنيع السجن بـــه، فهو لم يقض بظلامه على شعوره بالصباح والنور فحسب، وإنما قتل فيه الإحساس بالحياة كلها، ومحـــا مـــن ذاكرته كل الصور الجميلة التي كانت تملأ حياته سرورا ورضى، وأنساه كل شيء، نسي صوت الأم يـــدعوه في رفق إلى النهوض، وصورة أب هرمٍ حطم السجن أحلامه، نسي شكل اللهو وطعم الفرح والبشر، نســـي الأصحاب والأحباب، ومات في نفسه كل هني مشرق وصار مجرد ذكرى بخاطره، ويمضي بألمه حتى إذا بلغ به المدى أقصاه أشرق بصيص أمل ضعيف، فربما نما من تحت هذا القبر الذي حشر فيه وأسماه بـــ "الأرماس" في صيغة الجمع لإيصال صورة قريبة من حقيقته البائسة، المهينة، وقد سماه قبلها بالجب : يقول :

نسيت أبا كبير القـــــــــــلب يشكـــو اليوم أحزانه
وكنت عماد دنيـــاه وبهجتـــــه و عنوانـــــه
إلى أن حطم المقـــــــــــدورمثل الزهـــر أفنانـــــه
نسيت اللهو والأفـــــــــــراح في دنيـــــأي والبشـــرا
وأصحابا وأحبابـــــا سعدت بجمعهم دهـــرا
...ومات هناء أحلامي وصار بخاطري ذكرى
صفي لي بل دعيني اليـــــــــوم في همي وفي سهـــدي
هما في خاطري مادمـــــــــت أحيا في لظى القيـــد
فما في وصفك المملـــــــــوء بالإحسان ما يجـــــدي
دعيني بل خذي يا أخـــــــت - رغم المنتأى-كـــأسي
لعلّ هنائي المفقـــــــــــــود ينمو تحت أرماســـــي[2].

---

[1] - المصدر السابق - 65 - 66.

[2] - المصدر نفسه - 67 - 68.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأشد ما يخشاه السجين وهو يرى عجلة الحياة تتواصل من دونه ، وتستمر ببدائل أخرى تسدّ فراغه أن تستغني عنه الحياة، وينسى غيابه كل الذين كان يظن أن حياتهم تتوقف بغيابه، إن ذلك النسيان هو أشبه "ما يكون بالموت بالنسبة إليه"[1]. لذلك فإنه يحاول لفت الانتباه دائما حتى لا ينسى بين جدران السجن وسياط السجان، بل ويستجدي حتى الزيارة ليقول للآخرين أنه موجود، ويخشى أن يتنكر له الذين عرفهم من قبل إذا ما عاد إليهم محملاً ببصمات أخرى، وحاملا لقسمات وملامح جديدة . وكما رأينا بعض ألم هذا المشهد في صورة الصغير الذي لم يعرف أباه وظنه "عفريتا تبدى أخضرا"، ها هو الشاعر نفسه يهيء أخته نفسيا لتقبله مثلما يلفظه السجن، ويرجوها ألا تنكره إذا ما جاءها بغير صورته الأولى وبغير بشاشته ونضارته وشبابه وأناقته ، فقد ذهبت أحداث الدهر بكل ذلك، ثم يكرر رجاءه ألاّ تنكر أخاها الخارج من النار، الحامل معه بعض لهيبها وآثارها، العائد من الأسر بلا أمل جديد، المرّوع بشبح المذلة والحديد :

لا تنكري / لا تنكريني إذ أتيتك غير ما تتصورين / لا تسألي أين النضارة والبشاشة والفتون ؟ / يا أخت قد ولى شبابي بين إعصار السجون / لا تنكري / لا تنكري شعرا أنيقا من أسى الحدثان شاب /... لا تنكري/ لا تنكري أني أخوك وقد خرجت من الأتون /...لا تنكري / أني أسير وليس في عيني سنا أمل جديد / إني أسير يروعني شبح المذلة في الحديد / لا تنكري أن غيرت سمتي تصاريف القدر.[2]

ويرحل بها إلى ما قبل السجن، ويحاول تذكيرها بساعة رحيله الاضطراري أين تركها صغيرة تلهو وتلعب في خفر، وها هي اليوم عروس فاتنة، مما يوحي بطول مكثه فيه، ويحاول أن يسترجع معها بعض الذكريات المشتركة بينهما، فيذكرها بهمساتها الرقيقة توقظه كل صباح، وكما لم ينس ذلك الماضي البعيد، فإنه لم ينس أيضا هذا الحاضر الكئيب المرير، وضجيج السجان يدوّي بانتباه القاطنين ويثقل كاهلهم بقوانينه وتهديداته بعقاب "التفتيش" و"التنظيم" وما إليها من طقوس السجن، وينتهي أخيرا إلى أنهما شريكان أيضا في ذلك الأسى، وأنهما طريدا ذلك الدهر القاسي يتخبطان بعد خروجه من السجن الصغير في السجن الكبير ويتجرعان آلامه وما عليهما إلاّ النهوض لتحطيم أكوابه المره:

إني تركتك يا فتاتي ذات يوم في الصغر/ لأعيش أعواما طوالا بين أحضان الجدر/ لم أنس يا أختاه همستك الحبيبة في الصباح / قم يا أخي فالصبح أسفر بالمنى واليمن لاح/ والطير غرد في حديقتنا وصفق بالجناح /لم أنس والإصباح آلام بأعماق السجين / وضجيج أصوات تدوي بانتباه القاطنين/ ووعيد سجان "بتنظيم" و"تفتيش" لعين/.. يا أخت قد بتنا طريدي دهرنا لما قسا / هيا نحطم في ظلال الحزن تلك الأكؤسا[3].

وبعد هذه الرحلة التي قادنا فيها الشعراء إلى الأسرة حينا بالتواصل الحقيقي الذي تتيحه إدارة السجن على ضآلة حجمه وحينا بكتابة رسائل نثرية أو شعرية وتهريبها مع الأصدقاء أو حتى السجان أو بعض

---

[1] - جان كازونوف – سيكولوجية أسير الحرب - 49.

[2] - عبد العزيز أحمد هلالي - أنغام شاردة - 72 - 73.

[3] - المصدر نفسه- 74 - 75.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنظمات الدوليةكما فعل شعراء أنصار في تواصلهم بالأهل عن طريق الصليب الأحمر[1]، وحينا آخر بالهروب إلى فضاء الأحلام الفسيح، ومن الشعراء من تعذّرت عليه مثل تلك الزيارات الحقيقية وصادف أن دخلت حياته كائنات أخرى من غير البشر فاستأنس بها في وحدته وغربته ومدّ حبال الوصال بينه وبينها وحاورها كما يحاور أحد أفراد أسرته الأعزاء، وكانت القطة قاسما مشتركا بين الشاعرين مفدي زكريا وجمال فوزي، فعندما وقع مفدي زكريا في سجنه طريح الفراش، نقلته إدارة السجن إلى المستشفى ووضعته تحت الرقابة المخصصة للسجناء المرضى في غرفة لا يغادرها، وهناك وجد مسليا يخفف عنه آلام الوحدة والعزلة والسأم، ويملأ فراغه الموحش، قطة تسللت إلى غرفته مثلما تتسلل إلى أي غرفة أخرى، فأعطاها من الرحمة والحنان اللذين جعلاها تختار الإقامة الدائمة معه، وأعطاها فوق ذلك اسما يشارك غربته "عزيزة"، وقاسمها طعامه وشرابه، وراح يناجيها مناجاة العاشق الولهان، فقد ذكرته بأحبته بعد عام من الاغتراب، يقول :

نامي عزيزة نامي كم لذة في المنام
فأنت خير أنيس في حيرتي واهتمامي
وأنت خير صديق يرعى عهود ذمامي
نامي عزيزة نامي
لا السر عندك يفشى ولا حديث غرام
لا الغدر عندك يلفى ولا خداع الأنام
نامي عزيزة نامي
رفيقتي في شقائي حليفتي في سقامي
قسيمتي في نعيمي شريكتي في طعامي
نامي عزيزة نامي
روحت في السجن بالي وكنت نورظلامي
فأنت فوق البرايا تستوجبين احترامي
نامي عزيزة نامي
الحسن فيك تناهى وأنت بدر التمام
اللطف فيك تسامى في رقة واحتشام
نامي عزيزة نامي
هيجت جرح فؤادي أذكيت نار هيامي

[1] - حسين سعدون - أنصار 33 أدب القيد - 347 - 349 (يعرض المؤلف نماذج من استمارات توزعها عليهم اللجنة الدولية الصليب الأحمر ليكتبوا في الأمور العائلية فقط).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ذكرتني في حبيبي ومنبيتي ومرامي
نامي عزيزة نامي
يا ليت ألقى حبيبي من بعد غربة عام
نذوق حلو الأماني بين الرضا والسلام
نامي عزيزة نامي[1].

أما قطة جمال فوزي فلها قصة أخرى مع الشاعر، ألجأتها لسعات الجوع يوما إلى اختلاس طعامه، ودامت على ذلك مرات فلم ينهرها الشاعر وإنما راح يعودها شيئا فشيئا ويناصفها طعامه المقسوم له في السجن حتى ألفته، و لم تعد في حاجة إلى السرقة ما دامت تحصل على طعامها من يديه وبرضاه، ففي مزرعة طرة استأنست القطط المتوحشة، وراحت تختطف اللقيمات الرديئة من الفول المسوس والطعام الزهيد المقدم للسجناء ولا يكاد يسد الرمق[2]، ولكنهم مع حاجتهم إلى الطعام كانوا يعذرونها و لم يعاقبوها على سطواتها لأنهم جربوا سطوة الجوع قبلها وقد تحول أغلبها أليفا لاسيما بعد سماح إدارة السجن بالزيارات ، فكثر الطعام و أصبحت تجد حاجتها و زيادة وتحولت إلى حارس أمين :

من بين قضباني ومن زنزانتي بين الظلام وقسوة السجان
جاءت لتختطف الطعام بخلسة وتروغ وسط رحابة الجدران
ساءلت نفسي هل تجيز عقابها بالسوط والتعذيب و الحرمان
كلا فما اقترفته كان أساسه جوعا يثير حفيظة الجوعان
ثارت على الحرمان وهي محقة والأمر يخرج من يد الغضبان
علمتها ذوق الحلال فطلقت ذوق الحرام ومنهج الشيطان
وتبيت تحرس وجبتي بأمانة عجبا لصنع الواحد المنان
قولي لهم يا قطتي درس الهدى وخذي بأيديهم إلى العرفان
أولقنيهم ما ينير قلوبهم بالحب والإيثار والإحسان[3].

- **تحول السجن إلى ناد أدبي وفكري ومدرسة علمية :**

بعد هذه الرحلة التي قادنا فيها الشعراء إلى الأسرة حيث دفء العلاقات الأسرية وسموّ المشاعر وحيث المودة والمحبة والرحمة بقي لنا أن نتساءل هل وجد شعراء الحبسيات درهم المفقودة وهل وجدوا في هذه الفضاءات الأسرية ما كانوا ينشدونه من أمن واستقرار، وهل تخففوا حقا من أوزار السجن وأثقاله.

---

[1] - محمد ناصر-مفدي زكريا - 185 - 186.
[2] - أحمد الجدع-حسني الجزار –شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث 1-/ 102.
[3] - جمال فوزي- الصبر والثبات - 117 - 120.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من خلال استقرائنا لذلك التواصل سواء كان واقعا عاشه الشعراء أو حلما لجأوا إليه تبدو غلبة الجانب المأساوي لتجربة السجن وطغيان لغة الآلام والشكوى، وسقوط كل الأقنعة بين يدي الأهل والأحباب، مما يوحي ببلوغ الشعراء درجات البوح القصوى، ومنه تحقيق بعض الراحة النفسية التي كانوا ينشدونها، ولكن قوانين السجن الجائرة لم تكن تتيح لهم من الزيارات ما يكفي للتنفيس عن كربهم، وفوق ذلك كانت تكدر عليهم المتاح منها بقوانين المنع والأسلاك وصفوف الجنود العازلة بين السجين وزائريه والراصدة لكل ما يدور بينهم، وبصفارات الإنذار عن نهاية الزيارة خاصة، لذلك وجدنا السجناء يبحثون عن سبل أخرى لتجاوز عذاب السجن بنوعيه، المادي والمعنوي، فإذا حرموا من أجواء الأسرة وعلاقاتها الحميمة، لجأ السجناء إلى إنشاء مؤسسات وإطارات معينة، وتفوقوا في سن قوانينها الداخلية ونظمها، وأنشأوا اتحادات رياضية ونوادٍ ثقافية تقدم المحاضرات في معارف مختلفة وتحتفل بالمناسبات والأعياد، وتنشئ المسابقات الفكرية والأدبية للسجناء، وتنشئ الإذاعات المحلية التي يتلهف السجناء لسماعها، وتعد المجلات الثقافية وغيرها من النشاطات التي تملأ فراغ السجين وتخفف عنه بلواه وتعوضه عن الحياة التي حرمها، ففي تلك البناءات المدرعة بالجدران العالية والحديد والحراس نشأت علاقات وطيدة في محاولة لنسيان الحياة الأولى التي لم يبق منها غير الذكريات، وكاد السجن أن يتحول إلى أحياء سكنية بكل تفاصيل الحياة اليومية التي يعرفها الطلقاء، لاسيما في المعتقلات والمحتشدات والسجون ذات الفضاءات الجماعية التي تتيح فرصا للاتصال بالآخرين والتعامل معهم، ففي كنفها نشأت مجتمعات صغيرة وفي داخلها نبضت حياة جديدة بقوانينها ونظامها، بمسؤوليها السجناء، وكان من أكبر التحديات التي نفذها السجناء أن أصبح السجن عند بعضهم بمثابة الأسرة والأهل من جهة، وبمثابة النادي الأدبي والسياسي والفكري من جهة أخرى، وكثيرون هم الذين تخرجوا من نوادي السجون بمواهب وثقافات وحرف ما كان لهم عهد بها قبل ولوجه.

ففي السجن وجد العقاد متسعا من الوقت لتعلم الفرنسية وعلى يد رفاقه السجناء الذين ألموا بها[1].

وقد بذل السجناء المثقفون جهودا خارقة للتحول بالسجن إلى مدرسة يقاومون بها الظروف غير الإنسانية للسجين ، أو جامعة كجامعة الشهيد شعبان حافظ[2] التي أسسها المسؤولون السياسيون في جميع التنظيمات الموجودة إضافة إلى ممثلين مستقلين بسجن الواحات الخارجية عام 1962 ، لسد حاجة عدد كبير من العمال والفلاحين[3]. تكفل السجناء بإعداد سبورتها من أخشاب متبقية في العنبر وطباشيرها من الجير المخصص لطلاء جدران السجن، وتكفل مثقفوهم بالتعليم مقابل سيجارة بلمونت.

وفي السجن نفسه كانت تلقى محاضرات عامّة في الاقتصاد كان يلقيها دكاترة متخصصون من السجناء

---

[1] - العقاد - عالم السدود والقيود - 35 - 42.

[2] - علي الشوباشي - الحياة الثقافية في سجن الواحات - العربي للنشر والتوزيع - ط1 - 2001 - 13 - 23.

[3] - هي الإنجليزية والفرنسية والإيطالية - المرجع نفسه - 22 - 23.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أمثال فؤد مرسي وإسماعيل صبري وعبد الله فوزي منصور، وأخرى في تاريخ الفلسفة وثالثة في السياسة[1]. وقد عرف السجن حركة ترجمة نشطة لأهم الكتب السياسية والفلسفية ، وجعلها في كتيبات صغيرة تختفي في كف اليد[2]. وكان كثير من المعتقلين والسجناء يؤلفون أعمالا في مختلف الفنون.

كما أنشأ السجناء تحت إشراف مهندسين زراعيين من رفاق السجن مزرعة استصلحوا صحراءها القاحلة وزرعوا فيها أنواع الخضر والفواكه حققت للسجن اكتفاء ذاتيا لأول مرة ، ثم أصبحوا يصدرون الفائض إلى باقي السجون المصرية . وبفضل هذا النجاح أصبح باب السجن مفتوحا إلى آخر النهار وكذلك الزنازين، وكأنهم في منفى مفتوح أتاح للسجناء تنظيم حياتهم الداخلية تحت نظر الإدارة[3].

وتكونت في السجن نفسه وكالة أنباء ستار "واس" تجمع مختلف المحطات وتعد منها نشرة يومية تتلى على من يريد سماعها. وقد حمل معد هذه الأخبار عبد الستّار الطويلة اسم "واس" تندرا حتى بعد مغادرته السجن[4].

وأنشئ مسرح متكامل ، أشرف على بناء مدرجاته وخشبته وحجرات الممثلين مهندسون ، بدأ الأمر بضرب الطوب اللازم للبناء من أرض المنطقة و شارك في العملية كل المساجين.

وأسست مجلة حائطية أسماها مصدرها الفنان حسن فؤاد "مجلة المسرح" تقدم تقريرا عن تقدم أعمال البناء ، إلى جانب مقالات عن المسرح في مصر والعالم.

وبعد أربعة أشهر من العمل أصبح المسرح جاهزا ومن خشبته صارت تتلى نشرة "واس" الصباحية وتلقى المحاضرات العامة وتقام فيه سهرات رمضان، وتحولت إليها المسرحيات التي كانت تقدم في أروقة العنابر[5].

وقد واظب السجناء على إصدار مجلة "الثقافة الجديدة" شهريا في مائة وعشرين صفحة مزينة بالرسوم وبغلاف بلوحتين فنيتين رائعتين. من كتاب مقالاتها محمود أمين العالم، إسماعيل صبري عبد الله ، فؤاد مرسي، ألفريد فرج، نبيل زكي، زكي مراد وغيرهم[6].

هذا إلى جانب نشاطات ترفيهية أخرى كثيرة شعرية وغنائية وفكاهية. ومن النشاطات الثقافية التي عرفتها سجون أو معتقلات أخرى[7] نذكر ما كان يدور في مجالس الشاعر والمناضل التركي الشهير ناظم

---

[1] - المرجع نفسه - 24 - 25.
[2] - " " - 34 - 35.
[3] - " " - 31 - 33.
[4] - " " - 36 - 39.
[5] - " " - 42 - 46.
[6] - " " - 57.
[7] - " " - 65 - 68.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حكمت من نقاشات ونشاطات لو علم بها سجانوه لتركوه حرا ،[1] وما عرفته مجالس حركة الإخوان المسلمين من نشاط أيام النظام الملكي ثم الناصري، وما عرفته بعض المعتقلات الجزائرية . وعرفت بعض السجون نشرات إخبارية ثابتة يسهر السجناء أنفسهم على إعدادها،[2] مثل نشرة البحري صديق الصافي النجفي ورفيقه في السجن الذي كان يمتعهم كل مساء بأخباره ومثل النشرات الساخرة التي كان بعض السجناء يشاكسون بها السجان وسادته، كما عرفت بعض السجون مجلات يعدها السجناء أنفسهم يحللون أوضاعهم وأوضاع أوطانهم، وينشرون إبداعاتهم على صفحاتها، مثل مجلة السلوى ثم مجلة الندوة التي أسسها معتقلوا حجة وأصدروا منها أعدادا ثم هربوها إلى خارج السجن ودفنت تحت الأرض خوفا من بطش الإمام فتلفت صفحاتها[3]، ومثل مجلة السجون المصرية التي عكفت على نشر إبداعات السجناء ودراساتهم والتي اعتمدنا في هذه الدراسة الكثير من نصوصها[4]، ومثل المؤلفات العديدة والقصائد والنصوص التي انبثقت من رحم السجن.

فقد أتاحت ظروف الاعتقال في الجزائر فرصا للالتقاء أمام أعين السجان حولت جحيمه إلى جنان وارفة الظلال تحضر فيها الندوات والمخططات والحفلات، ويحضر الشعر والمساجلات الشعرية، وتمتد جسور تلك العلاقات الحميمة إلى بعض السجانين فيتحولون إلى رسل لنقل ما يدور بالداخل المحرم إلى الخارج المتلهف لسماع الجديد، وأحيانا ينقلون الأخبار بين السجناء أنفسهم إذا تباعدت الزنازين والمقامات.

من صفحات تلك الحياة النابضة ما كان يتبادله الشعراء من تحيات شعرية تحمل معاني الإجلال والتقدير وتناقش قضايا الفكر والواقع المتردي وآفاق الوطن المفدى[5]، فبينما كان مفدي زكريا (في الثلاثينيات) يرسف خلف جدران (بربروس) العالية إذ برفاق النضال يلحقون به (الأخ الشهيد كحال – الأخ حيواني لخضر المعروف بغاندي الشباب – الأخ عبد الله فيلالي)، وإذا بالأديب الظريف محمد قنانش يخاطبهم بلهجته التلمسانية التي لا تخفى على مفدي،وفي هذه الزيارة المفاجئة يسحب مفدي زكريا قلم الرصاص ويكتب مرتجلا قطعة في الترحيب بالضيوف الجدد ويرسلها – كما يقول هو – "مع أحد سدنة بربروس الأمناء المخلصين لنا "[6]، وهو إذ يتحدث عن القلم الرصاص فإنما ليبين منع غيره من الأقلام وقد أشار الإبراهيمي أيضا في رسائله إلى أن القلم الحبري كان ممنوعا في السجون الفرنسية[7]، كما يشير إلى المكسب العظيم والحياة المنتزعة من قلب القهر وعمق الموت، والمتمثلة في تحول ذلك السادن من آلة عقاب وعين رقابة إلى يد مخلصة أمينة وهي الحال التي تتكرر مع مفدي زكريا في نقل جل أشعاره، لأنه كان وحيدا في زنزانة العذاب ، بينما

---

[1] - انظر : حنا مينا – ناظم حكمت السجن المرأة الحياة - دار الآداب - بيروت - ط2 - 1980 .

[2] - الصافي النجفي – حصاد السجن – 28

[3] - الثورةالمصرية في الأدب اليمني - 33 - 34 .

[4] - أنظر محمد محمود الغرباوي – الشعر في سجون مصر - 29.

[5] - قائلا: " أبضونا هذا الصباح على الساعة السادسة في بيت مفدي زكريا"

[6] - يحي الشيخ صالح - أدب السجون والمنافي - 126

[7] - أحمد طالب الإبراهيمي - رسائل من السجن - 40 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كانت أشعاره تتدفق خارج السجن وتنساب إلى أوساط الشعب وصفوف جيش التحرير الوطني انسيابا، بل وتساهم في التخطيط لفراره من السجن (مارس 1959).

وبعد أداء واجب الترحاب بالوافدين الجدد، والإعلان عن شوقه إليهم، يصف ذلك الصرح الذي حصنت جدرانه وتاهت علوا، وقام على أبوابه آلاف الشياطين لحراسة تلك الأرواح الطاهرة التي حلت به وغشته بالوقار وصيرت ضيقه وقهره جنة وارفة وحولت قعر عذابه إلى محراب طهر، ويهنئهم بهذه المنزلة العلية التي ارتفعوا إليها :

يناجيكم في السجن قلبي ووجداني قنانش عبد الله، كحال، حيواني
وأهدي إليكم من عريني تحية أبث بها شوقي إليكم وتحناني
هنيئا لكم يا قادمو به ومرحبا وأهلا وسهلا يا ميامين قحطان
لقد تاه منكم بربروس مفاخرا وقام على أبوابكم ألف شيطان
بيوت يغشيها الوقار كأنها وقد حملت أرواحكم خلد رضوان
وقد غيبوكم في بيوت كأنها محاريب طهر في معابد رهبان
وصرح يباهي الناطحات مناعة ويفخر في الدنيا على صرح هامان
يطوف على أسواره ألف مارد على ألف جن من جنون سليمان
أعد جزاء للذين تقدموا ضحايا جهاد في سعادة أوطان[1].

وعلى الساعة الثانية – ربما من اليوم نفسه – يقذف إليه السجان بورقة مكتوبة جاء فيها "رد التحية فرض" وهي قصيدة للشاعر والمجاهد المؤرخ "محمد قنانش"، لا تختلف عن سابقتها في ارتفاعها وتعاليها بالسجين وتفاؤلها ونظرتها المشرقة للسجن ولمستقبل الشعب، ويذهب الشاعر مذهبا بلاغيا جميلا هو ما يعرف بحسن التعليل، في تعليله أسباب نزوله والرفاق ضيوفا، إنه الشوق الذي حدا بهم إليه بعد ما سئموا البعد وحرائق الأشواق، ليجدوا السجن الذي ضاق على الجميع وضاق به الجميع، وسمعوا عن ضيقه الشبيه بالقبر، أفسح ميدان للأحرار، وإن قام عليه شياطين غلاظ شداد، فإن يد الرحمن هي التي جمعت بذلك العرين تلك الليوث، ويبادل أولئك القساورة من عرينهم رفيقهم التحية لأن ردها فرض :

قنانش عبد الله كحال، حيواني يجيبون عن فرض السلام بإحسان
أتيناكم يحدو بنا الشوق نحوكم ونقطع أشواطا إليكم بتحنان
سئمنا تكاليف الحياة لبعدكم وهل تبصر العينان من غير إنسان
سمعت بأن السجن كالقبر ضيق فألفيته للحر أفسح ميدان
تحييك من هذا العرين قساور بكم جمعتهم في الهوى يد رحمن

[1] - يحي الشيخ صالح – أدب السجون والمنافي في الجزائر - 127

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثبات على الجلى وسعي إلى العلى وبذل نفوس في محبة أوطـــان
لئن كانت الآمال تجمع بيننـــــا ونحن على بعد فها نحن جاران.[1]

ولأحمد سحنون قصيدة مماثلة في الترحيب بزائر جديد لمعتقل بوسوي أسماها "الإخوان بلسم الأحزان" وكتب معلقا:"مهداة إلى الأخ الكريم الأستاذ إسماعيل إسماعيل بمناسبة إلحاقه بنا إلى معتقل" بوسوي" القـــديم ويشير في ثناياها إلى فقدانه رفيقا قديما وجارا من جيران السجن، ليحل محله هذا الوافد الجديد ويأسو جـــراح إخوانه، فالأصدقاء خير شاف للجراح وخير هازم لظلام الظلم :

أصدحي يـــــا بلابل الأدوا ح لعناق القلـــــوب والأرواح !
ينجلي الهم باجتماعي بإخـــــــــــــواني كما ينجلي الدجى بالصباح !
ظفرت راحتي بإخوان صدق ووفاء كـــــانوا أداة نجاحـــــي !
بعد ما غاب (خالد) إسماعيـــــــــــل يأسو كـــــآبتي وجراحـــــي
وإذا كانت الحياة كفاحـــــا فالصديق الكريـــــم خير سلاحي.[2]

كما يرى محمد بن ابراهيم في رفاق السجن متعة خاطر يتبادلون مشاعر الود والإخاء، ويتقاسمون كل ما بين أيديهم، مثلما يتقاسمون ضراء السجن وعذابه فيقول :

على أن لي في السجن متعة خاطر قيت صحابا فيه من خيرة الصحب
شعورهم نحوي شعوري نحوهم وأكلهم أكلي وشربهم شـــــربي.[3]

ويتألم فايز أبوشمالة لآلام رفيقه في السجن وقد أخذوه إلى غرفة التحقيق أو بالأحرى إلى المسلخ لأنـــه يعلم مسبقا طبيعة ذلك المسلخ أو المشرحة كما يسميها مظفر النواب ويعلم أن الداخل إليه قد يعود وقـــد لا يعود.[4]

كما يشفق الشاعر عبد الحميد الديب على رفيق السجن الأعمى، ويتألم لحاله وقد ضاق بالســـجن وبرم بقوانينه المرهقة الجائرة فلم يخضع لأوامرها والنظم التي قيد بها رفاقه، فكان للحراس علاجهم الخاص لمثل هذه الحالات المتمردة، وهل يعرفون غير السوط حلالا للمشاكل؟ وفوق فنون التعذيب اتخذوه لعبة ســـجن يتلهون بها ، وإذ يتألم الشاعر لحاله فإنه يهنئه على العمى الذي أراحه من رؤية ظالميه :

سجنوا عليك الكون، أم سجنوك لو أنصفوا في ظلمهم قتلوكا !
تخذوا عذابك، أو نعيك شهـــــوة وتقاسموك، كأنهم خلقوكـــا !

---

[1] - المرجع السابق - الصفحة نفسها.
[2] - أحمد سحنون – الديوان – 77.
[3] – محمد السعيد الرحراجي – شاعر الحمراء بين الواقع والادعاء – 88 .
[4] - فايز أبو شمالة - سيضمنا أفق السناء – 39 - 40 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نم يا ضرير، ففي عماك سعادة ألا ترى عيناك من ظلموكـــا
ألا ترى أثر الطغاة وجورهـــم عرضا ذبيحا، أو دما مسفوكـــا
ألا ترى الدنيا شخوص رواية ضلت.. وضلوا شرعة وسلوكـــا
صادوك فاتخذوك لعبة ملجـــأ كم عذبوك بـــه وكم ضربـــوكا
لم يرحموك على عماك، كأنهم حسبوا العذاب على العمى يهنيكا[1].

ولكنه أيضا يحدثنا عن رفاق آخرين، خليط متنافر من البشر، وجد نفسه بينهم غريبا غربة صـــالح في ثمود، ولأنه كان يحشر دائما في زمرة المجرمين والدهماء واللصوص، فقد رأى نفسه وسط جمعهم الغريب يوسفا في الصلاح :

وإخوان سجن قبحت من وجوههـــــم هموم توالى دائما وخطـــوب
فمنظرهم أضحوكة للباسهـــــــــم ومخبرهم في الحادثات رهيب
لقد كنت فيهم "يوسف" السجن صالحا أفسر أحلاما لهم وأصيـــب[2].

وقد حشر مثله أحمد الشامي المناضل السياسي والمثقف والشاعر مع اللصوص وأصناف المناكيد فقال :

في سجن نافع حيث الحق مضطهـــد والناس ما بين موثوق ومشدود
وحيث يحشد أهل الرأي في هـــــزء مع اللصوص، وأصناف المناكيد ![3].

ولمحمد الشبوكي مداعبات لرفاق السجن صنفها في ديوانه تحت باب "الإخوانيات"، منـــها مداعبـــة لصديقه الشاعر المرحوم مصباح الحويلق في معتقل بوسوي أسماها "الشيخ المتصابي"[4]، ومنها قصيدة أهداها إلى رفيقه في المعتقل وأحد مشاركيه فيما كان يدور هناك من مطالعات ومطارحات شعرية، هو الشـــاعر محمـــد الطاهر عباس، يقول فيها :

داعب جمال الشعر واعزف على مزاهر الحب ونايـــاتـــه
واستوح من قلبك أنشـــــودة خالدة تعرف أناتـــــــه
فالقلب يا شاعري معـــــزف يسكب في الكون رناتـــه
والشاعر الموهوب مـــن لا يني ينغم للدنيـــا ربابـاتـــــه
ويرسل الألحان مشبوبـــــــة تكهرب الأفق بآهاتـــه[5].

---

[1] - عبد الرحمان عثمان – الشاعر عبد الحميد الديب حياته وفنه – 59.
[2] - المرجع نفسه – 58.
[3] - أحمد الشامي – حصاد السجن – 81.
[4] - محمد الشبوكي - الديوان – 186 .
[5] - المصدر نفسه – 188 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتتقوى الروابط بين السجناء وتصدق المشاعر حتى إذا غادر أحدهم السجن غادره موجع القلب باكيا، فهذا أحمد سحنون يحين يوم رحيله فلا تنسيه الفرحة بلقاء الأهل، ذلك المجتمع البديل الذي استأنس به في وحشة السجن وعذابه، ويسجل قصيدة في توديع الرفاق وشكر جميل صنيعهم يقول :

وداعا وداعا رفاقي الكـــرام	وداع أخ لا يخون الذمام
وداع أخ ذاق في قربكـــــم !	هدوء الفؤاد وطعم الوئام
أودعكم دامع المقلتـــــين	كأني أساق لمـوت زؤام
وأخرج كرها فيا مـــن رأى	سجينا إلى سجنه ذا هيام
رضيت عن السجن من أجلكم	وإن كره الناس فيه المقام[1].

أما "عبد العزيز أحمد هلالي" فيوصي رفيق سجنه وقد حان موعد رحيله بابنته خيرا إن هي جاءت تهنئه بالعودة وأن يستقبلها بعطف وحنان ويعطيها الحلوى مثلما كان يفعل أبوها قبل القيد، ويبشرها بعودة أبيها القريبة جدا :

يا رفيقي قد تركت السجن والسجن قيود / ومهاد في ظلام وعذاب في حديد / وانتباهات تدوي ولها قصف الرعود / يا رفيقي أنت لي جار فلا تنسى الحقوق / ...وإذا جاءت تهنيك على العود "رجاء" / وبعينها تراءى طيف أحلام الهناء / ثم قالت أين بابا بين ضعف وصفاء / أعطها الحلوى وناجيها بعطف ورضاء / قل لها إن أباها في غد سوف يعود .[2]

ومن مظاهر الحياة الأدبية التي بنى شعراء هذه المعتقلات صرحها في قعر زنزانات العذاب، ذلك النادي الأدبي والفني الذي أسسه نزلاء معتقل بوسوي، وكان من أعضائه الشعراء أحمد سحنون ومحمد الشبوكي وأحمد عروة والفنان الملحن هارون الرشيد وغيرهم، وكثيرا ما دفعوا بقصائدهم إلى الشاب الملحن يضع لها ألحانا وأخرجوها إلى رفاق السجن في ثوبها الغنائي الجديد . يقول أحمد سحنون في تقديمه لديوان رفيق السجن أحمد عروة: "عرفت الدكتور عروة سنة 1957 وهي السنة التي بلغت فيها الثورة الجزائرية عنفوانها.... بدأ هذا التعارف بلقاءات عابرة في محتشد "الرواقين " ثم توثق وأصبح صداقة حينما نقلنا إلى محتشد الضاية "بوسوي"،وعندما ألفنا الندوة الأدبية بهذا المعتقل كان ضمن أعضائها النشطين المنتخبين، وأكثر قصائد الديوان نظم أثناء هذه الفترة، إذ كنا ننظم القطع ثم نعطيها للملحن الملهم "هرون الرشيد" ليضع لها لحنا، ثم نواجه به جمهور المعتقلين ضمن حفلة موسيقية.."[3]

ولنا أن نقف عند كلمة منتخبين التي توحي بطبيعة هذا النادي الأدبي، وأن نتخيل تلك الحياة النابضة

---

[1] - أحمد سحنون – الديوان – 111 -

[2] - عبد العزيز أحمد هلالي – أنغام شاردة – 69 - 70 .

[3] - أحمد عروة - ذكرى وبشرى – 6.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خلف الأسوار الصامتة، وكيف التقت هذه الثلة من الشعراء والفنانين والمثقفين وأنطقت الصمت و فجـــرت لسكون، وتحولت بالسجناء إلى جمهور ذواق تخرج إليه بإبداعاتها فينصت ويعجب ويهتف ويصفق.

وفي تلك الأجواء الصافية سجل أحمد سحنون قصيدة في عضو النادي النشيط الذي أشار إليه سابقا، الطبيب الشاعر أحمد عروة، المداوي الجراح نهارا بطبه، والقلوب ليلا بشعره ورسمه، إنه قطعة من الشعر لم تنظم بعد، يقول :

يأسو الجراح ويذهب الأتراحا ويحيل مأتم شعبه أفراحـــــــــا
فبطبه يأسو الجراح فتشتفـــي وبشعره كم أطرب الأرواحـــــا
وبرسمه يجلو القذى عن أعين شهدت لروعـــة فنـــه ألواحـــا
وبخلقه داوى النفوس من الأسى فغدت به مرضى النفوس صحاحا
له قلب قد حوته ضلوعـــــه قد راض من نبل الخلال جماحـــا
يا عروة الشعر الحديث وآسيـــا مثل ابن سينا للأنام جراحـــــا
عش حارسا للمجد من متطفل فالمجد قد أعطى لك المفتاحـــــا[1].

ومن الرفاق من لم يستطع الصمود في وجه الجلاد، وفتن مع أول امتحان من امتحانـــات العـــذاب، ونجحت معه أولى محاولات التدجين فراح يمدح جلاديه ويثني على المجرمين ناسيا مبادئه الأولى، وفي واحد من أمثال أولائك المتنصلين الضعاف كتب جمال فوزي قصيدته "خيانة"، حاول فيها تذكيره بما عاهد به قبل محنة السجن، يقول في رفض مثل هذه الردة :

عرفته ساحات العقيدة مسلمـــا وضع الكفوف مع الكفوف وأقسما
ويقول في جنباتها.. إني..لهـــــا ومضى يخوض غمارها متفهمـــــا
لكنه حين احتوته سجونهـــــم يبدو أمام طغاتهم – متلعثمـــــــا
وتمر أيام فيمسي.. خاضعـــــا أثنى على من أجرموا وترنمـــــا
أنسيت يوم أذقت مر سياطهم أنسيت ما اقترف الطغاة محرمـــا
وحسبتك الحر الأمين وثـــائرا حتى رأيتك حائرا مستسلمـــــــا
وحسبتك الدرع المبين لدعـــوة حتى رأيتك للأيادي لاثمـــــــا
لفظتك كل قلوبنا فجسومهـــا بين الرفاق الماجنين تهدمـــــا
الحق يعلوا لن يضر جموعـــــه غرّ هوى خان العهود وأجرمـــــا[2] .

وهي حالة نادرة أمام حالات الصمود الكثيرة ، وصور الحياة المنتزعة من قعر الزنازين انتزاعا ،

---

[1] - المصدر السابق- 7

[2] - عبد الباسط سعيد مطفى عطايا – الشاعر الإسلامي جمال فوزي – 100.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من الصور التي انتزعها هؤلاء الرفاق من قلب الموت تلك الليالي الساهرة المختلسة عن عين الرقيب، نذكر منها ليلتين للشاعر محمد الشبوكي ، قضى إحداهما ورفاقه يتغنون بالأناشيد الوطنية وأهازيج الثورة في أعماق معتقل بوسوي، يقول في وصف مباهجها و تناوب آلات الطرب فيها :

من كان يطرب للحون فإنني أمسيت منها في جوى وفتون
تهتاجني الأوتار في رناتها وتهز قلبي روعة التلحين
يا ليلة ما كنت أحسب أنني ألقى بها حفلا يثير شجوني
فالناي يبكي والكمنجة تشتكي والعود بين تأوه وأنين
هذا يناغي عوده بمهارة قد أذكرتنا نغمة الحسون
ومزامر سبحت بنا رناته في جوها المتدله المفتون
والدف قد لعبت بنا نبراته ببراعة ندت عن التبيين
وعلى الجميع وقارة وتخشع والكل بين تشوق وحنين[1].

وأما الليلة الثانية فكانت "ليلة أندلسية" وكان بطلها رفيق السجن "مصطفى لعسل" بأحاديثه عن رحلته إلى إسبانيا وما تزخر به من آثار إسلامية خالدة، فقد أثارت تلك الأحاديث فضول الحضور، وحركت أشجانهم صولات الدهر وتقلباته العجيبة :

لست أنساها حياتي ليلة أندلسية
جمعتنا في دجاها يد أقدار خفيه
فتجاذبنا أفاويق الأ قاصيص الشهية
"عسل" راح يساقينا كؤوسا عسلية
شنف الأسماع منا بالأحاديث الطلية
فروى ما قد رأى من رسوم عربية
جولة قام بها في الربوع القرطبية
فسهرنا نتشاكى صولة الدهر العتية[2].

وقد كان محمد الشبوكي محاورا بارزا ومسجلا وفيا لكثير من صور حياة السجناء من الداخل، وكانت له محاورات لطيفة تجاوز فيها ورفاقه عذاب السجن إلى فضاء العلاقات الإنسانية، حتى ليتبادر إلى المطلع عليها لأول وهلة أنها سجلت في مجالس أنس تحت ظلال الرياض الغناء ونسائمها، ففي "معتقل الجرف" كان العازف على أوتار العود "رشيد" يساهم في إضفاء أجواء من البهجة، ويخفف عن الرفاق آلام الحبس

[1] - محمد الشبوكي – الديوان – 118.
[2] - المصدر نفسه - 116.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وغربته، وفي ذلك يقول :

نقرات العود من كف رشيد تبعث النشوة في القلب العميد
قلت والأوتار في أنملـــــــه تتشاكى جفوة الدهر العنيـــد
أيها الفنان زدني إننـــــــي لأنين العود ذو شوق شديـــد[1].

ولما قرأ الأبيات على العازف الذي نظنه الملحن أيضا الذي أشار إليه سابقا أحمد سحنون، اقترح عليه أن ينشد شعرا في عوده، فاستجاب لرغبته عن طيب خاطر وأنشد :

يا عود ردد أغاني وألحـــــــــاني فالشوق برح بي والبين أشجاني
وفي فؤادي حنين لا يفارقنـــــــي إلى معاهد أحبابي وخلانـــي
ضمد جروح سهام الوجد في كبدي يا خل ظل مدى الأيام يرعاني
فإن تك المزعجات السود تعصف بي فأنت يا عود بالسلوان تلقاني .[2]

وقد أشار أحمد سحنون إلى إحدى قصائده التي لحنها الملحن الشاب هارون الرشيد وغنيت في حفـــل عام في معتقل بوسوي، هي قصيدة "أين يا صداح"[3].

وتصل مباحات المعتقل إلى المذياع وما يبثه من أخبار ونشرات وأغان، فمرة في معتقل لودي يســـمع محمد الشبوكي عند زميله مسعود زيتوني أغنية للمطربة فيروز وربما أثر فيه المقطع ، فلما عاد ذات مساء آخر إلى غرفة زميله سأله مداعبا "أين فيروز" ثم أنشد ارتجالا هذه القطعة الشعرية :

أين فيروز يا رفيقي فـــــــإني لأغاريدها أذوب اشتياقـــا
كم سبتني بصوتها في ربى الـــــــــــوادي وكم لذ شدوها لي وراقا
إن فيروز نجمة في سما الفـــــن تراءت فأشرقت إشراقـــا[4].

واستمع مرة إلى شريط غنائي في المعتقل نفسه للمطربة نجاح سلام فحركت فيه أشـــجانا وأشـــواقا وأعادت إليه ذكريات فأنشد في وقع غنائها عليه.[5]ومن وحي أغنية "بلادي" لوردة الجزائرية التي سمعها أحمـــد سحنون في معتقله كانت قصيدته "يا لها غربة"[6].

ولعل أهم مايمكن ملاحظته في تتبعنا لصور الحياة الجماعية لشعراء الحبسيات داخل المعتقلات والسجون

---

[1] - محمد الشبوكي– الديوان - 201 .
[2] - المصدر نفسه والصفحة نفسها.
[3] - أحمد سحنون – الديوان - 158
[4] - محمد الشبوكي – الديوان 190 .
[5] - المصدر نفسه – 191 .
[6] - أحمد سحنون – الديوان - 105.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هو طغيان الجانب الثقافي والفكري على غيره من الاهتمامات الأخرى، وذلك راجع إلى طبيعة تكوينهم التي لا تستطيع الاستغناء عن أجواء العلم والمعرفة، فإذا أبعدت عنها قسرا صنعتها بدورها قسرا وعاشت بها ولها برغم السجن والسجان، ومن صور التهافت على المكتوب الممنوع غالبا في السجن، ينقل حسين الجزيرى حادثة طريفة لرفاقه حول مجلس عشاء سجني لم يتجاوز عند السعيد فيهم ومحسودهم حبات من الزيتون حواها قرطاس به بعض الكتابة، فبرغم الجوع تهافت الحاضرون إلى القرطاس يريدون معرفة ما يحمله من أخبار، ويعرضونه على الذين يعرفون منهم القراءة والكتابة على تهلهله :

وعند عشاء القوم أخرج بعضهم قليلا من الزيتون والكل حاسد
حوى ذاك قرطاس به بعض أسطر تراءى لهم أن السطور فوائد
فجاءوا إلى من فيهم كان قارئا يريدون ما بالطرس والطرس بائد
فقلت وقد مالوا عليهم جميعهم قراطيس قوم عند قوم جرائد[1].

وفي السجن يحتفل الشاعر أحمد سحنون بعيد ميلاد رفيقه المجود الذي نكاد نسمع صوته يغمر فضاء السجن بآيات الذكر الحكيم ، يقول معلقا على هذه التهنئة الشعرية الخاصة : "لقيني المجود البارع الأستاذ دليل مقران في مفتتح أكتوبر فقال لي : اليوم يوم ميلادي، فكانت القطعة التالية من وحي هذه الكلمة".[2]

وكذلك حولت جماعة الإخوان المسلمين معتقل الطور إلى جنة وارفة الظلال ومنتدى للقاء الإخوان، ومؤتمر تعقد فيه الاجتماعات، ويقرر فيه المجتمعون ما يخشاه سجانوهم، ومسجد ترتفع فيه الصلوات والتلاوات، ومصيف تتقوى فيه الأبدان، يقول يوسف القرضاوي مجسدا تلك الفضاءات الفكرية والإيمانية التي كان يصنعها ورفاقه بسيناء التي حولوا صحراءها القاحلة بعملهم أيضا إلى جنة حقيقية :

قالوا : إلى السجن قلنا : شعبة فتحت ليجمعونا بها في الله إخوانا
قالوا إلى الطور، قلنا : ذاك مؤتمر فيه نقرر ما يخشاه أعدانا!
فهو المصلى نزكي فيه أنفسنا وهو المصيف نقوي فيه أبدانا!
راموه منفى وتضييقا فكان لنا بنعمة الحب والإيمان بستانا!
هذا هو الطور شاءوا أن نذوب به وشاء ربك أن نزداد إيمانا[3].

وقد نقل توفيق زياد مشهدا آخر من مشاهد الحياة الجماعية داخل السجن، هو مشهد مشاكسة السجان ومغالبة الظلام بالأناشيد، فكلما جاءهم يسأل عما يجري بالداخل تعالت أصوات الرفاق العشرين بالنشيد وأغرقت صوته في موجات الغناء.[4]

---

[1] - حسين الجزيري – الديوان – 29 .
[2] - أحمد سحنون – الديوان – 83 .
[3] - يوسف القرضاوي – نفحات ولفحات – 45 .
[4] - توفيق زياد – الديوان - 105 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما صور سليمان العيسى مشهد استقباله من طرف نزلاء سجن المزة العسكري الـــواجم الطريـــق، الرهيب المنظر، فما إن ولج عالمهم حتى تعالت التصفيقات ترحيبا بهذا الوافد الجديد ، وحتى أحاطوا به وأنسوه عذابه ، فإذا به يدخل مقامه الجديد "بمهرجان من دعاب"، وينسى بين مشاهد الترحاب والصياح والضوضاء والقهقهات جدران السجن الرطبة ، وتجهم الجند وتوعدهم ، وينسى البرد وقيد الوحشة والحديد وغيرها من المظاهر المؤلمة :

وإذا الرفاق يصفقون..... وقد أحاطوا "بالركـــاب"
ودخلت "مهجعي" الجديد بمهرجان من دعـــــاب
هذا ينط، وذا يصيـــــح وذا يرحب بالسبـــــاب
ودلفت بينهـــــــم.. أرى ضوضاءهم عين الصواب
ونسيت بين القهقهـــــات سماجة الجدر الرطـــــاب
وتجهم الجندي... يـــــــــــــــو عدنا بتحطيم الرقـــــاب
والبرد، والضجر المقيـــــت ووحشتي، وحديد بـــابي[1].

ومن أجواء احتفالات السجناء حفل دارت أحداثه في باحة سجن نفحة الصحراوي، تكريما للمناضل السجين "سليم الزريعي" بعد أن أمضى عشرين عاما في السجون الإسرائيلية، وإليه يهدي الشاعر فايز أبو شمالة قصيدته "جسر القوافل" إجلالا لصبره وصموده ، وإكبارا لعمر سجنه ، ويهديه بشائر الغد بمحافل الشـــعب المتقدمة نحو النصر بالأماني العذاب، فقد صار رمزا من رموز السجن العظيمة، يتحلق حوله السجناء ويحتمون به من ويلاته، ويستمدون منه الثبات والشموخ، يقول:

لك الصمت والنطق والأغنيات / لك العمق والأفق والخافقات / لك الأمر والنهي فبما رميت، وفيما قضيت / فأنت التورد كل صباح / وأنت الصهيل كما العاديات /... لك العمر عمران / عمر تهادى بطـــول البقاء / وعمر تخضر فيه الأزل /.. لك الغد رف رفيف الأماني... فأنت سماء لنا من بريق / عميق امتشـــاق ورجع القبل[2].

وقد عاش السجناء تفاصيل هذه الحياة تحت أعين السجان حينا وفي غفلة منه حينا آخر وبمشاركة منه في أحيان أخرى ، وهي في الغالب أجواء ثقافية وفكرية لأن قادتها ومحركي نشاطاتها هم المثقفون ومن بينـــهم هؤلاء الشعراء الذين نقلوا لنا بعض تفاصيلها وإن كنا نتصورها أكبر من هذه اللقطات والإضـــاءات الخفيـــة المسروقة .

---

[1] - سليمان العيسى – الأعمال الشعرية الكاملة – 1/ 248 .

[2] - فايز أبو شمالة – سيضمنا أفق السناء – 107 - 11 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- الهـــروب إلى ملاذات أخرى :

استطاع السجناء بصناعة تلك المجتمعات الصغيرة أن يتجاوزوا مرارة الســـجن وســـياط الجلاديـــن وقسوتهم، وينسوا حجرات التعذيب وفنونها من حين إلى آخر ، ولكنها لم تكن كافية وحدها ، كما أنهـــا لم تكن تنجو من سطوة السجان ، فهو يفسد أجواءها بعبقريات جنونه، وبعزل الأعضاء النشطين في زنزانـــات فردية ، أو إبعادهم إلى معتقلات أو سجون أخرى وأحيانا بزج هؤلاء المناضلين السياســـيين مـــع المجـــرمين والمدمنين واللصوص إمعانا في العقاب ،ولذلك وجدنا بعض الشعراء لا يكتفون بالتواصل بالأهل والأقارب ولا بمجتمع السجن، فيلجأون إلى خلق فضاءات أخرى للهروب من واقعهم المرير، مثـــل **التـــأملات الفكريـــة** والفلسفية التي تتيحها ظروف بعض السجون كالوحدة وخلواتها والصمت المطبق أحيانا، مما يدفع بالشـــاعر السجين إلى التأمل والتفكر في أمور شتى والاستعانة بخبرته في الحياة وتجربة سجنه وعـــرض خلاصـــة آرائـــه وزبدتها، نضرب لهذه السبحات الفكرية مثلا بقصيدة محمد الشاذلي خزنه دار "أقسام الناس"[1] يستند فيها إلى مشاهداته لواقع الأمة وما تردى إليه أبناء وطنه من ذل وهوان واستكانة واستسلام للمستعمر الدخيل، فيقسم الناس إلى أصناف عديدة (الجامد، الجاهل، الموظف، الحاكم، الخائن، الخائف، الساخر، الناهض، الناعق) ويأتي على القسمين الأول والثاني الذين هم أهله فينتقد جمودهم وجهلهم بأمور الدين والدنيا معا، ومن ثم التهاون عن واجبهم تجاه الوطن فيقول :

رأيت الناس أقســـامـــــا أعاريبا وأعجامـــــا
فقسم جامد ثـــــــاو أمام القوم أهرامـــــا
مشى عشواء في الظلما وفي الأغلاط قد عاما
يرى الإسلام تكفيـــرا يرى التكفير إسلامـــا
يرى الإحجام إقدامـــا يرى الإقدام إحجامـــا
وقسم ساكن جهـــلا وليس العلم إلهامـــــا
من الإذلال دنياكـــم كسته اليوم هندامـــــا
ولو أشعرته يومـــــا بفضل العلم إلمامـــــا
لأمسى فيه إحســـاس إذا استنهضته قامـــــا.

ثم يعرض صورة لأولئك الذين قيدهم الوظيف الحكومي وحولهم إلى مجرد عبيـــد ، أذلاء خاضـــعين، مقيدين بالسعي خلف الرزق واستجداء المخلوق بدل الخالق الرزاق، وأخرى للحاكم الذي انقادت له هـــذه الأنعام بجهلها طوعا فصار يرى الأحرار الذين جالدوه بالحجة ، وطالبوه بدستور يصون حقـــوق الشـــعب وينصفهم في وطنهم المستلب ويكفل حرياتهم ويصون كرامتهم أعداءه الألداء ، وقسم ثالث لا يعدو أن يكون

[1] - محمد الشاذلي خزنه دار – الديوان – 27 - 31.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تابعا لهؤلاء الحكام وهو شريحة الخونة وبائعي الضمير والشعب ، يقول :

وقسم قلبـــه دام وكان الفقر إلجامـــــا
وظيف سامه ذلا وما أدراك ما سامـــا
يرى في رزقه بابا ويخشى فيه حكامـــا
وقسم حاكم طاغ يسوق الناس أنعامـــا
أناني بـــــلا ريب يرى الأحرار أخصاما
..دعوناهم لدستور فكانوا فيه أصنامـــــا
وقالوا كم منحناكم من الخيرات إنعامـــا
فقلنا القول مردود وليس الحق إكرامـــا
وقسم خائن يمشي وراء الناس نمامـــــا
فلا جنسا ولا دينا يداجي الكل نهامـــا
يبيع الدين بالدنيا ولا دامت ولا دامـــا.

وقسم خائف يضخم له ذعره الخصم فيراه ضرغاما هصورا ويهول له الأمور، فيبقى خامدا منجحرا في قوقعة خوفه التي نسجها بأوهامه، وقسم ساخر غير مبال بكل ما يدور حوله من أحداث وأفكار، همه انتقـــاد الجميع ولومهم، وقسم يقظ عارف، مدرك لحقائق الأمور، خائض في سبيل قناعاته ووطنه المخاطر، وهو الذي ينتمي إليه الشاعر ورفاق النضال :

وقسم خائف يدري غدا في الناس حلاّما
يرى الأحكام أغلالا يرى الشرطي ضرغاما
وقسم ساخر يهذي يزيد القلب إضرامـــا
يعيب الناس نقّـــادًا على الأفكار هجاما
إذا استبحثته عادى إذا استنصحته لامـــا
وقسم عارف حـــي يرى الإذلال إعداما
بصير إن مشى يمشي وراء الفكر عـــزاما
يقيم الليل يقظانـــا يخوض البحر عـــواما
خبير بالدنا حقـــــا يرى للدهر أحكامـــا.

ويختم بالنموذج الأخير الذي يتهجم على هؤلاء الأحرار ويراهم مازالوا صغارا عما يرومونه من مطامح عظيمة ، ويكثر وليته صام عن الكلام لأنه مجرد صفر، ثم ينهي هذه التأملات التي استخلصها من ملاحظاتـــه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المتأنية للجميع بنصائح إلى إخوانه أبناء تونس الخضراء ، ويبين لهم أن طريق النجاة لن يكـــون إلا بتـــآخيهم وتعاونهم جميعا وتماسك صفوفهم :

ولاح قام مخزيـــــا جنونا رام مـــا راما
يقول القوم مازالوا صغارا ليته صامـــا
فضعه بين أصفـــار ترى الأصفار أرقاما
بني الخضراء إخواني بني الدستور إرغاما
أبينوا أنكم أهـــــل ولا تبقون أقسامـــا
فإنا كلنا فـــــــرد غدا للقطر خدّامـــا.

وما هذه التأملات إلا انعكاس للأوضاع التي آل إليها أمر المجتمع التونسي في ظل استعمار يتخفى تحت غطاء الحماية والانتداب ويسلط على الشعب من أبنائه من يقمعه ويقتسم مع الدخيل خيراته.

و يأتي **الفضاء الإيماني** في مقدمة الملاذات التي لجأ إليها الشعراء ، وانطلقوا منها في فلسفتهم للحيـــاة وتحليلهم لبعض مظاهرها، فعلى شاكلة محمد الشاذلي في أقسام الناس، يذهب القرضاوي في تفسيره للسعادة انطلاقا من أبعادها الروحية الإيمانية ويعرض خلاصة فلسفته في الحياة ويصحح من وجهة نظره اعتقاد الناس في السعادة التي يظنها البعض فيما حرموا منه، وامتلك الكثيرون أسبابها – كما ظنوها هم- ولكنهم لم يجدوها، إنها محيرة العقول وشاغلة الناس وسبب نزاعاتهم واختلافاتهم، رآها البعض في الثراء وتجميع المال فلما حصلوه عاشوا قلق الحفاظ عليه وطلب المزيد، ورآها البعض الآخر في النفوذ وجاه السلطان، فلما أدركوه أضنا هـــم الحرص على دوامه وأرهقهم التملق والطمع في المزيد والتف حولهم الجميع، حتى إذا فاجأهم البريد بقرار العزل انفضوا من حولهم كأن لم يعرفهم أحد، ورأى البعض السعادة في الغرام ولذاته فلما خاضوا بحره الطـــامي لم يذوقوا منه غير السهاد والدموع وغير الشقاء ، ورآها آخرون في الخمول والكسل والرضى بواقع الحال والسير مع القطيع . وقد رد الشاعر على هؤلاء جميعا بفلسفته الخاصة في السعادة التي تبدأ بالعيش لفكـــرة كـــبرى وقضية كبرى هي العقيدة التي يجد فيها المؤمن الحلول لكل معضلات الحياة، وقد بلغت أبيات هذه القصـــيدة مائة وأربعة وسبعين بيتا نقتطف منها قوله :

" السعـــادة "

أمل إليه هفت قلو ب الناس في الزمن التليـــد
أمل إليـــــه سعـــــى الملـــــوك كما إليه رنا العبيـــد
وتزاحموا كالبهـــم يدفعـــــها الصدى عند الـــــورود
وتساءلوا عنـــــه، ولـــــــكن من يجيب، ومن يفيـــد
فمشرق ومغـــــــرب وكلاهما يرجو البعيـــــد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عادوا وكل سـؤالهـم أين السعادة والسعيـــد ؟
وتخالفوا، ولكل قـــوم وجهة، ولهم عميـــــد
...قل للذي يبغي السعـــا دة هل علمت من السعيد ؟.
إن السعادة أن تعيـــــــش لفكرة الحق التليد
لعقيدة كبرى تحـــــــــل قضية الكون العتيد
وتجيب عما يســأل الـــــحـيـران في وعي رشيد[1].
من أين جئت؟ وأين أذهـــــب؟ لم خلقت؟ وهل أعود؟

كما لاذ بعض الشعراء في نهاية المطاف **بمجانيق الدعاء** بعد أن جربوا مع الحكام كل الأساليب ، لاذ بعضهم بالدعاء والمناجاة بعد محاولات الصبر والتصبر والنسيان والتجاوز والتأسي، فكانت لهم لحظات صفو ورجاء بين يدي الخالق كما كان للشاعر محمود طاهر العربي[2]، وأحمد سحنون[3]، وبين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم أو أحد الصالحين، مثل وقفة الشاعر محمود عبد المنعم عطية[4] في ذكرى المولد النبوي الشـــريف، وكما استأنس الشاعر محمود طاهر العربي في سجن السيدة زينب بمناجاة هذه السيدة من حفيدات المصطفى صلى الله عليه وسلم، ورجاء بركاتها، بل واستعذب السجن ما دام في رحابها [5].

ومن الشعراء من **لاذ بالطبيعة** كما فعل الشاعر أحمد عروة في "رسالة الأقحوان"[6]، وكما فعل محمـــد العيد آل خليفة في مناجاته الجبل من إقامته الجبرية مناجاة تعود بنا إلى قصيدة ابن خفاجة الشهيرة في مناجـــاة الجبل والإنصات إلى حكمه الصامتة الدامغة[7]، وارتفع مفدي زكريا بالطبيعة التي حبا الله بها الجزائر درجـــات فرآها بجبالها ووهادها وغاباتها مجاهدة أخرى تمد الثورة والثوار بالمخابئ الآمنة البعيدة والصعبة المنال[8].

وقد شذ عن هؤلاء جميعا الشاعر مصطفى وهبي التل الذي صنع لنفسه فضاءا غريبا لمن تحمل مثله أمانة النضال ولغة الرفض ودفع في سبيلها ثمنا غاليا وتحول بفضلها إلى نزيل لا يكاد يخرج من السجن إلا ليعود إليه، ألا وهو **فضاء الخمر** التي أدمنها وارتاد مجالسها قبل تجربة السجن، وأراد أن يحتمي بغيابها وذهابها بالعقل من

---

[1] - يوسف القرضاوي – نفحات ولفحات – 71 ومابعدها.
[2] - محمود طاهر العربي – هذا المجتمع الظالم – دار المستقبل – القاهرة - 218 - 219 .
[3] - أحمد سحنون – الديوان - 149.
[4] - محمد محمود الغرباوي – الشعر في سجون مصر – 692 - 693.
[5] - محمود طاهر العربي – هذا المجتمع الظالم - 211 - 212 .
[6] - أحمد عروة - الديوان - 57.
[7] - محمد العيد آل خليفة-الديوان- المؤسسة الوطنية للكتاب-ط3 - د ت - 425. و ابن خفاجة- الديوان- دار بيروت للطباعة والنشر- 1982 – 42-44 .
[8] - مفدي زكريا – اللهب المقدس – انظرعلى سبيل المثال لا الحصر – 12 - 31 - 66 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وطأة السجن، أو كما قال هو، أراد أن يصفع بكؤوسها يأسه، وقد سجل فيها من سجنه المتكرر أربع قصائد هي "الخمر"و"توبة عن التوبة" ذات النغمة النواسية الحزينة و "راهب الحانة" و "نفثات خمر"[1].

أما علاقة مظفر النواب بالخمر فتبدو رمزية، فهو يهرب إليها ليستطيع تحمل رؤية بعض الناس، والرد عليهم بمثل أفعالهم التي لا يمكن أن تصدر في حقيقتها إلا عن سكران فاقد للوعي : "يا ابن جيبين... حراما، أنني / أسكر كي أحتمل الدنيا التي فيها أراك"[2].

وإن اختلف الشعراء في بحثهم عن ملاذات أخرى يحتمون بها من ويلات السجن، باختلاف ثقافاتهم وبيئاتهم وانتماءاتهم السياسية والدينية والفكرية، فإنهم اتفقوا جميعا على **فضاء الأمل** المفتوح في الغد المشرق، والثقة المطلقة في قرب ذلك الغد، وسقوط كل الجبابرة ونهايتهم نهاية مأساوية على أيدي من كانوا أشبه بالعبيد ثم استفاقوا، وقد مرت بنا في مبحث تحدي الحاكم والسلطان والسجان صور كثيرة في تنظر ذلك الغد القريب، فبرغم أجواء السجن المظلمة، وآفاقه المسدودة كان أولئك الشعراء يتطلعون إلى الخلاص، وينظرون إلى المستقبل بعين الآمل في شعاع من نور يبدد ظلماتهم، وكانت نغمة التفاؤل هي الغالبة.

فهذا عبد العزيز أحمد هلالي يدعو من حوله إلى التفاؤل واستقبال الحياة في فرح وسرور، لأن كل ما في الكون ينبض بالحياة، ولن يتوقف عن سيرورته، ويدعوهم إلى تأمل كل المخلوقات وهي تهبه مباهج الحياة من أطيار مغردة وورود وأزاهير نضرة فواحة وشمس مشرقة ونجوم بازغة تشاركه بشره الدائم، حركة دؤوب لم توقف جدران السجن تنفسها، و لم يستطيع حديده وجلاده أن يعزلوا الشاعر السجين عن ملاحقة بعض تلك المظاهر النابضة أو حتى الإنصات إلى بعض وشوشاتها وحفيفها :

غرد فلا زالت الأطيار سابحة ... تهديك من نغمات الحسن ألحانا
والورد من تحتها نضرا يداعبها ... وفي شذاه يميل الطير سكرانا
لم يحجب الشمس عن عينيك حسنهما ... ولا القيود أصمت منك آذانا
غرد فمازالت الأنسام ضاحكة ... تهديك للفجر والبستان عنوانا
لم يمنع السجن مسراها ومهبطها ... إليك تهدي عبير الروض ريانا
وللسماء جلال حين ترمقها ... تهز في قلبك المجروح إيمانا
وفي الليالي نجوم جمة بزغت ... كم داعبتك، وكم لاقتك سهرانا[3]

ويدعو رفاقه إلى تأمل مساحات أخرى و أن يستمدوا منها اليقين والأمل في الحياة ، هي **مساحة الحلم** التي يتجاوزون بها لياليهم الحالكة ، ويحيلون بأطيافها جحيم السجن جنات وارفة الظلال، يستحضرونها أنى

---

[1] - مطفى وهبي التل – عشيات وادي اليابس - 62، 64، 152، 180 .

[2] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة – 199.

[3] - عبد العزيز أحمد هلالي – أنغام شاردة – 78 - 79 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شاؤوا فتخترق السجن بكل موانعه وتلبي الدعاء، ويدعوهم من جهة أخرى إلى فضاء العناية الإلهية المبسوطة للحيارى والمكروبين، كلما ضرعوا إلى الرحمن وجدوا عطفه وأحاطهم كرمه ورحمته التي وسعت كل شيء :

غرد فلا زالت الآمـــال باسمـــــــة ... تحيي بقلبك عند الروع رضوانا
إذا دهتك الليالي وهي حالكـــــــــة ... وبت أنت صليل القيد وسنانـــا
تلقاك في النوم أطياف مذهبـــــــــة ... تحيل سجنك جنات وأفنانـــــا
لم يمنع السجن عنك الحلم مؤتلقـــــا ... في القلب، يقطر إشراقا وإحسانا
غرد ففي عطف رب الكون متســـع ... للحائرين فلن يبقيك حيرانـــــا
إن ضاقت النفس بالمكروب واحترقت ... فاضرع إليه تجد روحا وريحانـــا
وارقب ندى الله في البلوى، فرحمتـــه ... لم تنس في حالكات الكون إنسانا
إن ضقت بالسجن فاذكر عفو مقتدر ... يحيي غدا فكأن السجن ما كانا.[1]

ويتفاءل جميع الشعراء بعودتهم القريبة جدا، ويعبرون عن ذلك القرب بلفظة "غدا" لنشعر بدنو أجلها أو الفجر لنحسها أقرب، ويحذرون الظالم من ذلك الغد أو الفجر الآتي لأنه لا يحمل إلا علامات فنائهم ، فهذا البردوني يحذر الإمام من الغضب الكامن في الضلوع المنساب في دماء المظلومين، لأنه إذا تفجر بركانه جرف الظلم و أطفأ الظالمين ، وجعل آثامهم تلعنهم وتتبرأ منهم، وفي ذلك الغد القريب لا تقبل توبة للظـــالمين، ولا تبقى يد تلوح أو تصفق لهم، لأن الجميع منشغل باستقبال الفجر الجميل :

ففي أضلعي في دمي غضبـــة ... إذا عصفت أطفـــأت مشعلك
غدا سوف تطعنك الذكريات ... ويلعن ماضيـــــك مستقبـــلك
ويرتد آخرك المستكيـــــــن ... بـــآثـــــامـــه يـــزدري أولك
ويستفسر الإثم أين الأثيـــــم ؟ ... وكيف انتهى ؟ أي درب سلك ؟
غدا لا تقل تبت لا تعتـــــذر ... تحسر وكفن هنا مـــــــأملك
ولا : لا تقل : أين مني غـــد ؟ ... فلا لم تسمر يـــــــداك الفلك
غدا لن أصفق لركب الظـــلام ... سأهتف : يا فجر : مـــا أجملك .[2]

وعن ذلك الفجر ينبئنا فوزي الأسمر أنه لا بد من يوم جديد، يقود ثورته العبيد والمستضعفون، وفجر يهزأ بالحديد وبالقيود، يوم يثور فيه الشعب كله، ويدوس أطفاله الأعداء ويقتحمون الصعاب :

لا بد من يوم جديد / يوم، / تخاف الشمس فيه من العبيد / والفجر يهزأ بالقيود / وبالحديد / والطفل يحتضن النشيد / ويدوس بالقدمين ثعبانا حسود / ويدق صدر الأرض يقتحم السدود.[3]

---

[1] - المصدر السابق- 79 .
[2] - عبد الله البردوني – الديوان – 313/1 - 314 .
[3] - غسان كنفاني– الآثارالكاملة – 483/4– 384 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهو الذي يبشربه سليمان العيسى ويرى طريقه المسدودة الآفاق بالأمس وقد شقها مـــارد الشـــعب الجبار، بعد أن أفاق من سباته العميق وراح يعد العدة لاستقبال أنوار هذا الفجر الدافق :

بشرت بالفجر القريـــــــــــب على الذرى غدقا، سخيا
ولمحت ماردنا الرهيـــــــــــب وقد أفاق يريد شيـــا
هيا...إلى غدنا الرحيـــــــــــب نعده للنور... هيـــا[1].

وبرغم بشاعة الاحتلال الإسرائيلي وشراسته، وبرغم الخناق الذي يفرضه على الشعب الأعزل، يـــوقن فايز أبو شمالة أن الفجر لا محالة آت، ويؤكد أنهم مهما ضيقوا على الشعب، فالفجر آت، منبثق من شـــقوق الأيادي الكادحة، متفجر من أي شيء فوق هذه الأرض لم تطله يد المستعمر، هو طالع من فيض الانتفاضـــة نخلة باسقة شامخة لا تعرف انحناء أو ركوعا، هو بازغ ولو طال الزمن، مادام في الوطن صغار يفتحون عيونهم على النضال والتحدي و لم يبلغوا بعد سن الفطام :

مهما يكن فالفجر آت من شقوق الكف من قرميدة لـــم تخضع
والفجر آت من كروم الانتفاضـــــــــة نخلة جمارها لم يركـــــــع
وسيقلب الميزان لو طال الزمـــان طفل تحدى فوق صدر المرضع[2].

أما بلند الحيدري فيتعجل هذا الآتي، ويرى الغد والفجر غير بعيدين، ويشعر أن زمن عودته صار أقرب إليه من حبل الوريد فعبر عنه "باليوم"و وراح يتخيل ساعة لقائه بالأرض التي حرم من المرح في فضائها الرحب الفسيح الحر، يقول :

وبحبي / وببغضي / سأحيل حقولي / فجرا ينساب على أرضي / واليوم / أعود / مـــا أعمـــق / مـــا أطيب/ ما أوسعها...أرضي / تلك الأكبر من كل سني الغربة / والظلمة / والرعب / والأكبر من عفوك يـــا بغضي[3].

بعد هذه الجولة في أعماق المعانات الشخصية لشعراء الحبسيات يحق لنا أن نعرف إلى أي مدى عـــبر هؤلاء الشعراء عن ذواتهم، وهل وفقوا في نقل بعض الحقائق من مشاهداتهم للسجن من الـــداخل وتجـــاربهم الخاصة فيه، فمن عادة الشعراء اعتماد أساليب المبالغة والتهويل وركوب مطية الخيال والرمز وغيرهـــا مـــن الأساليب الفنية الجمالية التي تبتعد بالأدب عن الرصد الفوتوغرافي للأشياء والحوادث إلى عوالم الإبداع والخلق. ولكن مقارنة بسيطة بين ما جاء في السير الذاتية النثرية لكتاب ومثقفين مروا بتجربة السجن وبين ما بأيدينا من حبسيات تجعلنا نجزم أن هذه النصوص الشعرية لم تنقل مما كان يدور داخل السجن من صور العذاب إلا

---

[1] - سليمان العيسى – الأعمال الشعرية الكاملة – 1/ 246 .
[2] - فايز أبو شمالة –سيضمنا أفق السناء – 77 .
[3] - بلند الحيدري – الديوان – 387 - 389 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومضات خفيفة وإشارات .

وإن هذه النصوص الشعرية التي نعدها وثائق تاريخية هامة لم تنقل إلينا إلا الترر اليسير من حقيقة مشاهدات الشعراء لما عرفه الداخل من أحداث وما رأوه من أهوال، فهي و إن مال بها الشعراء إلى المبالغة والتهويل واخترعوا معادلات موضوعية للتعبير عن قتامتها لا تصل إلى درجة الرسم الدقيق التي بلغتها السير الذاتية في رصد أشد المواقف إيلاما لكرامة السجين و إنسانيته، بينما ارتفع الشعراء عن كثير من تلك المشاهد، ربما تجاوزا أو محاولة لنسيان تلك الآلام المحفورة في الأجساد والذاكرة، وربما أرجعنا ذلك إلى طبيعة الشعر الرافضة للتفاصيل لأنه يتحول بها إلى تأريخ أو شعر تعليمي فاقد لأسسه الجمالية كما تجلى ذلك في كثير من نماذج الشعر العمودي مثل قصائد يوسف القرضاوي الذي صرح في تقديمه بأنها مجرد رصد لبعض حقائق عرفتها سجون مصر، وأحمد سحنون والشبوكي ومحمد بهجة الأثري والصافي النجفي والجواهري ولنقل كل القصائد العمودية للنصف الأول من القرن العشرين، قبيل ميلاد الحركات الشعرية الحديثة.

كما نلاحظ على هذه النصوص حتى و هي ترصد صور الحياة من الداخل غياب الضمير الفردي وخطاب الأنا إذ يذوب الشاعر في مجتمعه السجين كله وينصهر في بوتقة الرفاق المحيطين به فينسى ذاته وعذاباتها حينا ويضم آلامه إلى آلام الشعب حينا آخر فيخاطبنا بضمير النحن، وحتى وهو في قمة الحديث عن معاناة الذات يعرج إلى الحديث عن صناع تلك المعاناة و بذلك يمتزج مرة أخرى الذاتي بالسياسي والذاتي بالآخر، ويواصل الشاعر رفع راية النضال ليس انتصارا لكرامته المهدورة بين الجدران وإنما لكرامة الإنسان و الإنسانية جمعاء، ويواصل التحدي حتى النصر .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

* الباب الرابع *

شعرية الحبسيات

- الفصل الأول : المعجم الشعري.
- الفصل الثاني : الصورة الإيقاعية.
- الفصل الثالث : الصورة الشعرية .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

X Z

* الـفـصـــل الأوّل *

المعجــم الشعــري ودلالاته

- البسية بين الموضوعية والفنية.
- لغة الثورة والتحدي.
- معجم الخراب والفراغ والسكون.
- فضاء الأمل المشرق.
- انتهاك اللغة.
- ظاهرة التناص.

E Θ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- الحبسية بين الموضوعية والفنية :

تنتمي أغلب النصوص الشعرية موضوع دراستنا إلى مرحلة حساسية في تاريخ الوطن العربي مرحلة ثورة وغليان واضطراب عرفتها كل الأقطار العربية خلال القرن العشرين، ومازلت تعاني إلى يومنا من بعض مخلفاتها، بدءًا بمعاركها الحاسمة في مقاومة المستعمر بشتى وسائل النضال ومحاولة إجلائه، وانتهاء بمعارك البناء ومحاولات التغيير الداخلية بعد رحيله وتركه أذنابا ورث بعضهم أساليب قمعه وفنون استبداده.

فقد كان صوت الحرب هو الصوت الوحيد المرتفع، وفي خضم المعارك المتعددة التي كانت الشعوب العربية تخوضها وتحتاج إلى طاقات ومواهب كل أبنائها للخلاص مما تتخبط فيه من تخلف سياسي واقتصادي واجتماعي، وجد الأدباء أنفسهم مرغمين على خوض كل تلك المعارك استجابة لنداءات داخلية عميقة، فرأيناهم في طليعة المناضلين والرافضين لكل مظاهر الفساد والظلم والشر والفوضى، إذ "كان الفن وما يزال عدوا مستديما لتلك الصفات جميعا، أو قل عدّوها القاسي اللدود"[1]، ونالوا نصيبهم من العقاب على نضالهم الذي لم يقف عند حدود الكلمة وحدها، واستجابة أيضا لنداء الوطن ومسيس حاجته إلى كل أبنائه، فمن غير المعقول أن يلوذ الشعراء والأدباء بأبراج الإبداع العاجية ويتفرجوا من علٍ على مآسي الشعوب وهمومها، لأن الأدب لا يعدو أن يكون "نقدا للحياة أو تفسيرا لها"[2]، ولا يستطيع العيش بعيدا عن مشكلاتها وقضاياها. وهو ما عبر عنه النقاد بمصطلحات مختلفة تصب جميعا في إطار العلاقة الحتمية بين الأدب والمجتمع[3]، فأسموه أدبا ملتزما وأدبا هادفا، وأدبا واقعيا، واتفقوا على ضرورة التفات الأديب إلى ما يدور حوله من أحداث، وحددوا الالتزام في الأدب بمدى ارتباط الأديب بقضايا الناس من حوله، وما يتقدم به من حلول مناسبة لهذه القضايا، أو حتى بمجرد التنبيه إليها[4]. ذلك أنه كلما اشتدت صلة الأديب بمشكلات الشعب، وكلما شاركه شعوره وأحس بآلامه "كان أقدر على تلمس العلل وحل مشكلاته، وكان حاذقا في التوجيه، واصلا الهدف بأسرع السبل وأنجعها"[5]، ورأوا أن تقدير العمل الفني لابد أن يأخذ في الاعتبار قيمة الموقف الذي يعبر عنه هذا العمل ووزنه، وصار من الضروري أن يحمل النص الأدبي الحق والعدل في فكرة واحدة، وارتبطت عندهم قيم الحق والخير والجمال بالأطر الاجتماعية والحضارية المختلفة لكل بيئة، فهي عند الفلسطيني المشرد تعني العودة إلى الوطن واسترجاع الأرض، وهي عند الزنجي تعني الاعتراف بحقوقه الإنسانية، وهي عند الثائر الاشتراكي تعني

---

[1] - مجموعة مؤلفين – الأديب وصناعته – دراسات في الأدب والنقد – اختيار وترجمة جبرا إبراهيم جبرا – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ط2 - 1983 – 143.

[2] - عز الدين إسماعيل – الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية – دار العودة ودار الثقافة – بيروت – ط3 - 1981 - 374 .

[3] - نسيب نشاوي – المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر - 335.

[4] - عز الدين إسماعيل – الشعر العربي المعاصر - 376.

[5] - يوسف عز الدين – في الأدب العربي الحديث – بحوث ومقالات نقدية – الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1973 – 7.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بناء مجتمع العدل والكفاية، وتبعا لتعدد وجوه هذه القيم تعددت معايير الفن وتنوعت لأنها "ليست مطلقة وإنما تشتق من واقع المرحلة الحضارية التي يعايشها الفن في مجتمعه...ففي مجتمع يسعى إلى التحرر يكون غريبا أن يمجد الفنان الحاكم الضالع مع المستعمر"[1]، بل وصار الوعي بحركة التاريخ المعاصرة والالتزام بقضايا تحرير الإنسان من العناصر الأساسية التي تمنح النص الأدبي أبعادا جمالية "وبلاغة متجددة"[2].

وقد انتمى جل شعراء الحبسيات إلى مدارس إيديولوجية مختلفة تؤمن جميعها بهذه الوظيفة الاجتماعية والفكرية والسياسية للأدب، أو لنقل تؤمن بما يمكن تسميته بالأدب الهادف أو الأدب الرسالي الذي لا يخلو من خدمة يقدمها للمجتمع، يمكن حصر تلك الانتماءات – من خلال تتبع حياتهم- في الاتجاهات الثلاث البارزة، الاتجاه الإسلامي الذي يمثله شعراء الإخوان المسلمين في مصر وشعراء اليمن وبعض شعراء الجزائر، والاتجاه القومي العربي الذي يمثله كل من محمد جميل شلش وسليمان العيسى ومفدي زكريا، والاتجاه الشيوعي الذي ينتمي إليه جل الشعراء الآخرين وبخاصة الفلسطينيين والعراقيين، فقد كانت لهم أهداف مشتركة وإن اختلفت الانتماءات السياسية والأدوات الفنية باختلاف قدرات الأدباء ومواهبهم، مما حدا ببعض الدراسين إلى تسمية المرحلة بعصر الإيديولوجيا، ويعني عنده عصر الالتزام بالإنسان والعالم اللذين لا يستطيع الشاعر الحقيقي "إلاّ أن يكون ملتزما بهما"[3].

وفي توكيد هذا الالتزام الذي قضته ظروف العصر وارتفعت الصيحات الداعية الأدباء إلى تحمل مسؤولياتهم الاجتماعية والوطنية والإنسانية، والمبشرة بما يعرف بالأدب الهادف و"الأدب للحياة" و"الأدب الواقعي" و"الأدب في سبيل الحياة"[4]، المنكرة أن يكون "الأدب للأدب" أو "الفن للفن" يقول سارتر: "الكلمات مسدسات عامرة بقذائفها فإذا تكلم الكاتب، فإنما يصوب قذائفه...، ولكنه إذا اختار أن يصوب، فيجب أن يكون له تصويب رجل يرمي إلى أهداف، لا تصويب طفل يغمض عينيه ويطلق الرصاص على سبيل المصادفة، من غير أن يكون له غرض سوى السرور بسماع الدوي"[5].

إن الأديب مسؤول، وهو ليس مطالبا بالتعبير عن رؤيته للإنسان والعالم فحسب، وإنما هو مطالب أيضا بالإسهام في التغيير، "أي بالدفاع عن الإنسان والالتزام به"[6].

ويرى الكاتب البيروفي ماريو فرجاس آلاز Mario Verghass أن هذه المسؤولية تزداد أكثر في أقطار العالم الثالث، بل إن الكتابة في حد ذاتها هناك تعني تحمل مسؤولية اجتماعية أكثر منها فردية، تجد جدواها

---

[1] - عز الدين إسماعيل – الشعر العربي المعاصر - 384.

[2] - طه وادي – جماليات القصيدة المعاصرة - 41.

[3] - جلال فاروق الشريف – الشعر العربي الحديث - 92.

[4] - أحمد أبو حاقة – الالتزام في الشعر العربي – 154.

[5] - المرجع نفسه – الالتزام في الشعر العربي – 35.

[6] - جلال فاروق الشريف – الشعر العربي الحديث - 92.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومغزاها في فعاليتها وفي تعدد الوظائف التي تؤديها والأدوار التي تلعبها، فهي العلم والتكنولوجيا، والممارسة النضالية من

أجل الجماهير، والحقيقة والتاريخ[1].

وقريب من هذه المعاني يذهب نزار قباني إلى أن الشعر سلاح وبندقية، حصن ولغم، ولا يتردد في الحكم على كل كلمة لا تلعب دور البندقية بأنها كالنفايات في سلة المهملات أو كالعلف للحيوانات ، ذلك أن المرحلة والبيئة التي يهيمن عليها الصراع المسلح قد تحول الشعر إلى رديف للسلاح[2]، ويوافقه بلند الحيدري الرأي في مقال له عن الشعر الفلسطيني الثائر، الذي افتقد مثله في الساحة العربية، فيقول: "إنما نبحث عن الشاعر الجندي في أدبنا حيث تمتزج المفردة بدمه، وتعيش قصيدته من عذاباته وبطولاته حرفا حرفا، ومن هنا كنا ومازلنا نتلمس أدب المعركة في بيت من الشعر يهرب إلينا مضرجا بالدم عبر مئات من الأسلاك الشائكة والعيون المترصدة ككلاب الصيد، فنحتضنه ونعلمه لصغارنا لأنه أدب مسؤولية..."[3].

وهي حال شبيهة بحال الحبسيات المتسللة إلينا هي الأخرى عبر الأسلاك، فقد نمت جميعا في رحم المجتمع ومعاناته وانبثقت من أعماق الثورات في الشوارع والجامعات والمدن والقرى، من داخل الأحزاب ومن قعر الزنازين، وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدلّ على الصلة العضوية المباشرة بين الواقع والشعر الذي استطاع أن يبشر بميلاد فجر الشعوب ويسهم في يقظتها وسيرها نحو الغد القريب، كما استطاع أن يعرض بدائله الفنية الجديدة ولا سيما في النصف الثاني من القرن.

وقد لعب الشعراء "دور القائد... في أوساط الشباب الثائر، في الجامعات والمدارس والأحزاب، وفي مسيرة التظاهرات الشعبية، وبذلك تولدت الوظيفة الاجتماعية للشعر الجديد من صميم المعركة المادية، وبقيت هذه الوظيفة ملازمة لتطويره حتى بلغ أعلى درجات الذاتية الحضارية"[4].

ويربط الناقد عبد المحسن طه بدر بين الجودة والثورة في النص الأدبي، فيرى أن "الأدب الجيد ثائر بالضرورة، لأنه يكشف عن تناقضات الواقع، ويمهد الطريق إلى المستقبل"[5]، لأن الأديب شأنه شان أي فنان أمام العقبات لا يؤمن بما يدعى استبقاء الشيء على ما هو عليه، لما يحتمل بداخله من حب للخير، "فوراء كل فن عظيم جاء شهوة إلى الخير، وبغض للشر... فما من فنان كبير في العالم إلاّ وحارب النازية والفاشية"، والاستعمار والتمييز العنصري والاستبداد والتخلف وكل المظاهر السلبية التي يراها في مجتمعه. إن الموهبة الفنية كثيرا ما تستمد أصالتها وقدرتها على النبوغ من وضوح مواقف أصحابها الفكرية، و"دجالون هم أولئك الذين

---

[1] - ريتا عوض - في قضايا الشعر العربي المعاصر – دراسات وشهادات - 133.

[2] - محمد علي مقلد - الشعر والصراع الإيديولوجي - دار الآداب – بيروت – ط1 - 1996 – 143.

[3] - حسين مروّة – دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي - 372.

[4] - مجموعة مؤلفين – الأديب وصناعته – دراسات في الأدب والنقد - 145.

[5] - نسيب نشاوي - المدارس الأدبية - 341.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يزعمون أن الفكر يفسد الفن"[1].

وقد التزم شعراء الحبسيات بهذا الدور النضالي وحملوا على عاتقهم مسؤولية التغيير والبناء حتى غدت مواقفهم في كثير من الأحيان لصيقة بالثورة والنقد والتمرّد والرفض الذي كان في الغالب رفضا إيجابيا يسعى لاكتشاف البدائل، فهو "رفض الظلم نشدانا للعدالة، ورفض التخلف سعيا إلى التقدم والتطور... ورفض الضعف رغبة في القوة... ورفض الذل حرصا على الكرامة والعزة..."[2] لكنه انزلق بكثير منهم إلى المجازفة بالفني في سبيل الفكري، مما دفع ببعض النقاد إلى دق ناقوس الخطر وإعلان تخوفهم على الشعر من أن يستقيل أو يتأثر بالعنف إلى حدّ تحوله إلى مجرد ملحق فاقد لخصوصياته[3]، وإلى مجرد شعارات سياسية وإعلانات باردة، لأن أي شعر "يقوم على الشعارات والإعلانات ليس إلاّ شعارا وإعلانا[4]، وقد استهلكت هذه الشعارات إلى حدّ أفرغت فيه من معانيها وصارت ممجوجة، و لم يستطع تجاوز هذا المتزلق الخطير إلاّ كبار الشعراء ممن استطاعوا التوفيق بين الجانبين الفكري والفني.

وربما كان لطبيعة السجن أثرها في ميل كثير من الشعراء إلى الأسلوب الخطابي المباشر لإبلاغ مواقفهم الصامدة المتحدية من جهة، والإخبار عن آخر المستجدات هناك بالداخل، ولذلك جاءت قصائد كثيرة على شكل رسائل أو برقيات من السجن أو أناشيد وأغان موجهة أو مهداة إلى أشخاص معينين، هذا ولا يفوتنا أن عددا كبيرا منهم ينتمي إلى النصف الأول من القرن العشرين وإلى المدرسة الشعرية التقليدية التي لم تكن تملك من الرؤى الفنية إلا محاكاة النص القديم الذي عبر عن بيئته وزمانه، وكان مبلغ علمها وجهدها ما قدمته من إبلاغية وإمساك للحظة من لحظات ذلك الواقع العربي الذي عايشته. وإن كنا لا ننكر عليها هذا الدور الاجتماعي والتاريخي الذي لعبته في مرحلة كانت أحوج إلى نضال الكلمة ولو بالتبليغ المباشر والتأريخ للأحداث، وحفظت لنا صفحات عن حياة الأمة العربية التي لم يكن فيها من المفكرين والمحللين السياسيين الذين يمكنهم تدوينها آنذاك، فكانت تلك الأشعار ومازالت إلى اليوم بمثابة المرجع الذي يمكن العودة إليه لمعرفة الكثير من دقائق المرحلة وملابساتها، كما أدت وظيفتها الكاملة إزاء الشعوب، فحركت الهمم بما كانت تحمله من شحنات وجدانية جميلة وحرارة عاطفة وصدق فني وموضوعي، وتثيره من مشاعر إنسانية نبيلة، ولنقل توفيقها بين المظهرين الأساسيين للتعبير المتمثلين في نقل الحقيقة من جهة وتوليد العاطفة من جهة أخرى[5]، وفوق هذا فقد حملت لواء النهوض بالأدب ومثلت مرحلة إرهاص لميلاد شعري عربي جديد،

---

[1] - جمال يونس – لغة الشعر عند سميح القاسم – مؤسسة النوري – مطبعة الداودي – دمشق – ط1 –1991 - 45.

[2] - أحمد أبو حاقة – الالتزام في الشعر العربي - 396.

[3] - عبد الحميد جيده – الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر – دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع – طرابلس – لبنان - 1986 - 17.

[4] - أحمد أبو حاقة – الالتزام في الشعر العربي – 396.

[5] - جون كوين – النظرية الشعرية (بناء لغة الشعر - اللغة العليا) – ترجمة وتعليق أحمد درويش – دار غريب للطباعة والنشر – القاهرة - 2000 - 228.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وساهمت في تطوير البنية الثقافية للمجتمعات العربية عموما.

ونحن اليوم وإن كنا نقف إجلالاً وتقديرا لكل تلك الجهود والتضحيات الجسام التي قدمها الشعراء داخل السجون وخارجها، لا يسعنا إلاّ أن ننظر إلى ما قدموه نظرة الناقد الموضوعي الذي ينظر إلى النص الأدبي من زاويته الفنية والموضوعية، لأن قيمة العمل الأدبي تتمثل في العلاقة القائمة بين شكله ومضمونه ومن ثم فإن النقد الذي يقدر مضمون العمل الفني وحده أو شكله وحده، لا يكشف عن قصور في المنهج والتقدير فحسب، بل عن خطأ في تمثل طبيعة تكوين العمل الفني ذاته.

ومن هنا "يتساقط كل نقد إيديولوجي كما يتساقط كل نقد جمالي صرف[1]، فكما أن الموقف وحده لا يصنع عملا أدبيا، كذلك يفقد العمل الأدبي قيمته إذا خلا من موقف، وعليه فالسؤال المهم للنقد "ليس هو اتجاه الأديب أو ما يتشبث به من رأي، بل قوة الإقناع التي يبديها في عرض ذلك الرأي... ومهمة النقد الأدبي الرئيسة... أن يميز الكتاب الأصليين مهما كان الجانب الذي انحازوا إليه"[2].

فلا يعنينا أن يعبر هؤلاء الشعراء عن واقعهم أو تجاربهم فحسب، ولو كان ذلك في قوالب تقريرية خطابية مباشرة، وإنما الذي يعنينا هو عمق التجربة الوجدانية من جهة وما أديت به من وسائل فنية جمالية، من رموز وإيحاءات وحوار باطني وشفافية لغة وصفاء عبارة من جهة أخرى، وهو الأمر الذي دفعنا إلى تجاوز الكثير من النصوص الشعرية من هذه الدراسة الفنية والاكتفاء بما سبقت إليه الإشارة في دراستنا لمضامينها، لأنها تشكل شاهدا من شواهد القرن المنصرم، والتركيز على ما توفر فيه حدّ أدنى من الإبداع، واجتمعت فيه المسرة والمنفعة في آن على حد قول أفلاطون على لسان سقراط إذا ثبت أن الشعر نافع كما هو سار كنا رابحين"[3]، إن لم نقل أن أولى وظائف الشعراء التي نستطيع أن نكون على يقين منها هي أن الشعر يجب أن يمنح المتعة[4]. وإلى جانب هذه المتعة التي هي أول شروط الإبداع الأدبي، يجب أن يعطي الأديب شيئا، هو تلك الوظيفة الاجتماعية المتمثلة في ما "يقدمه من خبرات جديدة، أو بعض الفهم لما هو مألوف، أو التعبير عن شيء عانيناه ولكننا لا نملك الكلمات اللازمة له، ومن شأنه أن يوسع مجال وعينا أو يرفه إحساسنا"[5].

وإن كنا على يقين أنه من الصعوبة بمكان أن نعطي الحبسية تقييما فنيا محضا بعيدا عن ظروف تخلقها وميلادها، وهو ما عنينا به الشعرية، فإذا كنا قد أعطينا صورة عن الجانب النافع من شعر الحبسيات فحري بنا أن نقف عند جانبها السار وجوانب المتعة الفنية فيها ومواطن الإبداع فيها، بدءاً باللغة الشعرية التي هي أساس العملية الشعرية ومادتها الأولى، إلى البنية الإيقاعية، وانتهاء إلى الصورة الشعرية وتقنياتها.

---

[1] - عز الدين إسماعيل – الشعر العربي المعاصر - 381.

[2] - مجموعة مؤلفين – الأديب وصناعته - 63.

[3] - جلال فاروق الشريف – الشعر العربي الحديث - 79.

[4] - ت.س. إليوت – في الشعر والشعراء – ترجمة محمد جديد –دار كنعان للدراسات والنشر – دمشق – ط1 - 1991 - 13.

[5] - المرجع نفسه – والصفحة نفسها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- المعجـــم الشعـــري ودلالاتـــه :

الشعر فن لغوي[1]، أو هو كما عرفه جون كوين "نوع من اللغة" و"القوة الثانية للغة"[2]إذ يرتفع الشاعر بهذه الأداة المشتركة من مجرد وسيلة نقل وتفاهم إلى أداة اكتشاف واستبطان تثير المتلقي وتهزه وتغمره بإيحاءاتها، وتصف له ما يدور حوله ويحيط به من مشاهد وأحداث بلغة خاصة جديدة لم يألفها، وكأنه أمام صائغ جديد أو كيميائي يلعب بالكلمات ويشكل منها ذلك التعبير غير العادي عن عالم عادي ويصنع منها ذلك النص المسمى عند رامبو"كيمياء الكلمة" أي القصيدة.[3]وهي ليست كيمياء لفظية فحسب، بل أيضا كيمياء شعورية[4]. وإذا كان لا بدّ من معنى تحمله القصيدة فإن عبقرية الشاعر تتجلى في قدرته على اختراع ما يوصل به تلك الأفكار من كلمات[5] موحية وما يصنعه بينهما من علاقات لا تقوم على الروابط النحوية فحسب وإنما تعتمد أيضا على روابط أخرى يأتي في مقدمتها الانفعال والتجربة وما يتطلبانه من تفجير للغة وكهربة لكلماتها وغوصٍ إلى معاينها الخفية التي لا يدركها إلاّ المبدعون وهو ما عبر عنه الجرجاني "بمعنى المعنى"[6] وفاليرى با"للغة داخل اللغة".[7] ذلك أن لغة الشعر"تعنى بالظلال النفسية والدلالات الوجدانية كما تعنى بتجسيد الأحاسيس والمشاعر الإنسانية"[8]، ونظرا لاختلاف مواهب الشعراء وطاقاتهم فإنهم يتفاوتون في قدرتهم على التحكم في كيمياء الكلمات ويختلفون في تقنياتهم ووسائل تعاملهم مع اللغة، فكلهم يقول ما يريد وهو في ذلك لا يشبه إلاّ نفسه.

فقضية الشاعر الحديث مع اللغة لم تعد تحلّ بتحصيل ثروة كافية من ألفاظ المعجم الشعري القديم وإنما صار لزاما على الشاعر أن يبدع معجما شعريا جديدا يناسب تجارب العصر وظروفه[9] إلى الحد الذي يمكننا القول فيه أن لكل شاعر معجمه الشعري الخاص، المستمد من ثقافته وتراثه ومن بيئته وانتمائه الفكري والسياسي وطبيعة عمله ومركزه الاجتماعي وتركيبته النفسية والعقلية وغيرها من القدرات الأخرى الخفية، وبإلقاء نظرة بسيطة على النصوص الشعرية الواردة في الدراسة المضمونية السابقة، وعلى دواوين الشعراء موضوع الدراسة نكاد نقف لكل شاعر على ملامح بارزة لقاموسه الشعري تميزه عن غيره من الشعراء وإن

---

[1] - محمد حماسة عبد اللطيف –الإبداع الموازي (التحليل النصي للشعر) – دار غريب للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع – القـــاهرة – 2001 – 10 – وأدونيس – زمن الشعر - 134.

[2] - جون كوين – النظرية الشعرية – 36 ، 259.

[3] - المرجع نفسه - 141.

[4] - محمد العبد حمود – الحداثة في الشعر العربي المعاصر – بيانها وظاهرها – الشركة العالمية للكتاب – ط1 – 1966 - 169.

[5] - المرجع نفسه - 64.

[6] - جودت نور الدين – مع الشعر العربي أين هي الأزمة – دار الآداب – بيروت – ط1 - 1996 – 32.

[7] - جون كوين – النظرية الشعرية - 156.

[8] - علاء الدين رمضان – ظواهر فنية في لغة الشعر العربي الحديث –مطبعة اتحاد الكتاب – دمشق – 1996 – 34.

[9] - محمد العبد حمود – الحداثة في الشعر العربي المعاصر –بيانها ومظاهرها –الشركة العالمية للكتاب – ط1 - 1966 – 169.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اصطبغت في الغالب بالسهولة تأثرا بالاتجاه الواقعي الذي مال إليه جل الشعراء وإن اصطبغت في الغالب بالسهولة تأثرا بالإتجاه الواقعي الذي مال إليه الشعراء . فعلى سبيل المثال نلحظ عند الشاعر مفدي زكريا معجما شعريا خاصا قائما على الفخامة والقوة والألفاظ الخطابية الرنانة المجلجلة المتأتية من ثقافة الشاعر التراثية من جهة وسجله النضالي من جهة أخرى والمتقاطعة من زاوية ثالثة مع النص القرآني الذي يشكل لمفدي زكريا رصيدا مميزا، والمتماشية وطبيعة الثورة الجزائرية الهادرة التي ظلت تكتسح الكيان الاستعماري وتفشل آلات قمعه وتصنع الأمجاد، ويكفي أن قصائد مرحلة ما قبل الثورة تميل إلى اللغة الهادئة بخلاف تلك التي واكبت أصوات الرصاص وعايشت صلصلات السلاسل والقيود وارتفاع الجدران وما تتطلبه من لغة قوية تكسر سلطانهما، وقريب منها معجم الشاعر السوري سليمان العيسى الذي عايش أصداء النضال وميلاد الحركة العربية القومية ودعوات الوحدة العربية.

وإن المتأمل لحبسيات الشاعر محمد بهجت الأثري ليلحظ حرصه على إحياء كلمات تراثية لا نكاد نجد لها حضورا عند غيره من الشعراء، وما ذلك الحرص على إعادة الاعتبار لكثير من الألفاظ إلا راجع لكون الرجل عضوا في مجمع اللغة العربية لكل من العراق والقاهرة، ولكونه معلمًا يسعى لحفظ بعض الكلمات والاستعمالات من الاندثار في وسط خالطته لغات ولهجات واستعمالات جديدة ودعوات إلى العامية، فإن القارئ ليجد في شعره نفحات تذكره بشيء من الشعر الجاهلي، كما لا يعدم أن يجد فيه ما يذكره بشعر المتنبي أو البحتري[1] وغيرهما.

كما تتجلى لمتتبع شعراء الأرض المحتلة بدءًا بتوفيق زياد وسميح القاسم ومحمود درويش ومعين بسيسو مدرسة شعرية قائمة بذاتها من حيث اللغة الشعرية والصورة وغيرهما تتماشى وطبيعة المدرسة الفكرية التي ينتمون إليها جميعا. ويتفرد مظفر النواب بقاموس أهاجيه المقذعة العارية المنتهكة التي ردّ بها على صدمات الواقع العربي المتتالية وانتهاكاته وإن شاركه خاصية الانتهاك الشاعر معين بسيسو ولكن بدرجة أقل لتخفيه من حين لآخر في ثوب اللغة الإيحائية الإشارية التي اعتمد فيها على التماهي في الطبيعة والتوسل برموزها ، وامتص شعراء آخرون اللغة الرمزية بشكل واعٍ مقصود لغايات فنية حينا، وخوفا من أجهزة القمع أحيانا كثيرة، واتخذوا الغموض كوى صغيرة ينفذون من خلالها أفكارهم وأحاسيسهم وتجاربهم[2].

هذا وقد اتفقت الحبسيات على حقول دلالية مشتركة هي من نتاج القيد والجدر وطقوس منعهما يأتي في مقدمتها لغة القوة والتحدي والصمود وما تحتاجه من أصوات وحروف مدوية وكلمات ثائرة متمردة وتراكيب نارية توازي قوة الخصم وقمعه وسياطه، وتقابلها لغة الأمل في الغد الآتي الذي يراه شعراء الحبسيات قريبا والميلاد الجديد والانبعاث من قعر الزنازين ودماء الضحايا وآلام المظلومين، هذا ولا تخلو الحبسيات من اللغة الواقعية ذات الدلالات المباشرة والرصد الحقيقي للواقع العربي،كما لا تخلو من اللغة الإشارية التي تقول

[1] - إبراهيم السامرائي – لغة الشعر بين جيلين – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – 96.

[2] - محمد العبد حمود – الحداثة في الشعر العربي المعاصر - 183.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشيء ولا تقوله وتترك فضاء جماليا للقارئ يجد فيه من المتعة الفنية ويذهب وراءه مذاهب شتى من التأويل ويقف ذاهلاً أمام صدمتها وجدتها.

- لغـــة الثـــورة والتحـــدي :

مما لا شك فيه أن آلة القمع التي صوبها السلطان بكل أشكاله في أوجه الشعراء لا تجد ما يمكنه الوقوف أمامها أو صدها إلاّ آلة تعادلها أو تفوقها، هي حراب الكلمات وبنادق القصائد التي أرادها الشعراء نارية ملتهبة في وجه السجان والجلاد والسلطان، وقديما قال الأخطل أحد أعمدة فن النقائض والخبير بمفعول الكلمة "والقول ينفذ مالا تنفذ الإبر"[1]، وتخيروا لها من قاموس الطبيعة الغاضبة ما يعادل فورة الغضب الداخلية ومراحل الرفض الموارة بأعماقهم. ويعبر عن إحساسهم الحاد بالرفض ورغبتهم القوية في الاحتجاج على الراهن العربي وإرادة تغييره، ففي الظروف الصعبة التي أحاطت بحياة الشاعر العربي الحديث أصبح "على التعبير أن يتخذ نبرة عنيفة في محتواه الدلالي وفي شكله اللغوي والأسلوبي في آن معا"[2].

وهكذا يمتزج العنف المادي بعنف اللغة بشكل متشابك، لنقف أمام سلسة تناظرية يقابل فيها العنف اللغوي عنف الألم الجسدي، وعنف الدمار، وتكون الكلمات بدورها مؤلمة، قاتلة[3]، فكثيرا ما لجأ الشعراء إلى العنف وفجروا الكلمات "لمفاجأة القارئ وإيقاظ إدراكه وشعوره"[4]، وخلخلة قناعاته، وإيصال الوعي العام إلى أقصى درجات توتره، وإحداث زلزلة في الفكر والشعور توازي زلازل الواقع وهزاته، لأن اللغة ليست وسيلة تعبير وحسب وإنما هي كذلك طريقة تفكير"[5].

فنحن نجد **الصخر** ليس بدلالة الصلابة والصمود السلبيين والتلقي الصامت فحسب ولكن بلغة ردّ الفعل عند محمود درويش بنتوءاتها التي تجرح كل من يلامسها، وتمارس ردّ الفعل الذي يتمنّاه الشاعر فكفه صلبة كالصخر ولكنها ليست ثابتة متجمدة بل فاعلة ما تستطيع فعله بالأعداء : "وكفي صلبة كالصخر.... تخمش من يلامسها"[6].

وتتوالد **النـــار** ودلالتها عند شعراء الحبسيات بموقدها وحطبها وشعلها ولهيبها وبخاصة عند شعراء الأرض المحتلة، فهذا محمود درويش يحمل لشعبه بشرى بقية الثورة التي لا تخبو أبدا من النفوس فيستعير لها من حقل النار ما يعبر به عن الثورة المنتظرة ما دام هناك شيء من الغضب: "مازال في موقدكم حطب / وقهوة...

---

[1] - الأخطل – الديوان – شرح راجي الأسمر – دار الكتاب العربي – لبنان - 1425 - 2004 – 860.

[2] - كمال خير بك – حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر – دار الفكر – لبنان – 1986 – 131.

[3] -جان جاك لوسركل- عنف اللغة - ترجمة وتقديم محمد بدوي- المنظمة العربية للترجمـــة – بـــيروت – ط1 – مـــاي – 2005 – 400 - 406.

[4] - محمد العبد حمود – الحداثة في الشعر العربي المعاصر – 168.

[5] - المرجع نفسه – 169.

[6] - محمود درويش – الديوان - 75.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحزمة من اللهب..[1].

أما معين بسيسو فيهب القصائد من الصمود والقدرة على الاستمرار والخلود ليس بالتمتمات وبعض التراتيل والأدعية ولكن بتعميدها بنار العذاب التي يصطليها الشعراء من أمثاله[2]، ويرى سعدي يوسف الثورة الجزائرية المظفرة كتلا من المشاعل تتفجر من كل مكان وتقلق راحة المستعمر، فيدعو أن تتفجر مثيلات لها في كل مكان إنذارا ووعيدا للطغاة : "أخليفة العربي، في وهران تنفجر المشاعلْ /... ولتنفجر في الأرض أجمعها المشاعلْ [3]!

ويتحسس الشاعر الثائر الذي انتهى في سبيل القضية جنبيه، فإذا به يضع يده على مرجل متسعّر عزمًا تكاد دماؤه تغلي من ثورته الشديدة وعزمه على المضي في درب النضال" لي من هوى شعبي، / ومن حب الكفاح، ومن صمودي / عزم...تسعّر في دمى / نارا على الحطب الشديد[4].

وقريب من غضب اللهب الذي يلتهم كل ما حوله يُطالعنا في معجم الثورة **البركـــان** بكل ما يحمله من معاني الغضب الكامن المتأهب لا محالة للانفجار وما يرافقه من حمم منصهرة تجرف كل ما يعترض طريقها وتبتلعه، "فليس أمام البراكين في لحظة الروع سد"[5].

ومن الذين وظفوه في حالته الأولى المنذرة بالثورة الشاعر جميل شلش الذي يرى أن ظلم الجلاد والسجان هما اللذان فجرا براكين الشعوب وأمداها بما تقذفه في وجوههم من حمم غاضبة: "في وجه جلادي وسجاني / قذفت بركاني /..يا نذل يا صانع بركاني"[6].

ويوافقه كل من معين بسيسو ومحمود درويش الفكرة إذ يرى الأول أن ثورة زلازل الشعوب وأصوات إنذارها ما هي إلاّ نتاج الأغلال "نخبكمو، نخب الأغلالِ / ولدت أجراس الزلزل..."[7].

ويرى محمود درويش أن بطش الغزاة وفرحتهم بانتصاراتهم وفتوحاتهم على أنقاض شعبه لن تفتح عليهم إلاّ وعودًا بالزلازل الشعبية القادمة :

والفاتحون على سطوح منازلي لم يفتحوا إلاّ وعود زلازلي[8].

---

[1] - المصدر السابق- 15.

[2] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 217.

[3] - سعدي يوسف – الأعمال الشعرية – 462.

[4] - توفيق زياد – الديوان- 102 - 103.

[5] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة- 274.

[6] - جميل شلش – الحب والحرية – 131.

[7] - معين بسيسو - الأعمال الشعرية الكاملة - 218 .

[8] - محمود درويش – الديوان – 240.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولنا أن نتأمل ما توحي به كلمة **الزلـــزال** من أثر في خلخلة الثابت وإرجافه ربما لتنبيهه أو توبيخه، أو تخريبه وتدميره عن آخره، بحسب الأحوال. فهذا جميل شلش يتمنى في قصيدته "من أجل القضية" أن يكون بركانا بأعماق شعبه أو نارا أبدية بقلبه، أو أن يكون إحدى عطاءات البركان المحرقة "كبريتا" ويردفها بأمنية ثالثة لا تخرج بنا عن دائرة الثورة وردّ الفعل فيتمنى لو كان زلزالا راجفا يهز به الشعب الطغاة: آه يا شعبي/لو كنت بأعماقك بركانا../ وفي قلبك نارا أبدية،/آه يا شعبي/ لو كنت على ثغرك كبريتا../لو كنت بوديانك زلزالاً يهزّ الأريحيهْ،.../ لقذفت الحمم الظمأى بطولات سخيهْ/..تلهب الآفاق في وجه الطغاة،/ وتغني للحياة،/ لضمير البشرية[1].

ويأتي توفيق زياد بإحدى ملازمات البركان وهي الفوّهة التي تتفجّر منها الحمم أودية من لهب، وهي ليست فوّهة واحدة، بل فوّهات كثيرة، ولكنها ليست كالفوّهات، إنها فوّهات دماء الثوار والشهداء المبذولة تعزف ألحان الثأر وتطبق لغة القصاص العادلة :

وانظر أكف الشعب كيف تخضبت / بدم الملوك الراقصين على عمود / والفوّهات الحمر تعزف ثأرها / لحنا على شريان فيصل والسعيد"[2].

ويمضي الشعراء مع الطبيعة في أحوال ثوراتها، ويستعيرون لغتهم من مظاهر غضبها الكثيرة، فيستنجد سعدي يوسف **بالريـــاح** العاصفة المحملة بصور العقاب - وقد كانت عقابا لأقوام قبلهم- للتعبير عما يعتلج في صدور المخلصين من أحقاد دفينة يقذفونها مدوية هادرة تجتث حتى الحديد: "وفي صمت المحطة تهدر الصيحات / وملء صدورنا مفتوحة القمصان/ يثر الحقد والريح / وتهتزّ المصابيح[3]...

ويشترك كل من محمود درويش وسميح القاسم ومعين بسيسو والسياب في لفظ **الإعصـــار** ودلالته التي لا تخرج عن دائرة الدمار، فهذا سميح القاسم يبحث عن شجرة انتمائه وتحدره على الأعداء قويا صامدا هادرا، ويعلن انتسابه إلى بعض مظاهر الطبيعة الغاضبة بما فيها الإعصار، إنه ابن الشمس ربما في حال توهجها المحرق، وابن الإعصار المدمر دائما وابن الموجة المزبدة: "أنا ابن الشمس... والإعصار. والموجة"[4] ويمضي الشاعر في علاقته الحميمية الصوفية بالطبيعة إلى أن يبلغ ذروة توحده بمظاهرها والحلول فيها، والتنزل عبرها على رأس المحتل:

" أطلع في الأمطار / أطلع في البرق الأزرق / في النسمة، في الإعصار"[5].

أما محمود درويش فيصبو إلى امتلاك هذه الطاقة الخرافية وتخزينها في كفه حتى إذا آن الأوان هدر

---

[1] - محمد جيل شلش – الحب الحرية - 217 - 218.

[2] - توفيق زياد – الديوان - 79.

[3] - سعدي يوسف – الأعمال الشعرية - 307.

[4] - سميح القاسم – الديوان - 530.

[5] - المصدر نفسه - 646.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بأعاصيره : فدعني أكمل الإنشاد / دعني أحمل الريح الشمالية / ودعني أحبس الإعصار في كمي[1].

ويفضلها بدر شاكر السياب في صيغة الجمع إذ يبصر من حواليه جماهير الشعوب الغاضبة فيتخيلها أعاصير متتالية كلما خمد إعصار أو أخمد هبّ آخر على أنقاضه وكلما أسكتت عاصفة تلتها أخرى، وكلما خبا نار ثورة انبعثت من حرّ جمرها أخرى :

أصبح الكون وهو نورونـــار أيها الظالمون أين الفـــرار.
الأعاصير تملأ الشرق والغرب وقد جاش حولهن الشـــرار
كلما حاقت المنايا بإعصـــار نزا فوق نعشه إعصـــــار
فالتهاب خبا، فكان التهاب وانفجار مضى فجاء انفجار
فاعصفي يا شعوب فالكون لا يرضيـــــه إلاّ أن يعصف الأحرار[2].

ويصنع معين بسيسو قاموسًا ثوريا خاصًا له ولرفاق النضال مزيج من البارود والرعد والرماد والأعاصير، فهم صلاب شداد كسواعد مفتولة من بارود، أو كعطر رعود، سراع حداد كسهام قدت من ريش جناح طائر خرافي جديد من صنع خيال الشاعر هو "الإعصار" : قاسٍ كسواعد من بارود / كعطر رعودْ/ كبيارق من ريش جناح الإعصارْ / حرّ كرماد دموع الأطفال / قاسٍ كظلال العمّال[3].

ويستعير السياب لغضب الشعب بعد طول صمت وكبت وإسار غضبة **المـــوج** الحبيس واستيقاظه بهبة إعصار يجرف كل ما أشاد الطغاة على شفا جرفٍ هار من الظلم، فكانوا كمن شاد بنيانه فوق الماء ، وقد كانت للسياب براعته في التعامل مه هذا المعجم المائي بكل صوره ومرادفاته، بالوقوف عند قصيدته "دجلة الغضبى" التي يقول فيها :

إنها غضبة المياه الحبسيـــــات تدفقن بعد طول الإســـــار
زمزم الموج في السهول النديات مغيظا وصاح في كـــــل دار
ذلك النهر فاض بعد احتبـــاس عاصفا بالسدود عصف اقتدار
نبّني أي ساعة أبصر الشعـــب وقد فاض بعد طول الإســـار؟
قل لمن ثبت العروش على الماء فقال امتلكت كل البحـــــار
سوف تأتيك ساعة توقظ الأمـــــــــواج فيها انتفاضة الإعصار[4].

كما استعان الشعراء ببعض **الحيوانات المفترسة** كالنسر والأسد وسائر الوحوش للتعبير عن شدة بأسهم

---

[1] - محمود درويش – الديوان - 153.
[2] - بدر شاكر السياب – الديوان - 2/ 451 - 452.
[3] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 217.
[4] - بدر شاكر السياب - الديوان - 2/ 464 - 269.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقوة بطشهم واستعدادهم الدائم للتصدي للأعداء[1].

وتتحول **الطبيعة** نفسها إلى سلاح يقف في وجه الطغاة ويمدّ الثورة والثوار بالجبال الشوامخ والشعاب الممنعة والغابات، وهي فوق ذلك شاهد يسخر من محاولات مسخ الحقائق التي لا ينفك المستعمر ينسجها[2]، ولعل واحدا من الشعراء لم يلتفت إليها كما صنع مفدي زكريا معجما خاصا لبطولاتها[3].

وقد كان للغة **السلاح** بكل مرادفاتها حضورها في عصر تفنن الطغاة في اختراعاتهم وتقديمهم لهذه اللغة على ما سواها من أساليب الحوار، وما كان أمام الشعراء إلا امتطاء لغة نارية رصاصية توازي دوي المعارك الفعلية وتمارس فعل الرجم بطريقتها، فهذا محمود درويش يتمنى لو يمهلوه حتى يحمل زاده، فكما أباح الآخرون لأنفسهم ضرب الأبرياء العزل وتفجيرهم ها هو يتمنى أن يشحن دماءه التي لا يملك سواها في مواجهة الطغاة بشيء من تلك المتفجرات: "دعني أخزن الديناميت في دمي"[4].

ويحرص الشاعر الثائر المتمرد مظفر النواب على هذه اللغة المتفجرة الغاضبة، ويشكل معجمه الخاص، فإذا السلام عنده "سلام بالسلاح"[5] وإذا الفتح فتح ولكن بالسلاح، وإذا الفداء هو الآخر وإن كان بالأجساد فلا بد أن يكون بالسلاح أيضا " لا تخدعو بفداء بغير سلاح"[6]، ويصنع معادلات لغوية مقاتلة هي الأخرى، فإذا الأبطال عنده يتوحدون بالسلاح ويذوبون فيه ويتحولون في نظر الشاعر إلى سلاح، لحمهم من لحم السيف ، لا ينتسبون إلى القبائل والعشائر بل إلى أمهم البندقية ، ويغدو الرجل عنده البندقية نفسها لا تعرف راحة أو لذة، ولا يريده إلاّ سلاحًا ناضجا وحربة مكتملة الوعي :

قل أنا البندقية لست يزيدا ولا المعتصم / شد صلبك بالبندقية يشتد../... إن لحمك من لحم سيفك/... إنما الرجل البندقية لا يستريح ولا يحتلم/ مقدم البندقية نعم المنبت ونعم الرحم/...انهض إلى حرية أكملت وعيها نحتكم[7]. أنت رصاص.. أنت رصاص/..تتحوّل يا عبد الله رصاصا[8].

وكما أرادها حرابا كاملة الوعي كذلك يريدها "سيوفًا خالصة لله... وسيفا خالصا للثورة"[9]، ويريدها أيضا سكينا خالصة للثورة غير مدجنة للمطبخ: "سكينك...احذر أن تتدجَّن للمطبخ/ يا عبد الله اشحذها /

---

[1] - انظر ديوان : - توفيق زياد – 79، سميح القاسم – 460، مظفر النواب – 566.

[2] - مفدي زكريا – اللهب المقدس - 65.

[3] - المصدر نفسه - 12 - 17 - 18.

[4] - محمود درويش – الديوان - 153.

[5] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة - 91.

[6] - المصدر نفسه - 413.

[7] - المصدر نفسه - 539 - 540.

[8] - المصدر نفسه - 233.

[9] - المصدر نفسه - 459.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نفذها تنفيذا نفذها[1]. وكذلك الشعوب تتحول عند بسيسو إلى بنادق مرفرفة[2].

ومقابل هذا التشييء للأبطال يشخص مظفر النواب السلاح ويجعله صاحب الكلمة الأولى والأخيرة وصاحب القرار ويصبح "للرصاص مواعيده"[3] التي لا تخطئ أبدا ، ويصبح من حق الرشاش أن يستغني عن كل الهيئات الدولية والعربية والقمم الطارئة والمؤتمرات الاستعجالية ، وأن يعقد قمته منفردا ويركع من أراد" رشاشك يعقد قمته منفردا ونعالك في قمتهم"[4]، "رشاشك كان وكالة أنباء الثورا"[5]، وأن يحمل أخبار انتصاراته بدلا عن كل وكالات الأنباء عبر العالم، ويشاركه في هذه الحياة وذلك التشخيص الملقى على السلاح شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا إذ يهب الرشاش وحده حق التفاوض مع المستعمر لأنّه أصم آذانه عن سماع كل الأصوات، ولا يقف به عند صناعة الانتصارات بل يجعله أيضا ملهم الشعراء وصانع أوزانهم ومبدع قصائدهم :

سكت الناطقون، وانطلق الرشـــــــــاش يلقي إليك قولا مفيـــدا :
فاقبلوها ابتهالة صنـــــع الرشـــــــــاش أوزانها، فصارت قصيدا[6] !!

ويذهب إلى أن السلاح هو الفصيح المبين الذي إذا نطق من أعالي الجبال أفصح وأفهم وأوضح من أي متحدث آخر، وهو الموفد الوحيد الذي يمكنه الجلوس إلى المستعمر ومناقشته في مصير الشعب، وأنه وحده الكفيل بإيقاظ وتبصرة كل من تعامى عن حقوق الشعب :

ولعلع من شلعلع ذو بيـــــــان فانطق فوق جرجرة الحعابَ
وأوفدت الرصاص، ينوب عنها يناقش غاصب الحق الحسابا[7].

وهو المتحدث الذي إذا نطق أخرس كل المتحدثين، وإذا ناظر أسكت الجميع بحججه وبراهينه الدامغة :

نطق الرصاص فما يباح كلام ! وجرى القصاص، فما يتاح ملام!
السيف أصدق لهجة من أحرف كتبت فكان بيانها الإبهـــــام.
لغة القبائل في البيان فصيحـــة وضعت لمن في مسمعيه صمـــام
ولوافح النيران خير لوائـــــح رفعت لمن في ناظريه ركـــــام
والحق والرشاش إن نطقا معـــا عنت الوجوه، وخرت الأصنام[8].

---

[2] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 110
[3] - المصدر نفسه - 274.
[4] - المصدر نفسه - 226.
[5] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة - 241.
[6] - مفدي زكريا – اللهب المقدس- 17 .
[7] - المصدر نفسه – 31 - 32.
[8] - المصدر نفسه- 42 - 44.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولا تكاد تخلو واحدة من حبسيات مفدي زكريا من جلجلات هذه اللغـــة القوية المدويـــة[1].

ويهب مظفر النواب السلاح نوعا من الحياة بحسب حملته، فإذا الدبابات في أيدي الخونة والعاجزين تتحول إلى مجرد أرانب تختفي في جحورها لأول ضربة ، وإذا أسلحة الأعداء أو الجيران تتحول إلى أشخاص أقوياء عليهم من علامات الرجولة والقوة، يفتلون شواربهم ويحلقون ويضربون ولكن الدبابات الأرانب لا ترد: تحولت الدبابات أرانب / فتلت أسلحة الجيران شواربها ليلا وصباحا حلقت وتغاضت.[2].

إنه لا يريد السلاح الغبّي كهذه الدبابات التي تحولت في أيدي الجبناء إلى أرانب، ولا يريد الرصاص الغبيّ الذي لا يستفيد حملته من تجارب سابقة وإعدادات، فالخلاص لا يكون "بغير الرصاص الذي علمته التجارب، لا بالرصاص الغبي"[3].

ونلاحظ من خلال تأملنا للنصوص الشعرية السابقة طغيان لغة الأسلحة الحديثة التي هي من مستحدثات هذا العصر، من بنادق ورصاص وقنابل ورشاشات ودبابات وطائرات...مقابل الحضور المحتشم للسيف والسكين اللذين لا يتجاوزان الأثر الفردي عن قرب، لما توحي به الأولى من إشارات ترميزية أقلها القتل السريع والجماعي الذي تحدثه عن قرب وعن بعد أيضا.

- معجم الخراب والفراغ والسكون :

مما لا شك فيه أن البطش لا يخلّف إلا الدمار والخراب ولا يزرع إلاّ اليأس، وإن تحلى شعراء الحبسيات بالصبر والثبات، وامتلكوا قدرة فائقة على التحمل، وإن اختفت من أشعارهم لغة الشكوى من معاناتهم الشخصية أو خفت صوتها إلاّ نادرًا، فإنهم كانوا يتألمون لما ألحقته آلة الاستبداد بأوطانهم وشعوبهم. وقد وصفوا مشاهد ذلك الفراغ وتلك الأطلال المادية والمعنوية وأبدعوا معجما جديدا، ركبوا لغته تركيبا عجيبا ليستطيع موازاة فظاعة ما كانوا يرونه في مجتمعهم الكبير ثم في مجتمعهم الصغير داخل السجن". وكأننا بالشعراء قد امتهنوا الحزن وتلبسوا بلغته الدكناء الجريحة، فإذا بألفاظ اليأس والزوال والفراغ والصمت والآلام، تتناسل وتتكاثر في قوالب شتى تنتهي جميعا إلى دلالة الخراب والدمار.

فإذا طلب الناس عدلا أو سألوا عن غد مشرق أجابهم توفيق زياد من قاموس السجن ومصطلحاته أن العدل مشنوق على السور هناك، وأن القمر مصلوب على فولاذ الشباك"[4]، ويتوالد **الظـــلام** عند الشعراء بكل دلالاته فمن القمر المصلوب عند توفيق زياد إلى القمر المغدور أو "نصف قرص القمر المغدور يبكي في الرفاق ليلا" ونصف قرص الشمس يبكي في عزّ الظهيرة[5] عند سميح القاسم إلى "القمر المعصوب العينين" عند

---

[1] - المصدر السابق - 50 - 57 - 65.

[2] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة –227.

[3] - المصدر نفسه –428.

[4] - توفيق زياد – الديوان – 113 وانظر أيضا - 119 : "لنفك وثاق القمر المصلوب"

[5] - سميح القاسم – الديوان 234 - 236.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

معين بسيسو[1]. وإذا الليل المتطاول الذي لا يريد الرحيل عن العراق يراه سعدي نعسانا متثاقلا ممتطيا صهوة الأحزان فيسميه "الدجى النعسان" حينا "وفارس الأحزان" آخر[2]، ويراه إذا أقبل لا يترل عن العراق التي لم تعد إلاّ مقبرة وبقايا بشر رويدا رويدا كما يترل الليل الزمني المعروف، بل ينهمر عليها عنيفا ثقيلا غزيرا فلا تملك أمام سطوته إلاّ الأنين، ولا يجد الناس ما يتشبثون به إلاّ غصونا ميتة :

عندما ينهمر الليل تئن المقبره / ويهز الجن والموتى غصونًا مقفرة[3].

ويمضي بنا الشعراء في اختراع مسميات لظلمات ذلك الظلم والاستبداد وتلك الأنوار التي كلما أشرق منها نجم أو كوكب أو لاح ضوء شمس أطفأته يد الطغاة وأطفأت معه الآمال،. حتى كأن الشمس في هذا العصر لا تلوح إلاّ مرة واحدة وتختفي: "فالشمس للأحياء تشرق مرة في عصرنا هذا / وتجنح للمغيب[4].

وكأن الفجر يتنفس لكن دون ومض أو خيط أبيض فالظلام هو السيد الوحيد، وكأن الليل ثابت مسمّر لا يتحرك وإن تقضت ساعات فإنه يمرّ ولكن الظلمة باقية أبدا لا تمضي : "الفجر يجيء بلا معنى / والليل يمرّ / ولا يمضي..."[5] ويغدو ذلك الظلام الجاثم على الأرض والشعب في نظر معين بسيسو مشانق تطبق قبضتها على خيام اللاجئين؛ على "الخيام الراعشات في مشانق الظلام".[6]

ويتأمل بسيسو حواليه فلا يرى غير الانسداد الذي استحضر له لغته الخاصة، فإذا لفظ الليل الذي لا يخلو من دلالة الظلام والمحو والإلغاء لم يعد كافيا للتعبير عما يحسه الشاعر فيضيف إليه عاهة العمى ويضعنا أمام قاموس شعري جديد بحقلين دلاليين متقاربين، الليل والعمى، ويصهرهما في صورة مكثفة لليل هي "الليلة الضريرة".

أتحلفين بالقصيده /...بوردة، بشمعة صغيره.../ أوقدتها في الليلة الضريره...[7]

ويصبح لليل أبناؤه الذين يدأبون على محاربة النور وإطفاء كل من يحاول إبقاء مصباح في الهزيع الأخير منه، ليبقى الظلام سيد الموقف :

هنا الليل ! أبناؤه أطفأوا / مصابيحنا في الهزيع الأخير[8].

ويسميهم الشاعر في قصيدة أخرى "أشباح الغروب" وزراع الصمت في الآفاق[9].

---

[1] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 173.

[2] - يوسف سعدي – الأعمال الشعرية –305.

[3] - المصدر نفسه – 312 - 313.

[4] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية –230/1.

[5] - بلند الحيدري – الديوان – 384 كرر الشاعر مقطع الفجر أكثر من مرة في هذه القصيدة".

[6] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 115.

[7] - المصدر نفسه – 193.

[8] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية – 160/1.

[9] - المصدر نفسه – 157.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتحاصرنا لغة **الخرائب** والأطلال والمقابر،وتفجعنا بمرادفاتها الموحية بالوحشة والفراغ والعقم والسكون، فلا نسمع إلاّ صوت الفواجع، ولا نحس إلاّ بغصصها المتتالية في حلوق الشعراء وذكرياتها المريرة التي لا تكاد تغادر مخيلاتهم، فهذا سميح القاسم لم يشرب في صباه إلاّ حليبا تمازجه الفواجع :

كنت طفلا آنذاك / كنت أمتص حليب التاسعة / وحليب الفاجعة[1]. وتتراكم أحزانه على نبأ وقع هزيمة 1967 المريرة فيحسها في قلبه بركة دكناء وفي وجهه سحابة ويلتفت حوله فلا يرى غير الهياكل والجماجم[2].

وإن كانت ليلة بسيسو ضريرة، فإن أرض بلند الحيدري هي الضريرة العمياء، المرّة الصماء التي لا تنبت إلاّ الخراب و لا تخرج منها إلاّ مياه مرّة، ولا تتحرك في سمائها أي غيوم مبشرة بالانفراج :

لا تبذر / بذره / فالأرض هنا صماء كالصخرة / عمياء كالصخرة / ومياه الجرف مياه مره / ...سنموت ولن تعبر غيمه[3].

ويصرّ على تكرار مقطع الأرض الصماء كالصخرة ليعمق من شعورنا بخوائها وجدبها، وفي هذه الأرض العقيم الصماء كالصخرة تتراءى له المنازل والديار كومة من الأحجار مسخت أطلالاً وأجهشت بالبكاء ولكن في صمت لأن الرقيب لا يأذن بارتفاع أي صوت ولو كان ذلك صوت الآه أو إجهاشة البكاء، فهذه الدور وإن كانت قائمة تغدو في نظره مجرد أطلال لأنها من غير أهل، فبعضهم في المعتقل وبعضهم تحت الثرى وبعضهم قد قتل وبعضهم غادرها إلى غير رجعة، والديار لا تكون ديارا إلاّ بساكنيها، ولذلك شبه العائد إلى مثل هذه الديار بالعائد إلى بقايا هيروشيما :

أأعود لبيتي...؟! / ولمن...؟/ ألطفل ميت/ ألكومة أحجار مسخت أطلالا/ تجهش في الصمت[4].

إنها بيوت كئيبة تنعب في وحشتها الظلال ، ولا يدب فيها إلاّ أطياف بشرية ، انطفأ من أعينها بريق الفرح والشوق والأمل وإن الدروب الموصلة إليها لدروب موحشة مهجورة غريبة بعد أن كان الأطفال يعمرونها بمرحهم وضوضائهم :

يقال : / إن بيتنا كئيب / يقال : / إن دربنا / قد أوحشت خضرته الذنوب / يقال : / إن الناس في مدينتي / قد جفّ في أعينها اللهيب /...ما أتعس ما يقال / فبيتنا كئيب / تنعب في وحشته الظـــــــــلال / ودربنا غريب / قد هجرت سمرته الأطفال[5].

ومن نعيب الظلال في وحشة البيوت مع ما يحمله هذا الصوت من شؤم في المخيال العربي إلى نعيب

---

[1] - سميح القاسم – الديوان – 235.

[2] - المصدر نفسه – 459 - 252.

[3] - بلند الحيدري – 374 - 375.

[4] - المصدر نفسه – 399.

[5] - المصدر نفسه –421 - 422.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السكون ومرارة **الصمـــت** التي لم يجد لها شبيها غير البغض "الصمت مرير كالبغض"[1]، بل إن الصمت يشكل هاجسا عظيما عند الشاعر سعدي يوسف وقاموسا فريدا من نوعه بدلالاته الحقيقية المرادفة للسكوت عن قول الحقيقة والإحجام عن ردّ الفعل للآخر على كل الجرائم المرتكبة في حق الشعوب، ودلالة الخراب والدمار والسكون . فنحن نجد عنده "صلبان الصمت" وصمت صمته "لم يقل صمتي" و"نهرًا من الصمت والرمان"، و"صمت العالم الأرضي" و"جراح الصمت" أو "صمت الرفاق المسافرين دون عودة" (الشهداء) و"صمت الريح والأصداء" و"صمت الناس" بما فيهم الشاعر "كنا في الصمت" و"بحة الصمت" و"إزهار الصمت وتدفقه ينبوعا من الصمت" و"زهرة الصمت والحزن"[2]. وربما كانت هاءات السكت المتكررة عند جل الشعراء هي الأخرى إحدى صور السكوت الاضطراري أو الإسكات وإحدى اللفتات الجميلة الموحية بفعل القمع .

وقريب من معجم الصمت وإشاراته معجم البياض والفراغ الذي عبر به الشعراء حينا عن رفضهم واحتجاجهم وحينا عن عجزهم عن إيجاد اللغة المعبرة عن فداحة الواقع العربي ومأساويته، وأشاروا به حينا آخر لسلطة الرقيب، كما اعترف سميح القاسم يتدخل الرقيب وحذفه مرة ستة عشر بيتا وأخرى سبع صفحات[3]، أو أحجموا عن الكلام مكرهين أيضا خوفا من بطشه ، وترفعوا في بعض الأحيان عن بعض الشتائم مثلما فعل ذلك مظفر مرارا، تاركين الفضاء للقارئ العربي يملأ كل تلك الفراغات[4] ويتخيل فظاعة المشاهد المسكوت عنها كيفما شاء . وهكذا يصبح للبياض لغته ، ويصبح "غياب اللغة لغة في حدّ ذاته"[5].

ومقابل صوت **النعيـــب** يحضر البوم عند البياتي ويحوم حول خرائبه المهجورة التي لا يدب فيها غير الأشباح بل إن الأشباح نفسها تعبت من صمتها وخوائها فإذا هي تتثاءب استعدادا للغياب ولو إلى حين لتترك المكان للبوم وحده ينعب في أطلالها :

المسجد المهجور، والليل الموشح بالغيوم / تتثاءب الأشباح في أبعاده، ويحوم بوم، طلل وبوم /... الشوك والأموات والطلل المصدع والنجوم /... البوم تنعب والدروب الموحشات / على انتظار /... البوم تنعب في احتقار[6].

ويشاركه كل من يوسف سعدي والسياب في استحضار هذا الطائر المرتبط بالخرابات والأطلال بأماكنها المختلفة، فهي عند سعدي تتكاثر على جراح صمته الذي طال به الأمد فخلف خرابات من

---

[1] - المصدر نفسه – 355 - 373 - 384.

[2] - انظر الديوان على التوالي: 304، 304، 305، 306، 3838، 423، 425، 430، 463.

[3] - سميح القاسم – الديوان – 87 ، 94.

[4] - أنظرعلى سبيل المثال : سميح القاسم-الديوان 193 ، 252 وانظر أيضا 49/1 "السجين الأول"،ويوسف سـعدي- الـديوان 276 - 277، 430، 433، 439،441 ، 445 ، 451. وهناك فراغات أخرى سنقف عندها في دراستنا للإنبتار الإيقاعي .

[4] - رشيد يحياوي – الشعر العربي الحديث – دراسة في المنجز النصي – إفريقيا الشرق – المغرب – لبنان – 1998 – 152.

[6] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية -180/1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السكوت الإجباري تأوي إليها البوم والحيات[1].

وهي عند السياب خرائب بالية صنعتها يد الإنسان لأخيه الإنسان، بتماديه في استعمال الأسلحة التي لم تخلف هي الأخرى إلاّ الجثث والأطلال ونعيب القبرات :

عصافير؟ أم صبية تمرح؟ / أم الماء من صخرة ينضح / ولكن على جثة دامية؟ / وقبّرة تصيح / ولكن على خربة باليه؟[2].

بل وتتراءى له العراق مقبرة كبيرة ينخرها الدود ويغطيها الظلام الداجي ولا يخفق في أضرحتها غير الدود: من قاع قبري أصيح /... وفيه ما في سواه / إلاّ دبيب الحياه /... والدود نخّار بها في ضريح[3].

وتحت وطأة ذلك الظلام الممتد والليل غير المنتهي لا ينبض في قلب الشاعر سوى الدود :

في ليل الطين الممدود / لن ينبض قلبي كاللحن / في الأوتار / لن يخفق فيه سوى الدود[4].

ويتأمل مظفر النواب رقعة ذلك الخراب المادي والمعنوي في آن فيصاب بالذهول من جهة واليأس من إعماره من جهة أخرى ولا يجد أمام لحظة الذهول تلك من الصفات التي يمكن إضفاؤها عليه سوى لفظ التبجيل منتهكا بذلك اللغة في دلالة اللفظ المعروفة ليعبر عن فداحة المشهد وفداحة انتهاكات الطغاة :

على كل هذا الخراب المبجل كيف يتم البناء[5].

ولوصف نتاجات ذلك الخراب استعار كل من سميح القاسم والبياتي مرض العصر آنذاك "**السل**"، أراده البياتي باستعماله الحقيقي ولكنه قدمه في إطار ثلاثية رهيبة تتأسس على قاعدة معجمية تتكون من "الليل والمدينة والسل" وهو عنوان القصيدة ويتولد من كل كلمة متخيل يتقاطع مع متخيلات الكلمات الأخرى التي أشرنا إليها في قاموس الخراب والدمار ، فالليل يحمل دلالات الظلام وانعدام النور، والرهبة والسكون وانعدام الرؤية ، والمدينة ذاتها تحمل معاني الخراب والدمار أكثر من الريف ، فقد قاسمه شعراء آخرون هذه النظرة التشاؤمية إلى المدينة، فكتب السياب قصائد كثيرة تضج بالعنف والفجيعة مثل "المسيح بعد الصلب"، "مدينة السندباد"، "مدينة بلا مطر"، "المبغى" و"المومس العمياء" وغيرها، وكتب عنها بلند الحيدري قصائد تمتلئ كراهية وارتيابا، حتى اعتبره بعض النقاد نموذجا "لقمة النفور من كل ما يسمى مدينة، حتى لينفر من قريته نفسها ويرفض العودة إليها حين تحولت إلى مدينة"[6]. وأما ثالثة أثافيه فداء السل. والسل يحمل دلالة الموت والنهايات المفجعة والزوال المحتوم ، ويظل الشاعر يدور بين هذه الحقول المعجمية الثلاث ، ليصل بنا إلى النهاية

---

[1] - سعدي يوسف – الديوان – 383.

[2] - بدر شاكر السياب – الديوان – 1 /568.

[3] - المصدر نفسه – 389 - 390.

[4] - المصدر نفسه – 412.

[5] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة – 334.

[6] - إحسان عباس – اتجاهات الشعر العربي المعاصر- دار الشروق- الأردن- ط2 - 1992 - 94.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحتمية الراسخة وهي أن هذا الداء القاتل نخر جسد المدينة فإذا بها تبصق كل ليلة آلاف المساكين من أبنائها[1]، فلا يبقى فيها إلاّ الخواء والفراغ والدماء.

كما صنع سميح القاسم من السل دلالات أخرى، منها "القلم المسلول"، قلم المحقق أو كاتب السجن الذي لا يتوقف عن تدوين كل ما يفوه به العابرون على مكان التحقيق، ولا يكف عن نفث دمه كالمسلول يبصق دمًا حتى آخر نفس: ومضى ... بالقلم المسلول، والوجه الكليل/يحرث الأوراق في صمت بليد[2].

ومنها "سلُّ الذكريات"، ذكريات اللاجئين الفلسطنيين المتواصلة حتى لكأنها سيل من الدم المتواصل يروي الذي كان لأن الحياة انتهت عند ذلك الماضي :

جثمت مدائن من خيام / سكانها... / مستوطنات الحزن والحمّى، وسلّ الذكريات / وهناك "تنطفئ الحياة"[3].

أما مظفر النواب فيشبه استشراء الصراعات الطائفية بداء **النقـــرس** وما يفعله في المفاصل ويريد وصف آثار وطأة واقعه العربي على قلبه المتعب ، ويحاول تحسس مكان في القلب لم تمتد إليه الأشواك المروعة أنّى ولّى، فلا يجد ، لأن قلبه تحوّل إلى مملكة من **الدمـــامـــل**[4].

وتتراكم الشرور وتتوالد كلّما مضينا في تتبع معجم الفراغ والدمار والخراب وتناسله عند شعراء الحبسيات لتبلغ قمتها ومنتهاها عند معين بسيسو الذي لم يتخيل لها بديلا غير **شجر الزقـــوم** وقد أخصب وأعطى برغم الجفاف ثماره التي شبهها المولى عز وجلّ برؤوس الشياطين فقال : { **أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ، إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ، إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ** } [5] .

وقد ركز معين بسيسو اهتمامه على ثمار هذه الشجرة التي أزهرت وأثمرت رغم شح السماء "شجر الزقوم قد أخصب / لم يسقط مطر"[6] للدلالة على سهولة تكاثر الشر وتوالده بخلاف الخير الذي يتطلب جهادات وإعدادات ، وعلى تصاعد درجاته إلى ما لا يمكن تصوره من بشاعة ومرارة وألم .

- فضـــاء الأمـــل المشـــرق :

لعب الشعراء باللغة وصنعوا صراعات جادة بين أضدادها ، فوضعونا أمام صراع القوة والانكسار، وصراع الخير والشر واليأس والأمل، ولكن انتصارهم كان دائما في الأخير للحقول الإيجابية لأنهم شعراء،

---

[1] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال اشعرية – 1/ 289.

[2] - سميح القاسم – الديوان – 135.

[3] - المصدر نفسه – 86.

[4] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة – 348 - 266.

[5] - سورة الصافات – الآية 62 - 65.

[6] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 67.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والشاعر قادر على رؤية ما لا يراه الآخرون، قادر على النفاذ برؤيته من الحاضر إلى المستقبل ومن الواقع إلى المأمول، يتنبأ به كأنه يراه رأي العين، وينتبه إليه ويبشر بقدومه[1].

فهم وإن حاولوا تقريب بعض صور ذلك الدمار والخراب للقارئ لم يفقدوا الأمل و لم يستسلموا لآلته الجارحة وهي تحصد كل مشهد جميل وتعدم كل نسمة وتخنق كل بصيص نور. لأن أكبر مهام الشاعر استشراف المستقبل وصناعته، وتصويره وتقريبه من الناس، وإن أمكن حملهم على طلبه بدلا من القعود عند عتبات الماضي والبكاء على أطلاله، إذ الشعر إثارة لا تعزية وخلق للممكن والمستقبل"[2]. فمقابل ذلك المعجم الثّري وذلك الزخم من ألفاظ الدمار وتفريعاتها المختلفة تمتد مساحة واسعة للأمل وتنظُّر الغد الجميل ورؤيته قريبا، نلمحها في حقول دلالية موحية بالفرح والإشراق والتفاؤل، أبدع الشعراء معاجم للتعبير عن أحوالها ولنقل القارئ من ذلك الواقع المجدب الكالح الميت المظلم إلى عوالم تنبض بالحياة والنماء وتملأ جنباتها الأنوار، ولعل أول ما يلفت انتباهنا ونحن نحاول تحسس مساحة الأمل، ذلك **المعجـــم الضـــوئي** الثري (طبيعيا، واصطناعيا) الذي تقاطع جل الشعراء في استحضار مصادره الكثيرة ، حيث نجد الشمس والقمر والبدر والنجوم والسناء والمشاعل والمصابيح والقناديل والبروق والضياء ، استعملت جميعها استعمالا مجازيا للدلالة على تفاؤل الشعراء بانزياح أو قرب زوال مظاهر الفساد والظلم السالفة الذكر،والتي عبروا عنها بالظلام ، لأن النور وحده القادر على زحزحته.

فهذا محمود درويش يحاول تجاوز السجن والقيد إلى فضاءات الحلم والأمل، ويستعين بالحرف الذي لم يبزغ غيره في سماء السجن على ظلامه الدامس، إنه النور الذي يبّدد ظلمة السجن فشبه القصائد **بالنجـــوم** : "مذ جئت أدفع مهر الحرف ، ما ارتفعت ، غير النجوم على أسلاك أسواري[3]، أنا في القيد أمتشق النجوم[4].

أما نجوم معين بسيسو فهي حينا دماء الشهداء الزاهية المضيئة، وحينا طلقة رصاصة وهي مرة ثالثة عرق المواطنين كل في مجال عمله، العامل والفلاح والمناضل جميعا يزرعون نجوما في سماء الأوطان : السماء الظافره / بنجوم الدّم تزهو في النهار / نجمة تومض من كل رصاصه / أطلقتها من يد التل الكبير / يد فلاح شهيد/ لم تزل تنبض في التل الكبير / نجمة من عرق الفلاح حفار القناه / دمه الأبيض والنازف من نبع الجبين / نجمة من كل فلاح وعامل / نجمة من كل جرح لم يضمد[5]...

وفي هذه القصيدة يحرص الشاعر على تكرار لفظ النجم ثلاثة عشر مرة إلى جانب كلمات أخرى تنتمي للمعجم الضوئي مثل سهير (الكوكب) ، والأفعال "يومض ، تلمع ، ولتضئ ، يلمع"، والألفاظ "النظير،

---

[1] - محمد حماسة عبد اللطيف - الإبداع الموازي (التحليل النصي للشعر) – 99.

[2] - عبد الحميد جيده – الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر – 32.

[3] - محمود درويش – الديوان – 107.

[4] - المصدر نفسه – 220.

[5] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 79 - 80، وانظر 82 "نجمة سبرتا كوس المشتعلة".

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المشتعلة، وهجا" جاء بها جميعا لتوكيد شوقه للنور وتفاؤله بوجوده أو بانبعاثه القريب. وتنمو عنده الكلمات والقصائد على أفواه الشعراء وفي أياديهم ، فتغدو عناقيد ضياء تفعل فعل الهداة وتنير للآخرين الدروب وتستحق وقفة إجلال وتمجيد: "يا لمجد الكلمة /حينما تغدو عناقيد ضياء / في أيادي الشعراء[1]"، ويضرب بعض الأمثلة لشعراء تحولت قصائدهم إلى أنوار هادية برغم الليل، منهم الشاعر الفرنسي المناضل "إيلوار الذي يرى شعره قمرا ولكن في ساعات اكتماله وقمة عطائه وهدايته السارين" بدر قصائد إيلوار"[2] تنير للآخرين الدروب وتفعل ما يفعله الهداة.

ويشاركه جميل شلش معنى القصائد المضيئة ويبشر كل الشعراء الذين امتطوا جياد القول أن كلماتهم لن تذهب سدى وأنها لا محالة مخصبة يوما لأن الأدباء والمفكرين هم حملة المشاعل دائما، "وستأتي ساعة فيها تضيئ الكلمات"[3].

وقريبا من القصائد النجوم والبدور الهادية يضيف الشاعر لمعجمنا الضوئي شمسا أخرى هي **شمس** الفكر التي لا يحجبها شيء "لأن شمس الفكر لا يحجبها الغربال"[4].

ويضيف السياب شمسا أخرى هي شمس الثورة الجزائرية التي أشرقت على جبال الأطلس[5]. وتغدو الشمس إلى جانب كونها مصدرا للنور والدفء مصدرا للعبير يعطر الكون[6] بما تبعثه من حياة في قلوب جميع الكائنات ، وأينما حلت هذه الشمس المعنوية شمس الرخاء ، شمس الخير، شمس النماء والعطاء تسرب من سيبها إلى قلب الشاعر الكثير حتى ليشعر أن قلبه صار شمسا جديدة بعدما ارتوى بأنوارها : "قلبي الشمس إذ تنبض الشمس نورا[7]".

وإن تدجت عوالم بلند الحيدري فإنه يستشعر **النـــور** بداخله ويطلب زاده من مسامات انسدادها المكثفة ، ويستمد السنا من سكون ليالي السجن وصمتها ، من رنات القيود في الأيادي من تطاول الجدران ووقوفها حائلا بينه وبين النور:

كنا / وكان السنا / فينا / ينبع من صمت لياليا / من رنة القيد بأيدينا / من حدّ جدران تواريناً[8].

وقريبا من هذه الكائنات الضوئية ينتقل الشعراء إلى التعامل مع سياقات لغوية ذات صلة بالزمن يعتبر الضوء أشهر دلائلها، مثل **الفجـــر والصباح والنهـــار والغـــد** الذي لا يبدأ إلاّ بخيط من نور، تشترك جميعا

---

[1] - المصدر السابق – 79.

[2] - المصدر نفسه – 207.

[3] - محمد جميل شلش - الحب والحرية - 110

[4] - المصدر نفسه –221.

[5] - بدر شاكر السياب – الديوان – 391/2.

[6] - محمد جميل شلش – الحب والحرية – 109 .

[7] - بدر شاكر السياب –الديوان – 458/1.

[8] - بلند الحيدري –الديوان –381.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في دلالتها على المستقبل المشرق من جهة وعلى التبشير بقرب موعده. ونجد إلى جانبها صياغات تؤكد جميعا نهاية عهود الليل وضرورة ميلاد يوم جديد بلا شرور، أرادها محمود درويش في قالب حكمي في سياقين شبه متضادين ولكنهما يؤديان إلى نتيجة واحدة هي ميلاد النور فأكد في الأولى زوال الليل "يا دامي العينين والكفين / إن الليل زائل"[1]، وأكد في الثانية ميلاد النهار حتما في آخر الليل :

"دم جدي عائد لي ، فانتظري / آخر الليل نهارْ ! "[2] وأرادها سميح القاسم في سياق توكيدي آخر أقوى من سابقه باعتماده أداة النفي الممتدة إلى المستقبل "لن" لإعدام الليل بكل علاماته، وأداة التوكيد الحاسمة الصارمة "لابد" لاستحضار الضوء وأشياء أخرى سكت عنها وعوضها بالنقاط : أومن أن زائري الأخير.. لن يكون / خفاش ليل.. مدلجا، بلا عيون / لابدّ... أن يزورني النهار[3]. بينما فضل السياب اعتماد فعل الأمر "اِمْضِ" مقرونا بفاء التعقيب الموحية بتتابع الحدثين... حتى يكاد ثانيهما يلاصق الأول ، فيما أن النهار قد لاح ما على الليل إلاّ الانصراف وإخلاء المكان لهذا القادم المضيء :

حرك الشرق عقرب الساعة الوسنى فهبت تقول : لاح النهـــار
فامض يا ليل ما عيون الجماهيـــر بعمياء أو عليها ستـــــــار[4].

وفي يقين تام يؤمن جميل شلش أن "الفجر آت" وأنه وإن طالت ليالي العذاب والموت لطارق بمواكبه كل الأبواب[5]، ونستشف درجة تفاؤله من خلال تتبعنا طرفي معادلته "الليل والنهار"

فبينما جعل من الصباح وجها مستديرا مشرقا لم يترك لليل إلاّ مساحة الخصل السود التي قد تحجب بعض مساحته ولكنها لا تستطيع إخفاء الكل، ومع ذلك فإن الشاعر يراها تسير نحو الجلاء التام عنه "كي تنجلي خصل الظلام السود عن وجه الصباح"[6].

ولتوكيد هذا السياق الدال على تفوق النور يعمد الشاعر إلى وضعنا أمام مشهد تترله، إن انتصاره وغلبته لم يكونا يسيرين، فقد افتكهما افتكاكا من مخالب الليل الصخري الثقيل، ونتأمل الفعل "يقرع" الذي أسنده للفجر وكرره على امتداد القصيدة وأعطاه دلالات القوة والفزع من جهة ودلالة صمود الآخر "المقروع" وصلابته وقوة ردّ فعله، وأردفه بكائنات ضوئية أخرى ذات دلالات متشاكلة مع دلالة الفجر وقرنها بأفعال وصفات لا تقل قوة ويقينا عن قوة القرع، فخلف الأبواب التي يقرعها الفجر طريق يفضي لباب الشمس وكأن سرب الشمس صار قريبا تقرعه خطى المناضلين لأن بلوغه هو الآخر ليس بالأمر الهين :

---

[1] - محمود درويش – الديوان - 13 .
[2] - المصدر نفسه – 64.
[3] - سميح القاسم – الديوان – 98.
[4] - بدر شاكر السياب – الديوان - 452/2 - 453.
[5] - جميل شلش - الحب والحرية - 141- 214 - 215.
[6] - المصدر نفسه- 286.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"الفجر يقرع يا صديقي / كل أبواب النجوم /... باق هو الشعب المعذب... والطريق / من ها هنا.../ يفضي لباب الشمس... وكان درب الشمس، تقرعه خطانا /... والفجر يقرع خلف سور الليل...[1].

ولذلك يقرر معين بسيسو في إصرار شديد بالتكرار عن عدم تراجعه عن تلك الطريق، فقد أوشك فجرها أن يطلع :

فلن أرجع عن فجري، لن أرجع ، لن أرجع / وقد أوشك أن يطلع، قد أوشك أن يطلع[2].

ويشاركه في لفظ الفجر الموحي بخيط النور والمؤذن بفضاءات مفتوحة للضوء بعد ذلك الخيط الفاتح والممهد للدرب الشاعر بلند الحيدري، يأتي بلفظ قريب من فعل القرع الموحي بالقوة في الطرفين فنجد عنده فعل "زحزح" الذي يرمز إلى ثقل المفعول به وعناده وإصراره على البقاء "الليل" بكل دلالاته ، صاغه في قالب أمنية تحتمل إمكانية التحقيق في المستقبل وعدمه "أريد أن" لأن الرغبة في عمل شيء لا تعني دائما القدرة عليه ولكنها تبقى مع ذلك من مستلزمات حقل الأمل الناظر إلى المستقبل :

أريد أن أزحزح الليل / أن أوقظ دنيا مظلمة / أهتز مصباحا هنا-هناك- ملء نوره مني..[3]

ويمضي الشعراء في توليد دلالات الفجر فنراه حينا فجرا حرًّا من كل قيد"وكنا هنا...وموكبا من السنا/ في فجرنا الحر[4]". ونراه آخر حقلا منسابًا ترعاه يد الشاعر في وطنه الحر وتفجر منه صورا جميلة "فجرا فضيا" كما أراد الشاعر وصفها : سأحيل حقولي/ فجرا ينساب على أرضي...لنغرق في الفجر الفضي[5].

ونراه مرّة كل ما تخرجه الأرض من ثمر وزهر : انساب في قريتنا –فجر-/ وأينعت مني/ واستيقظت كرومنا...[6]

ومرّة يصبح زورقا شراعيا يمخر عباب البحر ويشق طريقه نحو البناء واثقا قويا بأشرعته الكثيرة التي ألمح الشاعر إلى كثرتها بتكرارها معطوفة وبالأيادي الكثيرة التي تدفعها والتي عبر الشاعر أيضا عن كثرتها بتكرارها معطوفة "ويبقى للغد الطالع، للفجر / ذراع وذراع وذراع / وسينساب شراع وشراع وشراع"[7].

كما يحدث البياتي للفجر فضاء آخر إذ يتشاكل عنده مع لفظ "الوليد" بما توحيه هذه الكلمة من فرحة بالميلاد الجديد ومن نفاسة هذا الآتي ومعزته وما تفرضانه من عناية وحرصٍ وخوف فإذا هو "الفجر الوليد"[8].الذي كلف طالبيه أقصى ما يمكن أن يكلّفه تغيير، واعتلت من أجله رؤوس المشانق وارتفعت أجساد

---

[1] - المصدر السابق –181.

[2] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 221.

[3] - بلند الحيدري - الديوان - 377.

[4] - المصدر نفسه – 370.

[5] - المصدر نفسه – 387 - 388.

[6] - المصدر نفسه – 395 - 398.

[7] - المصدر نفسه - 406.

[8] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية - 235/1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

على الأخشاب، وكل أمنتيها أن تكون سلّماً لفجر قريب: "نتمنى صلبا جديدا يأتي بعده الفجر"[1]. وتبقى الصلبان منجبة للفجر الجديد وباعثة أنواره : "الفجر أضاء من ضلوع صليبي المزروع[2]...

ويراه الشاعر قد أقبل قويا وغمر بنوره المدائن والقرى وعمر الصحارى الموحشة وملأ عوالم الفراغ والسكون:

وإلى المدائن والقرى المتناثرات / عبر الصحاري الموحشات / ينسلُّ ضوء الفجر أقوى من ينابيع الحياة[3].

وإن أحفق الشاعر في أداء معنى القوة المراد عندما قرنه بالفعل "ينسلُّ" ومعناه الانطلاق في استخفاء ، والخروج بتأنٍّ وتدريج وكلاهما لا يوحي بالقوة التي أرادها الشاعر في قوله "أقوى من ينابيع الحياة".

وإلى جانب الفجر الموحي بالنور من جهة والمحمَّل بدلالة القرب من جهة أخرى استعان الشعراء بزمن آخر مقرون بالضوء، مشير إلى القرب هو الآخر ولكننا نحسه أبعد قليلا من الفجر الذي نشعر فيه بقرب الخلاص من الليل، بينما نستشعر بعض الوقت عند سماعنا كلمة الغد الذي لن يأتي إلاّ بعد ليل على الأقل ولكنه برغم ذلك آت وحاملٌ أضواءه ومبرق بمجيئه في كل الدروب[4]، لأنه لم يبق للطغاة غير يوم أخير هو الفاصل بين الحاضر المظلم والمستقبل الساطع المشرق :

وظل الغد : / غد الثائرين القريب / يدا بيد من غمار اللهيب /...لنا الكوكب الطالع / وصبح الغد الساطع / وآصاله الزاهيه[5].

وقد صنع الشعراء سياقات لغوية أخرى ذات صلات وشيجة بالمعجم الضوئي. فنظرا لأهمية **البـــاب والنافـــذة** في حياة الشاعر السجين وحاجته إليهما كمعبرين أساسيين للنور الذي كان محرما عليه العبور إلى زنازين الشعراء إلاّ ما تسرب عبر نوافذ مختنقة وكوات صغيرة ، أو حتى من ثقوب المفاتيح التي يتفنن السجان في الوقوف خلفها ، استحضرهما البياتي للدلالة على الضوء الذي يعبرهما إلى من في الداخل (داخل السجن-داخل الوطن...) فإذا الباب عنده ليس مفتوحًا فحسب بل هو "الباب المضاء" الحاضر في عنوان القصيدة والمكرر ثلاث مرات على امتدادها إلى جانب سياقات أخرى متشاكلة مع دلالات النور[6].

وما النافذة الحاملة بشائر النصر لإفريقيا المسالمة الهادئة النائمة إلاّ الثورة التي هزت أنحاء المغرب العربي كله : "لك يا نافذة في ليل إفريقيا السلام"[7].

---

[1] - المصدر السابق – 302 .

[2] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 214.

[3] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية - 154/1.

[4] - بلند الحيدري - الديوان – 423.

[5] - بدر شاكر السياب – الديوان -375/1 - 377، وانظر أيضا - 476/2 "وسار لك الغد الزاهي...".

[6] - عبد الوهاب البياتي – الديوان – 304/1 - 306.

[7] - المصدر نفسه – 235.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقريب من حقل الضوء ودلالته الموحية بالأمل والتفاؤل بمستقبل مشرق زاهر، حقل **الميـــلاد والانبعـــاث** وما ينضوى تحته من دلالات الفرح والبهجة والنماء والجمال ، وفيه تفاعل الشعراء مع الطبيعة في صورتها المعطاءة المخضرة المبتهجة وتوحدوا بكل مظاهرها النضرة فقد كانت وستبقى "مصدرا لدهشة الإنسان، ومبعثا لحنينه وإحساسه بالجمال... ورمزا لتشوقه إلى المطلق والسامي والبعيد"[1]، وكانت مصدرا خصبا للرّسامين والأدباء يستلهمون من مشاهدها إبداعاتهم، فكما استعان شعراؤنا بالطبيعة الغاضبة الثائرة والصامتة الموات في إثراء حقولهم اللغوية السابقة. استعاروا جانبها الخصب للتعبير عن كل مشاهد الميلاد والتغيير البناء، وعن فلسفة الانبعاث العظيم من رحم القمع والقهر العظيمين. وقبل الميلاد والإثمار والإزهار ارتأى بعض الشعراء نقلنا إلى الحدث السابق له "المخاض" لأنه لابد من المرور على مخاض غالبا ما يكون عسيرا قبل فرحة الميلاد، فالمخاض على ما يوحي به من معاني الألم والخوف، عادة ما تعقبه ولادة جميلة، وهو المعنى الذي أشار إليه جميل شلش في صورته الخائفة الحذرة "أعاني الموت في ليل مخاض الشرق"[2].

وقرنه سميح القاسم بأفراح لحظة الميلاد وزغاريدها : "إن في الشمس مخاضا، فتطلع... صوت رؤيا وإراده / وزغاريد ولاده.../ فالحمام الزاجل المنفيّ... لا ينسى بلاده [3]!! ومثلما للشمس مخاضها المؤذن بما تسفر عنه من ولادات ، كذلك للقمر مخاضه "هنا المخاض جاء للقمر".

ويبشر السياب بالثورة المزلزلة من بعده ، ما دامت قد ظهرت دلائلها ممثلة في "مخاض الأرض":

هذا مخاض الأرض لا تيأسي، / بشراك يا أجداث ، حان النشور [4]!

فإذا جئنا إلى معجم الميلاد بكل تفرعاته ودلالاتها، ألفيناه غزيرا، متنوعا، متمازجا بكيمياء لغوية عجيبة، يتداخل فيه الذاتي النفسي بالخيالي، ويتقاطع مع الواقعي، ويضع القارئ أمام عوالم لغوية جديدة، فمن روعة الحياة التي تولد في المعتقل : "أو من...أن روعة الحياه / تولد في معتقلي"[5].

إلى العالم الذي لا يولد إلاّ من سواعد الثوار أمثال العبد سبارتاكوس الذي تمرد وقاد ثورة على الأسياد، وبعث عالما جديدا لا فرق فيه بين سيد وعبد[6]، إلى ألف مسيح يولدون من معادلة شعرية جميلة بين فعلي الصلب والميلاد، رجح فيها الشاعر كفة الميلاد على كفة الصلب، فكلما اعتلى في سبيل الوطن مسيح خشبة، وهب الحياة لألف آخرين يبذلون الأرواح وهكذا :

من أجل وجه مشرق حبيب،/ ألف مسيح علقوا/ لأجل عينيه على الصليب،/ وألف ألفٍ يولدون في

---

[1] - علي جعفر العلاق – في حداثة النص الشعري – دراسة نقدية – دار الشروق – الأردن – ط1 - 2003 – 51.

[2] - محمد جميل شلش – الحب والحرية – 87.

[3] - سميح القاسم – الديوان – 476 - 477.

[4] - بدر شاكر السياب – الديوان -392/1.

[5] - سميح القاسم – الديوان – 98.

[6] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 202.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الدجى/ من جرحه الخضيب[1].

ويطغى في فضاء المستقبل المشرق **المعجـــم النبـــاتي** على غيره من الانبثاقات ، ربما لما توحي به الزهور والورود من إشراق وجمال من جهة ، ولأن فعل **الإزهـــار** نفسه هو من أبرز علامات الخصب ومن أكبر قرائن ميلاد كل الثمار، ولكن ليس النَّوْرُ وحده قابلا للتفتح وإنما هناك عوالم كثيرة قابلة للإزهار في دنيا الشعراء المستبشرين والمبشرين بالغد القريب الجميل ، فالنور هو الآخر يزهر وقد مررنا بمعجم تطوره من خيط الفجر إلى عز الظهيرة ، ويورق في قاموس السياب المتوحد بالطبيعة في كل أحوالها "النَّوْرُ سيورق والنُّور"[2]، والمساء هو الآخر يزهر وربما كانت أزهاره أنوار الصباح المرتقب[3]، والإصرار ينوّر وتفتح قوته قلوب الأزهار: "فتح الإصرار زهرة صداحة البراعم"[4]. والرجال أيضا يزهرون وينبثقون من قلب الدمار: صوت المقاتل العنيد ما يزال / يهبّ في المدينة العنيدة النضالْ / فتزهر الرجال في الأنقاض والدروبْ[5]، والمساجين يزهرون وينبتون أغصانا على قضبان السجون "عشرة قضبان... عشرة أغصان"[6]، وقلوب الشهداء هي الأخرى تنور، ودماؤهم المسفوحة لا تذهب هدرا وإنما يزرع الشعراء حباتها في بطن الأرض[7] فتنبثق هي الأخرى أزهارا وحشية وانتصارا : هذا الدم –الظفر- / وكزهرة وحشية.../ يوما سينفجر[8].

والفدائي الذي قدم روحه في إحدى محطات العراق "صمد وادي" كان بذرا ثم استوى غصنا ولما صار زهرة قدم نفسه لأجل حياة العراق: فيا بذرا زرعناه / ويا غصنا رعيناه / ويا زهرا لأجل الشمس والدنيا وهبناه[9].

وكل الشهداء ينبتون تفاحا، يرتفعون أعلاما مرفرفة ويتفجرون ينابيع ماء ويعودون[10]، بل إن الشعب كله يعرف كيف يتجاوز المحن ويبعث من الموت الحياة، ويزهر في عز المحن والليالي السود نجوما : "فالشعب يعرف كيف يزهر في الليالي السود نجما"[11]. وأصوات رفاق النضال المدوية تنمو كغابات كثيفة ولكنها غابات من بروق ورياح ترهب الطغاة " حينما تلمع أصوات الرفاق /حينما تنمو كغابه / من بروق ورياح[12].

---

[1] - محمد جميل شلش – الحب والحرية – 96.

[2] - بدر شاكر السياب – الديوان – 410/1.

[3] - سعدي يوسف – الأعمال الشعرية – 453.

[4] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية – 109.

[5] - المصدر نفسه – 100.

[6] - سعدي يوسف – الأعمال الشعرية – 307.

[7] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 162.

[8] - سعدي يوسف – الأعمال الشعرية – 283.

[9] - المصدر نفسه – 307.

[10] - محمود درويش – الديوان – 273.

[11] - سعدي يوسف –الأعمال الشعرية –460.

[12] - معين بسيسو –الأعمال الشعرية الكاملة –77.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والنفوس والقلوب أيضا تنبت أزاهير الأخوة والوفاء" أحبكم من أجل أن تورق في نفوسنا/ زنابق الإخاء"[1]...

وقريبا من معجم الإزهار استعمل الشعراء كلمات ذات دلالة على الخصب مثل **البـــذر والـــزرع والغـــرس** والنماء والنبات والإوراق والتفجر والتدفق وغيرها، ومسميات بعض أنواع الأزاهير والأشجار، ترمز جميعا لما يمكن أن يأتي به المستقبل من إعمار وبناء وما يقدمه للشعوب من رخاء وأفراح ، فالواحة الخضراء المنتظرة " لم يبق إلاّ دونها قنطرة"[2].

وهناك المدن والقرى والبيادر تفيض بالقمح وتبعث من جديد ، والسنابل تنمو والدوالي تكبر وأشجار اللّوز تنوّر، والينابيع تتدفق والأزاهير تتفجر كينابيع شعاع ، والأرض تفوح بشميم من تراب الجنة، والبيادر تفيض بالقمح والجران تضحك ، فإذا الحياة تتراءى في عيون شعرائنا دنيا منوّرة جديدة وأغنية جميلة لا تساوي المآسي غير مطلعها –على رأي البياتي-[3] وما بعده ينابيع متواصلة من الفرح.

وهكذا تتوالد ألفاظ الأمل وتتفاعل صانعة عالمًا من البهجة والخصب والنماء ، متداخلة مع الطبيعة الأم التي تحدّر منها الشعراء وأحبوها فأغلبهم عاش طفولته بين أحضانها بعيدا عن إسفلت المدن وقسوتها ، ولم يستطيعوا الانفصال عنها ولو في عوالم الخيال والإبداع لأنها تجذرت في أعماقهم وصارت جزءا حيا من كيانهم. كما استحضر بعض الشعراء عوالم الحياة المائية التي كانوا قريبين منها، وعلى رأسهم سعدي يوسف بمعجمه المائي المتفرد من صدف ومرجان ولؤلؤ ومحار وطحلب وأسماك ونوارس وبحار وأنهار وزبجرة أمواج ومرافئ وسفن[4].

- انتهـــاك اللغـــة :

لجأ الشعراء في تعبيرهم عن رفضهم الواقع وثورتهم عليه وانتقادهم لمشاهده المتردية إلى فعل ثوري آخر مواز لثورتهم الداخلية هو ثورة الكلمات وإرغام اللغة على قول "مالم تعتد أن تقوله"[5] بصناعة لغة أرضية...هي "لغة الانتهاك"[6]، فالشاعر الحديث إذ يحتقر الواقع لم يبق أمام فضاعته ساكتا بل كثيرا ما كان يصرخ معلنا عبث العالم ولا عدله وفوضاه ، بعض تلك الصرخات كانت غاضبة ولكن مهذبة لا تخرج عن دائرة المألوف ، وبعضها الآخر اضطر إلى إنطاق اللغة بما لم تعتد أن تقوله وامتطى لغة أبسط ما يمكن وصفها به أن كلماتها تتمتع "بنكهة العري"[7]، ليس من زاوية أخلاقية وليس على صعيد تحدي الأعراف اللغوية

---

[1] - محمد جميل شلش – الحب والحرية – 92.

[2] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية - 214/1.

[3] - أنظر على سبيل المثال دواوين : السياب -410/1 ، درويش - 239 ، سميح القاسم - 254،84، 574، سعدي يوسف – 312 ، 315 ، البياتي -202/1 ، 234.

[4] - سعدي يوسف - الديوان : 247 –275 –290 –235 –306 –310 –416 –419 –455 –458 .

[5] - علاء الدين رمضان السيد – ظواهر فنية في لغة الشعر العربي الحديث – مطبعة اتحاد الكتاب العرب – دمشق – 1996 – 28.

[6] - كمال خير بك –حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر – 130.

[7] - المصدر نفسه -131.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فحسب ولكن من زاوية كسرها للمألوف والذوق والعرف العربي، وخلخلة كل المعايير التقليدية السائدة، فقد ظهر لدى الشعراء المحدثين نزوع لاستخدام مفردات نابية تصدم القارئ بما تتسم به من "الصفاقة" "إنها كلمات تسمي بصورة مباشرة أشياء وأفعالا وأفكارا غير مناسبة للتعبير الشعري...ولعل هؤلاء الشعراء يبحثون إلى جانب حرية التعبير والرغبة في ردّ الاعتبار للمفردات الشعبية اليومية...عن وسيلة لصدم جمهورهم بتسمية الأشياء بأسمائها وباختراقهم محرمات الماضي"[1] ليكشفوا "عن الوجه المثير للعالم"[2]، لأن الشعر الحديث لم يعد غنائيا فحسب وإنما نقديا أيضا، وقد شاعت هذه الكلمات الصفيقة في قصائد الشعراء الغاضبين بدرجات متفاوتة، فكانت عند بعضهم لغة وسيطة بين السمو والابتذال وبين الصفاء الشعري واللغة العادية وكانت عند البعض الآخر فظة دون أن تشكل مساسا بالحياء والأخلاق العامة بالرغم من خرقها للطهرية التقليدية في التعبير الشعري مثل (النعال – القيء – البول – البصق...) نلحظ ذلك عند بعض الشعراء الفلسطينيين أمثال معين بسيسو وتوفيق زياد. وبلغت عند القليل منهم درجة قصوى من الابتذال والفحش ، باعتماد ألفاظ جنسية واستخدامها ببذاءة مفرطة ، في اشتقاقاتها المختلفة مثل (خصى- زنى – عهر – سحاق –لواط – بغاء – خنثى – احتلام – سكر) في توظيف حقيقي حينا وتوظيفات رمزية غالبا ما تكون دلالتها ضرب السلطان . و ربما كان سيد هذه الانتهاكات جميعا مظفر النواب الذي عانى من انتهاكات النظام العراقي ونظام المخابرات الإيراني وتألم لكل الانتهاكات المعششة في جل أقطار الوطن العربي ، وصار من شدّة ما عاناه من بطش يرى الانتهاك كائنا حيا يلاحقه ويراقبه أنى ولى "أرى الانتهاك يراقبني"[3] ورأى أنه لا يستطيع صدّه إلاّ بانتهاكات لغوية مماثلة تعادلها أو تقاربها على الأقل، وإن شاركه بعض الشعراء ثورته الخلاقة إلاّ أن معجمهم كان مهذبا إذا ما وضعناه أمام معجم مظفر النابي الجارح الذي لم يستثن من سياطه حاكما عربيا أو أميرا من أمراء الخليج، فنحن نجد مثلا في هجاء الحاكم المطلق المستبد عند محمد جميل شلش[4] "عدو الفجر" "نسل النسور الفاجرة" "نذل" "ضباع الموت" "عدوّ الشرق" "عدوّ الله والأمة" "مخنث رقيع"، ونجد عند توفيق زياد[5] ألفاظا مثل "الذئب" "العاهر النذل" "عرش مملكة القرود"، "طغمة المسخ الجبان"، ونجد عند سميح القاسم[6] "عدو الشمس" "كلب صيد الكرش والغليون" "سمسار ناطحة السحاب" ونجد من معجم البياتي[7] "التافهون" "أفاق طريد" "اللصوص الجائعين" "أبناء الليل" "بأنك دودة في حقل عالمنا الكبير" "وأنت عنكبوت" "صناع الظلام"

---

[1] - المصدر السابق - 136 - 137.

[2] - جون كوين - النظرية الشعرية –247.

[3] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة – 327.

[4] - محمد جميل شلش – الحب والحرية – 109، 131، 140، 181، 212، 241.

[5] - توفيق زياد – الديوان : 43، 80، 103.

[6] - سميح القاسم – الديوان 447 - 631.

[7] - عبد الوهاب البياتي - الأعمال الشعرية – 1 /–154، 160، 187، 188، 304.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"الذئاب" "سفاكوا الدماء" "سطوة الإرهاب" "مجموعة عمياء" "الكلاب"، ونذكر للسياب[1] "الأوغاد" "أعداء الحياة" "السارقون ربيعنا" "الخنزير" الطواغيت".

كل هؤلاء يتجاوزهم مظفر النواب إلى صناعة قاموس متفرد يشعرالقارئ بانتمائه إلى مظفر دون عناء ، وقد مرت بنا مقاطع كثيرة في حديثنا عن علاقة الشاعر بالسلطان، تكاد تعود بنا إلى شعر النقائض والمعجم الهجائي العجيب الذي تفنن الشعراء النقائض في ابتكار وتوليد معانيه وتقاطع معهم المتنبي في بعض أهاجيه لكافور الإخشيدي[2].

فقد أخضع مظفر اللغة الشعرية للمقلوب العربي بعد أن طفح من الحزن وصارت عيونه ترى من قفاها[3]، فإذا به يرى السلطات سخيفة ويشبه جهاز مخابراتها[4]بالعثة الخفية التي تساكن الإنسان وتعيش معه في كل مكان دون أن يراها. وربما كان ذلك تحت وطأة تأثير السجن نفسه الذي يحول السجين إلى مجرد رقم.

وينظر إلى ما تحدثه يد استبدادها من دمار ينتشر بسرعة فائقة ويغطي العالم العربي فيشبه فعل الخراب والدمار "بالكفر الأممي" قياسا على حركة الشيوعية التي انتشرت وصارت تسمى بالأممية ، ثم كشف الصورة أكثر فإذا الفعل وقد عم كل الأنحاء التي فر إليها مظفر من القهر فوجده بها منتظرا قدومه "جَرَبٌ كلّي" أو هو "السرطان الكوني"[5] الذي إن لامس جسما تكاثر فيه وعمّه جميعا، وينظر إلى الفوضى والاضطراب فيخترع لهما حضورا لغويا خاصًّا ربما يساوي درجتهما "لغطا عاهرا"، ويتصاعد غضبه من هذا الاستبداد المتواصل الذي عمّر حتى شاخ "أبشع العهر عهر هرم"[6] ، فكلما تصاعد جلدهم للشعوب "المبتلاة بقيادات خنثى" : "نحن بغايا / يزني القهر بنا" "والدين الكاذب والخبز الكاذب / والفكر الكاذب والأشعار / ولون الدم يزوّر حتى في التأبين رماديا" ، صعَّد الشاعر من جلده اللغوي لهم ، فهم حينا "أولاد الكلب"[7] وهم لكثرة أقوالهم دون الأفعال ولجلجة خطبهم الرنانة "حاكمون بغايا بأفواههم". ويكون ردّ فعله بلغة فعلهم الصادم "أزني بكل الحكومات" و"علمني الحزن كيف أبول على الشرطة الحاكمين... بدون حياء" و"سأبول عليه وأسكر"[8]، ويبلغ ذروته عندما يسحب منهم الرجولة فيصفهم في أكثر من مشهد بالمخصيين ليس بيولوجيا ولكن فكريا

---

[1] - بدر شاكر السياب – الديوان 1/ 410، 413، 442، 983.

[2] - أنظر: ديوان النقائض "نقائض جرير والفرزدق" – أبو عبيدة معمر بن المثنى – دار صادر – بيروت – ط1 – 1998 (جزءان) ونقائض جرير والأخطل (المنسوبة لأبي تمام) دار صادر – بيروت – ط1 - 2002.

[3] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة – 329.

[4] - المصدر نفسه –221.

[5] - المصدر نفسه - 345، 115، 383

[6] - المصدر نفسه – 266 ، 540.

[7] - المصدر نفسه – 190، 231، 304، 543.

[8] - المصدر نفسه –32، 336، 418، 305.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحضاريا وبخاصة عسكريا لأنهم "لم ينجبوا نصرا عسكريا واحدا"[1].

والحقيقة أن مظفر النواب لم يلجأ إلى تفجير هذا المعجم النابي جريا وراء دعوات الحداثة إلى الخروج عن المألوف العربي على جميع الأصعدة الفنية والفكرية والاجتماعية، فكل ذلك كان استجابة عفوية تلقائية لحالات الغضب المتراكمة وتعبير باذخ عن فساد وظلم باذخين.

وأحيانا يلجأ الشعراء إلى السخرية المريرة القاتلة مما آل إليه الوضع بلغة مقلوبة تناسب أوضاع العالم العربي المقلوبة رأسا على عقب فالسخرية هي الأخرى تشكل ضربا من ضروب المجاز وربما كانت أسماها رتبة وأوفرها منعة وأعظمها جدوى"[2]، وقد كان الصافي النجفي برغم بساطة لغته واحدا من رواد مدرسة النقد الساخر، كما كانت لمعين بسيسو بعض اللفتات الجميلة في قصيدته "مقامة إلى بديع الزمان" التي فجر فيها معجم بديع الزمان الناقد الساخر وبعثه من جديد بعدما ضاقت لغة العصر عن احتواء ما ينوء به صدره[3]. كما لا يخلو شعر مظفر من تلك السخرية اللاذعة على شاكلة "صرح نفط بن الكعبة"[4].

كما لجأ بعض الشعراء إلى تطعيم قصائدهم بألفاظ شعبية مثل كلمة "البشوات"[5] عند مظفر وترديد كل من سميح القاسم ومحمود درويش كلمة "هللويا" أكثر من مرة[6] واستعمال الأخير لفظة "يا يمَّه" و"العليه" و"الباص"[7]، بل وميلهم أحيانا إلى المواويل والأغاني الشعبية مثلما فعل مفدي زكريا في نشيد جيش التحرير الجزائري[8] واستخدم بعضهم ألفاظاً أجنبية مرة بحرفها الأجنبي كما فعل سعدي يوسف في قصيدته "إلى رائد الفضاء tovarisch، و لم يكتف بكتابة الاسم في العنوان وإنما كرره داخل القصيدة مرتين[9].

واكتفى في أخرى بكتابة الكلمة الفرنسية بالحرف العربي في قصيدته "شابة وجندي يرفعان العلم الجزائري في روشيه نوار"، وكتب في قصيدة أخرى التاريخ بالأرقام بدلا من الحروف ، يقول في قصيدته "المسافر": "معي كان في 5 /6 "[10] وهو يريد الخامس جوان.

هذا وقد امتدت بعض الانتهاكات عند بعض الشعراء إلى انتهاك المقدس تحت مظلة الحداثة والتجديد وبتأثير من المدارس الأدبية الغربية القائمة على فلسفات تمجيد الإنسان حتى درجة التأله ، ولكنها كانت نبرة

---

[1] - عادل الأسطة – مظفر النواب – 101.

[2] - خليل ذياب ابو جهجه - الحداثة الشعرية العربية بين الإبداع والتنظير والنقد - دار الفكر اللبناني- بيروت - ط1 - 1995 - 229.

[3] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة –291.

[4] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة – 184.

[5] - المصدر نفسه – 536.

[6] - سميح القاسم – الديوان – 293 ، ومحمود درويش – الديوان - 193.

[7] - سميح القاسم – الديوان - 81، 181.

[8] - مفدي زكريا – اللهب المقدس – 79- 83 .

[9] - سعدي يسوف – الأعمال الشعرية – 302 ، 317 و423.

[10] - المصدر نفسه – 302 ، 317، 423.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خافتة إذا ما قورنت بمدرسة شعر مثلا وانتهاكاتها للمقدس ، نلمح بعض شطحاتها عند بلند الحيدري في قصيدته "أوديب": "يا ألف سماء أين الله...؟ / وأنا الإنسان المغرور/ أغور- أغور – فأين الله...؟ / يا ألف سماء... يا الـــ...أين الله"[1].

وفي قول سميح القاسم: "أنا ما خاصمت الله / فلماذا أدبني بالوجع"[2]، وقوله: "يا إله المجد..يكفينا قرونا ما حملنا / نحن جربنا طويلا..كيف لا تقنع؟ جربنا طويلا...فأعدنا...

ونلمحها بوضوح في شعر بدر شاكر السياب من مثل قوله :

"كان محمد... وأمسى يركله الغزاة بلا حذاء... فنحن جميعا أموات أنا ومحمد والله؟؟

وقوله: "كان إلهنا يختال... وفي يافا رآه القوم يبكي في بقايا دار.. جريحا كان في أحشائنا يمشي"[3]، وفي قول محمود درويش "أمس عاتبنا الدوالي والقمر والليالي والقدر"[4].

فحتى وإن كانت هذه الاستخدامات اللغوية ذات دلالات رمزية تصب جميعا في دائرة اليأس من الراهن العربي المتردي ، فإن التعامل مع المقدسات يتطلب شيئا من التهذيب في استعمال اللغة واحترام مشاعر القارئ الذي لن يكون للشعر حياة إذا خسره .

- ظـــاهرة التنـــاص :

التناص مصطلح معاصر لدلالات مفهومية نقدية قديمة هي ما عرف بقضية السرقات بين الشعراء، سرقات المحدثين عن القدامى وسرقات المعاصرين بعضهم من بعض، وهو أحد مميزات النص الأساسية التي تحيل القارئ إلى نصوص أخرى قديمة أو حديثة، فلا يكاد نص أدبي يخلو من تقاطع مع نصوص أخرى من عوالم مختلفة وبخاصة مع الأدبية منها، فما النص إلاّ "حصيلة ثقافية وحضارية لرحلة الأديب عبر إبداعه، بل عبر حياته كلها"[5].

وقد اعتبرت جوليا كريستيفا Julia Kristieva أن كل نص عبارة عن فسيفساء من الاستشـــهادات، وانه امتصاص وتحويل لنص آخر[6]، ورأت أن التناص أحد مميزات النص الأساسية التي تحيل إلى نصوص أخرى، وقاسمها سوليير عندما رأى أن كل نص عبارة عن ملتقى نصوص كثيرة أو هو قراءة جديدة لهـــا، وذهـــب ميشال فوكو Michel Foucault إلى أنه لا وجود لنص لا يفترض تعبيرا آخر أو يتولد من ذاته[7]. ومن الذين

---

[1] - بلند الحيدري – الديوان - 415.

[2] - سميح القاسم – الديوان – 186، 196.

[3] - بدر شاكر السياب – الديوان - 395/1 – 397 .

[4] - محمود درويش – الديوان – 54.

[5] - عبد العاطي كيوان – التناص القرآني في شعر أمل دنقل - مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – 1998 - 16.

[6] - مجموعة مؤلفين - آفاق التناصية المفهوم والمنظور - ترجمة وتقديم محمد خير البقاعي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1998 - 98.

[7] - علاء الدين رمضان السيد – ظواهر فنية في لغة الشعر العربي الحديث – 108.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اهتموا أيضا بدراسة تلك العلاقات الخفية والجلية بين نص وآخر جيرار جينـــات Gerard Genette وسمّاهـــا "التعالي النصي" أو "التداخل النصي" ويريد بها التواجد اللغوي "سواء أكان نسبيا أم كاملا أم ناقصا لنص في نص آخر"، كما تطرق إلى أنواع أخرى من العلاقات كالمحاكاة والتغيير.[1]

وإن كان التأثر والتأثير أمرا طبيعيا، يأخذ اللاحق عن السابق ويضيف إليه من جديد عصره وتجاربه الذاتية، فإن النقاد بالغوا في تعاملهم مع هذه الظاهرة الأدبية بدءًا بالقدامى في بحث السرقات حتى "كأن البلاغيين العرب لم يجدوا ما يشغلهم من أمور الأدب وشؤون البلاغة شيئا أهم من سرقات أبي تمام، أو تداعيات الأفكار بين هذا الشاعر وذاك"[2]، إلى جانب دراساتهم في مجال البلاغة هذه الظاهرة من زاويتي الاقتباس والتضمين وانتهاءً إلى المدرسة الحديثة ودرس التناص الذي يكاد يلغي الأديب وموهبته وخصوصياته. وإذا كان الأدب بل وسائر مجالات المعرفة ميراث إنساني مشترك، فلا غرابة أن يتقاطع أدب جيل مع جيل آخر أو تلتقي آداب أمة مع آداب أخرى، أو يأخذ أديب عن آخر سابق له أو معاصر، وأن تكون لشعرائنا على غرار الشعراء المعاصرين ميول إلى "توظيف التضمين كعامل إثراء وتعميق للرؤيا الشعرية"[3]، وتكون لهم نقاط تقاطع مع نصوص أدبية ودينية وشعبية كثيرة، منها ما جاء عرضا في شعرهم وهو ما ينطبق على جلهم، ومنهم من تعمد اتباع مدرسة الحداثة وتبنّى أفكارها المستقاة غالبا من الفكر والثقافة الغربية، فجاء تأثره واضحا، كما هي حال بدر شاكر السياب الذي سار في ركاب الشاعرة الإنجليزية إديث ستويل Eddith Seatwhil... وتأثر بها ، وترجم لها وكاد أن يكون نسخة عربية لها ، لولا أصالته وشاعريته[4]، ويمضي إلى جانب تأثره بها في مركبة إيليوت T.S.Elliot وايمي لوول Emile Wooll وعزار باوند Izrra Pound وييتس Yeats [5] بحكم معرفته بالإنجليزية واطلاعه على نتاجات أعلامها ، وقد أحال إلى بعض اقتباساته تلك[6] وأهمل الكثير من التقاطعات التي ذابت داخل نصوصه وتفاعلت معها.

واكتفى البياتي بعلامات التنصيص في بعض المقاطع دون الإحالة إلى مصدرها ، كما استعان "بأسطار مشهورة وبأمثال سائرة وأقوالٍ مأثورة"[7] من مثل "ما حك جلدك غير ظفرك" المأخوذ من بيت الشافعي :

ما حك جلدك مثل ظفرك فتولّ أنت جميع أمرك[8].

---

[1] - عبد العاطي كيوان – التناص القرآني في شعر أمل دنقل – 17 - 18.

[2] - عبد العزيز حمودة – المرايا المقعرة – عالم المعرفة – الكويت – أغسطس 2001 – 442.

[3] - عبد العاطي كيوان – التناص القرآني في شعر أمل دنقل – 38.

[4] - جليل كمال الدين – الشعر العربي وروح العصر – دار العلم للملايين – بيروت – 1964 –191.

[5] - عبد الرضا علي - الأسطورة في شعر السياب - 65 - 75.

[6] - انظر: الديوان -1/ 567، 579، 588.

[7] - إبراهيم السامرائي – لغة الشعر بين جيلين - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ط2 - 1980.

[8] - الشافعي - الديوان - 88.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

و"أبدا على أشكالها تقع الطيور" و"الشعر أعذبه الكذوب" وهي مقولة نقدية تعرض موقفا من الشعر وتعكس رفض الشاعر لذلك الموقف و إزراءه بالشعراء والنقاد الذين يؤمنون به، نلمح رفضه في المعادلتين "قالوا" وردها الواضح الصريح "ما قصدوا" لأنهم -كما علل- تنابلة وعور وخدام للسلاطين لا يدركون رسالة الشعر. ومثل "كل الدروب، هنا ، إلى روما تؤدي"[1] ومقاطع من عيون الشعر العربي نحو تضمينه بيت محنون ليلى :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العيشة من عرار [2].

في قوله : تمتع من شميم عرار نجد يا رفيق / فبكيت من عاري، فما بعد العشة من عرار[3]. إذ لا يخفى تشابه النصين وإن حاول الشاعر مباعدة شطري البيت المضمن بشيء من لغته الخاصة. ومثل شطر المتنبي الشهير "فلا تقنع بما دون النجوم" بل وضمن بيتا كاملا بتغيير آخر كلمة فيه من الإفراد إلى الجمع :

"لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى تراق على جوانبه الدماء"[4].

وأبياتا لماوتسي تونغ مشيرا إلى مصدرها في الهامش[5].

وسنرجئ الكثير من مواطن التقاطع مع التراث تاريخيا ودينيا وأسطوريا وشعبيا إلى قراءتنا اللاحقة للصورة الفنية التي توسل الشعراء في صناعتها بأدوات ورموز وشخصيات تعود إلى ميراث إنساني مشترك يمتد إلى مراحل متقدمة من تاريخ الفكر البشري.

كما استحضر بعض الشعراء بدرجات متفاوتة النص القرآني يأتي في مقدمتها مدرسة الإخوان المسلمين وعلى رأسها يوسف القرضاوي، وقد أشرنا في الدراسة المضمونية إلى بعض تلك الاقتباسات، وسنكتفي بمتابعة هذه الظاهرة في حبسيات مفدي زكريا، فقد تجلت في شعره بمصادر متعددة وحقول متنوعة دينية وقرآنية وشعرية وبدرجات متفاوتة، يأتي في مقدمتها القرآن الكريم الذي حفظه الشاعر وتشبع بمعانيه، إذ تتجلى صور اللجوء إليه في مواطن كثيرة سنقف عند أقواها حضورا، ولعل أول ما يلقانا منها قوله متحديا المستعمر:

واقض يا موت في ما أنت قاض أنا راض، إن عاش شعبي سعيدا[6].

ففيها ترسم درب السحرة الذين هددهم فرعون بالصلب والعذاب لما آمنوا، فلم يكن جوابهم إلاّ قولهم **{ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا }** [7].

---

[1] - أنظر على سبيل المثال : الأعمال الشعرية – 113/1 ، 117، 126، 135، 304.

[2] - قيس بن الملوح (مجنون ليلى) - الديوان - شرح يوسف فرحات - دار الكتاب العربي - بيروت - 2033 _ 97.

[3] - البيـــاتي – الأعمال الشعرية -174/1.

[4] - أنظر على سبيل المثال : الأعمال الشعرية - 304.

[5] - المصدر نفسه - 307.

[6] - مفدي زكريا – للهب المقدس – 10.

[7] - سورة طـــه - الآيـــة 72.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما استفاد من قصة المسيح -ب- في قوله تعالى { **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ** } وقوله { **بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** }[1]. "وقد وفق الشاعر في اختيار هذا المشهد القرآني للتعبير عن تجربة حية عاشها ورفاقه يترقبون صعود أول شهيد من شهداء الثورة المقصلة ويسترجعون وعده -Y- ويقينه { **بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** } [2].

زعموا قتله وما صلبوه ليس في الخالدين عيسى الوحيدا.
لفّه جبريل تحت جناحيـــــه إلى المنتهى، رضيا شهيـــــــدا
يا زبانا ويا رفاق زبانا عشتم كالوجود، دهرا مديـــدا[3].

ويوظف مقطعا من قصة الطوفان في مرحلتها الأخيرة الحاسمة بعد طول صبر "يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي"[4] ليشير بها إلى نفاد صبره وصبر الشعب الجزائري على حال الذل والاستكانة حتى ليتمنى أن تبتلع أرض الجزائر كل ذليل خنوع كما ابتعلت الأرض يومًا قوم نوح و لم تبق عليها من الكافرين ديارا :

يا سماء ، اصعقي الجبان ، ويـــــــا أرض ابلعي، القانع ، الخنوع ، البليدا[5].

كما يشبه التوفيق والسداد اللذين منّ الله بهما على أبطال جيش التحرير المتجردين من الدنيا لفداء الوطن بذلك المدد الإلهي الذي أنعم به المولى -Y- على نبيه والمؤمنين معه وأمدّهم { **بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ** } [6]، يقول :

جيش من النصر، تحدوه ملائكـــة مسوّمون، بموج الموت يندفق.

ويتقاطع مع القرضاوي في استعمال النصر القريب الموعود للمؤمنين { **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ**}، { **أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** } [7]، فيقـــول :

يا رب ! عجل بنصركم وعدت به فإن بابك، باب ليس ينغلـــق[8].

---

[1] - ســـورة النساء – الآيـــة 157 ، 158.
[2] - ســـورة آل عمران – الآيـــة 169.
[3] - مفدي زكريا - اللهب المقدس – 59 .
[4] - سورة هود – الآية 44 .
[5] - مفدي زكريا - اللهب المقدس –17.
[6] - ســـورة آل عمران – الآيـــة 125.
[7] - ســـورة الحج - الآيـــة 40، ســـور البقرة - الآيـــة 214.
[8] - مفدي زكريا - اللهب المقدس – 28.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويستعير الوصف القرآني لليلة القدر التي غيرت وجه التاريخ البشري للتعبير عن ليلة الفاتح من نوفمبر التي غيرت تاريخ الجزائر :

وهل سمع المجيب نـــــداء شعب فكانت ليلة القدر الجوابـــــــا ؟
زكت وثباته عن ألف شهـــــــــر قضاها الشعب، يلتحف السرابا[1].

ويمضي الشاعر محوّرا كل معاني السورة ملبسا إياها تلك الليلة الخالدة التي تنزلت هي الأخرى بروح آخرهم أحرار الجزائر وبأنوار أخرى :

تنزّل روحها، من كل أمر... بأحرار الجزائر، قد أهابا.
..بناشئة هناك أشد وطـــــأً وأقوم منطقا، وأحدّ نابا[2].

متقاطعا في البيت الأخير مع بعض التحوير مع قوله -Y- في الآية السادسة من سورة المزمل : { **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا** }.

ويحول الفعل أنزل في قوله تعالى : { **وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ** } [3].
إلى "زلزل" : و "زلزل من صياصيها فرنسا"[4]، كما استعار التعبير القرآني المتكرر { **جنات عدن** } للحديث عن جمال الصحراء الجزائرية وتدفق خيراتها ونخلة السيدة مريم التي هزت جدعها فتساقط عليها رطبا جنيا :

وفي صحرائنا جنات عـــدن بها تنساب ثروتنا انسيابـــا
...وهزت مريم العذرا نخيلا فأسقطت الفلوذج والرضابا[5].

ولم يجد وصفا لنضج الشعب واكتمال ثمرته وتفجرها "الثورة" أدق من السياق القرآني { **كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ** } و { **تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا** }[6].

والزرع أخرج في الجزائر شطأه فمضى وهب إلى الحصاد كرام
وخضناها ثلاث سنين دأبـــــا فأصبحنا من التحرير، قابـــــا[7].

ونلمح في قوله :

نادى به جبريل في سوق الفـــدا فشرى وباع، بنقدها وتبرعـــا[1].

---

[1] - المصدر السابق – 30.
[2] - المصدر نفسه -31.
[3] - المصدر نفسه – 11 وأبو تمام – شرح الديوان – دار الكتب العلمية – بيروت – ط3 –2003 – 163.
[4] - المصدر نفسه – 32.
[5] - المصدر نفسه – 33 وانظر : سورة مريم 61 و25/ الرعد 23/ طه 76/ ص 50/ الحجر 31/ فاطر33/ الصف 12/ البينة 8.
[6] - سـورة الفتح الآيـة 29 – سـورة يوسف - الايـة 47.
[7] - مفدي زكريا - اللهب المقدس – 41،44.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

امتصاصا للآية الكريمة : { **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ** } [2].

وإلى جانب هذه الاقتباسات وذلك الامتصاص والتحوير لكثير من الآيات نجد معجما قرآنيا إسلاميا يتفرد به الشاعر المتحدّر من بيئة تحرص أشد الحرص على انتمائها العربي الإسلامي، من مثل الهلال، القربان، الشهيد، الحشر، الأنصاب، الأزلام، الذاريات، القيامة، النشور، تبارك، الميمون، جل جلالــه، حرمة قدسية، الجهاد، الملائك جبريل الكليم.

وفي قصيدته "وتعطلت لغة الكلام" تحوير للحديث الشريف "رفعت الأقلام وجفت الصحف "[3].

مستبدلا يوم النشور بالصحف :

وسعت فرنسا للقيامة ، وانطوى يوم النشور، وجفت الأقلام[4].

أما تقاطعاته مع الشعر العربي فكثيرة، تمتد إلى الشعر الجاهلي أين يلتقي مع شاعر الحماسة عمر بن كلثوم ويحتذي معلقته وينسج على منوالها مفاخره المتتالية :

ونحن العادلون إذا حكمنـــــا سلوا التاريخ، عنا، والكتابــا
ونحن الصادقون، إذا نطقنــا ألفنا الصدق، طبعا لا اكتسابا
وعن أجدادنا الأشراف ، إنــا ورثنا النبل، والشرف ، اللبابا[5].

فهذه الأبيات تعود بنا إلى مقاطع من المعلقة أشهرها :

ونحن الحاكمون إذا أطعنا ونحن العازمون إذا عصينا
ونحن التاركون لما سخطنا ونحن الآخذون لما رضينا
وأنا المنعمون إذا قدرنــا وأنا المهلكون إذا أتينــا
ورثناهن عن آباء صــدق ونورثها إذا متنا بنينـــــا[6].

ويعود مرة أخرى إلى المعلقة نفسها ويضمن عجز البيت بعد حذف الجار والضمير المتصل "له"

إذا بلغ الفطام لنا صــبيّ تخرّ له الجبابر ساجدينــا.

---

[1] - المصدر نفسه – 59.

[2] - ســورة التوبة – الآيــة 111.

[3] - الترمذي – سنن الترمذي – دار الفكر – بيروت – ط2 – 1983 – 76/4 – حديث رقم 2635 .

[4] - مفدي زكريا - اللهب المقدس – 42.

[5] - المصدر نفسه – 39.

[6] - الخطيب التبريزي –شرح القصائد العشر – دار الكتب العلمية –بيروت – ط1 – 1985 – 254 - 288

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقل الجزائر...! واصغ إن ذكر اسمها تجد الجبابر ساجدين وركّعا[1].

ويحور شطر طرفة "وإن ادع للجلّى أكن من حماتها" إلى "أو تدعه الجلّى أجاب وأسرعا"[2]، ويتقاطع مع الشاعر العباسي المتمسك بالبداوة والصعلكة الأحيمر السعدي القائل :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطيـــر

فيقول : قرير العين في الفلوات ، أضحـــى يعاف الناس ، مذ ألف الذئابا[3].

ويمتص بيت أبي فراس الحمداني الشهير:

سيذكرني قومي إذا جدّ جدهـــــــــــــم و في الليلة الظلماء يفتقد البـــــدر

في قوله : سيذكرون إذا الليل الرهيب سجى وجلجل الخطب، أني في الدجى فلق[4].

و يحور بيت أبي تمام : لا تنكروا ضربي له من دونـــه مثلا شرودا في الندى والبـــــــاس[5].

إلى قولـــــه : وســـرى في فـــم الزمـــان"زبانـــــا"... مثلا، في فم الزمـــان شـــــــرودا.

ويجتر أبياتا من قصيدة أبي تمام الشهيرة "فتح الفتوح" مع تحوير بسيط لا يخفي النص الأول ، نحو قوله:

السيف أصدق لهجة من أحـــرف كتبت، فكان بياضها، الإبهام

إن الصحائف، للصفائح أمرهـــا والحبر حرب ، والكلام كِلام[6].

كما يتناص مع المتنبي في مواطن عديدة ، نذكر منها قوله :

واربطي، في خياشم الفلك الـــــــــــدوّارحبلا وأوثقي منه جيدا

القريب من قول المتنبي :

لو الفللك الدوّار أنكرت سعيـــه لعوّقه شـــيء عـــن الدوران[7].

ليس فقط في تسمية الزمن "بالفلك الدوّار" ولكن في معنى البيت الذي يدور حول قوة الإرادة ، ويكرر عبارته الشهيرة "أنام ملء جفوني عن شواردها" مع تحوير طفيف وامتصاص لمعنى البيت القائم على الفخر والاعتداد بالنفس :

---

[1] - مفدي زكريا - اللهب المقدس –58 ، شرح القصائد العشر – 288.

[2] - المصدر نفسه – 65 ، ديوان طرفة – دار صادر –بيروت –1982 – 35.

[3] - مفدي زكريا - اللهب المقدس – 37 ، عمر فروخ - تاريخ الأدب العربي - دار العلم للملايين - بيروت - ط4 - 1981 - 99/2.

[4] - المصدر نفسه – 29 ، ديوان أبي فراس الحمداني – مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت – ط 1977 –133

[5] - المصدر نفسه –11 ، أبو تمام – شرح الديوان – دار الكتب العلمية – بيروت – ط3 – 2003 – 163.

[6] - المصدر نفسه – 43 – ديوان أبي تمام – 18.

[7] - المصدر نفسه – 19 - المتنبي – شرح الديوان – عبد الرحمن البرقوقي – دار الكتاب العربي – بيروت – 1986، 378/4.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أنام ملء عيوني، غبطة ورضـــى على صياصيك ، لاهم ولا قلق[1].

ومن القصيدة نفسها يحور بيت المتنبي :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمـــم.

ليعبر به عن القصيدة الجديدة التي نظمها في أبطال الجزائر فأسمعت الأصم وأرت الأعمى عجائبها الملموسة :

سمع الأصمُّ رنينها، فعنا لهـــا ورأى بها الأعمى الطريق الأنصعا[2].

ويعقبه بتحوير بسيط آخر لشطر المتنبي" أغشاهم وسواد الليل يشفع لي" لا يتجاوز التحول بالصيغة من التذكير إلى التأنيث وتغيير آخر عجزه من السلب "يغري بي" إلى الإيجاب" "وظلمة الليل تغريني فانطلق"[3].

ويأخذ عن ابن زيدون عبارته "حتى يكاد لسان الصبح يفشينا" مع بعض التغيير:

تنساب في ملكوت الله سابحـــــة لا الفجر إن لاح، يفشيها ولا الغسق.

وتغرب الشمس، تطوى في ملاءتهـــا سرين، أشفق أن يفشيهما الشفـــق[4].

ومن الشعر الحديث حوّر بيت شوقي الشهير :

نظرة ، فابتسامة ، فســـــلام فكلام ، فموعد ، فلقاء.

إلى قوله :

اعتراف...فدولة... فســـلام فكلام...فموعد...فجلاء...[5].

ويقتفي قصيدة ميخائيل نعيمه: "سقف بيتي حديد / ركن بيتي حجر..." في "نشيد الشهداء"[6].

ويبدو من خلال متابعتنا لهذه الظاهرة في حبسيات مفدي زكريا أنها جميعا تشي بالنص الأول أحيانا وتشير إليه بوضوح في أغلبها وتكشف مخزون الشاعر من النصوص التراثية دون كبير تدخل منه لإذابتها وبلورتها في أثواب جديدة.

هذا ولا تفوتنا الإشارة إلى ظاهرة تكاد تكون عامة في الشعر العربي الحديث والمعاصر، هي ظاهرة "سلطة اللغة" التي ورطت الشعر المعاصر في النظر إلى اللغة باعتبارها هدفا لا أداة يستعان بها في إيصال التجربة الشعرية ، وأحيانا الهدف الوحيد ، مما ألقى بكثير من الشعراء في "ضروب من الانحراف الدلالي، والغموض

---

[1] - المصدر نفسه – 21 ، ديوان المتنبي - 84/4

[2] - المصدر السابق – 58، شرح ديوان المتنبي – 83.

[3] - المصدر نفسه - 21 ، ديوان المتنبي – 290/2.

[4] - المصدر نفسه – 22 ، ديوان ابن زيدون – تحقيق كرم البستاني – دار بيروت للطباعة والنشر – 1984 – 12

[5] - المصدر نفسه – 54 ، والشوقيات – دار الكتاب العربي – بيروت – 112/2.

[6] - المصدر نفسه – 84 ، نازك الملائكة - قضايا الشعر المعاصر - دار العلم للملايين - بيروت - ط6 - 1981 - 267.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والتعمية ،... من خلال محاولة بناء لغة مدهشة وإيجاد علاقات غير مسبوقة"[1]، فقد انجرف كثير من شعراء التفعيلة وراء تيار التفجير والتفتيت اللغوي، وهوس كيمياء اللغة والاستعارات المنبتة الصلة بين المستعار والمستعار منه[2]، وقد وقع كثير من شعراء الحبسيات في دائرة التعمية والإبهام الناتجين عن تكلف ظاهر في السعي وراء الحداثة، واضطر بعضهم إلى الغموض تحت ضغط الواقع السياسي المتردي، وسياط الاستبداد المسلطة على المثقفين عموما، حتى تحول الغموض إلى كوى صغيرة تنفذ من خلالها أفكار الشاعر وأحاسيسه وتجاربه، وأصبح الشعراء يلجأون إلى التلميح والإغراق والتعقيد والغموض بشكل واع ومقصود[3]، لتجنب آلة القمع وأجهزة الرقابة وتتجلى هذه الظاهرة عند مجموعة من شعرائنا أمثال معين بسيسو وبلند الحيدري ومظفر النواب وسعدي يوسف وغيرهم.

وتبقى مع هذا لغة الحبسيات بسيطة سهلة عند البعض حتى لتكاد تخالط لغة الحديث اليومي ، بل وتميل إلى العامية المرذولة كما هي حال الصافي النجفي[4]، وتظل عند أغلبهم لغة واقعية أشبه بالتقارير المفصلة عن معاناة الشاعر السجين ومعاناة شعبه داخل السجن الكبير ، بل ومعاناة كل شعوب العالم ، وأقرب من لغة الخطابات والشعارات النضالية المرفوعة آنذاك.

وربما كان وارء ذلك المدارس الإيديولوجية التي ينتمي إليها جلّ الشعراء آنذاك من قومية واشتراكية وإسلامية ، تركز جميعا على الفكرة أولاً وليأت بعدها الفن ، وهي مع ذلك لا تخلو من لفتات جميلة كبارالشعراء ، قد وقفنا عند أغلبها في قرائتنا للمعجم الشعري ، وسنقف عند بعضها الآخر في دراستنا للصورة الشعرية.

---

[1] - علاء الدين رمضان السيد - ظواهر فنية في لغة الشعر العربي الحديث – 14.

[2] - المرجع نفسه –24.

[3] - محمد العبد حمود –الحداثة في الشعر العربي المعاصر –183.

[4] - إبراهيم السامرائي –لغة الشعر بين جيلين –72 - 83.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

X Z

* الفصل الثاني *

الصورة الإيقاعية

- الحضور الإيقاعي للأوزان.
- ظاهرة التداخل العروضي.
- ظاهرة التقييد.
- ظواهر إيقاعية أخرى.

E Θ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- الصـــورة الإيقـــاعية :

إذا كان للغة أثرها في جمالية النص الشعري، باعتبارها أول ما يواجه المتلقي فينجذب إلى بنائه ويؤخذ يتضافر حروفه وتناغم كلماته وانسجام جمله وتكامله، إلى الحد الذي ذهب فيه بعض النقاد المحدثين إلى النظر إلى القصيدة على أنها فن كتابي بالدرجة الأولى[1]، فإن ذلك لا يلغي جانبها الموسيقي الذي يعد عنصرا أساسيا من عناصر الشعر، إن لم نقل أبرزها، جانبها الصوتي المنغم بإيقاعات خاصة تأسر هي الأخرى المتلقي و تأخذه بسحرها إلى تتبع مواطن ذلك الإغراء الذي تفطن له القدامى وجعلوه من أهم مميزات الشعر، بدءا بفلاسفة اليونان وعلى رأسهم أرسطو في كتابه فن الشعر حيث رأى أن غريزة الموسيقى أو الإحساس بالنغم هي أحد الدافعين للشعر،[2] إلى النقاد العرب القدامى والعلماء الذين أولوا الجانب السماعي اهتمامهم، وأدركوا فعل السماع في النفوس، فهذا الإمام أبو حامد الغزالي يرى" أنه لا سبيل إلى استثارة خفايا القلوب إلا بقوادح السماع، ولا منفذ إليها إلا من دهليز الأسماع، فالنغمات الموزونة تخرج ما فيها، وتظهر محاسنها أو مساويها."[3] ففي النفس ميل عجيب إلى الأصوات، تهتز طربا لبعضها وتنبسط للبعض الآخر منها وتنشرح، وترفض النابي منها وتعافه [4].

وقد نشأ جل التراث العربي نشأة سماعية بل إن اللغة العربية نفسها ترتكز على الميراث السمعي شأنها شأن اللغات القديمة، وتعتمد إلى حد بعيد على "التنغيم" الذي يزدهر عادة في اللغات الاشتقاقية، ففيها تجري الأوزان على قياس واحد كلما اطردت ، كما تهبها الحركات الإعرابية جانبا صوتيا واضحا[5]، ولا تزيد الأوزان والقوافي إلاّ توكيد ذلك الجانب وتقويته.

ذهب النقاد إلى اتخاذ الوزن عماد الشعر عندما عرفوه" بالكلام الموزون المقفى" ليفرقوا بينه وبين النثر، ويبينوا أهمية الصورة الموسيقية عن غيرها من عناصر البناء الشعري. لأن القصيدة إذا فقدت عنصر التنغيم خرجت من دائرة الشعر إلى دائرة النثر، إذ هو الفارق الجوهري بينهما إن لم يكن هو الفارق الوحيد. [6]

ويشاركهم في إعطاء الوزن تلك الأهمية جل النقاد المحدثين من شتى المدارس الأدبية والنقدية عربية و غربية، وإن ارتفعت بعض الصيحات الداعية إلى تحرر الشعر من كل القيود وثورته على كل موروث بما

---

[1] - عبد الحميد جيده – الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر – 340.

[2] - إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر – مكتبة الأنجلو المصرية – ط 3 – 1965 –14.

[3] - صابر عبد الدايم - موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور - مكتبة الخانجي القـــاهرة - ط3 - 1993 -15 ، قدامـــة بـــن جعفر- نقد الشعر - 13.

[4] - المرجع نفسه –22.

[5] - المرجع نفسه - 19.

[6] - المرجع نفسه- 18 ، و علي عشري زايد – عن بناء القصيدة العربية الحديثة - مكتبة ابن سينا - القاهرة -ط4 - 2002 - 154.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في ذلك الوزن، فإن النتاج الشعري المسجل استجابة لتلك الحركات يظل قليلا ونادرا، ولا يكاد يتجاوز أصحابها وربما انتهى بانتهائهم، و لا يمثل إلا ظاهرة استثنائية، ولا يمكن اعتباره وقد فقد جانبه الصوتي إلا كالشعر الأبتر، لأن الوزن هو الوسيلة التي تجعل اللغة شعرا،[1] فليس هو حلية خارجية تضاف إلى الشعر، وإنما وسيلة من أقوى وسائل الإيحاء وأقدرها على التعبير عن كل ما هو عميق وخفي في النفس.[2]

وإن احتفظت القصيدة العربية منذ العصر الجاهلي بهذه الخاصية، فقد مرت بحركات تجديدية لا تخرج في مجملها عن الأوزان الخليلية المعروفة كظهور بعض القوالب الشعرية الجديدة مثل المثنوي الذي اعتمد خاصة في المنظومات التعليمية والرباعي والمسمط والموشح والمخمس ، وانتهى الأمر إلى الشعر الحر القائم على التفعيلة الذي سار جنبا إلى جنب والقصيدة العمودية ومضى في تطوره دون أن يلغي وجوده ، بل إن الكثير من أعلامه كانوا يجمعون بينهما ، أمثال بدر شاكر السياب ونازك الملائكة و البياتي والبردوني وتوفيق زياد ومحمود درويش.

توزعت قصيدة الحبسيات بين هذين التيارين ، فكان العمودي من نصيب جل شعراء النصف الأول من القرن العشرين وجلهم ينتمي إلى المدرسة الكلاسيكية من أمثال الصافي النجفي وعلي الغاياتي وبهجت الأثري ومصطفى وهبي التل والجزيري ومحمد الشاذلي خزندار وسليمان العيسى وجل شعراء اليمن والجزائر والمغرب كما كانت القصيدة الحرة حاضرة عند جل شعراء النصف الثاني من القرن وأغلبهم من شعراء العراق وفلسطين ، نذكر محمد جميل شلش ، بلند الحيدري، البياتي ، حسين مردان ، السياب ، مظفر النواب ، سعدي يوسف ، جواد جميل ، ومصطفى المهاجر من العراق وحنا أبو حنا وتوفيق زياد وسميح القاسم ومحمود درويش ومعين بسيسو وفايز أبو شمالة من فلسطين ، إلى جانب نصوص متفرقة لشعراء من مختلف أنحاء الوطن العربي، وقد مرت بنا نماذج شعرية كثيرة في دراستنا لمضامين الحبسيات تؤكد هذا التوزع بين المدرستين.

- الحضـــور الإيقـــاعي لـــلأوزان :

إن أكثر الأوزان الشعرية حضورا في قصيدة السجن **الأوزان البسيطة أو الصافية** ،[3] التي حضرت جميعها بدرجات متفاوتة ،[4] يتقدمها **الكامـــل** الذي أخذ ينافس الطويل في الشعر العربي الحديث ويحتل الصدارة في اهتمام الشعراء ، حتى غدا مطية الشعراء ومعبودهم —كما يرى إبراهيم أنيس[5]- ففي فترة

---

[1] - جون كوين – النظرية الشعرية – 73 - 74.

[2] - علي عشري زايد – عن بناء القصيدة العربية الحديثة - 154.

[3] - أنظر : صابر عبد الدايم - موسيقى الشعر العربي-81 – 82، علي عشري زايد - عن بناء القصيدة العربية الحديثة- 160-163.

[4] - جاء في الكامل ما يزيد عن 116 قصيدة والرمل 124 قصيدة والرجز 61 قصيدة و المتدارك 58 قصيدة والمتقارب 55 قصيدة والوافر 51 قصيدة والهزج 3 قصائد.

[5] - إبراهيم أنيس – موسيقى الشعر - 200، 208.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخمسينيات كان ملاذا لمعظم الشعراء، يستجيب لحاجاتهم الإيقاعية ، وربما صار "حمار الشعراء المحدثين"[1] آنذاك وقد رأى فيه حازم القرطاجني قبل ذلك مجالا أفسح من غيره للشاعر وعلل ذلك بما له من جزالة وحسن إطراد[2]، وقد رآه البستاني ملائما لكل أنواع الشعر بدليل كثرته في شعر المتقدمين والمتأخرين ، وأنه أجود في الخبر وأقرب إلى الشدة[3]، وفي الحبسيات من الإخبار والشدة الكثير، ويكفي أن نسبة حضوره عند شعراء الحبسيات قد بلغت 24.39%.

يليه **الرمـــل** الذي ظل خاملا في أشعار القدماء ، حتى إذا جاء العصر الحديث نهض نهضة كبيرة أوشكت أن تنزله المنزلة الثانية ، وقد فعلت ، فهو يحتل المرتبة الثانية بنسبة تقارب 18.78% ، وربما لاءم اضطرابه وسرعة حركته حال الشاعر السجين الذي يريد إبلاغ صوته وإيصاله في أقرب وقت ممكن، وقد كانوا يطلقونه على من يهز منكبيه...ويسرع في حركته[4].

ويليه **الرجـــز** الذي لا يخلو بدوره من اضطراب أوزانه الشبيه باضطراب قوائم الناقة عند القيام[5] بما يقارب 9.24%، وقد صار الرجز في مرحلة لاحقة لمرحلة سلطان الكامل مكان الصدارة أيضا لما يتقبله من زحافات وعلل تكسر حدّته، وتقربه من النثر لتتحول في السنوات الأخيرة إلى المتقارب والمتدارك[6].

وبلغت نسبة **المتدارك** المعروف بخفته وسرعته وتلاحق أنغامه وتوثب موسيقاه حوالي 8.78% ، فقد أصبح من أكثر الأوزان شيوعا وسيطرة على إيقاع القصيدة الحديثة، إذ تناسب موسيقاه الواثبة سرعة الإيقاع في هذا العصر، وتعكس ما يعرفه من انفعالات شديدة وعواطف متأججة متقدة، ولكنه كثيرا ما يتزلق بالشعراء إلى لون من النثرية والركاكة الموسيقية[7]، التي نلحظ بعض صورها عند الشاعر مظفر النواب الذي يمتد المتدارك عنده على مساحة 58.33%.

ويحتل **المتقارب** نسبة 8.33% ، والوافر 7.72% ، بينما يطل **الهـــزج** بحضور محتشم لا يتجاوز الثلاث قصائد بنسبة 0.45%.

لتغطي هذه الأوزان البسيطة ذات التفعيلة الواحدة ما يربو على ثلاثة أرباع النصوص الشعرية موضوع الدراسة بنسبة 77.72 %، وربما عللنا هذا الحضور المكثف وذلك الولع بالأوزان الصافية باعتمادها على تكرار وحدة إيقاعية واحدة على امتداد القصيدة.

---

[1] - علي جعفر العلاق – في حداثة النص الشعري – 76.

[2] - حازم القرطاجني – منهاج البلغاء وسراج الأدباء – 268 - 269.

[3] - إبراهيم أنيس –موسيقى الشعر – 200، 205.

[4] - صابر عبد الدايم – موسيقى الشعر العربي – 94.

[5] - المرجع نفسه – 100.

[6] - علي جعفر العلاق - في حداثة النص الشعري – 76 ، وانظر أيضا صابر عبد الدايم - موسيقى الشعر العربي - 70.

[7] - صابر عبد الدايم - موسيقى الشعر العربي - 100.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد حضرت هذه الأوزان في كل حالاتها المعروفة، التامة وهي الغالبة ثم المجزوءة وقليلا ما ترد مشطورة، فعلى سبيل المثال جاءت مجموعة سليمان العيسى "شاعر بين الجدران" المكونة من ثلاثة عشر قصيدة كلها في الكامل غير التام ، الأولى والثانية "نجوى- بين الجدران" مشطورتان، وباقي القصائد مجزوءة[1]. كما جاءت قصيدة سيد قطب "هبل هبل"[2] في مشطور الكامل ، ولمحمد بهجت الأثري قصائد في مجزوء الرجز "ياوطني" "لم تشنأ الأنثى" ومجزوء الرمل "سأغني وأغني"[3] وتتراوح قصيدة معين بسيسو "السجن الكبير"[4] بين مجزوء ومشطور الكامل المذال ، ويبدو أن اللجوء الى المجزوءات أصبح من الظواهر الإيقاعية المميزة في الشعر العربي الحديث عموديا كان أم حرّا.

أما **الأوزان المركبة** [5]بنوعيها فتمثل أقل من ربع النصوص الشعرية بنسبة 22.28% ، ما تركب من تفعيلتين كالطويل والبسيط والمجتث والمقتضب والمضارع ، وما تركب من ثلاث تفعيلات واحدة منها مكررة مثل الخفيف والمديد والسريع والمنسرح ، فيتعادل حضورها أو يكاد بثلاث وسبعين قطعة وقصيدة بنسبة 11.06% في الأولى وأربع وسبعين للثانية بنسبة 11.21%.

فمن الأولى ذات التفعيليتن يتقهقر **الطويل** الذي كان على رأس أوزان القصيدة العربية وتهبط نسبة حضوره هبوطا ملحوظا وكأنه لم يعد مناسبا للعصر الحديث[6]، فلا يتجاوز حضوره 5.45 %، فالبسيط بنسبة قريبة منه 5.15% ، ولا يمثل **المجتث** إلا 0.45% من الحضور.

أما مجموعة التفعيلات الثلاث فإن ما يمكن ملاحظته عليها هو القفزة الكبرى التي عرفها وزن **الخفيف** لدى شعراء العصر الحديث[7]، حتى رأيناه يتقدم الطويل والبسيط بنسبة حضور تقارب 6.21%، وقد أشار القرطاجني إلى أن له جزالة ورشاقة[8]، كما رآه النقاد صالحا للحوار والجدل والترديد والسرد، مليئا بالروح الملحمي[9]، وهي جميعا حالات حاضرة عند الشاعر السجين الذي كثيرا ما يسرد واقعه ويصفه في أجواء ملحمية أو يحاور سجانه وجادله، ويمثل **السريع** نسبة قريبة من الطويل والبسيط 5%. بينما يختفي المديد والمنسرح من هذه المجموعة.

ومما تجدر إليه الإشارة أن هذه البحور المركبة قليلة الدوران في قصيدة التفعيلة عموما، لا سيما ما تركب

---

[1] - سليمان العيسى – الأعمال الشعرية – 223/1 –249.

[2] - سيد قطب – هاشم الرفاعي – لحن الكفاح – 11 وما بعدها.

[3] - محمد بهجت الأثري – ملاحم وأزهار – 111 ، 114 ، 384 .

[4] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 91.

[5] - جاء في الخفيف 41 قصيدة و الطويل 36 و البسيط 34 و السريع 33 و ثلاث قصائد لكل من المجتث والهزج .

[6] - إبراهيم أنيس – موسيقى الشعر – 208.

[7] - المرجع نفسه – 200.

[8] - حازم القرطاجني – منهاج البلغاء وسراج الأدباء – 269.

[9] - صابر عبد الدايم – موسيقى الشعر العربي – 118.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

منها من ثلاث تفعيلات، ولكنها مع ذلك كانت حاضرة عند شعرائنا، حيث نجد في السريع قصيدة "السجين" لمحمد جميل شلش[1]، ولبدر شاكر السياب قصيدته "إلى جميلة بوحيرد"[2]، وللبياتي قصيدتاه "القريـــة الملعونـــة" والعائدون من المذبحة"[3]، ولبلند الحيدري "جئتم مع الفجر" و"أولئك الرجال" و"غدا هنا"[4]، ويشكل حضـــور السريع عند سعدي يوسف ظاهرة لافتة للانتباه فنحن نجده في قصائده (نزوات وداع ، شرفة الساعة التاسعة، ثوب أبيض ، الأشرعة ، عبد الله سماره ، الصلبان الخمسة ، النهر ، نوم مضطرب ، كآبة ، زائر ، نقد ،لمسات حادث يومي)[5]، كما نجده متداخلا مع الرجز في قصائد أخرى مثل (أفكار ليلية - بعد منصف الليل- رزوقي - صور من باب الشيخ - تطلع - الأرض الأخرى)[6] كما نجد الخفيف حاضرا عند الســـياب في قصـــيدته "ثعلب الموت"[7] وعند البياتي في قصيدته "صليب الألم"[8] وعند محمود درويش مجزوءً في قصيدته "الموعد"[9].

- ظـــاهرة التداخـــل العـــروضي :

استطاعت الأوزان الشعرية أن تحافظ على البنية الموسيقية للقصيدة العربية وتهيمن عليها إلى حدّ كبير زمنا طويلا، ولكن هذه الهيمنة تعرضت إلى بعض التغييرات وكان من أهم مظاهرها اختلاف النظام الموسيقي المتمثل في شعر التفعيلة واستثمار الترخصات العروضية والارتكاز على البحور الصافية أكثر من المركبة[10]، رأينا أن نسبة حضور هذه الأخيرة في شعر الحبسيات (العمودي والحرّ) أقل من ربعها إذ لا تمثل إلا 22.28% مقابل 77.72% من الأوزان الصافية.

وما لبثت هذه النزعة التجديدية أن امتدت إلى منعطفات مهمة في التشكيل الموسيقي للقصيدة الحديثة هي ما يعرف بالمزاوجة الموسيقية التي أخذت أشكالا شتى منها الجمع بين الشكل الحر والعمودي في القصيدة الواحدة ، أو الجمع بين الشعر والنثر، أو بين بحر وآخر وهي الصورة الأكثر وضوحا عند بعض شعرائنا ليس في قصيدة التفعيلة فحسب وإنما امتدت إلى الشعر العمودي كما هي الحال عند الصافي النجفي في قصيدته "موت المعتدي" التي جمع فيها بين الكامل والخفيف والوافر على التوالي ونوع فيه بل ونوع في قوافيها بتنوع

---

[1] - محمد جميل شلش - الحب والحرية – 130.

[2] - السيـــاب - الديوان - 378/1.

[3] - البيـــاتي - الأعمال الشعرية - 1 /154، 213.

[4] - بلند الحيدري - الديوان - 368، 371، 380.

[5] - سعدي يوسف - الأعمال الشعرية - 280، 282، 288، 290، 295، 301، 303، 306، 381، 327، 328، 430، 438، 447.

[6] - المصدر نفسه - 309، 426، 433، 453، 456، 463.

[7] - السيـــاب - الديوان - 447/1.

[8] - البيـــاتي - الأعمال الشعرية - 302/1.

[9] - محمود درويش - الديوان –241.

[10] - محمد صابر عبيد – القصيدة العربية الحديثة بين البنية الدلالية والبنية الإيقاعية - منشورات اتحاد الكتـــاب العـــرب - دمشـــق - 2001 - 213.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

البحور، يقول[1]:

ولقد سجنت بكف أجبن أمـــــة	بالرجل تركض للممات وباليد	الكامل
ما رمت من سجني الخروج مسارعا	إلا لأنظر كيف موت المعتدي	الكامل
غرنا بالسراب شـــر دعـــــــاة	حين قالوا، الإنجليز عـــــدول	الخفيف
قلت ليت المغول ترجع يومـــــــا	لترى ما جنته هذي المغـــول !	الخفيف
يصول الإنجليز على ضعيـــــــف	ولا يبدون للخصم العنيـــف	الوافر
هم المكروب في جسم البرايـــــا	يفتش كي يحط على ضعيف	الوافر

وقد لاحظت هذه الظاهرة نازك الملائكة في شعر فدوى طوقان وسليمان العيسى ونزار قباني، وأرجعت أسبابه في الشعر إلى الحرية التي تتيحها قصيدة التفعيلة في اختلاف الأشطر في عدد التفعيلات مما يجعل الشاعر أكثر تعرضا للمزالق[2]، وعليه فإن هذه الحرية "لا تعني الفوضى واعتباطية المزج ، بل إن الانسجام الذي يجب أن يتحقق بين الدلالة والوزن الشعري ، واستيعاب الأفكار للانتقال الوزني، وسلاسة الانتقال إيقاعيا ، كلها عوامل من الواجب حضورها في مثل هذه المزاوجة الموسيقية[3]". وقد علل صابر عبيد حاجة الشاعر المعاصر إلى مثل هذه التعددية الإيقاعية بطبيعة التجربة الشعرية المعقدة والمتشابكة التي يعيشها الشاعر والتي غالبا ما يصبها في قالب درامي يتطلب حركات موسيقية مختلفة، "قادرة على التعبير عن طبيعة الصراع والتعقيد الذي تنطوي عليه تجارب الشاعر، وفضلا عن ذلك فإن هذا التداخل العروضي يعطي الشاعر فرصة للتعبير عن ثراء التجربة كما يوفر في الوقت نفسه إمكانيات موسيقية تساعد على تلوين المعاني والعاطفة ، حينما يصبح المعنى والموسيقى شيئا واحدا لا يمكن فصلهما في القصيدة مما يزيد من قدرتها الإبداعية"[4]، ولعل من أحسن صور الجمع بين الأوزان وأقربها إلى الآذان ما كان منها بين أوزان الدائرة العروضية الواحدة.

وقد أشار صابر عبد الدايم إلى ضرب منها وهو الجمع بين تفعيلة المتدارك "فاعلن" وتفعيلة المتقارب "فعولن"، وأرجع ذلك إلى التشابه التكويني بين التفعيلتين، فتفعيلة المتدارك تتكون من سبب خفيف (فا) ووتد مجموع (علن)، وتفعيلة المتقارب تتكون من وتد مجموع (فعو) وسبب خفيف (لن)"[5]، وكلاهما ينتمي إلى الدائرة العروضية الخامسة دائرة المتفق[6] (متقارب- متدارك)، ويرى أحمد بسام ساعي أن التداخل بين تفعيلتي

---

[1] - الصافي النجفي – حصاد السجن – 49.

[2] - نازك الملائكة – قضايا الشعر المعاصر – 179 ، 183.

[3] - محمد صابر عبيد – القصيدة العربية الحديثة – 213.

[4] - المرجع نفسه – 214.

[5] - صابر عبد الدايم – موسيقى الشعر العربي – 227.

[6] - زين كامل الخويسكي – العروض العربي صياغة جديدة – دار المعرفة الجامعية – مصر – 1996 –11.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المتقارب والخبب يسهل على الشاعر التنقل بيسر بين النسقين ويخفف من ثقل الإيقاع وحدته[1].

من الشعراء الذين جمعوا بين المتدارك والمتقارب مظفر النواب في أكثر من موطن، منها قصيدته "في الرياح السيئة يعتمد القلب"، وإن كان حظ المتدارك من الحضور أقوى، ولم يعتمد الشاعر في مزاوجته على نظام المقاطع الذي اتبعه بعض الشعراء، يفردون لكل مقطع وزنا[2]، وإنما اعتمد على الأسطر فنحن نجد سطرا أو أكثر في وزن يليه آخر أو بضعة أسطر في وزن مغاير وهكذا، وأحيانا نجده يمزج في السطر الواحد بين الوزنين فيبدأ بالمتدارك ويكمل بالمتقارب، يقـــول :

أيُّه الأساطيل لا ترهبوهـــا---------- (تفعيلة متدارك والباقي متقارب)
قفوا لو عراة كما قد خلقتم---------- (متقارب)
وسدوا المنافذ في وجههـــــا ---------- (متقارب)
والقرى والسواحل والأرصفه ---------- (متدارك)
انسفوا ما استطعتم إليه الوصول ---------- (متدارك)
من الأجنبي المجازف واستبشروا العاصفه ---------- (متقارب)
مرحبا أيها العاصفه ---------- - (متدارك)
مرحبا..مرحبا..مرحبا أيها العاصفه---------- (متدارك)
أحرقوا أطقم القمع من خلفكم ---------- (متدارك)
فالأساطيل والقمع شيء يكمل شيئا ---------- (متدارك)
كما يتنامى الكساد على عملة تالفه ---------- (متقارب)
بالدبابيس والصمغ هذى الدمى الوطنية وافقه---------- (متدارك)
قربوا النار منها ---------- (متدارك)
لا تخدعوا إنها تتغير ---------- (متدارك)
لا يتغير منها سوى الأغلفه ---------- (متدارك)
...أيها الشعب احشُ المنافد بالنار ---------- (متدارك)
اشعل مياه الخليج ---------- (متدارك)
تسلَّح ---------- (متقارب)
وعلم صغارك نقل العتاد كما ينطقون ---------- (متقارب)
إذا جاشت العاطفه ---------- (متقارب)

[1] - أحمد بسام ساعي – حركة الشعر الحديث في سورية من خلال أعلامه – دار المأمون للتراث – دمشق – ط1 - 1978 –74 - 77.
[2] - انظر محمد صابر عبيد – القصيدة العربية الحديثة – 214.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لا تخف..لا تخف[1] ---------- ------- (متدارك).

ويكاد الوزنان يتساويان في قصيدته "إلى الضابط الشهيد"، بتسعة أسطر للمتدارك وثمانية للمتقارب، وفي كليهما يشعر القارئ بسرعة التفعيلات وتلاحقها الشبيه بتلاحق طلقات الرصاص التي فجر بها الضابط المصري إحدى الطائرات الأمريكية ، ومزقته بعدها زخات الرصاص وليس بينها جميعا مسافات فاصلة كتفعيلات الوزنين المتلاحقة[2]:

ليس بين الرصاص مسافة---------- (متدارك)
أنت مصر التي تتحدى---------- (متدارك)
وهذا هو الوعي حدّ الخرافه---------- (متقارب)
تفيض وأنت من النيل تخبره---------- (متقارب)
إن تأخر موسمه---------- (متدارك)
والجفاف أتم اصطفافه ---------- (متدارك)
وأعلن فيك حساب الجماهير---------- (متقارب)
ماذا سيسقط من طبقات ---------- (متدارك)
تسمي احتلال البلاد ضيافه ---------- (متقارب)
ولست قتيل نظام يكشف عن عورتيه فقط---------- (متقارب)
بل قتيل الجميع ---------- (متدارك)
ولست أبرئ إلاّ الذي يحمل البندقية قلبًا---------- (متقارب)
ويطوي عليها شغافه ---------- (متقارب)
لقد قبضوا كلهم----------(متقارب)
وأحطّهم ---------- (متدارك)
من يدافع عن قبضة المال مدّعيا---------- (متدارك)
أنها الماركسية أم العرافه ---------- (متدارك).

كما يتمازج الوزنان في قصيدة له "عن بيروت "كيف نبني السفينة في غياب المصابيح والقمر" على امتداد ما يقارب الثلاثين صفحة[3]، وفيها يعتمد حينا على المقاطع، مثل الأول المكوّن من سبعة أسطر في المتدارك وسطر في المتقارب ليعود إلى المتدارك بثلاثة أسطر والمتقارب بثمانية أسطر فالمتدارك بستة أسطر، ويعقبها بسرعة تنقل غير منتظم إلى آخر القصيدة.

[1] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة –21 - 22 (ويمضي على المنوال نفسه على امتداد القصيدة من - 21 - 32)
[2] - المصدر نفسه – 93 - 94.
[3] - المصدر نفسه - 323 - 351.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما محمود درويش فيجمع في قصيدته "عن الشعر"[1] بين الرمل والهزج وهما من دائرة عروضية واحدة هي دائرة المجتلب (هزج –رجز – رمل)[2]، معتمدا على التوزيع المقطعي ، مقطعان كل منهما من ثلاثة عشر سطرا في الرمل يتوسطهما مقطع من ستة أسطر في الهزج :

-1-

أمس غنينا لنجم فوق غيمه
وانغمسنا في البكاء !
أمس، عاتبنا الدوالي، والقمر
والليالي.. والقدر،
وتوددنا النساء !
دقت الساعة، والخيام يسكرْ
وعلى وقع أغانيه المخدّر
قد ظللنا بؤساء !
يا رفاقي الشعراء !
نحن في دنيا جديده
مات ما فات، فمن يكتب قصيده
في زمان الريح والذرّة ،
ويخلق أنبيـــاء !

- 2 -

قصائدنا بلا لون
بلا طعم...بلا صوت !
إذا لم تحمل المصباح من بيت إلى بيت !
وإن لم يفهم "البسطا" معانيها
فأولى أن نذريها
ونخلد نحن... للصمت ! !

- 3 -

لو كانت هذي الأشعار

---

[1] - محمود درويش – الديوان – 54 - 56.

[2] - زين كامل الخويسكي – العروض العربي صياغة جديدة – 1996 – 14.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إزميلا في قبضة كادح
قنبلة في كف مكافح !
لوكانت هذي الأشعار !
لو كانت هذي الكلماتْ
محراقا بين يدي فلاح
وقميصا...أو بابا ...أو مفتاح !
لو كانت هذي الكلمات
أحد الشعراء يقول:
لو سرّت أشعاري خلاني
وأغاظت أعدائي
فأنا شاعر...
وأنا...سأقول !

ويزاوج البياتي بين الكامل الذي أراده لقصيدته "القرية الملعونة" والسريع الذي اختاره لاحتواء الجملة المقولة وما قبلها وما بعدها في سطرين شعريين ، ليواصل مع الكامل إلى آخر القصيدة[1] :

بالأفق المفقود، قالوا : "غدا نلهي رقيق الضيعة التائهه } سـريع
الدم ، والأرض بقربانها، جادت ! فأين الخبز والآلهـه }
النير والمحراث والثور الجريح على الثلوج
يغفو ليحلم بالسواقي والمروج
والحقل أخفته الثلوج
...وهناك عبر الحقل، أكواخ تنام وتستفيق
عبر الطريق
بشر ينام ويستفيق...

ويبلغ التداخل العروضي عند سعدي يوسف مداه فيمزج بين السريع والرجز في خمسة قصائد كاملة[2]، وإن لم يكونا من دائرة عروضية واحدة ، الرجز من دائرة المجتلب والسريع من دائرة المشتبه ، فإنّهما يتقاطعان في المجزوء إذ يتكون كل منهما من مستفعلن (أربع مرات) ممّا يتيح أمر تداخلهما والتنقل بينهما.

[1] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية – 154.
[2] - سعدي يوسف - الأعمال الشعرية – 309 ، 433 ، 453 ، 456 ، 463 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- **ظـــاهرة التقييـــد :**

لئن استفاد شعراؤنا كغيرهم من الشعراء من التراخيص العروضية المعروفة والضرورات الشعرية التي تجيز للشاعر ما لا يجوز لغيره، فإن ظاهرة التقييد كانت قوية الحضور عند مجموعة مهمة من الشعراء وفي مواضع متكررة عند أغلبهم. والقافية المقيدة هي القافية الساكنة الروي[1]، ومن صورها عند شعرائنا هاء السكت والقوافي المجردة المقيدة (القائمة على الروي الساكن وحركة ما قبله) فللصمت أيضا صورته الإيقاعية وللسكتة دلالاتها وإيحاءاتها في عالم الموسيقى ودنيا الشعر و"الصمت نفسه إنما يتحدد بالإضافة للكلمات، (فهو) على هذا الاعتبار لحظة من لحظات الكلام ، والسكوت ليس بكما بل رفضا للكلام ، فهو نوع منه"[2]، وكثيرا ما عمد شعراؤنا إلى إسكات حرف الروي وتقييده أو كبح التاء والانتقال بها إلى هاء سكت مختنقة ، تعبيرا عن حالٍ من أحوال الإسكات التي يعيشونها، وأحيانا يرفضون حتى الكلام المسكت المقيد فلا يتركون إلاّ البياض لغة وإيقاعًا كما فعل سعدي يوسف مرارا وآخرون، ولكن أشهر صور التقييد حضورا ظاهرة التقييد بالزيادة إذ هي من علل الزيادة، مثل الترفيل وهو زيادة سبب خفيف على ما آخره وتد مجموع ، ويكون بزيادة (تن) على متفاعلن فتنقلها إلى متفاعلاتن ، وعلى فاعلن فتحولها إلى فاعلاتن ، ويدخل على الكامل والمتدارك في صورتهما المجزوءة .والتسبيغ وهو زيادة حرف ساكن على ما آخره سبب خفيف، وهو مأخوذ من الزيادة فكل زائد سابغ، ويكون بزيادة نون ساكنة على فاعلاتن من بحر الرمل فتصبح فاعلاتان.

وأما أكثر هذه الزيادات المقيدة انتشارا في النصوص موضوع الدراسة فالتذييل، وهو زيادة حرف ساكن على ما آخره وتد مجموع، فكأن تلك الزيادة جعلت له ذيلا، ويكون بزيادة نون ساكنة على مستفعلن ومتفاعلن وفاعلن فتنقلها إلى مستفعلانْ ومتفاعلانْ وفاعلانْ، ويدخل التذييل على ثلاثة أبحر هي الكامل والبسيط والمتدارك[3].

وإن لم يشر الدارسون المحدثون إلى هذه العلة في الشعر العربي الحديث أو يعللوا أسبابها، فربما لأنها لا تشكل ظاهرة عروضية لافتة عند رواد الشعر الحر، ولكنها مع ذلك تمثل ظاهرة إيقاعية ملفتة للانتباه في شعر الحبسيات، وربما أرجعنا كثافة حضورها إلى طبيعة الموضوع نفسه وما يوحي به من دلالات المنع والتقييد والحبس وغيرها، وهي الدلالة نفسها التي نستشفها من حيث التسمية العروضية "التقييد" الاختياري الذي أراده بعض الشعراء للتعبير عن القيود الكثيرة المحيطة بهم مادية كالجدران والقضبان والحراس والقوانين ومعنوية هي الحرمان من الحياة الحرة بكل تبعاتها وهي كلها عبارة عن زيادات متتابعة لقيد الحبس أو السجن قابلها الشعراء بزيادة ذلك التقييد الصوتي.

---

[1] - زكي كامل الخويسكي – العروض العربي صياغة جديدة – 317 .

[2] - المرجع نفسه – 33 - 44.

[3] - صابر عبد الدايم – موسيقى الشعر العربي – 27.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما نستشف دلالة التقييد من حيث البناء العروضي للظاهرة القائمة على الزيادة (من علل الزيادة) ولكنها زيادة سكون إلى سكون آخر، وكأننا بالشعراء وهم يلجأون إليها، يؤكدون حالة الصمت الرهيب وتراكماته ، أو يلمحون إلى إسكات إجباري لا يملكون إزاءه إلاّ إرسال شكواهم ومدّ صوتهم ولو بالأنين المتطاول مع السكون الأصلي الذي حوّلوه حرف مدّ لا يلبث أن ينطفئ أو يختنق مع السكون.

فمن الأوزان التي تخيرها الشعراء لهذه الزيادة المسكتة نجد الكامل في صوره المختلفة إذ يحتل صدارة الأوزان المقيدة ، والرجز والمتدارك والرمل، بل وامتدت الظاهرة إلى الأوزان المركبة نحو مجزوء الخفيف في قصيدة أحمد محمد الشامي "بسمة أسير"[1] ويتفاوت حضورها من شاعر إلى آخر، فنحن نجد القصيدة الواحدة والقصيدتين عند حسين مردان على سبيل المثال في قصيدته "الغبار"[2]، وتوفيق زياد في قصيدته "فهد" في الكامل المذال وهي من الشعر العمودي الذي يلامس فيه التذييل التفعيلة الأخيرة من كل بيت ، كما نجد عند محمود درويش سبع قصائد في الكامل المقيد منها "في انتظار العائدين" جمع فيها بين التذييل والترفيل باثني عشر سطرا مذيلاً وثمانية مرفلة و"انتظار" جمع فيها بين التذييل والترفيل وهاءات السكت، تسعة أسطر للأولى وستة للثانية، ومثلها "مطر" و"قمر الشتاء" و"كبر الأسير" ولكن بحضور أقل للظاهرتين، إذ تخالطهما القوافي المطلقة.

كما يطالعنا في "الموت مجانا" بالجمع بين القيدين مع ترجيح كفة التذييل دائما بما يحمله المدّ من صدى الأنين المهرب برغم قيد السكون الملاصق له والكاتم أنفاسه ، مقطعين مذيلين ، يليهما مقطع مرفل بهاء السكت وآخر بحرف روي متحرك وقد أصر الشاعر في هذه القصيدة على التزام القيد في كل أسطر مقاطعها الثلاث المقيدة :

كان الخريف يمر في لحمي جنارة برتقال
قمرا نحاسيا تفتته الحجارة والرمال
وتساقط الأطفال في قلبي على مهج الرجال
كل الوجوم نصيب عيني.. كل شيء لا يقال..
ومن الدم المسفوك أذرعة تناديني : تعال !
فلترفعي جيدا * إلى شمس * تحنت * بالدماء
لا تدفني موتاك !..خليهم كأعمدة الضياء
خلّي دمي المسفوك.. لافتة الطغاة إلى المساء
خليه ندًّا للجبال الخضر في صدر الفضاء!

[1] - أحمد محمد الشامي – حصاد العمر – 265 ومطلعها : ما تبسمت غبطة أو نزوعا إلى ابتسام).

[2] - حسين مردان – طراز خاص –171.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لا تسألي * الشعراء * أن يرثوا * زعاليل الخميله

شرف الطفولة أنها

خطر على أمن القبيله

إني أباركهم بمجد يرضع الدّم والرذيله

وأهنئ الجلاد منتصرا على عين كحيله

كي يستعير كساءه الشتوي من شعر الجديله

مرحى لفاتح قرية !... مرحى لسفاح الطفولهْ !..

يا كفر قاسم * !.. إن * أنصاب * القبور يد تشدُّ

وتشدّ للأعماق أغراسي.. وأغراس اليتامى إذا تمد

باقون.. يا يدك النبيلة، علمينا كيف نشدو

باقون مثل الضوء، والكلمات، لا يلويهما ألم وقيد

يا كفر قاسم !

إن أنصاب القبور يد تشدّ...[1] !

وكذلك جمع في قصيدة "السجين والقمر"[2] بين الترفيل والتذييل مع تغليب الثاني ، وللشامي قصيدتان في مجزوء الكامل "بين الماضي والحاضر" "ومأساة شهيد"[3].ولفايز أبو شمالة ثلاث في المتقارب والرمل المقيدين[4]، وأربع لبلند الحيدري ثلاث منها في الكامل وواحدة في الرجز[5]، يكتفي فيها جميعا بتقييد بعض المقاطع.

كما نجد لمظفر النواب قصيدتين[6] إحداهما مطولة "في الرياح السيئة يعتمد القلب" جمع فيها بين المتدارك والمتقارب المذيلين في بعض الأسطر. لنصل عند محمد جميل شلش إلى ست قصائد يكاد يشملها التقييد من أولها إلى آخرها ، منها "إلى إخواني الشعراء"[7] وكذلك "ثلاث أغنيات إلى تموز" التي على الرغم مما تحمله من نسائم الأمل وتنظر الغد المشرق قيد الشاعر انطلاق قوافيها تعبيرا عن الآتي المقيد :

أيها الخالد في قلب العراقْ

يا ربيعا في بساتين العراقْ

---

[1] - المصدر السابق – 212 - 213.

[2] - المصدر نفسه – 221.

[3] - أحمد محمد الشامي - حصاد العمر - 83، 204.

[4] - فايز أبو شمالة – سيضمنها أفق السناء - 107، 119، 127.

[5] - بلند الحيدري – الديـــوان - 347 –358 –407، 376.

[6] - مظفر النواب - الأعمال الشعرية الكاملة - 21، 93.

[7] - محمد جميل شلش - الحب والحرية - 15 وما بعدها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يا نشيدا في ثغور
كل أبناء العراقْ،
لك يا تموز، يا شهر الشهورْ،
لك أحلامي، وإيماني، وحبّي،
لك غنيت الهوى والمجد يا فرحة شعبي،
ولعينيك...فغنوا يا رفاقْ
يا لهيبا، شدّ إيمان العراقْ[1].

وقد حرص الشاعر على تقييد جل قوافيها، إذ لم يسلم من المقطع أعلاه غير سطرين شعريين من القيد. ونجد في السريع قصيدته "السجين" التي حرص على تقييد المقطعين الأولين منها وإعفاء المقطع الأخير المحمل بأنوار الفجر :

من وراء الحديدْ
كفرت بالسجن وليل العبيدْ
وصغت ألحاني
ذاتي وألحاني...
لفجر جديدْ
في السجن من أعماق إيماني
غنيت إخواني
وأصدقائي في العذاب الكبيرْ
يا إخوتي في المصيرْ
يا كتر أوطاني
ربيعنا وافى وعين السجينْ
ترنو لسجان[2].

ونجد في الرجز "أغنية إلى دمشق"[3] الكاملة التقييد ، كما نجد في الكامل قصيدة "الشاعر الشهيد" بحوالي ثلثين مقيدين وثلث حرّ، وقصيدة "رسالة من واحدة" التي قيد أكثر من ثلثيها[4].

ويمتد التقييد عند سعدي يوسف إلى سبع قصائد مقيدة جميعها في الكامل ففي قصيدته

---

[1] - المصدر السابق– 35 - 36.
[2] - المصدر نفسه – 130 - 131.
[3] - المصدر نفسه 173 - 175.
[4] - المصدر نفسه –181، 213.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"المحكومون"[1] المكونة من مُحاور رئيسي "الصوت" ربما هو الشاعر نفسه أو صوت ضمير الشعب السجين خارج الأسوار وخمسة محكومين و"رؤيا" لا يخلو مقطع من مقاطعها الأحد عشر من التقييد، بل إنه عمد إلى إسكات المحكوم الثالث نهائيا وأنطق البياض نيابة عنه ، كما دعم بعض المقاطع بهاءات السكت الكابحة جماح الصوت بعد مدٍّ كلون آخر من ألوان التقييد الذي مرّ بنا عند محمود درويش في جمعه بين الترفيل والسكت في آن و أصر في بعضها الآخر على الحركة الصامدة القوية كما في الصوت الرابع :

في عتمة الإعدام ، كان على سلاسلهم جناحْ
أصواتهم ينبوع أغنية تدور بها الرياحْ
الحارس الليلي يشربها ، ويفهمها السلاحْ
في عتمة الإعدام، كان على سلاسلهم صباحْ

المحكـــوم الأول

إني أحدثكم ، وضوء السجن يشحب كالسنابلْ
... إني أحدثكم وفي عيني يرتجف الحريقْ
والليل، والحُمَّى ، ويبتسم المقاتلْ
إني أحدثكم، وفي عيني ترتجف السلاسلْ
هذا هدير البحر...
إنّي أسمع الصيحات مشرعةً شراعًا
أنا ، لن أقول لكم...
وداعـــا.

الصـــوت

الموت في آذار، كان يدق أبواب المدينه
وحشا رصاصيا يمزق في مخالبه الرهينه
كانت مدينتهم وراء الليل دامية سجينه
في قلعة حجرية...والوحش يلتهم المدينه

المحكـــوم الثـــاني

كان المساء دما ، وكنت أرى النساءْ
يصرخن ، والطلقات تصرخ ، والرجال يزمجرونْ
ورأيت قتلانا هناكْ

[1] - سعدي يوسف - الأعمال الشعرية - 275 - 279.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أكفانهم بردُ النجومْ

وشفاههم، ثلجية ، كالشمع ترقبها النجومْ

.....

.....

لن يحفروا قبرا لقتلانا ، فمازالوا هناكْ...

الصـــوت

يا من تعذَّب، صامدا في السجن ، نحن هنا نراكْ

ونعيش جرحك ، عمقه الأزليَّ ، نشربُ من رؤاكْ

صوتا مع الصيحات ننشره ، وترفعه يداكْ

في كل بيت راية لدم ، وغصنا من ذراكْ

المحكـــوم الثـــالث

بياض على امتداد خمسة أسطر

المحكـــوم الـــرابع

زهرات ليمونٍ على ينبوع مفرقها الحريرْ

إنّى لألمحهن في المطر الغزير

في الريح، في زنزانة الإعدام ، في أقصى المدينه

سودا، على عينين أسبلتا ، وأهداب حزينه

لو مرّة قبلت عينيها ومفرقها الحرير

لسألتها أن تمنح العبرات ورده

أن لا ترى في الليل، لون الليل وحده.

الصـــوت

جرح أمام السور، يرفع قبضة للشمس كبرى

هذا النداء الجرح، يهدر، عبر صمت الليل أسرى

فعلى النجوم الشاحبات سنى ، وكل الأرض ذكرى

الموت لن يرث الحياة، ولن يكون ولن يمرّا

المحكـــوم الخـــامس

كان المساء على امتداد السور جرحا من عباءه

ونقاوة الأصوات توقد في تهدجها دماءه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان الشعار يشق مندفعا سماءه

...يا صوت أمي الغائر المضنى ، على الجرح التقينا

في غرفة بالسجن

لكن الشعار يذود عنا

وعلى امتداد السور يخفق..فوق أحداق السلاحِ

الـــرؤيا

كسفينة في الفجر وجه مدينتي...كلّ المنازلْ

مخفية في الورد، تشرب من منابعها النجومْ

الناس فيها يعلمون ويحلمونْ

وكموجة في الفجر ، وجه مدينتي..كل المنازلْ

مفتوحة للشمس فيها

النور يطعم ساكنيها

والناس فيها يعملون ويعشقونْ...

أما في قصيدته "ثلاثة أصوات"[1] فيقيد مقطعيها الثاني والرابع ، ويسكت حركة مقطعيها الأول والثالث وجزءا من الخامس . ويقيد من قصيدته المهداة إلى الشهيد "محيسن من هور السفطة"[2] سبعة عشر سطرا شعريا ويرفل بعض مقاطعها حينا بالسكون وآخر بهاء السكت التي تخيرها الشعراء ، ربما لتسميتها التي تحدث نوعا من الرهبة والسكون في القارئ الذي لا يجد وهو يرددها إلاّ الاستجابة لصدمتها مما يشي بتقييدها هي الأخرى ولكن بطرق الشاعر الأخرى الكثيرة في عملية الإسكات ، وكذلك يفعل في قصيدته "تلفيق" الموزعة بين تقييد التذييل وهو الغالب وهاء السكت المقترنة بالترفيل مع قافية واحدة متحركة وأربعة أسطر فارغة :

قدماه فوق الماء أخضر تعبرانْ

تترقرق الأوراق بينهما...ويخفق شذروانْ

كان النخيل يمدّ آلاف الشباكْ

ليصيد فيها الظل آلافا من الأسماك مشمسة الثيابْ

كانت بقايا الليل في عينيه لمحة أرجوانْ

وعلى خطاه الظل والأسماك تومض، والترابْ

.....

[1] - سعدي يوسف – الأعمال الشعرية – 417 - 418.

[2] - المصدر نفسه – 424 - 425.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

.....

كان ابنك الملعون يا عيسى يسير إلى الدواسرْ

وبجيبه اختبأت خريطهْ

كاد ابنك الملعون ينسف بيت مختار الدواسر

.....

.....

في مركز العشّار أغنية تضوعْ

والصمت يبحر في دروب الليل... والمبنى سفينه

حجرية المرساة، باهتة، تنام بلا قلوعْ...[1]

ومثلها قصيدته "حكايات من البصرة"[2] التي جمع فيها بين الإحجام عن الكلام في أربعة أسطر شعرية وأسكت بعض القوافي بهاء السكت والترفيل وقيد بعضها بالتذييل.

فإذا مضينا في تتبع هذه الظاهرة وجدناها ترتفع عند سميح القاسم إلى عشر قصائد تنوعت بين قيد التذييل والترفيل وهاء السكت والروي الساكن وتوزعت عبر أوزان مثل الكامل والمتدارك والرجز والوافر، ففي الرجز اكتفى الشاعر غالبا بتسكين حرف الروي أو بتر التفعيلة الأخيرة التي جاءت في كثير من الأحيان على شكل حركة وسكون (مُسْ) أو حركتين وسكونين (مُسْتف) نحو قصيدته "الساحر والبركان"[3]، التي التزم فيها تسكين الروي في كل أسطرها الشعرية مع تذييل واحد في سطرها الثاني، ومثلها "من وراء القضبان"[4] التي التزم فيها هي الأخرى الروي الساكن في شعر التفعيلة الذي لا يشترط مثل تلك الرتابة ، ومثلهما "رسالة من المعتقل" و " لو".[5]

وكذلك فعل مع الوافر في قصيدته " حتى الموت" التي اكتفى فيها بإسكات حرف الروي وبعض الهاءات ، بينما أضاف إليهما بعض التذييلات في قصيدة " على أكتاف أشعاري".[6]

ونجد له في المتدارك ثلاث قصائد ، اكتفى في اثنتين منهما "أعلنها" و"حوارية مع رجل يكرهني"[7] بتقييد حرف الروي والتزم التذييل في الثالثة " ينبغي" فلم يطلق إلا سطرا واحدا منها :

---

[1] - المصدر السابق –441.

[2] - المصدر نفسه – 445.

[3] - سميح القاسم – الديوان – 78.

[4] - المصدر نفسه – 92، 487.

[5] - المصدر نفسه – 95.

[6] - المصدر نفسه – 528 – 544.

[7] - المصدر نفسه – 478 – 556.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وجه حريتي نطفة في السجون
قوس نصر النهار
ثغرة في جدار
والمقيمون في منزلي ... اللاجئون
بعد حين
ساعة أو قرون
نأكل العشب عامين مما تربى السطوح
ونسوي لنا بيرقا
من ضماد الجروح
كل صعب ، يهون
ولذا ينبغي، ينبغي أن أكون !"[1]

وله في الكامل المقيد قصيدة مطولة " أيها الحراس أراه حيا واقتلوني"[2] من ستة مقاطع زواج فيها بين التذييل والترفيل، مغلبا الأخير بست وثلاثين سطر مرفل مقابل ثلاثين سطر مذيل، افتتحها بمقطع مرفل "الجواد العربي"، واختتمها بآخر مرفل مكمل له" عودة إلى الجواد العربي"، متنقلا بينهما في باقي المقاطع :

مقطع مرفل

كبيارق التسليم أيدينا تلوح بالمحارمْ
كمدافع ملوية الأعناق من ذل الهزائمْ
كقلوع صارية حزينه
تبكي وفي غرف السفينه
تصطك أجنحة النوارس بالهياكل والجماجم

مقطع بين المرفل والمذال

من عهد نوح
رضيت برواد القبائل
من عهد نوح
رضيت بغرغرة الجلاجل

[1] - المصدر السابق – 622.
[2] - المصدر نفسه – 252 - 259.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقطع مذال

أسروه من عشرين عام
نزعوه مني ذات معتمة ، و قالوا أن أنام
و لم أزل سهران ... من عشرين عام
أبكي و أغضب في الظلام
وأصيح ... من وجعي أصيح :
من ذا يرد إلي من منفاه محبوبي الجريح؟
أصيح يا طير الحمام
خبره أني ناذر .. لا أستريح
حتى يروّح في سلام

مقطع مرفل

كقطوف دالية مرنحة على هزج المواسم
كحمائم بيضاء، أيدينا تلوح بالمحارم
لجوادنا العربي ، يصهل في معاركه الطويلـــه
ويقول يا نار الأعاجم
أفنى ... ولا يرتد عرفي
أفنى ... ولكن لست أعذر فارسي وأخون سيفي
أنا لم أزل في وجهك المجدور يا نار الأعاجم
شعبـــا يدافع عن حشاشته وتاريخا يقاوم .

وتبلغ ظاهرة التقييد عند البياتي إحدى وعشرين قصيدة ، واحدة في مشطور المتدارك المذال "الأسير" التزم فيها التذييل في صدور الأبيات وتقييد الروي في أعجازها :

يا ملاكي الصغير هل عرفت الألم ؟
والبكاء المريـــر والهوى والندم !
والطريق الأخير وخبيث السأم ![1]

واثنتان في الرجز " إلى إخواني الشعراء" و " أغنية إلى شعبي"،[2] التزم فيهما تقييد حركة الروي إلى آخرهما ، وثمانية عشر قصيدة في الكامل المذال ،[3]التزم فيها هي الأخرى التذييل في جميع أسطرها الشعرية عدا

---

[1] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية - 143/1.

[2] - المصدر نفسه – 202 – 203.

[3] - المصدر نفسه – 113 – 120 – 145 – 149 – 154 – 157 – 178 – 180 – 184 – 186 – 193 – 206 – 207 – 219 - 223 – 230 – 241 - 304 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أربعة أسطر غير مذيلة ولكنها ساكنة الروي من قصيدة " أباريق مهمشة"،[1] وسطران مطلقان من قصيدة
"خيانة".[2] وهي ظاهرة لافتة للانتباه في شعر البياتي تشكل نسبة 16.8% من مجموع القصائد التي أحصيناها في هذه القراءة مع إغفال كثير من الحالات التي لا يشكل التقييد فيها ظاهرة بارزة كالسطر الشعري والسطرين.

من تلك الالتزامات الشبيهة بما كان ينتهجه القدامى فيما يعرف بـــ "لزوم ما لا يلزم" نحو لزوميات أبي العلاء المعري و لزوميات الحصرى القيرواني في المعشرات[3]، نكتفي بمقطع من قصيدة "الموت في الخريف" التي التزم فيها إلى جانب التذييل قافية موحدة لكل مقطع :

عيناك في ليل الخريف إلى المدى تتطلعان
ماذا وراء الربوة الحمراء غير السنديان
وسحائب تبكي ومدخنة وحان
تبنى لأمر ما على شباكه عصفورتان
عشا من الدم والدخان
وأنت كالحلم المسجى ، ذابل ، دامي الجنان
* * *
يا صامتا ، والريح تعول في الظلام
انطق ولو حرفا! وما جدوى الكلام؟
إن هوم الساقي وعربدت المدام
وتجاوبت دقات أجراس الحمام
في هوة الأبد السحيق ، وأنت مبتسما تنام
وعلى جبينك ، يا رفيق الفجر، فجر من سلام[4].

لتصل القصائد المقيدة عند معين بسيسو إلى اثنين وأربعين قصيدة بما يقارب ثلث القصائد المقيدة وبنسبة 33.6% توزعت على أربعة أوزان ، الرمل و الكامل و المتدارك والرجز. نجد الرمل[5]المقيد الروي بالسكون

---

[1] - المصدر السابق – 113 – 114.
[2] - المصدر نفسه - 206.
[3] - أنظر لزوميات أبي العلاء المعري ، ومحمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحي – أبو الحسن الحصري القيرواني – مكتبة المنار تـــونس - 1963 - 209 – 240.
[4] - عبد الوهاب البياتي - الأعمال الشعرية - 241/1.
[5] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 77 – 185 – 188 – 197 – 236 – 267 – 287.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أوهاء السكت والتزام ذلك في بعض القصائد التزاما كليا مثل "ارفعوا أيديكم عن أرض القناة"[1] التي ألزم الشاعر فيها نفسه بتقييد حركة الروي على امتداد ثلاثة عشر صفحة بين هاء السكت والسكون وقصر فاعلاتن (فاعلاتْ) تعبيرا عن قصر فعلي آخر وإسكات كانت تعانيه قناة السويس، وقصيدة " أجراس من طين"[2] التي ألجم رويها إلجاما مطلقا فهي من شاعر ملجم ليلجم بقوافيها وبأقلامه صناع أغلاله ويبشر بذلك اليوم الذي تتحرر فيه القوافي والأحرف من القيود وتنطلق حرة في أوزان مفتوحة الأذرع :

أجراس من زبد تلمع
أجراس من طين تلمع
تستجدي الريح لكي تقرع
وصلاة في وادي عبقر...
وسجين القافية الملجم
كالطائر بالريشة يلجم
يدمى، يتمزق، لا يحلم
وبراق القافية المعلم
من قدح سنابكه الأنجم
قد طار به الطفل الملهم
وسنزرع نهرا لن نقلع
ظلا أو حرفا يتضوع
في روض المتنبي الأخضر
وستجري الأحرف كالأشرع
في بحر مفتوح الأذرع

وله في الكامل المذال ست قصائد ،[3] التزم في أغلبها التذييل وتقييد حركة الروي وهاء السكت ، مثل قصيدة "الحجاج والفيلسوف الأخرس" [4]و"السجن الكبير"[5] التي جمع فيها بين العمودي والحر، وبين مجزوء ومشطور الكامل المذالين والروي المقيد وهاء السكت من ذلك قوله :

---

[1] - المصدر السابق - 77 – 90.
[2] - المصدر نفسه – 197 – 199.
[3] - المصدر نفسه – 91 – 238 – 269 – 274 – 276 – 310.
[4] - المصدر نفسه – 269 – 270.
[5] - المصدر نفسه - 91 – 94 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سيظل يحرسه العـــراق
سيظل يخفق في العراق
مجـــزوء الكامل المذال

في ظل أقواس المشانق والرصـــاص
قلب المقاومة العنيدة والخـــلاص
جنبا إلى جنب يدق مع القـــلوب
في جبهة السلم العريضة والشعوب
مشطـــور الكامل المذال

أترى إلى شعب العراق
يعدو بأشلاء الوثاق؟
مجـــزوء الكامل المذال

...أترى سنابكه الخصيبه
بدما مخالبك الرهيبه...
مجـــزوء الكامل المرفل

.... إن كنت صادرت الورق
فلسوف نطبع بالعـــرق
روي مقيـــد

فوق الأيادي والجباه
منشور حب للحياة.
فانشر لصوصك في البلاد
... ليصادروا.
كل الأيادي والجباه.
لنصف يا نوري الحساب...
مجـــزوء الكامل المذال

وله إحدى عشرة قصيدة ،[1] في الرجز المقيد ، جمع فيها هي الأخرى بين الروي الساكن وهاء السكت والتذييل ، نحو مطولته " المتاريس"[2] التي نكتفي بمقاطع لبعض حالات التقييد فيها :

---

[1] - المصدر السابق – 97 – 105 – 180 – 191 194 – 213 – 243 – 246 – 248 – 259 – 271.

[2] - المصدر نفسه - 105 – 116.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقيـــد بهاء السكت

قد أقبلوا فلا مساومه
المجد للمقاومه
لراية الإصرار شاهقه
للموجة الحمراء من صيحاتنا المعلقه
على الشوارع الممزقه
ولليد المكبله
ولليد الطليقة المناضله

التزم ترفيل مستفعلن : (متفعلاتن) سطرا بسطر مع أنها لا ترفل عند العروضيـــن.

... مدينتي يا أدمع البركان قد جرت مشاعل
ويا ابتسامة الزلازل
مطبوعة سيفا على جبين شعبي المكافح
مدينتي زنبقة خضراء لم تنم على سرير فاتح
و لم تصب الزيت في مصباح خائن
رموشه بساط كل مقبل ورائح

مقطع مذال عدا السطر الأخير

... يا إخوتي وطائر الحصاد
لا يبرح الأسلاك والحدود
رغم غزوة الجراد والرماد
وأنه من غير زاد
ورغم ألف ليلة وليلة من السهاد
في الصباح حينما جرت، جداول الصباح
أبصرته مورد الجناح.

وفي المتدارك نجد سبعة عشرة قصيدة ،[1] تراوحت بين الروي الساكن وهاء السكت والإطلاق في بعض القصائد ، والتزم التقييد في بعضها الآخر كما هي الحال في قصيدة " في طريق الأنهار" التي جمع فيها بين هاء السكت والروي المقيد ، و"دقي يا أجراس الكومون" و "الموت في العالم العاشر"[2]المقيدتي الروي.

وإن تداخل التذييل والترفيل في بعض القصائد التي أشرنا إليها سابقا ، فقد حرص الشعراء على التزام

[1] - المصدر السابق – أنظر على سبيل المثال : 169 – 173 – 183 – 200 – 208 210 – 217 – 231 – 2333 – 240 – 285 – 289 – 291....

[2] - المصدر نفسه – 210 – 212 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الترفيل في بعض قصائدهم بدرجة أقل من حرصهم على ظاهرة التذييل ذات الساكنين المتتاليين، ولكننا نشعر مع ذلك بإيقاعها الموحي بصوت زائد أو صيحة تريد الانفلات ولا يلبث الشاعر أن يكبح جماحها بسكون وقد اختار الشعراء وزن الكامل لاحتوائها لطول نفس تفعيلاته. من الشعراء الذين أفردوا لها قصائد كاملة نجد سليمان العيسى في مجموعته "شاعر بين الجدران"[1] التي التزم فيها الترفيل التزاما كليا لأنها قصائد عمودية ، اثنتان منها في مشطور الكامل المرفل والأخرى في مجزوء الكامل المرفل ، نكتفي بمقطع من قصيدته في "حرم الوحي" إذ يناجي الشعر وجذوة الإبداع ويعجب من صمودهما في وجه مطرقة العذاب :

يا شعلة الوحي المقــدس أيها الســر الدفيـــــن !
يا جذوة الإبداع... تركـــــــــــع عند ومضته المنـــــون
يا نفحة الإلهام.... تعبــق كلما خبت السنيـــــن.
يا فن... يا رعش الألوهـــــــــة في دمانـــا، يا جنون
هذي يدي .. تتحسس الســـــــــرالعصـــبي وتستبـــين
وتــدق معبدك الــرهيب يروعها الصمت الحزيــن
ما أنت ؟ كل عسيـــــرة لرضاك في الدنيا تهـــون
مــا أنت ؟ تحرقنـــــا ، وتخشع عند طلعتك العيون
... ولغير مطرقة العذاب، ونــارهــا لم لا تليــن ؟
أتظل في الأعماق لغزا... لا يحـــل ولا يبيــن ؟
أنا عند سرك في الوجود ولست في قيدي سجين[2].

وللجواهري في مجزوء الكامل المرفل قصيدة "في السجن"[3]ولمعين بسيسو في العمودي أيضا قصيدة "النهر الثالث في العراق"[4]يتحدث فيها في سخرية وتهكم عن جديد السجن وما أضاف إلى حياته من فضائل منقوصة ربما تعادل تلك الزيادة الإيقاعية المسكتة، وربما تقع دونها.

أما في شعر التفعيلة فنجد لمحمود درويش قصيدتين مرفلتين من الكامل "عن إنسان" " وتحد"[5]، اكتفى في الثانية بترفيل بعض أسطرها الشعرية وإعفاء أخرى ، والتزم في الأولى ترفيل سطر وإعفاء آخر في مقاطعها الأول والثاني والأخير، وترفيل أسطر المقطع الثالث :

---

[1] - سليمان العيسى – الأعمال الشعرية –1 /221 - 250.
[2] - المصدر نفسه – 226 - 227.
[3] - محمد مهدي الجواهري – الديوان – 117/2 - 118.
[4] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 215 - 216.
[5] - محمود درويش – الديوان – 123 - 124.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وضعوا على فمه السلاسل ---------- مرفـــل
ربطو يديه بصخرة الموتى،
وقالوا : أنت قاتل ---------- مرفـــل

* * *

أخذوا طعامه، والملابس ، والبيارق --------- مرفـــل
ورموه في زنزانة الموتى
وقالوا: أنت سارق ! ---------- مرفـــل

* * *

طردوه من كل المرافيء ---------- مرفـــل
أخذوا حبيبته الصغيرة ---------- مرفـــل
ثم قالوا : أنت لاجيء! ---------- مرفـــل

* * *

يادامي العينين، والكفين !
إن الليل زائل ---------- مرفـــل
لا غرفة التوقيف باقية
ولا زرد السلاسل!---------- مرفـــل
نيرون مات ، و لم تمت روما
بعينيها تقاتل! ---------- مرفـــل
وحبوب سنبلة تموت
ستملأ الوادي سنابل[1] ---------- مرفـــل.

كما يطلق توفيق زياد صوته "من وراء القضبان" كالصدى الذي لا يلبث أن يتلاشى في قصيدته المطولة "من وراء القضبان"[2] ويلتزم فيها ترفيل سطر وإطلاق آخر غالبا ، ويصر في بعض المقاطع على إرسال صيحاته متواصلة دون انقطاع كما في المقطع الذي استهله بترفيلات متتالية تنفس فيها بأربع صيحات متتالية ليعود إلى تناوب القيد والإطلاق :

[1] - المصدر السابق - 12 - 13.
[2] - توفيق زياد – الديوان - 102 - 112.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ترفيل سطـــر بسطـــر

يا طغمة أسقيتها...
كأس المذلة ، من قصيدى
مرغتها في الوحل حتى جيدها،
ونصبت جيدى
وبصقت ملء عيونها
حقدي على عيش العبيد
يا طغمة المسخ الجبان
يضج موتور الوعيد
لا تحسبي زرد الحديد

* * *

مقطـــع مـــرفل

يا طغمة الحكام زيدى
هل لاضطهادك من مزيد....؟
ألقي القيود على القيود
سوداء باردة الحديد

عـــودة إلى التنـــاوب

سيعود شعبي في ضياء الشمس..
من خلف الحدود.
سيعود للطلل المهدم
يبتنيه من جديد .
سيعود للأرض الحبيبة.
للزنابق ، للورود .
سيعود رغم النار، والأغلال .
خفاق البنود...

ويحاول بلند الحيدري في قصيدة " عشرون ألف قتيل... خبر عتيق"[1] إبلاغ صوت المذيع المتحجر الذي لا يذيع إلا ما شاءوا له أن يذيعه بإضافة أصوات أخرى كان يجب أن يحملها صوته كالحسرة والألم أو حتى الأسى للضحايا والآلام الفظيعة التي ينقل أنباءها متخشبا ، فأعقبها الشاعر بصيحات متقطعة حينا ومتواصلة أحيانا أخرى نقتطف منها بعض المقاطع :

[1] - بلند الحيدري 347 - 353.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صوت المذيع ---------- مرفـــل

متخشـــب

شاءوا له أن لا يحس بما يذيع ------- مرفـــل

لندن

وتدق بيك بن ---------- مرفـــل

دن...دن

"عشرون ألفا" ---------- مرفـــل

لا ... كفى خبر عتيق كالمذيع ------ مرفـــل

قتلوا ليحيا الآخرون ---------- مرفـــل

وأنا أتمتم

يكذبون ويكذبون ---------- مرفـــل

وتقول أنت :

من الحفاة ---------- مرفـــل

"قتلوا لتزدهر السنون" ---------- مرفـــل

ننتهي من هذه القراءة إلى توكيد حضور ظاهرة التقييد التي تمثل 18.23% من شعر الحبسيات وهي نسبة عالية (بحوالي 125 قصيدة من مجموع 660)كما نسجل حضور الكامل في كل الحالات مجزوءً ومشطورا وكاملا، عموديا وحرا، مقيدا ومذيلا ومرفلا تختص به إحدى ظواهر التقييد في بعض القصائد كما رأينا ذلك في ظاهرة الترفيل التي لم تتجاوزه إلى المتدارك الصالح لزيادتها ولا إلى غيره من الأوزان الأخرى .

ليتجاوز حضوره في القصائد المقيدة نصفها بنسبة 52.8% بست وستين قصيدة ، ثمانية عشر منها مرفلة يليه المتدارك بـــ 25.6% باثنين و ثلاثين قصيدة فالرجز بـــ 15.2% وبتسعة عشرة قصيدة ، فالرمل بـــ 8.8% وبإحدى عشرة قصيدة بينما لا تتجاوز قصائد المتقارب المقيدة الثلاث بنسبة 2.4%، والوافر القصيدتن بنسبة 1.6%، وواحدة في السريع بـــ 0.8%.

وإن دلت هذه الظاهرة على شيء فإنما تدل على ما كان يعانيه الشعراء من ضغط نفسي وقيود مادية كثيرة ، وقد رأينا الكثير منها في قراءتنا لموضوعات الحبسيات و كأنها تتناسل داخل الزنازين وفي الأقبية وساحات السجن وتتوالد، قيود تتبعها قيود في خط لا متناه يصدم الشعراء أن ولوا فلا يجدون من متنفس إلا التعبير عنه بلغة معادلة لكوابحه وإيقاع منسجم مع رتابة السجن وصمته الرهيب .

- ظـــواهر أخـــرى :

هذا وفي الحبسيات ظواهر إيقاعية أخرى هي من مميزات القصيدة العربية الحديثة وإن عرفت القصيدة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العربية القديمة بعض صورها ، مثل التدوير والانبتار الإيقاعي والتكرار وغيرها من التلوينات الإيقاعية التي أصبح الشاعر الحديث يشحن بها قصيدته وتساهم بدورها في صناعة الصورة الشعرية التي يصبوا إلى إبرازها في أجمل حللها ، ونقل أحاسيسه وانفعالاته، فكما رأيناه من قبل يتوخى لغة تعبر عن أحواله المختلفة من غضب وضعف وثورة وحنين وألم و أمل، ورأيناه يترجم عن ضجره من القيد وتبعاته بطريقة صوتية خاصة لا تختلف عن تلك القيود الكثيرة، وجدناه يلتمس وسائل أخرى يحاول استكمال المشهد السجيني بواسطتها من ذلك على سبيل المثال **ظاهرة البتـــر الإيقاعي** أو ما أسمته نازك الملائكة بالتكرار اللاشعوري ، أين يعلق الشاعر الكلام دون إتمام المعنى المراد ، "ويستغني عن عناء الإفصاح المباشر وإخبار القارئ بالألفاظ عن مدى كثافة الذروة العاطفية"[1]مع اكتمال وزن البيت أو التفعيلة واشترط لهذا الصنف من التكرار أن يجيء في سياق شعوري كثيف ودرجات عالية من التوتر والاضطراب تبلغ حد المأساة،[2] فإذا وقع الشاعر على عبارة قريبة من حالته النفسية، راح يرددها إلى أن تنبتر وتنتهي به إلى صمت مفاجئ ولكن محمل بدلالات كثيفة ربما هي أقوى من دلالة البوح.

نلحظ هذه الصورة الإيقاعية في قصيدة بلند الحيدري " صورة قديمة"[3] التي بلغ فيها درجة من الضياع لم يعد يعرف فيها غاية أو هدفا جليا، ليس وحده فحسب، بل هي حال عامة لا أحد يعرف "ماذا يحاول أن يكون" وهي الصيغة التي راح يرددها من حين لآخر كاملة حينا ومبتورة آخر ولا يجيب أسئلته الحائرة غير الصدى وغير الصمت الذي يصبح في هذه المواضع صوتا وكلاما مبينا :

كأس
وأغنية
وامرأة مريبه
ماذا تحاول أن تكون..... ماذا تحا...
يا للصدى
فعلى مدى عيني تغرق في السكون
خطوات أجيال كئيبه
وعلى يدى
في كل عرق أسود
تغفو سنون
مرت سدى

---

[1] - نازك الملائكة – قضايا الشعر المعاصر – 287.

[2] - المرجع نفسه – و الصفحة نفسها.

[3] - بلند الحيدري – الديوان – 353 - 362.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حلما تجسد في شتائي موقدا
أحرقت أمسى كله
فيه
و لم يدفأ غدي
ماذا أحاول أن أكون
.....
لا .....
لن أجيبه.
ماذا أحاول أن أكون
ماذا ....أحا...
وتغور دقاتي الرتيبه
لا....
لن أجيبه.

وكأننا بالشاعر قد تعرض لصدمة عنيفة جعلته يفصح حينا وتنبتر كلماته أحيانا أخرى في لحظات من الحيرة والذهول .

وشبيه بهذه الحالة الشعورية قصيدته "أريد أن"،[1] التي لا تخرج عن دائرة التوتر السابقة ، فإذا هو لم يعرف في الأولى ماذا يحاول أن يكون ، فإنه يقف هنا أمام عوائق كثيرة تكبح أمنياته البسيطة وأمنيات كل عراقي بعيش هادئ آمن يتجاوز كل تلك المنغصات ، وقد عبر عن تلك الأمنيات بعبارة " أريد أن" وراح يبترها ليردفها في السطر الموالي بجوابها ولكن مبتور أيضا " أسأل من" وهكذا تتالى مشاهد البتر مع الشاعر :

أريد أن أغور في شوارع مزدحمه
حكاية
أو غنوة
أو ملحمه
...أريد أن
أسأل من
يحلم عن..... أحلامه
أريد أن....

[1] - المصدر السابق – 376 - 379.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أسأل من...
يألم عن .... آلامه
عن قطرة مسمومة في جامه المحطمه
...أريد أن....
أكون مثل الناس لي
متهم
ومدع
ومحكمه
لي فجرهم
لي ليلهم يبذر في أنجمه....

ويبتر محمود درويش في قصيدة "الطفل الذي ضحك لأمه المقتولة" نداء الطفل الذي حبا في ساحة الدار وكركر نحوها في جوار السور مبعثرة مفتوحة عرى الصدر، كأنها تدعوه إلى الرضاع ، بتر الشاعر نداء "أماه" إذ سبقه رصاص العدو إلى عملية بتر الأم وصدرها المعطاء من الوجود :

...حبا في ساحة الدار..
...وغرد ثغره "أماه"
وكركر، حين لم تسمع
وشد رداءها ،
ورؤاه... دغدغة وأرجوحه
وردد عاتبا أمّـــ ... ـــا[1].

وللبياتي قصيدة لجأ فيها إلى البتر الإيقاعي مرة واحدة دون اعتماد على التكرار الذي رأته نازك الملائكة من أهم عناصر البتر، بل وجعلته شرطا من شروطه ، وإن توفر في قصيدته "الأسير" شيء من التوتر، يقول :

يا ملاكى الصغير — هل عرفت الألم؟
عشبة في الهجير — لعنتها الديـــــم
با للظى تستجير — والسراب الأصم
في انتظار المصير — أطرقت ثم لـــم...
الضمير الضمير — يالكذب الرمـــم[2]

[1] - محمود درويش - الديوان - 202 - 203.
[2] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية - 143/1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولمظفر النواب مسوغات للبتر الإيقاعي لا تخرج عن طبيعته المتمردة ، وقد مرت بنا بعض دلائلها في قراءتنا لانتهاكاته اللغوية التي لم يكن يجد حرجا في جلد خصومه بها وجلد سمع القارئ عساه يستفيق من هروبه وتقدمه إلى الخلف ، ولكنه كان يعمد من حين إلى آخر إلى لجم لسانه عن الشتائم التي يعلمها مقذعة ليس حياء ، وليس احتراما للقارئ أو أي شخص آخر فقد عودنا على خلخلاته ، ولكن كلون آخر أشد وقعا من الشتم نفسه ، ولعل هذا يذكرنا برد زياد بن أبيه على رسالة لمعاوية بن أبي سفيان تعرض بنسبه أحجم فيها عن رد صاع السباب واكتفى بقوله : "...فأما سبك لي فلولا حلم ينهاني عنك ، وخوفي أن أدعى سفيها ، لأثرت لك مخازي لا يغسلها الماء"[1] ليكمل هذا الكف وهذا البتر الإيقاعي انتهاكات مظفر السابقة، يقول :

ما هذي القيادات المنافيخ فراغا
تشتكي من سوء هضم
داخل المخ
وتجتر نياما
أنا سكران بمن تخلقهم من نطفة اللوز
ونطق الكسل الصيفي
سكران بمن
يا رب يا تدري بمن
يا تدري بمن... يا تدري بمن
قابض راحتي على جمرة كأسي بهدوء ورضى
أنا سكران بمن تخلقهم
من نطفة طاهرة
مثل مياه الصبح
أنا سكران بمن
يا رب يا تدري بمن...
فيا حضرة كتاب التقارير
تشيطنت
و لم أذكر نظاما
رافعا فردة سباطى كالهاتف

[1] - أحمد محمود الحوفي – أدب السياسة وسياسة الأدب – 389.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كي أشتمهم.

يا أخوات الـــ...

قطع الخط و لم أكمل مراسيم احترامي.[1]

ويذهب مظفر في عملية البتر المعادلة لبتر آخر يصدمه ويقلق راحته ، فإذا به وهو يحدثنا عن أنصاف المواقف يلجأ إلى الاختلاس الصوتي بنقل فاعلن إلى فعلن ليقابل به ذلك الاختلاس الواقعي في المواقف العربية غير الواضحة : "أنا يقتلني نصف الدفء ونصف الموقف أكثر".[2]

- ظـــاهرة التدويـــر :

نشأت مع القصيدة العربية وكانت تعني اشتراك الشطر الأول مع الثاني بكلمة يكون بعضها في آخر الأول وباقيها في أول الثاني، ويعني ذلك أن تمام وزن الشطر الأول يكون بجزء من تلك الكلمة ويدل على تواصل موسيقى البيت وامتدادها،[3] وهو كثير في الشعر العربي القديم وقد استلطفه ابن رشيق القيراواني في الأعاريض وعده دليلا على قوة الشاعر واقتداره،[4] لما يضفيه من ليونة وغنائية للبيت إذ يمده ويطيل نغماته وإن رفضت نازك الملائكة التدوير في الشعر الحر القائم على التفعيلة و لم تستسغ أن يبدأ الشطر أو السطر الشعري بنصف كلمة[5]، فإن الشعراء تجاوزوا رفضها واستفادوا من التدوير في تلوين البناء الموسيقي لقصائدهم وإحداث بعض الخلخلة لنبضها الإيقاعي بفتح أبياتها على بعضها البعض ،[6] ليصبح التدوير "امتداد البيت وطوله بشكل لم يكن معروفا في الشعر العمودي ...فقد يمتد حتى يشمل القصيدة كلها أو يشمل أجزاء كبيرة منها، بحيث تصبح القصيدة أو يصبح المقطع المدور فيها بيتا واحدا"[7].

وقد يتعلق هذا الامتداد في الشعر المعاصر بدمج شطر في آخر خطيا أو عروضيا وقد يشمل "أبيات مقطع أو قصيدة بكاملها لضرورة لغوية اقتضاها تركيب النسق النحوي أو لضرورة الوزن اقتضاها النسق العروضي"[8] .

ومن مسوغات التدوير الدلالية أن الجملة المدورة تشكل مع السطرين السابق لها واللاحق بؤرة

---

[1] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة - 515 - 520.

[2] - المصدر نفسه – 304.

[3] - محمد صابر عبيد – القصيدة العربية الحديثة – 160، وأنظر صابر عبد الدايم – موسيقى الشـــعر العـــربي – 220 – ونـــازك الملائكة – قضايا الشعر المعاصر –112.

[4] - ابن رشيق – العمدة – 159/1 - 160 - 112.

[5] - نازك الملائكة – قضايا الشعر المعاصر - 116 - 117.

[6] - علي جعفر العلاق – في حداثة النص الشعري - 81.

[7] - محمد صابر عبيد – المرجع نفسه - 160.

[8] - عبد الرحمن تبرماسين – البنية الإيقاعية للقصيدة العربية المعاصرة في الجزائر – دار الفجر للنشر والتوزيع – 2003- 123 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الدلالة[1]، مما يدعوا إلى تمييزها إيقاعيا للفت الانتباه إليها.

وعليه فإن التدوير يقدم للشاعر الحديث فضاء إيقاعيا مفتوحا يمكنه احتواء تجارب شعرية وحالات نفسية معينة تحتاج إلى نفس متكامل ممتد بلا توقف وكأننا بالشاعر الحديث في عجالة من أمره يريد إبلاغ كل ما في جعبته في دفقه شعورية واحدة وجملة شعرية واحدة مطولة، والتخلص من ثقل الواقع، ولكنه يرهق القارئ بذلك التواصل إذ يجد نفسه مضطرا للاستمرار مع الشاعر لأنه يعلم أن الوقوف يكسر القصيدة، فينتهي كلاهما متعبا منهكا. والتدوير أنواع ،[2] فمنها التدوير الجملي ، الذي يقوم على تدوير الجملة الشعرية الكاملة وينتهي بنهايتها ، وقد ينتقل إلى جملة أخرى موالية لها أو يقف عندها ، وقد يناوب الشاعر بين التدوير وعدمه . ومنها التدوير المقطعي الذي يتحدد بتدوير مقطع من القصيدة أو أكثر، وربما دور الشاعر كل مقاطعها . ومنها التدوير الكلي الذي يحول القصيدة إلى جملة واحدة متواصلة . ومن الشعراء الذين استفادوا من هذه التقنية جميل شلس وحسين مردان وبلند الحيدري ومحمود درويش وسميح القاسم ولكنها تتجلى بوضوح عند كل من البياتي ومعين بسيسو ومظفر النواب ، وللبياتي إسهام واضح في ترسيخ تجربة التدوير في القصيدة الحديثة وكسر رتابتها مع العلم أن التدوير عنده لا يتجاوز في الغالب المقطع أو الجملة من القصيدة. نذكر قوله مضمنا شطر المتنبي في قصيدة "أباريق مهشمة "[3].

الله والأفق المنور والعبيد
يتحسسون قيودهم. شيد مدائنك الغداة
بالقرب من بركان فيزون، ولا تقنع
بما دون النجوم
وليضرم الحب العنيف
في قلبك النيران والفرح العميق
والبائعون نسورهم يتضورون
جوعا وأشباه الرجال
عور العيون
في مفرق الطرق الجديدة حائرون:
لا بد للخفاش
من ليل وإن طلع الصباح....

[1] - المرجع السابق - 167.
[2] - المرجع نفسه - 164 - 182.
[3] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية - 113/1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ونستشق من قراءتنا لبعض قصائد مظفر المدورة وهي كثيرة تعب الشاعر من تلك الأنفاس المتصلة دون انقطاع ، ولكننا نشعر أنه يريد إرهاق الآخر أيضا ، أو رد الفعل الذي عودنا عليه بفلسفات مختلفة، فمثلما أنهكته المسافات، وأنهكه البحث وأنهكه السجن المتكرر الذي لم ينج منه في إحدى المرات إلا بالحفر تحت الأرض، وأنهكه البحث عن الأمان المفقود والوطن المفقود، ها هو يرد الفعل بإجهاد الآخر، حتى في قراءة نصه، الذي ينبئنا بلهثه وهو يكتبه، إذ لا وقت لديه ولا أمان، لذا يريد أن يفرغ كل شيء في عجالة فائقة وينتهي متعبا وننتهي معه متعبين، إذ لم يترك لنا بهذه التقنية حرية للوقوف أو أخذ نفس جديد نذكر من تدويراته المختلفة مقطعا من قصيدته "مرثية لأنهار من الحبر الجميل"المهداة إلى الشهيد ناجي العلي،[1]يقول فيه :

يسافر في ليلة الحزن صمتي غيوما تبعثه ممطرا
واشتريت دروب المتاعب
ألوي أعنتها فوق رسغي
ليالي أطول من ظلمات الخليقه
خالي سوى من فتات من الصبر
في ركن زاويتي والدجى ممطر
أأنت الوديع كساقية من خبايا الربيع
قتلت؟!
وغص بنعيك من قتلوك
كأنك مقتلهم... لا القتيل
لما استفردوك بقبر عدو وراء الضباب
وفيم تساءلت ذات مساء من الحزن
عمن سيأخذ ثأرك
هل كنت تعرف أن الرجال قليل
هل التصفيات بديل عن الأرض
والفشل المستمر...

ويبدو أن جل قصائد مظفر النواب[2]، تفاجئنا بأنفاسها المتلاحقة وترغمنا على قراءتها جملة واحدة ممتدة، وربما ساهم وزن المتدارك في صناعة هذا التواصل الإيقاعي لخفته وسرعته وقربه من النثر.

ويشكل التدوير ظاهرة إيقاعية مميزة ومتنوعة عند معين بسيسو[3] ، بين الشعر العمودي وشعر التفعيلة

[1] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة - 377 - 378.
[2] - المصدر نفسه – انظر : 21، 201، 226، 326، 348، 516، 518، 519...
[3] - معين بسيسو : الأعمال الشعرية الكاملة 215، 213، 209، 201.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبين الجمل المدورة والمقاطع والقصيدة كاملة بالرغم مما كان يلجم به قوافيه من قيود، ففي الشعر العمودي نجد أبياتا مدورة في قصيدته " النهر الثالث في العراق" لم يكتف فيها بالتدوير بين شطري البيت الواحد ، وإنما امتد إلى ما بين البيتين ، فلا يكتمل عنده معنى آخر البيت الأول "فالموانئ" إلا في البيت الثالث "مسدودة" ليعيد الكرة في المقطع الثاني والثالث نحو قوله :

أنا لن أراك، ولن تراني فالموانيء والبواخر
والطائرات وكل ما هو للحقائب والمسافر
مسدودة إلا المسالك للسجون أو المقابر
أنا لن يطير إليك صوتي فالإذاعة والمطابع
والبرلمان و كل أبراج المصانع والمزارع
للمانعين سوى الكلام مع البنادق في الشوارع
أنا لن أخط رسالة لك لا طوابع لا رسائل
تصل الرصاصة بـــالرصاصة والمقاتل بالمقاتل[1]

ومن مقاطعة المدورة نقتطف قوله في قصيدة " غصن ليمون":

العين المخلب في الغابْ
تبحث عن صيد والحدأه
شاخت ، راحت تتوكأ فوق جناحيها
نخر السوس المنقارْ
يا من يسكب في الكأسِ
خرير الألوانْ
الشمس اللبؤة قد شبقت فحذارْ
من نرجس عينيها ، من سرر الزنبقْ ،
من برق اللون القتال .
يا غصن الليمون الجوالْ
دارت كالطاحونِ
على الأجنحة الأيام
وانتحب البلبلْ ،
فتح عينيه، الطفل الميتُ ،

[1] - المصدر السابق –215.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في البستان .[1]

ومن أمثلة تدويره الجملي نكتفي بقوله في قصيدة : " من أوراق أبي ذر الغفاري".

وسار وحده ومات وحده وعاد ،

يصيح مت لم تزل ،

يقيه من الكلام في فمي[2].

ويحول بهذه التقنية الصوتية ثلاثا من قصائده إلى جملة واحدة طويلة وهي "أغنية إلى زنجي أمريكي" و"أسطورة غيلان الثلج"[3] و"قبل أن يصيح الديك" التي نوردها كاملة لبيان هذه الظاهرة الصوتية :

أحبابنا وقبل أن يلوح ،

الفجر، قبل أن يصيح ،

الديك ، واحد من الذين يغمسون

سنابلي بضوء شمعتي و يأكلون

مرة ومرتين

يا أحبابنا يخون

ويتبع الذين يشعلون

النار في اسمي ،

والذين يرجمون

قصائدي وينكرون

سيفها مسمرا على الصليب

أحبابنا وبعد أن يلوح

الفجر بعد أن يصيح

الديك، من ذريتي رفيق

أضاء من ضلوع

صليبي المزروع ،

في أرضكم ، يقودكم إليَّ

حيث صار

للصليب يا أحبابنا جذور

---

[1] - المصدر السابق - 241.

[2] - المصدر نفسه - 259.

[3] - المصدر نفسه – 201 - 208.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحيث فوقه ، سيف قصيدتي قطوف
من السيوف .[1]

فالتدوير في هذه القصيدة وفي جل المقاطع السابقة سواء كان تدويرا إيقاعيا في الأوزان المتشابكة أو دلاليا في المعاني التي لا تنتهي عند نهاية السطر الشعري ، يبين قدرة الشعراء على إثارة القارئ ولفت انتباهه إلى بؤر التوتر في النص، كما يكشف عن الأجواء المفعمة بالسرد القصصي الموحي بامتداد الدلالة وإصرار الشاعر على الوصل المتناغم مع الدقة الشعورية التي كان يريد إيصالها كاملة، لإشباع رغبته النفسية وإفراغ شحناته المتصارعة والمتسارعة للتدفق[2].

ويمثل **التكـــرار** في الشعر العربي الحديث ظاهرة فنية بارزة ولونا من ألوان التجديد القوية الحضور في القصيدة الحديثة، استعان به الشعراء في تثبيت إيقاعها الداخلي وتحقيق نوع من الانسجام والتوافق الصوتيين، واستغلوه في التعبير عن خفايا نفوسهم ومكنوناتها و لم يقفوا ببناهم التكراية عند حدود الإمكانات النحوية واللغوية الصرف ، و إنما تجاوزوها إلى المجال الصوتي أيضا، ليصبح التكرار أداة موسيقية دلالية في آن.[3] وربما كان "أسلوبا تعبيريا يصور اضطراب النفس ويدل على تصاعد انفعالات الشاعر"[4] ففي الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية برزت ظاهرة التكرار بدلالاتها الصوتية والنفسية القيمة بشكل لافت، وأخذ الشعراء يتكئون عليها لفضح الراهن العربي المتردي، إذ من أهداف التكرار تسليط الضوء على نقاط مركزية في النص بترديدها،[5] ولا يخفى علينا ما يبعثه الترديد من حركة وحيوية وما يحدثه من أنغام وهزات مثيرة تشد الانتباه،[6] ولكن ومع أهمية هذه الظاهرة وحاجة الشاعر الحديث إليها فإن لها محاذيرها التي نبه إليها النقاد عند ما رأوها تتحول عند كثير من الشعراء المبتدئين إلى مجرد متكأ لتهيئة الجو الصوتي لقصائدهم ، ومجرد تكرار لفظي خال من الدلالات النفسية .

فكما يمكن للتكرار أن يصير فضيلة في الشعر و أن يحي كلمة أو عبارة يمكنه أن يميتها، بحسب وعي الشاعر وقدراته الفنية.

وهذا لا يعني أن الشاعر القديم لم يعرف التكرار و لم يعرف أبعاده و آثاره في النفوس، فقد رأيناه حاضرا في القصيدة العربية بمختلف عصورها لاسيما في المواقف الحماسية أين يكون الشاعر الفارس متأهبا، فنراه في كثير من مواقفه الحماسية يردد مقاطع تصل أحيانا إلى شطر بيت شعري كما في قول المهلهل :

---

[1] - المصدر السابق – 214.

[2] - عبد الرحمن تبر ماسين - البنية الإيقاعية للقصيدة المعاصرة في الجزائر - 143.

[3] - محمد صابر عبيد – القصيدة العربية الحديثة – 183 – 184.

[4] - عبد الرحمن تبر ماسين - البنية الإيقاعية للقصيدة المعاصرة في الجزاءر - 143.

[5] - نازك الملائكة – قضايا الشعر المعاصر - 267 وما بعدها.

[6] - عبد الرحمن تبرماسين – البنية الإيقاعية للقصيدة المعاصرة في الجزائر - 226 – 368 وما بعدها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ذهب الصلح أو تردوا كليبا أوتحلوا على الحكومة حـــلا
ذهب الصلح أو تردوا كليبا أو أذيق الغداة شيبان ثكلا
ذهب الصلح أو تردوا كليبا أو تنال العداة هونـــا وذلا[1]
ذهب الصلح أو تردوا كليبا أو تذوقوا الوبال ورداوهلا[2].

ومثل ترديده في قصيدة أخرى قوله " قربا مربط المشهر مني" أربعة عشرة مرة[3] إيذانا بعزمه على الحرب،وردا على خصمه الحارث بن عباد الذي استدعى فرسه النعامة بتكرار عبارة "قربا مربط النعامة مني"، وله في إحدى مراثيه كليبا مثل ذلك ، ففيها كرر الصدر" على أن ليس عدلا من كليب"[4] ثلاثة عشرمرة ، و مثله ما جاء عند عمرو بن كلثوم في معلقته أين أخذه عنفوان النصر فراح يفخر بضمير الجمع "نحن" ويردده قويا مجلجلا في مطالع الصدور والأعجاز[5].

كما نذكر لمالك بن الريب التميمي يائيته التي كرر فيها لفظ "الغضى" خمس مرات في بيتين من الشعر يريد التلميح إلى تكرار نوبات الحنين التي كانت تهزه لا إلى الغضى ولكن إلى ساكني دياره وهو في اللحظات الأخيرة، أو إلى نوبات الحمى التي كلما زارته ذكرته الغضى وأهله :

فليت الغضى لم يقطع الركب عرضـــه وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
لقدكان في أهل الغضى ، لو دنا الغضى مزارٌ، ولكن الغضى ليس دانيـــا[6].

فإذا تأملنا شعر الحبسيات ، وجدنا فيه من الدواعي إلى التكرار الكثير، ففيه من الحماسة إذ أغلب شعرائنا من المناضلين السياسيين الذين اتخذوا من القلم ومن القصيدة أداة نضال ، وفيه من الثورة والتحدي والمغالبة والتمرد والوعيد... وغيرها من الحالات التي يحتاج فيها الشاعر إلى توكيد مواقفه بالارتكاز على تقنية التكرار ، وفيه من الآلام والأوجاع ما يجعلنا نذهل للنداءات المكررة والآهات المرسلة والاستفهامات الضائعة بلا أجوبة. وقد اتخذ صورا كثيرة ، من تكرار لحروف معينة كالنداء والاستفهام ، إلى تكرار أفعال أو كلمات، إلى تكرار جمل وصيغ ، إلى تكرار سطر شعري كامل. إذ يهب التكرار لا سيما اللفظي والجملي امتدادا وتناميا للقصيدة في شكل ملحمي انفعالي متصاعدا[1]. ولأن الظاهرة كثيرة في الحبسيات فسنكتفي ببعض نماذجها عند بعض الشعراء.

---

[1] - نازك الملائكة – قضايا الشعر المعاصر – 266 - 267.
[2] - المهلهل - شرح ديوان المهلهل - تحقيق وشرح محمد علي أسعد - دار الفكر العربي - بيروت - ط1 - 2000 - 152 - 153.
[3] - المصدر نفسه - 172 - 175.
[4] - المصدر نفسه - 108 - 112.
[5] - انظر الخطيب التبريزي –شرح القصائد العشر –ص 254 - 288 (الأبيات في مبحث التناص)
[6] - أبو الخطاب القرشي - جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام - تحقيق علي محمد البجاوي - دار نهضة مصر الفجالة - القاهرة - ط1 - دت - 758 _ 759.
[1] - عبد الرحمن تبر ما سين - البنية الإيقاعية للقصيدة المعاصرة في الجزائر – 211 ، 219.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من ذلك تكرار النفي المتعلق بالمستقبل "لن أسافر" لمحمود درويش الذي أسنده بتكرار توكيد آخر "إنا عائدون"، فكما رجع الأولى ثلاث مرات، قابلها بترجيع الثانية ثلاث مرات أيضا ليحقق الغاية الصوتية بهذا التنغيم المكرر والمتعادل الوحدات من جهة والغاية الدلالية وهي تأكيد الصمود والإصرار على البقاء في الوطن لمن هم داخله، وعلى العودة إليه لمن اضطر إلى مغادرته أو هجر منه غصبا، ويستمد هذا التوكيد على الصمود وذلك الإصرار قوتهما من الدلالة المستقبلية التي يشترك فيها المقطعان المكرران، الأول باستناده إلى أداة النفي الممتدة نحو الآتي وغير المحدود، والثاني باستناده إلى حرف التوكيد "إن" التي قوّاها بصيغة الجمع وأعقبها باسم الفاعل المحمل بدلالة الآتي :

يا صخرة صلى عليها والدي لتصون ثائر
أنا لن أبيعك باللاّلئ
أنا لن أسافر
لن أسافر
لن أسافر !
أصوات أحبابي تشق الريح ، تقتحم الحصون
يا أمنا انتظري أمام الباب. إنا عائدون
هذا زمان لا كما يتخيلون..
بمشيئة الملاح تجري الريح..
والتيار يغلبه السفين!
ماذا طبخت لنا ؟ فإنا عائدون
نهبوا خوابي الزيت ، يا أمي ، وأكياس الطحين
هاتي بقول الحقل! هاتي العشب!
إنّا عائدون[1].

ويبدو إصرار الشاعر على هذه الثلاثية في تكراراته قويا ، نذكر منها :
"فإن السلاسل / تعلمني أن أقاتلْ / أقاتل..أقاتل".[2]

وتكراره فعل الأمر "حلّ" المقرون مرة بالضمير المتصل "هم" ومجردًا ومقرونا بالضمير المتصل الهاء :

لا تدفعني موتاك!..خليهم كأعمدة الضياء
خلّى دمي المسفوك..لافتة الطغاة إلى المساء

[1] - محمود درويش – الديوان – 113 - 114.
[2] - المصدر نفسه – 244.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خليه ندا للجبال الخضر في صدر الفضاء[1]!

ويكرر في إحدى قصائده الصيغة "آه، عبد الله" خمس مرات ويختم في أخرى مقاطعها الثمانية بالآه المجروحة على ضياع شعبه وضحاياه ودروبه المسدودة والقادمين الغرباء الذين لم يواجهوا إلاّ بالشعارات :

...ويموت الماء في الغيم، وآه.../.../...معطف فوق شهيد/ وغطاء للتوابيت، وآه.../.../...والحروب انتشرت كالرمل والشمس، وآه.../... وأنا أبحث عن بابٍ، وآه[2]..

وبنفس الإيقاع الحزين الذي تحدثه هذه الآه الممدودة، المفجوعة يقابلنا معين بسيسو في حسرته على الوطن المتساقطة مدنه واحدة واحدة بخمس آهات عميقة[3].

ويصرّ سميح القاسم على إيقاع التكرار بصيغ مختلفة على امتداد مطولته "ما تيسر من سورة السلاسل"[4]، منها السؤال الصامد الساخر من آليات القمع الغبية وما يمكنها أن تفعله بإرادة الشاعر وصموده "ما الذي تفعله..." والذي واجهنا في أول القصيدة ثم عاد في صفحتها الأخيرة مع بعض التغيير ولكن بنفس الدلالة، ومنها التشبث القوي بالوطن والذي جاء في ثوب نفي الخيانة أو التنازل في صور شتى وبدلالة الإصرار أيضا "لم أقايض..."، وتكرارات أخرى وتلوينات صوتية كثيرة محملة بكل معاني القوة والصمود :

ما الذي تفعله بوابة السجن الغبيه ،
والزنازين ،
وحيات السلاسل ؟
ما الذي يفعله الداء
ومرشات الجحافل
...عبثا يحلم بالمدّ وعنقى الأخطبوط
عبثا يبحث عن عيني رمل الهاويه
والقناديل وأحداق الصغار الخائفه
ويدا أمي على صدر قميصي
وحبيباتي وأشجاري وأبواب المدارس
وزوايا القبل الصغرى
تجيء...

---

[1] - المصدر السابق – 212.
[2] - المصدر نفسه – 264 - 268.
[3] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 233 - 235.
[4] - سميح القاسم - الأعمال الكاملة - 1/ 553 - 558.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كلها من كوة الموت تجيء
ومضة من رمح فارس
كلها تخترق السجان والسجن
وتعلو
كالعصافير...على كفي وكتفيَّ
وتعلوا وتضيء!
لم أقايض مترلي
بالفندق الفخم الجديد
لم أقايض زهرة البرّ بأزهار الورق
لم أقايض عزتي بالقبعه
لم أقايض فافهموني
مرة أخرى أعيد
...أنا لا أذكر إلاّ غضبي
...أنا لا ألمس إلاّ غضبي
عبثا تقترف الأسلاك موتي
عبثا يطبق ليل ونهار
أقبلي من شاطىء الأعراف يا أرواح أهلي
أقبلي ليلة عرسي و اشهديني
...و اشهديني ناصع الحزن أصلي
...واقبلي مزمورنا المزهر في ملح السجون
... لم تزل رزنامة السجن طويله
والأغاني لم تزل تسخر من آسرها
لم تزل رزنامة السجن طويله
ما الذي تفعله بوابة السجن الغبية
بأناشيدي وأزهاري وحبي
بالمفاتيح التي تملأ جيبي؟!
ما الذي يفعله داء المفاصل
في الزنازين ،
وآلات العذاب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

...ما الذي تفعله قضبان سجني

ما الذي تفعله ،

ما دام حبسي

طرفةً

والموت..نزهه ؟!

ومثلها قصيدته "أيها الحراس أراه حيا واقتلوني"[1] التي ارتكز فيها الشاعر على جماليات التكرار ونوع في صوره من تكرار الحرف ككاف التشبيه وحروف النداء، والجمل وشبه الجمل وأضفى على بعض مقاطعها أجواء صوتية مميزه بما أحدثه فيها من تواز إيقاعي جميل نلحظه في مقطعه "العار" الذي تكراره على التوازي الإيقاعي القائم على تساوي الطرفين ويكرر في قصيدة "لو" الحرف "لو" خمس مرات ويختمها بالتكرار والتوازي وتوكيد الموقف كما عودنا على ذلك في أغلب نصوصه الشعرية :

يا ثورة لا تعرف الخنوع !

سيصدق الكلام !

ستصدق الأحلام !

ستصدق الصلاة ! ! [2]

ويبلغ التكرار ذروته عند الشاعر في قصيدة "خطاب في سوق البطالة"[3]، بتكرار الحرف "ربما" وما يحمله من احتمالات صبره وصموده وتحديه في سبيل الوطن عشرين مرّة وزعها على ثلاث وحدات توزيعا تصاعديا، خمس مرات في المقطع الأول ، وست في الثاني وتسع مرات في الثالث، وأصرّ على ختام المقاطع الثلاث باللازمة الواحدة بسطريها الشعريين :

"يا عدو الشمس..لكن..لن أساومْ..

وإلى آخر نبض في عروقي..سأقاومْ! !.."

وختام القصيدة بالإصرار على هذا النفي الممتد إلى المستقبل "لن أساوم" وبتكرار الفعل المثبت ثلاث مرات أخرى، في صورة طباعية مغايرة :

ولعينيها، وعينيه...يمينا..لن أساوم..

وإلى آخر نبض في عروقي..

سأقاوم..

---

[1] - سميح القاسم – الديوان – 252 - 259.

[2] - المصدر نفسه - 490.

[3] - المصدر نفسه –447 - 452.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سأقاوم..

سأقاوم !!

ومثلها ختام قصيدة "ينبغي"، حيث يقول :

...كل صعب، يهون

ولذا ينبغي، ينبغي أن أكون[1].

وهي خاصية فنية يكاد يتفرد بها سميح القاسم في توكيد موقفه القائم على الرفض والإصرار والصمود والتحدي لغويا و إيقاعيا ،كما استفاد الشاعر بلند الحيدري من ظاهرة التكرار بتقنياتها المختلفة ، في جلّ قصائده ، مثل "عشرون ألف قتيل..خبر عتيق" و"سر" و"توبة" و"جئتم مع الفجر" و"أولئك الرجال" و"أرض مُرَّة"[2]، نذكر منها تكراره مقطع "صوت المذيع / متخشب / شاءوا له أن لا يحس بما يذيع"[3] ثلاث مرات استهل بواحدة وختم بأخرى وغذى القصيدة بصيغ أخرى من التكرار ، وردد في قصيدة "توبة يهوذا"[4] مقطع "أنا أدري" مع تغيير ما يليه من صيغ ثماني مرات على لسان يهوذا، ومثلها قصيدة "يهوذا"[5] التي كرر فيها الصيغة "وأشرت أنت" خمس مرات بصور متقاربة متصاعدة الدلالة "وأشرت أنت" يا من وقفت تشير..أنت"، "يا من وقفت مع العيون القائمات / تشير...أنت"، "يا من وقفت مع الأصابع آثمات / تصر...أنت...أجل / وأنت"، "هلا خجلت / وقد وقفت مع العيون القاتمات / مع الأصابع آثمات / تشير..أنت / وتصر...أنت...أجل / وأنت".

ولمعين بسيسو تنويعات إيقاعية كثيرة أحدثها بالتكرار، نذكر منها تكراره مقطع "الشاعر الذي مضى كغيمة/ وغاب ثم عاد.../ كطائر من الرماد" مرتين به استهل القصيدة وبه ختمها[6]. ومثل اللازمة "يا جيمي ولسون" التي ظل يرددها في قصيدته المهداة "إلى زنجي أمريكي"[7].

كما أفاد كل من مظفر النواب ومحمد جميل شلش والبياتي وتوفيق زياد من الظاهرة في إضفاء تلوين إيقاعي خاص على قصائدهم، وقد مر بنا الكثير من نصوصهم الشعرية في مواطن سابقة.

ومن الشعراء من أولع بتكرار صوت أو أصوات في القصيدة الواحدة لتحقيق إيقاع منسجم[1]، كما فعل

---

[1] - المصدر السابق – 623.

[2] - بلند الحيدري – الديوان من 347 - 394.

[3] - المصدر نفسه – 347 - 353.

[4] - المصدر نفسه - 363- 367.

[5] - المصدر نفسه – 390 - 394.

[6] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 194 - 196.

[7] - المصدر نفسه – 200 - 202.

[1] - محمد راضي جعفر - الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر - 130 - 134.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بلند الحيدري في قصيدته "أنا أدري" -السالفة الذكر- بتكرار حرف الراء الذي يصنع إيقاعا اهتزازيا شبيها باهتزاز الشاعر واضطراب المخبر الذي لم يكن إلا أخا أو صديقا قديما ، والبياتي في "مسافر بلا حقائب" بتكرار صوت "لا" خمس مرات "من أجل التركيز على النفى -وهو غربة مكانية- حشد هذا الصوت ليكون إلحاحا على نفي المكان الذي ينفي الوجه ثم التاريخ"[1].

ولا تعني هذه القراءة أن كل ما جاء من تكرار كان في خدمة القصائد أو أنه كان إيجابيا كله ، فهناك ما لا يتجاوز التكرار اللفظي الذي لا يعدو أن يكون مملا يقف عنده الشاعر ليفكر فيما يليه .

هذا وهناك ظاهرة عروضية لافتة للانتباه في شعر التفعيلة، هي **ظاهرة الالتزام** التي لا تتطلبها القصيدة الحرة ، وقد وقفنا عند بعض صورها في التزام الشعراء التقييد التزاما كليا، مثل تقيد مظفر النواب في خمسة عشر سطر متتالية بحرف الروي اللاّم ، بل وفي أغلب مقاطع قصيدة المسلخ الدولي، إذ لا يكاد يستريح بروي آخر حتى يعود إلى اللامات المتتالية[2]، ومثل التزامه روي الميم في أحد عشر سطرا شعريا في قصيدة "الاتهام"[3]، وهي ظاهرة يمكن تفسيرها على أنها نوع آخر من أنواع التقييد ألزم الشاعر نفسه بها مثلما أُلزِمَ بقيود أخرى كثيرة ما كان ينبغي أن تمنع حرياته .

ننتهي من هذه القراءة إلى أن فعل الحبس والسجن كانت له انعكاساته على البنية الإيقاعية للقصيدة الحبسية، فكما ساهم في صناعة معجم شعري خاص يتناسب وطبيعة القيد والظلم والظلام، يساويها حينا ويردّ فعلها أحيانا كثيرة، كذلك رأيناه يلقى بظلاله على جوانبها الصوتية، من حيث اختيار الشعراء لأوزان معينة تناسب الحال، وقد كان الكامل أقدرها على احتواء آمالهم وآلامهم وترجمة صور صمودهم، ومن حيث مزجهم بعض الأوزان تعبيرا عن حال القلق الذي كان يعتري بعضهم ، ومن حيث التركيز على بعض الظواهر الصوتية كالتقييد الذي لم يكن إلاّ معادلاً صوتيا لقيود أخرى مادية ومعنوية كان يعانيها الشاعر السجين ، ومثل البتر الإيقاعي وما يحمله من دلالات الإسكات الإجباري المكمل لقوانين المنع أو الاختياري المحمل بدلالة التحدي والامتناع عن القول، ومثل التدوير وما يوحي به من تعب ورغبة في إنهاك الآخر وإرهاق نفسه، وهي جميعا تتجاوب وتتكامل لتكمل مشهد الحبس بجميع صوره.

---

[1] - المرجع نفسه – 135.

[2] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة –83 - 92.

[3] - المصدر نفسه – 539.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

X Z

* الفصل الثالث *

الصورة الشعرية

- طبيعة الصورة الشعرية.
- التصوير بالموروث التاريخي.
- التصوير بالموروث الديني.
- التصوير بالموروث الشعبي.
- التصوير بالموروث الأسطوري.

E Θ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- طبيعة الصورة الشعريـــة :

كانت الصورة الشعرية وما تزال موضع اهتمام النقاد ومحط إعجابهم منذ أرسطو وإلى يومنا، وحظيت بمنزلة رفيعة قد لا ترتقي إليها باقي الأدوات الشعرية الأخرى بالرغم من حرص النقاد على الصورة الموسيقية وما تهب النص الشعري من قيم جمالية[1]، حتى رآها بعض النقاد كيانا يتعالى على التاريخ[2]، وذهب آخرون إلى أنه لا يمكن تصور شعر خال منها[3]، فالشعر قائم على التصوير منذ أن وجد، وكل قصيدة إنما هي في ذاتها صورة، وإن تفاوتت نظرة النقاد إليها من عصر إلى آخر واختلفت صورة حضورها من شاعر إلى آخر، حيث اقتصر مفهومها في النقد العربي القديم على ربط الصورة بالتشبيه والاستعارة وسائر النواحي البلاغية الأخرى، بينما وسعت مفاهيم النقد الحديث من إطارها فلم تعد الصورة البلاغية وحدها مقصودة بالمصطلح، بل قد تخلو الصورة... بالمعنى الحديث من المجاز أصلا، فتقوم على عبارات حقيقية الاستعمال ولكنها تشكل مع ذلك صورة دالة على خيال خصب[4].

وهي لا تأتي مع الكلمات وحدها أو الأفكار وحدها، وإنما مأتاها من ذلك التأليف العجيب بين التراكيب والأفكار والمشاعر والانفعالات والمواقف والأخيلة والألفاظ، وإخراج صورة جديدة للناس، يعرفون كل عناصره، كل أسبابه، ولكنهم يجهلونه كاملا، وفي الصورة التي ألبستها[5] إنها" محاولة للقبض على الواقع والسيطرة عليه ونقله، ولكن ليس بطريقة فوتوغرافية، " لأنها تصوير للواقع كما يراه الشاعر لا كما هو في الحقيقة، وتصوير لعلاقة الشاعر بكل ما يحيط به من أشياء وأحداث وأشخاص وليس لها في ذاتها، وعليه فالصورة الفنية ليست واقعية وإن كانت منتزعة من الواقع إذ توصل إلى خيالنا شيئا أكثر من انعكاس متقن للحقيقة، لأنها تركيبة وجدانية تنتمي إلى عالم الوجدان أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع، وهي لذلك أغنى من الواقع لأنها ليست انعكاسا مرآويا له ولا صورة لو عينا له بل صورة لا نفعا لنا بعد رؤيته ووعيه"[6]، وبذلك تتواجد نقل الخبر إلى التوحد بأحوال الشاعر ورغباته النفسية ومواقفه[7]، وإذا كان للغة الشعرية والإيقاع دورهما في صناعة النص الشعري وإحداث أثر في المتلقي والمساهمة في إبلاغ ما يريد الشاعر وإيصاله، فإن للصورة الشعرية هي الأخرى وظيفتها، إذ هي ليست زينة أو حلية خارجة يلجأ إليها الشاعر، بل جزء من

---

[1] - عز الدين إسماعيل- الشعر العربي المعاصر - 124.

[2] - الولي محمد – الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي – المركز الثقافي العربي –لبنان –المغرب –ط1 -1990 – 7.

[3] - إحسان عباس – فن الشعر – دار الثقافة – ط3 – بيروت 1983 -430.

[4] - علي البطل – الصورة في الشعر العربي -25.

[5] - ساسين عساف – الصورة الشعرية عند أبي نواس – 11 ، وعز الدين إسماعيل- الشعر العربي المعاصر -125.

[6] - محمد صابر عبيد – القصيدة العربية الحديثة – 261-262.

[7] - محمد العبد حمود – الحداثة في الشعر العربي - 110.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التفكير وطريقة في التعبير[1] وأداة لنقل الموقف والشعور، وهو ما تحقق لأغلب شعراء الحبسيات الذين اتخذوا من الصورة أداة للتعبير تلك الظروف والأحوال المتشابكة والتجارب المعقد، ووسيلة لمواجهة ذلك الواقع الشعري أو رفضه فقد مر الشعراء بظروف من النقد السياسي والاجتماعي، وعانوا من القيود المفروضة على كل الحريات وفي مقدمتها حرية القول، التي دفعوا ضريبتها غاليا، ولكنهم برغم ذالك لم يستكينوا و لم يسكتوا وقد مرت بنا نماذج من الرفض القولي الذي ألبس أثوابا شتى منها المباشر الذي يقرأه الآخر ويعاقب على تجاوزاته، ومنها الإشاري الموارب الذي لا يتفطن إليه إلا القليل، وقد وجد شعراؤنا في التراث معينا لا يتضب" يمدهم بالأصوات التي تمده"[2]، ويعلنوا ثورتهم عليه، وليدعوا المجتمع للثورة عليه مثلما أعلن غيرهم على مر التاريخ رفضهم وثورتهم، ويبذلوا في سبيل مواقفهم وأوطانهم مثل الذي بذلوه من تضحيات بل إن تلك الظروف المتردية والاظطرابات السياسية خاصة كانت وراء انغماس الشاعر الحديث في صناعة الصور وتكثيفها وتتبعها إلى حد ملفت للانتباه، كما كانت سببا في اختفائه وراء الصور والأساليب الموارية من إشارات ورموز وفولكلور وأساطير، لتفسير أزمة الإنسان الحديث وإعادة تقييم التجربة الإنسانية على ضوء حاضر مثقل بالمشكلات الحضارية[3] وفي توكيد تلك الغايات المتعددة من تعبير وانتقاد وثورة ورفض وتحد يقول بدر شاكر السياب: "إن الشاعر الآن يعيش أزمته الكبرى، إنه يعيش في عالم لا يعطيه إلا علاقات متدهورة بين الإنسان والإنسان، سوى تعكير وتحطيم لوجوده وإنسانيته إن واقعنا لا شعري ولا يمكن التعبير عنه باللاشعر أيضا، ... لم تكن الحاجة إلى الرمز، إلى الأسطورة أمس مما هي اليوم فنحن نعيش في عالم لا شعر فيه، أعني أن القيم التي تسود فيه قيم لا شعرية ، والكلمة العليا فيه للمادة لا للروح،... راحت الأشياء التي كان في وسع الشاعر أن يقولها، أن يحولها إلى جزء من نفسه تتحطم واحدا فواحدا، وتنسحب إلى هامش الحياة. إذن فالتعبير المباشر عن اللاشعر، لن يكون إلا شعرا، فماذا يفعل الشاعر إذن؟ عاد إلى الأساطير، إلى الخرافات التي ما تزال بحرارتها لأنها ليست جزءا من هذا العالم، عاد إليها ليستعملها رموزا، وليبني منها عوالم يتحدى بها منطق الذهب والحديد..."[4] ويوافقه البياتي في التركيز على الواقع المأزوم، المشحون بممارسات الطغات القائمة على فلسفة الرعب والنفي والسجن ومخلفاتها، واستهدافه بكل ما أوتيه من براعات فنية ووسائل، فيقول في نشوة المنتصر: بالفن على صناع سنين الرعب والخوف والنفي والتشريد :"حاولت أن أنفذ وأغوص إلى أعماق التراث الغربي والإنساني لأجد فيه السمات الدالة، والملامح والوجوه والأقنعة ذات الدلالة المتجددة.. أعتقد أنني حققت...

---

[1] - مصطفى ناصف – الصورة الأدبية – دار الأندلس – ط2 - 147.

[2] - علي عشري زايد - استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر – دار الفكر العربي – القاهرة – 1997– 33 .

[3] - عبد الرضا علي – الأسطورة في شعر السياب – در الرائد العربي – بيروت – ط2 - 1984 – 50 .

[4] - المرجع نفسه - 90.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بعض ما كنت أطمح إليه ، فمن خلال الرمز الذاتي والجماعي ، ومن خلال الأسطورة والرمز، ..عبرت عن سنوات الرعب والنفي والانتظار التي عاشتها الإنسانية عامة، والأمة العربية خاصة"[1].

وهي الغاية نفسها التي يشاركهما فيها جل شعراء الحبسيات ، ما دامت تجربة الحبس في الوطن العربي واحدة ، وما دامت ظروفها متشابهة ، فعلى الرغم من تنوع الصور الشعرية بتنوع ثقافات الشعراء وبيئاتهم واختلاف فترات حبسهم نستشف ذلك الجانب الرمزي الذي حملت به جل قصائدهم وتلك الإشارات التي ترغمنا على العودة إلى المرموز له والذي غالبا ما يكون صناع مآسي الشعوب و مدبري محن الشعراء أنفسهم، أو ثمار آلات دمارهم العجيبة التي تتناسل في الظلام وتتوالد في أصعب الظروف وأقساها.

فبسبب سلسلة الهزائم والنكسات التي منيت بها معظم الأنظمة العربية تحولت إلى أدوات قمعية دكتاتورية فاقدة لكل مبررات الاستمرار غير شريعة العنف والقمع، وأصبح أشد ما يخيفها الكلمة، ولذلك "أصبحت مواجهة تلك الاعتداءات الثقافية أشد قسوة وأكثر كلفة في ميزانيات تلك الأنظمة من الاستعداد لمواجهة العدو وقهر التخلف"[2] وكان أمام الشعراء خياران إما التحايل على هذه الأنظمة أو الصمت، وقد انحاز جلهم لخيار الكلمة وتفننوا في التعامل مع ذلك الواقع وكأن مهمتهم ومهمة القصيدة الحديثة تحددت في " تنسيق أحزان العالم"[3] التي هي أحزانهم، وأصروا على مواجهتها بكل ما أوتوا من مواهب وطاقات فنية تقوم في الغالب على التصوير الرمزي إذ هو أقرب إلى التلقي وأبلغ تأثيرا من الحقيقة الواقعة، والتفاهم بالرمز شيء مألوف بين الناس، نجده ماثلا في الخرافات والأساطير والحكايات والنكات، "فهو يأسرهم ويجذبهم إليه بقوة خفية لا تجذبهم بها الحقيقة الواقعة"[4]، ذلك أن للماضي حضورا حتميا لا تستطيع أية ثورة أن تنفيه لأنه أكثر سموقا واستعصاء على الهدم[5]، ويكفي أن الكثير من دعاة الحداثة لم يستطيعوا التخلص من أسره.

فقد اقتنع الشاعر المعاصر أن استخدام الرموز التراثية يضفي على العمل الشعري عراقة وأصالة ويمنح الرؤية الشعرية نوعا من الشمول والكلية ويجعلها تتخطى حدود الزمان والمكان، ويتعانق في إطارها الماضي مع الحاضر[6]، فراح يستمد عناصر رموزه الشعرية من مصادره المتعددة "باعتبار هذا التراث منجم طاقات إيحائية لا

---

[1] - محمد علي كندي - الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث (السياب ونازك والبياتي)- دار الكتاب الجديد المتحدة – لبنان – ليبيا– ط 1- 2003 - 59.

[2] - المرجع السابق - 160. وانظر أيضا 169.

[3] - محمد راضي جعفر – الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر – (مرحلة الرواد – دراسة) – منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق 1999 – 102.

[4] - عز الدين إسماعيل – الشعر العربي المعاصر – 138.

[5] - إحسان عباس – اتجاهات الشعر العربي المعاصر – 110.

[6] - علي عشري زايد – عن بناء القصيدة العربية الحديثة – 121.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ينفد له عطاء... حيث تعيش هذه المعطيات التراثية في وجدانات الناس وأعماقهم تحف بها هالة من القداسة والإكبار لأنها تمثل الجذور الأساسية لتكوينهم الفكري والوجداني والنفسي"[1].

وفوق هذا فإن لاستخدام الرموز التراثية أبعاده الجمالية الفنية، إذ تمنح القصيدة المعاصرة طاقات تعبيرية غير محدودة وتربطها بمعين لا ينضب من القدرة على الإيحاء والتأثير، إذ يكفي استدعاء صورة من صور التراث لإثارة كل الإيحاءات والدلالات التي ارتبطت بها في وجدان المتلقي[2]، وإلى جانب ذلك فإنها استجابة لإحساس الشاعر المعاصر بالغربة في عالم مليء بالتناقضات.

وفي إطار العودة إلى التراث رأينا الشعراء يرحلون إلى عوالم الأساطير الغامضة بطاقات أبطالها الخرافية، يستمدون منها القدرة على البقاء والاستمرار، بل والانبعاث بعد كل رحلة من رحلات عذابهم مع السجان والجلاد وسائر الطغاة، ويتقمصون في بعض الأحيان شخوص بعضها، كما وجدناهم يغوصون في أعماق التاريخ الإنساني القديم بأحداثه الشبيهة بأحداث الحاضر، فكأن التاريخ يعيد نفسه، وبشخصياته التي لا تكاد تخرج في شعر الحبسيات عن إحدى الصورتين إما الطاغية والجلاد والقاتل وإما السجين والضحية والشهيد، ويرجعون إلى التاريخ الحديث القريب منهم بنضالاته وأبطاله ومآسيه.

ونكاد نتحسس ضيق هذه التجارب الإنسانية الكثيرة عن احتواء مرارات الواقع، فإذا بهم يبحثون عن نماذج أخرى من صور الظلم والطغيان والخيانة والعطاء والتضحية في التراث الديني بمشاربه المختلفة، وإذ لم تلب هذه جميعا حاجتهم، راحوا يصنعون بعض صورهم من مظاهر الطبيعة وبخاصة الغاضبة منها تعبيرا عن ثورتهم وتمردهم ورفضهم، والمتوحشة تعبيرا عن الآخر المستبد، وقد مرت بنا بعض النماذج الشعرية في أثناء قراءتنا للمعجم الشعري.

ولم يقف أمر الصور الشعرية الحديث عند ذلك التراث الإنساني الغني بأحداثه وشخصياته، فهناك من الرموز والشخصيات المعاصرة ما لا يقل عمقا وثراء في الدلالة والتجربة عن الرموز والشخصيات والأساطير القديمة والتي استعان بها الشعراء في التعبير عن تراكمات الوقع العربي.

وإلى جانب ذالك الميراث البشري والمتنوع راح الشعراء يصنعون في أحيان أخرى صورًا قصصية ملحمية درامية توازي مآسي الحاضر وأحداثه الدامية، وتترجم عن المفاهيم والقيم الحديثة القائمة على معادلة القوة والسلاح أو المادة أو كما عبر عنها السياب" بالذهب والرصاص"، ويتخففون فيها من ظروف الإبعاد الإجباري والجدران والقيود والوحدة ، إذ ينغمس مع شخوص قصصه ومسرحياته ويتوحد بأحداثها ويستحضر في وحدته وخلواته أطرافا يحاورها ويرغمها على سماع همومه وانشغالاته، ويحاول إقناعها بمواقفه

---

[1] - المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[2] - علي عشري زايد – استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر - 16.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الثابتة الصارمة ، وربما كانت الصورة الدرامية من مميزات القصيدة الحديثة التي أخذت في التخلص شيئا فشيئا من الطابع الغنائي[1].

- المـــوروث التـــاريخي :

إن التاريخ بأحداثه وشخصياته ليس مجرد ظواهر كونية عابرة تنتهي بانتهائها وإنما هو ميراث الأجيال التالية تتعلم منه وتعتبر بدروسه وتجدد دلالاته وتتوارثها، فدلالة البطولة أو الانتصار أو العدل أو الظلم تبقى صالحة للتكرار في صورة جديدة قابلة لحمل تفسيرات أخرى جديدة وهذه الدلالة هي التي استغلها الشاعر للتعبير عن تجربته الشعرية[2].

يمثل التاريخ برافديه القديم والحديث وبمصادره المختلفة عربية وإسلامية وإنسانية موردا خصبا وملاذا فنيا استلهم منه الشاعر العربي الحديث صوره واستعان بقصصه وحوادثه في معالجته لمشاكل العصر الراهنة واستحضر شخوصه، يلبسها حينا قناعا ويرمز بها حينا آخر إلى بعض شخصيات القرن التي تتقاطع معها ويترجم بها جميعا عن ذلك المزيج المعقد من مشاعر الإحباط والحزن والتمزق واليأس والغضب والنقمة والتمرد، ليس عن مشاعره فحسب، بل عن مشاعر الأمة، فهو يعبر عن أشواق المجتمع وأحلامه وفلسفاته وحكمته وأحزانه وأفراحه[3]. فإذا هجا فإنه لا يهجو كسرى أو أبرهة أو فرعون أو الحجاج أو هتلر، وإنما يهجو الطغيان ويهجو الاستعمار ويهجو المستبدين أنى كانوا، وإذا رفض فإنه لا يرفض الأشعري أو يهوذا الاسخر يوطي أو رجل الصليب الأحمر ولكنه يرفض الخيانة في كل عصر وإذا استدعى بطولات الماضي فإنما لينهض الهمم ويعلم الناس لغة الرفض والمواجهة التي كادت تنسى تحت سيارة الذل والخضوع وينقل إليهم دروسا في التضحية والنضال وقد نجح كثير من الشعراء في "توظيف التراث توظيفا يعوض عن "الحاضر الخاسر" بكل اهتراءاته النفسية والاجتماعية والسياسية كان وراء كل استدعاء تراثي قضية"[4].

وتتفاوت درجات الحضور عند الشعراء فحينا نلمح ومضات إشارية خفيفة لحدث أو شخصية وحينا آخر يستحضر الشاعر الشخصية بإحدى مقولاتها الشهيرة، كما نجدهم في بعض الأحيان يراكمون الصورة التراثية دون حاجة النص إليها جميعا، وقليلة هي مواطن الغوص والتفاعل الكلي بالتراث والتوحد به والتماهي في رموزه. فمن **الميراث الفارسي** القديم نجد إشارة سريعة إلى الإيوان وصاحبه**"كسرى"** عند البياتي، لا تكاد تتجاوز المعنى العام الذي تمحورت حوله قصيدة "العائدون" وهو الكناية عن ضرورة زوال الظالمين جميعا

---

[1] - بشرى موسى صالح – الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث – المركز الثقافي – بيروت – الدار البيضاء – ط4 - 1994 – 69.

[2]- علي عشري زايد – استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر - 120.

[3]- جابر قميحة – التراث الإنساني في شعر أمل دنقل –هجر للطباعة والنشر والتوزيع –القاهرة – ط1 - 1987 – 25 -26.

[4]- المرجع نفسه - 27.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"كسرى وهولاكو وغيرهما" ومحو عروشهم على أيد من استكانوا حينا من الدهر مثل العبيد[1]، ومثلها صورة **نيـــرون** الإمبراطور الروماني الذي تمادى في الظلم وانتهى هاربا خائفا متخفيا ثم منتحرا ، ومانيرون روما بالأول من أمثاله في التاريخ ولن يكون آخرهم فنيرون موجود في كل العصور كما أنه ليست نهاية أي نيرون آخر بأفضل من نهاية نيرون روما ،"[2]فلن تبقى إلا الشعوب والبلدان المقاتلة :

"نيرون مات، و لم تمت روما .../ بعينيها تقاتل ،" فرعون مات / ونيرون مات / وكل السبايا ببابل /عادت إليها الحياة"[3] كما يستعير محمود درويش قصة هزيمة **طروادة** الأولى في أكثر من مواضع ويتخذها رمزا للمدن الفلسطينية المتساقطة واحدة تلو أخرى :

أنا أبحث عن باب،وآه... لم أجد جسمك في القاموس / يا من تأخذين / صيغة الأحزان من طروادة الأولى ولا تعترفين[4].

وتغدوا **أهـــرام** خوفوا عند البياتي رمزا للطغاة المتجبرين وشاهدا مضرجا بدماء العبيد الذين أعلوا صروحها تحت السياط في كل الأزمنة :

و لم تزل أهرام خوفوا ساخرات / من الحزان الكادحين/ وعلى هشيم صخورها ، لما تزل حمراء / آثار السياط[5].

ولكن صمت العبيد وأناتهم لن تدوم وإن طال بها الأمد، فلا بد لهم من ثورة ولا بد لصمتهم من بركان جارف يتفجر في وجه الطغاة ويجرف مظالمهم، ولا بد لهم من قائد يعلمهم فنون الرفض ويتقدم صفوفهم، إنه سبار تاكوس المتجدد عبر العصور تجدد عهود الظلم[6].

من الواقع والأحداث الجاهلية يستحضر مظفر النواب **حرب داحس والغبراء** التي أكلت من وقت وفرسان وأموال القبيلتين أربعين عاما، فهو عندما يتأمل وطنه المتعب المنهك والمستنزف الطاقات والخيرات يظنه خارجا من معركة طويلة ضروس أنت على أخضره ويابسه كأنها من مخلفات تلك الحرب المريرة :

وطني هل أنت بلاد الأعداء
وطني هل أنت بقية (داحس والغبراء)[7].

---

[1] - البياتي – الديوان – 182/1.
[2] - الموقع الالكتروني : www.AR-MOHARER.NET نيرون أمريكا.
[3] - محمود درويش – الديوان 273 –13-161. وانظر أيضا سميح القاسم – الديوان 89.
[4] - محمود درويش – الديوان 273 وانظر أيضا ص 153-154.
[5] - عبد الوهاب البياتي – الديوان – 185/1.
[6] - معين بسيسو - الأعمال الشعرية الكاملة - 202.
[7] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة - 476.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويشكل **التاريخ الإسلامي** أكبر رافد لدى شعراء الحبسيات لطول هذه الفترة وتعقد مراحلها وكثرة أحداثها وصراعاتها ودموية أغلبها، ليس بصوره المشرقة وانتصاراته وإبداعاته في شتى مجالات العلوم، فقليلة هي صور حضور ذلك الجانب المضيء وإنما بصوره المظلمة الدامية الشبيهة بإحباطات الراهن العربي وخياباته وهزائمه المتتالية وقد توزع ذلك الحضور بين الأحداث والشخصيات وإن كانت الغلبة لهذه الأخيرة لأنها بدورها مرتبطة بالحدث إن لم تكن هي صانعته.

فمن الأحداث التاريخية الشهيرة نجد إشارات عابرة لكل من غزوة بدر ومعركة اليرموك عند مظفر النواب[1]لا ترقى إلى مستوى الصورة الشعرية أو حتى الرمز أو الاستعارة وتحضر **أحداث الردة** أيام الخليفة أبي بكر الصديق في ثوب ردة عصرية جديدة ولكن لا أحد يستطيع مجابهتها أو حتى إنكارها أو إنكار مظاهرها الكثيرة، لأنها ليست ردة الشعوب بل ردة الحكام وقد باعوا كل قضايا الأمة، فمن يقدر على إعادتهم أو حتى الثبات في وجه الفساد وقد غدا عهرا دوليا : من يملك إيمانه...؟/

في زمن الردة.../ يا سادة / والبيع المجاني / وتزوير التأريخ / ومسخ الحاضر/ من يملك منا جرأته / كي يعلن ما يخفي / أو يخفي.. ما يعلم.../ كي يعطى للزمن الردة .. عنوانه ... / كي يعطى اسما... وصفات/ للعهر الدولي / لمزاد علني / باعوا فيه قضيتنا.../ أتحدى يا سادة / أن يعلن أحد منكم/ عنوان قضيتنا[2].../ وتتداخل عند مظفرا النواب أحداث الردة بأحداث **موقعة الجمل** بأحداث كربلاء وغيرها من الردات المتجددة عبر العصور، فيرى موقعة الجمل ردة وخروج معاوية في صفين ردة ومقتل الإمام علي ردة ، ومقتل ابنه الحسين في حادثة كربلا ردة وتولي يزيد الخلافة ردة وتعقبهن ردات تظل تبدل جلدها كما تفعل الأفعى، ولا يملك الشاعر أمام تكراراتها سوى تكرار اللازمة الجريحة " قتلنا الردة يا مولاي " والتي لا يقصد بها الردة الأولى المعروفة تاريخيا، وإنما ما عرفته الحركات الثورية الجادة والمبشرة من نكسات على يد المرتدين عبر التاريخ[3]، بل إن كثيرا من قادتها يبدأون ثائرين وينتهون بعد الفوز مرتدين عن كل ما حملوه من شعارات ودعوا إليه من قيم ووعدوا به من تغيير وربما كان العراق الحديث نموذجا لتلك التقلبات :

أسيف علي/ قتلتنا الردة يا مولاي / كما قتلتك بجرح في الغرة / هذا رأس الثورة يحمل في طبق في قصر يزيد / فيا لله وللحكام ولرأس الثورة / ويزيد عمان على الشرفة / يستعرض أعراض عراياكم / ويوزعهن كلحم الظأن بجيش الردة/ قتلنا الردة..../ قتلتنا الردة..../ قتلنا أن الواحد منا يحمل في الداخل ضده / من أين سندري أن صحابيا / سيقود الفتنة في الليل بإحدى زوجات محمد/ من أين سندري أن الردة تخلع ثوب الأفعى/ صيفا وشتاءا تتجدد.

---

[1] - المصـــدر نفسه - 225، 473.

[2] - مصطفى المهاجر – غائب كالوطن حاضر كالبكاء - 104-105.

[3] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة - 456 - 458.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما تطل **حادثة كربلاء** إطلالة خفيفة في إحدى قصائد محمود درويش[1]دون أن يتوغل في تفاصيلها أو آثارها.

أما الشخصيات الإسلامية فكثيرة، منها الأبطال الذين انتهوا في الغالب نهايات مأساوية غير منتظرة، ومنها الحكام والأمراء والولاة لكن ليس صناع الصفحات المنيرة في التاريخ الإسلامي وإنما صناع المآسي والمحن المتعاقبة ، ومنها الشخصيات الثقافية في صراعها المرير مع السلطان .

من أوائل هذه الشخصيات المستدعاة"**عمار بن ياسر**"، استحضرها معين بسيسو في قصيدته" إكليل نار"وكتب تحتها إهداء خاصا لهذا الصحابي ، الذي تفنن المشركون في تعذيبه وكانت النار إحدى وسائل تعذيبهم ، وكان الرسول (ص) يمر به ، ويمر يده على رأسه ويقول: يا نار كوني بردا وسلاما على "عمار" كما كنت بردا وسلاما على إبراهيم"[2]، وربما كانت هذه الحادثة وراء عنوان القصيدة، ولا يقف الشاعر عند هذه الحادثة وإنما ينتقل إلى طاقات عمار بن ياسر "إيمانا وصبرا وثباتا " التي هزمت الشرك وأطماعه وأصنامه، فقد رأى ببصيرته أصناما جديدة ورأى الشر من حواليه يتوالد ويخصب كشجرة الزقوم ولا بد لهما من نار عمار جديد تأكلهما قبل استفحال شرهما :

شجر الزقوم قد أخصب، /لم يسقط مطر /...وتعالي نار عمار،/ فقد دق لك الطبل الحطب / وكليه وهو في أقماطه ،/ هذا الحجر/. قبل أن يحبو، / وأن ينمو، / وأن يغدوا صنم[3]...

ومن الشخصيات التراثية أبي ذر الغفاري رمز الرفض أولا ثم الاضطهاد والمنفى و التي غالبا ما تستدعي شخصية أخرى معاصرة لها و تتقاطع معها في أحداث كثيرة هي شخصية عثمان بن عفان ، من الشعراء الذين اختصوها بقصيدة كاملة معين بسيسو في قصيدته "من أوراق أبي ذر الغفاري"[4]، وفيها لم يقف عند الأحداث الواقعية المعروفة ومواقف أبي ذر الرافضة لبعض صور الترف وخروجه صامتا من المدينة ، وإنما جعل أبا ذر يعود من جديد بعد ما ضجر من الجنة ونعيمها ما دام في الدنيا أمثال معاوية يعبثون بشعرة الذئاب ومازال أمثال عثمان يهبون يمينا وشمالا خيرات البلاد لغير أهلها ، ومازالوا يخيرون الرافضين لمثل هذه السياسة بين السيف وكيس الذهب ، وما زالوا يزرعون مخبريهم يتسمعون كل سقطة لسان ، ويظهرون من البطولات ضد شعوبهم بينما تقصر سيوفهم عن مقارعة الأعداء الحقيقيين . جعله بسيسو يعود ليكفر عن خطيئة السكوت التي تراكمت عنها أخطاء أخرى عبر التاريخ ، وينطقه على امتداد القصيدة ببقية الكلام التي ما زالت في فمه ، بقصة نفيه المتكرر عبر التاريخ وربما قصة خروجه وصمته الذي نلمحه في عبارة" متُّ لم تزل بقية من الكلام في فمي"، ويقول نيابة عنه ما لم يقله ذات يوم ، مع أنه كان من أوائل المجاهرين بالدعوة وهي

---

[1] - محمود درويش - الديوان - 299.

[2] - خالد محمد خالد – رجال حول الرسول – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – لبنان – ط1 - 2003 – 128

[3] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة -267 -268.

[4] - المصدر نفسه - 259 - 262.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في قمة سريتها ، فعندما أمره الرسول -ρ- أن يرجع إلى قومه حتى يبلغه أمره قال له : لا أرجع حتى أصرخ بالإسلام ، وقد فعلها مرارا في الكعبة وعذب من أجلها مرارا ، ثم تسلم على يده قبيلته ، ويستمر الرجل في جهره بالحق وتجريد لسانه البتار إلى أن استدعاه الخليفة عثمان من الشام وطلب إليه الإقامة في المدينة إلى جواره فأجابه أن لا حاجة له في دنياهم ، واستأذن منه في الخروج إلى الربذة أين التزم الصمت ، ومشى وحده ومات وحده كما قال المصطفى -ρ-[1]، فهذا الذي كان يهاجم الذين يكترون الذهب والفضة انتهى محاصرا بالمخبرين يتنصتون على سقطات لسانه المهاجرة بالحق ، وبالسيف الذي صار قاب قوسين منه أو أدنى ، وكأن الشاعر يرفض هذه النهايات لكل الثوار ، لذلك يتكلم نيابة عنهم جميعا بما كان يجب أن يقال :

وسار وحده ومات وحده وعاد، / يصيح مت لم تزل / بقية من الكلام في فمي / نفيت مرتين ، مرة هنا ، / ومرة هناك في الحديقة المعلقة / وعدت يا معوية / ألقى بشعره الذئاب/ في مغازل العناكب المشردة/ السيف ليس مثلما تصورون والكتاب/ يأيها الذئاب ،/ قسمتم الأسلاب/ فللمهاجرين حفنة من الزقوم ،/ جرعة من الغسلين للأنصار،/ ... في كل ليلة يدق بابي السياف/ كيس النضار في يمينه ،/ والنطع في يساره/ يقول لي أثقلت بالكلام ،/ كفة الميزان...[2].

وهناك تماثل دلالي بين حياة أبي ذر وحياة الإنسان الفلسطيني المعاصر في ثورته وسيره وحيدا ونفيه مرتين وموته وحيدا فالقصيدة "تعقد مشابهة موجبة بين أبي ذر من جهة والإنسان الفلسطيني المشرد والمنفي من جهة ثانية ، كما أنها تتخذ موقفا تاريخيا من الأمراء وغيرهم الذين يكترون الذهب والفضة في عصر أبي ذر وعصرنا الذي نعيش"[3].

وإذا غامت عينا مضفرا النواب تحت سياط الجلاد، فإنه يستمد الصبر والثبات من مجموع الثائرين قديما وحديثا، من علي وأبي ذر و باتريس لومبا وتشي غيفارا Chiguivara وماركس وماوتسي تونغ وكثيرون آخرون لا يتذكرهم لأن الثوار لهم وجه واحد في روحه[4].

ويسترجع هو الآخر أبا ذر الغفاري إلى الشام التي أخرج منها ليسائل بعض من فيها إذا كان قد ندم على أفعاله ، ولكنه يفجع بما آلت إليه البلاد العربية التي لم تعد بعض أطرافها عربية ، وبخاصة بعد الاجتياح الإسرائيلي مما اضطر الشاعر على لسان أبي ذر في سخرية قاتلة مريرة إلى قراءة الفاتحة على قبور الشهداء بالعبرية الفصحى.

وينتهي أمام صدمات العصر الكثيرة إلى دعوة الفقراء من جديد إلى عقد اجتماع طارىء أو جائع لتدارس الأوضاع في قصيدته "أبو ذر يدعو لاجتماع جائع" و"ليبين استحضار أبي ذر ارتباطه بهموم الجائعين

---

[1] - خالد محمد خالد – رجال حول الرسول - 38-51.

[2] - معين بسيسو - الأعمال الشعرية الكاملة - 259 - 262.

[3] - عالم الفكر - عدد 2 - مجلد 3 - المقال السابق - 149.

[4] - مظفر النواب - الأعمال الشعرية الكاملة - 498.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفقراء ، ليتحول غصب الغفاري وإيقاع النواب الغاضب إلى نداءات متصلة بالثورة"[1]وتلك طريقة مظفر في حشد الرموز التراثية الغاضبة المعبرة عن عميق ألمه وفورة احتجاجه وقمة وعيه بالتراث :

أتيت الشام / أحمل قرط بغداد السبية / بين أيدي الفرس والغلمان / مجروحا على فرس من النسب / قصدت المسجد الأموي / لم أعثر على أحد من العرب / فقلت أرى يزيد / لعله ندم على قتل الحسين / وجدته ثملا / وجيش الروم في حلب ... صليت الشجى / وقرأت فاتحة على الشهداء بالعبرية الفصحى / صرخت بحارة الفقراء / خلف مخيم اليرموك / يدعوكم أبو ذر إلى عقد اجتماع جائع/ لتدارس الأوضاع[2].

ويستثمر مرة أخرى شخصية **عثمـــان** والظروف المحيطة بها والتحول الذي آل إليه أمر الحكم العربي من الشورى إلى التوريث ليعبر عن الواقع العربي الممزق بحرب الزعامات والكراسي المورثة والألقاب المورثة ويتعجب كيف لهؤلاء المنشغلين أبدا باقتسام الميراث ، المغيبين لأكبر أساس في الحكم وهو "الشورى" أن يتسترجعوا فلسطين أو حتى شبرا منها وهم غارقون في طقوس اقتسام الأسلاب ، مصّرون على ألا يدعوا للجياع مقدار ذبابة ، ولذلك يعلن رفضه المطلق لهم وانحيازه للجماهير المستضعفة ، ويدعو على نفسه إن هو انحاز يوما إليهم ، يقول ساخرا من مزاعم الشورى وتبعاتها من الشعارات :

يقولون شورى أيا شوهة بوهة / أي شورى / قد قسم الأمر بين أقارب عثمان ليلا / ولم يتركوا للجياع ذبابة /وكيف تقام على ذاك النظام فلسطينكم / بل أقل كثيرا /أنا ثكلتني الثواكل إن كنت أفهم هذا / وأنحاز يوما لغير الجماهير[3].

وإذا استنجد معين بسيسو بهذه الشخصية التراثية، أو شخصيات المشابهة لها في عصره، فإن مظفر النواب فإن مظفر النواب يستدعي شخصية **الإمـــام علـــي** يرسل إليه سلامه ويشكو إليه ما آل إليه حال الأمة كلها ، من ذل وهوان ويستدعي إلى جانبها الكثير من الشخصيات المعاصرة لها ، التي ساهمت في تعكير الأوضاع ذات يوم فيذكر عمرو بن العاص وأبي سفيان وعثمان وغيرها من الشخصيات التي وإن طواها التاريخ فإن أعمالها ما زالت تتوارث من جيل إلى جيل ، وربما كان الخذلان أقواها ، فلو ظهر اليوم علي جديد لخذله حتى أنصاره بحججهم الواهية التي أطلقوها ذات يوم وخلدها الإمام في إحدى خطبه الشهيرة إذا أمرهم بالجهاد صيفا قالوا هذه حمارة القيظ أمهلنا ينسلخ عنا الحر ، وإذا أمرهم بالخروج شتاء قالوا هذه صبارة القر أمهلنا ينسلخ عنا البرد[4]. وما زالوا يتحججون بها في كل زمان ومكان ، ولو عاد لألبت حوله كل العصبيات القبلية لأنها هي الأخرى عادت إلى العصر وإلى رفضه خليفة لأن كفة الشورى ستميل مرة أخرى نحو المال والحكم عليه كما حكم على كل المناضلين الأحرار بأنه زعيم المستضعفين والسوقة مثلما قيل له ذات يوم،

---

[1] - عادل الأسطه - الأعمال الشعرية الكاملة - 537 - 538.

[2] - المرجع نفسه - 55.

[3] - مظفر النواب - الأعمال الشعرية الكاملة - 431.

[4] - انظر نهج البلاغة – تحقيق وتنميم وتنسيق السيد صادق الموسوي –الدار الإسلامية – بيروت – ط1 - 402-403.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بل وقيل للرسل الكرام مثل ذلك كما جاء في القرآن الكريم { **وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ** }[1] يقول الشاعر : مستحضرا شخصيات أخرى معاصرة له **(معاوية- عثمان- عمرو بن العاص)** :

أحمل لبلادي حين ينام الناس سلامي /.. لشوارعها / للصبر / لعلي يتوضأ بالسيف قبيل الفجر / أنبيك عليا ما زلنا نتوضأ بالذل / ونمسح بالخرقة حد السيف / ما زلنا نتحجج بالبرد وحر الصيف / ما زالت عورة عمر بن العاص معاصرة / وتقبح وجه التاريخ / ما زال أبو سفيان بلحيته الصفراء / يؤلب باسم اللات العصبيات القبلية / ما زالت شورى التجار ترى عثمان خليفتها / وتراك زعيم السوقيه / لو جئت اليوم لحاربك الداعون إليك / وسموك شيوعيا[2]...

ويستدعي مرة أخرى أحد مواقفه البطولية وقصة باب خيبر الشهيرة ليسقطها على أحد الأبطال المعاصرين" الشهيد خالد أكر" في قصيدته "قل هي البندقية أنت" الذي دخل الأراضي الفلسطينية بطائرة شراعية وقتل في معسكر إسرائيلي ستة جنود وأصاب العشرات منهم وأدخل في نفوس الكثيرين الرعب وانتهى بالشهادة[3]، وكانت انتفاضته الفردية تلك الشرارة الأولى للانتفاضة الفلسطينية من الداخل ولذلك نظر إليه مظفر النواب نظرة خاصة إذ رآه وقد تجاوزت آثار شجاعته الجليل إلى تعطيلات أخرى وقتلى آخرين خارج فلسطين نحو قمة عمان والرشوات ومخلفاتها فما المقاومة إلا نتاج الظلم المتراكم ، إنها حالة شبيهة ببطولات علي في غزوة خيبر وبلائه الحسن وتمترسه بالباب عند ما وقع منه ترسه، روى ابن هشام في سيرته أن ثمانية من رفاقه اجتمعوا ليقلبوها فما استطاعوا[4]، يقول :

اهبط عليهم فإنك قرآننا / قل هي البندقية أنت/ ومالك من كفو أحد/ بين قتلاك قمة عمان/ والرسوات وأقساطها/ ولسان اليمين الطويل /الله أكبر والبندقية/ عاد علي إلى باب خيبر/ يا علم سجل خلايا العروبة تنقل تلك الشجاعة /جيلا فجيلا[5]...

وليست البطولة وحدها القاسم المشترك بين علي خيبر وعلي العصر ولكن العدو أيضا يعيد نفسه ، فكلاهما قاتل اليهود وانتصر عليهم بطريقته الخاصة الأول بما يشبه المعجزة والثاني بالشهادة .

وفي الفضاء نفسه ينقلنا الشاعر إلى شخصية أخرى بارزة ساهمت في تحويل مسار الإمام علي من الثورة والرفض إلى السلم والمبايعة والاستشهاد ، هي شخصية **أبي موسى الأشعري** الذي ارتضاه الإمام وأنصاره ممثلا عندهم في حادثة التحكيم ، ويتخذ منها رمزا لخذلان الصاحب صاحبه ، وأمثاله زمن الشاعر كثيرون لا

---

[1] - سورة هود – الآيــة 27.

[2] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة – 453.

[3] - الموقع الإلكتروني أدب المقاومة – مقال جهاد الرجيبي.

[4] - ابن هشام - السيرة النبوية - دار الكتاب العربي - بيروت - 2005 - 620.

[5] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة – 354.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يمكن إحصاؤهم أو التنبؤ بهم ، لذلك هو يلمح بعدم التعويل عليهم وبعدم الثقة فيهم أو المراهنة على وساطاتهم الشبيهة بالأشعري الذي رجع إلى صاحبه خاوي الوفاض ، أو بخاتمه الذي خلع بواسطته صاحبه فلن تنتهي وساطاتهم إلاّ بتقديم مفوضيهم وأصدقائهم إلى المقصلة :

ففيم الرهان على خاتم الأشعري / وفيما الذهاب لجلب الضحية للمسلخ الدولي / ولف العمامات زيفا على القبعة.[1]

ويكرر النصيحة نفسها في قصيدة "الاتهام" الموجهة إلى كل الثوار والمناضلين وفي مقدمتهم خالد الإسلامبولي إذ كيف يمكن الوثوق بمن لا يثق هو نفسه في مواقفه :

مالنا والطلاسم والحظ/ انهض إلى حرية أكملت وعيها نحتكم / ... اقتحم واحترق / لا تسلم عنانك للأشعري ولا تتزلق / أوثقت بمن بمواقفه لا يثق / ربما خدعتك المقاييس كل بتاريخه يتلصق .[2]

وغالبا ما يستدعي الحديث عن علي استحضار **الأســـرة الأمويـــة** كلها وعلى رأسها معاوية وابنه يزيد وسفاح ولاتها الحجاج بن يوسف . من ذلك إشارة مظفر النواب إلى الكرسي الأموي ومعاوية ويزيد في مقاطع سبقت الإشارة إلى بعضها في ثنايا حديثنا عن الردة ، وتضمينه في مقطع آخر مقولة نسبت إلى معاوية "لله جنود من عسل"[3] ويستحضر في مقطع من وتريات ليلية" كلا من معاوية "رمز شورى التجار وعلي "رمز نداء الثورة وملك الثوار"، وما ذلك إلاّ للتعبير عن "الواقع العربي الذي يتداعى منهارا في النص"[4]وفي رؤية الشاعر له في آن .كما أشار معين بسيسو إلى مقتل عثمان لا كحادث تاريخي ولكن كورقة سياسية رفعتها الأسرة الأموية واتخذها شارا لغايتها الأولى والأخيرة " الكرسي" وظلت ترفعها شعارا دون أن تفعل شيئا أو تنتصر أو تقتص لعثمان ، وظل الناس يتخذون لهم قميصا يخفي حقائقهم فمن تلك القمصان المرفوعة والملوح بها على الساحة العربية المعاصرة القضية الفلسطينية التي أظهر الجميع تبنيهم لها ولكن لم يرفعوا إلا الشعارات والأبواق بينما اليهود يلتهمون المدن الفلسطينية واحدة تلو الأخرى :

... قمصان عثمان التي بليت على الأيدي ، / ومصحفه المخضب بالدماء / في كل سارية قميص خافق / وفم على بوق معار/ يافا يبطن الحوت مازالت / يجوب بها البحار.[5]

ومن الشخصيات الأموية التي صارت رمزا للظلم والتجبر شخصية **الحجـــــاج** التي استعارها الشعراء لتصوير واقعهم المليء بأمثال الحجاج الذي جرد سيفه وسجنه لردع كل معارض وخنق كل صوت رافض أو محتج ، إذ يعد الحجاج من أكثر هذه الشخصيات شيوعا في الشعر العربي المعاصر ، ربما لأنه أكثرها "تمثيلا

---

[1] - المصدر نفسه - 423.

[2] - المصدر السابق - 540.

[3]- المصدر نفسه -373.

[4]- عادل الأسطه –مظفر النواب – الصوت والصدى – 54.

[5]- معين بسيسو الأعمال الشعرية الكاملة -238-239.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لمعنى البطش والاستبداد فهو في رؤيا شعرائنا رمز لكل قوة باطشة تعمل على قمع الحق بالقوة وعلى إخماد كل صوت يحاول أن يرتفع في وجه طغيانها"[1].

ومن الشعراء الذين استحضروا الحجاج معين بسيسو الذي استدعى في قصيدته " الحجاج والفيلسوف الأخرس"مقاطع من خطبته الشهيرة في أهل العراق" إني أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها كأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللّحي"[2]لينطق بها على لسان صاحب العراق وسفاحها الجديد وقد خبره أثناء إقامته بالعراق عن قرب وكاد يمتد إليه أذاه لولا مغادرته العاجلة ، وانتقده أكثر من مرة وناداه باسمه في إحدى قصائده وسماه عدو المطبعة[3]، ويلمح القارىء بطش الحجاجين القديم والمعاصر بدءًا بالعنوان المحمل بطرفي المعادلة، الحجاج ممثلا في السيف والبطش ، والفيلسوف بالثورة والرفض والحجة والمنطق ولكن الشاعر أضاف إليه صفة الأخرس التي هي من نتاجات شطر المعادلة الأول "الحجاج" بكل دلالاته والمجذوم وما توحي به الصفة من عزل لهذه الشريحة أو ابتعاد الناس عنها لغاية سياسية أيضا هي الخوف من بطش الحجاج ، فكأن الفكر والفلسفة جذام يجعل الناس تفر من حامله ، وانتهاء إلى القصيدة حيث دعا عليه بالخسران على نمط الصيغة القرآنية لما أجراه في العراق من دماء وما أحدثه من منكرات أغرقت المدينة في دوامة من النواح المتواصل ، يقول في مطلعها :

... وأرى رؤوسا أينعت وأرى القطاف / وأرى الدماء ،/ بين العمائم واللحى تبت يداك .[4]

كما استدعى مظفر النواب شخصية الحجاج للغاية نفسها ، فقد تفاقم أمر الطغيان وأصبح لكل بلد حجاجه ، ولكن الشاعر لا يكف عند حد المقاربة بين العصرين وشرح الحاضر بالماضي أو التعبير بالتراث عن الواقع، وإنما جعل من نفسه طرفا في الحدث ومثل دورا في المشهد الحجاجي المعاصر لم يعرفه التاريخ، وقدم صورة لما يجب أن يكون ولما كان الشاعر يتمناه أن يكون. فلا أحد يستطيع الوقوف في وجه حجاج هذا العصر غير الشاعر نفسه، وقد أحدث بوقفته تلك خلخلة في الرأي العام الذي لم يعتد لغة الوقوف في وجه الحجاج وقمعه للمجتمع العراقي المستكين ، فلو أن سيفا واحدا استل بالحق ذات يوم لأقصي الحجاج وتحرر التاريخ العربي كله من قبضة الذل ولكن حتى وإن وجد في العراق مثل مظفر النواب الرافع عقيرته بالثورة فلا أحد يستجيب لندائه لأن الناس ألفوا الذل والهوان ، وأصبحوا يصابون بالذهول إذا كفر أحد بالحجاج . وإذ يقدم الشاعر هذا المشهد من الواقع العربي فإنه ينتهي إلى النتيجة الحتمية نفسها التي انتهى إليها في حديثه عن انشغال الحكام العرب باقتسام الأسلاب والأملاك فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية ، فكما انشغل الحكام

---

[1]- علي عشري زايد – استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر- 124-.

[2]- الذهبي - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام - تحقيق عمر عبد السلام تدمري - دار الكتاب العربي - بيروت - ط1 - 1990 - 321/5. (وفي رواية : وحان قطافها وإني لصاحبها).

[3]- معين بسيسو- الأعمال الشعرية الكاملة - 93.

[4]- المصدر نفسه – 269.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالكراسي حينا وبالبطش والطغيان حينا آخر ، استكان الناس واستسلموا ليد الحجاج ولسيفه ولآلات أمثاله من سفاحي العصر، و ضاعت فلسطين والقضية الفلسطينية بين هؤلاء وأولئك، فالكل منشغل عنها، ويتهكم الشاعر من الاستسلام الأعمى للشعوب العربية التي أصبحت تساق وتغلق عليها الأبواب ليصلى بها ولاتها وأمراؤها صلاة لا ككل صلاة أولائك الذين ليسوا إلا تكرار لأمراء العصور الخوالي ، فمنهم من يحاكي كافورا الإخشدي أو أبرهة الحبشي ومنهم من شابه عمرو بن العاص، بل ومنهم من شابه مسيلمة الكذاب. ويتهكم من بعض حكام العصر الذين لم يفعلوا ما فعلوه إلا ائتمارا بأمر أمريكا التي لا يعنيها أمن أحد غير إسرائيل ، فكما نطق في قصيدة سابقة بالعبرية الفصحى تعبيرا عن غيظه ، ها هو يرى الطبق الذي تصف عليه رؤوس الشهداء هو أيضا صحنا عبريا ويتأسف على ما آل إليه حال الأمة العربية :

يا وطني يتحكم فيك النسناس /...أقفلت الأبواب وصلى في الناس صلاة العهر الحجاج / فكبر للعهر الناس / حرف في قلب المسجد قرآن الفقراء / وخص الأقرب فالأقرب بالخمس / كذلك الدنيا أخماس / وقفوا بين يدي الحجاج / فصحت على أشرف من فيهم /..يا أهل الكوفة../ لو سيف واحد بالحق يسل/ سيقصى الحجاج / ويعتق هذا التاريخ العربي من الذل / فماج المسجد ... صاحوا / يكفر بالحجاج / فكيف لماذا...لايلقي القبض عليه الحراس/صرخت بهم/ لا يلتبس الأمر عليكم / هذي إحدى طرق الحجاج/ ..سكتوا وأطل علي من الأعين شرك إفلاس / كان الحجاج يطل على المسجد من فوق المنبر / يقلب أرواح الناس بكفيه / مكتتز الجفنين من الخبث / يسرح لحيته وجيء بصحن عبري / صف عليه رؤوس الشهداء / لحى تهتز ببسملة الله / وعب المسجد واخضلت بدم الشهداء / وجيء برأس فلسطين وزنديها / فالتم عليها ذوو النهي / يكشف كل عن عورته / وكنت أميز بين النهمين / بنانة كافور وأبرهة الحبشي وعمرو بن العاص / وأجداث مسيلمة الكذاب / وحاكم مكة والقانون الجائر في البحرين / وقابوس / وكل المأمورين بأمريكا / فتعوذت ...وصحت / ستؤكل والله فلسطينكمو / ونستجدي في الطرقات / وقمت.. توضأت.. وفوضت بأمري للسيف...[1]

ومن الشخصيات الأموية المقبولة عند الشاعر العربي المعاصر **عبد الرحمن الداخل** الشهير بـــ **"صقر قريش"** الذي صار رمزا لحب الوطن والوفاء و"للفرد العربي الواثق من قدرته ، القادر على تجاوز المحنة"[2]. فعلى الرغم مما أنجزه في أرض الأندلس وحققه من جاه وسلطان ظل يحن أبدا إلى الوطن الأم ويشبه نفسه في غربته بأرض الأندلس بغربة نخلة كان يراها في ساحة قصره وقد نبتت في غير موطنها الأصلي ،[3] وهي الدلالة التي حملها سميح القاسم قصيدة "صقر قريش" فمن خلال غربة الداخل عن أرضه عبر عن غربة الإنسان

---

[1]- مظفر النواب - الأعمال الشعرية الكاملة - 403 - 406.

[2]- خالد الكركي- الرموز التراثية العربية - في الشعر العربي الحديث - دار الجيل - بيروت - مكتبة الرائد العلمية - عمان ط1 - 1989 - 207.

[3]- علي عشري زايد – استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر -121-122-.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفلسطيني وتمزقه عبر المنافي وحمله مأساته معه أنى ذهب ، وهو في النهاية مهما حقق من حياة رغيدة بعيدا عن الوطن لا يستطيع نسيانه ولا الكف عن الحنين إلى العودة، يقول على لسان صقر قريش الجديد الذي هو الشاعر نفسه وأمثاله من الفلسطينيين :

وداعا يا ذوي القربى/ وداعا... والجراح النجل / في قلبي مضاضتها/طوال العمر... في قلبي مضاضتها/ ونفسي- والرواسي الشم عزتها- / تخف بنكبة النكبات / من قطر إلى قطر / ... ونفسي يا ذوي القربى / ينازعها- وإن شيدت ملك الله في الغربة- / ينازعها حنين السفر للأوبه / ونفسي رغم دهر البين / رغم الريح والمنفى / ورغم مرارة التشريد، / تدرك.. تدرك الدربا..[1].

ومن الشخصيات المضيئة التي فتن الشعراء بها وكادت تكون أكثر شخصيات الموروث التاريخي شيوعا في شعرنا المعاصر شخصية الشهيد **الحسين بن علي** رمز التضحية الباذخة من جهة و"سلبية الأمة وتخاذلها عن نصرة الحق والخير"[2]من أخرى ، فقد رأى فيه الشعراء النموذج الأمثل لصاحب القضية النبيلة الذي يعرف سلفا أن معركته مع قوى الباطل خاسرة لغياب التكافؤ بين الطرفين ولخذلان الأنصار، ولأنها كانت "أكثر مثالية ونبلا من أن تتلاءم مع واقع ابتدأ الفساد يسري في أو صاله"[3]. إذ تنقلب سيوف محبيه ومبايعيه عليه ولكن ذلك لا يمنعه من المضي في خطه ما دام موقنا بصحته وأحقيته ، وبذل الدم الطهور في سبيله لأنه موقن أن دم الشهداء هو الذي سيحقق لقضيته الخلود والانتصار .

فغالبا ما أراد الشعراء هذه الدلالة ليبينوا أن ما تلقاه قضاياهم وسائر القضايا والدعوات النبيلة العادلة من هزائم وما تنتهي به من تضحيات جسام تصل إلى الشهادة ، إنما يعني الانتصار على المدى الطويل لتلك الدعوات والقضايا.

من الشعراء الذين استدعوا هذه الشخصية محمود درويش والبياتي وجواد جميل ومظفر النواب الذي استحضرها في أكثر من موضع ، وإن تفاوتت درجات حضورها، إذ لم تتجاوز الإشارة العابرة عند كل من البياتي[4] ومحمود درويش[5]، بينما جعلها جواد جميل مصدرا يستمد منه الصبر والصمود والثورة والغضب كلما تمادت يد الجلاد في إلهاب ظهره بسياط قمعها :

---

[1] - سميح القاسم – الديوان- 481-482.

[2] - عالم الفكر - عدد 2 - مجلد 33 - اكتوبر ديسمبر 2001 - إبراهيم نمر موسى - توظيف الشخصيات التاريخية في الشعر الفلسطيني المعاصر - 128.

[3] - علي عشري زايد - استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر - 121 - 122.

[4] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية -12 ، 186 .

[5] - محمود درويش – الديوان -299 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قل لجلادي / بأن الحب في شاطىء قلبي لا يكبل / والمنى الزرقاء، / تنساب بأعماقي جدول / هامتي تشمخ كالنخل العراقي،/ وأطول/ وأنا ما عدت أعزل / في عيوني غضب يحفره / مهر، حسيني محجل / كلما ألهبه سوطك، / أضحى لي أجمل.[1]

ومرة أخرى يرى أبطال عصره الماضين نحو الشهادة في ثبات ويقين ، الواهبين بموتهم حياة للآخرين ، في عيونهم عناد وإصرار على المضي كأنما هو مستمد من كربلاء، يقول مخاطبا كل شهداء العصر :

لحكاياك وجوه كوجوه الأنبياء / ولعنادك عناد قادم من كربلاء[2].

أما مظفر النواب فيلبس في قصيدته"طلقة ثم الحدث" صانع الحدث التاريخي عنده خالد الإسلاميولي شخص الحسين إذ جعله يشتاق إلى النضال فيخرج من مرقده مضرجا بالدماء من جديد ربما ليصحح مسارا أو يضع اللمسات الأخيرة ثم يعود إليه . كل ذلك يحدث في الشارع الذي حمل اسمه وحوى مسجده بالقاهرة "شارع الحسين "ويتداعى الواقع العربي منهارا في النص ، ويشتعل الإيقاع غضبا"[3] إذ يرى الشاعر التاريخ يعيد نفسه ويخذل المخلصين والأصفياء ولكن إلى حين فقط لأن انتصار الدماء هو الأقوى والأبقى :

يبتدي حي الحسين النار / يشتاق الحسين بن علي / خارجا بالدم من مرقده / يصطف من صلى صلاة السيف والطلقه.[4]

كما يتماهى الشاعر وكل الأبطال السائرين في طريق البذل والتضحية في شخص الحسين ، وقد سارت فيه ألوف ، ويفخر إذ كان واحدا منها ومن المؤمنين بمبدأ سلطة الفقراء ، ويعلن ثورته على المتاجرين باسم الحسين من غير ثورة ومقته الشديد لهم والمعبر عنه بتكرار فعل المقت ، يقول معلنا تمسكه بالتراث الصحيح ونفخه الحياة باستمرار في رماده :

.. وكم أنت مثل جناح الفراشة في الحلم زاه بطيء / وكم أنت تعشق رأس الحسين / الذي فوق رمح ولا يستريح /.. دعوتك أنت المعلم إن كان علم / فتلك الجروح / ألوف ... ألوف... / ألوف وراءك في الدرب سارت / ينهض شيء صحيح فما نام إلا الصحيح / يلومون أني أنفخ نار التراث / أنا أرفض الخردوات من الفقهاء / فثم تراث وثم فحيح / لقد ظل قلبي أمينا لمعدنه معدن الفقراء / ... وأمقت من يشهرون النصوص سيوفا / وأمقت... أمقت... أمقت من يشهرون الحسين / لغير الوصول إلى ثورة...[5]

---

[1] - جواد جميل – للثوار فقط -10-11.

[2] - المصدر السابق - 123.

[3] - خالد الكركي - الرموز التراثية العربية في الشعر العربي الحديث - دار الجيل بيروت - مكتبة الرائد العلمية عمان - ط1 - 1409 - 1989 - 195.

[4] - مظفر النواب –الأعمال الشعرية الكاملة -204-205.

[5] - المصدر نفسه -411-412.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولأن الثوار الرافضين يتشابهون على مر الزمن ، يرى الشاعر أن هنالك أشياء كثيرة تجمع بين الحسين وبينه وكل الثائرين والبلاد الثائرة لأن الثوار -كما يقول- لهم وجه واحد :

وقدما لقد أفرغ الأمويون حممهم فوق رأس الحسين / وأشياء .. وأشياء تجمع بين الجنوب ورأس الحسين / وبيني / وبين الفدائي وبين الجنوب ورأس الحسين وبيني [1].

ويظفر معين بسيسو مقتل الحسين في قصيدة "القمر ذو الوجوه السبعة" "للدلالة على الخيانة والانتهازية والتخلي عن المبادئ الأخلاقية والقيم النبيلة لبعض الشعراء المعاصرين ، الذين باعوا ضمائرهم وشعرهم"[2] ويقف به موقفا احتجاجيا يدين فيه الشعراء المنافقين من أصحاب أنصاف المواقف المتأرجحين بين القاتل والمقتول على مر العصور، فهم يرفعون سيوفهم مع الحسين وفوقها يرفعون القصائد في مدح قاتله :

رأيته في كربلاء، / تحت راية الحسين / وفوق سيفه قصيدة منقوشة / في مدح قاتل الحسين[3].

وعلى الرغم مما تمثله **المرحـــلة العباسيـــة** من نهضة فكرية وثقافية وفنية وما حققته الأسرة العباسية من إنجازات حضارية فإن تاريخها لا يخلو من صفحات سوداء لم يكد يتجاوزها الشعراء إلى غيرها لأنهم كانوا ينظرون إلى واقعهم المتردي ويبحثون عن معادلاته عبر التاريخ الإنساني.

فهذا مظفر النواب يعلن أن هذا العصر شبيه بالقرن الرابع للهجرة وأحداثه وفتنه وزندقته ، وما هو إلا تلميذ في الصف الأول يجلس حاملا دفتره ليتعلم منه ، والتاريخ خير معلم :

وقفت أمام القرن الرابع للهجرة / تلميذا في الصف الأول / يحمل دفتره / يفترش الأرض / ... وهذا زمن لا يشبه إلا القرن الرابع/ أو ما سمي كفرا زندقة / أو أدرج في الفتن...[4].

وإن اكتفى كل من مظفر النواب وسميح القاسم بالإشارة إلى بعض خلفاء بني العباس ، الأول إلى **أبي العباس السفاح والمتوكل** الذي اكتفى باتخاذه عنوانا لقصيدته "عن السلطة المتوكلية والدراويش ودخول الفرس"[5]، والثاني إلى المأمون ، فقد ركز مظفر النواب في قصيدة " بحار البحارين" على رموز تراثية وشخصيات تاريخية عديدة منها أبي العباس السفاح[6] أول الخلفاء العباسيين الذي يمكن قراءته رمزا لانتقال الحكم من الأموية إلى العباسية سابقا ومن الملكي إلى الجمهوري حاضرا فقد كان مظفر النواب بحكم انتمائه للحزب الشيوعي على خلاف مع حزب البعث الذي سجنه وحكم عليه بالإعدام ونكل بالمعارضين وسامهم بأصناف العذاب ، وقد فعل أبو العباس السفاح الشيء نفسه بمعارضيه ولذلك اتخذه الشاعر قناعا للحاكم

---

[1] - المصدر نفسه-425-426.

[2] - عالم الفكر - عدد 2 - مجلد 33 – المقال السابق - 130..

[3] - معين بسيسو - الأعمال الشعرية الكاملة - 295

[4] - المصدر نفسه - 496 -497.

[5] - المصدر نفسه - 537 - 538.

[6] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة – 128.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العراقي آنذاك ، وقد يكون عبد الرحمن عارف[1]. وفي القصيدة نفسها صوب مظفر مجهره اللاقط إلى مرحلة حرجة في البيت العباسي عندما تحول الخليفة إلى مجرد لعبة في يد المماليك الأتراك منذ النصف الأول من القرن الثالث للهجرة ، حيث ابتدأت اللعبة على يد القائدين وصيف وبغا حتى أن أحد الشعراء العباسيين أنشد في ذلك ساخرا :

خليفة في قفص بين وصيف وبغـــا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا[2].

وكانت نهاية المتوكل على أيديهم وبعده خلفاء آخرون ، فقد خلع المستعين وقتل وسلمت عينا المستكفى[3]... استحضر الشاعر **وصيفا وبغـــــا** والمتوكل في إشارة واضحة منه إلى ضعف الحاكم العراقي المعاصر وربما الحاكم العربي عموما الذي إلى جانب ضعفه ينشغل بصغائر الأمور وتوافهها وبملذاته الخاصة، وإلى قوة الطرف الآخر المسير لزمام الأمور والذي قد يكون السافاك الإيراني إذا قصرنا دلالة المتوكل على الحاكم العراقي، وأمريكا ومن يدور في فلكها إن امتدت الدلالة إلى العالم العربي بموارده النفطية التي لا يكاد يملك منها إلا اسمها، يقول :

يا صاحب هذا الفلك المتعب أنت تسميه المركب / لا بأس عليك تفاءل ما شئت / أطلق ما ترتاح من الأسماء عليه / وصيف وبغا متفقان على نفط البصره/... والمتوكل مشغول عن ذلك بشامة حسن في خصيته / فدع الريح تهدد هذا الكوكب شيئا.[4]

كما ركز البياتي على إحدى زوايا الحياة الداخلية للقصر العباسي أيام **هارون الرشيد** هي زاوية مجتمع **الحريم** الذي كان يشغل حيزا كبيرا من اهتمام الخليفة ووقته ، ولكن الشاعر التفت إلى إحدى خفايا ذلك المجتمع وهي معاناته داخل القصر بالرغم مما كان يحضى به من نعيم وترف لأنه يفتقد حريته هناك ولا يعيش إلا للخليفة ونزواته . يقول معبرا عن أسفه على استمرار كل المشاهد الشرقية القديمة ، مشاهد استعباد الآخرين و مشاهد الظلم والطغيان من خوفو إلى الرشيد ومن الرشيد إلى **هولاكـــو** :

...ما زال (هولاكوا وهارون الرشيد) /و لم يزل (فقراء مكة) في الطريق... / وقوافل التجار والفرسان والدم والحريم / يولدن ثم يمتن عند الفجر في أحضان (هارون الراشيد) / ما زال (هولاكوا وهارون الراشيد)/ و لم تزل (أهرام خوفو) ساخرات / من **الخزائن** الكادحين[5] .

---

[1] - عادل الأسطة – مظفر النواب - الصوت والصدى – 59.

[2] - شوقي ضيف – تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الثاني - دار المعارف - مصر ط2 - د.ت - 17.

[3] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة - 51 - 52.

[4] - المرجع نفسه-111-112.

[5] - عبد الوهاب البياتي -الأعمال الشعرية -1/ 184 -185.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإلى جانب لعبة الحريم يضيف السياب ألهية أخرى يمكنها إلهاء الناس أو إخفاء مظاهر الفساد والدمار عن أعينهم يمثلها بـ**المغنية لواحظ**" ويعجب الشاعر إذ كيف يجتمع المشهدان مشهد المغنية لواحظ العصر ومثيلاتها، ومشهد المدينة الخراب والطغيان الضارب أطنابه والمثقل حركة الزمن ، يقول في قصيدته "المبغي" :

بغداد مبغى كبير / لواحظ المغنية / كساعة تتك في الجدار / في غرفة الجلوس في محطة القطار ... بغداد كابوس: ردي فاسد / يجرعه الراقد / ساعاته الأيام ، أيامه الأعوام ، والعام نير/ العام جرح ناغر في الضمير[1].

وفي المجال نفسه يقف معين بسيسو عند دائرة القصور وخفاياها والزوايا الأخرى الخفية من خدم وعبيد وأسواق نخاسة تعيد نفسها جميعا ولكن ليست أسواقا للعبيد والجواري وإنما للقضية الفلسطينية وسائر القضايا الهامة التي بيعت في أسواق لصوص الشعارات والرايات. وإن عرفت أسواق النخاسة ارتفاع أثمان بعض الجواري والغلمان بقدر مهاراتهم ومهارة البائع، فإن -النخاس- اليوم يبيع الراية الفلسطينية بلا ثمن :

كل الرايات المنفية قد عادت ، / يا وطني.../ إلا رايتك المنفية من أفق / ترتحل إلى أفق ، / في سوق لصوص الرايات ،/ تباع بلا ثمن ،/ صاح النخاس تقدم ، بالحنجرة الملعونة ، / خذها لا تخجل / خذ راية وطني ،/ ما أرخصها بجناح من ورق ، أو سيف من خشب.[2]

ومن أبرز الشخصيات الثقافية في العصر العباسي، شخصية **المتنـــبـــي** الشاعر ولكن الرافض أيضا والمتشامخ حد منازعة السلطان ومغادرته في لحظة الانتصار للكرامة ، وشخصية **بديع الزمـــان الهمذاني** المترجم والمتصل بالسلطان ، وقد دفع كل منهما ثمن تلك العلاقة. الأول حكم على نفسه بالترحال والفرار الدائم وهو الهاجس الذي عاشه كثير من شعراء الحبسيات والثاني بالإعدام. وشخصية المعري التي لا تقل عنهما عذابا إلى جانب عذابها الخاص.

ويمثل استحضار المتنبي الذي تحول إلى حالة من التوهج الأسطوري تنتهي بالاحتراق لتعلن عن بداية خلاقة للقصيدة العربية[3]رمزا "لفكرة الصراع الأبدي بين الفنان وما يملكه من طاقات هائلة على الخلق والإبداع، والسلطة الزمنية الغاشمة وما تملكه من أساليب البطش والخداع والمكر... هذا الصراع الذي ينتهي بموت الفنان الفاجع"[4].

كما يمثل معاناة الفنان وغربته النفسية في وطنه وتغربه عنه طلبا للخلاص منه. وربما كان مظفر النواب أكثر شبها بالمتنبي ، أساءت إليه جميع العواصم والمدن مثلما أساءت من قبل إلى المتنبي ، فقد قضى جل عمره متنقلا بين البلاد العربية وهاربا من بطش السلطان ، وقد قاده فراره من سجن العراق إلى سجن السافاك الإيراني وعذابه ثم تسليمه للذين فر منهم ، ولذلك يشبه نفسه بالمتنبي ولا سيما في سلطة اللسان ، وربما رأى

---

[1] - بدر شاكر السياب – الديوان- 1/449-450-.

[2] - معين بسيسو- الأعمال الشعرية الكاملة - 163-164.

[3] - خالد الكركي - الرموز التراثية العربية في الشعر العربي الحديث - 228.

[4] - سامح الرواشدة - شعر عبد الوهاب البياتي والتراث - وزارة الثقافية عمان الأردن - ط1 1996 - 31.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شعره هو أشد وطأة من شعر المتنبي ، حتى لكأن الذي قتل المتنبي هو أشعار مظفر النواب التي يدمغ بها أمثال أعداء المتنبي في كل مكان ، ولذلك تنبأ لنفسه وقد أسقط عليها اسم المتنبي في ظل الواقع العربي المعاصر بطول الترحال الذي رمز له بطول الحداء المرافق للسفر في المخيال العربي:

يسيء إلينا العراق و في الحب حلو يساء / أيا وطني ضاق بي الإناء / كأن الجمال بوادي الجزيرة سوف يطول عليها الحداء / كأن الذي قتل المتنبي لشعري ابتداء / لأمر يهاجر هذا الذي اسمه المتنبي / وتعشقه في العذاب النساء / وما قدر أنه في الجزيرة يوما وفي مصر يوما وفي الشام يوما / فأرض مجزأة و التجزؤ فيها جزاء[1].

ويؤكد فكرة الارتحال الإجباري المتقاطعة مع ارتحال المتنبي وليالي السهاد والهم في قصيدة "جزر الملح"، ويبوح في حوار داخلي بتعبه من ركوب البحر وكرهه فعل الإرساء الذي لا هدف من ورائه إلا الاستعداد لرحلة أخرى :

يا ولد البحر/ موشاة أحلامك بالشعر/ كأن الكوفة فيها وأبا الطيب سهده الهم / فأشعل تفعيلة شعر قنديلا/... وتعبت من البحر وتكره فعل الإرساء/ وليس لها من هدف هذي الرحلة[2]...

أما معين بسيسو فسيتدعي شخصية المتنبي رمزا للشاعرية التي ولت ، ويشكو له مما آل إليه أمر الشعر ، ففي غياب حراس الشعر وحماته "النواطر" تسلل إلى حظيرته من لا يمتون إلى الشعر بصلة ، ويستعير إحدى عبارات المتنبي الشهيرة لوصف هذه الطائفة المستقلة الوصولية من قوله :

نامت نواطير مصر من ثعالبها حتى بشمن وما تفنى العناقيد[3].

ويوظف معنى صدر البيت السابق له "صار الخصي إمام الآبقين بها"[4] في عنوان القصيدة " الشعر وخصيان السلاطين" ليعبر عما آل إليه أمر الشعر في ظل هؤلاء السلاطين المنقوصين من أشباه كافور الإخشيدي الذي يمثل أحد وجوه السلطة التي لعبت دورا في قمع الفن ومحاربته ، العبيد وغلمان الاستعمار الذي رمز له بالقياصر، وأولئك الثعالب المتسلقين في غفلة أو نوم المتنبي وكل الذين لم يعرفوا لا "الخيل والليل والبيداء"[5] ولا القوافي الحادة الفاعلة فعل السيوف البواتر:

يا أبا الطيب خصيان السلاطين ،/ وغلمان القياصر ،/ كل من قد شده النخاس/ من وحل الضفائر/ كل من لطخ بالحبر الأظافر/ كل من لم يعرف الخيل ولا الليل ،/ وبيداء المخاطر/ والقوافي وهي كالبيض

---

[1] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة – 282- 283 .

[2] - المصدر السابق - 366.

[3] - المتنبي – الديوان – 2/ 144.

[4] - المصدر نفسه – والصفحة نفسها.

[5] - وهي أيضا من شعر المتنبي – أنظر الديوان - 85/4.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

البواتر/... يا أبا الطيب قم صح النواطير ،/ وقم صح القياثر/ دقت الأجراس للصيد / ثعابين المحابر/ بشمت من لحمنا ،/ هذي الثعالب.[1]

كما يستدعي شخصية **ابن المقـــفـــع** ليقدم قراءته الخاصة لأسباب تصفيتها وتصفية كل من تسول له نفسه توعية الناس ولو بأدب رمزي كالذي نقله ابن المقفع في كتاب كليلة ودمنة على لسان الحيوان، فما الزندقة إلا غطاء لأسباب سياسية تمتد إلى كرسي السلطان، إذ كثيرة هي القصص التي تدعو صراحة إلى الاتحاد ضده وتحكم عليه بالموت، فلم يشفع لابن المقفع كل ما قدمه للسلطان من خدمات وما نقله له من ثقافات الأمم الأخرى في سياسة الملك ، وهو المصير الذي لقيه جل المثقفين المعاصرين الذين حاولوا التقرب من الحكام وتبصرتهم بما يجب أن يقدموه ، يقول كاشفا عن أسباب مقتله كما يراها في قصيدة "أحلام عبد الله بن المقفع":

... قتلت حينما علمتك الكلام /... قتلت حين قلت للأسد / تموت أيها الملك / تموت حين تسقط اليمامة الزرقاء / في الشرك[2].

ويستحضر في قصيدة ثالثة **بديع الزمان الهمذاني** يهدي إليه مقامة جديدة لا تكاد تختلف عن مقاماته المنتقدة، ويستعير منه لغته الساخرة وأجواء مقالته بشخصياتها "وراق الكوفة" "حمار البصرة" "قاضي بغداد" "دسائس خيل السلطان" "جارية.." "قمر الدولة" "مولانا" "الفقهاء" "الشراح" "وأواء النطاح"..، ويتبع نهجه في افتتاح مقامته الشعرية بصيغة"حدثتني"[3]التي بنى عليها الهمذاني مقامته.

ويدعو البياتي المعري المعتزل الناس احتجاجا على مآسي العصر ورفضا لسيرة خاطئة إلى النهوض ليرى بواكيرا الرفض والتمرد تـــثمر حركات باحثة عن الحرية ، رافضة الذل والهوان :

قم تر الأرض تغني ، والسماء / وردة حمراء والريح غناء / قم تر الأفق مشاعل / وملايين المساكين تقاتل / في الدجى من أجل أن تطلع شمس[4].

ولكن القوى الأخرى تقف لها بالمرصاد ، وتئد كل أحلامها بالنصر والحرية المنشودة ، وتسقط حلم عودة المعري وأمثاله من الرافضين .

ومن الحركات الثورية التي عرفها العصر العباسي **"الحركة القرمطية"** التي اكتفى مظفر النواب بالتلميح إليها بقرائن عديدة بعد تعليقه الواضح المقدم لها، والمعلن فيه انتماءه إلى القرمطية التي يؤمن بها ، يقول : "وأنا قرمطي أولئك قالوا مشاعة الأرض ومشاعة السلاح ولكن لم يقولوا مشاعة الإنسان ، وأنا أيضا مع

---

[1] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 287 - 288.

[2] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 263 - 264.

[3] - المصدر نفسه - 291 - 292.

[4] - سامح الرواشدة - شعر عبد الوهاب البياتي والتراث - 35.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مشاعة الأرض ومشاعة السلاح ولكن لست مع مشاعة الإنسان"[1]. دون ذكر إسمها ، فهي حركة فلاحين قامت على نظام الملكية الجماعية وعدت عند بعض المؤرخين أول تنظيم نقابي عمالي في المجتمع الإسلامي، كما عدت عند بعضهم الآخر أول حركة شيوعية فيه ،[2] وإلى ذلك يشير مظفر النوابكما يشير إلى الحركة التمردية السابقة لها "**ثـــورة الزنـــج**" وكلاهما ثورة فقراء ومحتاجين حركهم في البدء الجوع والقهر، ومثلهما الكثير من انتفاضات الشعوب المعاصرة وثوراتها ، يقول :

كان القرن الرابع للهجرة فلاحا / يطلق في أقصى الحنطة نارا / تلك شيوعية هذي الأرض/....أشهد أني من شيوعية هذي الأرض...[3].

وعن ثورة الزنج نجد شخصية قائدهم علي بن محمد حاضرة عند سعدي يوسف رمزا لكل ثائر يقف وجه البيروقراطيين بكتائبه الزنجية ، وهي صورة مغايرة لما جاء في المصادر التاريخية العربية التي تعرض الحركة باعتبارها فتنة[4].

وفي قراءة مخالفة لقراءة مظفر النواب للشيوعية (قديما وحديثا) يشير جميل شلش إلى بابك الخرمي إشارة عابرة يرمز بها إلى كل الذين حاولوا النيل من العراق وباءوا بالفشل:

أحقا خفافيش بابك/ وحمر الجنادب مرت ببابك/ أحقا طغى الآخرون ، وقالوا ، وظنوا ،/ ومدوا حبال الجنون ، وصالوا ، وحنوا ،/لعينيك...[5]

ليختم العصر العباسي بآخر صور الطغيان والدمار ، صورة **التتـــار وهولاكو** وما عاثه من فساد ، يستعيرها للتعبير عن هولاكو العصر وما يبثه من رعب في النفوس ولكن لا يستطيع الوقوف في وجه أمجاد الكلمة :

يا رفاق الكلمة ، / لم أزل في ليل"هولاكو" / لينبوع الهوى والفن.../ للشعب أغني.../ خلف أسوار التتار المجرمة[6].

وبالرغم من كل هذه الصور القاتمة غالبا التي احتمى بها شعراؤنا واستعاروها للتعبير عن قضاياهم ورؤاهم ومواقفهم ، وجدناهم لا يكتفون بالقديم فقد أطلوا على العصر الحديث وما عرفه من ثورات تحررية

---

[1] - باقر ياسين - مظفر النواب - حياته وشعره - 229.

[2] - أنظر أدونيس- الثابت والمتحول – تأصيل الأصول – دار العودة- بيروت- ط3 - 1982 - 69/2.

[3] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة – 495-496.

[4] - خالد الكركي - الرموز التراثية العربية في الشعر العربي الحديث - 174.

[5] - محمد جميل شلش – الحب والحرية- 80.

[6] - المصدر نفسه- 18.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحركات فاشية غير بعيدة عما شهدوه، منها **الهتلرية والفاشية** اللتين استعارهما توفيق زياد وسميح القاسم[1] للتعبير عن فعل الفاشية اليهودية في الشعب الفلسطيني ، ومنها جريمة **القنبلة النووية** التي سقطت على مدينتي هيروشيما ونكزاكي ، استعارها بلند الحيدري ليعبر عن الدمار الذي حل بمدينته، إن لم يكن ماديا فمعنوي، وعن الخوف الشديد الذي تلبسه من عيون النظام التي تمنعه من العودة إلى بيته وتحاصره وتريه الموت في كل مكان، فما جدوى الفرار منه وهو يبسط سلطانه على المدينة كما بسطه ذات يوم على هيروشيما ، يقول في قصيدة "العودة إلى هيروشيما" :

أأعود لأبحث عن موتي / والموت / هنا / والموت هناك / فلتصمت / سيجيء إليك ومن ألف مكان[2].

ومن الأبطال الذين استدعاهم الشعراء شخصية **صلاح الدين الأيوبي**، ألبسها مظفر النواب بطله التاريخي "خالد الإسلامبولي "الذي يراه" صلاح الدين في أيامنا"[3]. وأرفقها محمود درويش بشخصية خالد بن الوليد، يقول في قصيدة "الصوت الضائع في الأصوات" :

وصلاح الدين في سوق الشعارات، / وخالد بيع في النادي المسائي / بخلخال امرأة ! / والذي يعرف يشقى[4].

وفيها يعبر الشاعر عن شقاء الإنسان العربي عندما يعرف ما آل إليه البطلان ، ويفضح الحاضر بإطفاء وهج الماضي[5]، وربما أراد إدانة سادة الحاضر في تعاملهم مع الماضي المشرق بل وتجاهلهم له .

ويحشد سميح القاسم في قصيدة "الميلاد" إلى جانب صلاح الدين الرمز التاريخي الإيجابي رموزا تاريخية سلبية (هولاكو - الصليبيين) بطبيعتهما التدميرية للثقافة والمقدسات الإسلامية :

أبي ...لا كتبنا الملقاة تحت نعال هولاكو / ولا فردوسنا المردود فردوسا إلى أهله / ولا خيل الصليبيين/ ولا ذكرى صلاح الدين / ولا جندينا المجهول في حطين / تشد خطاي للأنقاض ، للمنفى/فمن حبي لأطفالي / أشيد مصانعا كبرى[6].

فالشاعر يصنع طريقه الواضح بين ذلك الماضي وهذا الحاضر و رؤيته الثابتة المتمثلة في التشبث بالأرض و السعي لإعمارها للوقوف ضد عمليات الاقتلاع و التهجير و النفي و أساليب مصادرة الحياة .

- التصويـــر المـــوروث الديـــني :

---

[1]- توفيق زياد –الديوان -56-57، سميح القاسم –الديوان -113.

[2]- بلند الحيدري – الديوان – 402-403.

[3] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة – 213 .

[4] - محمود درويش - الديوان – 288 .

[5] - عـــالم الفكر - عدد 2 - مجلد 33 - المقـــال نفسه - 133.

[6] - سميح القاسم - الديوان – 540 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان الدين ولا يزال مصدر إلهام سخي لدى جميع الشعوب، لما يمثله الشعور الديني من أهمية بالغة في حياة الأفراد والجماعات وإذا كان الشاعر عادة ما يستلهم أفكاره وموضوعاته وصوره من الأشياء اللصيقة به ومن محيطه الخاص فإن الدين يأتي في مقدمتها لما يحيط به من قداسة وإجلال تتفق عليها جميع الشعوب وإن اختلفت الأديان ، استمد منه الشعراء موضوعاتهم وصورهم ، على مر العصور، وحفل الأدب العالمي بالكثير من الآثار الأدبية العظيمة المتمحورة حول موضوع ديني أو شخصية دينية فقد كان الكتاب المقدس مصدرا للشعراء الغربيين يستمدون منه الكثير من النماذج الأدبية ، من شخصياته وقصصه ، وفتن الرومانسيون منهم بالشخصيات الدينية المتمردة المطرودة كالشيطان وقابيل، وجعلوها نموذجا للتمرد على كل ما هو عادي ومقرر ومفروض وعبروا عن تعاطفهم معها لما عانته من عذاب ولعنة[1]، ومن أدبائهم من تأثر ببعض المصادر الدينية الإسلامية وفي مقدمتها القرآن الكريم، منهم الشاعر الإيطالي "دانتي" في ملحمته الشهيرة "الكوميديا الإلهية" التي استلهم فيها قصة المعراج، والشاعر الألماني "غوته" الذي قرأ القرآن في ترجمته اللاتينية والألمانية وحاول ترجمة بعض آياته واستلهم منه ومن التراث الإسلامي الكثير في ديوانه الشرقي للمؤلف الغربي[2]، والشاعر الفرنسي "فيكتور هيجو" الذي قرأ القرآن في ترجمته الفرنسية وتأثر به في ديوانه "المشرقيات"[3]، وكذلك كان للموروث الديني بمختلف مصادره **القرآنية والإنجيلية والتوراتية** أثره في الشاعر العربي المعاصر ومنه في شعر الحبسيات ، فقد استحضر الشعراء من شخصياته وقصصه ونصوصه لإلقاء مزيد من الأضواء على الواقع العربي الذي طالما رفضوه وقاوموا مظاهر الاعوجاج فيه كما استعانوا بالموروث التاريخي لإبلاغ مواقفهم منه ولعل أهم ما استحضروه منه كان إما للنقد الذي غالبا ما كان يوجه للمستعمر وأذنابه ويأتي الغاصب اليهودي في مقدمتهم جميعا أو للحاكم العربي وسدنته مثلما هو رمز يهوذا الإسخريوطي الذي اتفق الشعراء جميعا على اتخاذه رمزا للخيانة ، وإما لتمجيد الثورة وأبطالها وتخليد تضحياتهم ، وقد اتفق الشعراء جميعا على اتخاذ المسيح وقصة الصلب نموذجا مثاليا لكل تلك البطولات .

فلكي يعبر الشاعر الفلسطيني خاصة والعربي عن سخطه مما يعيث الاحتلال والحكام من فساد استعان بالموروث التوراتي نفسه أحيانا بنصه كما فعل سميح القاسم في قصيدة "**مـــزامـــير**"، فتعميقا لمرارة المفارقة العجيبة بتحول المظلوم إلى ظالم متجبر " أدخل الشاعر في جزء كبير من القصيدة تعابير وصورا توراتية ، من **المزامير**، ومن سفر إشعياء بالذات**!..."**[4] وأضفى عليها بسخرية مريرة عودنا عليها من الواقع الفلسطيني تحت أقدام وأسلحة الجنرالات الذين يتلقون مزمورا جديدا خاصا ، هو "مزمور الجنرالات" يأمرهم بطاعة أوامر

---

[1] - علي عشري زايد – استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي العاصر – 75 .

[2] - انظر مجلة دراسات أدبية وإنسانية – جامعة الأمير عبد القادر – عدد 4 – نوفمبر 2005 – قراءة في الديوان الشرقي للشاعر العربي – غوته- سكينة قدور - 63- 84.

[3] - علي عشري زايد – استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر – 76.

[4] - سميح القاسم الديوان – 192 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أمريكا واتباع نهج الهتلرية ودك البيوت الآهلة وإراقة دماء ساكنيها وفي مقابله "مزمور بقايا الفلسطينيين" الذين يستغيثون بالعالم كله ولا يجيبهم إلا الغاز والنابالم ، والأيدي الأثيمة!، إنها الطائرات أو النسور المعدنية الآثمة كما يسميها الشاعرو كل ما يمكن أن تخلفه من ضحايا وأيتام و دمار ، التي جاءت لحائط المبكى بمزامير غير تقية!. ويشكوا الشاعر في مزمور أطفال العالم ومزمور أحفاد إشعياء آلامه وآلام شعبه لإشعياء ويستنجد به لنجدة أطفال فلسطين لكي يلعبوا دون خوف وتتكون القصيدة من أربعة مزامير :

مزمـــور الجنـــرالات

اسمعوا يا آل إسرائيل صوت الأنبياء/ نصدر الأمر لكل الملحدين الأشقياء / أعبدوا أصنام واشنطن، قوموا واعبدوها/ خالطوا أوثان بون القاتله / واجعلوا أبناءكم قربان آى . بي . سي/ وفي القلب احفظوها/ باسمها دكو البيوت الآهلة/ وأريقوا تحت رجليها الدماء.

مزمـــور بقـــايا الفلسطينييـــن

من هنا / من مطهر الأحزان في ليل الجريمه / أيها العالم تدعوك العصافير اليتيمه / من هنا من غزة الموت، / ومن جينين، والقدس القديمه../ أيها العالم ندعوك/ فرد الغاز ، والنابالم والأيدي الأثيمه! / ...كان يا ما كان ، / وانقضت نسور معدنيه / لم تكن حاملة من آل صهيون- إلى صهيون- / أفواج البقيه / لم تكن حاملة لحائط المبكى.. مزامير تقيه : يا إله المجد... ماذا حملت؟ / نارا.... وغازا... ودخانا / ومجاعات... وصلبانا...ويتما... وهوانا!! /

مزمـــور أطفـــال العـــالم

يا إله الانتقام / رد من يذبح في القدس اليتامى / والثكالى والأيامى../ رد من يظلم ميراثك من يصلب في القدس السلاما / ... شق للفاسق حفره / رد للماكر مكره !.

مزمـــور أحفـــاد أشعيـــاء

.. يا أشعياء الذي أغفى قرونا وقرونا / ...كيف لا تبلغهم دعوى الأرامل؟ / ... انهض اليوم لكي يلعب أطفال فلسطين / ولا يخشون أنياب الصلال...[1]

وكما تخيل سميح القاسم مزامير جديدة على لسان يهود العصر تحكم بهدم البيوت وذبح اليتامى والثكالى، كذلك يشير محمود درويش في قصيدته "المزمور الحادي والخمسون بعد المائة" الخارج عن دائرة مزامير داوود المائة والخمسين إلى ما يرتكبه اليهود من مجازر تحت غطاء الدين أو هذا المزمور الجديد المزعوم الذي تحول إلى حجارة في أياديهم يرجمون بها الشاعر ويعيدون الكرة في سبيل أساطيرهم القديمة:

[1] - المصدر السابق– 193- 201.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والمزامير صارت حجاره / رجموني بها /وأعادوا اغتيالي / قرب بيارة البرتقال / ...صار جلدي حذاء / للأساطير والأنبياء...[1]

ويعود معين بسيسو إلى القصص القرآني ليذكرهم بنكوصهم الدائم وتقلبهم حتى على أنبيائهم، فيسميهم "أكلة قربان **العجل الذهبي**"[2]. وإذ يعجب فايز أبو شمالة من سياسة اليهود المقلوبة، تستقدم لأرض فلسطين اليهود من كل أنحاء العالم وتحكم على الفلسطنيين بالطرد والتهجير فإنه يتساءل إلى أين سيرحل عن القدس أو يافا وعكا ويسائل أبناء وطنه في دعوة صريحة منه إلى الثورة ، إلى متى يظلون كالضيوف يرقبون اليهود العائدين الذين شبههم بجند **يهوشع بن نون** إذ عبروا نهر الأردن إلى أريحا ذات يوم ودكوا أسوارها وقتلوا رجالها ونساءها...[3] :

وأين سنرحل يا قدسنا ؟ / وكيف تعلق نافذة الحب في أرض يافا ؟ / وكيف نغادر بحرا لعكا ؟ وأين نقيم هياكل للوهم، نبني خطوط الظلام البعيد / ونرقب دقات جند يهوشع يعود إلينا بدرع الحديد / ونحن كأنا ضيوف على بيتنا والتراب رحل / كأنا توابيت عهد تحطم / ....كأن لهم أرضنا والتراث، ونحن التماثيل منذ الأزل[4].

ويتنبأ لهم سميح القاسم الذي عهدناه متحديا مقاوما بما بعد يهوشع بن نون ، القائد العسكري الذي أمر الشمس بعدم المغيب حتى يكمل فتحه، ويحذرهم مما ينتظرهم بعد موت يهوشع من أظافر الغروب لأن يهوشع مات ولا أحد يستطيع تأجيل الظلام فصلاتهم خاوية وبين دعائهم والسماء حجب من الذنوب ترده خائبا وأريحا محصنة شامخة الأسوار :

يا حائرين في مفارق الدروب ! / لا تسجدوا للشمس / لن يرقى لها صدى صلاتكم / بينكم وبينها سقف من الذنوب / لا تركعوا.. لا ترفعوا أيديكم إلى السماء / تدمرت واندثرت أسطورة السماء/ ...يهوشع مات / فلا تستوقفوا الشمس، ولا تستمهلوا الغروب / سور أريحا شامخ في وجهكم إلى الأبد / يا ويلكم! يا ويلكم ! / سرعان ما تغوص في أعماقكم / أظافر الغروب / يهوشع راح... ولن يؤوب / يهوشع مات!.[5]

وفي سخرية ينتقد مظفر النواب ضمنا سلطان إسرائيل على دول الخليج فيكني عنها **بنجمة داوود** ويدعوها إلى الابتهال بما آل إليه أمر دول النفط من جري للتجاوب معها[6].

---

[1] - محمود درويش – الديوان – 292.

[2] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 159.

[3] - انظر ابن كثير - قصص الأنبياء – تحقيق صدقي جميل العطار – دار الفكر – لبنان – 2003 - 1424– 330.

[4] - فايز أبو شمالة – سيضمنا أفق السناء – 122- 123.

[5] - سميح القاسم – الديوان – 100-101.

[6] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة – 191.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن الشخصيات المنبوذة التي ارتكبت خطيئة وحلت عليها اللعنة شخصية **قابيـــل** أول قاتل على وجه الأرض متحديا إرادة أبيه وإرادة الله، وقد أخذ في الشعر المعاصر دلالة قريبة من دلالته الدينية الموروثة فهو رمز لكل قاتل سفاح ولكل معتد ظالم ، فهذا سميح القاسم يجب أن ينتصر لهابيل الذي هو رمز كل المظلومين على وجه الأرض ويعطيه فرصة أخرى للدفاع عن النفس، فيحور الموروث الديني إلى ما كان يتمنى حدوثه من انتصار للحق واندحار للظلم والظالمين، ويذهب في مقدمة قصيدة "السرطان " إلى أن الصراع مازال مستمرا بين قابيل العصر وهابيله، ولا احد منهما صرع الآخر بعد[1]، وربما أراد بذلك أن يبعث في نفوس أبناء وطنه الأمل في الانتصار على مغتصبي أراضيهم ، وهو المعنى نفسه الذي يذهب إليه السياب في قصيدته "إلى جميلة بوحيرد" في قوله: "قابيل فينا ما تهاوى أخوه"[2]تيمنا بصمود المناضلين وانتصارهم الآتي.

ويستعمله في "قافلة الضياع" رمزا للمحتل الجاني ، بينما يستعمل هابيل رمزا للاجيء الفلسطيني المشرد عن أرضه :

قابيل أين أخوك؟ أين أخوك؟ جمعت السماء / آمادها لتصيح ، كورت النجوم إلى نداء / قابيل أين أخوك ؟ / أين أخوك ؟ / يرقد في خيام اللاجئين[3].

وينقلنا في قصيدتيه "المخبر" و "قارئ الدم" إلى ما بعد الجريمة من ضياع وعذاب وندم يمزق أوصال الجاني ولا أحد ينقذه من نهايته المحتومة "اللعنة والتيه" قديما وحديثا، اتخذه في الأولى رمزا للمخبر الذي ليس إلا "وريث قابيل اللعين"[4]، وفي الثانية رمزا للطاغية السفاح وقد اقتيد إلى الحساب، فلم يجرؤ على النظر إلى ضحاياه وهي تترف دما وتذكره بجرائمه :

قابيل حدق في دماء أخيه أمس / وأنت يأخذك الدوار[5].

ويحتل **يهـــوذا** رمز "الخيانة الرخيصة أو الندم المر"[6] رقعة أوسع من اهتمام شعرائنا ربما لما يمثله دور يهوذا العصر الخطير فيما آل إليه أمرهم ، فقد استدعى شخصيته كل من بلند الحيدري ومحمد جميل شلش والبياتي والسياب ومظفر النواب وسميح القاسم ، واتفقوا جميعا على دلالة الخيانة والسقوط والغدر التي اشتهر بها يهوذا الأول تلميذ المسيح الذي أسلمه للكهنة مقابل ثلاثين قطعة فضية ، وحلت عليه اللعنة ،

---

[1] - سميح القاسم - الديوان- 127-130.

[2] - بدر شاكر السياب – الديوان 1/ 383.

[3] - المصدر نفسه– 368 .

[4] - المصدر السابق – 341.

[5] - المصدر نفسه -445.

[6] - أنس داود - الأسطورة في الشعر العربي الحديث – دار المعارف - مصر - ط3 - 1992 - 251 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وانتهى نادما منتحرا في بعض الروايات ، ومصلوبا بدل المسيح في بعضها[1]، الآخر وكلتاهما نهايتان أليمتان لكل من سولت له نفسه بيع إخوانه ، فهو في "مدينة السندباد" للسياب يغري الكلاب بأطفال المدينة تنهش لحومهم في المهود وقد تلطخت ثيابه بدمائهم :

فيها يهوذا أحمر الثياب / يسلط الكلاب / على مهود إخوتي ، الصغار والبيوت / تأكل من لحومهم..[2]

ويراه مظفر لطول ما عاناه من أذى المخبرين الذين زعزعوا ثقته وملاحقاتهم كامنا في بعض الناس وإن بدوا خيرين في ظاهرهم : "ويهوذا يكمن في بعض الناس برغم دلالات الخير"[3]. واقترن عند كل من السياب في قصيدة " المسيح بعد الصلب" والبياتي في "قصائد إلى يافا" بالمسيح وقصة الصلب التي سنقف عندها لاحقا وحمل دلالة الخائن المقرب جدا ، ربما كان الأخ أو الجار اللصيق أو صديق العمر الحميم كما نفهمه من قراءتنا لقصيدة بلند الحيدري "يهوذ"[4]الذي لم تشفع له كل الذكريات الجميلة بينهما فغدر وباع كما باع يهوذا الإسخريوطي معلمه ، أما في قصيدة "توبة يهوذا" فإلى جانب توكيد فكرة الخيانة ينقلنا الشاعر إلى ما بعدها من عذاب نفسي عاشه يهوذا الأول وانتهى به على حد بعض الروايات إلى الانتحار أو التوبة التي أصبحت كناية عن الاستحالة ، ويعيشه يهوذا المعاصر ليس فقط بينه وبين نفسه ولكن ليزيد الشاعر من عذابه تصور العار الذي لا يقف عند الخائن وإنما يمتد إلى أبنائه خنجرا يوغل في قلوبهم ، ويسجل على لسانه اعترافاته المؤلمة بين أيديهم ولكنه يحكم على نفسه بالتيه واللعنة :

أنا أدري / أن حكم الموت لن يمسح عاري / فانكروني يا صغاري / واتركوني / اتركوني لعنة تزحف في التاريخ / من نار لنار / علها / تغسل / عاري[5].

هذا وقد استدعى الشعراء الكثير من شخصيات الأنبياء عليهم السلام بدرجات متفاوتة لغايات مختلفة، منهم نوح وصالح ولوط ويعقوب ويوسف وأيوب وموسى وداوود وسليمان وزكريا ويحي وإرميا وعيسى وغيرهم.

فمن **قصة نـــوح -ن-** يوظف محمود درويش قصة السفينة والرحلة للإشارة إلى الهجرة من فلسطين قسرا أو اختيار والتي لا تخدم القضية الفلسطينية باستنزافها للوجود الفلسطيني في الداخل، فيناجي نوحا ويتوسل إليه أن يهبه غصن زيتون وحمامة من أجل البقاء مثلما أخذ معه ذات رحلة من كل زوجين اثنين ويرجوه ألا يرحل بهم مهما حدق بهم الموت لأنهم لا يستطيعون العيش بلا وطن :

---

[1] - الموقع الإلكتروني www- ebn maryam . com / 1 . htm.

[2] - السياب – الديوان – مدينة السندباد - 472/1.

[3] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة – 123.

[4] - بلند الحيدري – الديوان – 390-394.

[5] - المصدر السابق– 366 – 367.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يا نوح! هبني غصن زيتون / ووالدتي..حمامة! /... يا نوح / لا ترحل بنا / إن الممات هنا سلامه/ إنا جذور لا تعيش بغير أرض../ ولتكن أرضي قيامه.[1]

ويشير مظفر النواب في ثنايا حديثه عن الخذلان العربي للقضية الفلسطينية مقابل غنائم تافهة إلى **ناقـــة صالـــح** التي عقرها القوم وتنكروا لكل ما وعدوا به نبيهم : "لقد ذبحت ناقة الله واقتسم السفهاء"[2].

أما البياتي فيستعير "**ســـدوم**" قوم لوط الذين كتب الله على المدينة بسبب عصيانهم وإصرارهم على الفاحشة بالخراب، ليعبر به عن سدوم العراق المعاصرة المصرة على الظلم والفساد المنذرين بتحول العراق إلى أطلال تسكنها الأشباح[3]، وربما كانت سدوم هي "البلدة التي آل إليها إنسان العصر"[4].

وإذ يستحضر كل من سميح القاسم ومظفر النواب **النبي يعقـــوب** فليشكو إليه فعل أبنائه اليوم ، ففي "طفل يعقوب" يقدم سميح القاسم القصيدة بنص من التوراة يقضي بعقاب من تعدوا على شريعة الرب، وليحذر أبناء يعقوب الجدد من ذلك العقاب ما داموا قد خانوا عهد الرب [5]، ويرتكز في قصيدة "غرباء" على الموروث التاريخي الديني للإشارة إلى **تيه بني إسرائيل** وغزوهم الحديث لفلسطين وما نتج عنه من رحيل للشعب الفلسطيني ، والتوكيد على أن وجود هؤلاء "الآخرين" الذين يرفض الشاعر تسميتهم لتعميق دلالة رفضه لوجودهم ، مجرد حدث طارئ وغريب عن الأرض وساكنيها ولا بد من زواله ، فكما أن سنوات تيههم محدودة لا بد أن يكون عمر التيه الفلسطيني أيضا محدودا ،وهو ما نلمحه ضمنيا :

سنوات التيه في سيناء كانت أربعين / ثم عاد الآخرون / ورحلنا... يوم عاد الآخرون / فإلى أين..؟ وحتام سنبقى تائهين / وسنبقى غرباء ؟[6].

ويكرر مظفر النواب شكواه ليعقوب " ويعقوب راقب بنيك"[7] ويردفها في مقطع آخر بفعلهم بأخيهم **يوســـف** بالأمس واليوم: "آه يعقوب../ راقب بنيك فما افترس الذئب يوسف/ لكنه الجب.../ آه من الجب

---

[1] - محمود درويش – الديوان – 116 – 117.

[2] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة - 275.

[3] - البياتي - الأعمال الشعرية -1/ 180.

[4] - محمد العبد حمود – الحداثة في الشعر العربي المعاصر – 133.

[5] - سميح القاسم – الديوان 131 – 132.

[6] - المصدر السابق– 51.

[7] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة – 327 – 333.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في الأمة العربية آه..."[1]. ولعله يرمز بذلك إلى القيادات العربية التي ترى ما يعانيه الشعب الفلسطيني الغارق في جب أبناء يعقوب ولا تفعل شيئا ، وهو المعنى نفسه الذي أراده معين بسيسو في قوله :

"لم يزل يوسف في البئر ومن / آه قد ألقى له الحبل هلك"[2]. وإن أضاف إليه عبارة أخرى توحي بضعف هذا المتخاذل الخائن القضية بينما يذهب مصطفى المهاجر إلى اتخاذهم رمزا للخيانة فهم لم يلقوه في الجب فحسب وإنما باعوه "للطغاة" ببضع دراهم ، مثلما باعوا كل قضايا الأمة : يوسف باعوه ببضع دراهم / وأنا يا سادة.../ باعوني / علبة كبريت / فارغة / ثمني...[3]

ويستحضر مظفر النواب شخصية **أيـــوب -u-** رمزا للصبر الطويل صبر المواطن العربي على مرارة الظلم والطغيان[4]، بينما يتخذه السياب رمزا لمعاناته الشخصية وآلامه ويشكو على لسانه ويبوح بآلامه وصبره ورضاه كما جاء في القرآن الكريم بل ويمتزج به امتزاجا كاملا في قصيدته " سفر أيوب" و"قالوا لأيوب"[5]، وإن سجل بعض الضجر والألم في بعض مقاطع الأولى.

وفي "نشيد للرجال" يستدعي محمود درويش كلا من **المسيـــح والمصطفـــى -عليهما الـسلام-** يسألهما عن درب لخلاصه وخلاص شعبه من السجن الكبير الذي يحيط بهم ، وينوب عنهما بإجابتين متقاربتين متكاملتين ، الأول يدعوه إلى المضي في دروب الشهادة والثاني يدعوه إلى الصمود والتحدي ، يجيبه المسيح "أقول لكم! أماما أيها البشر!" ويجيبه الرسول **-ρ-** : تحد السجن والسجان / فإن حلاوة الإيمان / تذيب مرارة الحنظل"[6].

وتمثل شخصية المسيح رمز "التضحية المطلقة والفداء النبيل"[7] ظاهرة لافتة للانتباه في شعر الحبسيات الصادر عن شعراء قدموا تضحيات جسيمة في سبيل الحرية سواء حرياتهم الشخصية وحرية أقلامهم أو حرية أوطانهم وشعوبهم، وذلك لقرب شخصية المسيح لا سيما في الموروث المسيحي من تجاربهم الذاتية، وخصوصا فيما يتعلق بتجربة الصلب والفداء والحياة من بعد الموت[8] فقد حضرت فكرة الصلب عند جل الشعراء الذين استدعوا هذه الشخصية، وعلى ملمح الصلب أسقطوا كل الآلام التي تحملوها وتحملها إنسان عصرهم وتقنع

---

[1] - المصدر نفسه – 343.

[2] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 237.

[3] - مصطفى المهاجر – حاضر كالبكاء غائب كالوطن – 104-105.

[4] - مظفر النواب – المصدر نفسه- 325 – 516 – 518.

[5] - علي عشري زايد – استدعاء الشخصيات التراثية – 90 ، والسياب – الديوان – 1 /248، 296.

[6] - محمود درويش – الديوان 156 – 157.

[7] - أنس داود - الأسطورة في الشعر العربي الحديث – 252 .

[8] - انظر الكتاب المقدس – العهد الجديد – منشورات دار المشرق – بيروت – ط2 – 1986 –135-147.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بعضهم بشخصية المسيح[1]، مختالا نحو الجلجلة أو مصلوبا وكثيرا ما امتزج عندهم ملمح الفداء بملمح الصلب، وما يتحمله الشعراء من آلام السجن بكل عذاباته التي سلطنا عليها الضوء في قراءة السجن من الداخل، إنما يتحملونه فداء لما التزموا بالنضال في سبيله من قيم ومبادئ فعند مظفر النواب مثلا يتلازم الصلب والعذاب في قوله مستحضرا مشهد الصلب كما ترويه المصادر المسيحية ومركزا أيضا على ما بعد الصلب من عذاب للذين ساهموا في تعذيبه وصلبه :

دقوا كفي بمسمارين من الصدأ البارد / فارتج صليبي وانهاروا من ألمي / سألوا قدمي الغفران.[2]

هذا وقد شاع تصوير الإنسان الفلسطيني المشرد في صورة المسيح وهو يواجه محنة الصلب، ليس فقط عند الشاعر الفلسطيني ولكن في الشعر العربي المعاصر عموما، نذكر من ذلك قصيدة "أغنية"[3] من مجموعة قصائد البياتي المهداة إلى يافا إذ يصور الإنسان الفلسطيني المهجر "يسوعا، عاريا، منفيا، يرسف في قيوده..."[4]. مصلوبا عند كل المداخل المؤدية إلى مدينته "يافا" أو وطنه ، فقد أوصد يهوذا في وجهه كل الأبواب. وقد تقمص محمود درويش شخصية المسيح في قصيدته "صوت من الغابة" دون أن يفقد الأمل في عودته إلى الدار :

من غابة الزيتون/ جاء الصدى../ وكنت مصلوبا على النار ! /أقول للغربان لا تنهشي/ فربما أرجع للدار[5].

وإن رحب بسيسو باعتلاء ألواح الصليب فإنه يرفض أن يتاجر بصلبه "لصوص الصلبان من أصحاب الشعارات والمتسلقون ،[6] ويتعجب في قصيدة "كأس الخل" التي اقتبس عنوانها من بعض أحداث الصلب كما جاءت في الكتاب المقدس كيف يقتاد الشاعر أو المسيح للصلب بينما يطلق سراح اللص "برأبا" باختيار الأحبار والشيوخ – أو كما يسميه الشاعر –باراباس- وأمثاله من الطلقاء كثيرون[7]، ويشحن القصيدة بجل الأحداث الواردة في النص الديني المسيحي مثل شراب الخل وما تعرض له المسيح من شتم وسخرية وتجريد من الثياب وإكليل الشوك الذي ضفره جنود الحاكم ووضعوه على رأسه ويختمها بملمح البعث أو القيامة والتراثي كما جاءت في الكتاب المقدس وحملت دلالة الأمل عند الشاعر :

---

[1] - علي عشري زايد – استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر – 82 .

[2] - مظفر النواب – الأعمال الشعرية الكاملة – 19 .

[3] - عبد الوهاب البياتي – الأعمال الشعرية - 193/1 .

[4] - أنس داود - الأسطورة في الشعر العربي الحديث – 300 .

[5] - محمود درويش – الديوان- 112.

[6] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 165- 166.

[7] - انظر الموقع الإلكتروني : صفحة طعام وتعزية 2002 . w w w taam . net / new

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واقترعوا يا شعبي / من يأخذوا ثوبي / بعد الصلب.../ كأس الخل بيمناي / وإكليل الشوك على رأسي، / باراباس ابن السكين طليق، / وابنك يا شعبي / ساقوه إلى الصلب وللرجم../ ..لن أهرب من دربي/ ...إن لم أتمزق كيف ستولد من قلبي / كيف سأولد من قلبك،/ يا شعبي...[1].

وقد أشار البياتي إلى فكرة الانبعاث في قصيدته"العائدون من المذبحة" ليس بمعناها المسيحي ولكن بدلالة الأمل في ثمار التضحيات الجسام فقد أول شعراؤنا المحدثون هذا الجانب من حياة المسيح، واعتبروا أن كل من يقضى في سبيل فكرة أو مبدأ فإن فكرته ومبدأه يعيش من خلال موته.كما بعث المسيح من الموت،[2] يقول :

ألف يسوع في جراحاته / مات لتحيا فكرة نيره"[3].

كما المح إليها جميل شلش في قصيدة "الحب والحرية" فمن جراح ألف مناضل(مسيح) يولد ألف ألف آخرون من أجل وجه مشرق للوطن[4] .

وقد تمتزج كل تلك الملامح (الصلب – الفداء – الحياة) في قصيدة واحدة كما في "المسيح بعد الصلب" للسياب ، حيث يراها علي عشري من أنضج القصائد التي استخدمت شخصية في الشعر المعاصر[5]، تقمص فيها الشاعر شخص المسيح رمزا للثائر ورمزا للفادي الذي يضحي بنفسه من أجل الآخرين ، ورمزا للانتصار على الظلم ولو بالموت "موت الفرد" الذي يهب الحياة للجميع . نكتفي منها ببعض المقاطع المعبرة عن ذلك الجمع الموفق :

... إذن فالجراح / والصليب الذي سمروني عليه طوال الأصيل/ لم تمتني.../ مت كي يؤكل الخبز باسمي، لكي يزرعوني مع الموسم ، / كم حياة سأحيا: ففي كل حفره / صرت مستقبلا ، صرت بذره / صرت جيلا من الناس : في كل قلب دمي / قطرة منه أو بعض قطره / هكذا عدت ، فاصفر لما رآني يهوذا../ فقد كنت سره[6].

"فالسياب يتخذ من شخصية السيد المسيح رمزا وقناعا يعبر به ومن خلاله عما لحقه هو من أذى وآلام وعذاب ، ويشي في الوقت نفسه بالأمل الكبير الذي ظل يحمله حتى آخر حياته ، في أن تحدث معجزة كبرى كقيامة المسيح بعد موته ، تعيد إلى السياب حياته وحيويته"[7] ونراه وقد أخذ ببطولات الثورة الجزائرية يرتفع

---

[1] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 161 – 162 .

[2] - علي عشري زايد – استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر- 85.

[3] - البياتي – الأعمال الشعرية - 1/ 213.

[4] - محمد جميل شلش - الحب والحرية - 96.

[5] - علي عشري زايد - استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر – 86.

[6] - السياب – الديوان – 1 /457 – 459.

[7] - محمد علي كندي – الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث – 188.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بجميلة بوحيرد إلى درجة أعلى من المسيح ويخاطبها: "لم يلق ما تلقين أنت المسيح"[1]، ويصنع منها بطلة أسطورية خارقة الصبر والعطاء والتضحيات.

ومن الشخصيات المقدسة التي وظفها الشعراء إلى جانب هذه الشخصيات البشرية شخصيات **الملائكـــة** استحضر منها السياب "الملك عزرائيل" الموكل بقبض الأرواح رمزا لقوى الظلم التي يراها كل يوم تسحق الإنسان وتهدد أمنه وحياته ، وقد سماه "ثعلب الموت" وركز على ما ينتاب الناس لحظة انقضاضه :

قابعا في ارتعادة الخوف ، يختص ارتياعا ، لأن ظلا مخيفا / يرتمي ثم يرتمي في اتئاد / ثعلب الموت، فارس الموت ، عزرائيل يدنو ويشحذ / النصل آه / منه آه ، يصك أسنانه الجوعى ويرنوا مهددا يا إلهي /... سور بغداد موصد الباب ، لا منجى لديه ولا خلاص ينال / هكذا نحن ، حينما يقبل الصياد عزريل: / رجفة فاغتيال[2]. ومن خلال ما تقدم من نماذج يمكننا ملاحظة ثراء المصدر الديني من جهة وارتكاز الشعراء عليه واتخاذه ملاذا يحتمون به من ضغط الواقع وفضاء يستوعب تجاربهم المعقدة مثلما فعلوا مع التاريخ الإنساني .

- **التصويـــر المـــوروث الشعبـــي :**

للتراث الشعبي جاذبيته في كونه يمثل جسرا ممتدا بين الشاعر والناس من حوله، ويساهم في إيقاظ الشعور القومي وإبقائه حيا[3]، وقد تعددت مصادره لاسيما عند شعراء الأرض المحتلة كما مر بنا من قبل في قراءتنا للغة الشعرية حيث اتسع صدر بعض القصائد للهجات المحلية والأمثال والأغاني الشعبية ولكنها مجرد اقتباسات مباشرة، ولعل أهم مصدر للتراث الشعبي عند الشاعر المعاصر كتاب ألف ليلة وليلة بشخصياته ذات الدلالات الثرية والطاقات الإيحائية القوية[4]، وتأتي في مقدمتها جميعا شهرزاد وشهريار والسندباد البحري وعلاء الدين وما اتصل بهم من رخ ومارد وغيلان ومصباح سحري ومغامرات ومخاطر تشيب لها الولدان.

فكثيرون هم الشعراء الذين وظفوا شخصية **السندباد** أو تقمصوها في مرحلة من مراحل تجربتهم الشعرية[5]، أما شعراء هذه الدراسة فمنهم من اكتفى بالإشارة العابرة من أمثال جميل شلش[6]، الذي عودنا على مراكمة الأسماء دون التوغل فيما أحاط بها من أحداث أو توظيفه لخدمة ما يريد إبلاغه ، والبياتي الذي أشار إليها مرة مبشرا بالأمل والوعد القادم في قصيدته "ثلاث أغنيات إلى أطفال وارسوا"، تغمر الفرحة فيها كل

---

[1] - بدر شاكر السياب - الديـــوان - 384/1.

[2] - المصدر نفسه- 1/ 447- 448.

[3] - إحسان عباس – اتجاهات الشعر العربي المعاصر - 118.

[4] - علي عشري زايد – استدعاء الشخصيات التراثية - 152.

[5] - المرجع السابق- 156.

[6] - محمد جميل شلش – الحب والحرية- 40.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأشياء لتشارك وارسوا فرحتها وسعادتها التي شادها العمال بكدحهم، والريح تنقخ أغاني الحب في شراع السندباد الذي يحلم الشاعر أن يكونه ليحمل للأطفال هدايا من البلاد العربية[1].

بينما استغلها معين بسيسو في قصيدة "البحار العائد من الشطآن المحتلة" للتعبير عن مأساة الإنسان الفلسطيني الذي تحول بفعل الاحتلال إلى سندباد بحري يبحر من شاطئ محتل إلى آخر طلبا للأمان وما يكاد يطمئن ويشعر بالاستقرار حتى يفجع باحتلال آخر يجعله في أهبة دائمة للترحال ، ولا يحمل من شواطئه المحتلة غير ما علق بشراعه من أمواج تذكره بعبقها ، وتروي قلبه الظامئ المشتاق إليها وقد قدم لها بمقطع "وعاد من شطآنه ، وقد تعلقت موجة على شراعه.." إذ هي بمثابة النور الذي يهبه القدرة على الاستمرار.

وحرص على أن يختمها بالمعنى نفسه بعد أن حمله بدلالات الحنين والشوق وكأن السفر غدا قدره المحتوم الذي لا فكاك منه :

يا عاصر الشراع في أقداحي/ موجة قد أمسكت شراعي/ من بحرنا كقطرة الشعاع/....يا عاصر الشراع/ في قلبي العطشان في جراحي/ لتبق قطرتين للمصباح[2].

أما بدر شاكر السياب فتتداخل عنده شخصية السندباد بشخصية أوليس لتأثره البالغ بالدراسات الغربية التي ذهبت إلى اعتبار الأوديسة مصدرا من مصادر شخصية السندباد ، وكان فون هومر من أوائل القائلين بهذا الرأي[3]، فهو في قصيدة "رحل النهار" يستعير بعض ملامح أوديسيوس لشخصية السندباد المحاصرة بالقمع والاستبداد والخراب الذي نستشفه من عبارة "جزر الدم و قلعة سوداء" فكل منهما تاه في البحار، وكل منهما صادف الكثير من العجائب والمخاطر في رحلته ، ولكل منهما استعداد لمواجهة المجهول ورغبة في الانعتاق من أسر الواقع ورتابه الحياة الاجتماعية[4]، وإن ذهب علي عشري زايد إلى أن الشاعر يريد الحديث عن سطوة المرض وغلبته لجسده ، وفي كل الأحوال فإن السياب يحور قصة السندباد لتعبر عن واقعه الذي يراه مسدود الآفاق ، فلا أمل فيه لعودة المغامرين والثائرين مكللين بتيجان النصر ، فها هو الشاعر الذي تقنع بشخصية السندباد يطلب من زوجته ألا تنتظر عودته من سفره ، فالبحر هائج مصطخب ولا أمل لمن ركبه بالعودة، وآلهة البحار وقلاعها السوداء في جزر الدم والمحار له بالمرصاد ، وقد سبق وأشرنا إلى بعض السجون التي كانت تقام في جزر بعيدة منفية موحشة ، وما ذلك بخاف عن السياب وغيره من شعراء العراق يقول:

وجلست تنتظرين عودة سندباد من السفار / والبحر يصرخ من ورائك بالعواصف والرعود / هو لن يعود / أو ما علمت بأنه أسرته آلهة البحار / في قلعة سوداء في جزر من الدم والمحار[5].

---

[1] - البياتي – الأعمال الشعرية - 232 - 233.

[2] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 171-172.

[3] - علي عشري زايد – استدعاء الشخصيات التراثية - 157.

[4] - أنس داود - الأسطورة في الشعر العربي الحديث - 250.

[5] - بدر شاكر السياب – الديوان.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فهذا الثائر الرافض المغامر لم ينج من تشاؤم السياب ويأسه وانتهى نهاية لا تكاد تختلف عن أحزان السياب وبكائياته وصراعه السلبي مع محيطه . ولم يكتف بلند الحيدري بالرحلات السبع المعروفة للسندباد المنتهية بالظفر ، فيضيف إليها رحلة ثامنة مجهولة العواقب للسندباد الذي هو الشاعر الغارق في غربته حتى الضياع ، وربما هو الإنسان العراقي المضطر للرحيل والهروب دائما من واقعه ، وإن لم يسم السندباد صراحة في "الرحلة الثامنة"[1] التي لم يجن منها ومن بحارها غير التيه المغلق وغير التأهب لمرارة الضياع في البحار.

وإلى جانب السندباد نجد **شخصية شهـــرازاد** برفقة **شهريـــار** حينا ومجردة آخر، وإن شاع توظيفها في القصيدة المعاصرة رمز للمرأة العربية أسيرة عصر الحريم وما يوحي به من وصاية مفرطة وحرمان عبر عنه البياتي بلفظة الحريم بدلا من المرأة أو النساء لما "تعنيه هذه الكلمة من دلالات الاستلاب والتشيؤ والذل"[2]، إذ هي مجرد جارية تباع وتشترى يرتبط اسمها في أذهان الشعراء بالشرق القديم حيث الجواري والبخور والحرير، فقد حرص الشاعر المعاصر على تحريرها من هذا الأسر الشبيه بأسره ، فهذا البياتي يغني في قصيدة "الحريم" لشهرازاد الجديدة المتحررة من أسوار عصر الحريم:

ويعود فارسها يغني : لم تعودي شهرازاد !/ - زاد المعاد - /جسدا بأسواق المدينة في المزاد / جسدا يباع / يا أنت ، يا عصفورتي ، يا شهرازاد [3].

ويساهم الشاعر نفسه في الثورة على أسوار الحريم وأفكارها البالية، لأنه يدرك أن الحياة الراهنة تحتاج إلى امرأة حرة واعية تشاركه ثورته على مخلفات الشرق القديم[4].

وقد حاول معين بسيسو أن ينحو بها منحى سياسيا في قصيدة " الحجاج والفيلسوف الأخرس"، إذا استدعى شهرازادا جديدة تجاوزت عتبات الخوف والخطر تروي ولكن في وضح النهار ألف حكاية مشوهة عن بطولات مزيفة وعن نهاية السندباد المأساوية وعن الفيلسوف الأخرس المجذوم وعن بغداد الجريحة ولكن المنتظرة فجرا جديدا :

بغداد أسكرها النواح / وعلى الضفاف الخضر، / تغتسل الضباع وشهرازاد / أخرى مزيفة وألف حكاية / شوهاء في نجم النهار،/ ... كيف قد فقأوا عيون السندباد / وتصيح ماهرة ،تسمي نفسها / قمر الزمان، / .. مولاي قد طوي الشراع / هوذا قميص السندباد، / عليه أختام البحار / .... بغداد أسكرها النواح / وحمامة ناحت بباب الطاق، / تنتظر الصباح.[5]

---

[1] - بلند الحيدري – الديوان- 414 - 229/1

[2] - سامح الرواشدة - شعر عبد الوهاب البياتي والتراث - 64.

[3] - البياتي – الأعمال الشعرية – 185/1.

[4] - المصدر نفسه- 64.

[5] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة – 269- 270.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما جميل شلش فيستحضر كلا من **شهرازاد وشهريار** والسندباد وبعض عذابها وسائر العذاري اللائي أتى عليهن سيف شهريار، ويجعل من شهرازاد رمزا للوطن، يستمد منه القدرة على البقاء والصمود في وجه "شهريار" وحش الليل والشهوة، ويقبس منه بصيص الأمل في الآتي، حيث يفنى التتار وتولد شهرازاد جديدة جديرة بتضحيات كل أبنائها:

لعينيك يا شهرزاد الأمل /... أغني اخضرار الهوى في المقل ، / أغني لتحيا بلادي ، / لعينيك يا شهرزاد الرجا / ... أغني الكلام المباح... وغير المباح ، / أغني لتحيا عدارى بلادي ليلبسن فجر الحياة ، ويخلعن ليل الحداد ،/ ليصرخن : "يا شهريار" / هنا الليل شهوة وحش ، هنا الليل عار، / هنا...حيث "تموز" مازال فينا / إلها سجينا / سيهدم ذاك الجدار، / ونحيا ويفنى التتار، / وتحيا الحقيقة "يا شهريار"/ لأن فؤادي / شراع يهيم مع السندباد / سأبقى أغني / لفجر شبابك / تعاليت عن دنس شهرازاد /.. وقدس مسك ترابك... لعينيك..ها كل ناري جوى واشتياق ، / وها كل ذاتي / ولادة حرف ، وبعث حياة /وفجر قصيده / يغني بها العاشقون الرفاق.../ يغنون : / يا شهرزاد الجديدة ، / لعينيك يا بسمة الرافدين ، / لعينيك نفني ليحيا العراق[1].

هذا وقد تحولت شهرزاد عند بعض الأدباء إلى شخصية أسطورية[2]خارقة.كما كان لشخصية **عـــلاء الدين** حضورها عند كل من معين بسيسو وسميح القاسم ، أضفى عليها كل منهما دلالات سياسية ، وظفها الأول وقد تقمص دور علاء الدين وراح يمزج بين السندباد وعلاء الدين ويستحضر الرخ وجزر الغيلان وهما من قرائن السندباد ، والمصباح والجني وخاتم الطلب وهي من قرائن علاء الدين ، لا ليعبر عن انتصارهما في الأخير بعد مغامرات مريرة وإنما ليضعنا أمام ما كان يتجاذبه من مشاعر اليأس من عودته إلى الأهل وقد اختص منهم خطيبته صهباء ومشاعر الأمل التي أراد أن يختم بها قصيدته ليلمح إلى أنها الأقوى والمنتصرة في الأخير :

أعطيك طير الرخ ، يا حبيبتي ، / أعطيك خاتم الطلب / أعطيك كنز المارد المخبوء في السحب / .... وكل ما جمعته ، من بيض هذه الحيات ، / في الطريق /... لو عاد من جزيرة الغيلان / ذلك المحارب الصغير.. / لكن طير الرخ طار ، / ريشة لم يعطيني ،/ وهاجرت بكترها السحب / واسترجع الجني خاتم الطلب.../ مازلت أنتظر/ ....مازال في العنقود حبة ، / وفي السحاب ، قطرة من المطر، / ما زال في المصباح، / شهقة من الزبد.../ من قال طير الرخ عاقر / وهذه الأمواج لن تلد؟[3].

---

[1]- جميل شلش – الحب والحرية – "أغنية حب إلى شهرزاد" 77- 81.

[2]- مجلة عالم الفكر – مجلد 16 – عدد 3 – ديسمبر 1985 – الأسطورة في الأدب الفرنسي المعاصر – سامية أسعد –114.

[3]- معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة - 254 – 255.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ووظفها سميح القاسم ليعبر عن رفضه لفلسفة الحكم العسكري الذي يحاول اليهود فرضه على الناس قسرا وعن توقعه لفشلها الذريع لأنها لم تبن على أسس منطقية سليمة فما هي إلا طقس سحري أخرج ماردا صغيرا حاول قلب الموازين ولكن الشعب البركان انفجر في وجهه وأرجعه من جديد إلى القمقم[1].

ويبدو حظ السير الشعبية من اهتمام الشاعر المعاصر ضئيلا إذا ما قورن بحظ ألف ليلة وليلة إذ لا نكاد نجد غير إشارة عابرة إلى **سيرة عنترة وأبي زيد الهلالي** في قصيدة توفيق زياد "سمر في السجن"[2]، وإن لم تحمل القصيدة ما يوحي إلى توظيف رمزي للقصة فإننا نستشفه ضمنا لأن استحضار هذه البطولات في أسمار السجن وعلى مسمع من السجان ما هو إلا كناية عن أبطال الثورة الفلسطينية الذين تتسرب أنباء نضالهم إلى قعر الزنازين.

- التصويـــر المـــوروث الأسطـــوري :

تمثل الأسطورة مصدرا من مصادر إلهام الشاعر العربي المعاصر وإحدى أدواته الفنية ضمن عديد من وسائل الأداء الشعري ، استعارها الشاعر بشخصياتها وأحداثها لتفسير أحداث ومواقف عصرية مماثلة أو بغية الإيحاء بمواقف مماثلة[3]، واستطاع الخروج بها من "الاستخدام الساذج إلى التفاعل معها بوعي أعمق ، من رواية متنها الأسطوري إلى إعادة إنتاجها ، من حراسة بنائها المقدس إلى الهجوم على هيكلها المهيب ، وأخيرا من الجلوس تحت سقف دلالتها الأولى إلى تفجيره بحثا عن دلالة أرحب، وأغنى، وأكثر دفئا"[4].

وبقدر ما تمثل الأسطورة حاجة فنية ملحة فرضت نفسها على الشاعر المعاصر، فإنها تمثل حاجة إنسانية واجتماعية وأداة من أدوات النضال على الدوام لما لها من جاذبية ، فهي تربط بين الإنسان والطبيعة وحركة الفصول وتناوب الخصب والجدب ، وتوحد بين الماضي والحاضر، وبين التجارب الذاتية والجماعية[5]، فما دام الإنسان يعيش صراعا مستمرا، ومادام الشاعر يمثل أحد أهم أطراف ذلك الصراع ، كان اهتمامه بكل ما من شأنه أن يعبر عن ذلك الصراع ، ومنه "جاء اهتمامه بالأساطير مستلهما دلالاتها البدئية ومستكنها أبعادها الإنسانية لمواجهة خيبات العصر"[6]، متفهما أبعادها وإشكالياتها الأساسية في إطار مرجعيات كبرى دائمة، كصراع الخير والشر وصراع الجفاف والخصب والحرية والعبودية، رافعا بواسطتها صوته الرافض و الثائر ضد

---

[1] - سميح القاسم – الديوان – 78 - 79.

[2] - توفيق زياد – الديوان – 116 – 117.

[3] - محمد فتوح أحمد – الرمز و الرمزية في الشعر المعاصر – دار المعارف – مصر – 1984 –288 .

[4] - على جعفر العلاق – في حداثة النص الشعري - 48.

[5] - محمد العبد حمود – الحداثة في الشعر العربي المعاصر – 158.

[6] - محمد راضي جعفر – الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر - مرحلة الرواد – منشورات اتحاد الكتاب العرب 1999- 102.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هيمنة الطغيان على الإنسان[1]، وكثيرا ما اتخذها شعراء الحبسيات رمزا للمواجهة الضارية التي غالبا ما تنتهي بالانتصار وعبروا من خلال أبطالها عن نفسياتهم ونفسيات المناضلين من أمثالهم التي لا تهرب من الخطر عندما يضع حياتها وشرفها في الميزان . وكان الخط الواضح في أغلب توظيفاتهم للأساطير ليس الصدام والمواجهة فحسب بل الصبر والصمود الذي ينتهي إما بالانتصار والظفر أو بالفداء والتضحية من أجل الآخرين وهو نوع آخر من الظفر يتخذ من الموت سبيلا للنفاذ إلى الحياة كما في النمط التموزي والأدونيسي[2]. وكانت الأساطير فوق ذلك محاولة فنية جديدة لتصوير ما يعج به الواقع من مشاكل ومساوىء ومخاوف وآمال وصراع دون خوف من الرقيب وعيونه لأنها تقوم على الرمز والإيحاء و المجابهة غير المكشوفة إلا للقلة ، يقول السياب في توكيد فكرة الرفض السياسي بالأسطورة : "كان الدافع السياسي أول ما دفعني إلى ذلك ، فحين أردت مقاومة الحكم الملكي السعيدي بالشعر اتخذت من الأساطير التي ما كان زبانية نوري السعيد ليفهموها ستارا لأغراضي تلك، كما أني استعملها للغرض ذاته في عهد قاسم"[3]، فلبدر شاكر السياب تجارب ثورية في مقارعة الحكم الملكي الإقطاعي في العراق ومحاولة المشاركة في تغييره والثورة عليه ثم في مقارعة رفاقه السابقين في الحزب الشيوعي عند ما تمرد عليهم وأعلن انسحابه .

ويعلن سميح القاسم صراحة أن هذه الأساطير تسهل عملية الاحتيال على السلطة من جهة ومن جهة أخرى هي ضرورة فنية ، يقول عن هذين السببين الكامنين وراء استخدامه الرمز والأسطورة: " ... الأول: الاحتيال على الرقابة المفروضة على كل الفنون في الأرض المحتلة وبالأساس على الفنون العربية . والرمز والأسطورة يتيحان لي تمرير آرائي ومواقفي رغم مقص الرقيب.

الثـــاني : سبب فني محض... من أجل إعطاء البعد الروحي والفردي والإنساني للشعر لا بد من الاستفادة من كنوز التراث القومي العربي والإسلامي والعالمي ومن هنا تفسير تعاملي المعروف على المستوى النقدي مع الكتب الدينية ومع الميثولوجيا العربية والإغريقية والشعوب الأخرى"[4].

من هنا يمكن اعتبار الأسطورة إحدى الوسائل التي يتخفى وراءها الأدباء ليعبروا عن أفكارهم وآرائهم ليقولوا كل ما يريدونه دون أن يتعرضوا لملاحقة السلطة السياسية أو الدينية، وربما كانوا بواسطتها في مأمن من السجن والنفي ومحاولات التدجين أو التصفية، نظريا على الأقل[5].

وقد تنوعت مصادر شعرائنا الأسطورية بين الموروث الأسطوري الغربي مثل بروميثيوس، سيزيف،

---

[1] - نذير العظمة – التغريب والتأصيل في الشعر العربي الحديث – أبو القاسم الشابي نموذجا – منشورات وزارة الثقافة – دمشق – 1999 – 33 – 34.

[2] - نذير العظمة – فضاءات الأدب المقارن – 239.

[3] - عبد الرضا علي – الأسطورة في شعر السياب – 105.

[4] - جمال يونس – لغة الشعر عند سميح القاسم – 111.

[5] - مجلة عالم الفكر – المجلد16 – عدد 3 – سامية أسعد – الأسطورة في الأدب الفرنسي المعاصر – 115.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ديوجينوس، يوليسيز، والموروث الأسطوري الشرقي نحو عشتار، سربروس، أوزوريس، العنقاء ، عروس النيل وهي قليلة إذا ما قورنت بالموروث التاريخي والديني لارتباط الشعراء الوثيق بهما من ناحية وبعد الفكر الأسطوري عن طبيعة المجتمع العربي وبنيته الثقافية من جهة أخرى .

فمن الشخصيات الأسطورية المعبرة عن ثورة شعراء الحبسيات، شخصية **بروميثيـــوس** الذي كان محط عناية للحركات الفكرية والفنية العربية لتحيزه للإنسان ضد المعبودات الوثنية وكل المستفيدين من أسرارها من عرافين وكهنوت ومفكرين وحكا ، وصار رمزا لتضحية الإنسان العنيد المتمرد الثائر الذي يضحي من أجل الآخرين و يتحمل في سبيل تضحياته عذابا شبيها بالعذاب الأزلي الذي سلطته الآلهة على بروميثيوس الأول بتقييده في صخرة القوقاز وإرسال النسور تأكل من كبده الذي كان كلما أتت عليه النسور يعود لينمو من جديد وتعود النسور إلى نهشه من جديد[1].

استدعاه جميل شلش باسمه الآخر المستنبط من فعله المتمرد البطولي "سارق النار" في أول قصائد ديوانه "إلى إخواني الشعراء"[2]، إلى جانب شخصيات أسطورية أخرى مثل سيزيف وعشتار وديوجين ففيها يرى أن الشعب العراقي كله بروميثيوس يتحمل منذ آلاف السنين عقاب كل الثائرين، كل المتمردين كل المستعبدين بما فيهم سارق النار، أو -كما قال – عبء كل الناس: أيها الشعب الذي يحمل من ألف عجاف في ليالي بعثه.../ عن سارق النار، عن المستعبدين،/ عبء كل الناس ... كل الثائرين.

وفي قصيدته "الشعر والنار والزنزانة"[3] ذهب المذهب نفسه بعد أن عرف في الهامش بسارق النار وذكر آخر القصة أن هرقل فكه من الأسر[4]... كان بروميثيوس لا يخشى التعذيب لعلمه أن مصير معذبه في يده، فسارق النار رفيق الشاعر ورفيق الناس وصانع درهم وناحته في عمق الصخر وعلى حر الجمر، قابع في عذابه كما يقبع الشاعر أرقا في زنزانته لا يفارقهما الحلم بالمعاد، شريك له في المصير، في الانتصار على الآلام، على الحكام الذين سماهم أعداء الفجر ونسل النسور الفاجرة التي تناوبت على نهش كبد بروميثيوس قديما :

سارق النار الذي غنى لنا / من عهد عاد، / عن إله رابض في دمنام عن سندباد، / ...سارق النار رفيقي/ ورفيق الناس في ليل الصراع،/ سارق النار الذي شق على الصخر على الجمر طريقي، / ....لم يزل مثلك يا قلبي المعذب قابعا، يأرق في زنزانة الموت..../ يغني../ ينتشي... / يحزن يطرب، / لم يزل يحلم من ألف عجاف../ بالمعاد / سارق النار، رفيقي في المصير،/ لم يزل يحلم بالفجر الكبير، / كبدا أقوى من الآلام/ والأحزان.../ والصمت المرير، / يا عدو الفجر، إن الفجر آت ، / وعلى الباغي تدور الدائره ، / يا عدو الفجر.. يا نسل النسور الفاجره / لم تزل بقيا حياه.....

---

[1] - نذير العظمة – التغريب والتأصيل في الشعر العربي الحديث – 199- 203.

[2] - محمد جميل شلش – الحب والحرية – 15 – 19.

[3] - المصدر نفسه – 106 – 110.

[4] - كرر الشرح نفسه في قصيدة "الحب والحرية" ص95.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبرغم معانات الإنسان العربي عموما والعراقي على وجه خاص في السجون و الملاجيء تظل تومض شعلة من سارق النار المتجدد أو سارق نار جديد، عبر العصور كلما أطفأها الطغاة عادت تضيء على أشلاء فاد جديد، يقول البياتي في قصيدة"سارق النار" :

وسارق النار لم يبرح كعادته / يسابق الريح من حان إلى حان / .. و لم تزل في السجون السود رائحة/ والملاجيء من تاريخه القاني/ مشاعل كلما الطاغوت أطفأها / عادت تضيء على أشلاء إنسان[1].

وإلى جانب هذا الرمز الأسطوري نجد شخصية **سيزيـــف**[2]، رمز العذاب الإنساني اللاهائي حاضرة عند كل من جميل شلش والبياتي والسياب ومعين بسيسو، فكما ينبض الشارع العراقي عند شلش بورثة بروميثيوس ورفاقه في درب النضال وشركائه في الثورة والتمرد والعذاب، ينبض أيضا بسيزيف جديد يبعث الحياة والفجر والأفكار والثورات في قلب صخرة العذاب التي حكم عليه بدحرجتها ودفعها حتى القمة، فإذا أوشكت بلوغها هوت من جديد إلى القاع وعاد سيزيف إلى دفعها من جديد :

في أغانينا العطاش، العربيه / قوة أقوى من الحتم / وإعصارا، وبركانا، وثوره، / ونشيد يزرع الفجر على آفاقنا / يبدع "سيزيف" جديدا / يغني : "يالصخره" / كورت شمسا، وتاريخا وفكره، / فهي في أعماق سيزيف بلادي / منجم، يعمر صدره، / ودم، يذكي دم الأجيال ثوره، / ويد، تصنع للإنسان فجره[3].

وهو عنده في قصيدة أخرى رمز لكل الشهداء الذين يرفعهم الشعب في صرح الحرية : "أيها الشعب الذي يرفع للقمة سيزيف الدماء الراعفه"[4].

وكذلك يتمنى بسيسو أن ينبثق من قلب صخرة العذاب المسلطة على الشعب الفلسطيني أزاهير الحياة "فلتعط صخرة العذاب ، / كل ما في قلبها من الزهر"[5].

ويراه البياتي في إشارة عابرة – يبعث من جديد في صورة المنفي الشريد[6]، عراقيا وفلسطينيا وعربيا.

وينتهي السياب في "رسالة من مقبرة" المهداة إلى المجاهدين الجزائريين بسيزيف الذي وظفه رمزا للمجاهد إلى الانتصار على ثقل الصخرة التي ليست إلا رمزا للآخرين الذين يرفض الشاعر تسميتهم ويكتفي بهذه الإشارة النكرة إليهم ، والتحرر من عبء الدهور، ليستقبل شمس الحرية على قمم الأطلس :

---

[1] - البياتي – الأعمال الشعرية – 127/1.

[2] - عرفه في هامش أولى قصائد الديوان : "من أبطال اليونان كان حكيما داهية ، سخر من الآلهة وقيد الموت حتى ضج منه الآلهة أنفسهم ، ثم قهروه آخر الأمر وقضوا عليه أن ينفق الدهر كله في دفع صخرة من أسفل الجبل إلى قمته ولكن صخرته لا تنفك تهوي إلى القاع كلما أوشكت أن تبلغ القمة" - الديوان - 16.

[3] - محمد جميل شلش – الحب والحرية – 40 – 41.

[4] - محمد جميل شلش – الحب والحرية – 16.

[5] - معين بسيسو – الأعمال الشعرية الكاملة- 255.

[6] - البياتي - الأعمال الشعرية – 181/1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والصخر، يا سيزيف، ما أثقله / سيزيف.. إن الصخرة الآخرون! / ....هذا مخاض الأرض لا تيأسي،/ بشراك يا أجداث حان النشور! / سيزيف ألقى عنه عبء الدهور / واستقبل الشمس على "الأطلس"[1].

ويتفرد جميل شلش باستدعاء شخصية **ديوجينـــوس** حامل المصباح في وضح النهار بحثا عن الإنسان واتخاذه رمزا لحملة مصابيح الكلمة "الشعراء" الذين أهدى لهم قصيدته :"يا يدا ترفع مصباح "ديوجين" "شعار"[2] وقد ختم القصيدة بالمقطع نفسه الذي استهل به توكيدا لأهمية رسالة الشعراء وخطر الكلمة التي تنفجر بها شفاههم في وجه الظلم والطغيان . ويجمع في قصيدة الحب والحرية هذه الشخصيات الأسطورية الثلاث يستحضرها رموزا لنضال الإنسان وصموده بطرق شتى، حينا بالتضحية والفداء كما فعل بروميثيوس وحينا بالصبر والصمود في وجه الجلاد كما فعل سيزيف وآخر بالكلمة الفكرة النيرة كما هي حال ديوجينوس الذي ليس هو إلا شاعرا ورفاق الكلمة ، وهي جميعا في نظر شعرائنا ظفر وانتصار ولو على الطريقة الرومانسية ولو باستمرار العذاب ، طالما هناك من يستفيد من تلك التضحيات ويستنير بتلك العطايا ، فلا شيء يؤلم الطاغية كما يؤلمه الرفض والتحدي ولا شيء يؤلم الجلاد كما يؤلمه صمود ضحاياه وصبرها، ولا شيء يؤلمهما معا كما تؤلمهما الكلمة المتمردة والصوت المرفوع عاليا بلاءات الرفض ، لذلك يفخر جميل شلش بكل أولئك الظافرين المنتصرين من أبناء شعبه.

أما بلند الحيدري فيستدعي شخصية **أوديـــب** ليعبر بها عن نهاية الإنسان المغرور، فبعد أن أشهدنا على نهاية المخبر بعذابات الندم وشعور الخزي والعار أمام أبنائه وجسد ذلك في صورة يهوذا الإسخريوطي ، هاهو يجسد نهاية الإنسان المغرور حاكما كان أو أي ذنب من أتباعه ولواحقه في نهاية أوديب العمياء بلا نور :

مهجور كالليل أنا / كالصمت أنا مهجور / وهنا/ قرب يدي/ ملء غدي/ دنياى دجى مقرور / بيداء/ ربداء/ ونداء مبتور/ .... وأنا الإنسان المغرور / أغور/ أغور[3].

ومن الأساطير الشرقية التي أولع الشعراء بها أسطورة **عشتـــار وتمـــوز** وما تحملانه من دلالات الخصب والبعث واستمرار الحياة وما تثيرانه في النفوس من فرح الإنسان بالأرض والخصب والتجدد ، استعان بها شعراء الحبسيات وكثير ممن سموا بالشعراء التموزيين[4]، للتعبير عن البعث والتجدد لكي يتسنى لهم تخطي الأرض الخراب" والجدب والجفاف والعبث واستدرار أمطار الخصب والحياة والتيمن بعودة الاخضرار وانتعاش الجذور بعد موت[5]. وقد مر بنا في المعجم الشعري مدى حرص الشعراء على الأمل وتطلعهم إلى الغد الجميل والمستقبل المشرق ومحاولتهم تجاوز دمار الحاضر بتنظر إعمار جديد ، وقد وجدوا في هذه الأسطورة بطرفيها

---

[1] - السياب – الديوان – 1/ 391-393.

[2] - محمد جميل شلش - الحب والحرية – 15 – 19 – وانظر أيضا - 39.

[3] - بلند الحيدري – الديوان – 416.

[4] - انظر : مختار علي أبو غالي – الأسطورة المحورية في الشعر العربي المعاصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1998 - 56.

[5] - أسعد رزوق – الشعراء التموزيين – الأسطورة في الشعر المعاصر – دار الحمراء للطباعة والنشر – ط2 – 1990 - 21-22.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ما يعبر عن صراع الخير والشر، الجدب والخصب وما يؤكد أنه لا بد من فجر وإن طال الليل ولابد من ميلاد وإن أعدم الطغاة الحياة .

فالثنائي تموز وعشتار يظهران في الآداب الدينية للحضارة البابلية كزوجين أو حبيبين عشتار الإلهة الأم، تتجسد فيها قوى التناسل في الطبيعة، وكما تحكي الأسطورة يصرع تموز خترير بري، وهو يموت مرة في كل عام، ويهبط إلى العالم السفلي المظلم، فترحل عشتار بحثا عنه وتتوقف في أثناء غيبتها عواطف الحب وينسى الإنسان والحيوان غرائزهما لحفظ النوع، ويهدد الفناء الحياة، ولكن ملكة الجحيم "ارش كيغال" تسمح مكرهة بانبعاثهما مرة إثر مرة كل شتاء، وبعودتهما تنتعش الطبيعة من جديد[1].

ولا يعني تلازمهما في الأسطورة ضرورة تلازمهما في النص الأدبي فكثيرا ما يكتفي الشاعر بذكر أحدهما ويترك للقارىء أمر استدعاء الآخر لاكتمال الصورة، كما فعل البياتي في قصيدة "ربيعنا لن يموت" التي استحضر فيها "عشتار" رمزا للمرأة العراقية المنتظرة عودة زوجها المناضل السجين وكأن انتظارها يهبه قدرة على الصمود والتحدي ورغبة في البقاء من أجل العودة إليها، ومستعينا بالمعنى العام للأسطورة للإفصاح عن أمله في عودة الحياة من جديد من خلال اللازمة التي أصر على افتتاح واختتام القصيدة بها : "عشتروت / ربيعنا لن يموت / مادام عبر البحار / امرأة تنتظر"[2].

وكما ارتفع السياب بالبطلة الجزائرية جميلة بوحيرد وبتضحياتها فوق ما قدمه المسيح عليه السلام ، يرتفع بها أيضا فوق عشتار إلهة الخصب والجدب، ويصنع منها في مقاطع أخرى بطلة أسطورية جديدة تجاوزت في عطائها وفدائها كل حد : "عشتار، أم الخصب والحب ، والإحسان ، تلك الربة الواهه / لم تعط ما أعطيت ، لم ترو بالأمطار مارويت : قلب الفقير"[3].

وفي إطار تقنية قلب الأسطورة يتحول سميح القاسم في "حوارية العار" بتموز من البطل الواهب الربيع والخضرة ومحبوب الجميع إلى الطاغية صانع المآسي واسكندر العصر : "هذا الزمان،كما تشاء / ورهن شهوتك الفلك / يا تموزنا.. والمجد لك[4].

وإذ يرى الشاعر الواقع المظلم من حواليه وتتلبسه حالات من اليأس، تتعطل عنده مواهب الرموز الأسطورية في قدرتها على البعث والإخصاب وتتحول عند البعض إلى قوى تدميرية بخلاف ما عرفت به في الموروث الأسطوري ، وما ذلك التوظيف العكسي إلا للدلالة على أقسى ما يمكن من صور البشاعة ، نذكر مثالا على ذلك "تموز والأفعى" لمحمود درويش ، حيث تحول بهذا الرمز من الخصب والنماء إلى الظمأ والخراب، ومن الشقائق والورود التي تنبثق من دمائه إلى الأفاعي العطشى والسموم، فبعد ما ألف الناس مجيئه

---

[1] - مختار علي أبو غالي – الأسطورة المحورية في الشعر العربي المعاصر- 56- 57.

[2]- البياتي – الأعمال الشعرية – 204/1 – 205.

[3]- بدر شاكر السياب – الديوان – 383/1.

[4]- سميح القاسم – الديوان- 548 – 555.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بخيراته هاهو يعبر خرائب الفلسطنيين فلا يزيدها إلا خواء وظمأ ولكنه برغم كل ذلك لا يستطيع أن يطفئ شعلة الغضب الكامنة فيهم ولا بوارق الشوق والأمل :

تموز مر على خرائبنا / وأيقظ شهوة الأفعى / تموز عاد ، ليرجم الذكرى / عطشا ... وأحجارا من النار / تموز يرحل عن بيادرنا / ...لكنه يبقى بخربتنا / أفعى/ ويترك في حناجرنا / ظمأ / وفي دمنا / خلود الشوق والغضب[1].

وفي قصيدة "سربروس في بابل"التي سجلها السياب بعد ثورة تموز 1958 التي صلى لها كثيرا وتوهم نزول غيثها على وطنه فما لبثت أن انقسمت على نفسها وخيبت الآمال ، يصرح الشاعر أنه سجلها في هجاء هذا النظام صانع النكسات ، يقول : "هجوت قاسما ونظامه أبشع هجاء دون أن يفطن زبانيته إلى ذلك"[2]. وقد حمل أساطير الخصب والبعث التي استعان بها هذه الدلالة الجديدة ، دلالة الوعد الكاذب وشعور الخيبة القاتل ، مع بصيص أمل وإن كان خافتا[3]، اتخذ من **سربروس** كلب الجحيم "حارس الجحيم" برؤوسه الثلاثة رمزا لعبد الكريم قاسم ، يملأ فضاء بابل التي ليست سوى بغداد أو العراق عواء ويمزق صغارها بأنيابه ، وينبش التراب عن تموز الجريح ويقصم ظهره ثم يمص عينيه ويحطم جراره وينثر وروده ودماءه على الأرض ، وتموز غاف لا يفيق ولا يبعث الحياة التي عود الناس عليها في الحقول، مما دفعهم إلى التعجب من هذا الصمت والعقم وتلك الأشلاء والحفر والدماء. فقد مرت العراق بموجات غوغائية باسم الشيوعية ، وتحركت في أجوائها أحقاد شعوبية وطائفية ساهمت في إشاعة أجواء الفوضى وإغراق بغداد في حمامات الدماء[4]. وفي حالة اليأس هذه الشبيهة بيأس أهل العراق من ثورة لم تأت بثمارها الموعودة ، تقبل عشتار لتلتقط لحم تموز المتناثر لإعادة بعثه ، فيلاحقها سربروس وينهش يديها وساقيها ، ولكنه لا يستطيع منع الميلاد المرتقب ، لأن دماءها هي طقوس النماء التي تخصب الأرض وتبعث الإله تموز من جديد . وقد عمد الشاعر إلى المزج بين الأسطورة البابلية القائمة على تموز وعشتار والمصرية القائمة على **أوزوريس وإزيـــس** ذات الأصول البدائية المتقاربة فهو يدعم دلالة إخلاص عشتار ووفائها لزوجها بأسطورة إزيس المعروفة بإصرارها على الوفاء لزوجها والأخذ بثأره من قاتله حتى لو كان أخاها وربما كان يريد من وراء تكثيف هذه الصورة الإشارة إلى حتمية الثأر من عهد قاسم[5].

وقد لجأ السياب تحت وطاة الضغط السياسي والاجتماعي إلى تحطيم الإطار العام للأسطورة ليتواءم مع تموز الجديد الذي ليس هو إلا الشاعر مع احتفاظه ببعض أدواتها ، فالخنزير الذي صرع تموز يعود ليغرز نابه في

---

[1]- محمود درويش – الديوان – 105 – 106.

[2]- يوسف حلاوي - الأسطورة في الشعر العربي المعاصر - دار الآداب - بيروت - ط1 - 1994 - 30.

[3] - مختار علي أبو غالي – الأسطورة المحورية في الشعر العربي المعاصر – 81 - 85 .

[4] - أنس داود - الأسطورة في الشعر العربي الحديث - 288.

[5] - عبد الرضا علي – الأسطورة في شعر السياب – 118، 135.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يد الشاعر ويمتد ألمه إلى كبده ، ولكن دم تموز وجراحاته لم تتحول إلى شقائق أو قمح كما تحكي الأسطورة بل تغدو ملحا لا ينبت شيئا سوى العدم والموت الذين كررهما الشاعر لتكثيف صورة العقم ، أما عشتار فلم تعد تلك الحبيبة القادرة على تجديد شباب الوجود وبعث الحياة :

ناب الخنزير يشق يدي / ويغوص لظاه إلى كبدي، / ودمي يتدفق ينساب / لم يغد شقائق أو قمحا/ لكن ملحا /... لا شيء سوى العدم العدم، / والموت هو الموت الباقي[1] .

وإن بدا هيكل الأسطورة كما أراده السياب منافيا لهيكلها الحقيقي" فإنه أكثر صلاحية للتعبير عن واقع الشاعر من حيث أنه ضحى كما ضحى تموز، ولكنه لم يبعث كما بعث تموز و لم ينتصر – كما انتصر – على قوى الشر التي تستبد بوطنه"[2]، ولكن ذلك لم يقض على يصيص الأمل الذي تشبث به الشاعر، وختم قصيدته بالتفاؤل والإيمان بحتمية الانبعاث وعودة الربيع إلى العراق من جديد ، فبرغم عواء سربروس ونهشه لحم الإلهة الحزينة سيولد الضياء من رحم تتز بالدماء :

ليعو سربروس في الدروب / لينهش الإلهة الحزينة، الإلهة المروعه ،/ سينبت الإله، فالشرائح الموزعه / تجمعت ؟ تململت - سيولد الضياء من رحم تتز بالدماء ! [3].

وفي فضاء تحوير الأسطورة يجند سميح القاسم "**عروس النيل**" لخدمة فكرته بقلب معناها العام في محاولة جادة منه إلى قلب مفاهيم الناس وخلق نفوس جديدة تملك القدرة على الوقوف في وجه الظلم والطغيان وفرض قيم إنسانية جديدة تعتمد على الفكر وإمكاناته دون تغييب لوقائع الأسطورة الإنسانية، ففي عروس النيل يأخذ الشاعر المعنى العام للأسطورة التي تحكي قصة صراع الإنسان مع فيضان النيل وتظهر عجزه في مواجهة هذه الظاهرة الطبيعية وتفسيرها، واستسلامه لطقوس لا يعرف مدى فائدتها بتقديم فتاة حسناء قربانا كل عام أو كل فيضان توسلا إلى النيل الذي يدمر كل شيء في طريقه ولكن هذه الحسناء المهداة قربانا للطمي والطحلب والصدف والأسماك لا تمنع عودة الطوفان مرة أخرى ولذلك فإن الشاعر لم يقف عند هذه النهاية الأسطورية، وإنما ختمها برفض واضح لطروحات الفكر الأسطوري وعرض بديل علمي في التعامل مع الظواهر والقضايا وحل جذري للفيضان ببناء السدود، والتي يرمي الشاعر من ورائها إلى رفض الاستسلام الذي غدا لغة عربية عامة، ودعوة الإنسان العربي إلى مواجهة أعدائه لا بالتعاويذ المضادة للطائرات بل بالاستعداد المادي والمعنوي الممكنين ، فما ذلك الفيضان الداهم إلا المد الصهيوني الذي لا تشبع الضحايا نهمه للأرض. وينتهي الشاعر بنبرة الانتصار لا بالأساطير وقدراتها الخرافية ولكن بالله والإنسان، للشاعر حبيبته وليرتد الطوفان خلف السد :

---

[1] - السياب – الديوان – 410/1 – 413.

[2] - محمد فتوح – الرمزية في الشعر المعاصر – 292 – 293.

[3] - السيـــاب - الديـــوان - 485/1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لمن تزينونها... حبيبتي العذراء! / لمن تبرجونها؟ / .... حسناؤنا... لمن تزف يا ويلكم، حبيبتي... لمن تزف؟ / للطمي، للطحلب، للأسماك، للصدف؟ / نقتلها، نحرمها، وبعد عام / تنزل فينا من جديد نكبة الطوفان / ويومها لن يشفع القربان / يا ويلكم، أحلى صبايا قريتي قربان / ونحن نستطيع أن نبتني السدود / من قبل أن يدهمنا الطوفان ! / *** / بدار .. باسم الله والإنسان / فإنني أسمعه.. أسمعه : / ولي أنا.. حبيبتي العذراء!![1].

ودائما في ظل الأسطورة المصرية وفي ظل إيمان سميح القاسم بالإنسان وبقدرته هذه المرة على استرجاع حقه الضائع والثأر لنفسه، يفيد الشاعر من أسطورة ملكة طيبة **"نايـــوبي"** التي ظلت تنتحب لما بلغها نبأ مصرع أبنائها السبعة حتى أشفق عليها رفس كبيرا الآلهة وجعلها تمثالا تسح من عينيه الدموع ، ولكن الابن السابع - كما تروي الأسطورة- لم يمت ، وحين استرد عافيته نذر نفسه لحرب الغزاة حتى ترضى عنه الآلهة وتعود الحياة إلى أمه وتجف دموعها.

وكأننا به يقابل أبعاد هذه الأسطورة ومأساة الشعب الفلسطيني الذي يتفاءل له بنهاية ثورية منتصرة ، يستجمع فيها قواه وينهض لاسترجاع حقوقه المستلبة ، وقد عودنا الشاعر على امتداد الديوان على هذه النغمة الواثقة الموقنة بحتمية انتصار المظلومين :

لم أمت..../ أنباؤهم كاذبه / كنت جريحا وشرايين إلى الأشجار والطين انتمت / وابن نايوبي الذي استعصى على الموت / أنا الناذر والمنذور والنذر / لترضى الآلهة ولترضى زرقة الموت على أفواه أهلي الواهه/ ويكف الدمع عن أهداب أمي الملكه / بعد أن أسقط عنها / قشرة الصخر وليل الكارثه[2].

فسميح القاسم " في إفادته من الأسطورة بالأبعاد المشار إليها سابقا إنما يعلن أن لجوءه إلى الأسطورة احتجاج على الظلم الاجتماعي والكوني، وبحث عن الإنسان في أنصع صفحاته"[3].

ويطل علينا مرة ثالثة من خلال الأسطورة المصرية القديمة " أوزوريس" إله البعث، ولكنه لا يفقد نفس المناضل وإرادته، كما لا يفقد أمله في ميلاد جديد، ميلاد الشعب، ميلاد الإرادة وميلاد القصيدة التي لم يرحمها النقاد، ولا يفتأ يذكرنا بإيمانه بقوة الإنسان الفلسطيني وإرادته، وإيمانه بعودته إلى الوطن مهما تفرقت به المنافي والملاجيء، ضاربا المثل على تلك العودة الأكيدة بالحمام الزاجل المعروف بالذكاء والقدرة على الانطلاق والعودة : كلمة الإيمان في روما جريمه/ آه يا مصرع أوزوريس... في مصر القديمة!!/ أيها الوحش الخرافي المقنع/ إن في الشمس مخاضا فتطلع/ نقمتي ليست بعيدة/ رغم بعض الصحف.. والنقاد.. والقراء ما عادت بعيده/ أيها المأمون فاسمع/ صوت رؤيا وإراده/ وزغاريد ولاده.. فالحمام الزاجل المنفي لا ينسى بلاده[4].

---

[1] - سميح القاسم – الديوان – 120 – 121.

[2]- جمال يونس – لغة الشعر عند سميح القاسم – 31.

[3]- المرجع نفسه– 132.

[4]- سميح القـــاسم - الديـــوان - "على قلعة الامبراطور" - 474 - 475.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولا يسعنا في ختام هذه الدراسة سوى ملاحظة استجابة الموروث الأسطوري لحاجات الشاعر الفكرية والاجتماعية والفنية وقدرته على الاختفاء خلفها من بطش الحكام.

وقد تكاملت مصادر الموروث في إعطائنا صورة واضحة عن ظروف العصر واضطرابا ته وعن معانات الشاعر تحت وطأتها، فما صور الفراعنة والقياصرة وبطشهم والحجاج وسربروس والتتار وهولاكو والخنزير البري والصقور ويهوذا الإسخريوطي وغيرها إلا معادلات لصورة طاغية العصر وجلاده، وما سبارتاكوس وأبي ذر والحسين والمسيح وبروميثيوس وسيزيف وغيرهم إلا معادلات موضوعية للثائر عبر التاريخ الإنساني، والرافض على امتداده، والمستعد للتضحية والفداء في سبيل ما يؤمن به. وقد كان للشاعر تقنياته وطرقه المختلفة في التعامل مع ذلك الموروث الإنساني الثري، فرأيناه حينا يحتفظ بكل معطياته وأدق تفاصيله وآخر يكتفي باللمحة الخاطفة والإشارة العابرة، وكما رأيناه يعمد في بعض الأحيان إلى قلب أو تحوير ذلك الموروث وإدخال عناصر جديدة عليه للتعبير عن تجربته الشعرية ورؤيته الفنية الخاصة ولتقديم صورة مكثفة الدلالة تعادل ثقل الواقع وتراكم مآسيه ومظالمه دون أن تفقده طبيعته الأولى.

وعلى الرغم من غلبة الطابع المأساوي سواء على الواقع العربي أو على تصوير شاعر الحبسيات له فللأمل مساحته الكافية وأهميته حتى ليكاد يكون مسك الختام المتوقع عند جل الشعراء.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

X Z

الخـــاتمـــة

E Θ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخـــاتمة :

ولا يسعني في ختام هذه الدراسة إلاّ تلخيص أهم ما انتهيت إليه في جملة مـــن الملاحظـــات والنتـــائج أهمها :

- السجن مؤسسة عقابية عرفها الإنسان منذ القدم، ومرت بتطورات وتعديلات إلى أن أصبحت في العصر الحديث مؤسسة عقابية وتربوية إصلاحية في آن، وإن ظل ذلك في الغالب نظريا يكـــاد لا يتجاوز القوانين إلى أرض الواقع.
- إن صلة الشاعر العربي به قديمة قدم هذه المؤسسة، فقد عبر الشعراء عن تجاربهم فيها وتحدثوا عـــن مرارتها وأهوالها وتطلعوا وهم داخلها إلى الحرية، وإن غلبت على الشاعر القديم لغـــة الشـــكوى والرجاء والتوسل التي أثمرت بإطلاق سراح الكثيرين والتي لا تخرج عن دائرة علاقة الشاعر آنذاك بالسلطان والمتمثلة في حاجة البلاطات العربية المختلفة إلى شاعر مداح يرضي غـــرور أصـــحابها، بخلاف الشاعر الحديث والمعاصر الذي خفت عنده هذا الصوت حدّ التلاشي وغلب صوت الرفض والتحدي غير البعيد عن علاقة المثقف المعاصر بالسلطة وبخاصة الشاعر.
- إن مصادر هذه الدراسة من دواوين ومجموعات شعرية وقصائد وقطع متفرقة، لم تكن معروضة في الطريق، فقد كان جمعها من بلدان عربية عديدة عصارة جهد مضن وريبة وحذر وعمر طويل، مما جعلني أحرص على عرض جلّها في الدراسة الموضوعية للحبسيات حذمة للباحثين والدارسين من بعدي، أرجو أن يجدوا ضالتهم فيها وأن أكون قد وفرت عليهم الكثير من المشقة.
- ليس الأدب بمعزل عن محيطه، وقد أثبت الشعراء موضوع الدراسة تمسكهم القوي بقضايا شعوبهم وأكدوا رسالية الأدب ومشاركة الأديب في صناعة الأحداث. ويكفى أنهم مروا جميعا بهذه التجربة المريرة لجرم سياسي عدا شاعرا واحدًا هو الشاعر المصري عبد الحميد الديب، بـــل إن في رصـــيد أغلبهم أكثر من تجربة حبس، فما يكاد الواحد منهم يتنسم عبير الحرية حتى يباغتـــه زوار الفجـــر برحلة جديدة إلى قعر مظلمة أخرى.
- وحتى إذا كان هناك من الشعراء الذين سجنوا لأسباب غير سياسة فإن المصادر والدراسات التي بين أيدينا لم تشر إلى شيء من شعرهم، ربما لأنّهم يخجلون من جرمهم ويرونه وصمة عار غير جديرة بالتخليد، بينما كان الآخرون من دائرة النضال السياسي يفاخرون بالسجن وبالجرم الشريف الذي قادهم إليه.
- لم تشغل الشعراء تلك الظروف القاسية التي كانوا يعانونها بالداخل من محاولات التطلع إلى الحياة خارج السجن لمواساة أهلهم وشعوبهم في سجنهم الكبير، وقد تجاوزت اهتمامات الشعراء همـــوم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الوطن المحدود جغرافيا إلى معاناة الوطن العربي الكبير وقضاياه العادلة وتعدتها إلى قضايا إنسانية عامة في مقدمتها التحرر من كل أنواع الظلم استعمارا وعبودية وطبقية وتمييزا عنصريا...

- كانت هذه النصوص بمثابة وثائق هامة أرخت لمرحلة حرجة في تاريخ الوطن العربي من أشخاص عاشوا التجربة وقدموا لوحات حية عن البيئة المكانية بهندستها الضاغطة على نزلائها، عن الكائنات التي تدب فيها ليلا ونهارا بشرية وحشرية وتقلق راحتهم بفنون عذابها وعبقريتها الفريدة في اختراع أدواته وأساليبه بما لا يخطر على بال مخلوق، وعن الحياة التي كانت تتحرك بالداخل بقوانينها وطقوسها، بعلاقاتها الداخلية الحميمة بين النزلاء بنواديها ومدارسها، بآلامها وتكديراتها يتداخل في ذلك الذاتي بالسياسي.

فقد سقطت مراكز من قلاع العذاب تلك وهدمت أخرى بأوامر حكومية وحولت ثالثة إلى مراكز اجتماعية هامة ولكن الحبسيات حفظت لنا صورتها وخلدت معالمها. وهي المادة التي عز العثور عليها في مصادر ومراجع أخرى كاشفة عدا السير والتراجم والقصص والروايات.

- على الرغم من اختلاف المدارس السياسية والفكرية التي كان ينتمي إليها الشعراء موضوع الدراسة (شيوعيون - اشتراكيون - قوميون - إسلاميون - متحررون...) فإن تجربة الحبس المشتركة والقضايا الوطنية والإنسانية التي حملوا عبء معالجتها صهرتهم وقربت رؤاهم وجعلت بعضها يكمل الآخر ويصنع صورة متكاملة.
- إن السجن بقيوده وظروفه لم يستطع أن يشعر الشاعر السجين بالعجز و لم يلغ وجوده أو يطمس شخصيته، بل إن كل محاولات الإلغاء والتدجين التي كلفت بعض الأنظمة غاليا، أخفقت في عملية التدجين وعجزت حتى عن إسكاته أو حتى منع قصائده المهربة من الوصول إلى الشارع العربي.

فما أدركت القيود إلاّ الأجساد أما النفوس والأفكار فحرة طليقة تتحدى القضبان والجدران والحدود.

- بالرغم من قتامة الواقع ومأساويته، فقد كان للشعراء نظرات استشرافية للمستقبل وتنظر للغد القريب المشرق وتفاؤل بدنو الخلاص، وعليه فقد اختفى من شعر الحبسيات أو كاد يختفى صوت الألم والشكوى والأنين والرجاء.
- وقد كشف الشعراء عن عبقرية عجيبة في التكيف مع ظروف السجن القاسية وقدرة خارقة على ترويض العقبات بل وتحويلها إلى ملهمات، وعلى الاستمرار برغم الحبس الذي يدفع كل ما فيه إلى التأجيل والتجميد والتوقيف والاحتباس وسائر مشتقات المنع المخطط لها.

ومنهم من ألف السجن وألف النظم فيه وصنع علاقة حميمة معه، ومع بعض أماكنه ومقيميه، وعادات نظم في أركانه المختلفة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- كما جلد الآخرون الشاعر وأرهبوه وأقلقوا راحته فقد جلدهم هو الآخر بسياط كلماته وأرهبهم وأحرقهم بأناشيده وأقلق راحتهم بقصائده، وكلما تمادوا في فعل القمع تمادى في رد فعله تحديا وسخرية ونقدا لاذعا وسبابا مقذعا تلميحا و تصريحا وشتى الانتهاكات الفنية المعادلة لانتهاكاتهم.
- مثلما كان لتجربة الحبس أثرها في توجيه الحبسيات موضوعيا كان لها أثرها في صناعة خصوصية فنية لها تميزها عن غيرها من التجارب الشعرية الأخرى، ولعل من أبرز غايات هذا البحث هو الكشف عن هذه الصلة العميقة بين تجربة الحبس والعملية الإبداعية المنبثقة عنها. وقد انتهى البحث إلى الكشف عن هذه الخصوصية من حيث المعجم الشعري و الصورة الإيقاعية والصورة الشعرية.
- لا بد من التنبيه في الختام إلى أن متعة دراسة هذا الضرب من الشعر وملاحقة صوره وكشف خباياه لا يعني الإغراء بالحبس أو دعوة الشعراء والمبدعين لطلبه من أجل معايشة تجربة مماثلة أو قريبة، إذ يبقى الحبس تجربة مريرة وقاسية لن يتمناها عاقل أبدا.
- ولعل هذا البحث أن يكون قد قدم جديدا للدرس الأدبي، وفتح بابا في البحث عن علاقة الأدبي والسياسي، وأعطى هذه الظاهرة الشعرية حقها من الاهتمام.

ومما لاشك فيه أن هذا العمل كأي جهد بشري لا يخلو من تقصير وهنات وأنّه في حاجة إلى الاعتضاد بملاحظات الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة والإفادة من توجيهاتهم.

والحمد لله أولا وأخيرا رب السموات والأرض ورب العلمين.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قـــــائمة المصـــــادر

- القــرآن الكــريــم.

- الكتاب المقدس - العهد الجديد - منشورات دار المشرق - بيروت - ط2 - 1986.

- الدواويــن والمجموعات الشعريــة :

1. أحمد سحنون - الدّيوان - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر .
2. أحمد شوقي - الشوقيات - دار الكتاب العربي - بيروت - د.ت.
3. أحمد الصافي النجفي - حصاد السجن - دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع - لبنان 1951.
4. أحمد عروة - ذكرى وبشرى - مكتبة الشركة الجزائرية - منشورات دار مكتبة الحياة بيروت.
5. أحمد محمد الشامي - حصاد العمر- دار العودة - بيروت - ط1 - 1978.
6. أحمد محمد الشامي – ديوان النفس الأول – مطبعة مخيمر – القاهرة – 1954.
7. الأخطل – الديوان – شرح راجي الأسمر – دار الكتاب العربي – لبنان - 1425 - 2004.
8. بدر شاكر السياب - الديوان - المجلد الأوّل - دار العودة بيروت - 1979.
" " " - " - " الثاني - " " " - 1974.
9. أبو تمام – شرح الديوان – دار الكتب العلمية – بيروت – ط3 – 2003.
10. توفيق زياد – ديوان توفيق زياد – دار العودة – بيروت - 2000.
11. ديوان النقائض - نقائض جرير والفرزدق - دار صادر – بيروت – ط1 – 1998.
12. ديوان النقائض - نقائض جرير والأخطل - دار صادر – بيروت – ط1 - 2002.
13. جمال فوزي - ديوان الصبر والجهاد – دار الثقافة العربية للطباعة – عابدين – دار الأنصار - القــاهرة - دت.
14. " " – الصبر والثبات - دار الآثار - القاهرة - د.ت.
15. حسين الجزيري – ديوان الجزيري - طبع الدار التونسية - 1971.
16. حسين مردان – طراز خاص – المكتبة العصرية – بيروت – لبنان.
17. الحطيئة - الديوان الحطيئة - عمر فروخ - تاريخ الأدب العربي - دار العلم للملايين - الأدب القديم - ط5 - 1984 - 333/1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

18. أبو الخطاب القرشي - جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام - تحقيق محمد البجاوي - دار النهضة مصر
- الفجالة - القاهرة - طـ1.
19. الخطيب التبريزي – شرح القصائد العشر – دار الكتب العلمية – بيروت – ط1 – 1985.
20. ابن خفاجة – الديوان - دار بيروت للطباعة والنشر - 1982.
21. دخيل خليفة – ديوان عيون على بوابة المنفى – ط1 - 1973 – د.ن.
22. دعبل الخزاعي- الديوان - شرح ضياء حسن الأعلمي- مؤسسة النور للمطبوعات- لبنان.
23. سليمان العيسى – الأعمال الشعرية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت- ط1- 1995 - الجزء الأوّل
24. سليمان العيسى - شاعر بين الجدران– دار العلم للملايين –بيروت – ط3 - 1963.
25. سميح القاسم - الديوان - دار العودة - بيروت - 2000.
26. سميح القاسم – الأعمال الكاملة دار الجيل – دار الهدى – ط1 - 1412 - 1992.
27. الشافعي – الديوان - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – لبنان – ط1- لبنان - 2000.
28. طرفة - الديوان – دار صادر – بيروت – 1982.
29. العقاد - عابر سبيل - منشورات المكتبة العربية - صيدا - بيروت. ج3.
30. عبد الرحمن الخميسي – ديوان أشواق إنسان – دار الكتاب العربي للطباعة والنشر – القاهرة - د.ت.
31. عبد الرحمن الخميسى - دموع ونيران - دار الفكر العربي - د.ت.
32. عبد الرحمن الشرقاوي - من أب مصري وقصائد أخرى - دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة - 1968.
33. عبد العزيز أحمد هلالي - ديوان "أنغام شاردة"- مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الإجتماعية - الكتاب الأول- الجمهورية العربية المتحدة. د.ت.
34. عبد الله البردوني - الديوان - دار العودة - بيروت - 1979 - الجزء الأوّل.
35. عبد الوهاب البياتي - الأعمال الشعرية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - 1995 - الجزء الأول.
36. عزيز فهمي - ديوان عزيز (الشاعر الشهيد عزيز فهمي) - دار المعارف - مصر.
37. علي الحلّى - ديوان ثورة البعث – مطابع دار الأندلس – بيروت - 1963.
38. عنترة بن شداد - ديوان عنترة ومعلقته - تحقيق وشرح خليل شرف الدين - دار ومكتبة الهلال - بيروت - لبنان.
39. فايز أبو شمالة – سيضمنا أفق السناء (قصائد مهربة من وراء قضبان السجون الإسرائيلية) مكتبة مذبولي – القاهرة – ط1 - 2002.
40. فدوى طوقان - ديوان فدوى طوقان - دار العودة - بيروت - ط1 - 1978.
41. أبو فراس الحمداني – الديوان - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت – ط - 1977.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

42. الفرزدق – الديـــوان - دار صادر – بيروت.
43. قيس بن الملوح (مجنون ليلى) - الديوان - شرح يوسف فرحات - دار الكتاب العربي - بيروت - 2003 .
44. كمال عبد الحليم - ديوان إصرار - دار الفكر – ديسمبر – 1955- الديوان الأول من مجموعـــة الشـــعر الحـــديث.
45. المتنبي - شرح ديوان المتنبي - وضعه البرقوقي - دار الكتاب العربي - بيروت - 1407 - 1986.
46. محمد بهجة الأثري - ملاحم وأزهار – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة - 1974.
47. محمد جميل شلش – ديوان الحب والحرية – منشورات مكتبة النهضة بغداد.
48. محمد حبيب العبيدي - ديوان ذكرى حبيب – تحقيق أحمد الفخري - مطبعة الجمهورية - الموصل - 1386- 1966.
49. محمد الحلوي – ديوان أنغام وأصداء - دار السلمي للتأليف والترجمة والنشر - الدار البيضاء - ط1-1965 .
50. محمد الشاذلي خزنه دار – الديوان – مطبعة العرب – تونس 1927 - الجزء الأوّل وطبع : الدار التونسية للنّشر - 1972.
51. محمد الشبوكي - الديوان - منشورات المتحف الوطني للمجاهد - 1994.
52. محمد العيد محمد علي الخليفة - الديوان - المؤسسة الوطنية للكتاب - ط3 - د.ت.
53. محمد مهدي الجواهري - ديوان الجواهري – دار العودة – بيروت – ط3 – 1982.
54. محمود درويش - الديوان - دار العودة - بيروت - ط10 - 1883.
55. مفدي زكاريا - اللهب المقدس - المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر - 1991 - وطبعة موفم للنشر - ط3 - 2000.
56. مصطفى وهبي التل – ديوان عشيات وادي اليابس – الأهلية للنشر والتوزيع – عمان – 1989.
57. مضفر النواب - الأعمال الشعرية الكاملة - دار قنبر - لندن - 1996- 1416.
58. معين بسيسو - الأعمال الشعرية الكاملة - دار العودة - بيروت - ط2- 1981.
59. المهلهل - ديوان المهلهل - تحقيق وشرح محمد علي أسعد - دار الفكر العربي - بيروت - ط1 - 2000.
60. أبو نـواس- الديـــوان – دار الكتاب العربي – لبنان – ط 1 – 1423-2003.
61. يوسف القرضاوي- ديوان نفحات ولفحات دار الوفاء - دار الصحوة - القاهرة - ط3 - 1989.
62. الثورة المصرية في الأدب اليمني جمع وتقديم أحمد بن عبد الرحمن المعلمي – منشورات العصر الحديث – لبنان – ط1 -1987.

- المعـــاجم والموسوعـــات :

63. الجوهري - تاج اللغة وصحاح العربية – دار الكتب العلمية - بيروت - 1999.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- ابن خلكان - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - تحقيق محمد محي الدّين عبد الحميد - مكتبة النّهضة المصرية - القاهرة - ط1 - 1367-1948.
64. الرازي - مختار الصحاح - دار الفكر - بيروت - 1981.
65. الزبيدي - تاج العروس - دار الفكر - بيروت - 1994.
66. الزركلي – الأعلام – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان.
67. الزمخشري – أساس البلاغة - تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا - دار المعرفة - بيروت - 1982
68. ابن سيده - المحكم والمحيط الأعظم - القاهرة - د.ن - 1957.
69. عبد العزيز سعود البابطين - معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين - مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري - ط2 - 2002.
70. عزيزة فوال بابي - معجم الشعراء المخضرمين - دار صادر - ط1 - 1998.
71. ابن فارس - مجمل اللغة - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط2 - 1976.
72. ابن فارس - معجم مقاييس اللغة مكتبة الخانجي - القاهرة - ط3 - 1981.
73. الفيروز آبادي - القاموس المحيط - دار الكتاب العربي - بيروت - 1983.
74. ابن منظور – لسان العرب - دار صادر - بيروت - ط1 - 1997.
75. ياقوت الحموي - معجم الأدباء – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان - ط1 -1411 -1991.
76. ياقوت الحموي -معجم البلدان – مطبعة السعادة - مصر – ط1 - 1323هـ -1906.
77. - petite Larousse – illustré 1986-paris
78. - dictionnaire encyclopédique de l'histoire - 5/3693
79. - Encarta 2004 .

- الرسائل الجامعية :

80. بسام علي أبو بشير – معين بسيسو حياته وشعره–جامعة الجزائر – معهد اللغة والأدب العربي - 1991 - 1992– ماجستير.
81. بلقاسم بلهوشات - تجربة المآساة في شعر بدر شاكر السياب - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - 1408-1988 -ماجستر- .
82. عبد الباسط مصطفى عطايا - الشاعر الإسلامي - جمال فوزي حياته وشعره - الأزهر - كلية اللغة العربية - 1407 - 1987- ماجستير.
83. عبد الرزاق محمد السعيد أبو سعدة – الشعر وراء القضبان – اتجاهاته وخصائصه في ظل الدّولة العباسية - 1977- 1987 - جامعة القاهرة - دكتوراه.
84. عبد القادر فيدوح – الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي– جامعة الزقازيق – كلية آداب بنها - قسم اللغة العربية – 1989-1990 - دكتوراه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

85. **عبد المعطي صالح عبد المعطي** – شعر السجون السياسي في النصف الأول من القرن العشرين – جامعة عين شمس - 1992 – دكتوراه.

86. **عكاشة حساين شايف** - مفهوم الأدب في النقد العربي المعاصر - جامعة الإسكندرية - كلية الآداب - قسم اللغة العربية - 1989 - 1990.

87. **ليلى جباري** – الإلتزام في الشعر العربي الحديث في العراق منذ نكبة فلسطين حتى نهاية الستينات – جامعة دمشق كلية الآداب – قسم اللغة العربية وآدابها - 1986 -1987- ماجستر.

88. **محمد البلاجي** - شعر الأسر في العصر العباسي – جامعة الحسن الثاني – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الدار البيضاء– شعبة اللغة العربية وآدابها - 1990 - 1991- الجزء الأوّل - دكتوراه.

89. **محمد زغينة** - شعر السجون والمعتقلات في الجزائر - 1954 - 1962 - معهد الآداب - باتنة - 1989 - ماجستير.

90. **محمد عبد الباسط زيدان** – الاتجاه الوطني في الشعر المصري المعاصر - 1950-1975- جامعة الزقازيق – ماجستير.

91. **محمد محمد عبد البديع** - البناء السياسي والجريمة. (تحليل لبعض أنماط الجريمة السياسية (في المجتمع المصري المعاصر 1952-1981)– جامعة القاهرة – كلية الآداب - قسم الاجتماع - دكتوراه .

92. **محمد محمود الغرباوي** – الشعر في سجون مصر من سنة 1882-1980– جامعة الأزهر – كلية اللغة العربية – الزقازيق – قسم الأدب والنقد – 1413 - دكتوراه.

93. **مشهور عبد الله الأنور فواز** – الشعر السياسي في مصر من 1967 إلى 1980 – ماجستير- جامعة القاهرة – كلية دار العلوم – قسم الدراسات الأدبية.

94. **يحي الشيخ صالح** – أدب السجون والمنافي في الجزائر في فترة الاحتلال الفرنسي - 1830-1962 - معهد اللغة والأدب العربي - جامعة الجزئر - 1993 - دكتوراه

- المراجع :

95. **ابن الأثير** - الكامل في التاريخ - دار الكتاب العربي - بيروت - 1985.

96. **إبراهيم أنيس** : موسيقى الشعر – مكتبة الأنجلو المصرية – ط 3 – 1965.

97. **إبراهيم السامرائي** – لغة الشعر بين جيلين – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت - ط2 - 1980.

98. **إبراهيم السولامي** - الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية 1912- 1956- دار الثقافة – الدار البيضاء – مطبعة النجاح – د.ت.

99. **إبراهيم الفوزان** - الأدب الحجازي الحديث بين التقليد والتجديد – مطبعة المدني – القاهرة -1981.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

100. إبراهيم الكيلاني – رسائل أبي حيان التوحيدي - طلاس للدراسات والترجمة والنشر – دمشق – ط1 - 1985.
101. إحسان عباس : اتجاهات الشعر العربي المعاصر - دار الشروق - عمان - الأردن - ط2 - 1992.
102. إحسان عباس – فن الشعر – دار الثقافة – ط3 – بيروت - 1983.
103. إحسان عباس - فن الشعر " " " " ".
104. أحمد أبو حاقة – الالتزام في الشعر العربي - دار العلم للملايين - بيروت - ط1 - 1979.
105. أحمد أبو سعيد - الشعر والشعراء في العراق 1900 - 1958 - دار المعارف - بيروت - 1959.
106. أحمد بسام ساعي - حركة الشعر الحديث في سورية من خلال أعلامه - دار المأمون للتراث - دمشق - ط1 - 1978.
107. أحمد توفيق المدني - كتاب الجزائر - دار الكتاب - الجزائر - 1963.
108. أحمد سعيد هواش : أصداء النضال العربي في شعرنا المعاصر - دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر - دمشق.
109. أحمد طالب الإبراهيمي – رسائل من السجن – تعريب الصادق مازيغ – الشكة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر والدار التونسية للنشر- أفريل 1983.
110. أحمد عبد اللطيف الجدع – أناشيد الدعوة الإسلامية – دار الوفاء ودار الضياء – الأردن - 1988.
111. أحمد عبد اللطيف الجدع وحسين أدهم جرار – شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث – مؤسسة الرسالة - بيروت - 1978.
112. أحمد قبش – تاريخ الشعر العربي الحديث – دار الجيل – لبنان – د.ت.
113. أحمد محمد الشامي – من الأدب اليمني – دار الشروق - 1974.
114. أحمد مختار البرزة - الأسر والسجن في شعر العرب - مؤسسة علوم القرآن- دمشق - بيروت - ط1 - 1406 -1985م.
115. أحمد محمد الحوفي – أدب السياسة في العصر الأموي – دار القلم - بيروت.
116. أدونيس- الثابت والمتحول – تأصيل الأصول – دار العودة- بيروت- ط3 - 1982.
117. أسعد رزوق – الشعراء التموزيين – الأسطورة في الشعر المعاصر – دار الحمراء للطباعة والنشر – ط2 – 1990.
118. إلهام سيف النصر – في أبو زعبل – دار الفكر الجديد 1975.
119. إمام عبد الفتاح إمام - الطاغية - دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي - سلسلة المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والآداب - الكويت.
120. أنس داود - الأسطورة في الشعر العربي الحديث - دار المعارف - مصر - ط3 - 1992.
121. أنيس المقدسي – أمراء الشعر العربي في العصر العباسي- دار العلم للملايين – بيروت ط 8 – 1969.
122. باقر ياسين - مظفر النواب حياته وشعره - دمشق - د.ن - 1988.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

123. البخاري - صحيح البخاري - دار الكتاب العربي - بيروت - دار الأصالة - الجزائر - 1426-2005.
124. البردوني – رحلة في الشعر اليمني - دار العودة - بيروت - 1972.
125. ابن بسام – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - تحقيق إحسان عباس - الدار العربية للكتاب - بيروت - 1395-1975.
126. بسيم عبد العظيم عبد القادر إبراهيم – شعر الأسر والسجن في الأندلس- مكتبة الخانجي – القاهرة – ط2 -1995.
127. بشرى موسى صالح – الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث – المركز الثقافي – بيروت – الدار البيضاء – ط4 - 1994.
128. الترمذي – سنن الترمذي - دار الفكر - بيروت - ط2 - 1983.
129. ت.س. إليوت – في الشعر والشعراء – ترجمة محمد جديد –دار كنعان للدراسات والنشر – دمشق – ط1 - 1991
130. ثائر حسن جاسم - الإبداع الشعري في النقد العربي إلى نهاية القرن السابع الهجري - دار الرائد العربي - بيروت - 1987.
131. جابر قميحة – التراث الإنساني في شعر أمل دنقل –هجر للطباعة والنشر والتوزيع –القاهرة – ط1 - 1987.
132. الجاحظ - البيان والتبيين – تحقيق عبد السلام هارون – ط4 – د.ت – بيروت.
133. الجاحظ - رسائل الجاحظ - شرح وتعليق محمد باسل - دار الكتب العلمية للدراسات والنشر - بيروت - ط1 - 2000.
134. جان بول سارتر - عارنا في الجزائر - ترجمة عايدة وسهيل إدريس - دار الآداب - بيروت - ط2 - 1958.
135. جبر إبراهيم جبرا – الحرية والطوفان - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - د.ت.
136. جلال الخياط – الشعر العراقي الحديث مرحلة و تطور – دار الرائد العربي – بيروت – لبنان - ط2 - 1987.
137. جلال فاروق الشريف – الشعر العربي الحديث - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 1976.
138. جليل كمال الدين - الشعر العربي الحديث وروح العصر - دار العلم للملايين - بيروت - 1964.
139. جان كازونوف - سيكولوجية أسير الحرب - ترجمة عدنان سبعي وخليل شطا - دار دمشق للطباعة والنشر - دار لبنان - ط1 - 1983.
140. جمال يونس – لغة الشعر عند سميح القاسم – مؤسسة النوري – مطبعة الداودي – دمشق – ط1 –1991.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

141. **الجهشياري** - الوزراء والكتاب - تحقيق مصطفى السقا - إبراهيم الأبياري - عبد الحفيظ شلبي - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر - ط2 - 1980.
142. **جودت نور الدين** – مع الشعر العربي أين هي الأزمة – دار الآداب – بيروت – ط1 - 1996.
143. **جون كوين** – النظرية الشعرية – بناء لغة الشعر – اللغة العليا - ترجمة وتعليق أحمد درويش - دار غريب للطباعة والنّشر - القاهرة - 2000.
144. **حازم القرطاجني** - منهاج البلغاء وسراج الأدباء - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط3 - 1986.
145. **حسن نعيسه** – شعراء من وراء القضبان –دار الحقائق – بيروت - ط1 - 1963.
146. **حسين سعدون** – أنصار 33 - أدب المعتقل - مؤسسة الرؤية للطباعة والنشر- بيروت - 1984.
147. **حسين مروّة** – دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي - مؤسسة الأبحاث العربية - لبنان - ط3 - 1986.
148. **حميد المطيعي** – العلامة محمد بهجة الأثري – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد - ط1- 1988.
149. **حنا مينا** – ناظم حكمت - السجن. المرأة. الحياة - دار الآداب - بيروت - ط2 - 1980.
150. **حنفي المحلاوي** – حكايتي مع السجن الدار المصرية اللبنانية ط1 - 1413 – 1993.
151. **أبو حيان التوحيدي** - الإمتاع والمؤانسة - شرح أحمد أمين وأحمد الزين - منشورات المكتبة العصرية - بيروت - د.ت.
152. **أبو حيان التوحيدي** – مثالب الوزيرين : أخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد - تحقيق إبراهيم الكيلاني - دار الفكر - دمشق.
153. **خالد الكركي** - الرموز التراثية العربية - في الشعر العربي الحديث - دار الجيل - بيروت - مكتبة الرائد العلمية - عمان - ط1 - 1989.
154. **خالد محمد خالد** – رجال حول الرسول – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – لبنان – ط1 - 2003.
155. **خليل أبو جهجه** – الحداثة الشعرية العربية بين الإبداع والتنظير والنقد - دار الفكر اللبناني - بيروت - ط1 - 1995.
156. **ابن خلدون** – المقدمة – دار الرائد العربي - بيروت - 1982.
157. **درويش الجندي** – ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده - دار نهضة مصر - القاهرة - 1970.
158. **الذهبي** – تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام - تحقيق عمر عبد السلام تدمري - دار الكتاب العربي - بيروت - ط1 - 1990.
159. **رجاء عيد ومحمد شوكت** – مقومات الشعر العربي الحديث والمعاصر - دار الفكر - دار الجيل للطباعة - قصر اللؤلؤة - الفجالة - د.ت.
160. **رجاء النقاش** – عباس العقاد بين اليمين واليسار - الهيئة المصرية العامة للكتاب ط1 - 1996.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

161. رشيد يحياوي – الشعر العربي الحديث - دراسة في المنجز النصي - دار افريقيا الشرق - المغرب - لبنان - 1998.
162. ابن رشيق القيرواني - العمدة في محاسن الشعر وآدابه - تحقيق محمد قرقزان - دار المعرفة - لبنان - ط1 - 1988 - الجزء الأوّل.
163. رفائيل بطي - الأدب العصري في العراق العربي - المطبعة السلفية - مصر - 1923.
164. ريتا عوض - قضايا الشعر العربي المعاصر - دراسات وشهادات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس - 1988.
165. زين كامل الخويسكي - العروض العربي صياغة جديدة - دار المعرفة الجامعية - مصر - 1996.
166. ساسين عساف - الصورة الشعرية عند أبي نواس - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - لبنان - ط1 - 1402 - 1982.
167. سالم معوش - شعر السجون في الأدب العربي الحديث والمعاصر - دار النهضة العربية - لبنان - ط1.
168. سالم المعوش - عبد الله بن المقفع مفكر وقضية - مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع - ط1 - بيروت -1424 -2004.
169. سامح الرواشدة - شعر عبد الوهاب البياتي والتراث - وزارة الثقافية عمان الأردن - ط1 - 1996.
170. سامي الكيالي - الأدب العربي المعاصر في سوريا (1850-1950) دار المعارف مصر -مكتبة الدراسات الأدبية - ط2- 1968.
171. سليم ناصر بركات - مفهوم الحرية في الفكر العربي الحديث - دمشق - ط2 - 1984.
172. سماح إدريس – المثقف والسلطة – بحث في روايات التجربة الناصرية – دار الآداب – بيروت – ط1 - 1992.
173. سهيل ادريس - في معترك القومية والحرية - دار الآداب - بيروت - 1977.
174. سوزان بينكنى ستيتكيفيتش - أدب السياسة وسياسة الأدب - ترجمة حسن البنا عز الدين والمؤلفة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1998.
175. سيد حامد النساج - أدب التحدي السياسي في المغرب العربي - دار الرأي - بيروت.
176. سيد حامد النساج - الأدب العربي المعاصر في المغرب الأقصى – دار سعاد الصباح - ط2 - 1992.
177. شاكر النابلسي - مجنون التراب - دراسة في شعر وفكر محمود درويش - المؤسسة العربية للدراسات والنّشر - بيروت - 1987.
178. شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الأول – دار المعارف - القاهرة – ط 8 – د.ت
179. شوقي ضيف – تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الثاني - دار المعارف - القاهرة - ط2 - د.ت.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

180. الشيخ إمام – سنوات الفن والسجن والدموع – دار الأحمدي للنشر – القاهرة – دار التونسية للنشـــر – تونس - 1973.
181. صابر عبد الدايم - موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور – مكتبة الخانجي القاهرة – ط3 - 1993.
182. صابر عبد الدايم - التجربة الإبداعية في ضوء النقد الحديث - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط1 - 1990.
183. صالح سميع المسمري – أزمة الحرية السياسية في الوطن العربي – الزهراء للإعـــلام العـــربي – ط1 - 1409- 1988.
184. صلاح عبد الفتاح الخالدي - سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد –دار القلم – دمشق - د.ت.
185. صلاح مؤيد - الثورة في الأدب الجزائري - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - د.ت.
186. طاهر أبو فاشا – الذين أدركتهم حرفة الأدب – دار الشروق - ط1 - 1401-1981.
187. طاهر عبد الحكيم – الأقدام العارية – دار ابن خلدون – بيروت.
188. الطبري - تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) - دار الكتب العلمية - ط2 - 1408-1988.
189. الطرطوشي – سراج الملوك – تحقيق جعفر البياتي – رياض الريس للكتب والنشر – ط1 - 1990.
190. ابن الطلاع – أقضية الرسول – تحقيق محمد الأعظمي – دار الكتاب اللبناني 1982.
191. طه وادي – جماليات القصيدة المعاصرة - الشركة المصرية العالمية للنّشر لونجمان ط1 - 2000.
192. عادل الأسطة - مظفر النواب - الصوت والصدى - مكتبة مدبولي - 2002.
193. عايدة كنعان – بلند الحيدري – دار سعاد الصباح - الكويت - ط1 - 1998.
194. عباس محمود العقاد - عالم السدود والقيود - مطبعة المعرفة - القاهرة - د.ت.
195. عبد الحليم خفاجي – عندما غابت الشمس – دار النذير – المنصورة - مصر - 1979.
196. عبد الحليم محمد حسين – السخرية في أدب الجاحظ – ط1 – الدار الجماهيرية – ليبيا - 1988.
197. عبد الحميد جيدة - الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر - دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيـــع - طرابلس - لبنان - 1986.
198. عبد الرحمن إبراهيم العقون – من وراء القضبان – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – ط2 - 1969.
199. عبد الرحمن أبو عوف – فصول في السياسة والثقافة والأدب – الهيئة المصرية العامة للكتاب - 2002.
200. عبد الرحمن تبرماسين – البنية الإيقاعية للقصيدة المعاصرة في الجزائر - دار الفجر - القـــاهرة - ط1 - 2003.
201. عبد الرحمن عثمان – الشاعر عبد الحميد الديب – حياته وفنه – دار المعارف – مصر.
202. عبد الرحمن الكواكبي – طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد – مطبعة الأمّة – درب شعلان - مصر - د.ت.
203. عبد الرضا علي – الأسطورة في شعر السياب – در الرائد العربي – بيروت – ط2 - 1984.
204. عبد الستار الحلوجي – الزبيري شاعر اليمن – مطبعة الكيلاني - 1968.
205. عبد العاطي كيوان – التناص القرآني في شعر أمل دنقل - مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – 1998.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

206. عبد العزيز حمودة – المرايا المقعرة – عالم المعرفة – الكويت – أغسطس 2001.
207. عبد العزيز الحلفي – أدباء السجون. مطبعة الزهراء - النجف - . د.ت
208. عبد العزيز المقالح - الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن - دار العودة - بيروت - ط1 - 1978.
209. عبد العزيز المقالح وآخرون - زيد الموشكي شاعرا وشهيدا - مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء
دار الآداب - بيروت - سلسلة أعمال الحرية - 2 -
210. عبد القادر هني – الإبداع في النقد العربي القديم – ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1999.
211. عبد الله الطوخي – سنين الحب والسجن – دار الهلال - عدد 529.
212. عبد المجيد الصغير - الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت – ط1 -1415- 1994.
213. عبد المجيد عمراني - جان بول سارتر والثورة الجزائرية - مكتبة مدبولي - د.ت.
214. عثمان الطاهر علي – الثورة الجزائرية أمجاد وبطولات – المتحف الوطني للمجاهد - الجزائر - 1996.
215. عريم عبد الجبار – السجون الحديثة – طبيعتها خصائصها ووظائفها – مطبعة المعارف – بغداد - 1967.
216. عز الدين إسماعيل – التفسير النفسي للأدب – دار العودة – بيروت – ط4 – 1981.
217. عز الدين إسماعيل - الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية -دار العودة ودار الثقافة - بيروت - ط3 - 1981.
218. عز الدين إسماعيل - الشعر العربي المعاصر في اليمن - الرؤية والفن - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - قسم البحوث والدراسات الأدبية - جامعة الدول العربية - 1972.
219. علاء الدين رمضان السيد – ظواهر فنية في لغة الشعر العربي الحديث –مطبعة اتحاد الكتاب – دمشق – 1996.
220. علي أو مليل – السلطة الثقافية و السلطة السياسية – مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - ط2 - 1998.
221. علي البطل - الصورة في الشعر العربي حتى آخر ق 2 هـ - دار الأندلس - ط1 - 1982.
222. علي جريشة - في الزنزانة - دار الوفاء للطباعة والنشر - مصر - ط3 - 1988.
223. علي جعفر العلاق – في حداثة النص الشعري – دراسة نقدية – دار الشروق – الأردن – ط1 - 2003.
224. علي الشوباشي - الحياة الثقافية في سجن الواحات - العربي للنشر والتوزيع - ط1 - 2001
225. علي عشري زايد – استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر - دار الفكر العربي - القاهرة - 1997.
226. علي عشري زايد – عن بناء القصيدة العربية الحديثة – مكتبة ابن سينا – القاهرة – ط4 – 2002.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

227. **عمار ملاح** – وقائع وحقائق عن الثورة التحريرية بالأوراس، دار الهدى- عين مليلة 2003.
228. **عمر فروخ** - تاريخ الأدب العربي - دار العلم للملايين - بيروت - ط4 - 1981.
229. **عيسى فتوح** – من أعلام الأدب العربي الحديث – دار الفاضل – دمشق - 1994.
230. **غالي شكري** - أدب المقاومة - دار الآفاق الجديدة - ط2- 1979.
231. **غسان كنفاني** – الآثار الكاملة – الدراسات الأدبية- المجلد 4 - مؤسسة غسان كنفاني للثقافة ط1 - ديسمبر 1977.
232. **فكتور هيجو** – مذكرات محكوم عليه بالإعدام - كتاب الهلال - عدد 405 - 1984.
233. **فريدة النقاش** – السجن... الوطن – دار الكلمة ودار النديم – بيروت 1980.
234. **فوزي البشتي** – حكم الثورة في الشعر الليبي - المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان طرابلس - ليبيا - 1985.
235. **فيليسا لانجر** – بأم عيني – ترجمة ونشر مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية – دمشق - 1974.
236. **ابن قتيبة** – الشعر والشعراء - دار احياء العلوم - بيروت - ط5 - 1994.
237. **ابن كثير** – قصص الأنبياء - تحقيق صدقي جميل العطار - دار الفكر - لبنان - 1424-2003.
238. **كارل بروكلمان** – تاريخ الأدب العربي - ترجمة عبد الحليم نجار - دار المعارف - مصر - ط4 - د.ت - الجزء 18.
239. **كريم مروة** – المقاومة - دار الفارابي - بيروت - ط1 - 1985.
240. **كمال خيربك** – حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر - دار الفكر لبنان - 1406-1986.
241. **مارينا ستاغ** – حدود حرية التعبير، تجربة كتاب القصة والرواية في مصر في عهدي عبد الناصر والسادات – ترجمة طلعت الشايب – دار شرقيات للنشر والتوزيع – القاهرة – ط1 - 1995.
242. **مالك حداد** - الحرية ومأساة التعبير لدى كتاب الجزائر - (ترجمة)- وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق - حزيران (يونيو) - 1961.
243. **مأمون محمد سلامة** – قانون العقوبات - القسم العام دار الفكر العربي – القاهرة - ط2 – 1990 .
244. **مجموعة مؤلفين** – الأديب وصناعته دراسات في الأدب والنقد - اختيار وترجمة جبرا إبراهيم جبرا - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ط2 - 1983
245. **مجموعة مؤلفين** – دور الأدب في الوعي القومي - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - لبنان - ط3 - 1984.
246. **مجموعة مؤلفين** – الثقافة والمثقف في الوطن العربي – مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت- 1992.
247. **مجموعة مؤلفين** - السجون مزاياها وعيوبها من وجهة النظر الإصلاحية – المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب -الرياض -1401هـ -1984م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

248. **مجموعة مؤلفين** – عبد الوهاب البياتي في بيت الشعر - أعمال أربعينية البياتي بالتعاون مع اتحاد الكتاب التونسيين - الشركة التونسية للنشر - أعمال بيت الشعر - 1999.
249. **محمد البشير الإبراهيمي** – آثار محمد البشير الإبراهيمي - المؤسسة الوطنية - للكتاب - الجزائر - 1398-1978 - الجزء الأوّل.
250. **محمد حماسة عبد اللطيف** – الإبداع الموازي (التحليل النصي للشعر) – دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – 2001.
251. **محمد راضي جعفر** – الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر – (مرحلة الرواد – دراسة) – منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق - 1999.
252. **محمد رضوان** - فيلسوف الصعاليك - عبد الحميد الذيب - مركز الراية للنشر والإعلام - القاهرة.
253. **محمد السعيد بن الرجراجي** - شاعر الحمراء بين الواقع والادعاء - مطبعة المحمدي - إشهار آسفي- المغرب - ط1- 1419-1998.
254. **محمد صابر عبيد** – القصيدة العربية الحديثة بين البنية الدلالية والبنية الإيقاعية - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2001.
255. **محمد الصادق عفيفي** – الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث - دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع - بيروت - القاهرة بغداد - ط1 - 1969.
256. **محمد الطاهر عزوي** - ذكريات المعتقلين – المتحف الوطني للمجاهد – 1996.
257. **محمد عابد الجابري** - المثقفون في الحضارة العربية - (محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد) مركز دراسات الوحدة العربية - ط1 - بيروت نوفمبر - 1995.
258. **محمد عبد الحليم خفاجي ، محمود محمد حامد** – ملك السجن – دار التوزيع والنشر الإسلامي – ط1 - 2000.
259. **محمد العبد حمود** – الحداثة في الشعر العربي المعاصر – بيانها ومظاهرها – الشركة العالمية للكتاب – ط1 – 1966.
260. **محمد عثمان نجاتي** – القرآن وعلم النفس – دار الشروق – القاهرة - 1985.
261. **محمد عطية راغب** – التمهيد لدراسة الجريمة السياسية في التشريع الجنائي العربي المقارن - مكتبة النهضة المصرية - مطبعة المعرفة - ط1.
262. **محمد علي الصابوني** – مختصر ابن كثير – شركة الشهاب – الجزائر.
263. **محمد علي كندي** - الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث (السياب ونازك والبياتي)- دار الكتاب الجديد المتحدة – لبنان – ليبيا– ط1- 2003.
264. **محمد علي مقلد** - الشعر والصراع الإيديولوجي - دار الآداب - بيروت - ط1 - 1996.
265. **محمد الفاضل بن عاشور** - الحركة الأدبية والفكرية في تونس - معهد الدراسات العربية - القاهرة - 1956.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

266. **محمد فتوح أحمد** – الرمز والرمزية في الشعر المعاصر – دار المعارف – مصر – 1984.
267. **محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحي** – أبو الحسن الحصري القيرواني – مكتبة المنار تونس - 1963.
268. **محمد ناصر- مفدي زكريا** – شاعر النضال والثورة – المطبعة العربية – غرداية – 1984.
269. **محمد ناصر** – الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية (1925-1975) - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط1 - 1985.
270. **محمود الدرة** - حياة عراقي من وراء البوابة السوداء - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1976.
271. **محمود درويش** – يوميات الحزن العادي - دار العودة - بيروت - ط3 - 1981.
272. **محمود السعدني** – مذكرات الولد الشقي في السجن – مطبوعات أخبار اليوم – القاهرة.
273. **محمود طاهر العربي** – هذا المجتمع الظالم سجن مصر – دار المستقبل – القاهرة .
274. **محمود نجيب حسني** – شرح قانون العقوبات – القسم العام – النظرية العامة للجريمة والنظرية العامة للعقوبة والتدبير الاحترازي – دار النهضة العربية – القاهرة – ط5.
275. **مختار علي أبو غالي** – الأسطورة المحورية في الشعر العربي المعاصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1998.
276. **مصطفى أمين** – سنة أولى سجن - كتاب دار نشر اليوم - القاهرة - ط2 - 1975.
277. **مصطفى سالم** - تكوين اليمن الحديث (اليمن والإمام)- معهد الدراسات العربية – المطبعة العالمية – القاهرة
– 1963
278. **مصطفى سويف** – الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة - دار المعارف - مصر ط3 - دت.
279. **مصطفى الشكعة** – الأئمة الأربعة – أحمد بن حنبل – دار الكتاب اللبناني – ط3 -1991.
280. **مصطفى طيبة** – رسائل سجين سياسي إلى حبيبته – منشورات العربي – القاهرة 1978.
281. **مصطفى ناصف** – الصورة الأدبية – دار الأندلس – ط2 .
282. **مفيد محمد قميحة** – الاتجاه الانساني في الشعر العربي المعاصر - دار الآفاق الجديدة - بيروت - 1401-1981.
283. **المقريزي** – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.
284. **ابن المقفع** – الأدب الكبير والأدب الصغير - تحقيق إنعام فوال - دار الكتاب العربي بيروت - 1990-1420.
285. **ميخائيل امطانيوس** – دراسة في الشعر العربي الحديث - المكتبة العصرية - بيروت - ط1- 1986.
286. **ميشال فوكو** – المراقبة والمعاقبة – ولادة السجن – ترجمة علي مقلّد – مركز الإنماء القومي – مشروع مطاع الصفدي VI.
286. **نازك الملائكة** - قضايا الشعر المعاصر - دار العلم للملايين - بيروت - ط6 - 1981.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

287. **ابن نباتة المصري** - سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت -1406- 1986.
288. **نجيب الكيلاني** – المجتمع المريض – مسابقة إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم- الكتاب الفائز بجائزة وزارة التربية والتعليم.
289. **نذير العظمة** – التغريب والتأصيل في الشعر العربي الحديث – أبو القاسم الشابي نموذجا – منشورات وزارة الثقافة – دمشق – 1999.
290. **نذير العظمة** – فضاءات الأدب المقارن - منشورات وزارة الثقافة - دمشق - سوريا - ط1 - 2004.
291. **نزيه أبو نضال** – أدب السجون – دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع – لبنان – د.ت.
292. **نسيب نشاوي** – مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية-ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1984.
293. **ابن هشام** - السيرة النبوية - دار الكتاب العربي - بيروت - 2005.
294. **أبو هلال العسكري** – الصناعتين – تحقيق علي محمد البجاوي – محمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية– صيدا – بيروت - 1986.
295. **واضح الصمد** – السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1 - 1415-1995.
296. **وجيه أبو ذكري** – مذبحة الأبرياء – المكتب المصري الحديث – ط4 - 1988.
297. **ول ديورانت** - قصة الحضارة - ترجمة زكي نجيب محمود - جامعة الدول العربية - الإرادة الثقافية - د.ت.
298. **الولي محمد** – الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي – المركز الثقافي العربي –لبنان –المغرب –ط1 - 1990.
299. **وهبة الزحيلي** - حق الحرية في العالم - دار الفكر - دمشق 2000.
300. **ياسين أحمد فاغور** – الثورة في شعر محمود درويش – دار المعارف للطباعة والنشر – تونس - 1989.
301. **يوسف حلاوي** - الأسطورة في الشعر العربي المعاصر - دار الآداب - بيروت - ط1 - 1994.
302. **يوسف عز الدين** – خيري الهنداوي حياته وشعره – مطبعة البيان العربي - 1964.
303. **يوسف عز الدين** – مقالات في الأدب العربي الحديث - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1393-1973.
304. **يوسف عز الدين** – في الأدب العربي الحديث – بحوث ومقالات نقدية – الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1973.
305. **سيد قطب، هاشم الرفاعي** - لحن الكفاح. الأردن .د، ت- ط.

- المجـــلات :

306. **مجلة الأدب الإسلامي** - عدد 09 - 10 - سنة 03 - 1416-1988 - عدد خاص بنجيب الكيلاني - الكيلاني - الترجمة الذاتية - يحي إبراهيم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

307. مجلة أول نوفمبر - عدد 37 - سنة 1978 - نظام الجبهة داخل سجن الحراش - الطيب علوي.
308. مجلة أول نوفمبر - عدد 157، 158 - سنة 1997 - أشكال من سياسة التطويق الاستعماري خلال الثورة الجزائرية - الغالي العربي.
309. مجلة أول نوفمبر - عدد 88، 89 - سنة 1988 - محمد الطاهر عزوي - المعتقلات في الجزائر.
310. مجلة التراث - نوفمبر 1994 - جمادي الثانية 1415 - عدد خاص بالذكرى الأربعين للثورة - علي خلاصي أساليب التعذيب والتنكيل التي مارستها فرنسا ضد الشعب الجزائري (1954-1962).
311. مجلة دراسات أدبية وإنسانية - جامعة الأمير عبد القادر - عدد 04 - نوفمبر 2005 - سكينة قدور - قراءة في الديوان الشرقي للشاعر العربي - غوته.
312. مجلة الرسالة - عدد 1007 - أكتوبر 1952 - المنفلوطي الشاعر العربي الجريئ - محمد رجب البيومي.
313. مجلة الرؤية - سنة 02 - عدد 03 - السداسي الأوّل - فظائع الجيش الفرنسي في الجزائر أثناء الثورة - محمد الدرعي - المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية - وزارة المجاهدين 1997.
314. مجلة الرؤية - سنة 02 - عدد 03 - أحسن بومالي مراكز الموت البطيء وصمة عار في جبين فرنسا الاستعمارية.
315. مجلة عالم الفكر - المجلد 16 - عدد 03 - سامية أسعد - الأسطورة في الأدب الفرنسي المعاصر.
316. " " - المجلد 33 عدد 02 - أكتوبر - ديسمبر 2004 - إبراهيم نمر موسى - توظيف الشخصيات التراثية في الشعر الفلسطيني المعاصر.
317. مجلة العربي - عدد 200 - يوليو 1975 - جمال الدين محمد محمود - السجون بين الأمس واليوم.
318. مجلة عالم الفكر - مجلد 11 - العدد 01 - 1980 المدينة الإسلامية - سعيد عبد الفتاح عاشور.
319. " " " - المجلد 33 - العدد 2 - أكتوبر - ديسمبر 2001 - إبراهيم نمر موسى - توظيف الشخصيات التاريخية في الشعر الفلسطيني المعاصر.
320. مجلة المجاهد - جـ2 - عدد 90 - فيفري 1961- المحتشدات أيضا قوة للثورة.
321. مجلة عالم الفكر - مجلد 16 - عدد 3 - ديسمبر 1985 - سامية أسعد - الأسطورة في الأدب الفرني المعاصر.
322. مجلة المصادر - عدد 05 - صيف 2001- موقف المثقفين الفرنسيين من التعذيب في السجن والمحتشدات أثناء الثورة الجزائرية - محمد الأمين بلغيت - المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر - وزارة المجاهدين.
323. مجلة أقلام المغرب - عدد 9 - 10 - 1965 - قصيدة من كلام الأموات - أحمد المجاطي.

- المواقع الإلكترونيـــة :

324. أدب المقاومة - مقال جهاد الرجيبي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

325. صفحة طعام وتعزية 2002 . w w w taam . net / new

326. www- ebn maryam . com / 1 . htm.

327. نيرون أمريكا .www. Al-Moharer .Net

328. مردان حسين - .gehat-com - files

329. - http : // spartacu. Com / nather. Htm.
- " " " " / gallery. Htm.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

X Z

الملاحق

E Θ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الملحق

1. **إبراهيم الأسطي عمر** : (1907-1950) شاعر ليبي عصامي، قاوم الاحتلال الإيطالي ووقع في قبضته، فسجن، وبعد الإفراج عنه عاد إلى نضاله من جديد، كما قاوم الإنجليز من بعدهم فنفوه ووضع تحت الإقامة الجبرية والحراسة المشددة إلى أن وافته المنية. (سام المعوش - شعر السجون - 677 ومحمد الصادق عفيفي – الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع - بيروت - القاهرة بغداد - ط1 - 1969 - 425 -434 وسالم المعوش –شعر السجون في الأدب العربي الحديث والمعاصر – 671، 676).

2. **إبراهيم الحضراني** : ولد في حضران، عام 1918 ، شارك في انقلاب 1948 وسجن لثلاثة أعوام. (أحمد قبش تاريخ الشعر العربي الحديث - 526 والبردوني - رحلة في الشعر اليمني - 72).

3. أحمد سحنون : (1907-2066) من مواليد ليشانة قرب بسكرة ، تلقى تعليمه على يد والده ثم الشيخ خير الدين و شيوخ زاوية طولقة ، اتصل بالشيخ ابن باديس و أدار مدرسة التهذيب الحرة بالعاصمة ، ونشر إلى جانب التعليم مقالاته الإصلاحية و شعره في جرائد الجمعية . اعتقل إبان الثورة التحريرية و أفرج عنه أواخر 1959 ولكن جبهة التحرير أخفته خوفا من تهديدات المخابرات الفرنسية بتصفيته . عاد بعد الاستقلال إلى عمله الإصلاحي ، وعاود تجربة الحبس عام 1982 وكان نتاجها ديوان شعر مخطوط تعذر الوصول إليه . وبعد خروجه من السجن واصل دروسه وخطبه إلى أن وافته المنية . (محمد ناصر الشعر الجزائري الحديث – 677 ومحمد زغينة – شعر السجون والمعتقلات في الجزائر – 285-286).

4. **أحمد الصافي النجفي** : (1897-1977) شاعر عراقي درس في معاهد بغداد العلمية والأدبية شارك في الثورات العراقية ضد الإنكليز و كان من الممهدين لثورة العراق الكبرى 1920، وفر بعدها إلى إيران، ثم عاد إلى النجف عام 1927 وسرعان ما غادرها إلى لبنان وسوريا شارك في إحدى المظاهرات المنددة بالإنكليز بلبنان فسجن مدة شهرين. أطلق عليه الرصاص وهو يهم بالخروج من منزله في بيروت عام 1976 أثناء الحرب اللبنانية فأعيد إلى العراق و أدخل مدينة الطب للمعالجة وبقي فيها إلى أن وافته المنية.له ما يقارب 14 ديوانا شعريا منها : الأمواج، أشعة ملونة، الأغوار التيار، اللفحات، ألحان اللهيب، الهواجس، شرر الشلال، حصاد السجن...(نسيب نشاوي – مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية-ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر/ 97). وأحمد قبش- تاريخ الشعر العربي الحديث – دار الجيل- بيروت – د.ت.ط./ 255 وأحمد الصافي النجفي – ديوان حصاد السجن – المقدمة.)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

5. **أحمد عروة** : (1926-1992) ولد ببلدة مدو كال بباتنة في بيئة دينية كان أبوه إماما، تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بالجزائر، ثم فرنسا حيث تخرج منها طبيبا اعتقل في فترة الثورة المسلحة في معتقل بوسوي وهناك كتب مجموعات شعرية عديدة بالفرنسية نحو : au delà des barrières وواحدة بالعربية عبر فيها عن مآسي الشعب الجزائري هي ذكرى وبشرى. تقلد عمل غداة الاستقلال مديرا للثقافة بالوزارة، وعميدا لجامعة الأمير عبد القادر، له عدة مؤلفات فكرية إسلامية منها الإسلام في مفترق الطرق – الإسلام والعلم- العلم والدين. (يحي الشيخ صالح – أدب السجون والمنافي - 414. وديوان ذكرى وبشرى - مقدمة الشيخ أحمد سحنون).

6. **أحمد المعلمي** : ولد 1919 في بيت علم وأدب وفقه، هاجر إلى صنعاء واختلط بأدبها وعلمائها، كان في طليعة الأحرار الذين سيقوا إلى سجن حجة إثر فشل الانقلاب. (البردوني - رحلة في الشعر اليمني - 91. وأحمد محمد الشامي الأدب اليمني - 146).

7. **أحمد محمد الشامي** : شاعر يمني من مواليد الضالع 1342هـ-1924م، هو ابن السيد محمد بن محمد بن أحمد الشامي عامل المدينة من قبل الإمام يحي، تعلم في الكتاب ثم في صنعاء، شارك في ثورة 1948 ودخل سجن حجة 5 سنوات بعد فشل انقلاب 1948، وانتهي به المطاف إلى اليأس واستعطاف الحاكم بمدحه والتذلل له ورجائه، عين وزيرا في مجلس اتحاد الدول العربية سنة 1958 (أحمد قبش – تاريخ الشعر العربي الحديث – 528 وعبد العزيز المقالح – الأبعاد الموضوعية لحركة الشعر المعاصر في اليمن – 78).

8. **أنور عشقي** : (1264هـ-1336هـ)من أدباء المدينة المنورة ثار مع بعض رفاقه على الولي التركي على بطشه وظلمه لسكان المدينة فزج به سجن القلعة بالطائف سنة 1327هـ (إبراهيم الفوزان الأدب الحجازي الحديث بين التقليد والتجديد – مطبعة المدني – القاهرة -1981-190/1).

9. بدر شاكر السياب : (1926 - 1964) شاعر عراقي ولد في قرية جيكور وأكمل تعليمه الثانوي بالبصرة والعالي ببغداد. من رواد الشعر الحديث تبنّى الفكر الشيوعي في إحدى مراحل حياته ثم تحول عنه إلى القومية. سجن عام 1946 في بغداد ثم بعقوبة، واقتيد إثر وثبة 1948 إلى سجن البصرة فإلى سجن بغداد، ثم سجن في خريف 1955 أسبوعا وغرم، وسجن بضعة أيام عام 1958. قضى آخر أيامه في صراع مع المرض والفقر.(ديوان بدر شاكر السياب - دار العودة - بيروت 1971/1. ج1/ المقدمة ناجي علوش).

10. **عبد الله البردوني** : ولد عام 1925 في البردون باليمن، أفقده الجدري البصر في السابعة من عمره، تلقى تعليمه في ذمار وصنعاء، درس الأدب في دار العلوم بصنعاء، عمل مديرا ببرامج الإذاعة، سجن في سجن الرادع بصنعاء (مقدمة الديوان – المجلد الأول –بيروت - 1979).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

11. **بلند الحيدري** : (1926-1996) ولد في مدينة السليمانية(بكردستان العراق)من أسرة كردية برجوازية، كان والده عسكريا ولكنه انسلخ عن طبقته فسمي"بالابن الضال"، انضم إلى جماعة "الوقت الضائع" وقيل هو مؤسسها، ينسبون أنفسهم إلى بعض الوجودية والماركسية، وهم نفر من الشباب القلق الحائر، كانوا يتناقشون ويسكرون في مقهى ببغداد ابتدعوه وأطلقوا عليه اسم"واق الواق" وفيه كانوا يرسون أسسا للحداثة في الرسم والنقد والقصة والشعر. دخل السجن هو وزوجته عام 1963 حوالي سبعة أشهر، بسبب موقفه من الانقلابين الذين استشهد على أيديهم"جمال الحيدري"، عرف المنفى وعاش في بيروت بعض سني حياته، ثم في لندن منذ 1980 أو 1982 وبقي فيها إلى وفاته (عايدة كنعان – بلند الحيدري – دار سعاد الصباح ط1 1998- الكويت – 14- 17 . ومحمد راضي جعفر- الاغتراب في الشعر العراقي – منشورات اتحاد الكتاب العرب 1999-65-66).

12. **توفيق زياد** : (1929-1994) شاعر فلسطيني ولد في مدينة الناصرة، أنهى بها دراسته الثانوية، عمل محترفا في صفوف الحزب الشيوعي وقام بتحرير صحافته، أوفده الحزب إلى العديد من الدول الاشتراكية والغربية واختير رئيسا لبلدية مدينة الناصرة 1976، وانتخب في السنة نفسها نائبا في البرلمان عن الحزب الشيوعي عمل في الكنيست اليهودي لعدة دورات، له إلى جانب الشعر كتابات قصصية ومقالات من أعماله: – عن الأدب الشعبي الفلسطيني – نصراوي في الساحة الحمراء – كلمات مقاتلة – سجناء الحرية – حال الدنيا – مجموعة حكايات. (معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين ط2 - 2002 مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري – ونسيب - نشاوى المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر - 442).

13. **جمال فوزي** : شاعر مصري عايش تجربة السجن على امتداد ثلاث حكومات متتالية أيام الملكية عام 1949، ثم في العهد الناصري 1954 ثم 1965 ومكث إلى ما بعد وفاة عبد الناصر – وفي العهد الساداتي عام 1981 وقد لاقى أعتى أنواع العذاب وأشدها على يد سدنه السجن الناصري، فقد عينه اليسري، وأصيب بانزلاق غضروفي خرج مقعدا، (الشاعر الإسلامي– جمال فوزي – حياته وشعره – عبد الباسط سعيد مصطفى عطايا – ماجستير – الأزهر – 1987 - 1407 - 65-111).

14. **حسين مردان** : من طلائع الشعراء الذين أثاروا فكرة التجديد في الشعر العراقي الحديث، ومن أكثر الشعراء جرأة وتقحما، ومن أوائل الشعراء الذين دعوا إلى تهديم أسوار التقليد ليس في الشعر فقط بل في مناحي حياته، وكان أن جلب له تحرره المشكلات واللعنات والشتائم والشهرة وأودعه السجن سنة 1949 بعد صدور ديوانه"قصائد عارية" فمكث فيه شهرا بعد محاكمة طويلة تتبعها الناس بشغف وارتفعت الأصوات المنادية بإعدامه في ساحة الميدان وإحراق ديوانه علنا، وعاد إلى السجن مرة ثانية عام 1952 بعد صدور ديوانه"عزيزتي فلانة"المتضمن أشعارا جنسية مماثلة لسابقتها، وظل يرسف في الأغلال سنة كاملة، ليكون أول شاعر عراقي يسجن لقصائده الجنسية الجريئة (جلال الخياط – الشعر العراقي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحديث – مرحلة و تطور – دار الرائد العربي – بيروت – لبنان - ط2 -1987- 138-151. والموقع الإلكتروني الخاص بالشاعر : files- مردان حسين - gehat-com).

15. **حنا أبوحنا** : (1928) ولد في قرية الرينة قرب الناصرة ودرس في الكلية العربية في القدس، عمل في التعليم والصحافة، له بحوث أدبية ونقدية، ويعد في الرعيل الطبيعي الأول الذي تتلمذ عليه وعلى شعره معظم شعراء المقاومة العربية في فلسطين المحتلة . له ديوان تلك الجراح(غسان كتفاني – الآثار الكاملة – 315/4).

16. خيري الهنداوي : (1885-1957) شاعر عراقي من أم تركية، نشأ في بغداد وكان له نضال طويل ضد العثمانيين الذين سجنوه أكثر من مرة. وناضل بعدهم في صفوف الثورة العراقية ونفي مع زعماء الحلة إلى جزيرة هنجام من جزر الخليج العربي. (الزر كلي – الأعلام 328/2 وأحمد قبش تاريخ الشعر العربي الحديث -ويوسف عز الدين –خيري الهنداوي حياته وشعره – مطبعة البيان العربي - 1964. وللؤلف نفسه مقالات في الأدب العربي الحديث – الهيئة المصرية العامة 1393هـ-1973-165-173.

17. **زيد الموشكي** : (1895-1948) اشتهر بالنباهة والذكاء واختلط بأبناء الإمام وصار أستاذا للصغار منهم، وهناك تكشفت له عيوب القصر فراح ينصح الإمام في شجاعة نادرة، فأضمرها في نفسه إلى فشل حركة 1941، اعتقل مع الرفاق واستعطفوا الإمام فأطلق سراحهم وشارك من جديد في الإعداد لانقلاب 1948، الذي فشل بدوره وانتهي بسجن الموشكي وإعدامه العاجل. (البردوني - الثقافة والثورة في اليمن - المنظمة العربية - جامعة الدول العربية - 1972 - 32. والزر كلي- الأعلام-60/3 وعبد العزيز المقالح وآخرون - زيد الموشكي شاعرا وشهيدا - مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء- دار الآداب-بيروت - سلسلة أعلام الحرية في اليمن - 2).

18. **سليمان العيسى**- شاعر سوري معاصر عايش أحداث اغتصاب لواء الاسكندرون عام 1939، واصل تعليمه الثانوي في دمشق والجامعي في بغداد، من المؤسسين لحزب البعث العربي الاشتراكي، من دعاة الوحدة القومية والاشتراكية، ومن أنصار النضال القومي العربي والقضية الفلسطينية، سجن لمواقفه في سجن النظارة بدمشق وسجن المزة العسكري 1954 . (نسيت نشاوي مدخل إلى المدارس الأدبية 373. سليمان العيسى– ديوان حبات من الرمال الذهبية – صفحة الغلاف الداخلية.

19. **سميح القاسم** : (1939) شاعر فلسطيني معاصر، عمل في التعليم، ثم فصل منه بسبب شعره الثوري وانضمامه إلى المقاومة، انتمى إلى التيار اليساري ، سجن أكثر من مرة منها عام 1961 وعام 1967 فرضت عليه الإقامة الجبرية وعدم مغادرة البيت بعد السادسة مساء إلا أن الشاعر الحر لم يطق هذه القيود واختار التنقل في البلاد العربية والغربية . (أحمد قبش- تاريخ الشعر العربي الحديث - 674. و غسان كتفاني – الآثار الكاملة – 4/ 345).

20. **سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي** : (1906-1966) ولد بمحافظة أسيوط، حصل على شهادة البكالوريا في الأدب عام 1933، شغل عدة وظائف في وزارة المعارف وأوفدته الوزارة إلى أمريكا سنتين

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إذ عاد عام 1950 واستقال من عمله بعد قيام الثورة بشهور بعد 19 سنة خدمة، من أوائل ضحايا الثورة إذ حكمت عليه بـــ 15 عاما سجنا قضى معظمها في ليمان طرة بالمستشفى، أفرج عنه بعفو صحي عام 1964 ليعود إلى السجن سنة 1965 ويحكم عليه بالإعدام ترك سبعة وعشرين كتابا في الأدب والنقـــد والفكر الإسلامي. صلاح عبد الفتاح الخالدي -سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد —دار القلـــم — دمشق -15 - 17).

21. **الطيب العلوي** : (1900-1964) شاعر مغربي، امتهن النضال في سبيل الوطن قرابة ربع قرن وسجن في سبيل ذلك النضال وبسبب أفكاره مرات عديدة منذ 1925 إلى 1952 (إبراهيم السولامي - الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية 1912- 1956-دار الثقافة — الدار البيضاء — مطبعة النجـــاح — د.ت ودور الأدب في الوعي القومي — مجموعة مؤلفين — مركز دراسات الوحدة العربية — محاصرة هـــلال ناجي — 195).

22. **عباس محمود العقاد** : (1889-1964) أديب وناقد ومفكر مصري، أسس مع المازني وعبد الرحمن شكري جماعة الديوان، سجنه الملك فؤاد الأول عندما صاح في إحدى جلسات البرلمان "إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس في البلاد يخون الدستور ولا يصونه" فصدر أمر بحبسه تسعة أشهر وغادر السجن في 8 جويلية 1931، كتب في شتى الموضوعات الفكرية والأدبية والدينية والاجتماعية، له ما يزيد عن الثمانين مؤلفا. (أحمد قبش — تاريخ الشعر العربي الحديث - 227. ونسيب نشـــاوي — مـــدخل لدراسة المدارس الأدبية — 217. ورجاء النقاش — عباس العقاد — بين اليمين واليسار - الهيئة المصـــرية العامة للكتاب - ط1- 1996- 61-113).

23. **عبد الحميد الديب** : (1898-1943) شاعر مصري من أسرة فقيرة بإقليم المنوفية، انتقل إلى الأزهر ثم غادره إلى دار العلوم دون أن يكمل تعليمه في أي منهما، سجن أكثر من مرة بسبب إدمانـــه الخمـــر والمخدرات، وقد عالج معاناته وفقره في أسلوب شعري فكاهي ساخر. (عبد الرحمن عثمان — الشـــاعر عبد الحميد الديب — حياته وفنه — دار المعارف — مصر. وطاهر أبو فاشا — الذين أدركتـــهم حرفـــة الأدب — دار الشروق - ط1 - 1401هـ-1981- 121-166).

24. **عبد الرحمن الشرقاوي** : شاعر مصري حديث اشتهر بمسرحياته الشعرية وقد مثل أغلبـــها علـــى خشبات القاهرة مثل الفتى مهران، مأساة جميلة بوحيرد، مأساة الحسين، الأسير، سانت كرين.(نسيب نشاوي -المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر - 396) .

25. **عبد الرحمن العقون** : (1908) ولد بواد زناتي، تعلم بها وحفظ القرآن الكريم، انضم إلى الحركـــة الوطنية وكتب في ذلك الشعر والمقالات، اعتقل إثر أحداث الثامن ماي 1945 ثم عاد إلى الســـجن في بدايات الثورة وأفرج عنه عام 1956. عمل سفيرا للجزائر بعد الاستقلال، ثم في سلك التعليم (محمـــد ناصر— الشعر الجزائري الحديث - 668 ويحي الشيخ صالح ، أدب السجون والمنافي في الجزائر— 412).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

26. عبد الكريم الطبال : (1931) شاعر مغربي معاصر اشتغل بالتعليم الثانوي، وشارك في الأحداث المغربية من الخمسينيات إلى أواسط السبعينيات، فلوحق واضطهد واعتقل (سالم المعوش – شعر السجون - 676).

27. عبد المجيد المجراب : (1938) شاعر ليبي معاصر هاجم في شعره الاستعمار والنظام الملكي وشارك في المواجهات التي عرفتها الساحة الليبية فاعتقل بسببها. (سام المعوش - شعر السجون - 683).

28. عبد الوهاب أحمد جمعه خليل البياني : (19 ديسمبر 1926-03 أوت 1999) شاعر عراقي من شعراء الطليعة المعاصرين، اعتقل أربع سنوات من 1950 إلى 1953 زمن حكومة نوري السعيد، ثم سجن مرة أخرى عام 1954 عشية دخول العراق إلى حلف بغداد غادر العراق إلى سوريا ثم بيروت ثم القاهرة ثم عاد إثر ثورة 1958 ونفي بسبب مواقفه الوطنية وسحبت منه عام 1963 الجنسية العراقية وجواز السفر و لم ترد إليه إلا عام 1968 ولكنه لم يلزم العراق و قضى بقية عمره متنقلا بين بلدان العالم إلى أن وافته المنية (عبد الوهاب البياني في بيت الشعر – أعمال أربعينية البياتي بالتعاون مع إتحاد الكتاب التونسيين – الشركة التونسية للنشر – أعمال بيت الشعر 4-1999 -13-33).

29. عزيز عبد السلام فهمي : (1909-1952) ولد بطنطا، درس الحقوق سنة 1933 بالقاهرة ثم واصل تعليمه بباريس عام 1938، اشتغل بالمحاماة بعدها، اعتقل بتهمة العيب في الذات الملكية (في الحرب العالمية الثانية) دخل البرلمان نائبا عام 1952، ومات في حادث سيارة انقلبت به في النيل (الأعلام – الزر كلي – 231/4).

30. على الحلي : شاعر عراقي حديث نشر قصيدته الأولى عام 1946، كان متأثرا بالجواهري، من دواوينه الشعرية "المشردون، و"ثورة البعث" (حسن نعيسه – شعراء من وراء القضبان –دار الحقائق – ط1 - 1986 – 345 وديوان ثورة البعث – مطابع دار الأندلس - 1963 – بيروت).

31. علي صدقي عبد القادر : ولد عام (1924) في مدينة طرابلس وتعلم فيها وحصل على دبلوم التعليم وإجازة في المحاماة، اشترك في حركة العصيان المدني الرافضة تقسيم ليبيا إلى نفوذ إيطالي – بريطاني – فرنسي، فلوحق وسجن.

32. عيسى حمو النوري : (1914-1992) ولد ببلدة بنورة إحدى قرى وادي ميزاب تلقى تعليمه بالمعهد الجايدي ببني يسقن ثم العاصمة، انتمى إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، نشر في جريدة الشهاب والبصائر والثورة والأمة ثم في المجاهد والجيش بعد الاستقلال، شارك في نشاط حزب الشعب الجزائري ثم في صفوف جبهة التحرير سجن وحكم عليه بالإعدام ثم عدل الحكم إلى السجن المؤبد ثم الإقامة الجبرية، له ديوان شعري مخطوط(يحي الشيخ صالح-أدب السجون والمنافي في الجزائر في فترة الاحتلال– 415).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

33. **كمال ناصر** : (1925-1973)شاعر فلسطيني وصحفي، سجن في الأردن عدة مرات وانظم في صفوف الكفاح بعد هزيمة 1967، له مجموعة من الدواوين منها "أنشودة الثأر"، "الجراح تغني"، اغتالته يد الغدر الإسرائيلي مع الرفاق، كمال عدوان ومحمد يوسف النجار، وعرفت الحادثة بمذبحة فردان. (عيسى فتوح – من أعلام الأدب العربي الحديث – دار الفاضل – دمشق - 1994 - 117-121 وأصداء النضال العربي في شعرنا المعاصر – 177).

34. **مبارك جلواح** : (190 - ولد بقلعة بني عباس قرب أقبو بولاية سطيف نشأ في بيئة محافظة وقرأ القرآن وبعض علوم العربية والدين على والده الذي كان من علماء عصره. استجاب في سن مبكرة للحركة الإصلاحية واتصل في الثلاثينيات بالشيخ عبد الحميد بن باديس. أرسل في وفد إصلاحي إلى باريس من أجل الدعوة إلى مبادئ جمعية العلماء. وظل يتردد على فرنسا من وقت لآخر قصد العمل.

35. **محمد بهجة الأثري** : شاعر عراقي ولد ببغداد عام 1904، تعلم في صباه التركية والإنكليزية وعلوم العربية، عاصر معاناة وطنه تحت حكم المستعمر وعملائه وعانى من ذلك، وكان من الرافضين لهذه السياسات، شارك في ثورة العراق عام 1941 نظم فيها قصيدة : ثورة 1941"، انتخب عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق عام 1931 وانضم إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام 1948، كما انتخب نائبا لرئيس المجمع العلمي العراقي عام 1949 (حميد المطيعي – العلامة محمد بهجة الأثري – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد - ط1- 1988 – 99 - ومحمد بهجة الأثري – ديوان ملاحم وأزهار الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة 1974 – المقدمة بقلم الشاعر عبد العزيز أباظة).

36. **محمد حبيب العبيدي** : (1882-1963) شاعر عراقي شهد الحربين العالميتين وما تلاهما، سجن عام 1919 في معسكرات الاعتقال بقصر النيل (مصر) وكتب شعرا في ذلك (حبيب العبيدي – ديوان ذكرى حبيب – مطبعة الجمهورية -الموصل - 1-10).

37. **محمد الحبيب الفرقاني** : (1922) أعطى النضال جل وقته، وعكس شعره مواقفه ونضاله، قضى معظم سني عمره في سجون الاستعمار ومرحلة الاستقلال الشكلي (من 51-1955 ثم 1963، 1967، 1969) حكم عليه بعشر سنوات سجنا. واصل نشاطه السياسي بعد خروجه فكان مفتشا لحزب الاستقلال بمراكش نجح في الانتخابات البرلمانية عام 1993. ويذهب حامد النساج إلى أن أغلب قصائد ديوانه "نجوم في يدي" كتب في السجن. (سيد حامد النساج- أدب التحدي السياسي في المغرب العربي – دار الرأي – بيروت – 121 وكتابه: الأدب العربي المعاصر في المغرب الأقصى – دار سعاد الصباح ط2 - 1992 - 154-183).

38. **محمد جميل شلش** : (1930-....) ولد في فضاء الخالص وواصل تعليمه الإعدادي في بعقوبة والجامعي في بغداد، اشتغل في التعليم وفي عام 1959 أقتيد إلى محكمة المهداوي مع من اتهموا بحادثة اغتيال عبد الكريم قاسم، وحكم عليه بثلاث سنوات، نظم خلالها ديوان"الحب والحرية" أيام حكم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الطاغية عبد الكريم قاسم – نشر بعضه في جريدة الحرية العراقية بتوقيع"أبو فراس" (محمد جميل شلش- ديوان الحب والحرية - صفحة الغلاف).

39. **محمد الحلوي** : شاعر مغربي ولد بفاس عام 1922، من شعراء الطليعة في المغرب الذين ألهبوا حماس الشعب وكانت له يد المستعمر بالمرصاد، إذ حكم عليه عام 1944 بالسجن سنة ونصف قضاها في المعتقلات مع الوطنيين من أبناء المغرب (تاريخ الشعر العربي الحديث – أحمد قبش – 221 والشعر الوطني المغربي في عهد الحماية – إبراهيم السولامي – 235) ومقدمة ديوان "أنغام وأصداء" للشاعر – دار السلمي للتأليف والترجمة والنشر – الدار البيضاء – ط1- 1965).

40. **محمد الشبوكي** : (1916-2000) محمد بن عبد الله الشبابكي المدعو الشبوكي. ولد بمنطقة ثليجان بالشريعة ولاية تبسة تتلمذ لوالده وحفظ جزءا من القرآن. ثم التحق بكتاب الأسرة وحفظ القرآن كله وعددا من المتون العلمية والشعر - واصل تعليمه في تونس وأحرز عل شهادة التحصيل من جامع الزيتونة عام 1942. عاد إلى الوطن معلما في المدارس الحرة لجمعية العلماء المسلمين، وكان مناضلا سياسيا وعضوا في جمعية العلماء ثم في مجلسها الإداري. ألقي عليه القبض عام 1956 بسبب نشاطه الثوري لستة أعوام. بعد خروجه من المعتقل درس في التعليم الثانوي وواصل نضاله في صفوف حزب جبهة التحرير الوطني. كان عضوا في المجلس الإسلامي الأعلى. وتولى مناصب إدارية مختلفة في ولايته. (محمد الشبوكي - ديوان الشيخ الشبوكي - منشورات المتحف الوطني للمجاهد - ترجمة صاحب الديوان - ذيل الكتاب).

41. **محمد سرور الصبان** : (1899-1972) شاعر سعودي، اعتقل 1929 بتهمة الميل إلى الأشرار، وبقي في سجنه ما يقارب السنة، عين أمينا لرابطة العلم الإسلامي في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز (الزركلي – الأعلام – 136/2).

42. **محمد الشاذلي** : خزنه دار (1299- 1373 / 1881- 1954) : محمد الشاذلي بن محمد المنجي بن مصطفى خزنه دار، شاعر تونسي (أصله من المماليك) نشأ في بلاط تونس وولي فيه بعض الأعمال ثم أُقيل أو استقال في خلال الحركة"الدستورية" إثر موت الأمير محمد الناصر (1340هـ)، فسلك طريق المعارضة السياسية مع ما يسمونه الاعتدال. قال عنه أحد الكتاب كان حليف الشعب وشاعر حركاته، كان آخر ما نظمه مقطوعة أرسلها إلى الصحف يوم وفاته يسمي فيها سياسة المقيم الفرنسي(سياسة التمنية) :

قالوا العميد يمني أن سوف تعطى حقوق

وليس صوت التمني مما لدينا يروق

(الأعلام – خير الدين الزر كلي دار العلم للملايين – بيروت ط5 – أيار (ماي) 1980- 155/6.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

43. **محمد محمود الزبيري** : (1919-1965) من الشعراء الثائرين المجاهرين بالرفض، سجن عام 1941 في الأهنوم واستشفع الإمام يحي فأطلق سراحه، عاد إلى السجن عام 1948 بعد فشل الانقلاب، وفر منه إلى الباكستان، ليعود عقب ثورة 1962 ويحتل مناصب سياسية مرموقة (وزير التربية والتعليم – نائب رئيس الوزراء لشؤون الأوقاف، اغتيل عام 1965(الزركلي – الاعلام -7/91 وعبد الستار الحلوجي – الزبيري شاعر اليمن – مطبعة الكيلاني 1968. وعز الدين إسماعيل الشعر المعاصر في اليمن - 33. و مقدمة الديوان).

44. **محمد مهدي الجواهري** : (1900-1998) ولد في النجف من أسرة عريقة في العلم والأدب والشعر، نظم الشعر في سن مبكرة، اشتغل بالتدريس والصحافة، دخل المجلس النيابي نائبا عن كربلاء واستقال منه سريعا، أبعد عن العراق مرات، عارض في جريدته سياسة بكر صدقي قائد انقلاب 1936 فتحين له الفرص وسجنه ثلاثة أشهر، ثم زار السجن مرة أخرى عام 1952 عقب الانتفاضة (محمد مهدي جواهري – الديوان – دار العودة – بيروت ط3 - 1982، 1/المقدمة).

45. **محمود درويش** : (1941-) شاعر فلسطيني معاصر انضم في أوائل حياته إلى جماعة "الأرض"ثم انتمى إلى التيار اليساري، وشارك في الكفاح الوطني الفلسطيني، تردد على السجون الإسرائيلية و لم يتجاوز العشرين (سجن الجملة قرب مدينة الناصرة سنة 1961، ثم سجن الرملة عام 1965 وسجن القدس بين عامي 65 و 1967 - وسجن الدامون عام 67 وعاد للمرة الخامسة للسجن عام 1969) ، وبعد خروجه من السجن فرضت عليه الإقامة الجبرية في حيفا، ولكنه فضل في الأخير الحرية فاتخذ من بلاد العالم مقاما متنقلا لأنه يحمل الوطن في قلبه . (غسان كنفاني – الآثار الكاملة – الدراسات الأدبية- المجلد 4 - مؤسسة غسان كنفاني للثقافة ط1 - ديسمبر 1977 - 321/4 . وياسين أحمد فاغور – الثورة في شعر محمود درويش – دار المعارف للطباعة والنشر –تونس -1989 – 69-70. والزر كلي -الأعلام- 1/ 126).

46. **مصطفى وهبى التل** : شاعر أردني (1899-1949) عانى مرارة السجن والنفي مرات بسبب مغاضبته للأمير ومعارضته للحكومة ومقاومته للمعاهدة الأردنية البريطانية، سجن عام 1923 في سجن معان العقبة وجدة ثمانية أشهر ونيفا، ثم في مطلع 1927 سجن شهورا بسبب قصيدة، ثم في 1942 سجن 40 يوما وكان يتقلب بين مناصب عالية (أمينا للأمير، كبيرا للمفتشين. بوزارة المعارف، حاكما إداريا وسجينا. (مصطفى وهبي التل – ديوان عشيات وادي اليابس – الأهلية للنشر والتوزيع – عمان – 1989 - المقدمة. والزركلي - الأعلام - 246/7. وأحمد قبش – تاريخ الشعر العربي الحديث - 446).

47. **مظفر النواب** : (1934 -) شاعر عراقي معاصر، ولد في بغداد من أسرة ثرية عين مدرسا بعد تخرجه من الجامعة وما لبث أن فصل بسبب انتمائه إلى الحزب الشيوعي العراقي وظل عاطلا عن العمل إلى ثورة 1958 حيث عين مفتشا واضطر أمام احتدام الصراع بين القوميين والشيوعيين إلى الهرب إلى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إيران عام 1963 ولكنه وقع في يد جهاز الأمن الإيراني "السافاك" وأخضع لتعذيب وحشي، ثم سلم إلى السلطات العراقية التي حكمت عليه بالإعدام ثم خفق الحكم إلى المؤبد، تنقل بين سجن نقرة السلمان والحلة واستطاع الفرار مع مجموعة من ذوي الأحكام المؤبدة بحفر خندق وظل متخفيا إلى عام 1968 حيث صدر عفو عن الهاربين وعاد إلى وظيفته مدرسا، ثم أعيد إلى السجن إثر حملة الاعتقالات التي لحقت بالشيوعيين، و لم يطل مكثه. غادر العراق بعد الإفراج عنه وأخذ يتنقل في البلاد العربية واستقر به المقام في سوريا بعدما منع من دخول أغلب بلاد الوطن العربي. (باقر ياسين - مظفر النواب حياته وشعره - دمشق - 1988 - 15 - 29).

48. **معين بسيسو** : (1926-1984) شاعر فلسطيني ولد في مدينة غزة وتلقى فيها تعليمه الابتدائي والثانوي. التحق بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عام 1952 وانخرط مبكرا في العمل الوطني وعمل في الصحافة والتدريس، سجن في المعتقلات المصرية بين فترتين (من 1955 إلى 1957 ومن 195 إلى 1963). حاز على جائزة اللوتس العالمية ووسام درع الثورة الفلسطيني، كان عضوا بالمجلس الوطني الفلسطيني. أصيب بنوبة قلبية حادة أثناء أدائه واجبه الوطني ولفظ أنفاسه إثرها في لندن يوم 1984/01/23. أرخ لكثير من صفحات حياته في كتابه دفاتر فلسطينية. (الموقع الالكتروني : / spartacu. Com / : http - nather. Htm.

- " " " " / gallery. Htm.

49. **مفدي زكريا** : شاعر جزائري (1908-1975) تفتح على الوطنية والنضال مند نعومة أظفاره في حضن عمه الشيخ صالح بن يحي(أحد مؤسسي الحزب الحر الدستوري في تونس)، واصل تعليمه في تونس وساهم في الحركة الثقافية والسياسية بمقالاته وقصائده التي كان ينشرها في الجرائد الجزائرية والتونسية على السواء، يدعوا فيها إلى يقظة الشعب الجزائري وترأس تحرير جريدة الشعب(لسان حال الحزب) تردد على السجن بين عامي 1937 و1959 خمس مرات منها اعتقاله عام 1937 بسبب نشاطه السياسي، قضى عامين خلف جدران بربروس ليعود إليه في 12 أفريل 1956 وظل ينتقل بينه وبين سجن البرواقية والحراش إلى أن تمكن من الفرار عام 1959. (محمد ناصر- مفدي زكريا – شاعر النضال والثورة – المطبعة العربية – غرداية – 1984- 7 - 36) والمرجع نفسه - ط2 - 63 و ما بعدها).

50. **نجيب الكيلاني** : طبيب وأديب مصري (1931-1995)، اعتقل عقب الحادثة المزعومة بمحاولة اغتيال عبد الناصر (1954) وتردد على : سجن قره ميدان – سجن أسيوط – السجن الحربي – سجن القناطر – وكتب فيها رواية "الطريق الطويل" ونال بها الجائزة الأولى، حصل على الإفراج الصحي، عمل بعد خروجه من السجن طبيبا، دون أن يتوقف عن الإبداع الأدبي. (حسين أدهم جرار وأحمد الجدع – أناشيد الدعوة الإسلامية – دار الوفاء ودار الضياء – الأردن - 1988 – 71 وما بعدها، ومجلة الأدب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإسلامي – سنة 3 – عدد 9 - 10 خاص بنجيب الكيلاني - 1416هـ-1996/ -يحي إبراهيم – نجيب الكيلاني والترجمة الذاتية -31-36).

51. **يوسف القرضاوي** : داعية مصري ولد عام 1926، تردد على السجون المصرية أربع مرات عام 1949 (عشرة أشهر) ثم عام 1954(شهرين ونصف) ليعود في السنة نفسها إلى السجن من 1954 إلى 1956(حوالي عشرين شهرا)، ثم عام 1962 (خمسين يوما)، له مؤلفات في مجال الدعوة الإسلامية وديوان شعر (يوسف القرضاوي- ديوان نفحات ولفحات دار الوفاء - دار الصحوة - القاهرة ط3 - 1989- المقدمة - 11-31 وأحمد عبد اللطيف الجدع وحسين أدهم جرار – شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث – مؤسسة الرسالة - بيروت - 1978- 7/3 وما بعدها).

-

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فهرس

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الموضـــوع	الصفحـة
- المقـدمـة :	- أ -
- الباب الأوّل : جدلية الحبس والسلطان والإبداع	01
• الفصـــــــــل الأوّل : الحـــــــــبس دراســـــــــة تاريخية.....	02
- تحديد مصطلح الحبس.....	03
- في المعاجم والقواميس : (الحبس - السجن - الأسر - الاعتقال - مرادفات أخرى)..	03
- في القرآن الكريم	12
- مؤسســـــــــــــة الســـــــــــــجن عـــــــــــــبر العصور.....	15
- عند الأمم الأخرى : المصريين القدامى - اليونان والرومان -الصينيين - الفرس - العراقيين	16
- عند العرب : في الجاهلية - في صدر الإسلام والخلافة في العصر الأمـــوي - في العصـــر العباسي في العصور الوسطى.....	20
- الحبس في العصر الحديث، طبيعته وأنواعه.....	41
- المؤسسات المغلقة.....	44
- " " شبه المفتوحة.....	45
- " " المفتوحة.....	
- أشهر سجون البلاد العربية.....	45
• الفصـــــل الثـــــاني : جدليـــــة الإبـــــداع بـــــين الحـــــبس والسلطان.....	53
- المثقف والسلطان، والحذر المتبادل.....	54
- الفقيه والسلطان، الصراع الدائم والنهايات المفجعة.....	57
- الفيلسوف والطبيب وتقلب الأحوال.....	61
-الكتاب والسلطان، مهنة الخديم ودرب الموادعة.....	62
- الشعر والسلطان، فلسفة الشعر بالسعر	64
- المثقف والحديث والسلطان، التأرجح بين المهادنة والمواجهة.....	66

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الموضـــوع	الصفحـة
- منزلة الحبس بينها.....	79
• الفصـــل الثالـــث : حصـــاد الشـــعراء مـــن تجربـــة الحـــبس	84
- الكتابة والحبس.....	85
- الشعراء الذين أرخوا لحبسياتهم أو أرخ لها.....	88
- " " لم يؤرخوا لها.....	100
- الباب الثاني : الموضوعات السياسية في شعر الحبسيات.....	105
• الفصـــــــــــــــل الأوّل : القضـــــــــــــــايا الوطنية.....	106
- الحرية وحب الوطن.....	107
- تواصل الشاعر السجين مع الشعب.....	118
- تجاوزه إلى القضايا العربية والإسلامية.....	131
- انفتاحه على القضايا الانسانية	150
• الفصـــــل الثـــــاني :صـــــورة الســـــلطان فـــــي الحبسيات.....	154
- صورة الحاكم.....	155
- صور من ممارسات الاستبداد.....	169
- صور أذناب السلطان وسدنته.....	181
• الفصـــــل الثالـــــث : بـــــين الشـــــاعر الســـــجين والسلطان.....	187
- محاورة السلطان ومجادلته.....	188
- التهديد والوعيد.....	191
- الدعوة إلى الثورة.....	193
- الدعاء عليه كآخر الحلول.....	202
- الباب الثالث : الموضوعات الذاتية في شعر	209

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحبسيات.....	
• الفصل الأوّل : السجن من الداخل.....	210
- من لحظة المباغتة حتى الوصول إلى السجن.....	211
- الحياة خلف الأسوار (غرف السجن - جدرانه - أثاثه - حشراته - نوافذه - أبوابه ومفاتيحه..	220
- طقوس السجن، نظامه وممنوعاته.....	228

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الموضـــوع	الصفحـة
- صراع الشاعر مع الظلام والنور المخنوق وتطلعه إلى العالم الخارجي.....	232
• الفصـــــــل الثـــــــاني : بـــــــين الشـــــــاعر والسجان.....	238
- صور من فنون العذاب وأساليب مصادرة الأجساد ومحاولات التدجين.....	239
- صورة السجان والجلاد.....	250
- تحدي الشاعر للسجن والسجان وطقوس السجن.....	259
- شرف السجن.....	272
- التحدي بالقصيدة.....	276
• الفصـــل الثالـــث : تجـــاوز محنـــة الحـــبس بصـــناعة فضـــاءات أخرى.....	283
- التواصل مع الأهل والأحباب (الأم - الأخت - الزوجة...)	284
- تحول السجن إلى ناد أدبي وفكري ومدرسة علمية، أو جامعة.....	306
- الهروب إلى ملاذات أخرى (الإيمان - الأمل- الطبيعة - الحلم).....	319
- الباب الرابع : شعرية الحبسيات.....	327
• الفصـــــــل الأوّل : المعجـــــــم الشـــــــعري ودلالاته.....	328
- الحبسية بين الموضوعية والفنيـــة.....	329
- المعجم الشعري ودلالاته.....	334
- لغـــة الثورة والتحدي.....	336
- معجم الخراب والفراغ والسكون.....	342
- فضاء الأمل المشرق.....	347
- انتهاك اللغة.....	355
- ظاهرة التنـــاص.....	359
• الفصـــــــل الثـــــــاني : الصـــــــورة	368

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإيقاعيـــة.....	
- الحضور الإيقاعي للأوزان.....	370
- ظاهرة التداخل العروضي.....	373
- " التقييد.....	379
- ظواهر إيقاعية أخرى	396

الموضـــوع	الصفحـة
- ظاهرة البتر الإيقاعي.....	397
- ظاهرة التدويـــر.....	401
• **الفصـــــــــــــل الثالـــــــــــث : الصـــــــــــور الشعرية**.....	414
- طبيعة الصور الشعرية.....	415
- التصوير بالموروث التاريخي.....	418
- " " الديني	437
- " " الشعبي.....	426
- " " الأسطوري	450
- **الخـــاتمة**.....	461
- **ملحق للتعريف بالشعراء**.....	465
- **قائمة المصادر والمراجع**.....	476

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com